

تفسير الثعالبى

المسمى

بالجواهر الحسان في تفسير القرآن

للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زبير الثعالبى المالكي

(٧٨٦ - ٨٧٥ هـ)

مقرأه أصوله على أربع نسخ خطية وعلمه عليه ورتب أجزائه

الشيخ علي محمد معوض
والشيخ عادل أحمد عبد الموجود

ومشارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور عبد الفلاح أبو سنة

خبير بمقاييس مجمع البحوث الإسلامية
ومفتي الجاهدين لأعلى الشؤون الإسلامية
ومفتي جامعة القاهرة بالازهر الشريف

الجزء الثامن

دار إحياء التراث العربي مؤسسة التاريخ العربي

بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

دار إحياء التراث العربي

بيروت حارة حريك شارع دكاش بناية كليوباترا - بملكه

هاتف: 836766 - 836696 - 836551

تلكس: 23644 ص. ب: 11/7957 بيروت - لبنان

فاكس: 2124783422 001

تفسير الثعالبي
الجزء الثالث

سورة الأعراف

مَكِّيَّةٌ، كلها. قاله الضحاك^(١)، وغيره.

وقال مقاتل: هي مَكِّيَّةٌ، إلا قوله سبحانه: «وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ» إلى قوله: «مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ» فإن هذه الآيات مدنية^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿الْمَصَّ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم القول في تَفْسِيرِ الحروف المقطعة في أوائل السور، والْحَرَجُ: الضيقُ ومنه: الْحَرَجَةُ؛ الشجر الملتف الذي قد تَضَايَقَ، والْحَرَجُ هاهنا يعم الشُّكَّ، والخوف، والهم، وكل ما يَضِيقُ الصدر، والضمير في «منه» عائد على الكتاب، أي: بسبب من أسبابه.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ اعتراض في أثناء الكلام، ولذلك قال بعض الناس: إن فيه تَقْدِيمًا وتأخيرًا.

وقوله: ﴿وَذِكْرَى﴾ معناه تَذَكُّرٌ وإرشاد.

وقوله سبحانه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَمْرٌ يعمُ جَمِيعَ الناس، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ﴾، أي: من دون ربِّكُمْ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يريد: كل مَنْ عُبِدَ، واتَّبَعَ من دون الله، و﴿قَلِيلًا﴾: نعت لمصدر نصب بفعل مُضْمَر.

وقال مكي: هو منصوب بالفعل الذي بَعْدَهُ، و«ما»^(٣) في قوله: ﴿ما تذكرون﴾

مصدرية.

(١) ذكره ابن عطية (٢/٣٧٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٢/٣٧٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٢/٣٧٣).

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ
بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ قالت
فرقة: المراد وكم من أهل قرية.

وقالت فرقة: اللفظ يَتَضَمَّنُ هَلَاكَ القرية وأهلها، وهو أعظم العقوبة، و«الفاء» في
قوله سُبْحَانَهُ: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ لترتيب القول فقط.

وقيل: المعنى أَهْلَكْنَاهَا بالخذلان، وعدم التوفيق، فجاءها بَأْسُنَا بعد ذَلِكَ و﴿بَيِّنًا﴾،
نصب على المصدر في مَوْضِع الحال، و﴿قَائِلُونَ﴾ من القائلة، وإنما خَصَّ وَقْتِي
الدَّعَاةِ^(١) والسكون؛ لأن مجيء العذاب فيهما أَفْظَعُ وَأَهْوَلُ؛ لما فيه من البَغْتَةِ والفَجْأَةِ.

قال أبو^(٢) حيان: أو للتفصيل، أي: جاء بعضهم بَأْسُنَا لَيْلًا، وبعضهم نَهَارًا^(٣) انتهى.
وقوله عز وجل: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ هذه
الآية يَتَبَيَّنُ منها أن المراد في الآية قبلها أهل القَرْى، والدعوى^(٤) في كلام العرب تأتي
لمعنيين:

أحدهما: الدعاء، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٥].

والثاني: الادِّعاء، وهذه الآية تَحْتَمِلُ المعنيين، ثم استثنى سُبْحَانَهُ من غير الأول كأنه
قال: لم يكن منهم دُعَاءٌ أو ادِّعَاءٌ إِلَّا الإقرار^(٥)، والاعتراف، أي: هذا كان بَدَلُ الدعاء،

(١) الدَّعة: الخفض من العيش والراحة، والهاء عوض من الواو.

ينظر: «لسان العرب» (٤٧٩٥) (ودع).

(٢) ينظر «البحر المحيط» (٢٦٩/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٧٤/٢) بنحوه.

(٤) هي قول مقبول يقصد به الإنسان إيجاب حق له على غيره، سواء كان ذلك حال المنازعة أو لا، وتقول
العرب: ادعى كذا ادعاء: زعم أن له حقًا أو باطلاً، والاسم منه الدعوى، والجمع: دعاوى بالفتح،
ودعاوى بالكسر، وهو الراجح عند سيبويه عند الإضافة إلى الضمير، وغلب الكسر في دعوى النسب،
والفتح في المأدبة، واسم المدعي يتناول في العرف من لا حجة له، ولا يتناول من له حجة، ولذا يقال
لمسيمة الكذاب: مدعي النبوة، ولا يقال ذلك بالنسبة للنبي ﷺ؛ لأن نبوته ثبتت بالمعجزة، فالمطالب
بحقه قبل قيام حجته يسمى مدعيًا، وبعدها يسمى محققًا.

ينظر: «الدعوى» لشيخنا: عبد الحميد سليمان الدسوقي.

(٥) الإقرار لَعَنَةً: إفعال، من قرَّ الشيء: إذا ثبت - يقر، من باب ضرب وعلم وثبت وسكن، وأقره في مكانه: أثبت =

والادعاء، واعترافهم.

وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ هو في المدة التي ما بين ظُهورِ العَذَابِ إلى إتيانه على أنفسهم، وفي ذلك مُهَلَّةٌ بحسبِ نَوْعِ العذابِ تُتَّسَعُ لهذه المَقَالَةِ، وغيرها.

وروى ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما هَلَكَ قَوْمٌ حتى يعذروا من أنفسهم»^(١).

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْضَنَّهُ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَافِينَ ﴿٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ...﴾ الآية وعيد من الله عزَّ وجلَّ لجميع العالم أخبر سبحانه أنه يسأل الأمم أجمع عما بلغ إليهم عنه وعن جميع أعمالهم، ويسأل النبيين عما بَلَّغُوا، وهذا هو سُؤالُ التقرير، فإن الله سبحانه قد أحاطَ علماً بكل ذلك قبل السؤال، فأما الأنبياءُ والمؤمنون، فيعقبهم جوابهم رَحْمَةً وكرامة،

= بعد أن كان مُزَلَّزلاً، وأقرَّ له بحقه: أدعَنَ واعترف، إذاً فالإقرار إثبات لما كان متزلزلاً بين الإقرار والجحود.

ينظر: «المصاح» (٧٨٨/٢)، «لسان العرب» (٣٥٨٢/٥)، «أنيس الفقهاء» ص: (٢٤٣). واصطلاحاً:

عرفه الشافعية بأنه: إخبار بحق على المقر.

وعرفه المالكية بأنه: خبر يوجب حكم صدقه على قائله فقط بلفظه، أو لفظ نائبه.

وعرفه الحنفية بأنه: إخبارٌ بحقٍ لآخر، لا إثبات له عليه.

وعرفه الحنابلة بأنه: إظهار مكلف مختار ما عليه بلفظ أو كتابة، أو إشارة أخرس، أو على موكله، أو موليه، أو موثره بما يمكن صدقه.

ينظر: «حاشية الباجوري» (٢/٢)، «الخرشي» (٨٦/٦ - ٨٧)، «الدرر» (٣٥٧/٢)، «متهى الإرادات» (٦٨٤/٢).

وَمَحَاسِنُ الإقرار كثيرة منها ما يأتي:

(أ) إسقاط واجب النَّاسِ عن ذِمَّتِهِ، وقطع ألسنتهم عن مَذْمُوتِهِ.

(ب) إيصال الحقِّ إلى صاحبه، وتبليغ المكسوب إلى كاسبه، فكان فيه إنفاق صاحب الحق، وإرضاء خالق الخلق.

(ج) إحماد النَّاسِ المقرَّ بصدق القول، ووصفهم إِيَّاهُ بوفاء العهد، وإنالة النول.

(د) حُسْنُ المُعاملة بينه وبين غيره.

(١) أخرجه الطبري (٤٢٩/٥) برقم: (١٤٣٢٨)، وذكره ابن عطية (٣٧٤/٢)، وابن كثير (٢٠١/٢) ط:

«دار إحياء الكتب العربية»، والسيوطي (١٢٦/٢).

وأما الكفار، ومن نفذ عليه الوَعِيد من العَصَا، فيعقبهم جوابهم عَذَاباً وتوبيخاً.

* ت * : وروى أبو عمر بن عبد البر^(١) في كتاب «فَضْلِ الْعِلْمِ» بِسَنَدِهِ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: بَلَّغْنِي أَنَّ الْعُلَمَاءَ يُسْأَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تُسْأَلُ الْأَنْبِيَاءُ يَعْنِي عَنْ تَبْلِيغِ الْعِلْمِ/ انْتَهَى.

وخرج أبو نُعَيْمٍ الْحَافِظُ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَخْطُو خُطْوَةً إِلَّا يُسْأَلُ عَنْهَا مَا أَرَادَ بِهَا»^(٢).

وقد ذكرنا حَدِيثَ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي بَرزَةَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَعَا اللَّهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيُسْأَلُ عَنْ جَاهِهِ، كَمَا يُسْأَلُ عَنْ عَمَلِهِ»^(٣). انْتَهَى.

وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، قَالَ: بَلَّغْنِي أَنَّ أَوَّلَ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ الْمَرْءِ، الصَّلَاةُ، فَإِنْ قِيلَتْ مِنْهُ تُنْظَرُ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عَمَلِهِ، وَإِنْ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ لَمْ يُنْظَرْ فِي شَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَهٍ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ مَرْفُوعاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ» قَالَ: يَقُولُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَلَائِكَةِ انْظُرُوا فِي صَلَاةِ عَبْدِي أَمْتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا، فَإِنْ كَانَتْ تَامَةً كُتِبَتْ تَامَةً، وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْءٌ، قَالَ اللَّهُ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ قَالَ: أَتَمَّوْا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، ثُمَّ تَوَخَّذِ الْأَعْمَالَ^(٤) عَلَى ذَلِكَ. انْتَهَى.

وَاللَّفْظُ لِأَبِي دَاوُدَ.

وَقَالَ النَّسَائِيُّ: ثُمَّ سَاطِرُ الْأَعْمَالِ تَجْرِي عَلَى ذَلِكَ انْتَهَى مِنْ «التَّذَكُّرَةِ»^(٥).

وَقَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ: «فَلَنَنْقُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ» أَي: فَلَنَسْرِدَنَّ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ قِصَّةً قِصَّةً، «بِعِلْمٍ» أَي: بِحَقِيقَةٍ وَيَقِينٍ «وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ».

«وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٤٩٣/١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢١٢/٨)، عن الأعمش مرسلًا.

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٤٩/١٠)، وقال: رواه الطبراني في «الصغير»، وفيه يوسف بن يونس أخو أبي مسلم الأفسس، وهو ضعيف جداً.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ينظر: «التَّذَكُّرَةُ» (٣٧٩/١).

قَالُوا لَكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمُنَا الْحَقُّ﴾ التقدير: والوزن الحق ثابت، أو ظاهر يومئذ، أي يوم القيامة.

قال جمهور الأمة: إِنَّ اللَّهَ عز وجل أراد أن يبين لعباده أن الحِسَابَ والنظر يوم الْقِيَامَةِ هو في غَايَةِ التحرير، ونهاية الْعَدْلِ بِأَمْرٍ قد عرفوه في الدُّنْيَا، وعهده أفعاهم، فميزان الْقِيَامَةِ له عمود وَكِفْتَانِ عَلَى هَيْئَةِ مَوَازِينِ الدُّنْيَا، جَمَعَ لفظ «المَوَازِين»؛ إذ في الميزان مَوَزُونَاتٌ كثيرة، فكأنه أراد التَّنْبِيهَ عليها.

قال الفخر^(١): والأظْهَرُ إثبات مَوَازِينٍ في يوم القيامة لا ميزان واحد، لظواهر الآيات، وحمل الموازين على الموزنات، أو على الميزان الواحد يوجبان الْعُدُولَ عن ظَاهِرِ اللفظ، وذلك إِنَّمَا يُصَارُ إِلَيْهِ عِنْدَ تَعَدُّلِ حَمْلِ الْكَلَامِ عَلَى ظَاهِرِهِ، ولا مانع هاهنا منه، فوجب إِجْرَاءُ اللفظ على حقيقته، فكما لم يمتنع إثبات ميزانٍ له كِفْتَانِ، فكذلك لا يمتنع إثبات موازين بهذه الصِّفَةِ، وما الموجب لثَرْكِهِ، والمصير إلى التأويل. انتهى. قال أبو حَيَّان^(٢): موازينه جُمِعَ باعتبار المَوَزُونَاتِ^(٣)، وهذا على مذهب الجمهور؛ في أن الميزان واحد.

وقال الحسن: لكل واحد ميزان^(٤)، فالجمع إذن حَقِيقَةٌ انتهى.

والآيات هُنَا الْبَرَاهِينُ والأوامر والنواهي.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ...﴾ الآية خطاب لجميع الناس، والمعاش: بكسر الياء دون هَمْزٍ جمع معيشة، وهي لفظة تعم جميع المأكول الذي يُعَاشُ به، والتحرّف الذي يُؤَدِّي إِلَيْهِ، و«قليلًا» نصب بـ «تشكرون» ويحتمل أن تكون «ما» مع الفعل بتأويل الْمَضْدَرِّ، و«قليلًا» نعت لِمَضْدَرٍ محذوف، تقديره: شكرًا قليلًا شكركم، أو شكرًا قليلًا تشكرون.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٣/١٤).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٢٧١/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٧٦/٢) بنحوه.

(٤) ذكره ابن عطية (٣٧٦/٢) بنحوه.

مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعُدَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَرَوْهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْهُورًا لَمَنْ يَبْعَثُ فِيهِمْ لَأُمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم...﴾ الآية: هذه الآية معناها التثنية على مواضع العبارة، والتعجب من غريب الصنعة، وإسداء النعمة.

واختلف العلماء في ترتيب هذه الآية؛ لأن ظاهرها/ يَقْتَضِي أَنْ الْخَلْقَ وَالتَّصْوِيرَ لِبْنِي آدَمَ قَبْلَ الْقَوْلِ لِلْمَلَائِكَةِ أَنْ يَسْجُدُوا، وقد صححت الشريعة أن الأمر لم يكن كذلك، فقالت فرقة: المراد بقوله سبحانه: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ آدم، وإن كان الخطاب لبنيه.

وقال مجاهد: المعنى: ولقد خلقناكم، ثم صورناكم في صلب آدم، وفي وقت استخراج ذرية آدم من ظهره أمثال الذر في صورة البشر^(١)، ويترتب في هذين القولين أن تكون «ثم» على بابها في الترتيب، والمهلة.

وقال ابن عباس، والربيع بن أنس: أما «خلقناكم» فآدم، وأما «صورناكم» فذريته في بطن الأمهات^(٢).

وقال قتادة، وغيره: بل ذلك كله في بطن الأمهات من خلق، وتصوير^(٣)، و«ثم» لترتيب الأخبار بهذه الجملة لا لترتيب الجمل في أنفسها.

وقوله سبحانه: ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ * قال ما مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قال فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قال أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ * قال إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قال فَبِمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعُدَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * تقدم الكلام على قَصَصِ الآية في «سورة البقرة».

(١) أخرجه الطبري (٤٣٧/٥) برقم: (١٤٣٥٦) بلفظ: «في صلب آدم»، وذكره ابن عطية (٣٧٨/٢)، وذكر نحوه البغوي (١٥٠/٢) بلا نسبة.

(٢) أخرجه الطبري (٤٣٦/٥)، برقم: (١٤٤٣ - ١٤٤٤)، وذكره ابن عطية (٣٧٨/٢)، وذكره ابن كثير (٢٠٣/٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٤/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٧٨/٢).

«وما» في قوله: ﴿ما منعك﴾ استفهام على جهة التوبيخ والتقريع، و«لا» في قوله: ﴿ألا تسجد﴾ قيل: هي زائدة، والمعنى: ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ، وكذلك قال أبو حَيَّان^(١): إنها زائدة^(٢)، كهي في قوله تعالى: ﴿لثَلَا يَغْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩].

قال: ويدل على زيادتها سُقُوطُهَا في قوله تعالى: ﴿ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] في «ص» انتهى. وجواب إبليس اللعين ليس بمُطَابِق لما سئل عنه، لكن [لما] جاء بِكَلَامٍ يتضمن الجَوَابَ والحجة، فكأنه قال: منعني فَضْلِي عليه، إذ أنا خير منه، وظن إبليس أن النار أَفْضَلُ من الطين، وليس كذلك بل هما في دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ من حيث إنهما جَمَادٌ مخلوق، ولما ظن إبليس أن صُعود النار، وَخَفَّتْهَا يَقتضي فَضْلاً على سُكُونِ الطين وبلادته، قَاسَ أن ما خُلِقَ منها أَفْضَلُ مما خُلِقَ من الطين، فأخطأ قياسه، وذهب عليه أن الروح الذي نُفِخَ في آدم ليس من الطين.

وقال الطبري^(٣): ذهب عليه ما في الثَّارِ من الطَّيْنِ، والخِفَّةِ، والاضطراب، وفي الطين من الوَقَارِ، والأَنَاءِ والجَلَمِ، والتثبوت وروي عن الحسن، وابن سيرين أنهما قالوا: أول مَنْ قَاسَ إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بِالْقِيَاسِ^(٤)، وهذا القولُ منهما ليس هو بإنكار للقياس^(٥). وإنما خُرِّجَ كلاهما نَهياً عما كان في زمانهما من مَقَائِيسِ الْخَوَارِجِ

- (١) ينظر: «البحر المحيط» (٢٧٣/٤).
- (٢) ذكره ابن عطية (٣٧٨/٢)، ولم يعزه لأحد.
- (٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٤٠/٥).
- (٤) أخرجه الطبري (٤٤١/٥)، برقم: (١٤٣٦٠)، وبرقم: (١٤٣٦١)، بلفظ: «قاس إبليس، وهو أول من قاس»، وذكره ابن عطية (٣٧٩/٣)، والبغوي (١٥٠/٢)، وذكره ابن كثير (٢٠٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٤/٣) عن الحسن نحوه.
- (٥) ينظر: الكلام على القياس في: «البرهان» لإمام الحرمين (٧٤٣/٢)، «البحر المحيط» للزركشي (٥/٥)، «الإحكام في أصول الأحكام للأمدى» (١٦٧/٣)، «سلاسل الذهب» للزركشي ص: (٣٦٤)، «التمهيد» للأسنوي ص: (٤٦٣)، «نهاية السؤل» له (٢/٤)، «زوائد الأصول» له ص: (٣٧٤)، «منهاج العقول» للبدخشي (٣/٣)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري ص: (٢١١)، «التحصيل من المحصول» للأزموي (١٥٥/٢)، «المنحول» للغزالي ص: (٣٢٣)، «المستصفى» له (٢٢٨/٢)، «حاشية البنانى» (٢٠٢/٢)، «الإبهاج» لابن السبكي (٣/٣)، «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٢/٤)، «حاشية المطار على جمع الجوامع» (٢٣٩/٢)، «المعتمد» لأبي الحسين (١٩٥/٢)، «إحكام الفصول من أحكام الأصول» للباجي ص: (٥٢٨)، «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٣٦٨/٧)، «أعلام الموقعين» لابن القيم (١٠١/١)، «التحرير» لابن الهمام ص: (٤١٥)، «تيسير التحرير» لأمير باد شاه (٢٦٣/٣) «التقرير والتحرير» لابن أمير الحاج (١١٧/٣).

وغيرهم، فأرادا حمل الناس على الجأدة.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾ الآية: يظهر منه أنه أهبط أولاً، وأخرج من الجنة، وصار في السماء؛ لأن الأخبار تظاهرت أنه أغوى آدم وحواء من خارج الجنة، ثم أُمِرَ آخرًا بالهبوط من السماء مع آدم، وحواء، والحية. وقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ حكم عليه بضد معصيته التي عصى بها، وهي الكبرياء، فعوقب بالحمل عليه، بخلاف شهوته، وأمله والصغار: الذل قاله السدي.

ب ١٨٥ ومعنى: ﴿أَنْظِرْنِي﴾ أْخَرْنِي^(١) فَأَعْطَاهُ اللَّهُ النَّظِرَةَ إِلَى النَفْخَةِ الْأُولَى. قاله/ أكثر الناس^(٢) وهو الأصح والأشهر في الشُّرْع.

وقوله: ﴿فَبِمَا﴾ يريد به الْقَسَمَ، كقوله في الآية الأخرى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص: ٨٢] و﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ قال الجمهور: معناه: أضللتني من الغي، وعلى هذا المعنى قال محمد بن كَنْبِ القرظي: قاتل الله القدرية لِإِبْلِيسَ أعلم بالله منهم، يُرِيدُ في أنه علم أن الله يَهْدِي وَيُضِلُّ^(٣).

وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ﴾ المعنى: لاعترضنَّ لهم في طريق شرعك، وعبادتك، ومنهج النجاة، فَلَأُضِدَّنْهُمْ عنه.

ومنه قوله عليه السلام: «إن الشيطان قَعَدَ لابن آدمَ بِأَطْرَقِهِ»^(٤) نَهَاهُ عن الإسلام، وقال: تَتْرُكُ دِينَ آبَائِكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، فَنَهَاه عن الهَجْرَةَ فقال: تَدْعُ أَهْلَكَ وَبَلَدَكَ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، فَنَهَاه عن الجِهَادِ، فقال: تُقْتَلُ وتترك وَلَدَكَ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ^(٥)... الحديث.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا

(١) وذكره ابن عطية (٣٧٩/٢)، والبغوي (١٥١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٤٢/٥)، برقم: (١٤٣٦٥) نحوه، وذكره ابن عطية (٣٧٩/٢)، والبغوي (١٥١/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٤٤٤/٥)، برقم: (١٤٣٦٨)، وذكره ابن عطية (٣٨٠/٢).

(٤) هي جمع طريق على التأنيث؛ لأن الطريق تذكر وتؤنث، فجمعه على التذكير: أطرقة: كرجف وأرغفة، وعلى التأنيث: أطرُق، كيمين وأيمن.

ينظر: «النهاية» (١٣٣/٣).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبه (٢٩٣/٥)، والنسائي (٢١/٦ - ٢٢)، كتاب «الجهاد»، باب: ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، وابن حبان (١٦٠١ - موارد)، والطبراني في «الكبير» (١٣٨/٧)، من حديث سيرة بن أبي الفاكه.

تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْذُورًا لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١﴾ مقصد الآية أن إبليس أَخْبَرَ عن نفسه أنه يَأْتِي إِضْلَالًا بني آدم من كُلِّ جِهَةٍ، فعبر عن ذلك بِالْفَافِ تَقْتَضِي الإِخَاطَةِ بِهِمْ، وفي اللفظ تَجَوُّزٌ، وهذا قَوْلُ جَمَاعَةٍ من المفسرين.

قال الفخر^(١): وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: على صِرَاطِكَ. أجمع النحاة على تقدير «على» في هذا الموضع. انتهى.

وقوله: ﴿وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أخبر اللعين أن سَعَايَتَهُ تفعل ذلك ظَنًّا منه، وتوسُّمًا في خِلْقَةِ آدم حين رأى خِلْقَتَهُ من أشياء مختلفة، فعلم أنه سَتَكُونُ لَهُمْ شَيْئًا تَقْتَضِي طَاعَتَهُ، كَالْغُلِّ، وَالْحَسَدِ، وَالشَّهَوَاتِ، ونحو ذلك.

قال ابن عباس، وقتادة: إلا أن إبليس لم يَقُلْ: إنه يَأْتِي بني آدم من فَوْقِهِمْ، ولا جعل الله له سبيلًا إلى أن يَحُولَ بينهم وبين رحمة الله وعفوه ومَنِّهِ، وما ظنه إبليس صدقه الله عز وجل^(٢).

ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠] فجعل أكثر العالم كَفَرَةً، وَبَيَّنَّه قَوْلُهُ ﷺ في الصَّحِيح: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ، فيقول: يَا رَبِّ وَمَا بَعَثَ النَّارِ، فيقول: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتَسْعِينَ إِلَى النَّارِ، وواحدًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(٣).

ونحوه مما يخصُّ أمة نبينا محمد ﷺ: «ما أنتم في الأمم إلا كالشُّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثُّورِ الْأَسْوَدِ»^(٤) و﴿شَاكِرِينَ﴾ معناه: مُؤْمِنِينَ؛ لأن ابن آدم لا يَشْكُرُ نِعْمَةَ اللَّهِ إِلَّا بِأَن يُؤْمِنَ. قاله ابن عباس وغيره^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة ﴿مَذْذُورًا﴾ أي مَعِييًا ﴿مَذْذُورًا﴾؛ أي: مقصيًا مبعداً.

﴿لِمَنْ تَبِعَكَ﴾ بفتح اللام هي لام قَسَمٍ.

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/١٤).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/١٤).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ذكره ابن عطية (٣٨١/٢).

وقال أبو حيان^(١): الظاهر أنها الموطئة للقسم^(٢)، و«من» شرطية في موضع رفع بالابتداء، وحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه، ويجوز أن تكون لام ابتداء، و«من» موصولة في موضع رفع بالابتداء، والقسم المحذوف، وجوابه، وهو «لأملأن» في موضع خبرها. انتهى.

وقال الفخر^(٣): وقيل / : ﴿مَذْمُومًا﴾، أي: محقوراً؛ فالمذموم المحقر. قاله الليث.

١١٨٦

وقال ابن الأنباري^(٤): المذموم المذموم.

وقال الفراء: أذأمتُهُ إذا عَيَّنتُهُ. انتهى.

وباقى الآية بَيَّنَّ. اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء، وسوء القضاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء.

﴿وَبَكَادُمْ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) فَوَسَّسَ لِمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لِمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾

وقوله جل وعلا: ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾

إذا أمر الإنسان بشيء، وهو متلبس به، فإنما المقصد من ذلك أن يستمر على حاله، ويتمادى في هيئته.

وقوله سبحانه لآدم: ﴿اسكن﴾ هو من هذا الباب، وقد تقدّم الكلام في «سورة البقرة» على «الشجرة» وتعيينها، وقوله سبحانه: «هذه» قال (م): الأضل هذي، والهاء بدل من الياء، ولذلك كسرت الذال، إذ ليس في كلامهم هاء تأنيث قبلها كسرة انتهى.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٢٧٨/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٨٢/٢).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٧/١٤).

(٤) عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، كمال الدين الأنباري، ولد في ٥١٣هـ، من علماء اللغة والأدب وتاريخ الرجال، كان زاهداً عفيفاً، لا يقبل من أحد شيئاً، له مصنفات منها: «نزهة الألباء في طبقات الأدباء»، «لمعة الأدلة»، «الميزان»، توفي في ٥٧٧هـ.

ينظر: «الفوات» (٢٦٢/١)، «بغية الوعاة» (٣٠١)، «الوفيات» (٢٧٩/١)، «أدب اللغة» (٤١/٣)، «الأعلام» (٣٢٧/٣).

وقوله عز وجل: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمَهُمَا﴾^(١) الوَسْوَسَةُ الحديث في إخفاء همساً وإسراراً من الصوت، والوسواس صَوْتُ الحُلِيِّ، فشبه الهمس به، وسمى إلقاء الشيطان في نَفْسِ ابن آدم وَسْوَسَةً، إذ هي أَبْلَغُ الإسرار وأخفاه. هذا في حال الشيطان معنا الآن، وأما مع آدم، فممكّن أن تكون وَسْوَسَةً بِمُحَاوَرَةٍ خفية، أو بإلقاء في نَفْسٍ، واللام في «ليبدي» هي في قول الأكثرين لام الصَّيْرُورَةِ والعاقبة، ويمكن أن تكون لام «كي» على بابها^(٢).

وما ﴿وُورِيَ﴾ معناه ما ستر من قولك: وارى يُورِي إذا ستر، والسَّوَاءُ الْقَرْجُ والدُّبَرُ، ويشبه أن يسمى بذلك؛ لأن منظره يسوء.

وقالت طائفة: إن هذه العبارة إنما قصد بها أنها كُشِفَتْ لهما مَعَاتِيُهُمَا، وما يسوءهما، ولم يقصد بها العورة، وهذا القول محتمل، إلا أن ذَكَرَ خُصِفَ الْوَرَقِ يَرُدُّهُ إِلَّا أَنْ يُقَدَّرَ الضمير في ﴿عليهما﴾ عائد على بدنيهما فيصح.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا...﴾ الآية، هذا القول المَخْكِيُّ عن إبليس يدخله من التأويل ما دَخَلَ الْوَسْوَسَةُ، فممكّن أن يقول هذا مخاطبةً وَجَوَّاراً، ومممكّن أن يقولها إلقاءً في النفس، وَوَحْيًا.

و﴿إلا أن﴾ تقديره عند سبويه والبصريين: إلا كراهية أن، وتقديره عند الكوفيين: ^(٣) «إلا أن لا» على إضمار «لا»، ويرجح قولُ البصريين أن إضمار الأسماء أَحْسَنُ من إضمارِ الحروف.

وقرأ جمهور الناس «مَلَكَيْنِ» بفتح اللام.

وقرأ ابن عباس: «مَلِكَيْنِ»^(٣) بكسرهما، ويؤيده قوله: ﴿وَمُلْكٌ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]

(١) في هذه اللام قولان:

أظهرهما أنها لام العلة على أصلها، لأن قصد الشيطان ذلك. وقال بعضهم: اللام للضرورة والعاقبة، وذلك أن الشيطان لم يكن يعلم أنهما يعاقبان بهذه العقوبة الخاصة، فالمعنى: أن أمرهما آيل إلى ذلك. والجواب أنه يجوز أن يعلم ذلك بطريق من الطرق.
ينظر: «الدر المصون» (٢٤٧/٣).

(٢) وقول البصريين أولى: لأن إضمار الاسم أحسن من إضمار الحرف.

(٣) وقرأ بها يحيى بن أبي كثير، والضحاك، والحسن بن علي، والزهرى، وابن حكيم.
ينظر: «الشواذ» ص: (٤٨) و«البحر المحيط» (٢٨٠/٤)، و«الدر المصون» (٢٤٨/٣).

وقال بعض الناس: يؤخذ من هذه الألفاظ أن الملائكة أفضل من البشر، وهي مسألة اختلف الناس فيها، وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

و﴿قاسمهما﴾ أي: حلف لهما بالله، وهي مفاعلة، إذ قبول المحلوف له اليمين كالقسم.

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبَّنَا طَلَعْنَا نَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهِ لَنَا وَزَعَمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ قال: * ع^(١): * يشبه عندي أن تكون هذه استعارة من الرجل يدلي آخر من هوة بحبل قد أرم أو سبب ضعيف يغتر به، فإذا تدلى به، وتورك عليه، انقطع به، وهلك، فيشبه الذي يغتر بالكلام حتى يصدقه، فيقع في مصيبة بالذي يُدلي من هوة بسبب ضعيف.

وقوله سبحانه: ﴿بَدَتْ﴾ قيل: تمزقت عنهما ثياب الجنة وملابسها، وتطأيرت تبرياً منهما، و﴿يَخْصِفَانِ﴾ معناه: يلصقانهما، والمخصف الإشفى^(٢) وضم الورق بعضه إلى بعض أشبه بالخرز منه بالخياطة.

قال البخاري: يَخْصِفَانِ يُولِفَانِ الْوَرَقَ بعضه إلى بعض / انتهى. وهو معنى ما تقدم.

١٨٦ ب

وروى أبي عن النبي ﷺ أن آدم عليه السلام كان يمشي في الجنة كأنه النخلة السحوق^(٣) فلما أكل من الشجرة وبَدَتْ له حاله قَرَّ على وجهه، فأخذت شجرة بشعر رأسه، فقال لها: «أرسليني» فقالت: ما أنا بمرسلتك، فناداه ربه جَلَّ وَعَلَا أَمْنِي تَفَرُّ يا آدم؟ فقال: لا يَا رَبِّ، ولكن أَسْتَحْيِيكَ، فقال: أما كان لك فيما مَنَحْتُكَ من الجنة مندوحة عما حرمت عليك. قال: بلى يا رب، ولكن وَعِزَّتْكَ مَا ظَنَنْتُ أَنْ أَحْدَا يَخْلِفُ بِكَ كَاذِبًا، قال:

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٨٥).

(٢) الإشفى: فغلى، وهو أداة للإسكاف، والجمع: أشافي.

ينظر: «لسان العرب» (٨٥) (أشف).

(٣) أي: الطويلة التي بعد ثمرها على المُجْتَنِي. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٤٧).

فبِعِزَّتِي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كذا^(١).

وقوله: ﴿عن تلكما﴾ بِحَسَبِ اللفظ أنه إنما أشار إلى شَجَرَةٍ مخصوصة، ﴿وأقل لكما: إن الشيطان لَكَمَا عدو مُبِينٌ﴾ إشارة إلى الآية التي في «طه» في قوله: ﴿فلا يُخْرِجُكُما من الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧] وهذا هو العهد الذي نَسِيَهُ آدَمُ على مَذْهَبٍ من جعل النسيان على بابه، وقولهما: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ اعتراف من آدَمَ وحواء عليهما السلام وَطَلَبٌ للتوبة، والستر، والتغمد بالرحمة، فطلب آدَمُ هذا، فأجيب، وطلب إبليس النُظْرَةَ، ولم يطلب التُوبَةَ، فوكل إلى سوء رأيه.

قال الضحاك وغيره: هذه الآية هي الكَلِمَاتُ التي تلقى آدَمُ من رَبِّهِ، وقوله عز وجل: ﴿قال اهبطوا بغضكم لِيُغْضِ عَدُوٌّ﴾ الْمُخَاطَبَةُ بقوله: ﴿اهبطوا﴾.

قال: أبو صَالِحٍ، والسدي، والطبري، وغيرهم: هي لآدَمَ، وحواء، وإبليس، والحية.

وقالت فرقة: هي مخاطبة لآدَمَ وذريته، وإبليس وذريته.

قال ع * * (٢): وهذا ضَعِيفٌ لعدمهم في ذلك الوقت.

* ت * : وما ضعفه رحمه الله صَحَّحَهُ في «سورة البقرة»، فتأمله هناك، وعداوة الحية معروفة.

روى قتادة عن النبي ﷺ: «ما سَأَلَمْتَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْتَاهُنَّ»^(٣).

﴿يَبْنِيْ آدَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُّوْرِى سَوْءَ كُفْرِكُمْ وَرِثًا وَلِبَاسُ الْتَقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِنْ ءَايٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ﴾ (٢٦)

وقوله سبحانه: ﴿يا بَنِي آدَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُّوَارِي سَوْءَ كُفْرِكُمْ﴾ الآية خِطَابٌ لجميع الأمم وَقَتَ النبي ﷺ والسَّبَبُ والمراد: قريش، وَمَنْ كان مِنَ الْعَرَبِ يتَعَرَّى في طَوَافِهِ بِالْبَيْتِ.

(١) تقدم تخريجه في أوائل سورة البقرة.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٨٧).

(٣) ورد هذا الحديث مسنداً من حديث أبي هريرة، وابن عباس.

حديث أبي هريرة: أخرجه أبو داود (٢/ ٧٨٥)، كتاب «الأدب»، باب: في قتل الحيات، حديث (٥٢٤٨)،

وأحمد (٢/ ٢٣٢، ٢٤٧، ٥٢٠)، وابن حبان (١٠٧٩ - موارد)، وابن ماجه (٣٢٢٤)، والدارمي (٢/ ٨٨ -

٨٩)، والبيهقي (٩/ ٣١٧). أما حديث ابن عباس: أخرجه أبو داود (٢/ ٧٨٥): كتاب «الأدب»، باب:

في قتل الحيات، حديث (٥٢٥٠)، وعبد الرزاق (١٠/ ٤٣٤) برقم: (١٩٦١٧).

قال مجاهد: ففهم نَزَلَتْ هذه الأربع آيات^(١).

وقوله: ﴿أَنْزَلْنَا﴾ يحتمل التذريج أي: لما أنزل المَطَرُ، فكان عنه جميع ما يلبس، ويحتمل أن يريد بـ ﴿أَنْزَلْنَا﴾ خلقنا، كقوله: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] و﴿لِبَاسًا﴾ عام في جميع ما يُلبَسُ، و﴿يُؤَارِي﴾: يستر.

وقرأ الجمهور: «وريشاً»، وقرأ عاصم، وأبو عمرو «وريشاً» وهما عِبَارَتَانِ عَنْ سَعَةِ الرِّزْقِ، ورفاهة العَيْشِ، وَجُودَةِ الْمَلْبَسِ والتمتع.

وقال البخاري: قال ابن عباس: وریشاً: المال انتهى^(٢).

وقرأ نافع^(٣)، وغيره: «ولباس» بالنصب.

وقرأ حمزة، وغيره بالرفع. وقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى جَمِيعِ ما أنزل الله من اللِّبَاسِ والرِّيشِ. وحكى النَّقَّاشُ: أَنَّ الْإِشَارَةَ إِلَى لِبَاسِ التَّقْوَى؛ أي: هو في العبد آية؛ أي: علامة وأمارة من الله تعالى أنه قد رَضِيَ عنه، ورحمه.

وقال ابن عَبَّاسٍ: لباس التقوى هو السَّمْتُ الْحَسَنُ^(٤) في الْوَجْهِ. وقاله عثمان بن عفان على المنبر.

وقال ابن عَبَّاسٍ أيضاً: هو الْعَمَلُ الصَّالِحُ^(٥).

وقال عُرْوَةُ بن الزبير: هو حَشِيَّةُ اللَّهِ^(٦) وقيل: هو لباس الصوف، وكل ما فيه تواضع لله عز وجل.

(١) أخرجه الطبري (٤٥٥/٥) برقم: (١٤٤٢٥)، وذكره ابن عطية (٣٨٨/٢).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٤١٦/٦): كتاب «أحاديث الأنبياء»، باب: «خلق آدم وذريته»، وقال ابن حجر: «هو قول ابن عباس، ووصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه»، والطبري (٤٥٧/٥) برقم: (١٤٤٣٣)، وذكره ابن عطية (٣٨٩/٢)، والبغوي (١٥٤/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤١/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) وقرأ بها ابن عامر والكسائي. عطفوا على الريش، والمعنى: وأنزلنا عليكم لباس التقوى. ينظر: «السبعة» (٢٨٠)، و«الحجة» (١٢/٤)، و«حجة القراءات» (٢٨٠)، و«إعراب القراءات» (١/١٧٨)، و«العنوان» (٩٥)، «شرح الطيبة» (٢٩٣/٤)، «شرح شملة» (٣٨٧)، «إتحاف» (٤٦/١)، «معاني القراءات» (٤٠٣/١).

(٤) أخرجه الطبري (٤٥٨/٥٠) برقم: (١٤٤٤٩)، وذكره ابن عطية (٣٨٩/٢)، والسيوطي (١٤٢/٣).

(٥) أخرجه الطبري (٤٥٨/٥) برقم: (١٤٤٤٩) وذكره ابن عطية (٣٨٩/٢)، والبغوي (١٥٥/٢).

(٦) أخرجه الطبري (٤٥٩/٥) برقم: (١٤٤٥٢)، وذكره ابن كثير (٢٠٧/٢).

وقال الحسن^(١): هو الورع.

وقال معبد الجهني: هو^(٢) الحياء.

وقال ابن عباس أيضاً: لباس التقوى العفة^(٣).

قال ع * * (٤) وهذه كلها مثل، وهي من لباس التقوى، و﴿لعلهم﴾ ترج بحسبهم، ومبلغهم من المعرفة.

﴿يَنْبَغِيْءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَئِهِمَا إِنَّكُمْ يَرْتَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَنْوَهُمْ إِنَّا جَمَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَةً لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿يا بني آدم/ لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ ٢١٨٧
الآية: خطاب لجميع العالم، والمقصود بها في ذلك الوقت من كان يطوف من العرب بالبيت عرياناً.

قيل: كانت العرب تطوف عراً إلا الخمس^(٥)، وهم قريش، ومن والآها، وهذا هو الصحيح، ثم نودي بـ «مكة» في سنة تسع: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان^(٦) والفتنة في هذه الآية الاستهواء، والغلبة على النفس، وأضاف الإخراج في هذه الآية إلى إبليس تجوزاً لما كان هو السبب في ذلك.

قال أبو حيان^(٧): ﴿كما أخرج﴾ «كما» في موضع نصب، أي: فتنة مثل فتنة إخراج أبويكم انتهى.

(١) ذكره ابن عطية (٣٨٩/٢) وزاد فيه: «والسمت والحسن في الدنيا».

(٢) أخرجه الطبري (٤٥٨/٥) برقم: (١٤٤٤٦)، وذكره ابن عطية (٣٨٩/٢)، والسيوطي (١٤٢/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٨٩/٢).

(٤) ينظر: «المحور الوجيز» (٣٨٩/٢).

(٥) الخمس: جمع الأحمس، وهم قريش ومن ولدت قريش، وكنانة وجديلة قيس، سُموا حمساً لأنهم تحمسوا في دينهم، أي: تشددوا. والحماسة: الشجاعة.
ينظر: «النهاية» (٤٤٠/١).

(٦) أخرجه البخاري (٤٨٣/٣): كتاب «الحج»، باب: لا يطوف بالبيت عريان، الحديث (١٦٢٢)، ومسلم (٩٨٢/٢): كتاب «الحج»، باب: لا يحج البيت مشرك، الحديث (١٣٤٧/٤٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة قال: «بعثني أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الحجّة التي أمره عليها رسول الله ﷺ، قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

(٧) ينظر: «البحر المحيط» (٢٨٤/٤).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ﴾... الآية زيادة في التحذير، وإعلام بأن الله عز وجل قد مَنَّ إبليس من بني آدم في هذا القدر، وبحسب ذلك يَجِبُ أن يكون التَّحَرُّ بِطَاعَةِ اللَّهِ عز وجل وقَبِيلُ الشَّيْطَانِ يُرِيدُ نوعه، وصنفه، وذريته، والشيطان مُوجُودٌ، وهو جسم.

قال النووي^(١): وروينا في كتاب ابن السني عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ستر ما بين أعين الجنِّ وعَوَازِ بني آدم أن يقولَ الرجلُ المُسْلِمُ إذا أراد أن يطرح ثيابه: بسم الله الذي لا إله إلا هو»^(٢) انتهى.

وعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ستر ما بين الجنِّ وعَوَازِ بني آدم إذا دَخَلُوا الكُتْفَ أن يقولوا: بسم الله».

رواه الترمذي، وقال: إسناده ليس بالقوي^(٣).

قال النووي: قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم: يجوز ويُستَحَبُّ العَمَلُ في الفَضَائِلِ، والترغيب، والترهيب بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعاً وأما الأحكام كالحَلَالِ، والحرام، والبيع، والنكاح، والطلاق، وغير ذلك فلا يُعْمَلُ فيها إلا بالحديث الصحيح^(٤)، أو الحسن^(٥) إلا أن يكون في احتياطٍ في شيء من ذلك، كما إذا ورد حديث

(١) ينظر: «الأذكار» ص: (٥١).

(٢) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٢٧٤) من حديث أنس مرفوعاً به.

(٣) أخرجه الترمذي (٥٠٣/٢ - ٥٠٤): كتاب «الصلاة»، باب: ما ذكر من التسمية عند دخول الخلاء، حديث (٦٠٦)، وابن ماجه (١٠٩/١): كتاب «الطهارة»، باب: ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء، حديث (٢٩٧) من حديث علي، وقال الترمذي: إسناده ليس بالقوي.

(٤) الصحيح: في اللغة فعيل بمعنى فاعل من الصحة، وهي ذهاب المرض والبراءة من كل عيب.

وفي اصطلاح المحدثين يختلف عند المتقدمين وعند المتأخرين.

أما عند المتقدمين فقال الخطابي: الصحيح: ما اتصل سنده وعدلت نقلته.

وأما الصحيح لذاته عند المتأخرين، فقال ابن الصلاح: هو الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى متناه، ولا يكون شاذاً ولا معللاً.

والصحيح لغيره: هو الحديث الذي لم يكن صحيحاً لذاته وارتقى إلى درجة الصحيح بجابر يجبر القصور فيه، وذلك هو الحديث الحسن لذاته إذا جبر بجابر بأن تقوى بمتابع أو شاهد مساوٍ أو راجع أو بأكثر من طريق إن كان أدنى. وعليه فنقول إنه:

هو ما اتصل سنده بنقل عدل قل ضبطه عن الدرجة العليا للضبط وتوبع بطريق آخر مساوٍ أو راجع أو بأكثر من طريق إن كان أدنى وكان غير شاذ ولا معل.

ينظر: «غيث المستغيث» ص: (٣٢، ٣٣، ٣٥).

(٥) الحُسن: في اللغة الجمال، والحسن الجميل.

ضعيف بكَرَاهَةِ بعض البيوع، أو الأنكحة، فإن المستحب أن يتنزّه عنه، ولكن لا يَجِبُ انتهى.

ونحوه لأبي عمر بن عبد البر في كتاب «فضل العلم»: ثم أخبر عز وجل أنه صَيَّر الشياطين أولياء، أي: صحابة، ومتداخلين للكفرة الذين لا إيمان لهم.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وقوله: وَإِذَا فَعَلُوا وما بعده دَاخِلٌ في صفة الذين لا يؤمنون، والفاحشة في هذه الآية، وإن كان اللفظ عامًا هي كَشَفُ الْعَوْرَةِ عند الطَّوَافِ، فقد روي عن الزهري أنه قال: إن في ذلك نزلت هذه الآية. وقاله ابن عَبَّاسٍ ومجاهد^(١).

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ تضمن معنى اقسطوا، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَأَقِيمُوا﴾ حملاً على المعنى، والقِسْطُ الْعَدْلُ واختلف في قوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عند كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فقال مجاهد، والسدي: أراد إلى الكعبة^(٢)، والمقصد على هذا

وفي الاصطلاح: لهم فيه عبارات كثيرة؛ لعدم ضبط الأقدمين له حتى قال البلقيني: الحسن لما توسط بين الصحيح والضعيف عند الناظر كان شيئاً ينقدح في نفس الحافظ. وقد تقصر عبارته عنه كما قيل في الاستحسان، فلهذا صعب تعريفه لكن استقر الرأي أخيراً على أنه: هو الحديث الذي اتصل سنده بنقل العدل الضابط الذي قصر به حفظه وإتقانه عن درجة رجال الصحيح غير شاذ ولا معل.

والحسن لغيره: هو الحديث الذي يكون في أصله غير حسن، ثم يرتقي بالجابر حتى يكون في درجة الحسن، وذلك أن الحديث إذا فقد أحد الشروط الخمسة المعتبرة في الصحيح لذاته والحسن لذاته ينزل إلى درجة الضعيف، لكن الضعيف منه ما يقبل الجبر، ومنه ما لا يقبل الجبر بحال، فتوقفت معرفة الحسن لغيره على معرفة ما يقبل الجبر من الضعيف - ويسمى عندهم ما يعتبر به أي حديث يكتب للاعتبار به في المتابعات والشواهد - ومعرفة ما لا يقبل الجبر منه - ويسمى عندهم ما لا يعتبر به. ينظر: «الغيث المستغيث» ص: (٣٤، ٣٥).

(١) أخرجه الطبري (٤٦٣/٥) برقم: (١٤٤٦٧ - ١٤٤٦٨ - ١٤٤٦٩ - ١٤٤٧٣ - ١٤٤٧٤)، وابن عطية (٢/٣٩١)، والبعوي (٢/١٥٥)، وابن كثير (٢/٢٠٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/١٤٣).

(٢) أخرجه الطبري (٤٦٤/٥) برقم: (١٤٤٧٨) وبرقم: (١٤٤٧٩)، وذكره ابن عطية (٢/٣٩١)، والبعوي (٢/١٥٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/١٤٣)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

شَرَعَ القِبْلَةَ والتزامها.

وقيل: أراد الأمر بإحضار النية لله في كُلِّ صَلَاةٍ، والقصد نحوه، كما تقول: وَجَّهْتُ وَجْهِي لله قاله الربيع^(١).

وقيل: المراد إِبَاحَةُ الصلاة في كُلِّ موضع من الأرض، أي: حيث ما كنتم فهو مَسْجِدٌ لكم تلزمكم عند الصَّلَاةِ إقامة وجوهكم فيه لله عز وجل. وقوله سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال ابن عَبَّاسٍ، وقتادة، ومجاهد: المعنى: كما أوجدكم، واخترعكم، كذلك يعيدكم بعد الموت^(٢) والوقف على هذا التأويل تعودون و«فريقاً» نصب بـ «هدى» والثاني منصوب بِفَعْلٍ تقديره: وعذب فريقاً.

وقال جابر بن عبد الله/ وغيره: وروي معناه عن النبي ﷺ أن المُرَادَ الإعلام بأن مَنْ سَبَقَتْ له من الله الحُسْنَى، وكتب سعيداً كان في الآخِرَةِ سَعِيداً، ومن كتب عليه أنه من أَهْلِ الشَّقَاءِ، كان في الآخرة شَقِيّاً، ولا يتبدّل من الأمور التي أحكمها وَدَبَّرَهَا، وأنفذها شيء، فالوقف في هذا التأويل في قوله: ﴿تعودون﴾ غير حسن و«فريقاً» على هذا التأويل نصب على الحال، والثاني عطف على الأول.

﴿ويحسبون أنهم مُهْتَدُونَ﴾ معناه: يظنون.

قال الطبري^(٣): وهذه الآية دَلِيلٌ على خَطَاٍ من زَعَمَ أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها، أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها على عِلْمٍ منه بموضع الصواب.

﴿يَبْنَى مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

وقوله سبحانه: ﴿يا بني آدم خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية: هذا خطاب عام لجميع العالم كما تقدم، وأمرُوا بهذه الأشياء بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مُشْرِكِي الْعَرَبِ فيها، والزينة الثياب الساترة. قاله مجاهد وغيره^(٤). و«عند كل مَسْجِدٍ»

(١) أخرجه الطبري (٤٦٥/٥) برقم: (١٤٤٨٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٩١/٢)، وابن كثير (٢٠٨/٢) بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٩٦٧/٥) برقم: (١٤٥٠٢)، وذكره ابن عطية (٣٩٢/٢)، والبغوي (١٥٦/٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٦٩/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٤٧٠/٥) برقم: (١٤٥٢٠ - ١٤٥٢١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٩٢/٢)، والبغوي (١٥٧/٢)، وابن كثير (٢١٠/٢)، والسيوطي (١٤٥/٣) بنحوه.

أي: عند كل موضع سُجُودٍ، فهي إشارة إلى الصلوات، وستر العورة فيها.

* ت * : ومن المستحسن هنا ذكر شيء مما جاء في اللباس، فمن أحسن الأحاديث في ذلك، وأصحها ما رواه مالك في «الموطأ» عن أبي سعيد الخدري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَرْزَةَ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ، مَا أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ فِي النَّارِ» قال ذلك ثلاث مرات: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مَنْ جَرَّ إِرَازَهُ بَطَرًا»^(١).

وحدث أبو عمر في «التمهيد» بسنده عن ابن عمر قال: فيما قال رسول الله ﷺ في الإزار فهو في القميص يعني ما تَحْتَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْقَمِيصِ فِي النَّارِ^(٢)، كما قال في الإزار، وقد روى أبو خيثمة زهير بن معاوية^(٣) قال: سمعت أبا إسحاق السبيعي يقول: أدركتهم وقمصهم إلى نصف الساق أو قريب من ذلك، وكُم أحدهم لا يُجَاوِزُ يَدَهُ انتهى. وروى أبو داود عن أسماء بنت يزيد قالت: كانت يدُ كُم قميص رسول الله ﷺ إلى الرسغ^(٤)، وأما أحب اللباس فما رواه أبو داود عن أم سلمة؛ قالت: كان أحب الثياب إلى رسول

(١) أخرجه مالك (٩١٤/٢ - ٩١٥): كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في إقبال الرجل ثوبه، حديث (١٢)، وأبو داود (٤٥٧/٢) كتاب «اللباس»، باب: في قدر موضع الإزار، حديث (٤٠٩٣)، وابن ماجه (٢/١١٨٣): كتاب «اللباس»، باب: موضع الإزار أين هو؟، حديث (٣٥٧٣) من طريق العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري به.

(٢) روي هذا المعنى أيضاً من حديث أبي هريرة بلفظ: «ما أسفل الكعبين من الإزار فهو في النار». أخرجه البخاري (٢٦٨/١٠)، في كتاب «اللباس»، باب: «ما أسفل من الكعبين فهو في النار» (٥٧٨٧)، والنسائي في «المجتبى» (٢٠٧/٨)، في كتاب: «الزينة»، وابن ماجه (٣٥٧٣)، وأحمد في «المسند» (٤٦١/٢)، (٩/٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٠٤/٨).

(٣) زهير بن معاوية بن حذَيج بضم المهملة الأولى مصغراً، وآخره جيم ابن الرُّجَيْل بجيم مصغراً ابن زُهَيْر بن خَيْثَمَةَ الجُعْفِي أَبُو خَيْثَمَةَ الكُوفِي أحد الحفاظ والأعلام. عن سِمَاك بن حَرْب والأسود بن قَيْس، وزِيَاد بن عَلَاقَةَ، وأبي الزُّبَيْر، وخلق، وعنه القُطَّان، وابن مَهْدِي، وأبو نُعَيْم، والأسود بن عامر، وعمر بن خالد، وخلق.

قال شعيب بن حرب: زهير أحفظ من عشرين مثل شعبة.

وقال أحمد: زهير ثبت سمع من أبي إسحاق بآخره.

قال الخطيب: حدث عنه ابن جريج، وعبد الغفار الحراني، وبين وفاتيهما بضع وستون سنة، توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة، ومولده سنة مائة.

ينظر: «الخلاصة» (٣٤٠/١)، «تهذيب الكمال» (٤٣٦/١)، «تهذيب التهذيب» (٣٥١/٣)، «الكاشف» (٣٢٧/١)، «الثقات» (٣٣٧/٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٤١/٢): كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في القميص، حديث (٤٠٢٧).

اللَّهُ ﷻ القميص^(١). انتهى.

وجاء في المُسْبِلِ وَعَيْدٌ شَدِيدٌ؛ وعنه ﷻ أنه قال لرجل أَسْبَلَ إِزَارَهُ: «إِنْ هَذَا كَانَ يَصْلِي وَهُوَ مُسْبِلٌ إِزَارَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ صَلَاةَ رَجُلٍ مَسْبِلٍ إِزَارَهُ» رواه أبو داود^(٢). انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ إباحة لما التزموه من تَحْرِيمِ اللحم، والودك^(٣) في أيام المواسم. قاله ابن زَيْدٍ وغيره، ويدخل في ذلك^(٤) الْبَحِيرَةُ وَالسَّائِبَةُ، ونحو ذلك نص على ذلك قَتَادَةُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ معناه: لا تفرطوا. قال أهل التأويل: يريد تُسْرِفُوا بأن تحرموا ما لم يُحَرِّمِ اللَّهُ عز وجل واللفظة تَقْتَضِي النهي عن السَّرْفِ مُطْلَقاً، ومن تَلَبَّسَ بفعلٍ مباح، فإن مشى فيه على الْقَضْدِ، وأوسط الأمور، فحسن، وإن أفرط جعل أيضاً من المسرفين.

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٠/٢) كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في القميص، حديث (٤٠٢٦، ٤٠٢٥)، والترمذي (٢٣٧/٤ - ٢٣٨) كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في القميص، حديث (١٧٦٢)، وفي «الشمائل» رقم: (٥٥)، وابن ماجه (١١٨٣/٢) كتاب «اللباس»، باب: لبس القميص، حديث (٣٥٧٥)، وأحمد (٣١٧/٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» برقم: (١٥٤٠)، وأبو يعلى (٤٤٥/١٢) رقم (٧٠١٤)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» ص: (١٠٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/٤٢١) برقم: (١٠١٨)، والحاكم (١٩٢/٤)، والبيهقي (٢٣٩/٢)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤٦/٦) - بتحقيقنا). كلهم من طريق عبد المؤمن بن خالد عن عبد الله بن بريدة، عن أم سلمة به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث عبد المؤمن بن خالد، تفرد به وهو مروزي، وروى بعضهم هذا الحديث عن أبي تميلة عن عبد المؤمن بن خالد، عن عبد الله بن بريدة، عن أمه، عن أم سلمة.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٢٨/١) كتاب «الصلاة»، باب: الإسبال في الصلاة، حديث (٦٣٨)، وفي (٢/٤٥٥) كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في إسبال الإزار، حديث (٤٠٨٦)، والبيهقي (٢٤١/٢) كتاب «الصلاة»، من حديث أبي هريرة، وهذا الحديث لم يخرج سوى أبي داود من أصحاب الكتب الستة.

(٣) الودك: دسم اللحم، ودهنه الذي يستخرج منه. ينظر: «النهاية» (١٦٩/٥).

(٤) البحيرة: أنهم كانوا إذا ولدث إبلهم سَقِيًّا (يعني ولد الناقة) بحروا أذنه: أي شقوها، وقالوا: اللَّهُمَّ إِنْ عَاشَ فَفَتِي وَإِنْ مَاتَ فَذَكِي، فإذا مات أكلوه وسموه البحيرة، وقيل: البحيرة: هي بنت السائبة، كانوا إذا تابعت الناقة بين عشر إناث لم يركب ظهرها ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ولدها أو ضيف، وتركوها مَسِيَّةً لسبيلها وسموها السائبة، فما ولدت بعد ذلك من أنثى شقوا أذنها، وخلوا سبيلها، وحرم منها ما حرم من أمها، وسموها البحيرة. ينظر: «النهاية» (١٠٠/١).

وقال ابن عباس في هذه الآية: أحلَّ الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة^(١).

قال ابن العربي^(٢): قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الإسرافُ تعدي الحد، فنهاهم سبحانه عن تعدي الحلال إلى الحرام.

وقيل: لا يزيد على قدر الحاجة، وقد اختلف فيه على قولين؛ فقيل/ حرام. وقيل: مكروه، وهو الأصح.

فإن قدر الشيع يختلف باختلاف البلدان، والأزمان، والإنسان، والطعمان. انتهى من «أحكام القرآن».

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢)

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ أي: قل لهم على جهة التوبيخ. وزينة الله هي ما حسنته الشريعة، وقررت، وزينة الدنيا كل ما اقتضته الشهوة، وطلب العلو في الأرض كالمال والبنين.

و﴿الطيبات﴾ قال الجمهور: يريد المحللات.

وقال الشافعي وغيره: هي المستلذات أي: من الحلال، وإنما قاد الشافعي إلى هذا تحريمه المستقذرات كالوزغ^(٣) ونحوها، فإنه يقول: هي من الخبائث.

* ت * وقال مكي: المعنى قل مَنْ حَرَّمَ زينة الله، أي: اللباس الذي يزين الإنسان بأن يستر عورته، ومن حرم الطيبات من الرزق المباحة.

وقيل عنى بذلك ما كانت الجاهليَّة تحرمه من السوائب والبخائير. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال ابن

(١) أخرجه ابن جرير (٤٧٢/٥) برقم: (١٤٥٣٥)، وذكره ابن عطية (٣٩٣/٢)، وابن كثير (٢١٠/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٤٦/٣).

(٢) ينظر: «الأحكام» (٧٨١/٢).

(٣) الوزغ: دوية، وهي سوا م أبرص.

ينظر: «اللسان» (٤٨٢٦).

جُبَّير: المعنى: قل هي للذين آمَنُوا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا يَتَّقِعُونَ بها في الدُّنْيَا، ولا يتبعهم إثمها يوم الْقِيَامَةِ^(١).

وقال ابن عباس، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغيرهم: المعنى هو أن يخبر ﷺ أن هذه الطَّيِّبَاتِ الْمَوْجُودَاتِ هي في الحياة الدنيا للذين آمنوا، وإن كانت أيضاً لغيرهم معهم، وهي يوم القيامة خالصة لهم، أي: لا يشركهم أحد في استعمالها في الآخرة^(٢).

وقرأ نافع^(٣) وحده «خالصة» بالرفع، والباقون بالنَّضْب.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: كما فَصَّلْنَا هذه الأشياءَ المتقدمة الذكر ﴿نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبين الْأَمَارَاتِ، وَالْعَلَامَاتِ، وَالْهَدَايَاتِ لقوم لهم علم ينتفعون به.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣)

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾ الآية: لما تقدم إنكار ما حرمه الْكُفَّارُ بِآرَائِهِمْ أتبعه بِذِكْرِ ما حرم الله عز وجل.

وَالْفَوَاحِشُ في اللغة ما فَحَشَ وشنع، وأصله من الْقُبْحِ في النظر، وهي هنا إنما هي إشارة إلى ما نص الشرع على تحريمه، فكل ما حرمه الشَّرْعُ، فهو فاحش، والإِثْمُ لفظ عام في جَمِيعِ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ التي يَتَعَلَّقُ بمرتكبها إثم. هذا قول الجمهور.

وقال بعض الناس: هي الْخَمَرُ وهذا قول مردود؛ لأن هذه السورة مَكِّيَّة، وإنما حرمت الْخَمْرُ بـ «المدينة» بعد أحد ﴿وَالْبَغْيِ﴾ التعدي، وتجاوز الحد.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه حرم الْبَحِيرَةَ والسَّائِبَةَ ونحوه.

(١) أخرجه الطبري (٤٧٥/٥) برقم: (١٤٥٥٦)، وابن عطية (٣٩٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٧٣/٥ - ٤٧٤ - ٤٧٥) برقم: (١٤٥٤٦ - ١٤٥٥٥)، وذكر البغوي (١٥٧/٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المشثور» (١٥٠/٣).

(٣) والتقدير على قراءة الرفع أي: هي خالصة للذين آمنوا.

ينظر: «السبعة» (٢٨٠) و«الحجة» (١٣/٤)، و«حجة القراءات» (٢٨١)، و«المنوان» (٩٥) و«إعراب القراءات» (١٨٠/١)، و«شرح الطيبة» (٢٩٤/٤)، و«شرح شعلة» (٣٨٨)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٤٧/٢) و«معاني القراءات» (٤٠٤/١).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤) ﴿يَبْقَىٰ مَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكَ آيَاتِي فَمَنْ آتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦)

وقوله سبحانه: ﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾
المعنى: ولكل أمة أجل مؤقَّت لمجيء العذاب إذا كفروا، وخالفوا أمر ربهم، فأنتم أيها الأمة كذلك. قاله الطبري^(١) وغيره.

وقوله: ﴿ساعة﴾ لفظ عين به الجزء القليل من الزمان، والمراد جميع أجزائه،
والمعنى: لا يستأخرون ساعة، ولا أقل منها، ولا أكثر.

وقوله عز وجل: ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يَقْصُونَ عَلَيْكَ آيَاتِي فَمَنْ آتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك / أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الخطاب في هذه الآية لجميع العالم، و«إن» هي ١٨٨ ب
الشرطية دخلت عليها «ما» مؤكدة، وكان هذا الخطاب لجميع الأمم قديمها وحديثها هو
متمكن لهم، ومتحصل منه لحاضري نبينا محمد ﷺ أن هذا حُكْمُ اللَّهِ في العالم منذ
أنشأه، ﴿ويأتينكم﴾ مستقبل وُضِعَ موضع ماضٍ ليفهم أن الإتيان باقٍ وَقْتُ الخطاب،
لِتَقْوَى الإشارة بصحة النبوة إلى نبينا محمد ﷺ وهذا على مُرَاعَاةٍ وَقْتُ نزول الآية.

وأَسَدُ الطَّبْرِي إلى أَبِي سَيَّارِ السُّلَمِي قال: «إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ خَاطَبَ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ، فَقَالَ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ...﴾ الآية: قال: ثُمَّ نَظَرَ سَبَّحَانَهُ إِلَى الرَّسُلِ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون...﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢] الحديث^(٢).

قال * ع^(٣): وَلَا مَحَالَةَ أَنْ هَذِهِ الْمُخَاطَبَةُ فِي الْأَزَلِ.

وقيل: المراد بالرسول نبينا محمد ﷺ ذَكَرَهُ النِّقَاشُ ﴿ويَقْصُونَ﴾ أي: يسردون،
ويوردون، «والآيات» لَفْظٌ جَامِعٌ لآيَاتِ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ، وللعلامات التي تقتنر بالأنبياء،
ونفي الخوف والحزن يعم جَمِيعَ أَنْوَاعِ مَكَارِهِ النَّفْسِ وَأَنْكَادِهَا.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٧٦/٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٧٧/٥) برقم: (١٤٥٦٠) من حديث أبي سيار السلمي، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٥٣/٣) وعزه لابن جرير.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩٦/٢).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَنَّىٰ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاثِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ...﴾ الآية: هذه الآية وَعِيدٌ واستفهام على جهة التقرير، أي: لا أحد أظلم منه، والكتاب هو اللوح المحفوظ في قول الحسن وغيره.

وقيل: ما تكتبه الحفظة، ونصيبهم من ذلك هو الكفر والمعاصي. قاله مجاهد، وغيره.

وقيل: هو القرآن، وحظهم فيه سَوَادُ الوجوه يوم القيامة.

وقال الربيع بن أنس، وغيره: المعنى بالنصيب ما سبق لهم في أم الكتاب من رزق، وعمر، وخير، وشر في الدنيا، ورجحه^(١) الطبري.

واحتج له بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: عند انقضاء ذلك، فكان معنى الآية على هذا التأويل: أولئك يتمتعون، ويتصرفون في الدنيا بقدر ما كتب لهم حتى إذا جاءتهم رسلنا لموتهم؛ وهذا تأويل جماعية، وعلى هذا يترتب ترجيح الطبري.

وقالت فرقة: ﴿رسلنا﴾ يريد بهم ملائكة العذاب يوم القيامة، ﴿ويتوفونهم﴾ معناه عندهم يستوفونهم عدداً في السوق إلى جهنم.

وقوله سبحانه حكاية عن الرسل ﴿أَنَّىٰ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ استفهام تقرير، وتوبيخ، وتوقيف على خزي، ﴿وتدعون﴾ معناه: تعبدون، وتؤمنون.

وقولهم: ﴿ضلُّوا عنا﴾ معناه: هلكوا، وتلفوا، وفقدوا.

ثم ابتدأ الخبر عن المشركين بقوله سبحانه: ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ لِحَبْلِهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأُولَٰئِهِمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَاءَنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وَقَالَتْ أُولَٰئِهِم لِأُخْرَيْنَاهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُم عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/٤٨١).

فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾.

قوله سبحانه: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلث من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾ هذه حكاية ما يقول الله سبحانه لهم يوم القيامة، بواسطة ملائكة العذاب، نسال الله العافية. وعبر عن يقول بـ «قال» لتحقق وقوع ذلك، وصدق القصة، وهذا كثير، و﴿خلث﴾ حكاية عن حال الدنيا، أي: ادخلوا في النار في جملة الأمم السابقة لكم في الدنيا الكافرة.

* ت * : وكذا قدره^(١) أبو حيان في جملة «أمم»، قال: وقيل: «في» بمعنى «مع» أي: مع أمم، وتقدم له في «البقرة» أن «في» تجيء للمصاحبة، كقوله تعالى: ﴿ادخلوا في أمم قد خلث﴾ انتهى.

وقدم ذكر الجن؛ لأنهم أغرقوا في الكفر، وإبليس أضل الضلال والإغواء، وهذه ٢١٨٩ الآية نص في أن كفر الجن في النار، والذي يقتضيه النظر أن مؤمنهم في الجنة؛ لأنهم عقلاء، مكلفون، مبعوث إليهم، آمنوا وصدقوا، وقد يؤب البخاري رحمه الله باباً في ذكر الجن، وثوابهم، وعقابهم.

وذكر عبد الجليل: أن مؤمني الجن يكونون ثراباً كالبهائم، وذكر في ذلك حديثاً مجهولاً، وما أراه يصح. والله أعلم. والإخوة في هذه الآية إخوة الملة.

قال * ص * : في «النار» متعلق بـ «خلث»، أو بمحذوف، وهو صفة لـ «أمم» أي: في أمم سابقة، في الزمان كائنة، من الجن والإنس كائنة في النار، ويحتمل أن يتعلق بـ «ادخلوا» على أن «في» الأولى بمعنى «مع»، والثانية للظرفية، وإذا اختلف مذكول الحرفين، جاز تعلقهما بمحل واحد. انتهى.

﴿واداركوا﴾ معناه: تلاحقوا، أصله: تداركوا أدغم، فجلبت ألف الوصل.

وقال البخاري: ﴿أداركوا﴾ اجتمعوا. انتهى. وقوله سبحانه: ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ معناه: قالت الأمم الأخيرة التي وجدت ضلالات متفرقة، وسنناً كاذبة مستعملة للأولى التي شرعت ذلك، وافترت على الله، وسلكت سبيل الضلال ابتداءً ﴿ربنا هؤلاء أضلونا﴾، أي: طرّفوا لنا طرّف الضلال، ﴿قال لكل ضعف﴾ أي: عذاب مشدّد على الأول والآخِر ﴿ولكن لا تعلمون﴾ أي المقادير، وصور التضعيف.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤/٢٩٧).

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَأَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي: قد استوث حالنا وحالكم ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ باجترائكم، وهو من كلام الأمة المتقدمة للمتأخرة.

وقيل: قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ هو من كلام الله عز وجل لجميعهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢)

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ الآية، هذه الآية عامة في جميع الكفرة قديمهم وحديثهم.

قرأ نافع^(١) وغيره: «تُفْتَحُ» بتشديد التاء الثانية، وقرأ أبو عمرو: «تُفْتَحُ» بالتاء أيضاً وسكون الفاء، وتخفيف الثانية، وقرأ حمزة «يفتح» بالياء من أسفل، وتخفيف التاء، ومعنى الآية: لا يرتفع لهم عمل، ولا روح، ولا دعاء، فهي عامة في نفي ما يوجب للمؤمنين. قاله ابن عباس، وغيره.

ثم نفى سبحانه عنهم دخول الجنة، وعلق كونه بكون محال، وهو أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة حيث يدخل الخيط، والجمل كما عهد، والسّم كما عهد، وقرأ جمهور^(٢) المسلمين «الجمل» واحد الجمال، وقرأ ابن عباس وغيره^(٣) «الجمل» بضم الجيم وتشديد الميم، وهو خبل السفينة^(٤) والسّم: الثقب من الإبرة وغيرها، وكذلك أي: وعلى هذه

(١) والتشديد أي: مرة بعد مرة. وحجة هؤلاء قوله تعالى: «مفتحة لهم الأبواب» [ص: ٥٠].

ينظر: «السبعة» (٢٨٠)، و«الحجة» (١٨/٤)، و«حجة القراءات» (٢٨٢)، و«إعراب القراءات» (١/١٨٠)، و«العنوان» (٩٥)، و«شرح الطيبة» (٢٩٤/٤)، و«شرح شعلة» (٣٨٨)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٤٨/٢)، و«معاني القراءات» (٤٠٥/١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٠/٢)، و«البحر المحيط» (٣٠٠/٤)، و«الدر المصون» (٢٦٩/٣).

(٣) وقرأ بها سعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، وأبي العلاء بن الشخير، ورويت عن أبي رجاء. ينظر: «الشواذ» (٤٨)، و«المحتسب» (٢٤٩/١)، و«الكشاف» (١٠٣/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢/٤٠٠)، وزاد نسبتها إلى عكرمة، وينظر: «البحر المحيط» (٣٠٠/٤)، وزاد في نسبتها إلى ابن يعمر، وأبي مجلز، وأبي رزين، وابن محيصن، وأبان عن عاصم، وينظر: «الدر المصون» (٢٧٠/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٤٨٧/٥)، وابن كثير (٢١٤/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٥٧/٣).

الصفة، وبمثل هذا الحتم، وغيره نجزي الكفرة وأهل الجرائم على الله.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش، ومسكن، ومضجع يتمهّدونه، وهي لهم غَوَاشٍ جمع غاشية، وهي ما يَغْشَى الإنسان أي: يغطيه. ويستره من جهة فوق.

وقوله سبحانه: ﴿لَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذه آية وعد مخبرة أن جميع المؤمنين هم أصحاب الجنة، ولهم الخلد فيها، ثم اعترض فيها القول بعقب الصفة التي شرطها في المؤمنين باعتراض يُخَفِّفُ الشرط، ويرجي في رحمة الله، ويعلم أن دينه يسر، وهذه الآية نص في أن الشريعة لا تَقَرَّرُ من تكاليفها شيء لا يُطَاق، وقد / تقدم ذلك في «سورة البقرة».

ب ١٨٩

«والوُسْعُ» معناه: الطاقة، وهو القدر الذي يَتَسَعُّ له البشر.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تَتَكَلَّمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثَتْهُمَا بِمَا كُنْتُمْ تَمْلُكُونَ﴾ (٤٣)

وقوله سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ هذا إخبار من الله عز وجل أنه ينقي قُلُوبَ ساكني الجنة من الغِلِّ، والحِقْدِ، وذلك أن صاحب الغل مُعَذَّبٌ به، ولا عذاب في الجنة.

ورود في الحديث: «الغلُّ على باب الجنة كَمَبَارِكِ الْإِبِلِ قد نَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ»^(١).

والغل: الحِقْدُ والإحنة الخَفِيَّةُ في النفس. ﴿وقالوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ الإشارة بـ «هذا» يتجه أن تكون إلى الإيمان، والأعمال الصالحات المؤدية إلى الجنة، ويحتمل أن تكون إلى الجنة نفسها، أي: أرشدنا إلى طرقها.

وقرأ ابن عامر^(٢) وَخَذَهُ: «ما كنا لنهتدي» بسقوط الواو، وكذلك هي في مَصَاحِف أهل «الشام»، ووجهها أن الكلامَ مُتَّصِلٌ، مرتبط بما قبله.

ولما رأوا تصديق ما جاءت به الأنبياء عن الله سبحانه، وَعَايَنُوا إنجاز المواعيد قالوا:

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠٨/٧).

(٢) ينظر: «شرح طيبة النشر» (٢٩٥/٤)، و«شرح شعلة» (٣٨٩)، و«العنوان» (٩٥)، و«معاني القراءات» (٤٠٧/١)، و«اتحاف» (٤٩/٢).

﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ بِالْحَقِّ وَتُودُوا﴾ أي: قيل لهم بِصِيَّاحٍ، وهذا النداء من قِبَلِ اللَّهِ، «وَأَنْ» مفسرة لمعنى النداء، بمعنى: أي.

وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لا على طَرِيق وجوب ذلك على اللَّهِ تعالى لكن بقرينة رحمته، وتغمده، والأعمال أماره من اللَّهِ سبحانه وطريق إلى قوة الرَّجَاءِ، ودخولِ الْجَنَّةِ إنما هو بِمُجَرَّدِ رحمته، وَالْقَسْمُ فيها على قدر الأعمال. «وأورثتم» مشيرة إلى الأقسام.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا جَهَنَّمُ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا...﴾ الآية.

هذا النداء من أهل الجنة لأهل النار تَفْرِيعٌ، وتوبيخ، وزيادة في الكَرْبِ، وهو بأن يشرفوا عليهم، ويخلق الإدراك في الأسماع والأبصار.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أعلم معلم، والظالمون هنا هم الكافرون.

* ت * : حكي عن غير واحد أن طائوس دخل على هشام بن عبد الملك^(١) فقال له: أتق الله، واخْذَرْ يوم الأَذَانِ، فقال: وما يوم الأَذَانِ؟ فقال قوله تعالى: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فصعق هشام، فقال طائوس: هذا ذُلُّ الوَضْفِ، فكيف ذلُّ الْمُعَايَنَةِ انتهى.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبونها، أو يطلبون لها، والضمير في ﴿يَبْغُونَهَا﴾ عائد على السَّبِيلِ.

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان: من ملوك الدولة الأموية في الشام. ولد في دمشق وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥هـ، خرج عليه زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢٠هـ بأربعة عشر ألفاً من أهل الكوفة، فوجه إليه من قتله وقتل جمعه، نشبت في أيامه حرب هائلة مع خاقان الترك في ما وراء النهر، كان حسن السياسة، يقطاً في أمره، يباشر الأعمال بنفسه. ولد سنة ٧١هـ، وتوفي في سنة ١٢٥هـ. انظر: «ابن الأثير» (٩٦/٥) «الطبري» (٢٨٣/٨)، «اليعقوبي» (٥٧/٣)، «ابن خلدون» (٨٠/٣)، «الأعلام» (٨٦/٨).

وقوله سبحانه: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾.

﴿وبينهما﴾: أي: بين الجنة والنار، ويحتمل بين الجمعين، والحِجَابُ هو السور الذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ [الحديد: ١٣].

قال ابن عباس، وقال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار^(١).

وقال ابن عباس أيضاً: هو تَلٌّ بين الجنة والنار^(٢).

وذكر الزُّهْرَاوِيُّ حديثاً أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنْ أَحَدًا جَبَلَ يَحِبُّنَا وَنَحْبُهُ، وَإِنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمَثُلُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَحْتَسِبُ عَلَيْهِ أَقْوَامٌ، يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ، هُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٣).

والأعراف جمع عرف، وهو المرتفع من الأرض، ومنه عُرِفَ الفرس، وعرف الديك لعلوِّهما.

وقال بعض الناس: سُمِّيَ الأعراف أعرافاً؛ لأن أصحابه يعرفون الناس.

قال ع^(٤): * وهذه عُجْمَةٌ، وإنما المراد على أعراف ذلك الحِجَابِ، أي أعاليه.

وقوله: ﴿رِجَالٌ﴾ قال الجمهور: إنهم رِجَالٌ مِنَ الْبَشَرِ، ثم اختلفوا في تعيينهم، فقال شرحبيل بن سَعْدٍ: هم المستشهدون في سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ خَرَجُوا عُصَاةً لِأَبَائِهِمْ^(٥).

وذكر الطَّبْرِيُّ في ذلك / حَدِيثاً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ تَعَادَلَ عُقُوفُهُمْ، واستشهداهم^(٦). ١١٩٠

وقال ابن عباس، وغيره: هم قوم اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ^(٧)، ووقع في «مسند

(١) أخرجه الطبري (٤٩٨/٥) برقم: (١٤٦٨٧)، (١٤٦٨٨) وبرقم: (١٤٦٨٦)، وذكره ابن عطية (٢/٤٠٤)، وابن كثير (٢/٢١٦)، وذكره السيوطي (٣/١٦٠)، (٣/١٦١).

(٢) أخرجه الطبري (٤٩٨/٥) برقم: (١٤٦٨٥)، وذكره ابن عطية (٢/٤٠٤)، وابن كثير (٢/٢١٦)، والسيوطي (٣/١٦١).

(٣) الحديث بهذا اللفظ لم أجده أما قوله ﷺ: «أحد جبل يحبنا ونحبه» ثابت من قول النبي ﷺ.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٠٤).

(٥) أخرجه الطبري (٥٠١/٥) برقم: (١٤٧١١)، وابن عطية (٢/٤٠٤)، والبغوي (٢/١٦٢) بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٠١/٥) برقم: (١٤٧١٣) والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/١٦٣)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأحمد بن منيع، والحاثر بن أبي أسامة، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب «الأضداد»، والخرائطي في «مساوى الأخلاق»، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث».

(٧) أخرجه الطبري (٥٠٠/٥) برقم: (١٤٧٠٠ - ١٤٧٠٥ - ١٤٧٠٦)، وذكره ابن عطية (٢/٤٠٤)، والبغوي (٢/١٦٢)، وابن كثير (٢/٢١٦)، والسيوطي (٣/١٦٣).

خيشمة^(١) بن سليمان في آخر الجزء الخامس عشر عن جابر بن عبد الله؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَوَضَّعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتُوزَنُ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ مِثْقَالَ ضَوْائِبٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ مِثْقَالَ ضَوْائِبٍ دَخَلَ النَّارَ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَمَنْ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؟ قَالَ: أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَظْمَعُونَ»^(٢).

وقيل غير هذا من التأويلات.

قال ع^(٣): واللازم من الآية أن على أعراف ذلك الشور، أو على مواضع مرتفعة عن القَرِيقَيْنِ حيث شاء الله تعالى رجالاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يتأخرون دخولهم، ويقع لهم ما وصف من الاعتبار.

ويعرفون كلاً بِسِيمَاهُمَا، أي: بِعَلَامَاتِهِمْ من بياض الوجوه، وَحُسْنِهَا في أهل الجنة، وَسَوَادِهَا وقبحها في أهل النَّارِ إلى غير ذلك في حَيَزِ هَؤُلَاءِ، وحيز هَؤُلَاءِ.

وقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَظْمَعُونَ﴾ المراد به: أهل الأعراف فقط، وهو تأويل ابن مسعود، والسدي، وقتادة، والحسن^(٤) وقال: واللّه ما جعل الله ذلك الطَّمَعِ في قلوبهم إلا لخير أَرَادَهُ بِهِم.

قال ع^(٥) * : وهذا هو الأظهر الأليق مما قيل في هذه الآية، ولا نَظَرَ لِأَحَدٍ مَعَ قول النبي ﷺ.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَيْكَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٧) وَكَادَتْ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَرْفُؤُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨﴾ أَهْتُلَاؤُ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٩﴾

(١) الإمام الثقة المَعْمَرُ، محدث الشام، أبو الحسن، خَيْثَمَةُ بن سليمان بن خَيْدَرَة بن سليمان، القُرشي، الشامي، الْأَطْرَائِلْسِي، مصنف «فضائل الصّحابة».

كان رَحَالاً جَوَالاً صاحب حديث. وثقة الخطيب، وقال: ثقة ثقة.

ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٥/٤١٢ - ٤١٣)، «العبر» (٢/٢٦٢)، «النجوم الزاهرة» (٣/٣١٢).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/١٦٢)، وعزاه إلى ابن عساكر، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٠٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٢/٤٠٥).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٠٥).

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: أبصار أصحاب الأعراف، فهم يسلمون على أصحاب الجنة، وإذا نظروا إلى النار، وأهلها، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قاله ابن عباس^(١)، وجماعة من العلماء.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَغْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ يريد من أهل النار.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ «ما» استفهام بمعنى التثغير، والتوبيخ، و«ما» الثانية مصدرية، و«جمعكم» لفظ يعم المال والأجناد والخول.

وقوله سبحانه: ﴿أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أهل الأعراف هم القائلون: «أهْوَاءَ» إشارة إلى أهل الجنة، والذين خوطبوا هم أهل النار، والمعنى: أهْوَاءَ الضُّعَفَاءِ فِي الدُّنْيَا الَّذِينَ حَلَفْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْبِئُ بِهِمْ، قيل لهم: ادخلوا الجنة.

وقال النقاش: أقسم أهل النار أن أصحاب الأعراف داخلون النار^(٢) معهم، فنادتهم الْمَلَائِكَةُ: أهْوَاءَ، ثم نادى أصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة.

وقرأ عكرمة^(٣): «دخلوا الجنة» على الإخبار بفعل ماضٍ.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غُلُقٍ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوُا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ فَبَلَّغُوا لَنَا مِنْ شَفَعَةٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ...﴾ الآية: لفظة النداء تتضمن أن أهل النار وَقَعَ لهم علم بأن أهل الجنة يسمعون نداءهم،

(١) أخرجه الطبري (٥٠٥/٥) برقم: (١٤٧٤٣) بلفظ: «إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وذكره ابن عطية (٤٠٥/٢) بمثله، وابن كثير (٢١٨/٢) بنحوه.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٠٦/٢)، والبغوي (١٦٣/٢) بنحوه، والسيوطي (١٦٦/٣) بنحوه، وعزاه للربيع.

(٣) ينظر: «الشواذ» (٤٩)، و«الكشاف» (١٠٧/٢)، و«المحتسب» (٢٤٩/١)، و«المحرر الوجيز» (٢/٤٠٦)، و«البحر المحيط» (٣٠٦/٤)، و«الدر المصون» (٢٧٦/٣).

وجائز أن يكون ذلك، وهم يرونهم بإدراك يجعله الله لهم على بُعد السفل من العلو، وجائز أن يكون ذلك، وبينهم السور والحجاب المتقدم الذكر.

وروي أن ذلك النداء هو عند اطلاع أهل الجنة عليهم.

وقوله سبحانه: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى الطعام. قاله السدي^(١).

فيقول لهم أهل الجنة: إن الله حرّم طعام الجنة وشرابها على الكافرين، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر الله تعالى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا﴾ أي بالإغراض والاستهزاء. بمن يدعوهم إلى الإسلام.

﴿وغرّتهم الحياة الدنيا﴾ أي: خدعتهم بزخرفها، واعتقادهم أنها الغاية القصوى.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ هو من إخبار الله عز وجل عما يفعل بهم والنسيان هنا

بمعنى التزك، أي: نتركهم في العذاب، كما تركوا النظر/ للقاء هذا اليوم. قاله ابن عباس^(٢) وجماعة.

«وما كانوا» عطف على «ما» من قوله: «كما نسوا»، ويحتمل أن تقدر «ما» الثانية زائدة، ويكون قوله: «وكانوا» عطفًا على قوله: «نسوا».

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ الضمير في «جئناهم» لمن تقدّم ذكره، و«الكتاب» اسم جنس، واللام في «لقد» لام قسم.

وقال يحيى بن سلام: بل الكلام تم في «يجحدون»، وهذا الضمير لمكذبي نبينا مُحَمَّدٍ ﷺ^(٣) وهو ابتداء كلام آخر، والمراد بالكتاب القرآن، و«على علم» معناه: على بصيرة.

وقوله سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ينتظرون «إلا تأويله»، أي مآله وعاقبته يوم القيامة. قاله ابن عباس^(٤) وغيره.

(١) أخرجه الطبري (٥٠٩/٥) برقم: (١٤٧٥٧)، وذكره ابن عطية (٤٠٦/٢)، وابن كثير (٢١٩/٢)، والسيوطي (١٦٦/٣)، وعزاه للسدي.

(٢) أخرجه الطبري (٥١٠/٥) برقم: (١٤٧٦٦ - ١٤٧٦٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٠٧/٢)، وابن كثير (٢١٩/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٠٧/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٥١٢/٥) برقم: (١٤٧٧٥)، وذكره ابن عطية (٤٠٨/٢)، وابن كثير (٢٢٠/٢)، والسيوطي (١٦٨/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقال السدي: مآله في الدنيا وقعة بذرٍ وغيرها، ويوم القيامة^(١) أيضاً، ثم أخبر تعالى أن مآل حال هذا الدين يوم يأتي يَقَعُ معه نَدْمُهُمْ، ويقولون تأسفاً على ما فاتهم من الإيمان: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾، فالتأويل على هذا من آل يؤول، ﴿ونسوه﴾ يحتمل أن يكون بمعنى الترك، وباقي الآية بيّن.

* ت * : وهذا التقرير يُرْجَحُ تأويل ابن سلام المتقدم.

﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ أَلْبَاحِلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْحَرَتِ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ الآية خطاب عام يقتضي التوحيد، والحجة عليه بدلائله، وجاء في التفسير والأحاديث أن الله سبحانه ابتداء الخلق يوم الأحد، وكملت المخلوقات يوم الجمعة، وهذا كله والساعة اليسيرة في قُدْرَةِ اللَّهِ سبحانه سواء.

قال * م * : ﴿في ستة أيام﴾ «سته» أصلها سِدْسَةٌ، فأبدلوا من السَّيْنِ تاء، ثم أدغموا الدال في التاء، وتصغيره سديس وسديسة. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ معناه عند أبي المعالي وغيره من خُذَّاق المتكلمين: الملك، والسلطان^(٢)، وخصَّ العرش بالذكرِ تشريفاً له؛ إذ هو أَعْظَمُ المخلوقات.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ «ألا»: استفتاح كلام. وأخذ المفسرون «الخلق» بمعنى المخلوقات، أي: هي كلها مِلْكُهُ، واختراعه، وأخذوا الأمر مَصْدَرًا من أمر يأمر.

قال * ع *^(٣): ويحتمل أن تؤخذ لفظة «الخلق» على المصدر من: خلق يخلق خَلْقًا، أي: له هذه الصفة؛ إذ هو المَوْجِدُ للأشياء بعد العَدَمِ، ويؤخذ الأمر على أنه واحد

(١) أخرجه الطبري (٥١٢/٥) برقم: (١٤٧٧٣)، وذكره ابن عطية (٤٠٨/٢)، والبيهقي (١٦٤/٢) بلفظ: «عاقبته»، والسيوطي (١٦٨/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٠٨/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٩/٢).

الأمور، فيكون بمنزلة قوله: ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾ [هود: ١٢٣] ﴿والى الله تُرجع الأمور﴾ [البقرة: ٢١٠].

وكيف ما تأولت الآية، فالجميع لله سبحانه.

و﴿تبارك﴾ معناه: عظم، وتعالى، وكثرت بركاته، ولا يوصف بها إلا الله سبحانه.

و﴿تبارك﴾ لا يتصرف في كلام العرب، فلا يقال منه: يتبارك، و﴿العالمين﴾ جمع عالم.

قوله عز وجل: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ هذا أمر بالدعاء، وتعبده به، ثم قرن سبحانه بالأمر به صفات تحسن معه. وقوله: ﴿تضرعاً﴾ معناه بخشوع، واستكانة، والتضرع لفظة تقتضي الجهر، لأن التضرع إنما يكون بإشارات جوارح وهيئات أعضاء تقترب بالطلب، و﴿خفية﴾ يريد في النفس خاصة، وقد أثنى الله سبحانه على ذلك في قوله سبحانه: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ [مريم: ٣]، ونحو هذا قول النبي ﷺ: «خير الذكر الخفي»^(١) والشرعية مقررة أن السر فيما لم يفرض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر.

* ت *: ونحو هذا لابن العربي لما تكلم على هذه الآية، قال: الأصل في الأعمال الفرضية الجهر، والأصل في الأعمال الثقلية السر، وذلك لما يتطرق إلى النفل من الرياء، والتظاهر بذلك في الدنيا، والتفاخر على الأصحاب بالأعمال، وقلوب الخلق جبلت بالميل إلى أهل الطاعة. انتهى / من «الأحكام».

وقوله سبحانه: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ يريد في الدعاء، وإن كان اللفظ عاماً، والاعتداء في الدعاء على وجوه منها: الجهر الكثير، والصباح، وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (١٨٧/١)، وفي «الزهد» ص: (١٠)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» ص: (٧٦) برقم: (١٣٧)، وأبو يعلى (٨١/٢ - ٨٢) برقم: (٧٣١)، وابن حبان (٢٣٢٣ - موارد)، من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليبة عن سعد بن أبي وقاص به. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨٤/١٠) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن ليبة، وقد وثقه ابن حبان، وقال: روى عن سعد بن أبي وقاص. قلت: وضعفه ابن معين، وبقي رجالهما رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٧/٧) كتاب «المغازي»، باب: غزوة خيبر، حديث (٤٢٠٥)، وفي (١٩١/١١) كتاب «الدعوات»، باب: الدعاء إذا علا عقبه، حديث (٦٣٨٤)، وفي (٢١٧/١١) كتاب «الدعوات»، =

ومنها: أن يدعو في مُحَالٍ، ونحو هذا من التشطُّط؛ وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَغْتَدُونَ فِي الدَّعَاءِ، وَحَسْبُ الْمَرْءِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ، أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ، أَوْ عَمَلٍ»^(١).

وقال البخاري: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: في الدعاء وغيره. انتهى.

* ت *: قال الخطابي: وليس معنى الاغْتِدَاءِ الإكثار، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُلْحِينَ فِي الدَّعَاءِ»^(٢)، وقال: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَكْثِرْ، فَإِنَّمَا هُوَ يَسْأَلُ رَبَّهُ»^(٣). انتهى.

وروى أبو داود في «سُنَنِهِ» عن عبد الله بن مُعْفَلٍ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَغْتَدُونَ فِي الطُّهْرِ وَالْدَّعَاءِ»^(٤) انتهى.

= باب: قول لا حول ولا قوة إلا بالله، حديث (٦٤٠٩)، وفي (٣٨٤/١٣) كتاب «التوحيد»، باب: «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا»، حديث (٧٣٨٦)، ومسلم (٢٠٧٦/٤) كتاب «الذكر والدعاء»، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث (٤٤ - ٤٥/٢٧٠٤)، وأبو داود (٤٧٨/١) كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، حديث (١٥٢٦)، و(١٥٢٧)، و(١٥٢٨)، والترمذي (٤٥٧/٥)، كتاب «الدعوات» باب: (٣)، حديث (٣٣٧٤)، وابن ماجه (١٢٥٦/٢) كتاب «الأدب» باب: ما جاء في لا حول ولا قوة إلا بالله، حديث (٣٨٢٤)، وأحمد (٤٠٢/٤)، وأحمد (٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩)، وأبو يعلى (١٣/٢٤١) برقم: (٧٢٥٢)، وابن حبان (٧٩٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٥٢١) كلهم من طريق أبي عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه أحمد (١٧٢/١)، وأبو داود (٤٦٦/١ - ٤٦٧) كتاب «الصلاة» باب: الدعاء، حديث (١٤٨٠)، والطبراني في «الدعاء» (٥٥)، وابن أبي شيبة (٢٨٨/١٠)، وأبو يعلى (٧١/١٠) برقم: (٧١٥) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٤٥٢/٤) من طريق يوسف بن السفر عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة مرفوعاً.

وأسند العقيلي عن البخاري قوله في يوسف بن السفر: منكر الحديث، والحديث موضوع؛ أفته يوسف هذا.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٤/١١) كتاب «الدعوات» باب: ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، حديث (٦٣٣٨) ومسلم (٢٠٧٣/٤) كتاب «الذكر والدعاء» باب: العزم، حديث (٢٦٧٩/٩)، وأحمد (٤٨٦/٢) وأبو داود (٤٦٧/١) كتاب «الصلاة»، باب: الدعاء، حديث (١٤٨٣) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه أبو داود (٧٢/١) كتاب «الطهارة» باب: الإسراف في الماء، حديث (٩٦)، وابن ماجه (٢/١٢٧١) كتاب «الدعاء» باب: كراهية الاعتداء في الدعاء، حديث (٣٨٦٤)، وأحمد (٨٧/٤) (٥٥/٥)، وابن أبي شيبة (٢٨٨/١٠)، والحاكم (١٦٢/١)، وابن حبان (٦٧٦٤)، والطبراني في «الدعاء» (٥٩) =

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية ألفاظها عامة تتضمن كل فساد قل أو كثر بعد صلاح قل أو كثر، والقصد بالنهي هو [على] العموم، وتخصيص شيء دون شيء، في هذا تحكم إلا أن يقال على جهة المثال.

وقوله سبحانه: ﴿وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة تقرب، وتحرز، وتأميل لله عز وجل حتى يَكُونُ الخَوْفُ والرجاء كالجَنَاحَيْنِ للطير يَحْمِلَانِيهِ في طريق استقامة، وإن انفرد أحدهما هَلَكَ الإنسان.

وقد قال كثير من العلماء: ينبغي أن يَغْلِبَ الخَوْفُ الرجاء طول الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء.

وقد رأى كثير من العلماء أن يكون الخَوْفُ أغلب على المرء بكثير، وهذا كله طريق احتياط، ومنه تَمَتَّى الحسن البصري أن يكون الرجل الذي هو آخِرُ مَنْ يدخل (١) الجنة، وتَمَنَّى سَالِمُ مولى أبي حذيفة أن يكون من أَصْحَابِ الْأَغْرَافِ (٢).

ثم آنَسَ سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالًا سُقْنَهُ إِلَيْكِ مِيزَينَ فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُ لَكُمْ نَذِيرًا﴾ (٥٧) **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتًا وَيَذِين رَبِّهِ وَالَّذِي حَبَّتْ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْأَنْبَاءَ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** (٥٨)

وقوله سبحانه: ﴿وهو الذي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالًا...﴾ الآية: هذه آية اعتبار، واستدلال. وقرأ عاصم (٣) «الرياح» بالجمع، «بُشْرًا»

= كلهم من طريق حماد بن سلمة، عن سعيد الجريري، عن أبي دغامة، عن عبد الله بن مغفل به. وأخرجه أحمد (٨٦/٤) من طريق حماد بن سلمة، عن يزيد الرقاشي، عن أبي دغامة، عن ابن المغفل به.

(١) ذكره ابن عطية (٤١١/٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٤١١/٢).

(٣) ينظر: «السبعة» (٢٨٣)، و«الحجة» (٣١/٤، ٣٢)، و«حجة القراءات» (٢٨٥)، و«إعراب القراءات» (١٨٦/١)، و«شرح شملة» (٣٩١)، و«شرح الطيبة» (٢٩٩/٤)، و«العنوان» (٩٦)، و«إتحاف» (٢/٥٣)، و«معاني القراءات» (٤٠٨/١، ٤٠٩).

بالباء المضمومة والشين الساكنة، وروي عنه «بُشْرًا» بضم الباء والشين، ومن جمع الريح في هذه الآية، فهو أسعد؛ وذلك أن الرِّيحَ حيث وَقَعَتْ في القرآن فهي مقترنة بالرحمة، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُزِيلَ الرِّيحَ مَبْشُرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وأكثر ذِكْرِ الريح مفردة إنما هو بقرينة عَذَابٍ، كقوله سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] وقد تقدم إيضاح هذا في «سورة البقرة».

ومن قرأ في هذه الآية «الريح» بالإنفراد، فإنما يريد به اسم الجنس، وأيضاً فتقيدها بـ «بشراً» يزيل الاشتراك.

والإِزْسَالُ في الريح هو بمعنى الإجراء، والإطلاق، وبُشْرًا، أي: تَبَشُّرُ السحابِ، وأما «بُشْرًا» بضم الباء والشين، فجمع بَشِيرٍ، كنذير وتُذَوِّرُ، والرحمة في هذه الآية المَطَرُ، و﴿بَيْنَ يَدَيَّ﴾، أي: أمام رحمته وقدامها، و﴿أَقْلَّتْ﴾ معناه: رفعت من الأرض، واستَقَلَّتْ به، و﴿ثِقَالًا﴾ معناه من الماء، والعَرَبُ تُصِفُ السحاب بالثَقَلِ، والرَّيحُ تَسُوقُ السحاب من ورائه فهو سوق حقيقة، والضمير في «سُقْنَاهُ» عائد على السحاب، ووصف البلد بالمَوْتِ استعارة بسبب شعثه وجدوبته.

والضمير في قوله «فأنزلنا به» يحتمل أن يَعُودَ على السحاب، أي منه، ويحتمل أن يعود على البلد، ويحتمل أن يعود على الريح.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ يحتمل مقصدين:

أحدهما: أن يراد كهذه/ القُدْرَةِ العظيمة هي القدرة على إحياء الموتى، وهذا مثال ١٩١ ب لها.

الثاني: أن يراد أن هكذا نَصْنَعُ بالأموات من نزول المَطَرِ عليهم، حتى يحيوا به، حَسَبَ ما وردت به الآثار، فيكون الكلام خبراً لا مثلاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ...﴾ آية مُتَمِّمَةٌ للمعنى الأول في الآية قبلها، معرفة بِعَادَةِ اللَّهِ سبحانه في إنبات الأرضين، فمن أراد أن يجعلها مثلاً لقلب المؤمن، وقلب الكافر، كما هو محكي عن ابن عَبَّاسٍ، ومجاهد، وقتادة، والسدي^(١)، فذلك مترتب، لكن أَلْفَاظُ الآية لا تقتضي أن المَثَلُ قصد به ذلك، والطيب: هو الجَيِّدُ الثَّرَابِ الكَرِيمُ الْأَرْضِ وخص بإذن ربه مَدْحًا وتشريفًا، وهذا كما تقول لمن تغضُّ منه: أنت

(١) أخرجه الطبري (٥١٩/٥) برقم: (١٤٧٩٤)، وذكره ابن عطية (٤١٤/٢)، وذكره ابن كثير (٢/٢٢٢).

﴿ليس بي ضلالة﴾ مبالغة في حُسْنِ الأدب، والإعراض عن الجَفَاءِ منهم، وتناول رفيق، وسعة صدر حَسَبَ ما تقتضيه خُلُقُ النبوة.

وقوله: ﴿ولكنِّي رَسُولٌ﴾ تعرض لمن يريد النظر، والبَحْثَ، والتأمل في المعجزة.

وقوله عليه السلام: ﴿وأعلم مِنَ اللَّهِ ما لَا تَعْلَمُونَ﴾ لفظ مُضْمَنُ الوَعِيدِ، لا سيما وهم لم يسمعوا قَطُّ بأمة عذبت.

وقوله: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ.

الاستفهام هنا على جِهَةِ التقرير والتوبيخ، وقوله: ﴿على رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ قيل: «على» بمعنى «مع».

وقيل: هو على حَذَفِ مضاف، تقديره: على لسان رجل، ويحتمل أن يكون معناه منزل على رَجُلٍ مِنْكُمْ؛ إذ كل ما يأتي من اللَّهِ سبحانه فله حُكْمُ النزول، و﴿لعلكم﴾ تَرْجُ بحسب حال نوح ومعتقده.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ...﴾ الآية.

وفي التفسير: إن الذين كانوا مع نوح في السفينة أربعون رجلاً.

وقيل: ثمانون رجلاً وثمانون امرأة وقيل: عشرة وقيل: ثمانية. قاله قتادة.

وقيل: سبعة. والله أعلم.

وفي كثير من كتب الحديث؛ التزمذي وغيره أن جَمِيعَ الْخَلْقِ الْآنَ مِنْ ذُرِّيَّةِ نوح عليه السلام وقوله: ﴿عمين﴾ جمع عَمٍ، ويريد عَمِيَّ البَصَائِرِ، وأتى في حديث الشفاعة وغيره أن نُوحًا أَوَّلُ الرسل^(١).

﴿وَلَا يَدْعُو لِنَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَعُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَنْفَعُ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنَّ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أَتَيْتُكُمْ بِرَبِّ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ

أَمِينٌ ﴿٧٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنِيتُمْ بِنَا نَعْبُدَ اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهِ﴾ ١٩٢ / أَفَلَا تَتَّقُونَ * قال المَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أبلغكم رسالاتِ رَبِّي وأنا لكم ناصِحٌ أَمِينٌ ﴿عاد اسم الحي، وهم عربٌ فيما يذكر، وأخاهم﴾ نصب بـ «أرسلنا» وهو معطوف على نوح، وهذه أيضاً نذارة من هود عليه السلام.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استعطاف إلى التقوى، والإيمان.

وقوله: ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ * قالوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنِيتُمْ بِنَا نَعْبُدَ اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ *.

قوله: ﴿وزادكم في الخلقِ﴾ أي في الخِلْقَةِ، والبَسْطَةُ الكمال في الطول والعرض.

وقيل: زادكم على أهل عصركم.

وقال الطبري: زادكم على قَوْمِ نوح. وقاله قتادة^(١).

قال * ع^(٢) * : واللفظ يقتضي أن الزيادة على جميع العالم، وهو الذي يقتضيه ما يذكر عنهم.

وروي أن طُولَ الرجل منهم كان مائة ذِرَاعٍ، وطول أقصرهم سِتُّونَ ونحوها. والآلاء جمع «إلى» على مثل «معى»، وهي النعمة والمنة.

قال الطبري: وعاد هؤلاء فيما حدث ابن إسحاق من ولد عاد بن إرم بن عوض بن سَامِ بن نوح، وكانت مساكنهم «الشحر» من أرض «اليمن» وما والى «حَضْرَمَوْتَ» إلى «عمان»^(٣).

(١) ذكره ابن عطية (٤١٧/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٨/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٥٢٤/٥) برقم: (١٤٨٠٩)، وذكره ابن عطية (٤١٨/٢).

قال السدي: وكانوا بالأخفاف، وهي الرمال، وكانت بلادهم أخصب بلاد، فردها الله صحارى^(١).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن قبر هود عليه السلام هنالك في كثير أحمر تحالطه مدرة ذات أراك وسدر، وكانوا قد فشوا في جميع الأرض، وملكوا كثيراً بقوتهم وعدديهم، وظلموا الناس وكانوا ثلاثة عشر قبيلة، وكانوا أصحاب أوثان، فبعث الله إليهم هوداً من أفضلهم وأوسطهم نسباً، فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه وإلى ترك^(٢) الظلم.

قال ابن إسحاق: ولم يأمرهم فيما يذكر بغير^(٣) ذلك، فكذبوه وعتوا، واستمروا على ذلك إلى أن أراد الله إنفاذ أمره أمسك عنهم المطر ثلاث سنين، فشقوا بذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا دهمهم أمر، فزعدوا إلى المسجد الحرام بـ «مكة» فدعوا الله فيه تعظيماً له مؤمنهم وكافرهم، وأهل «مكة» يومئذ العماليق، وسيدهم رجل يسمى معاوية بن بكر، فاجتمعت عاد على أن تجهز منهم وفداً إلى «مكة» يستسقون الله لهم، فبعثوا قيل بن عتر، ولقيم بن هزال، وعثيل بن ضد بن عاد الأكبر، ومرثد بن سعد، وكان هذا مؤمناً يكتم إيمانه، وجلهمة بن الخير في سبعين رجلاً من قومهم، فلما قدموا «مكة» نزلوا على معاوية بن بكر، وهو بظاهر «مكة» خارج الحرم، فأنزلهم، وأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان قيتتا معاوية، ولما رأى معاوية إقامتهم، وقد بعثهم عاد للغوث أشفق على عاد، وكان ابن أختهم أمه: كلهدة ابنة الخير أخت جلهمة، وقال: هلك أخوالي، وشق عليه أن يأمر أضيافه بالانصراف عنه، فشكا ذلك إلى قيتتيه، فقلتا: اصنع شعراً نغني به، عسى أن ننبههم، فقال: [الوافر]

أَلَا يَا قَيْلُ وَيَحَاكَ قُمْ فَهَيْنِمَ لَعَلَّ اللَّهَ يُضِيحُنَا غَمَامَا
فَيْسَقِي أَرْضَ عَادٍ إِنَّ عَادَا قَدْ أَمْسَوْا لَا يَبِيئُونَ الْكَلَامَا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَزْجُو بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا الْغُلَامَا
وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمْ عِيَامَا

(١) أخرجه الطبري (٥٢٤/٥) برقم: (١٤٨١٠)، وذكره ابن عطية (٤١٨/٢)، والسيوطي (١٧٨/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره ابن عطية (٤١٨/٢)، وابن كثير (٢٢٤/٢) بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٥٢٤/٥) برقم: (١٤٨١٢)، وذكره ابن عطية (٤١٨/٢)، والسيوطي (١٧٨/٣)، وعزاه لإسحاق بن بشر، وابن عساكر.

وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ وَلَا تَخْشَى لِعَادِي سِهَامَا
فَقُبِّحَ وَفَدُكُم مِّنْ وَفْدِ قَوْمٍ نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ الثَّمَامَا
وَلَا لُقُوا الثَّجِيَّةَ وَالسَّلَامَا^(١)

فغنت به الجَرَادَتَانِ، فلما سمعه القَوْمُ قال بعضهم: يا قوم إنما بعثكم قومكم لما حلَّ بهم، فادخلوا هذا الحَرَمَ، وادعوا لَعْلَ الله يغيثهم فخرجوا لذلك، فقال لهم مرثد بن سعد: إنكم والله ما تسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم وآمتهم سقيتم، وأظهر إيمانه يومئذٍ، فَخَالَفَهُ الْوَفْدُ، وقالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر: احبسنا عنا مرثداً، ولا يدخل معنا الحَرَمَ، فإنه قد اتبع هوداً، وَمَضُوا إِلَى الْحَرَمِ، فاستسقى قيل بن عذر، وقال: يا إلهنا إن كان هود صادقاً، فاسقنا، فإننا قد هلكنا، فأنشأ الله تعالى سحائب ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نادى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: يَا قَيْلُ اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب ما شئتَ، فقال قيل: قد اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماءً، فنودي:

قَدْ اخْتَرْتُ رَمَاداً رَمَدَدَا لَا تُبْقِي مِّنْ عَادٍ أَحَدَا
لَا وَإِلْدَاً وَلَا وَلْدَا إِلَّا جَعَلْتُهُمْ هَمَدَا

وساق الله السَّحَابَةَ السوداء التي اختارها قيل إلى عاد حتى خرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له: الْمُغِيثُ، فلما رأوها، قالوا هذا عَارِضٌ ممطرنا، حتى عرفت أنها ريح امرأة منهم يقال لها: مهدر، فصاحت وصعقت، فلما أفاق قيل لها: ما رأيت؟ قالت: ريحاً فيها كُشْهِبُ النَّارِ، أمامها رجال يَفْقُودُونَهَا، فسخرها الله عليهم سَبْعَ لَيَالٍ، وثمانية أيام حُسُوماً، وَالْحُسُومُ: الدائمة، فلم تَدَعْ من عَادٍ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، فاعتزل هود، ومن معه من الْمُؤْمِنِينَ فِي حَظِيرَةٍ ما يصيبه من رِيحٍ إِلَّا ما يَلْتَدُّ بِهِ.

قال *ع^(٢)*: وهذا قصص وقع في «تفسير الطبري» مطولاً، وفيه اختلاف، فاقتضيت عيون ذلك بحسب الإيجاز، وفي خبرهم: أن الريح كانت تَذْمَعُهُمْ بِالْحِجَارَةِ، وترفع الظَّعِينَةَ عليها المرأة حتى تلقىها في البحر.

وفي خبرهم: أن أقوياءهم كان أحدهم يسدّ بنفسه مَهَبَّ الرِّيحِ حتى تَغْلِبَهُ فتلقيه في الْبَحْرِ، فيقوم آخر مكانه حتى هَلَكَ الْجَمِيعُ. وقال زيد بن أسلم: بلغني أن ضُبْعاً رَبَّثَ

(١) الآيات في «الكامل» (٨٦/١)، و«تاريخ الطبري» (٢٢٠/١)، و«المحرر الوجيز» (٤١٨/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٩/٢).

أولادها في جِجَاجٍ عَيْنٍ رَجُلٍ مِنْهُمْ. وفي خبرهم: أن الله سبحانه لما أهلكهم بَعَثَ طيراً، فنقلت جِيفَهُمْ حَتَّى طَرَحَتْهَا فِي الْبَحْرِ، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] وفي بعض ما رُوِيَ من شأنهم أن الريح لم تُبْعَثْ قط إِلَّا بِمَكْيَالٍ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، فَإِنِهَا عَثَّتْ عَلَى الْخَزَنَةِ، فغلبتهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صِرَاصٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] وروي أن هوداً لما هلك عاد نزل بمن آمن معه إلى «مكة» فكانوا بها حتى مَاتُوا، فالله أعلم أي ذلك كَانَ.

وقولهم: ﴿أَجِئْنَا لِتُعْبَدَ اللَّهُ وَخَدَهُ...﴾ الآية: ظاهر قولهم وحده أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم، ويفردون العبادة لله مع إقرارهم بالإله الخالق المبدع، وهذا هو الأظهر فيهم، وفي عباد الأوثان كلهم، ولا يجحد ربوبية الله تعالى من الكفرة إلا مَنْ أفرطت غباوته.

وقولهم: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾: تَضَمِينٌ عَلَى التَّكْذِيبِ، واستعجالٌ للعقوبة.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٧١) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢)

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ * فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا... الآية: أعلمهم بأن القضاء قد نفذ، وحل عليهم الرجز، وهو السخط والعذاب.

/ وقوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ أي: في مسميات سميتوها آلهة، ١١٩٣ ﴿وقطعنا دابر﴾ استعارة تُسْتَعْمَلُ فِيمَنْ يُسْتَأْصَلُ بِالْهَلَاكِ، والدابر: الذي يَدْبُرُ القوم، ويأتي خَلْفَهُمْ، فإذا انتهى القطع والاستتصال إلى ذلك، فلم يبق أحد.

وقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ دالٌّ على المعجزة، وإن لم تتعين.

* ت * ومن مُعْجَزَاتِهِ قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ [هود: ٥٥] على ما سيأتي إن شاء الله في موضعه.

﴿وَالَّذِي تُمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحاً قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ

بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قرأ الجمهور: «والى ثمود» بغير ضَرْفٍ^(١)؛ على إرادة القبيلة، وقرأ يحيى بن وثاب^(٢) والأعمش: «والى ثمود» بالصرف؛ على إرادة الحي والقراءتان فصيحتان، مستعملتان، وقد قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨]، و﴿أَخَاهُمْ﴾ عطف على «نوح»، والمعنى: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم، وهي أخوة نسب، وهم قوم عرب، فهوذ وصالح عربيان، وكذلك إسماعيل وشعيب؛ كذا قال الناس، وفي أمر إسماعيل نظر.

* ت *: النظر الذي أشار إليه لا يخفى عليك؛ وذلك أن إسماعيل والد إسماعيل عليه السلام أعجمي، وتعلم إسماعيل العربية من العرب الذين نزلوا عليه بمكة؛ حسب ما ذكره أهل السيرة فهذا وجه النظر الذي أشار إليه، وفي نظره رحمه الله نظر يمنعني من البحث معه ما أنا له قاصد من الإيجاز والاختصار، دون البسط والانتشار، نعم خرج أبو بكر الأجرى من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ: «وَأَزَيَعَةُ مِنَ الْعَرَبِ: هُودٌ، وَشُعَيْبٌ، وَصَالِحٌ وَنَبِيُّكَ، يَا أَبَا ذَرٍّ» انتهى، ولم يذكر إسماعيل، فهذا الحديث قد يغضد ما قاله * ع *: وصالح عليه السلام هو صالح بن عبيد بن عابر بن إرم بن سام بن نوح؛ كذا ذكر^(٣) مكِّي.

قال وهب^(٤): بعثه الله حين راهق الحلم، ولما هلك قومه، ارتحل بمن معه إلى مكة، فأقاموا بها حتى ماتوا فقبورهم بين دار الندوة والجحر، أي: كما ارتحل هود بمن معه إلى مكة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(١) ينظر: «الكشاف» (١٢٠/٢)، و«المحرر الوجيز» (٤٢٠/٢)، و«البحر المحيط» (٣٣٠/٤)، و«الدر المصون» (٢٩٢/٣).

(٢) ينظر: «الشواذ» ص: (٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٤٢٠/٢)، و«البحر المحيط» (٣٣٠/٤)، و«الدر المصون» (٢٩٢/٣)، و«التخريجات النحوية» (١٥٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٢١/٢).

(٤) ذكره ابن عطية (٤٢١/٢)، وابن كثير (٢٣٠/٢) بنحوه، والسيوطي (١٨٥/٣) بنحوه، وعزه لوهب.

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَةَ يَدَيْكُمْ﴾ أي: آية أو حجة أو موعظة بينة من ربكم، قال بعض الناس: إن صالحاً جاء بالناقة من تلقاء نفسه.

وقال الجمهور: بل كانت مفترحة، وهذا اليق بما ورد في الآثار من أمرهم، روي أن قومه طلبوا منه آية تضطرهم إلى الإيمان، وقالوا: يا صالح، إن كنت صادقاً، فأدع لنا ربك يخرج لنا من هذه الهضبة، وفي بعض الروايات من هذه الصخرة - لصخرة بالجحر - ناقة عسراء، فدعا الله، فتمخضت تلك الهضبة، وأنشقت عن ناقة عظيمة، وروي أنها كانت حاملاً، فولدت سقبا المشهور.

وروي أنه خرج معها فصيلها من الصخرة.

وقيل لها: ﴿ناقة الله﴾؛ تشريفاً لها، وتخصيصاً، وهي إضافة خلق إلى خالق، وجعل الله لها شرباً يوماً، ولهم شرب يوم، وكانت آية في شربها وحلبها.

قال المفسرون: كانت خلقاً عظيماً تأتي إلى الماء بين جبلين، فيزحمانها من العظم، وقاسمت ثمود في الماء يوماً بيوم، فكانت الناقة ترد يومها، فتستوفي ماء بثرهم شرباً، ويحلبونها ما شاؤوا من لبن، ثم تمكث يوماً، وترد بعد ذلك غباً، فاستمر ذلك ما شاء الله حتى ملتها ثمود، وقالوا: ما نضغ باللبن؛ الماء أحب إلينا منه، وكان سبب الملل فيما روي: أنها كانت تصيف في بطن الوادي، وادي الحجر / وتشتو في ظاهره، فكانت ١٩٣ ب مواشيهم تفر منها، فتمالؤوا على ملل الناقة، وروي أن صالحاً أوحى الله إليه أن قومك سيغفرون الناقة، وينزل بهم العذاب عند ذلك، فأخبرهم بذلك، فقالوا: عياداً بالله أن نفعل ذلك، فقال: إن لم تفعلوا أنتم أو شك أن يولد فيكم من يفعله، وقال لهم صفة عاقبها: أحمراً، أشقر، أزرق، فولد قدار على الصفة المذكورة، فكان الذي عقرها بالسيف، وقيل: بالسهم في ضرعها، وهرب فصيلها عند ذلك؛ حتى صعد على جبل يقال له القارة، فرعاً ثلاثاً، فقال: يا صالح، هذا ميعاد ثلاثة أيام للعذاب، وأمرهم قبل رغاء الفصيل أن يطلبوه عسى أن يصلوا إليه، فيندفع عنهم العذاب به، فرأوا الصعود إليه في الجبل فارتفع الجبل في السماء؛ حتى ما تناله الطير؛ وحينئذ رغا الفصيل، وروي أن صالحاً عليه السلام قال لهم، حين رغا الفصيل: ستصفر وجوهكم في اليوم الأول، وتحمر في الثاني، وتسود في الثالث، فلما ظهرت العلامات التي قال لهم، أيقنوا بالهلاك، وأستعدوا، ولطخوا أبدانهم بالمر، وحفروا القبور، وتحنطوا وتكفنوا في الأنطاع، فأخذتهم الصيحة، وخرج صالح ومن آمن معه؛ حتى نزل زملة فلسطين، وقد أكثر الناس في هذا القصص، وهذا القدر

كافٍ، وَمِنْ أَرَادَ اسْتِيفَاءَ هَذَا الْقِصَصِ، فَلْيَطَالِعِ الطَّبْرِيَّ^(١).

قال * ع^(٢) * : * وَبِلَادُ ثُمُودَ هِيَ بَيْنَ الشَّامِ وَالْمَدِينَةِ، وَهِيَ الَّتِي مَرَّ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ^(٣) فَقَالَ: «لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، ثُمَّ أَعْتَجَرَ^(٤) بِعِمَامَةٍ، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ، حَتَّى جَاَزَ الْوَادِي ﷺ.

* ت * : وَلَفْظُ الْبَخَارِيِّ: ثُمَّ قَتَعَ رَأْسَهُ، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ... الْحَدِيثُ^(٥).

(١) ينظر: الطبري في «تفسيره» (٥/٥٣٠، ٥٣١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٢٢).

(٣) «غزوة تبوك»: في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة - لما رجع رسول الله ﷺ من حصار الطائف إلى المدينة ببلغه أن هرقل ملك الروم ومن عنده من منتصرة العرب قد حشدوا له جمعاً كثيراً يريدون غزوه في عقر داره، فأراد أن يلاقيهم على حدود بلادهم قبل أن يغشوه على غرة، فسار بجيشه حتى وصل تبوك، وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته، فأثرت الانسحاب بجيشها، لتحصن في داخل بلاد الشام، فرأى النبي ﷺ أن من الحكمة ألا يتبعهم داخل بلادهم، فلم يتبعهم. وهناك جاء يوحنا بن روبة، فصالحه على الجزية كما صالحه أهل «جرباء» وأهل «أذرح» من بلاد الشام، وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب «دومة الجندل»، فأتى به خالد أسيراً بعد أن قتل أخاه، فحقن رسول الله ﷺ دمه، وصالحه على الجزية وأخلى سبيله. وأقام بضع عشرة ليلة لم يقدم عليه الروم ولا العرب المنتصرة فعاد إلى المدينة.

ولما بلغ ملك الروم ما فعله يوحنا أمر بقتله، وصلبه عند قريته. لم يكن من المعقول بعد ذلك أن يتهاون المسلمون فيما أصابهم من قتل رسولهم وأبطالهم ومُعَاهِدِهِمُ الَّذِي أَمْنُوهُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ بِأَخْذِ الْجَزْيَةِ، وَإِعْطَاءِ الْعَهْدِ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعْقُولاً أَنَّ الرُّومَ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا حُضُورَ الْمُسْلِمِينَ لِلْقِصَاصِ يَكْفُونَ عَنْ مَنَاجِزَتِهِمْ وَالْإِيقَاعِ بِهِمْ أَيْنَمَا وَجَدُوا لِذَلِكَ سَبِيلاً.

لهذا عاد النبي ﷺ في آخر حياته إلى تجهيز جيش آخر تحت إمرة أسامة بن زيد، ولكن لم يكد يتم أمره حتى قبض الرسول صلوات الله عليه، وانتقل إلى الرفيق الأعلى، وتولى أمر المسلمين بعده صاحبه أبو بكر، فارتأى رضي الله عنه أن الحزم في إنفاذ هذا الجيش حتى لا يطمع في الإسلام أعداؤه، ويتألب عليه خصومه، وتوات بعد ذلك حروب الروم حتى فتح المسلمون بلادهم في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بعد نضال عنيف، وحروب كثيرة.

(٤) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه، وَيَزْدُ طَرَفُهَا عَلَى وَجْهِهِ، وَلَا يَعْمَلُ مِنْهَا شَيْئاً تَحْتَ ذَقْنِهِ. ينظر: «النهاية» (٣/١٨٥).

(٥) أخرجه البخاري (٧/٧٣١) كتاب «المغازي» باب: نزول النبي ﷺ الحجر، حديث (٤٤١٩)، ومسلم

(٤/٢٢٨٦) كتاب «الزهد والرقائق» باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، حديث (٣٩/

٢٩٨٠)، وأبو يعلى (٩/٤٢٥) رقم (٥٥٧٥) كلهم من طريق الزهري عن سالم، عن أبيه. وأخرجه

البخاري (٧/٧٣١) كتاب «المغازي» باب: نزول النبي ﷺ الحجر، حديث (٤٤٢٠)، ومسلم (٤/

٢٢٨٥) كتاب «الزهد والرقائق» باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، حديث (٣٨/٢٩٨٠)، =

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّبِعُونَ مِنْ شُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صُلَيْحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتَيْنَا بِمَا نَعُدُّا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٧٨﴾ فَنَوَّلْنَاهُمْ مِنْ بَنَاهُمْ لَعْنَةُ رَبِّ عَلَى النَّاصِيَةِ ﴿٧٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض...﴾ الآية: ﴿بوأكم﴾: معناه مكأنكم، وهي مستعملة في المكان وظروفه، و«القصور»: جمع قصر، وهي الديار التي قصرت على بقاع من الأرض مخصوصة؛ بخلاف بيوت العمود، وقُصِرَتْ على الناس قصرًا تامًا، و«النحت»: النجر والقشر في الشيء الصلب؛ كالحجر والعود، ونحوه، وكانوا ينحتون الجبال لطول أعمارهم، و«تعتوا» معناه تُفسدوا. قال أبو حيان^(١): و«مُفْسِدِينَ»: حالٌ مؤكدة. انتهى.

و«الذين استكبروا» هم الأشراف والعظماء الكفرة، و«الذين استضعفوا»: هم العامة والأغفال في الدنيا، وهم أتباع الرسل، وقولهم: ﴿أتعلمون﴾: استفهام؛ على معنى الاستهزاء والاستخفاف، فأجاب المؤمنون بالتصديق والصرامة في دين الله، فحملت الأنفة الأشراف على مناقضة المؤمنين في مقالته، واستمروا على كفرهم.

وقوله سبحانه: ﴿فعقروا الناقة﴾ يقتضي بتشريكتهم أجمعين في الضمير أن عقر الناقة كان على تَمَالُؤٍ منهم واتفاق، وكذلك رُوي أن قُدَارًا لم يعقرها حتى كان يستشير، و«عتوا»: معناه: خُسِنُوا وُصِّلُوا، ولم يدعوا للأمر والشرع، وصمموا على تكذيبه، وأستعجلوا النقمة بقولهم: ﴿أئتينا بما تعدنا﴾، فحلَّ بهم العذاب، و«الرجفة»: ما تؤثره الصيحة أو الطامة التي يَرْجِفُ بها الإنسان، وهو أن يتحرك ويضطرب/، ويرتعد؛ ومنه: «فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجِفُ فَوَّادُهُ» وروي أن صيحة ثمود كان فيها من كل صوت مهول، وكانت مفطرة شَقَّتْ قُلُوبَهُمْ، فجثموا على صدورهم، والجاثم اللأطىء^(٢) بالأرض

وأحمد (٢/٩، ٥٨)، والحميدي (٢/٢٩٠) برقم: (٦٥٣) كلهم من طريق عبد الله بن دينار، عن ابن عمر.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤/٣٣٢).

(٢) لطأت بالأرض ولطئت أي: لزقت.

ينظر: «اللسان» (٤٠٣٨) (لطا).

على صدره، ف﴿جاثمين﴾: معناه: باركين قد صُعبَ بهم، وهو تشبيه بجثوم الطير، وجثوم الرماح، وقال بعض المفسرين: معناه: حميماً محترقين؛ كالرماح الجاثم، وذهب صاحب هذا القول إلى أن الصيحة أقتَرَنَ بها صواعقٌ مُخرِقةٌ، وروي أن الصيحة أصابت كلَّ مَنْ كان منهم في شَرْقِ الأرض وعَزَبَها إلَّا رجلاً كان في الحَرَم، فمَنعه الحَرَمُ ثُمَّ هَلَكَ بَعْدَ خروجه من الحَرَم؛ ففي «مُصَنَّف أبي داود»، قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَنْ ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: أَبُو رُغَالٍ^(١)، وذكره الطبري أيضاً عن النبي ﷺ، وهذا الخبر يردُّ ما في السير من أن أبا رُغَالٍ هو دليلُ الفيل، وقوله: ﴿فتولَّى عنهم﴾، أي: تولَّى عنهم وقت عَفْرِ الناقة، وذلك قبل نزول العذاب؛ وكذلك رُوِيَ أنه عليه السلام خَرَجَ مِنْ بين أظهرهم قبل نزول العذاب، وهو الذي تقتضيه مخاطبته لهم، ويحتمل أن يكون خطابُهُ لهم وهُمْ موتى؛ على جهة التفتُّع عليهم، وذكر حالهم أو غير ذلك؛ كما خاطب النبي ﷺ أهل قليب بذر. قال الطبري؛ وقيل: إنه لم تَهْلِك أُمَّة، ونبيُّها^(٢) معها، ورُوِيَ أنه ارتحلَ بَمَنْ معه حتَّى جاء مَكَّةَ، فأقام بها حتَّى مات، ولفظ التولَّى يقتضي اليأس مِنْ خَيْرِهِمْ، واليقينَ في إهلاكهم، وقوله: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾: عبارة عن تغليبهم الشهوات على الرأي السديد؛ إذ كلامُ الناصح صَغْبٌ مُضَادٌّ لشهوة الذي يُنصَح، ولذلك تقول العرب: أَمَرُ مُبْكِيَاتِكَ لَا أَمْرُ مُضْجِكَاتِكَ.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٥) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (٨٦) ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ (٨٧) ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٨) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٩)

وقوله سبحانه: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون * وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون * فأنجينا وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فأنظر كيف كان عاقبة المجرمين.

لوط عليه عليه السلام بعثه الله سبحانه إلى أمة تسمى «سَدُومَ» ورُوِيَ أنه ابنُ أخي

(١) أخرجه أبو داود (١٩٨/٢) كتاب «الإمارة» باب: نبش القبور العادية يكون فيها المال، حديث (٣٠٨٨)، والبيهقي (١٥٦/٤)، وفي «الدلائل» (٢٩٧/٧) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) ذكره الطبري (٥٣٩/٥)، وابن عطية (٤٢٤/٢)، وابن كثير (٢٣٠/٢)، والسيوطي بنحوه (١٨٥/٣).

إبراهيم عليه السلام ونُصِبَهُ: إما بـ «أرسلنا» المتقدم في الأنبياء، وإما بفعل محذوف، تقديره: وأذكر لوطاً، و﴿الفاحشة﴾: إتيان الذكور في الأدبار، وروِيَ أنه لم تكن هذه المعصية في أمة قبلهم، وحُكِمَ هذه الفاحشة؛ عند مالك وغيره: الرجم، أُخْصِنَ أم لم يُخْصِن^(١)، وحرَّقَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه رجلاً عَمِلَ عَمَلُ قوم لوط^(٢)، وقرأ نافع وغيره: «أَنْتُمْ»؛ على الخبر؛ كأنه فُسِّرَ الفاحشة، والإسرافُ: الزيادةُ الفاسدةُ، ولم تكن مراجعةُ قومه بأحتجاج منهم، ولا بمدافعة عقلية، وإنما كانت بكُفْرٍ وخذلان، و﴿يتطهرون﴾: معناه: يتنزهون عن حالنا وعاداتنا.

قال قتادة: غَابُوهم بِغَيْرِ عَيْبٍ، وذمُّوهم بغير ذمٍّ^(٣) واستثنى الله سبحانه امرأة لوط عليه السلام من الناجين، وأخبر أنها هَلَكَتْ، والغايِرُ: هو الباقي؛ هذا هو المشهور في اللغة، وقد يجيء الغايِرُ بمعنى الماضي، وكذلك حَكَى أهل اللغة «غَبَرَ» بمعنى بَقِيَ، وبمعنى «مضى»، وقوله: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً...﴾ الآية، أي: بحجارة، وروِيَ أَنَّ الله تعالى بعث جبريل، فأقتلها بجناحه، وهي ستُ مدن.

/ وقيل خمسٌ، وقيل: أربع، فرفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا صُراخَ الدِّيكة، ١٩٤ ب وَتُبَّاحَ الْكِلَابِ، ثم عَكَّسَهَا، وَرَدَّ أَعْلَاهَا أَسْفَلَهَا، وأرسلها إلى الأرض، وتبعتهم الحِجَارَةُ مع هذا، فأهلكَتْ مَنْ كان منهم، مَنْ كان في سَفَرٍ، أو خارجاً من البقع المرفوعة، وقالت امرأة لوط، حين سَمِعَتْ الرُّجَّةَ: وَاقْوَمَاهُ، وَالتَفَتَتْ، فأصابتها صخرةٌ فقتلتها.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ

(١) حكم الإمام مالك في اللواط بالرجم، وهو مذهب الشعبي، والزهري، ومالك، وأحمد، وإسحاق، والشافعي، في قول له، وذهب جمع أنه يحرق بالنار منهم: أبو بكر، وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الله.

وذهب سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، والحسن والثوري، والأوزاعي، والإمام يحيى، والشافعي في قول له أنه كالزنا.

وذهب أبو حنيفة، والشافعي في قول له، والمرتضى، والمؤيد بالله إلى أنه يعزr اللوطي فقط. ولم يشترط ما اشترطه في الرجم في الزنا من الإحصان والإسلام والحرية، واختلفوا في الفاعل المكروه، فقيل: يرجم على المشهور من أن الانتشار اختيار. وقيل: لا يرجم؛ لأن الإكراه شبهة تدرأ الحد، أما المفعول المكروه فينبغي ألا يرجم قولاً واحداً؛ إذا كان المرتكب لهذه الجريمة ممن لم يبلغوا الحلم، وقد كان مميزاً فعقابه التأديب بما يراه الإمام زاجراً.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٢٥/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٥٤١/٥) برقم: (١٤٨٤٩)، وذكره ابن عطية (٤٢٥/٢)، وابن كثير (٢٣٠/٢)، والسيوطي (١٨٦/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وأبي الشيخ.

جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْذِرُوا إِنْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُذِّبْتُمْ وَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَلَافُكُمْ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَلَّامَةً لَرُّيُومُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَخُصَّكُمْ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْخَصِيصِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قُرْبَيْنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَعَثْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا لِنَكُولَ إِذَا لَخِمْزُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْقَهُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِي مِمَّا فُكِّمْتُ عَلَيْكُمْ فَكَيْفَ آمَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها...﴾ الآية: قيل في ﴿مدين﴾ إنه اسم بلد وقطير، وقيل: اسم قبيلة، وقيل: هم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل، وهذا بعيد، وزوي أن لوطاً هو جد شعيب لأمه.

وقال مكِّي: كان زوج بنت لوط، و﴿أخاهم﴾: منصوب بـ «أرسلنا» في أول القصص، و﴿البينة﴾: إشارة إلى معجزته، و﴿ولا تبخسوا﴾ معناه ولا تظلموا؛ ومنه قولهم: تخسبها حمقاء، وهي باخس، أي: ظالمة خادعة، وقال في «سورة هود»: البخس: النقص.

* ت * : ويحتمل والله أعلم أن البخس هو ما اعتاده الناس من دَم السِّلَع؛ ليتوصلوا بذلك إلى رخصها، فتأمل، والله أعلم بما أراد سبحانه.

قال أبو حيان: ولا تبخسوا: متعد إلى مفعولين، تقول: بخست زيدا حقاً، أي: نقصته إياه. انتهى.

و﴿أشياءهم﴾: يريد أمتعتهم وأموالهم، و﴿ولا تفسدوا﴾: لفظ عام في دقيق الفساد وجليله؛ وكذلك الإصلاح عام، ﴿ذلكم خير لكم﴾، أي: عند الله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾،

أي: بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عَمَلٌ دون إيمان، و﴿لا تقعدوا بكلِّ صراط...﴾ الآية: قال السدي: هذا نهْيٌ عن العَشَّارين والمتغلبين ونحوه مِنْ أخذ أموال الناس بالباطل^(١)، و«الصُّرَاطُ»: الطريق، وذلك أنهم كانوا يكثرون من هذا؛ لأنه من قبيل بَخْسِهِمْ وتَقْصِيهِمْ الكيلَ والوزنَ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: هو نهْيٌ عن السُّلْبِ وقطع الطرق^(٢)، وكان ذلك مِنْ فعلهم، وروي في ذلك حديثٌ عن النبي ﷺ، وما تقدّم من الآية يؤيد هذين القولين، وقال ابنُ عَبَّاسٍ وغيره: قوله: ﴿ولا تقعدوا﴾ نهْيٌ لهم عمّا كانوا يفعلونه مِنْ رَدِّ الناسِ عَن شُعَيْبٍ^(٣) وذلك أنهم كانوا يَقْعُدُونَ على الطُّرُقَاتِ المفضيةِ إلى شُعَيْبٍ، فيتوعدّون مَنْ أراد المجيءَ إليه، ويصدّونه، وما بعد هذا مِنَ الألفاظ يشبه هذا مِنْ القول، والضميرُ في «به» يحتملُ أَنْ يعودَ على أَسْمِ الله، وأنَّ يعودَ على شُعَيْبٍ في قول مَنْ رأى القعودَ على الطُّرُقِ للرَّدِّ عن شعيب، قال الداودي: وعن مجاهد ﴿يبغونها عوجاً﴾: يلتسون^(٤) لها الزنيع. انتهى.

ثم عدّد عليهم نِعَمَ الله تعالى، وأنه كَثُرَهم بعد قَلَّةِ عددٍ.

وقيل: أغناهم بعد فَقْرٍ، ثم حذرهم ومثّل لهم بمن امتحن من الأمم، وقوله: ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلتُ به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا...﴾ الآية: قوله: ﴿فاصبروا﴾ تهديدٌ للطائفة الكافرة، وقولهم: ﴿أو لتعودُنَّ في ملتنا﴾ معناه: أو لتَصِيرُنَّ، و«عَادَ» في كلام العرب على / وجهين:

أحدهما: عَادَ الشَّيْءُ إلى حالٍ قد كان فيها قبل ذلك، وهي على هذا الوجه لا تتعدّى، فإنَّ عُدِّيَتْ، فبحرف؛ ومنه قول الشاعر: [الطويل]

أَلَا لَيْتَ أَيَّامَ الشَّبَابِ جَدِيدُ وَعُمْرُأ تَوَلَّى يَا بُتَيْنِ يَعُودُ^(٥)

(١) أخرجه الطبري (٥٤٤/٥) برقم: (١٤٨٦٠)، وذكره ابن عطية (٤٢٦/٢) بمثله، والبغوي (١٨٠/٢)، وابن كثير (٢٣١/٢)، والسيوطي (١٩٠/٣)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٥٤٤/٥) برقم: (١٤٨٦١)، وذكره ابن عطية (٤٢٦/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٥٤٤/٥) برقم: (١٤٨٥٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٢٧/٢)، وابن كثير (٢٣١/٢) والسيوطي (١٩٠/٣)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٥٤٥/٥) برقم: (١٤٨٦٢).

(٥) روي البيت هكذا:

أَلَا لَيْتَ أَيَّامَ الصَّفَاءِ جَدِيدُ وَعَهْدُأ تَوَلَّى يَا بُتَيْنِ يَعُودُ

وهو لجميل بثينة في «ديوانه» ص: (٦١)، و«الأغاني» (٣٥٠/٢)، و«الغالي» (٢٧٢/١)، ٢ / =

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والوجه الثاني: أن تكون بمعنى «صار»، وعاملة عملها، ولا تتضمن أن الحال قد كانت متقدمة؛ ومنه قول الشاعر: [البسيط]

يَلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانٍ مِنْ لَبَنِ شَيْباً بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاً^(١)
ومنه قول الآخر:

وَعَادَ رَأْسِي كَالثُّغَامَةِ...^(٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، على أن هذه محتملة بقوله في الآية: ﴿أَوْ لَتَعُودُونَ﴾، وشعيب عليه السلام لَمْ يَكْ قَطُّ كَافِراً، فيقتضي أنها بمعنى «صار»، وأما في جهة المؤمنين به بَعْدَ كُفْرِهِمْ، فيترتب المعنى الآخر، ويخرج عنه شعيب، وقوله: ﴿أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ توقيفٌ منه لهم على شِنْعَةِ المعصية، وطلب أن يقرأوا بالسُّتْمِ بِإِكْرَاهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْإِخْرَاجِ ظُلْماً وَغَشْماً.

قال * ص * : «قد افترينا»: هو بمعنى المستقبل؛ لأنه سَدَّ مسد جواب الشرط، وهو: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾ أو هو جوابه، على قول. انتهى.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ يحتمل أن يريد إلا أن يسبق علينا في ذلك مِنَ اللَّهِ سابقُ سُوءٍ، وينفذ منه قضاء لا يُرَدُّ.

قال * ع *^(٣): والمؤمنون هم الْمَجُوزُونَ لذلك، وأما شُعَيْبٌ، فقد عصمته النبوة، وهذا أظهر ممَّا يحتمل القول، ويحتمل أن يريد استثناء ما يمكن أن يتعبَّدَ اللَّهُ به المؤمن من مِمَّا يفعله الْكُفَّارُ مِنَ الْقُرْبَاتِ.

= ٢٩٩؛ و«الحماسة البصرية» (١٠٥/٢)؛ و«خزانة الأدب» (٤٥٠/١٠)؛ و«شرح عمدة الحافظ» ص: (٥٠٥)، و«مجالس ثعلب» ص: (٥٩٧، ٥٩٨).

(١) روي البيت هكذا:

هَذَا الْمَفَاخِرُ لَا قَعْبَانٍ مِنْ لَبَنِ شَيْباً بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاً
هو لأبي الصلت الثقفي والد أُمَيَّة في «الشعر والشعراء» ص: (٤٦٩)، و«المقد الفريد» (٢٣/٢)؛ ولأُمَيَّة بن أبي الصلت في «ديوانه» ص: (٥٢)، وللنابغة الجعدي في «ديوانه» ص: (١١٢)، وللتقفي في «شرح المفصل» (١٠٤/٨).

(٢) وهو من شواهد «المحرر الوجيز» (٤٢٩/٢). ويروى في «اللسان»: [ثغم] برواية: وصار رأس الشيخ كثغمة وعليه يكون من بحر الرجز، وفي «القاموس»: والرأس صار كالثغمة بياضاً.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢٨/٢).

وقيل: إِنَّ هَذَا الِاسْتِثْنَاءَ إِنَّمَا هُوَ تَسْنُّنٌ وَتَأْدِيبٌ، وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: معناه: وَسِعَ عِلْمُ رَبِّنَا كُلَّ شَيْءٍ؛ كما تقول: تَصَبَّبَ زَيْدٌ عَرَقًا أَي: تَصَبَّبَ عَرَقُ زَيْدٍ، وَوَسِعَ بِمَعْنَى «أَحَاطَ»، وقوله: ﴿افْتَحْ﴾ معناه: أَخْكَمْ، وقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: أَسْتَسْلِمُ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ، وَتَمَسَّكَ بِلَطْفِهِ؛ وَذَلِكَ يُؤَيِّدُ التَّأْوِيلَ الْأَوَّلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾. وقوله سَبْحَانَهُ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَتَنَّ أَتْبَعْتُمْ شُعَيْبًا...﴾ الآية: أَي: قَالَ الْمَلَأُ لِتَبَاعُهُمْ وَمُقَلَّدِيهِمْ، وَ«الرَّجْفَةُ»: الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي يَنَالُ الْإِنْسَانُ مَعَهَا اهْتِرَازًا وَارْتِعَادًا وَأَضْطِرَابًا، فَيَحْتَمِلُ أَنَّ فِرْقَةً مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ هَلَكَتْ بِالرَّجْفَةِ، وَفِرْقَةٌ بِالظَّلَّةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الظَّلَّةَ وَالرَّجْفَةَ كَانَتَا فِي جِهَيْنٍ وَاحِدٍ.

* ت * : وَالرَّجْفَةُ هِيَ الصَّيْحَةُ يَزْجِفُ بِسَبَبِهَا الْفُؤَادُ؛ وَكَذَلِكَ هُوَ مُصْرَحٌ بِهَا فِي قِصَّةِ قَوْمِ شُعَيْبٍ فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿وَأَخَذْتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ...﴾ الآية [هود: ٩٤]، وقوله سَبْحَانَهُ: ﴿كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ «فِيهَا» عَائِدٌ عَلَى دَارِهِمْ، وَيَغْنَوْنَ: مَعْنَاهُ يَقِيمُونَ بِنِعْمَةٍ وَخَفْضِ عَيْشٍ، وَهَذَا اللَّفْظُ فِيهِ قُوَّةُ الْإِخْبَارِ عَنْ هَلَاكِهِمْ، وَنَزُولِ النِّقْمَةِ بِهِمْ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْعِبَرَةِ وَالْإِتْعَازِ بِهِمْ، وَنَحْوُ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ: [الطويل]

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا أَنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرٌ^(١)
قال * ع *^(٢): فَغَنَيْتُ فِي الْمَكَانِ، إِنَّمَا يَقَالُ فِي الْإِقَامَةِ الَّتِي هِيَ مُقْتَرَنَةٌ بِتَنْعَمَ وَعَيْشٍ مَرْضِيٍّ، وَقَوْلُهُ: ﴿يَا قَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: كَلَامٌ يَقْتَضِي حَزَنًا وَإِشْفَاقًا؛ لَمَّا رَأَى هَلَاكَ قَوْمِهِ، إِذْ كَانَ أَمَلُهُ فِيهِمْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلَمَّا وَجَدَ فِي نَفْسِهِ ذَلِكَ،

(١) وهو لعمر بن الحارث بن مضااض أو للحارث الجهمي في «لسان العرب» (١٠٩/١٣) (جحن)؛ وبلا نسبة في «شرح قطر الندى» ص: (١٥٩).

واستشهد بقوله: «كَانَ لَمْ يَكُنْ» حَيْثُ خَفَّفَ «كَانَ» فَحَذَفَ اسْمَهَا، وَأَتَى بِخَبَرِهَا جُمْلَةً فَعَلِيَّةً. وَذَكَرَ يَاقُوتُ فِي «مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ» (٢٦٠/٢) (الحجون)، وَنَسَبَهُ إِلَى مُضَاضِ بْنِ عَمْرِو الْجَرَهْمِيِّ بِتَشْوِيقِ مَكَّةَ لَمَّا أَجْلَتْهُمْ عَنْهَا خِرَازَةٌ:

كَانَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا
بَلَى! نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا، فَأَبَادَنَا
فَأَخْرَجْنَا مِنْهَا الْمَلِكُ بِقُدْرَةٍ،
فَصَرْنَا أَحَادِيثًا وَكُنَّا بِغِبْطَةٍ،
وَبَذَلْنَا كَعْبَ بِهَا دَارَ غُرْبَةٍ،
فَسَحَّتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ تَجْرِي لِبَلَدَةٍ،
يَنْظُرُ: «الْمَعْجَمُ» (٣٧٥/١).

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٤٣٠/٢).

مثالاً، أي: قد أصاب هذا آباءنا، فلا ينبغي لنا أن نُنكره، ثم أخبر سبحانه؛ أنه أخذ هذه الطوائف التي هذا معتقدها، وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً وأخذةً أَسْفٍ، وبَطْشاً؛ للشقاء السابق لهم في قديم علمه سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: من بركات المطر والنبات، وتسخير الرياح والشمس والقمر في مصالح العباد؛ وهذا بحسب ما يدرُّه نَظَرُ البشر، ولله سبحانه خُدامٌ غير ذلك لا يُحصى عددهم، وما في عِلْمِ الله أَكْثَرُ.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُجًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَلْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون...﴾ الآية تتضمن وعيداً للكافرين المعاصرين لنبيِّنا محمد ﷺ، لأنه لما أخبر عما فعل في الأمم الخالية، قال: وهل يأمن هؤلاء أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، وهذا أستفهام على جهة التوقيف، والبأس: العذاب، و﴿مكر الله﴾ هي إضافة مخلوق إلى خالق، والمراد فِعْلُ يعاقب به مَكْرَةُ الكُفْرَةِ، والعربُ تسمي العقوبة باسم الذنب.

وقوله سبحانه: ﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها...﴾ الآية: هذه أَلِفُ تقريرٍ دَخَلَتْ على واو العطف، و﴿يَهْدِي﴾: معناه: يبيِّن، فيحتمل أن يكون المبيِّن الله سبحانه، ويحتمل أن يكون المبيِّن قوله: ﴿أن لو نشاء﴾، أي عِلْمُهُمْ بذلك، وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد: يَهْدِي: معناه: يبيِّن، وهذه أيضاً آية وعيد، أي: أَلَمْ يظهر لوارثي الأرض بعد أولئك الذين تقدَّم ذكرهم، وما حلَّ بهم - أنا نُقَدِرُ لو شئنا أصبناهم بذنوبهم؛ كما فعلنا بمن تقدَّم، وفي العبارة غُظٌّ بحالٍ مَنْ سلف من المُهْلِكِينَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّبَعُوا بِهَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتَقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى قُرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَنْفِرُونَ فِي رَسُولٍ مِنْ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿١١٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّیِّنٌ ﴿١١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِیْنَ ﴿١١٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ «تلك» ابتداءً، و«الْقُرَىٰ» قال قوم: هو نغش، والخبر «نَقِصُ»، وعندني: أن «أهل القرى» هي خبر الابتداء، وفي ذلك معنى التعظيم لها، وَلِمَهْلِكِهَا؛ وهذا كما قيل في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢] وكما قال عليه السلام: «أُولَٰئِكَ الْمَلَأَ» وكقول ابن أبي الصلت: [البسيط]

تِلْكَ الْمَكَارِمُ..... (١)

وهذا كثير.

ثم ابتداءً سبحانه الخیر عن جميعهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾، هذا الكلام يحتمل وجوهاً من التأويل:

أحدها: / أن يريد أن الرسول جاء لكل فريق منهم، فكذبوه لأول أمره، ثم استبانت حجته، وظهرت الآيات الدالة على صدقه، مع استمرار دعوته، فلجأوا هم في كفرهم، ولم يؤمنوا بما سبق به تكذيبهم. ١١٩٦

والثاني: من الوجوه: أن يريد: فما كان آخرهم في الزمان ليؤمن بما كذب به أولهم في الزمان، بل مشى بعضهم على سنن بعض في الكفر؛ أشار إلى هذا التأويل الثقاف (٢).

والثالث: أن هؤلاء لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا، لم يكن منهم إيمان؛ قاله مجاهد (٣)، وقرنه بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والرابع: أنه يحتمل: فما كانوا ليؤمنوا بما سبق في علم الله سبحانه؛ أنهم مكذبون به؛ وذكر هذا التأويل المفسرون.

(١) تقدم قريباً.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٧/٢)، و«البحر المحيط» (٣٥٩/٤) و«الدر المصون» (٣١٧/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/٦) برقم: (١٤٩١٢)، وذكره ابن عطية (٤٣٤/٢)، والبخاري (١٨٤/٢)، وابن كثير (٢٣٥/٢)، والسيوطي (١٩٤/٣)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقوله سبحانه: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد...﴾ الآية: أخبر سبحانه أنه لم يجد لأكثرهم ثبوتاً على العهد الذي أخذه سبحانه على ذرية آدم وقت أستخراجهم من ظهره؛ قاله أبو العالية^(١) عن أبي بن كعب، ويحتمل أن يكون المعنى: وما وجدنا لأكثرهم التزام عهد، وقبول وصاة ممّا جاءتهم به الرسل عن الله، ولا شكروا نعم الله عز وجل.

قال * ص * : ﴿لأكثرهم﴾: يحتمل أن يعود على «الناس» أو على «أهل القرى» أو «الأمم الماضية». انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها...﴾ الآيات؛ في هذه الآية: عام في التسع وغيرها، والضمير في «من بعدهم» عائذ على الأنبياء المتقدم ذكرهم، وعلى أممهم.

وقوله سبحانه: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾: فيه وعيد، وتحذير للكفرة المعاصرين لنبينا محمد ﷺ، وقوله سبحانه: ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾، قرأ نافع^(٢) وحده: «عَلَيَّ» بإضافة «عَلَيَّ» إليه، وقرأ الباقون: «عَلَى» بسكون الياء.

قال الفارسي: معنى هذه القراءة أن «عَلَى» وضعت موضع الباء؛ كأنه قال: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، وقال قوم: «حقيق» صفة لـ «رَسُولٍ»، تم عندها الكلام، و«عَلَيَّ»: خبر مقدّم و«ألا أقول»: ابتداء، وإعراب «أن»، على قراءة من سكن الياء خفض، وعلى قراءة من فتحها مشددة: رَفَع، وفي قراءة عبد الله: «حقيق أن لا أقول»، وهذه المخاطبة - إذا تأملت - غاية في التلطف، ونهاية في القول اللين الذي أمر به عليه السلام، وقوله: ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين﴾ «البينة»؛ هنا إشارة إلى جميع آياته، وهي على المعجزة منها أدل، وهذا من موسى عليه السلام عرض نبوته، ومن فرعون استدعاء خرق العادة الدال على الصدق، وظاهر هذه الآية وغيرها أن موسى عليه السلام لم تثبت شريعته إلا على بني إسرائيل فقط، ولم يدع فرعون وقومه إلا إلى إرسال بني إسرائيل، وذكره: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ

(١) أخرجه الطبري (١٤/٦) برقم: (١٤٩١٥)، وذكره ابن عطية (٢/٤٣٤)، وابن كثير (٢/٢٣٥)، والسيوطي (٣/١٩٥)، وعزاه لابن أبي حاتم، ولابن جرير.

(٢) ينظر: «الحجة» (٤/٥٦)، و«السبعة» (٢٨٧)، و«حجة القراءات» (٢٨٩) وإعراب القراءات (١/١٩٦)، و«المعاني» (٩٦)، و«شرح شعلة» (٣٩٣)، و«شرح الطيبة» (٤/٣٠٣)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/٥٥)، و«معاني القراءات» (١/٤١٤).

يَخْشَى [طه: ٤٤]. وقوله: ﴿فَالْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، روي أن موسى قَلِقَ به، وبمجاورته فرعون، فقال لأعوانه: خذوه، فالقى موسى العصا، فصارت ثعباناً، وهمت فرعون، فَهَرَبَ منها.

وَقَالَ السَّدْيِيُّ: إِنَّهُ أَحَدَثَ، وَقَالَ: يَا مُوسَى كُفُّهُ عَنِّي^(١)، فَكَفَّهُ، وَقَالَ نَحْوَهُ سَعِيدُ بْنُ^(٢) جَبْرِ، وَيُقَالُ: إِنْ الثَّعْبَانُ وَضَعَ أَسْفَلَ لَحْيَيْهِ فِي الْأَرْضِ وَأَعْلَاهُمَا فِي أَعْلَى ١٩٦ ب شُرَفَاتِ الْقَصْرِ. وَالثَّعْبَانُ: الْحَيَّةُ الذَّكْرُ/ وَهُوَ أَهْوَلُ وَأَجْرَأُ؛ قَالَ الضَّحَّاكُ^(٣)، وَقَالَ قَتَادَةُ: صَارَتْ حَيَّةٌ أَشْعَرُ ذَكَرًا^(٤)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَرَزَتْ ذَنْبَهَا فِي الْأَرْضِ، وَرَفَعَتْ صَدْرَهَا إِلَى فرعون، وقوله: ﴿مُبِينٌ﴾ معناه: لَا تَخْيِيلَ فِيهِ، بَلْ هُوَ بَيِّنٌ؛ أَنَّهُ ثَعْبَانٌ حَقِيقَةٌ، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾: معناه: مِنْ جِيهِهِ، أَوْ مِنْ كُمِّهِ؛ حَسَبَ الْخِلَافِ فِي ذَلِكَ.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: كَاللَّبَنِ أَوْ أَشَدَّ بَيَاضاً^(٥)، وَرَوَى أَنَّهُ كَانَتْ تَظْهَرُ مَنِيرَةً شَفَافَةً كَالشَّمْسِ تَأْتِلِقُ، وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آدَمَ أَحْمَرَ إِلَى السَّوَادِ، ثُمَّ كَانَ يَزُدُّ يَدَهُ، فَتَرْجِعُ إِلَى لَوْنِ بَدَنِهِ.

قَالَ * ع^(٦) *: فَهَاتَانِ الْآيَتَانِ عَرْضُهُمَا عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْمَعَارَضَةِ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ بِهِمَا، وَخَرَقَ الْعَادَةَ بِهِمَا.

* ت *: وَظَاهِرُ الْآيَةِ كَمَا قَالَ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِالْقَاءِ الْعَصَا الْإِنْتِصَارَ وَالتَّخْوِيفَ؛ كَمَا يُعْطِيهِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْقِصَصِ.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۖ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ١١٥ ﴿قَالُوا أَزِجُّهُ وَآخَاهُ وَارْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ١١٦ ﴿يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ ١١٧ ﴿وَجَاءَ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٦/٦) بِرَقْمٍ: (١٤٩١٩)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٣٦/٢)، وَابْنُ الْبُغْوِيِّ (١٨٥/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢٣٦/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ (١٩٧/٣)، وَعِزَّاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٦/٦) بِرَقْمٍ: (١٤٩٢١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٣٦/٢).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٦/٦) بِرَقْمٍ: (١٤٩٢٥)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٣٦/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢٣٦/٢).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٥/٦) بِرَقْمٍ: (١٤٩١٧) بِلَفْظٍ: «تَحَوَّلَتْ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ»، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٣٦/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ (١٩٧/٣) نَحْوَهُ، وَعِزَّاهُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ الشَّيْخِ.

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٧/٦) بِرَقْمٍ: (١٤٩٢٨) بِلَفْظٍ: «نَزَعَ يَدَهُ مِنْ جِيهِهِ بَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ»، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٣٦/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢٣٦/٢) بِنَحْوِهِ.

(٦) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٤٣٦/٢).

السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَيْنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَكْفُوفٌ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

وقوله عز وجل: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾ لا محالة أنهم خافوا أمر موسى، وجالت ظنونهم كل مجال، وقوله: ﴿فماذا تأمرون﴾ الظاهر أنه من كلام الملأ بعضهم لبعض، وقيل: إنه من كلام فرعون لهم، وزوى كزدم عن نافع: ﴿تأْمُرُونَ﴾^(١) بكسر النون وكذلك في «الشعراء» [الشعراء: ٣٥].

و«ما»: استفهام، و«ذا»: بمعنى الذي، فهما ابتداء وخبر، وفي «تأْمُرُونَ»: ضمير عائذ على الذي، تقديره: تأْمُرُونَ به، ويجوز أن تجعل «مَآذَا» بمنزلة اسم واحد في موضع نصب بـ «تأْمُرُونَ» ولا يضم فيه؛ على هذا، وقوله: ﴿قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المداخن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم﴾ أشار الملأ على فرعون بأن يؤخر موسى وهارون، ويدع النظر في أمرهما، ويجمع السحرة، وحكى الثَّاقِش؛ أنه لم يكن يجالس فرعون ولَدَغِيَّة، وإنما كانوا أشرفاً؛ ولذلك أشاروا بالإرجاء، ولم يشيروا بالقتل، وقالوا: إن قتلته، دخلت على الناس شبهة، ولكن أغلبه بِالْحُجَّةِ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾: «الأجر» هنا: الأجرة.

واختلف الناس في عدد السحرة على أقوال كثيرة ليس لها سند يوقف عنده^(٣)، والحاصل من ذلك أنهم جمع عظيم، وقوله تعالى: ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين * قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس﴾، وخبر السحرة موسى في أن يتقدم في الإلقاء أو يتأخر، وهذا فعل المَدِلِّ الوائِقِ بِنَفْسِهِ، والظاهر أن التقدم في التخيلات والمخاريق أنجح؛ لأنَّ بديعتها تمضي بالنفوس، فليظهر الله أمر نبوة موسى، قوَّى نفسه ويقينه، وثق بالحق، فأعطاهم التقدم، فنشطوا وسرُّوا حتى أظهر الله الحق،

(١) ذكره ابن عطية (٤٣٧/٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٤٣٨/٢).

(٣) انظر كيف كان المؤلف عليه رحمة الله يتحرى الدقة في النقل واهتمامه بالسند انطلاقاً منه بأن السند من الدين !!.

وَأَبْطَلَ سَعِيهِمْ، وقوله سبحانه: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾: نصّ في أن لهم فعلاً ما زائداً على ما يُخَدِّثُونَهُ من التزييق، ﴿وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ بمعنى: أُرْهِبُوهُمْ، أي: فَرَّعُوهُمْ، ووصف الله سبحانه سَحَرَهُمْ بـ «الْعَظِيمِ»، ومعنى ذلك مِنْ كَثْرَتِهِ، وَرَوِي أَنَّهُمْ جَلَبُوا ثَلَاثَمِائَةَ وَسِتِّينَ بَعيراً مَوْفُورَةً بِالْحِبَالِ، وَالْعِصْيِ، فلما أَلْقَوْهَا، تَحَرَّكَتْ، وَمَلَأَتِ الْوَادِيَّ، يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضاً فَاسْتَهْوَلَ النَّاسُ ذَلِكَ، وَاسْتَرْهَبَهُمْ، قال الزَّجَّاج: قيل: إنهم جعلوا فيهم الزُّنْبُقَ، فَكَانَتْ لَا تَسْتَقِرُّ^(١).

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١١٧) ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٨) ﴿فَغَلَبُوا هَٰذَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ (١١٩)

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾: وروى أن موسى عليه السلام لما كان يَوْمَ الْجَمْعِ، خَرَجَ مَتَكِباً عَلَى عَصَاهُ، وَيُدُّ فِي يَدِ أَخِيهِ، وَقَدْ صُفِّ لَه السَّحَرَةُ فِي عَدَدٍ عَظِيمٍ/، حَسْبَمَا ذَكَرَ، فلما أَلْقَوْا وَاسْتَرْهَبُوا، أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ؛ أَنْ أَلْقِ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُبِينٌ، فَعَظُمَ حَتَّى كَانَ كَالْجَبَلِ. ١١٧

وروي أن السحرة، لَمَّا أَلْقَوْا، وَأَلْقَى مُوسَى، جَعَلُوا يَرْقُونَ، وَجَعَلَتْ حِبَالُهُمْ تَغْطُمُ وَجَعَلَتْ عَصَا مُوسَى تَغْطُمُ حَتَّى سَدَّتِ الْأَفْقَ، وَأَبْتَلَعَتِ الْكُلَّ، وَرَوِي أَنَّ الثَّعْبَانَ اسْتَوْفَى تِلْكَ الْحِبَالَ وَالْعِصْيَ أَكْلًا، وَأَغْدَمَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ إِلَى فَمِهِ، فَعَادَ عَصَا كَمَا كَانَ، فَعَلِمَ السَّحَرَةُ حِينَئِذٍ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ الْبَشَرِ، فَخَرُّوا سُجَّدًا مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَ﴿تَلْقَفُ﴾ معناه: تَبْتَلَعُ وَتَزْدَرِدُ، وَقرأ ابن جبير^(٢): «تَلْقُمُ» بِالْمِيمِ.

وقوله سبحانه: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ...﴾ الآية: أَي: نَزَلَ وَوُجِدَ، وَقَالَ أَبُو حِيَانَ^(٣): فَوَقَعَ، أَي: فَظْهَرَ، وَ«الْحَقُّ»: يَرِيدُ بِهِ سَطْوَعُ الْبَرَهَانِ، وَظُهُورُ الْإِعْجَازِ، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لَفْظٌ يَعْمُ سَحَرُ السَّحَرَةِ، وَسَعْيُ فِرْعَوْنَ، وَشَيْعَتِهِ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: «فَغَلَبُوا»: عَائِدٌ عَلَى جَمِيعِهِمْ أَيْضًا، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾، إِنَّ قَدَرَنَا انْقِلَابَ الْجَمْعِ قَبْلَ إِيمَانِ السَّحَرَةِ، فَهَمَّ فِي الضَّمِيرِ، وَإِنْ قَدَرْنَاهُ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، فَلَيْسُوا فِي الضَّمِيرِ، وَلَا لِحَقِّهِمْ صَغَارٌ؛ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا وَاسْتَشْهَدُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ (١٢٠) ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَلَائِكَةِ﴾ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿قَالَ

(١) ذكره ابن عطية (٤٣٩/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٩/٢)، وقال أبو غبيد: ويقال: لفق ولقم ولهم بمعنى واحد.

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٣٦٤/٤).

فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٠﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢١﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٢﴾ وَمَا نَنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِإِيكَ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا فَأَنْرَىٰ عَيْنَا صَبْرًا وَكُنَّا مُسْتَلِيمِينَ ﴿١٢٣﴾ وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُؤُا مَوْسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَاتِلَ آتِيَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ﴾ قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال فرعون آمنت به قبل أن أذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين، لما رأى السحرة من عظيم القدرة ما يتقنوا به نبوة موسى، آمنوا بقلوبهم، وأنضاف إلى ذلك الاستهوال والاستعظام والفرع من قدرة الله عز وجل، فخرؤا لله سبحانه متطارحين قائلين بالسيتهم: ﴿آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون﴾.

قال * ع^(١): وهارون أخو موسى أسن منه بثلاث سنين، وقول فرعون: ﴿آمنت به قبل أن أذن لكم﴾: دليل على وهنيه، وضعف أمره؛ لأنه إنما جعل ذنبهم عدم إذنه، والضمير في «به» يحتمل أن يعود على اسم الله سبحانه، ويحتمل أن يعود على موسى عليه السلام، وعنفهم فرعون على الإيمان قبل إذنه، ثم ألزمهم أن هذا كان عن اتفاق منهم، وروي في ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود، أن موسى أجمع مع رئيس السحرة، واسمه شمعون، فقال له موسى: أرأيت إن غلبتكم؛ أتؤمنون بي، فقال: نعم، فعلم بذلك فرعون؛ فلهذا قال: إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة، ثم توعدهم^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا. الآية: هذا استسلام من مؤمني السحرة، واتكال على الله سبحانه، وثقة بما عنده، وقرأ الجمهور^(٣): «تنقم» - بكسر القاف -، ومعناه: وما تعد علينا ذنباً تؤاخذنا به إلا أن آمنا، قال ابن عباس وغيره فيهم: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء^(٤)، قال ابن عباس: لما آمنت السحرة أتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل^(٥)، وقول ملاي فرعون: ﴿أتدذر

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٠).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ٦) برقم: (١٤٩٦٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٠)، وابن كثير (٢/ ٢٣٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤١)، و«البحر المحيط» (٤/ ٣٦٦).

(٤) أخرجه الطبري (٢٥/ ٦) برقم: (١٤٩٦٥)، وذكره ابن كثير (٢/ ٢٣٨).

(٥) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٤١)، والبخاري (٢/ ١٩٠).

موسى وقومه... الآية: مقالة تتضمن إغراء فرعون وتحريضه، وقولهم: ﴿ويزدرك وألهتك﴾، روي أن فرعون كان في زمنه للناس آلهة من بقر، وأصنام، وغير ذلك، وكان فرعون قد شرع ذلك، وجعل نفسه الإله الأعلى فقوله على هذا ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] إنما يريد: بالنسبة إلى تلك المعبودات.

١٩٧ ب وقيل: إن فرعون كان يعبد حَجَرًا يعلقه في صدره. كأنه/ ياقوتة أو نحوها، وعن الحسن نحوه، وقوله: ﴿سنقتل أبناءهم﴾، المعنى: سنستمر على ما كنا عليه من تعذيبهم، وقوله: ﴿وإننا فوقهم﴾، يريد: في المنزلة، والتمكّن من الدنيا، و﴿قاهرون﴾: يقتضي تحقير أمرهم، أي: هم أقل من أن يهتم بهم. قلت: وهذا من عدو الله تجلّد، وإلا فقد قال فيما أخبر الله سبحانه به عنه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِلُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥، ٥٦].

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٨) قَالُوا أَوَإِذَا مِنْ قَبْلِي أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَسَتَغْلِبُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّهُمْ طَائِفَةٌ لَكُمْ كَذِبَةٌ (١٣١) وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣٢) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَيْنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَكُنَّ بِهَا فَمَا نَخْلُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٣)﴾

وقوله سبحانه: ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله وأصابوا... الآية: لما قال فرعون ﴿سنقتل أبناءهم﴾، وتوعدهم، قال موسى لبني إسرائيل، يثبتهم، ويعددهم عن الله تعالى: ﴿استعينوا بالله﴾، والأرض هنا: أرض الدنيا، وهو الأظهر.

وقيل: المراد هنا أرض الجنة، وأما في الثانية، فأرض الدنيا لا غير، والصبر في هذه الآية: يعم الانتظار الذي هو عبادة، والصبر في المناجيات، والبأس، وقولهم: ﴿أودينا من قبل أن تأتينا﴾، يعنون به الذبح الذي كان في المدة التي كان فرعون يتخوف فيها أن يولد المولود الذي يخرب ملكه، ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾، يعنون به وعيد فرعون، وسائر ما كان خلال تلك المدة، من الإخافة لهم.

وقال ابن عباس^(١) والسدي^(٢): إنما قالت بنو إسرائيل هذه المقالة، حين اتبعهم

(١) أخرجه الطبري (٢٩/٦) برقم: (١٤٩٨٤)، وذكره ابن عطية (٤٤٢/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢٩/٦) برقم: (١٤٩٨٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٤٢/٢).

فرعون، واضطَرُّهم إلى البحر.

قال * ع^(١): وبالجمله فهو كلام يجري مع المعهود من بني إسرائيل؛ من اضطرابهم على أنبيائهم، وقلة يقينهم، وأستعطف موسى لهم بقوله: ﴿عَسَىٰ رَيْكُم أَن يَهْلِكَ عِندُكُمْ﴾، ووعد لهم بالاستخلاف في الأرض، يدل على أنه يستدعي نفوساً نافرة؛ ويقوي هذا الظن في جهة بني إسرائيل سلوكهم هذا السبيل في غير ما قصّة، وقوله: ﴿فَيَنْظُرْ كَيْفَ يَعْمَلُونَ﴾ تنبيه وحض على الاستقامة، ولقد استخلفوا في مضر في زمن داود وسليمان، وقد فتحوا بيت المقدس مع يوشع.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾، أي: بالجُذوب والقُحوط، وهذه سيرة الله في الأمم، وقوله: ﴿ونقص من الثمرات﴾، أي: حتى روي أن النخلة من نخلهم لا تحمل إلا ثمرة واحدة، وقال نحوه رجاء بن حنيفة^(٢) وفعل الله تعالى بهم هذا؛ لينبؤا ويزدجروا عما هم عليه من الكفر؛ إذ أحوال الشدة ترق معها القلوب، وترغب فيما عند الله سبحانه.

وقوله عز وجل: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه...﴾ الآية: كان القصد في إصابتهم بالقحط والنقص في الثمرات أن ينبؤا ويرجعوا، فإذا هم قد ضلوا، وجعلوها تشاؤماً بموسى، فكانوا إذا اتفق لهم اتفاق حسن في غلات ونحوها، قالوا: هذه لنا، وبسببنا، وإذا نالهم ضر، قالوا: هذا بسبب موسى وشؤمه؛ قاله مجاهد^(٣) وغيره، وقرأ الجمهور^(٤) «يَطِيرُوا» - بالياء وشد الطاء والياء الأخيرة -، وقرأ طلحة بن مصرف^(٥) وغيره: «تَطِيرُوا» - بالتاء وتخفيف الطاء -، وقرأ مجاهد: «تَشَاءُوا بِمُوسَى» - بالتاء من فوق - ولفظ الشؤم.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٢/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢٩/٦ - ٣٠) برقم: (١٤٩٨٨)، وذكره ابن عطية (٤٤٣/٢)، وابن كثير (٢٣٩/٢)، والسيوطي (٢٠٢/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٣٠/٦) برقم: (١٤٩٩٢)، وذكره ابن عطية (٤٤٣/٢)، والسيوطي (٢٠٢/٣)، وعزاه لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٣/٢)، و«البحر المحيط» (٣٧٠/٤)، و«الدر المصون» (٣٢٧/٣).

(٥) وهي قراءة عيسى بن عمر.

ينظر: «الشواذ» (٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٤٤٣/٢)، و«البحر المحيط» (٣٧٠/٤)، و«الدر المصون» (٣٢٧/٣).

(٦) قال أبو حيان: فينبغي أن يحمل ذلك على التفسير لا على أنه قرآن؛ لمخالفته سواد المصحف.

ينظر «البحر المحيط» (٣٧٠/٤)، و«المحرر الوجيز» (٤٤٣/٢).

وقوله سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ معناه: حظهم ونصيبهم؛ قاله ابن عباس^(١)، وهو مأخوذ من زَجَرَ الطَّيْرِ فُسْمِي ما عند الله من القدر للإنسان طائراً؛ لما كان الإنسان يعتقد أن كل ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطَّائِر، فهي لفظة مستعارة، ومهما أصلها عند الخليل؛ مَما/، فأبدلت الألف الأولى هاء، وقال سيبويه: هي «مَ ما»؛ خُلِطَتَا، وهي حَزَفٌ واحدٌ لمعنى واحد.

وقال غيره: معناها: «مَ»، أي: كُفٌ، و«ما»: جزاء، ذكره الزَّجَّاجُ، وهذه الآية تتضمن طغيانهم، وعتوهم، وقطعهم على أنفسهم بالكفر بالبحث.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ أَيْنَ مَفْصَلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا تُجْرِمُونَ﴾ (١٢٣) وَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزَ قَالُوا يَمْشَى آدَمُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُحُونَ ﴿١٢٥﴾ فَأَتَيْنَاهُمُ مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ يَأْتِمِرُ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرِيقَ الْأَرْضِ وَنَجَّيْنَاهَا لِقِيٍّ بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَثَّلَ لَكُمْ رَيْكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٢٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ...﴾ الآية: الطُّوفَانُ: مُضْذَرٌ مِنْ قَوْلِكَ: طَافَ يَطُوفُ، فهو عامٌ في كل شيء يطوف إلا أن استعمال العرب له كثيرٌ في الماء والمطر الشديد، قال ابن عباس وغيره: الطُّوفَانُ في هذه الآية: هو المطر الشديد، أصابهم وتوالى عليهم حتى هدم بيوتهم وضيق عليهم^(٢)، وقيل: طَمَّ فَيَضُّ النَّيْلَ عليهم، وزوي في كَيْفِيَّتِهِ قصصٌ كثيرة، وقالت عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ: «إِنَّ الطُّوفَانَ المراد في هذه الآية هو المَوْتُ»^(٣).

(١) أخرجه الطبري (٣١/٦) برقم: (١٤٩٩٥) بلفظ: «مصائبهم عند الله»، برقم: (١٤٩٩٦) بلفظ: «الامر من قبل الله»، وذكره ابن عطية (٤٤٣/٢)، والبغوي (١٩٠/٢) بنحوه، وابن كثير (٢٣٩/٢) بلفظ: «أي من قبل الله»، والسيوطي (٢٠٢/٣)، وعزاه لابن جرير، عن ابن عباس بلفظ: «مصائبهم»، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري (٣١/٦) برقم: (١٤٩٩٨)، (٣٦/٦) برقم: (١٥٠٢٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٤٤٤)، وابن كثير (٢٤٠/٢) بنحوه، والسيوطي (٢٠٣/٣) بسندين، الأول: لأبي الشيخ، والثاني: لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٢/٦) برقم: (١٥٠٠٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٣/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

قُلْتُ: ولو صَحَّ هذا النقل، لم يبق مُجَمَّلاً وروي أن الله عز وجل لما والى عليهم المطر، غَرِقَتْ أَرْضُهُمْ، وامتنعوا من الزراعة قالوا: يا موسى أدع لنا ربك في كَشَفِ هذا الغَرَقِ، ونحن نؤمن، فدعا، فَكَشَفَهُ اللهُ عَنْهُمْ، فَأَنْبَتِ الْأَرْضُ أَنْبَاتاً حَسَناً، فَنَكَّثُوا، وقالوا: ما نودُّ أَنَّا لَمْ نُفْطَرْ، وما هذا إِلَّا إِحْسَانٌ مِنَ اللهِ إِلَيْنَا، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ حِينَئِذٍ الْجَرَادَ، فَأَكَلَ جَمِيعَ مَا أَنْبَتِ الْأَرْضَ، فَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ؛ أَنَّهُ أَكَلَ حَتَّى أَبْوَابَهُمْ، وَأَكَلَ الْحَدِيدَ وَالْمَسَامِيرَ، وَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ غَايَةَ التَّضْيِيقِ، وَتَرَكَ اللهُ مِنْ نَبَاتِهِمْ مَا يَقُولُ بِهِ الرَّمَقُ^(١)، فَقَالُوا لِمُوسَى: ادع لنا ربك في كشف الجراد، ونحن نؤمن، فدعا الله فَكَشَفَهُ^(٢)، وَرَجَعُوا إِلَى كَفْرِهِمْ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِ الْقُمَّلَ، وَهِيَ الدُّبْنَى صَغَارُ الْجَرَادِ، الَّذِي يَشِبُّ وَلَا يَطِيرُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٣) وَغَيْرُهُ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ: «الْقُمَّلُ»^(٤) - بفتح القاف، وسكون الميم - فَهِيَ عَلَى هَذَا الْقُمَّلِ الْمَعْرُوفُ، وَرَوَى أَنَّ مُوسَى مَشَى بِعَصَاهُ إِلَى كَثِيبٍ أَهِيلٍ^(٥)، فَضْرَبَهُ، فَأَنْتَشَرَ كُلُّهُ قُمَّلاً فِي مِصْرَ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَالُوا: ادع في كَشَفِ هذا، فدعا فَرَجَعُوا إِلَى طُغْيَانِهِمْ، وَكُفْرِهِمْ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمُ الضَّفَادِعَ، فَكَانَتْ تَدْخُلُ فِي فَرْشِهِمْ، وَبَيْنَ ثِيَابِهِمْ، وَإِذَا هُمْ الرَّجُلُ أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَتَبَّ ضَفْدَعٌ فِي فَمِهِ.

قال ابن جُبَيْرٍ: كَانَ الرَّجُلُ يَجْلِسُ إِلَى ذَقْنِهِ فِي الضَّفَادِعِ^(٦).

وقال ابنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا أُزِيلَتِ الضَّفَادِعُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَتْ بَرِيَّةً، سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ، فَجَعَلَتْ تَقْدِفُ أَنْفُسَهَا فِي الْقُدُورِ، وَهِيَ تَغْلِي، فَأَتَابَهَا اللهُ بِحُسْنِ طَاعَتِهَا بَرْدٌ^(٧) الْمَاءِ، فَقَالُوا: يَا مُوسَى، ادع في كَشَفِ هذا فدعا، فَكَشَفَ، فَرَجَعُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ، فَارْجَعَ مَاؤُهُمُ الَّذِي يَسْتَقُونَهُ، وَيَخْضُلُ عَنْدهُمْ دَمًا، فَرَوَى أَنَّهُ كَانَ يَسْتَقِي

(١) الرَّمَقُ: بَقِيَّةُ الْحَيَاةِ. وَفِي «الصَّحاحِ»: بَقِيَّةُ الرُّوحِ. وَقِيلَ: هُوَ آخِرُ النَّفْسِ.

يَنْظُرُ: «لِسَانُ الْعَرَبِ» (١٧٣٢).

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٤٤/٢).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٧/٦) بِرَقْمٍ: (١٥٠٣٠) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٤٤/٢)، وَابْنُ الْبُغْيِ (١٩٢/٢) بِلَفْظٍ: «الْقُمَّلُ: السُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحَنْطَةِ»، وَالسِّيُوطِيُّ (٢٠٦/٣) بِلَفْظٍ: «الْقُمَّلُ: الدُّبْنَى».

(٤) يَنْظُرُ: «الشَّوَادِ» (٥٠)، وَ«الْمَحْتَسِبُ» (٢٥٧/١)، وَ«الْكَشَافُ» (١٤٨/٢)، وَ«الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٢/٤٤٤)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٣٧٣/٤)، وَ«الدَّرُّ الْمَصُونُ» (٣٣٠/٣).

(٥) أَيُّ: مُنْهَالٌ لَا يَثْبُتُ.

يَنْظُرُ: «لِسَانُ الْعَرَبِ» (٤٧٣٩).

(٦) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٤/٦ - ٣٥) بِرَقْمٍ: (١٥٠٢٣)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٤٤/٢).

(٧) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٧/٦) بِرَقْمٍ: (١٥٠٣١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٤٤/٢)، وَابْنُ الْبُغْيِ (١٩٢/٢)، وَالسِّيُوطِيُّ (٢٠٦/٣)، وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ.

القَبْطِيُّ والإِسْرَائِيلِيُّ بِإِنَاءٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا خَرَجَ الْمَاءُ، كَانَ الَّذِي يَلِي الْقَبْطِيَّ دَمًا، وَالَّذِي يَلِي الإِسْرَائِيلِيَّ مَاءً إِلَى نَحْوِ هَذَا، وَشَبَّهَهُ، مِنَ الْعَذَابِ بِالدَّمِ الْمُنْقَلَبِ عَنِ الْمَاءِ، هَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ.

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: إِنَّمَا سَلَطَ عَلَيْهِمُ الرُّعَافُ^(١)، فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَالدَّمَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿آيَاتٍ مَفْصَّلَاتٍ﴾ التَّفْصِيلُ: أَصْلُهُ فِي الْأَجْرَامِ: إِزَالَةُ آلَاتِصَالٍ، فَهُوَ تَفْرِيقُ شَيْئَيْنِ، فَإِذَا اسْتَعْمَلَ فِي الْمَعْنَى، فَيَرَادُ بِهِ أَنَّهُ فُرِقَ بَيْنَهَا، وَأُزِيلَ أَشْتَبَاكُهَا وَإِشْكَالُهَا، فَيَجِيءُ مِنْ ذَلِكَ بَيَانُهَا.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: ﴿مَفْصَّلَاتٍ﴾ يَرَادُ بِهَا: مَفْرَقَاتٌ فِي الزَّمَنِ.

قَالَ الْفَخْرُ: قَالَ الْمَفْسُورُونَ: كَانَ الْعَذَابُ يَبْقَى عَلَيْهِمْ مِنَ السَّبْتِ إِلَى السَّبْتِ، وَيَبْقَى الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ شَهْرًا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿آيَاتٍ مَفْصَّلَاتٍ﴾، عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، أَيُّ: فَصَّلَ بَيْنَ بَعْضِهَا وَبَعْضِهَا بِزَمَانٍ تَمْتَحِنُ فِيهِ أَحْوَالُهُمْ، وَيُنْتَظَرُ؛ أَيْقَبِلُونَ الْحُجَّةَ وَالْدَّلِيلَ، أَمْ يَسْتَمِرُّونَ عَلَى الْخِلَافِ وَالتَّقْلِيدِ. انْتَهَى.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعِ لَنَا رَبَّكَ/ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ...﴾ الْآيَةُ: «الرِّجْزُ»: الْعَذَابُ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالرِّجْزِ هُنَا الْعَذَابُ الْمَتَقَدِّمُ الذِّكْرَ مِنَ الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَغَيْرِهِ.

وَقَالَ قَوْمٌ: [إِنَّ] الرِّجْزَ هُنَا طَاعُونَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى سَنَدٍ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ لَفْظُ يَعُمُّ جَمِيعَ الْوَسَائِلِ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ مُوسَى مِنْ طَاعَةِ مُوسَى وَنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَلَى جِهَةِ الْقَسَمِ عَلَى مُوسَى، وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ﴾ أَيُّ: بِدَعَائِكَ، ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ﴾ قَسَمٌ وَجَوَابُهُ، وَهَذَا عَهْدٌ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا انْكَشَفَ الْعَذَابُ، قَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: أَذْهَبَ بَيْنِي إِسْرَائِيلُ حَيْثُ شِئْتُ، فَخَالَفَهُ بَعْضُ مَلَائِهِ، فَرَجَعَ وَنَكَثَ، وَ«إِذَا» هُنَا لِلْمُفَاجَأَةِ، وَالْأَجَلُ: يَرَادُ بِهِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا يَخْصُهُ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْمَوْتِ؛ كَمَا تَقُولُ: أَخْرَجْتُ كَذَا إِلَى وَقْتٍ، وَأَنْتَ لَا تَرِيدُ وَقْتًا بَعِينَهُ، فَالْفَرْقُ مَتَضَمِّنٌ تَوْعُدًا مَّا، ﴿وَكَاثُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أَيُّ: غَافِلِينَ عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَاتُ مِنَ النِّجَاةِ وَالْهَدْيِ.

(١) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢/٤٤٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢/٢٤٢)، وَالسَّيُوطِيُّ (٣/٢٠٦)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا...﴾ الآية: ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ كناية عن بني إسرائيل، و﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾. قال الحسن وغيره: هي الشام^(١). وقالت فرقة: يريد الأرض كلها؛ وهذا يتجه إما على المجاز؛ لأنه ملكهم بلاداً كثيرة، وإما على الحقيقة في أنه ملك ذريتهم، وهم سليمان بن داود، وبترجيح التأويل الأول يوصف الأرض بأنها التي بآرك فيها سبحانه.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحَسَنَى﴾، أي: ما سبق لهم في علمه وكلامه في الأزل من النجاة من عدوهم، والظهور عليه؛ قاله مجاهد^(٢)، و﴿يَغْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس^(٣) ومجاهد^(٤): معناه: يبنون.

قال ع^(٥): * رأيت للحسن البصري رحمه الله؛ أنه احتج بقوله سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ...﴾ إلى آخر الآية؛ على أنه ينبغي ألا يخرج عن ملوك السوء، وإنما ينبغي أن يضرب عليهم؛ فإن الله سبحانه^(٦) يدمرهم، ورأيت لغيره؛ أنه إذا قابل الناس البلاء بمثله، وكَلَّمَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وإذا قابله بالصبر، وانتظار الفرج، أتى الله بالفرج، وزوي هذا أيضاً عن الحسن^(٧).

﴿وَجَنُوزًا يَبَيِّنُ أَسْرَءِلَ الْبَحْرِ فَاتَوًّا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَنْمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ (١٣٧) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَنَطِلْ مَا كَانُوا

(١) أخرجه الطبري (٤٣/٦ - ٤٤) برقم: (١٥٠٥٣)، وذكره ابن عطية (٤٤٦/٢)، وابن كثير (٢٤٢/٢)، والسيوطي (٢٠٨/٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن عساكر.

(٢) أخرجه الطبري (٤٤/٦) برقم: (١٥٠٥٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٤٦/٢)، وابن كثير (٢٤٢/٢)، والسيوطي (٢١٢/٣)، وعزاه لابن أبي شبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٤٥/٦) برقم: (١٥٠٦٠)، وذكره ابن عطية (٤٤٧/٢)، وابن كثير (٤٤٢/٢)، والسيوطي (٢١٢/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٤٥/٦) برقم: (١٥٠٦١)، وذكره ابن عطية (٤٤٧/٢)، والبغوي (١٩٤/٢)، وابن كثير (٢٤٢/٢)، والسيوطي (٢١٢/٣)، وعزاه لابن أبي شبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٧/٢).

(٦) ذكره ابن عطية (٤٤٧/٢)، والسيوطي (٢١٢/٣)، وعزاه لابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٧) ذكره ابن عطية (٤٤٧/٢).

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْغَالِبِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذْ أُنْجِيَتْكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾: أي: بَخَرِ الْقُلُومَ، ﴿فأتوا على قوم﴾، قيل: هم الكنعانيون.

وقيل: هم مِنْ لَحْمٍ وَجُذَامٍ، وَالْقَوْمُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: هم الرجال خاصة ﴿يَعْكُفُونَ﴾، الْعُكُوفُ: الملازمة ﴿على أصنام لهم﴾، قيل كانت بقراً.

وقال ابن جُرَيج: كانت تماثيل بقرٍ من حجارةٍ وعيدانٍ ونحوها، وذلك كان أوّل فتنة العجل، وقولهم: ﴿أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾، يظهر منه استحسانهم لما رآوه من تلك الآلهة؛ بجهلهم؛ فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى، وفي جملة ما يُقَرَّبُ به إلى الله، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى: اجعل لنا صنماً نُفَرِّدُهُ بالعبادة، وَتَكْفُرُ بِرَبِّكَ؛ وعلى هذا الذي قُلْتُ يَقَعُ التشابه الذي نصّه النبي ﷺ في قول أبي واقد الليثي أَجْعَلْ لَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَاتَ أَنْوَاطٍ؛ كَمَا لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ^(١)، فأنكره النبي ﷺ وَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ! قُلْتُمْ وَاللَّهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ؛ «أَجْعَلْ لَنَا إلهاً كَمَا لَهُمْ آلهة: لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ...»» الحديث^(٢)، ولم يقصد أبو واقد بمقالته فساداً، وقال بعضُ الناس؛ كان ذلك من بني إسرائيل كفراً، ولفظة «الإله» تقتضي ذلك، وهذا محتمل، وما ذكرته أولاً أصح، والله أعلم.

قُلْتُ: وقولهم: ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ [طه: ٨٨]، وجواب موسى هنا يقوي ألاحتمال الثاني، نعم: الذي يجب أن يعتقد أن مثل هذه المقالات إنما صدرت من

(١) هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم، أي: يعلقونه بها، ويعكفون حولها، فسألوه أن يجعل لهم مثلها، فنهاهم عن ذلك. وأنواط: جمع نوط، وهو مصدر سمي به المنوط. ينظر: «النهاية» (١٢٨/٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٧٥/٤) كتاب «الفتن» باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، حديث (٢١٨٠)، وأحمد (٢١٨/٥)، والنسائي في التفسير (٤٩٩/١ - ٥٠٠)، والحميدي (٨٤٨)، والطبراني (١٣٤٦)، وعبد الرزاق (٢٠٧٦٣)، وأبو يعلى (٣٠/٣) برقم: (١٤٤١)، وابن حبان (١٨٣٥ - موارد)، وابن أبي عاصم في «السنن» (٧٦)، والطبراني (٣٢٩٠، ٣٢٩٤) كلهم من طريق سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢١٣/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

أشرارهم وقريبي العهد بالكفر، قال الشيخ الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله / الخثعمي ثم السهلي ذكر النقاش في قوله تعالى: ﴿فَاتُوا عَلَى قوم يعكفون على أصنام ١١٩٩ لهم﴾؛ أنهم كانوا من لحم، وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، وأن السامري كان أصله منهم، ولذلك نزع إلى عبادة العجل. انتهى، والله أعلم، وهذا هو معنى ما تقدم من كلام * ع ^(١)، وقوله: ﴿إِنْ هؤُلاءِ مُتَبَّر ما هم فيه﴾، أي: مُهْلَك، مُدْمَر، رديء العاقبة، والتَّبار: الهلاك، وإِناءة مُتَبَّر، أي: مكسور، وكسارته تَبَرُّ؛ ومنه: تَبَرَّ الذَّهَبُ؛ لأنه كسارة، وقوله: ﴿ما هم فيه﴾ يعُم جميع أحوالهم و﴿باطل﴾: معناه: فاسد ذاهب مضحَّل، و﴿أبغىكم﴾ معناه: أطلب.

ثم عدَّد عليهم سبحانه في هذه الآية النِّعم التي يجب من أجلها ألا يكفروا به، ولا يَزْعُبوا في عبادة غيره، فقال: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ الآية، و﴿يسومونكم﴾ معنا: يحملونكم، ويكلفونكم، ومساومة البيع تنظر إلى هذا؛ فإن كل واحد من المتساومين يكلف صاحبه إرادته، ثم فُسِّر سوء العذاب بقوله: ﴿يَقْتُلُونَ أَبْناءَكُم...﴾ الآية.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِّمَّتْ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا سَجَلْ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ بِمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَةٍ فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة، وأن العشر هي عشر ذي ^(٢) الحجة، وروي أن الثلاثين إنما وعد بأن يصومها، وأن مدة المناجاة هي العشر، وحيث ورد أن المواعدة أربعون ليلة، فذلك إخبار بجملته الأمر، وهو في هذه الآية إخبار بتفصيله، والمعنى في قوله: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾: أنه خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات القديم

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٨/٦) برقم: (١٥٠٧٦)، وذكره ابن عطية (٤٤٩/٢)، وابن كثير (٢٤٣/٢)، والسيوطي (٢١٤/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

الذي هو صفة ذات، وكلامُ الله سبحانه لا يشبه كلامَ المخلوقين^(١)، وليس في جهة من الجهات، وكما هو موجود لا كالموجودات، ومعلوم لا كالمعلومات؛ كذلك كلامه لا يُشبه الكلامَ الذي فيه علاماتُ الحدوث، وجوابُ «لَمَّا» في قوله: ﴿قَالَ﴾، والمعنى أنه لما كلمه الله عز وجل، وخصه بهذه المرتبة، طمَحَتْ همته إلى رُتبة الرؤية، وتشوق إلى ذلك، فسأل ربّه الرؤية، ورؤية الله عز وجل عند أهل السنة جائزة عقلاً؛ لأنه من حيث هو موجودٌ تصحُّ رؤيته؛ قالوا: لأن الرؤية للشيء لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود، فموسى عليه السلام لم يسأل ربّه محالاً، وإنما سألَه جائزاً، وقوله سبحانه: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ...﴾ الآية: ليس بجواب من سأل محالاً، و«لَنْ» تنفي الفعلَ المستقبلَ، ولو بقينا مع هذا النفي بمجرده، لقضينا أنه لا يراه موسى أبداً، ولا في الآخرة، لكن ورد من جهة أخرى بالحديث المتواتر: أن أهل الإيمان يَرَوْنَ الله يوم القيامة، فموسى عليه السلام أحزى برؤيته، قُلْتُ: وأيضاً قال تعالى: ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، فهو نص في الرؤية بيّنه ﷺ؛ ففي «الترمذي» عن ابن عمر، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى جَنَانِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ وَسُرُورِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً»، ثم

(١) لا خلاف لأرباب الملل جميعاً في كون الباري تعالى متكلماً، وإنما الخلاف في معنى كلامه، وهل هو قديم أو حادث، وقد قام الدليل السمعي على إثبات الكلام لله تعالى، وهو ما نقل تواتراً عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أنه تعالى أمر بكذا، ونهى عن كذا، وأخبر بكذا. وكل هذا من أقسام الكلام، وليس في إثبات الكلام للواجب تعالى بما نقل تواتراً عن الأنبياء دور؛ لأن ظهور المعجزة كافٍ في الدلالة على صدقهم في دعواهم النبوة، وليس تصديقه تعالى لهم كلاماً حتى يجيء الدور، بل تصديقه لهم بإظهار المعجزة على صدق دعواهم، سواء كانت المعجزة من جنس الكلام من حيث كونه معجزاً، كالقرآن أو كانت شيئاً آخر.

والأشاعرة يقولون: كلام الواجب وصف له، ووصف القديم قديم. ويريدون من «الكلام» المعنى النفسي.

فكلامه تعالى صفة أزلية قائمة بذاته تعالى منافية للسكوت والآفة كما في الخرس والطفولية، ليست من جنس الأصوات والحروف، هو بها أمرٌ ناوٍ. وتلك الصفة واحدة في ذاتها وإن اختلفت العبارات الدالة عليها كما إذا ذكر الله تعالى باللسنة مختلفة.

وخالفت الفرق جميعها الأشاعرة فيما ذكر، فقد اتفقوا على نفي كونه صفة نفسية. حيث قالوا: هو اللفظ المنتظم من الحروف المسموعة الدالة على المعاني المقصودة. واغترقت هذه الطوائف إلى ثلاثة فرق، وزعموا أنه لا معنى للكلام إلا المنتظم من الحروف المسموعة الدالة على المعاني المقصودة، وأن الكلام النفسي غير معقول.

ينظر: «تحقيق صفة الكلام» لشيخنا حافظ محمد مهدي.

قرأ رسول الله ﷺ: «وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» [القيامة: ٢٢، ٢٣]^(١)، قال أبو عيسى: وقد روي هذا الحديث من غير وجه مرفوعاً، وموقوفاً. انتهى.

قال مجاهد وغيره: إن الله عز وجل قال له: يا موسى، لن تراني، ولكن سأتجلى للجبل، وهو أقوى منك، وأشد؛ فإن أستقر وأطاق الصبر لهيبتني، فستمكثك أنت رؤيتي^(٢).

قال * ع^(٣): فعلى هذا إنما جعل الله الجبل مثلاً، قلت: وقول * ع^(٤): * ولو بقينا مع هذا النفي بمجرد، لقضينا أنه لا يراه موسى أبداً ولا في الآخرة، قول مرجوح لم يتفطن له رحمه الله، والحق الذي لا شك فيه أن «لن» لا تقتضي النفي المؤبد^(٥).

(١) أخرجه الترمذي (٤٣١/٥) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة القيامة»، حديث (٣٣٣٠)، والطبري في «تفسيره» (٣٤٤/١٢) برقم: (٣٥٦٦٦) كلاهما من طريق إسرائيل عن ثوير عن عبد الله بن عمر به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد رواه غير واحد عن إسرائيل مثل هذا مرفوعاً، ورواه عبد الملك بن أبيجر، عن ثوير، عن ابن عمر من قوله، ولم يرفعه. ا هـ. قلت: بل رواه عبد الملك بن أبيجر، عن ثوير، عن ابن عمر مرفوعاً. أخرجه الحاكم (٥٠٩/٢) من طريق عبد الملك به وقال: تابعه إسرائيل بن يونس، عن ثوير، عن ابن عمر.

وقال أيضاً: وثوير بن أبي فاختة، وإن لم يخرجاه، فلم ينقم عليه غير التشيع. وتعقبه الذهبي فقال: بل هو واهي الحديث. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٠/٦)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والآجري في «الشرعة»، والدارقطني في «الرؤية»، وابن مردويه، واللالكائي في «السنة».

(٢) أخرجه الطبري (٥٤/٦) برقم: (١٥١٠٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٥٠/٢)، والسيوطي (٢٢١/٣)، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ينظر: «المحور الوجيز» (٤٥٠/٢).

(٤) ينظر: «المحور الوجيز» (٤٥٠/٢).

(٥) لن: لا يلزم من نفيها التأييد، وإن كان بعضهم فهم ذلك، حتى إن ابن عطية قال: فلو بقينا على هذا النفي بمجرد لتضمن أن موسى لا يراه أبداً، ولا في الآخرة، لكن ورد من جهة أخرى الحديث المتواتر أن أهل الجنة يرونه، قلت: وعلى تقدير أن «لن» ليست مقتضية للتأييد، فكلام ابن عطية وغيره ممن يقول: إن نفي المستقبل بعدها يعم جميع الأزمنة المستقبلية صحيح، لكن لمدرك آخر، وهو أن الفعل نكرة، والنكرة في سياق النفي تعم، وللبحث فيه مجال. والاستدراك في قوله: «ولكن أنظر» واضح. وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف اتصل الاستدراك في قوله: «ولكن أنظر»؟ قلت: اتصل به على معنى أن النظر إلي محال فلا تطلبه، ولكن اطلب نظراً آخر، وهو أن تنظر إلى الجبل. وهذا على رأيه من أن الرؤية محال مطلقاً في الدنيا والآخرة.

ينظر: «الدر المصون» (٣٣٨/٣ - ٣٣٩).

١٩٩ ب قال بذُر الدين أبو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مَالِكٍ/ في شرح التَّشْهِيلِ: «وَلَنْ» كغيرها من حروف النفي في جواز كون أَسْتَقْبَالَ الْمُنْفِيِّ بها مَنْقَطَعاً عِنْدَ حَدٍّ وَغَيْرِ مَنْقَطَعٍ، وذكر الزمخشري في «أَنُمُودَجِه»؛ أَنَّ «لَنْ» لتأبيد النفي، وحامله على ذلك اعتقاده أَنَّ اللَّهَ تعالى لَا يُرَى، وهو اعتقاد باطل؛ لصحَّة ثبوت الرؤية عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وأَسْتَدَلَّ على عدم اختصاصها بالتأبيد بمجيء أَسْتَقْبَالَ الْمُنْفِيِّ بها مُعْتَبِراً إلى غَايَةٍ ينتهي بآنتهاؤها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١]، وهو واضح. انتهى، ونحوه لابن هشام، ولفظه: ولا تفيْدُ «لَنْ» توكيد المنفي؛ خلافاً للزمخشري في «كشافه»، ولا تأييده، خلافاً له في «أَنُمُودَجِه»، وكلاهما دَعَوَى بلا دليل؛ قيل: ولو كَانَتْ للتأبيد، لم يقيد منفيها بـ «اليوم» في ﴿فَلَنْ أَكَلَمَ الْيَوْمَ إِنْشِيَا﴾ [مريم: ٢٦] ولكان ذِكْرُهُ «الْأَبَد» في ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] تَكَرَّراً، والأصل عدمه. انتهى من «المغني».

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾: التجلَّى: هو الظهور من غير تشبيه ولا تكيف، وقوله: ﴿جَعَلَهُ دَكَاةً﴾، المعنى: جعله أرضاً دَكَاةً، يقال: ناقةٌ دَكَاءٌ، أي: لا سنام لها، ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾، أي: مغشياً عليه، قاله جماعة من المفسرين.

قال * ص * : ﴿وَخَرَّ﴾ معناه سَقَطَ، وقوله: ﴿سَبْحَانَكَ﴾، أي: تنزيهاً لك؛ كذا فسره النبي ﷺ، وقوله: ﴿ثُبْتُ إِلَيْكَ﴾، معناه: من أن أسألك الرؤية في الدنيا، وأنت لا تبيحها فيها.

قال * ع * ^(١): ويحتمل عندي أنه لفظ قاله عليه السلام؛ لشدة هَوْلِ الْمَطْلَعِ، ولم يعن التَّوْبَةُ مِنْ شَيْءٍ معيَّن، ولكنه لفظٌ لائقٌ بذلك المقام، والذي يتحرَّز منه أهلُ السنة أن تكون تَوْبَةً مِنْ سَوَالِ الْمُحَالِ؛ كما زَعَمَتِ الْمُعْتَزَلَةُ، وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: من قومه؛ قاله ابن عباس ^(٢) وغيره، أو مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ؛ إِنْ كَانَ الْكُفْرُ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ، أو أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّكَ لَا تُرَى فِي الدُّنْيَا؛ قاله أبو العالية ^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿فَخَذَ مَا آتَيْتَكَ وَكَنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فيه تأديبٌ، وتقنيعٌ، وحملٌ على جادة السلامة، ومثالٌ لكلِّ أَحَدٍ فِي حَالِهِ، فَإِنْ جَمِيعُ النَّعَمِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سبحانه بِمُقْدَارٍ،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٢/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٥٦/٦) برقم: (١٥١١٠)، وبرقم: (١٥١١١) وذكره ابن عطية (٤٥٢/٢)، وابن كثير (٢٤٥/٢)، والسيوطي (٢٢٢/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه، والحاكم وصححه.

(٣) ذكره ابن عطية (٤٥٢/٢)، وابن كثير (٢٤٥/٢)، والسيوطي (٢٢٣/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وأبي الشيخ.

وَكُلُّ الْأُمُورِ بِمَرَأَى مِنْهُ وَمَسْمَعٌ، ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَنْفَعُ فِي مَعْنَى الشَّرْعِ، وقوله: ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مثله، وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: بِجِدِّ وَصَبْرِ عَلَيْهِ؛ قاله ابن عباس^(١)، وقوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ يحتمل معنيين.

أحدهما: التفضيل؛ كما إذا عرض مثلاً مباحاً؛ كالعفو والقصاص، فيأخذون بالأحسنِ منهما.

والمعنى الثاني: يأخذون بحسن وصف الشريعة بجملتها؛ كما تقول: الله أكبر، دون مقايضة.

وقوله سبحانه: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، الرؤية هنا: رؤية عين؛ هذا هو الأظهر إلا أن المعنى يتضمن الوعد للمؤمنين، والوعيد للفاستقين، ودارُ الفاسقين: قيل: هي مضر، والمراد آل فرعون، وقيل: الشام، والمراد العماليقة وقيل: جهنم، والمراد الكفرة بموسى، وقيل غير هذا مما يفتقر إلى صحة إسناد.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِي يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية: المعنى: سأمنع وأصد، قال سفيان بن عيينة: الآيات هنا كل كتاب منزل^(٢).

قال * ع^(٣): والمعنى عن فهمها وتصديقها، وقال ابن جريج: الآيات: العلامات المنصوبة الدالة على الوحداية، والمعنى: عن النظر فيها، والتفكر والاستدلال بها، واللفظ يعم الوجهين^(٤)، والمتكبرون في الأرض بغير الحق: هم الكفار، قلت: ويدخل في هذا ١٢٠٠

(١) أخرجه الطبري (٥٨/٦) برقم: (١٥١٢٢)، وذكره ابن عطية (٢/٤٥٢)، والسيوطي (٣/٢٣٣)، وعزاه لابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (٦٠/٦) برقم: (١٥١٣٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٤٥٤)، والبغوي (٢/٢٠٠) بنحوه، وابن كثير (٢/٢٤٧)، والسيوطي (٣/٢٣٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «المحور الوجيز» (٢/٤٥٤).

(٤) أخرجه الطبري (٦١/٦) برقم: (١٥١٣٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٤٥٤)، والبغوي (٢/٢٠٠)، والسيوطي (٣/٢٣٤)، وعزاه لابن المنذر، وأبي الشيخ.

المعنى مَنْ تشبَّه بهم من عُصاة المؤمنين، والمعنى في هذه الآية: سأجعل الصَّرف عن الآيات؛ عقوبةً للمتكبرين على تكبرهم، وقوله: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ حثٌّ من الله على الطائفة التي قدَّر عليهم ألا يؤمنوا، وقوله: ﴿ذلك﴾: إشارة إلى الصَّرف المتقدِّم. وقوله سبحانه: ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة...﴾ الآية: هذه الآية مؤكدة للتي قبلها، وفيها تهديد.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَّهُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَتَغَيَّرْ لَنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْفًا قَالَ يَبْنَؤُنَا خَلْقَتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَكُنْ مِنَ الْإَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من خُلَيْهِمْ عَجَلًا جسدًا له خُور﴾: الخُور: صَوْتُ البقر، وقرأت فرقة: «لَهُ جُورٌ» - بالجيم -، أي: صياح، ثم بيَّن سبحانه سوءَ فطرهم، وقرَّر فساد اعتقادهم بقوله: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم...﴾ الآية: وقوله: ﴿وكانوا ظالمين﴾: إخبار عن جميع أحوالهم؛ ماضياً، وحالاً، ومستقبلاً، وقد مرَّ في «البقرة» قصَّة العجل؛ فأغنى عن إعادته.

قال أبو عبيدة: يقال لمن نَدِمَ على أمر، وعَجَز عنه: سُقِطَ في يده، وقول بني إسرائيل: ﴿لئن لم يرحمنا ربنا﴾، إنما كان بعد رجوع موسى، وتغيُّره عليهم، ورؤيتهم أنهم قد خرَّجوا من الدين، ووقعوا في الكفر.

وقوله سبحانه: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا﴾، يريد: رجع من المناجاة، والأسف: قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأكثر ما يكون بمعنى الحزن، والمعنيان مترتبان هنا.

وعبارة * ص * : ﴿غضبان﴾: صفةٌ مبالغة، والغضب عَلَيَانُ القلب؛ بسبب ما يؤلم و﴿أسفا﴾: من أسف، فهو أسف، كَفَرَقَ فهو فَرَقَ، يدل على ثبوت الوصف، ولو ذهب به مذهب الزمان، لقليل: أسف؛ على وزن فاعِل، والأسف: الحزن. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أعجلتم﴾، معناه: أسابقتم قضاء ربكم، وأسعجَلْتُم إيتاني قبل الوقت الذي قدر به، قال سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس: كان سبب إلحاقه الألواح - غضبه على

قومه في عبادتهم العجل، وَعَظَبَهُ عَلَى أَخِيهِ فِي إِهْمَالِ أَمْرِهِمْ^(١).

قال ابن عباس: لَمَّا أَلْقَاهَا، تَكَسَّرَتْ، فَرَفَعَ أَكْثَرُهَا الَّذِي فِيهِ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبَقِيَ الَّذِي فِي سُخْطِهِ الْهُدَى وَالرَّحْمَةُ، وَهُوَ الَّذِي أَخَذَ^(٢) بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَتْ الْأَلْوَا ح مِنْ زُمُرِدٍ، وَقِيلَ: مِنْ يَاقُوتٍ، وَقِيلَ: مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَقِيلَ: مِنْ خَشَبٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّ أُمَّ﴾ استعطافٌ بِرَحْمِ الْأُمِّ؛ إِذْ هُوَ الْأَصْقُ الْقَرَابَاتِ، وَقَوْلُهُ: ﴿كَادُوا﴾، مَعْنَاهُ: قَارَبُوا، وَلَمْ يَفْعَلُوا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، يَرِيدُ: عَبْدَ الْعَجَلِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ وَفِي سُخْطِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ (١٥٤) وَاتَّخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا يُحِبُّونَنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُو أَسْمَاءَهُمْ إِنَّمَا فَعَلَ الْمَظْهَرَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١٥٥)

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ الثَّلُ بَهُمْ فِي عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالْغَضَبُ وَالذَّلَّةُ هُوَ أَمْرُهُمْ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ، وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ: الذَّلَّةُ: الْجِزْيَةُ، وَوَجْهَ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الْغَضَبَ وَالذَّلَّةَ بَقِيَتْ فِي عَقِبِ هَؤُلَاءِ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: الْإِشَارَةُ إِلَى مَنْ مَاتَ مِنْ عَبْدَةِ الْعَجَلِ قَبْلَ التَّوْبَةِ بِقَتْلِ الْأَنْفُسِ، وَإِلَى مَنْ قُرِّ، فَلَمْ يَكُنْ حَاضِرًا وَقْتُ الْقَتْلِ^(٤)، وَالْغَضَبُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنْ أَخَذَ بِمَعْنَى الْإِرَادَةِ، فَهُوَ صِفَةُ ذَاتٍ، وَإِنْ أَخَذَ بِمَعْنَى الْعُقُوبَةِ وَإِحْلَالِ الثُّقْمَةِ، فَهُوَ صِفَةُ فِعْلٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾، الْمَرَادُ أَوَّلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِي (٦٥/٦) بِرَقْم: (١٥١٣٨)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّة (٤٥٧/٢).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِي (٦٧/٦) بِرَقْم: (١٥١٤٧) بَنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّة (٤٥٧/٢)، وَالسِّيُوطِي (٢٣٥/٣)، وَعَزَاهُ لِأَبِي الشَّيْخِ.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِي (٦٧/٦) بِرَقْم: (١٥١٤٧) بَنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّة (٤٥٢/٢)، وَابْنُ الْبُغْيِ (١٩٩/٢)، وَالسِّيُوطِي (٢٢٥/٣)، وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِي (٧٠ - ٧١) بِرَقْم: (١٥١٥٧)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّة (٤٥٨/٢).

في عِبَادَةِ الْعِجْل، وتكونُ قُوَّةُ اللفظِ تَعُمُّ كُلَّ مَفْتَرٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وقد قال سفيان^(١) بن ٢٠٠ ب غُيْنَةً وَأَبُو قِلَابَةَ^(٢) وغيرهما/ : كُلُّ صَاحِبِ بَدْعَةٍ أَوْ فِرْيَةٍ، ذَلِيلٌ؛ وَأُسْتَدْلُوا بِالْآيَةِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ...﴾ الآية تَضَمَّنَتْ وَعْدًا بِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَغْفِرُ لِلثَّائِبِينَ؛ وَقَرَأَ معاوية بْنُ قُرَّةَ^(٣) «وَلَمَّا سَكَنَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ».

قال أبو حَيَّان^(٤): واللام في ﴿لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ مُقَوِّيةٌ لوصولِ الفعلِ، وهو ﴿يَزْهَبُونَ﴾ إلى مفعوله المتقدم.

وقال الكوفيون: زائدة^(٥).

وقال الأخفش: لام المفعول له، أي: لأجلِ ربِّهم. انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٧٢/٦) برقم: (١٥١٦١)، وذكره ابن عطية (٤٥٨/٢)، والبغوي (٢٠٢/٢)، وابن كثير (٢٤٨/٢)، والسيوطي (٢٣٦/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٧١/٦) برقم: (١٥١٥٩)، وذكره ابن عطية (٤٥٨/٢)، والبغوي (٢٠٢/٢)، وابن كثير (٢٤٨/٢) بنحوه، والسيوطي (٢٣٦/٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) معاوية بن قُرَّة بن إِيَّاس المَرْزَبَنِيُّ أَبُو إِيَّاس البَصْرِيُّ. عن علي مرسلًا، وابن عباس، وابن عمر. وعنه قتادة وشعبة وأبو عَوَّانة وخلق، وثقه ابن معين وأبو حاتم.

قال خليفة: مات سنة ثلاثة عشرة ومائة، ومولده يوم الجمل. ينظر: «الخلاصة» (٤١/٣ - ٤٢)، «التقريب»: (٢٦١/٢)، «الثقات» (٤١٢/٥).

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٣٩٦/٤).

(٥) وفي اللام أقوال:

أحدها أن اللام مقوية للفعل، لأنه لما تقدم معموله ضَعُفَ فقوي باللام، كقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ اللام تكون مقوية حيث كان العامل مؤخرًا، أو فرعًا، نحو: ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، ولا تزداد في غير هذين إلا ضرورة عند بعضهم، كقوله:

فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلًا أَنْخَا لِلْكَلاكِِلِ فَازْتَمَيْنَا
أو في قليل من الكلام عند آخرين، كقوله تعالى: ﴿زَدَفَ لَكُمْ﴾.

والثاني: أن اللام لام العلة، وعلى هذا فمفعول «يَزْهَبُونَ» محذوف، تقديره: يَزْهَبُونَ عقابه لأجله، وهذا مذهب الأخفش.

الثالث: أنها متعلقة بمصدر محذوف، تقديره: الذين هم رهبتهم لربهم، وهو قول المبرد، وهذا غير جارٍ على قواعد البصريين، لأنه يلزم منه حذف المصدر، وإبقاء معموله، وهو ممتنع إلا في شعر. وأيضاً فهو تقديره مُخْرَجٌ للكلام عن وجه فصاحته.

الرابع: أنها متعلقة بفعل مقدر أيضاً، تقديره: يخشعون لربهم، ذكره أبو البقاء، وهو أولى مما قبله. ينظر: «الدر المصون» (٣٥٠/٣).

قُلْتُ: قال ابن هشام في «المغني» ولام التقوية هي المَزِيْدَةُ لتقوية عاملٍ ضَعْفٍ؛ إما لتأخير؛ نحو: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، و﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] أو لكونه فرعاً في العمل؛ نحو: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وقد اجتمع التأخير والفرعية في: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. انتهى.

وقوله: ﴿واختارَ موسى قومه...﴾ الآية: قال الفخر^(١): قال جماعة النحويين: معناه: واختارَ موسى مِنْ قومه، فحذف «مِنْ»، يقال: اخترتُ مِنَ الرجالِ زَيْدًا، واخترتُ الرجالَ زَيْدًا. انتهى.

قال * ع^(٢) * : معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العِدة؛ لِيَذْهَبَ بِهِمْ إِلَى مَوْضِعِ عِبَادَةٍ وَابْتِهَالٍ وَدَعَاءٍ، فيكون منه ومنهم اعتذارٌ إِلَى اللَّهِ سبحانه مِنْ خَطِيئَةِ بني إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ، وقد تقدّم في «سورة البقرة» [البقرة: ٥١] قصصهم، قالت فرقة من العلماء: إِنَّ موسى عليه السلام لَمَّا أَعْلَمَهُ اللَّهُ سبحانه بعبادة بني إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ، وبصفته، قال موسى: أَيُّ رَبِّ، وَمَنْ اخْتَارَهُ؟ قَالَ: أَنَا، قال موسى: فَأَنْتَ، يَا رَبِّ، أَضَلَلْتَهُمْ، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ أَي: إِنَّ الْأُمُورَ بِيَدِكَ تَفْعَلُ مَا تَرِيدُ.

﴿وَكَتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذَا دَرَأُوا عَنْهُمُ الصُّورَ رَأَوْهُ وَاعْبَدُوهُ وَاتَّبَعُوا النَّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة...﴾ الآية: ﴿اكتب﴾: معناه: أثبت وأقض، والكتب: مستعملٌ في كُلِّ ما يخلد، و﴿حسنة﴾: لفظ عامٌ في كل ما يحسن في الدنيا من عاقبة وطاعة لله سبحانه، وغير ذلك، وحسنة الآخرة: الجنة، لا حسنة دونها، ولا مَرَمَى وراءها، و﴿هَذَا﴾ - بضم الهاء - معناه: ثَبَّتَا.

وقوله سبحانه: ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء﴾، يحتمل أن يريد بـ «العذاب»

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/١٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٥٩).

الرجفة التي نزلت بالقوم، ثم أخبر سبحانه عن رحمته، ويحتمل؛ وهو الأظهر: أن الكلام قصد به الخبر عن عذابه، وعن رحمته، وتصريف ذلك في خليفته؛ كما يشاء سبحانه، ويندرج في عموم العذاب أصحاب الرجفة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وطائوس، وعمرؤ^(١) بن فائد: «مَنْ أَسَاءَ»^(٢) من الإساءة، ولا تعلق فيه للمعتزلة، وأطنب القراء في التحفظ من هذه القراءة، وَحَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ شُحُّهُمْ^(٣) عَلَى الدِّينِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، قال بعض العلماء: هو عموم في الرحمة، وخصوص في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾، والمراد: مَنْ قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنْ يَرْحَمَهُمْ، وقوله سبحانه: ﴿فَسَأَكْتِبُهَا﴾، أي: أَقْدَرُهَا وَأَقْضِيهَا.

وقال نَوْفُ الْبِكَالِيِّ^(٤): إِنْ مَوَسَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا رَبِّ، جَعَلْتَ وَفَادَتِي لَأُمَّةٍ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: الظاهر: أَنَّهَا الزَّكَاةُ الْمُخْتَصَّةُ بِالْمَالِ، وروى عن ابن عباس؛ أَنَّ الْمَعْنَى: يُؤْتُونَ الْأَعْمَالَ الَّتِي يَزْكُونُ بِهَا أَنْفُسَهُمْ^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾ الآية: هذه ألفاظٌ أُخْرِجَتْ

(١) عمرو بن فائد، أبو علي الأسواري التميمي: معتزلي قدرى، من القراء الثقات، من أهل البصرة، كان منقطعاً إلى أميرها محمد بن سليمان، أخذ عن عمرو بن عبيد، وله معه مناظرات، وكان متروك الحديث، ليس بثقة، ولا يكتب حديثه، وقيل: له «تفسير» كبير.

قال ابن حجر: مات بعد المائتين بيسير.

ينظر: ترجمته في «الأعلام» (٨٣/٥) (٥٤٠).

(٢) وقد حسنها أبو الفتح على مذهبه من الاعتزال.

ينظر: «المحتسب» (٢٦١/١)، و«الشواذ» (٥١)، و«الكشاف» (١٦٥/٢) و«المحرر الوجيز» (٢/٤٦١)، و«البحر المحيط» (٤/٤٠٠)، وزاد أبو حيان نسبتها إلى زيد بن علي، ثم قال: وقال أبو عمرو الداني: لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطائوس، وعمرو بن فائد رجل سوء، وقرأ بها سفيان بن عيينة مرة واستحسنها، فقام إليه عبد الرحمن المقرئ وصاح به، وأسمعه، فقال سفيان: لم أدر، ولم أظن لما يقول أهل البدع.

ينظر: «الدر المصون» (٣/٣٥٣).

(٣) الشُّحُّ فِي الْأَصْلِ هُوَ: الْبَخْلُ، وَتَشَاحَوْا فِي الْأَمْرِ وَعَلَيْهِ: شَحَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَتَبَادَرُوا إِلَيْهِ حَذَرُ قُوَّتِهِ، وَكَانَ الْمَعْنَى هُنَا مَأْخُذٌ مِنَ الْحَرَصِ عَلَى الْمَحَافَظَةِ عَلَى أَسَاسِ الدِّينِ. ينظر: «لسان العرب» (٢٢٠٥).

(٤) نوف بن فضالة الحميري البكالي: إمام أهل دمشق في عصره، من رجال الحديث، ورد ذكره في «الصحيحين» وكان راوياً للقصص، وهو ابن زوجة كعب الأحبار، ذكره البخاري في فصل: من مات ما بين التسعين إلى المئة.

ينظر: ترجمته في «الأعلام» (٥٤/٨) (٥١١).

(٥) أخرجه الطبري (٨٢/٦) برقم: (١٥٢٢٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٦١/٢).

اليهود والنصارى منَ الاشتراك الذي يظهر في قوله: ﴿فَسَاكِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾، وخلصت هذه العدة لأمة محمد ﷺ، قاله ابن عباس^(١) وغيره. قلت: وهذه الآية الكريمة مغلّمة ١٢٠١ بشرف هذه الأمة على العموم في كل من آمن بالله تعالى، وأقر برسالة النبي ﷺ ثم هم يتفاوتون بعد في الشرف؛ بحسب تفاوتهم في حقيقة الاتباعية للنبي ﷺ، قال الغزالي رحمه الله في «الإحياء»: وإنما أمته ﷺ من أتبعه، وما أتبعه إلا من أعرض عن الدنيا، وأقبل على الآخرة، فإنه عليه السلام ما دعا إلا إلى الله، واليَوْمِ الآخِرِ، وما صرّف إلا عن الدنيا والحفظ العاجلة، فبقدر ما تُعرض عن الدنيا، وتقبل على الآخرة، تسلك سبيله الذي سلكه ﷺ، وبقدر ما سلك سبيله، فقد اتبعته، وبقدر ما اتبعته، صرّت من أمته، وبقدر ما أقبلت على الدنيا، عدلت عن سبيله، ورغبت عن متابعتها، وألتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧، ٣٨، ٣٩]. انتهى، فإن أردت اتباع النبي ﷺ على الحقيقة، واقتفاء أثره، فأبحث عن سيرته وخُلقه في كتب الحديث والتفسير.

قال ابن القطان في تصنيفه الذي صنّفه في «الآيات والمعجزات»: والقول الوجيز في زُهدِهِ وعبادَتِهِ وَتَوَاضُعِهِ وَسَائِرِ خُلَاةٍ وَمَعَالِيهِ ﷺ: أنه مَلَكَ مِنْ أَفْصَى الْيَمَنِ إِلَى صَحْرَاءِ عَمَانَ إِلَى أَفْصَى الْحِجَازِ، ثم تُوفِّيَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعليه دَيْنٌ، وِدْرَعُهُ مَزْهُونَةٌ فِي طَعَامِ لَاهِلِهِ، ولم يترك ديناراً ولا درهماً، ولا شَيْدَ قَصْرًا، ولا غَرْسَ نَخْلًا، ولا شَقَقَ نَهْرًا، وكان يأكل على الأرض ويجلس على الأرض، ويلبس العباءة، ويجالس المساكين، ويمشي في الأسواق، ويتوسد يده، ويلعق أصابعه، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويضلع خُصّه، ويمهّن لاهله، ولا يأكل متكئًا، ويقول: «أَنَا عَبْدٌ أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ»، ويقتصر من نفسه، ولا يرى ضاحكاً مِلءَ فِيهِ ولو دُعِيَ إِلَى ذِرَاعٍ، لأجاب، ولو أُهْدِيَ إِلَيْهِ كَرَاعٌ لَقَبِلَ، لا يأكل وحده، ولا يضرب عبده، ولا يمنع رَفْدَهُ ولا ضَرْبَ بِيَدِهِ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وقام لله حتى تَوَرَّثَتْ قَدَمَاهُ، فقيل له: اتَّفَعَلْ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فقال: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»، وكان يُسْمَعُ لَجْوْفَهُ أَرْزِيْزٌ؛ كَارِيزِ الْمِرْجَلِ^(٢) مِنَ الْبُكَاءِ؛ إِذَا قَامَ بِاللَّيْلِ ﷺ وعلى آله وأتباعه صلاة دائمة إلى يوم القيامة. انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٨٣/٦) برقم: (١٥٢٢٥)، ويرقم: (١٥٢٢٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٦٢/٢)، والسيوطي (٢٤١/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) المِرْجَلُ: القدر من الحجارة والٹحاس. مذكر.

ينظر: «لسان العرب» (١٦٠١).

وقال^(١) الفخر: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ...﴾ الآية: قال بعضهم: الإشارة بذلك إلى مَنْ تقدّم ذكره من بني إسرائيل، والمعنى: يتبعونه بأعتقاد نبوته؛ من حيث وجدوا صفته في التوراة، وسجدونه مكتوباً في الإنجيل.

وقال بعضهم: بل المراد مَنْ لحق مِنْ بني إسرائيل أيام النبي ﷺ، فبيّن تعالى أن هؤلاء اللاحقين لا تكتب لهم رحمة الآخرة إلا إذا اتبعوا النبي الأمي.

قال الفخر^(٢): وهذا القول أقرب. انتهى. وقوله: ﴿يجدون﴾، أي: يجدون صفة نبينا محمد ﷺ ونعته؛ ففي «البخاري» وغيره، عن عبد الله بن عمرو؛ أن في التوراة مِنْ صفة النبي ﷺ «يَأْيَاهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَحِزْزاً لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ، لَيْسَ بِقَطْ، وَلَا عَلِيْظَ، وَلَا سَخَابَ^(٣) فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ أَقْبِضَهُ حَتَّى أَقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ؛ بَأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَتُقِيمَ بِهِ قُلُوباً غُلْفاً، وَأَذَاناً صُمّاً، وَأَعْيُنًا غُمِيّاً»، وفي «البخاري»: «فَيَفْتَحَ بِهِ عُيُونًا غُمِيّاً، وَأَذَاناً صُمّاً، وَقُلُوباً غُلْفاً^(٤)»، ونصّ كعب الأحبار نحو هذه الألفاظ إلا أنه قال: «قُلُوباً غُلُوفاً، وَأَذَاناً صُومَماً».

وقوله سبحانه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ...﴾ الآية: يحتمل أن يكون ابتداء كلام وُصِفَ به النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون متعلقاً بـ «يجدون» في موضع الحال على تجوُّز، أي: يجدونه في التوراة أمراً؛ بشرط وجوده، والمعروف: ما عُرف بالشرع، وكلُّ معروف من جهة المروءة، فهو معروف بالشرع، فقد قال ﷺ: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ^(٥)» و﴿الْمُنْكَرُ﴾: مقابله، و﴿الطَّيِّبَاتِ﴾؛ عند مالك: هي المحللات، و﴿الْخَبَائِثِ﴾ هي المحرّمات، وكذلك قال ابن عباس، والإضر الثقل^(٦)، وبه فسّر هنا قتادة^(٧) وغيره،

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٠/١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٠/١٥).

(٣) السَّخْبُ وَالصَّخْبُ: الصياح.

ينظر: «النهاية» (٣٤٩/٢).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه الطبري (٨٥/٦ - ٨٦) برقم: (١٥٢٤١) بلفظ: «عهدهم»، وبرقم: (١٥٢٤٧) بنحوه، وذكره

ابن عطية (٤٦٣/٢)، والبغوي (٢٠٦/٢)، والسيوطي (٢٤٨/٣).

(٧) أخرجه الطبري (٨٦/٦) برقم: (١٥٢٤٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٦٣٠/٢)، والبغوي (٢٠٦/٢)،

والسيوطي بنحوه (٢٤٨/٣)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وأبي الشيخ.

والإضر أيضاً: العهد، وبه فسر ابن عباس وغيره^(١)، وقد جمعت هذه الآية المعنيين؛ فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم العهد بأن يقوموا بأعمال ثقال، فَوَضَعَ عنهم نبينا محمداً ﷺ، وقال ابن جُبَيْر: الإضر: شدة العبادة^(٢)، وقرأ ابن عامر^(٣): «أَصَارَهُمْ» بالجمع فَمَنْ وَحَد «الإضر»؛ فإنما هو اسم جنس عنده، يراد به الجمع، ﴿وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ عبارة مستعارة أيضاً لتلك الأثقال، كَقَطْعِ الْجِلْدِ مِنْ أَثَرِ الْبَوْلِ، وأن لا دية، ولا بد من قتل القاتل، إلى غير ذلك، هذا قول جمهور المفسرين، وقال ابن زيد: إنما المراد هنا بـ ﴿الْأَغْلَالُ﴾ قول الله عز وجل في اليهود: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، فمن آمن بنبينا محمداً ﷺ، زالت عنه الدعوة، وتغلبها^(٤)، ومعنى ﴿عَزَّوْهُ﴾: أي: وقروه، فالتغزير والنصر: مشاهدة خاصة للصحابة، وأتباع النور: يشترك فيه معهم المؤمنون إلى يوم القيامة، والثور: كناية عن جملة الشرع، وشبه الشرع والهدى بالنور، إذ القلوب تستضيء به؛ كما يستضيء البصر بالنور.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَاقَ عَشْرَةِ أَسْبَاطًا أُمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَلَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهُمُ النَّعْمَ فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَرَّةَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ كَيْبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جميعاً﴾ هذا أمر من الله

(١) أخرجه الطبري (٨٥/٦) برقم: (١٥٢٤١)، وذكره ابن عطية (٤٦٣/٢)، والسيوطي (٢٤٨/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٦٣/٢)، والسيوطي (٢٤٨/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) وحجته أنه لم يختلف في جمع «الأغلal»، وهي نسق على الإضر، وحجة الباقي قوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله سبحانه: ﴿وأخذتم على ذلكم إصري﴾ [آل عمران: ٨١]. ينظر: «السبعة» (٢٩٥)، و«الحجة» (٩٣/٤)، و«إعراب القراءات» (٢١٠/١)، و«حجة القراءات» (٢٩٨)، و«إتحاف» (٦٥/٢)، و«معاني القراءات» (٤٢٥/١)، و«شرح شعلة» (٣٩٧ - ٣٩٨)، و«شرح الطيبة» (٣١/٤) و«العنوان» (٩٨).

(٤) ذكره ابن عطية (٤٦٤/٢).

سبحانه لنبيه بإشهار الدعوة العامة، وهذه من خصائصه ﷺ من بين سائر الرسل؛ فإنه ﷺ بُعِثَ إلى الناس كافةً، وإلى الجن، وكل نبي إنما بعث إلى فرقة دون العموم.

وقوله سبحانه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية: حَضُّ على اتباع نبينا محمد ﷺ، وقوله: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾، أي: يصدق بالله وكلماته، والكلمات هنا: الآيات المنزلة من عند الله؛ كالتوراة والإنجيل، وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ لفظ عام يدخل تحته جميع إلزامات الشريعة، جعلنا الله من متبعيه على ما يلزم بمَنه ورحمته.

قُلْتُ: فَإِنْ أَرَدْتُ الْفَوْزَ أَيُّهَا الْأَخُّ، فَعَلَيْكَ بِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَعْظِيمِ شَرِيعَتِهِ، وَتَعْظِيمِ جَمِيعِ أَسْبَابِهِ.

قال عِيَّاضٌ: وَمِنْ إِعْظَامِهِ ﷺ وَإِكْبَارِهِ إِعْظَامُ جَمِيعِ أَسْبَابِهِ وَإِكْرَامُ مَشَاهِدِهِ وَأَمَكِّيَّتِهِ، وَمَعَاهِدِهِ، وَمَا لَمَسَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ عَرِفَ بِهِ، حُدِّثْتُ أَنَّ أَبَا الْفَضْلِ الْجَوْهَرِيَّ، لَمَّا وَرَدَ الْمَدِينَةَ زَائِرًا، وَقَرَّبَ مِنْ بَيْوتِهَا، تَرَجَّلَ، وَمَشَى بِأَكْيَأَ مُنْشَدًا: [الطويل]

وَلَمَّا رَأَيْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدْعَ لَنَا فُوَادًا لِعِرْفَانٍ / الرُّسُومُ^(١) وَلَا لُبًّا^(٢)
نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ^(٣) نَمْشِي كَرَامَةً لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نَلْمَ بِهِ رَكْبًا
وَحُكِّيَ عَنْ بَعْضِ الْمُرِيدِينَ؛ أَنَّهُ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى مَدِينَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنْشَأَ يَقُولُ: [الكامل]

رَفَعَ الْحِجَابَ^(٤) لَنَا فَلَاحَ لِنَاظِرِي فَمَرْتُ قَطْعُ دُونَهُ الْأَوْهَامُ^(٥)
وَإِذَا الْمَطْيُ^(٦) بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ^(٧) عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ

(١) الرسم: آثار الديار الدارسة، والمراد آثاره ﷺ في معاهده ومسكنه، والفؤاد: القلب، والعرفان: المعرفة، واللُبُّ: العقل.

(٢) الأبيات للمتنبي (٥٦/١)، ينظر: الأبيات في «الشفاء» ص: (٦٢١).

(٣) الأكوار: جمع كور، وهو للإبل بمنزلة السرج للفرس، بان: بعد، نلّم: نأتيه لزيارته، والإلمام: الإتيان قليلاً.

(٤) المراد برفع الحجاب في الشعر: رفع ستائر أبواب الملوك والعظام، وهو هنا، بمعنى انقضاء المسافة، والقرب من المدينة، والقمر: الممدوح، وتقطع: تضمحل.

(٥) الأبيات لأبي نواس في مدح محمد الأمين. ينظر: «ديوانه» ص: (٤٠٨)، وتنظر الأبيات في: «الشفاء» (٦٢٢).

(٦) المطي: جمع مطية: ناقه تمتطي وتركب، ولاح: بدا وظهر، دونه: قريباً منه.

(٧) فظهورهن على الرجال حرام، أي: إذا أوصلتهم لمقاصدهم، كانت لها حرمة تقتضي رعايتها وراحتها، =

قَرُنْنَا مِنْ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى^(١) فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامٌ
وَحُكْمِي عَنْ بَعْضِ الْمَشَايخ؛ أَنَّهُ حَجٌّ مَاشِيًا، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: الْعَبْدُ الْآبِقُ
يَأْتِي إِلَى بَيْتِ مَوْلَاهُ رَاكِبًا؟ لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أُمْشِيَ عَلَى رَأْسِي، مَا مَشَيْتُ عَلَى قَدَمِي.

قال عياض: وجديرٌ لمواطنٍ عُمِرَتْ بالوحي، والتنزيل؛ وتردد فيها جبريل وميكائيل،
وعَرَجَتْ منها الملائكة والروح؛ وضجَّت عرصاتها^(٢) بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها
على جسد سيد البشر؛ وانتشَر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر، مدارس وآيات؛
ومساجد وصلوات؛ ومشاهد الفضائل والخيرات؛ ومعاهد البراهين والمعجزات - أن تعظم
عرصاتها؛ وتنتسم نفحاتها؛ وتقبل ربوعها وجدراتها: [الكامل]

يَا دَارَ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ بِهِ هَذِي الْأَتَامُ^(٣) وَخُصَّ بِالْآيَاتِ^(٤)
عِنْدِي لِأَجْلِكَ لَوْعَةٌ^(٥) وَصَبَابَةٌ وَتَشْوُقٌ مُتَوَقِّدُ الْجَمَرَاتِ
الآيات. انتهى من «الشفاء».

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهُودُ﴾، أي: يرشدون أنفسهم، وهذا الكلام
يحتمل أن يريد به وصف المؤمنين منهم، على عهد موسى، وما والآة من الزمن، فأخبر
سبحانه، أنه كان في بني إسرائيل على عتوهم وخلافهم من أهدى واتقى وعدل، ويحتمل
أن يريد الجماعة التي آمنت بنبينا محمد ﷺ من بني إسرائيل، على جهة الاستجلاب لإيمان
جميعهم، وقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾: بدل من ﴿أَنْتَنِي﴾، والتمييز الذي بين العدة محذوف
تقديره: أنتني عشرة فرقة أو قطعة أسباطاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمَهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ

= فلا يركبها بعد ذلك رجل، ولا يوضع على ظهرها شيء، بل تترك سارحة منعمة في مرعاها.
(١) روي البيت في «الشفاء» من ... من وطئ الثرى. وخير من وطئ الثرى: النبي، فهو خير الناس،
والحرمة: الحق الذي يلزم احترامه، والذمام: ما يلزم احترامه، أو جمع ذمة، وهي العهد، وما يجب
الوفاء به.

(٢) العرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.

ينظر: «لسان العرب» (٢٨٨٣).

(٣) الأنام: الخلق، خص بالآيات: القرآن، أو جميع المعجزات.

(٤) الشعر للقاضي عياض، ينظر الآيات في: «الشفاء» (٦٢٣)، و«نسيم الرياض» (٤٨٨/٣)، وقال القاري:

(١٠٢/٢): قال الحلبي: الذي يظهر أن هنا الشعر من قول عياض رحمه الله.

(٥) اللوعة: شدة الحب وحرقة، والصبابة: رقة الشوق.

فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ . . . ﴿١١٦﴾ الْآيَةُ: ﴿أَنْبَجَسَتْ﴾: بمعنى أَتَفَجَّرَتْ، وقد تقدَّم الكلام على هذه المعاني في «البقرة».

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾﴾ فَبَدَّلَ الَّذِي ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِي ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾: الْقَرْيَةُ هي بَيْتُ الْمَقْدِسِ.

وقيل: أَرِيحَاءُ، و«بَدَّلَ»: معناه غَيَّرَ اللَّفْظَ.

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَمْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سُبْحَتِهِمْ شَرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١١٦﴾﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ يَظْهَرُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَكُلَّهُمْ يَفْسُقُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١١٨﴾﴾ فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١١٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ . . .﴾ الْآيَةُ: قال بعض المتأولين: إن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ قالوا: إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عضيان، ولا معاندة لما أمروا به، فنزلت هذه الآية موبخة لهم، فسؤالهم إنما هو على جهة التوبيخ، والقرية هنا: أَيْلَةُ، قاله^(١) ابن عباس وغيره، وقيل: مَذِين، و«حاضرة البحر»، أي: البحر فيها حاضر، ويحتمل أن يريد معنى «الحاضرة»؛ على جهة التعظيم لها، أي: هي الحاضرة في مَدَنِ الْبَحْرِ، و«يَعْدُونَ»: معناه: يخالفون الشرع؛ مِنْ عَدَا يَعْدُو، و«شَرْعًا»، أي: مقابلة إلههم مُضْطَفَّةً، كما تقول: شَرَعَتِ الرِّيحُ إِذَا مَدَّتْ مُصْطَفَّةً، ٢٠٢ ب وعبارة البخاري / «شَرْعًا» أي: شوارع انتهى.

والعامل في قوله: ﴿ويوم لا يستون﴾ قوله: ﴿لا تأتاهم﴾، وهو ظرف مقدم،

(١) أخرجه الطبري (٩١/٦) برقم: (١٥٢٦٣)، وذكره ابن عطية (٤٦٧/٢)، والبيهقي (٢٠٨/٢)، وابن كثير (٢٥٧/٢)، والسيوطي (٢٥١/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

ومعنى قوله ﴿كَذَلِكَ﴾ الإشارة إلى أمر الحوت، وفتنتهم به، هذا غلى من وقف على تأنيهم، ومن وقف على ﴿كَذَلِكَ﴾، فالإشارة إلى كثرة الحيتان شرعاً، أي: فما أتى منها يوم لا يسبئون، فهو قليل، و﴿نبلوهم﴾، أي: نمتحنهم بفسقهم وعصيانهم، وقد تقدم في «البقرة» قصصهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل أفرقت ثلاث فرق: فرقة عصت، وفرقة نهت، وجاهرته وتكلمت وأعتزلت، وفرقة أعتزلت، ولم تغص ولم تنه، وأن هذه الفرقة لما رأت مجاهرة الناهية، وطغيان العاصية وعتوها، قالت للناهية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾، يريدون: العاصية ﴿اللَّهُ مهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى الله، أي: إقامة عذر، ومعنى ﴿مهْلِكُهُمْ﴾، أي: في الدنيا، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾، [أي]: في الآخرة، والضمير في قوله: ﴿نسوا﴾ للمنهيين، وهو ترك سمي نسياناً مبالغاً، و«ما» في قوله: ﴿ما ذكروا به﴾ بمعنى الذي، و﴿السوء﴾: لفظ عام في جميع المعاصي إلا أن الذي يختص هنا بحسب قصص الآية هو صيد الحوت، و﴿الذين ظلموا﴾: هم العاصون، وقوله: ﴿بعذاب بيتس﴾ معناه: مؤلم موجع شديد، واختلف في الفرقة التي لم تغص ولم تنه، فقيل: نجث مع الناجين، وقيل: هلكث مع العاصين.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أي: لأجل ذلك، وعقوبة عليه، والعنوة الاستعصاء وقلة الطوعية.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾، يحتمل أن يكون قولاً بلفظ من ملك أسمعه؛ فكان أذهب في الإعراب والهول والإصغار، ويحتمل أن يكون عبارة عن القُدرة المكوّنة لهم قردة، و﴿خاسئين﴾: معناه مبغدين ف«خاسئين» خبر بعد خبر، فهذا اختيار أبي الفتح، وضعف الصفة، فروي أن الشباب منهم مسخوا قردة، والرجال الكبار مسخوا خنازير.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَوْرٌ رَجِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَطَعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ معنى هذه الآية: وإذ علم الله ليعتثن، وتقتضي قوة الكلام؛ أن ذلك العلم منه

سبحانه مقتَرَنَ بإِنْفَاقٍ وإِمْضَاءٍ؛ كما تقول في أمر عَزَمْتَ عليه: عَلِمَ اللَّهُ لَأَفْعَلَنَّ.

وقال الطبري^(١) وغيره: ﴿تَأَذَّنْ﴾ معناه: أَعْلَمَ، وقال مجاهد: ﴿تَأَذَّنْ﴾ معناه: أَمَرَ^(٢) وقالت فرقة: معنى ﴿تَأَذَّنْ﴾: تَأَلَّى، والضمير في ﴿عليهم﴾، لبني إسرائيل، وقوله: ﴿من يسومهم﴾ قال ابن عباس: هي إشارة إلى مُحَمَّدٍ ﷺ وأُمَّتِهِ، يسومُونَ اليهودَ سُوءَ العذاب^(٣).

قال * ع^(٤): * والصحيح أن هذا حالهم في كل قُطر، وَمَعَ كُلِّ مِلَّةٍ، و﴿يسومهم﴾: معناه: يَكْلِفُهُمْ وَيَحْمِلُهُمْ، و﴿سُوءَ العذاب﴾: الظاهر منه: أنه الجَزِيَّةُ، والإِذْلَالُ، وقد حتم الله عليهم هذا، وَحَطَّ مُلْكَهُمْ، فليس في الأرض رايَّةَ ليهوديٍّ، ثم حَسَنَ في آخر الآية التَّنبِيهُ عَلَى سُرْعَةِ الْعِقَابِ، والتخويفُ لجميع الناس، ثم رَجَعِيَ سُبْحَانَهُ بقوله: ﴿وإنه لغفور رحيم﴾؛ لطفاً منه بعباده جَلَّ وَعَلَا، و﴿وقطعناهم في الأرض﴾، معناه: فَرَقْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ.

قال الطبري^(٥) عن جماعة من المفسرين: ليس في الأرض بقعة إلا وفيها مَعْشَرٌ من اليهود، والظاهر في المُشَارِ إِلَيْهِمْ بهذه الآية؛ أنهم الذين بعد سُلَيْمَانَ وَقَتَّ زَوَالِ مُلْكِهِمْ، والظاهر أنهم قبل مُدَّةٍ عِيسَى عليه السلام؛ لأنهم لم يَكُنْ فِيهِمْ صَالِحٌ/ بعد كُفْرِهِمْ بَعِيسَى ﷺ و﴿يَلُونَاهُمْ﴾، معناه: أَمْتَحَنَاهُمْ ﴿بالحسنات﴾، أي: بِالصُّحَّةِ وَالرَّخَاءِ، ونحو هذا ممَّا هُوَ بِحَسَبِ رَأْيِ ابْنِ آدَمَ وَنَظَرِهِ، و﴿السيئات﴾: مقابلات هذه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الطاعة.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخْذُوا أَلَّا يُؤْخَذَ عَلَيْهِمْ مِثْلُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠٢/٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٠٢/٦) برقم: (١٥٣٠٨ - ١٥٣٠٩)، وذكره ابن عطية (٤٧١/٢)، والبغوي (٢/ ٢٠٩)، وابن كثير (٢٥٩/٢)، والسيوطي (٢٥٥/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (١٠٢/٦) برقم: (١٥٣١٠)، وذكره ابن عطية (٤٧١/٢)، وابن كثير (٢٥٩/٢).

(٤) ينظر: «تفسير المحرر الوجيز» (٤٧١/٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠٤/٦).

وقوله سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ...﴾ الآية: خَلَفَ معناه: حَدَثَ خَلَفَهُمْ وبعدهم، و﴿خَلَفَ﴾ - بِاسْكَانِ اللَّامِ - يستعمل في الأشهر: في الدُّمِّ.

وقوله سبحانه: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ إشارة إلى الرُّشَا والمكاسب الخبيثة، والعَرَضُ: ما يَغْرَضُ وَيَعْنُ، ولا يَثْبُتُ، والأَدْنَى: إشارة إلى عَيْشِ الدُّنْيَا، وقولهم: ﴿سَيَغْفِرُ لَنَا﴾ دُمٌّ لَهُمْ بِأَغْتِرَارِهِمْ، وقولهم ﴿سَيَغْفِرُ لَنَا﴾، مع علمهم بما في كتاب الله، مِنَ الوعيد على المعاصي، وإِصْرَارِهِمْ، وَأَنَّهُمْ بِحَالٍ إِذَا امْكَنَّتْهُمْ ثَانِيَةً أَرْتَكِبُوهَا، فَهَؤُلَاءِ عَجَزَةٌ؛ كما قال النبي ﷺ: «وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»^(١)، فَهَؤُلَاءِ قَطَعُوا بِالمَغْفِرَةِ وَهُمْ مُصِرُّونَ، وَإِنَّمَا يَقُولُ: ﴿سَيَغْفِرُ لَنَا﴾ مَنْ أَقْلَعَ وَنَدِمَ.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ...﴾ الآية: تشديد في لزوم قول الحق على الله في الشَّرْع والأحكام، وقوله: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ﴾؛ لأنه بمعنى الْمُضِيِّ، والتقدير: أَلَيْسَ قَدْ أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ، وَبِهَذَيْنِ الْفَعْلَيْنِ تَقْوَمُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمُ الْبَاطِلَ، وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: «وَأَدَارَسُوا مَا فِيهِ».

ثم وعظ وذكر تَبَارَكَ وتعالى بقوله: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقرأ أبو عمرو: «أَفَلَا يَفْقِلُونَ» - بالياء^(٢) من أسفل - .

(١) أخرجه الترمذي (٦٣٨/٤) كتاب «صفة القيامة» باب: (٢٥)، حديث (٢٤٥٩)، وابن ماجه (١٤٢٣/٢) كتاب «الزهد» باب: ذكر الموت والاستعداد له، حديث (٧١٤٣)، وأحمد (١٢٤/٤)، والحاكم (١/٥٧)، وابن المبارك في «الزهد» ص: (٥٦) برقم: (١٧١)، والبيهقي (٣٦٩/٣) كتاب «الجنائز» باب: ما ينبغي لكل مسلم أن يستعمله من قصر الأمل، وفي «شعب الإيمان» (٣٥٠/٧) برقم: (١٠٥٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٣٤١/٧) برقم: (٧١٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦٧/١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٥٠/١٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» برقم: (١٨٥)، كلهم من طريق أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن شداد بن أوس مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وتعبه الذهبي فقال: لا والله، أبو بكر واو.

(٢) وهي قراءة علي بن أبي طالب كما في «الشواذ» ص: (٥٢).
وينظر: «المحتسب» (٢٦٧/١)، و«المحرر الوجيز» (٤٧٣/٢)، و«البحر المحيط» (٤١٥/٤)، و«الدر المصون» (٣٦٧/٣).

(٣) وقرأ بها حمزة والكسائي، وابن كثير.
ينظر: «حجة القراءات» (٣٠١)، و«المحرر الوجيز» (٤٧٣/٢)، و«البحر المحيط» (٤١٥/٤)، و«الدر المصون» (٣٦٧/٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسْكُونُ بِالْكِتَابِ﴾ عطف على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾،
وقرأ عاصمٌ وخده؛ في رواية أبي بكرٍ «يُمَسْكُونُ»^(١) - بسكون الميم، وتخفيف السين -،
وقرأ الأعمش^(٢): «وَالَّذِينَ أَسْتَمْسَكُوا».

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا
فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ
آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾، «تَنَفَّقْنَا»: معناه: أَقْتَلَعْنَا
ورَفَعْنَا، وقد تقدّم قصص الآية في «البقرة»، وقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أي:
تَدَبَّرُوهُ وَأَخْفَظُوا أوامره ونواهيه، فما وَقُّوا.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا...﴾ الآية، قوله: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ قال النُّحَاة: هو
بدلُ أَشْتَمَالٍ من قوله: ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، وتواترت الأحاديث في تفسير هذه الآية عن
النبي ﷺ مِنْ طُرُقٍ: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ نَسَمَ بَنِيهِ، فَفِي
بَعْضِ الرِّوَايَاتِ كَالذَّرِّ، وَفِي بَعْضِهَا: كَالْخَزْدَلِ».

وقال محمد بن كعب: إنها الأرواح^(٣) جُعِلَتْ لَهَا مِثَالَاتٌ، وروى عن عبد الله بن
عمر، عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَخِذُوا مِنْ ظَهْرِ آدَمَ؛ كَمَا يُؤْخَذُ بِالْمُشِطِ مِنَ الرَّأْسِ»^(٤)،

(١) وقراءة أبي بكر من الإمساك، أي: يأخذون بما فيه من حلال وحرام. وحجته قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا
أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤]، وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ولم يقل: مَسَكْ.
ينظر: «السبعة» (٢٩٧)، و«الحجة» (١٠٢/٤ - ١٠٣)، و«إعراب القراءات» (٢١٤/١)، و«حجة
القراءات» (٣٠١)، و«شرح الطيبة» (٣١٤/٤)، و«العنوان» (٩٨)، و«معاني القراءات» (٤٢٨/١)،
و«شرح شملة» (٣٩٨).

(٢) وقرأ بها عبد الله، كما في «الكشاف» (١٧٥/٢)، وينظر: «المحرر الوجيز» (٤٧٣/٢)، و«البحر
المحيط» (٤١٦/٤)، و«الدر المصون» (٣٦٨/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١١٦/٦) برقم: (١٥٣٨٧)، والسيوطي (٢٥٩/٣).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٢٥٩/٣)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، واللالكائي في «السنة».

وَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَقُولًا كَنَمَلَةٍ سَلِيمَانَ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَأَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَأَقْرَأُوا بِذَلِكَ، وَالتَّزَمُوهُ؛ وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ سَيَبْعُثُ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ مَذْكُورَةً وَدَاعِيَةً، فشهد بعضهم على بعض، وشهد الله عليهم وملائكته^(١) قال الضحَّاك بن مَرْجَم: من مات صَغِيرًا، فهو على الْعَهْدِ الْأَوَّلِ، وَمَنْ بَلَغَ، فقد أَخَذَهُ الْعَهْدُ الثَّانِي، يعني الَّذِي فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَعْقُولَةِ الْآنَ.

وقوله/ ﴿شَهِدْنَا﴾ يحتملُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ لِبَعْضٍ، فَلَا يَحْسُنُ الْوَقْفُ ٢٠٣ ب على قوله: ﴿بَلَى﴾، ويحتملُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿شَهِدْنَا﴾ مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ، فيحسنُ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿بَلَى﴾.

قال السدي: المعنى: قال الله وملائكته^(٢): شَهِدْنَا ورواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمرَ، عن النَّبِيِّ ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ...﴾ الآية: المعنى: لِئَلَّا تَقُولُوا، أَوْ مَخَافَةً أَنْ تَقُولُوا، والمعنى في هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الْكَفَرَةَ لَوْ لَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ عَهْدٌ، وَلَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مَذْكُورٌ بِمَا تَضَمَّنَهُ الْعَهْدُ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ، لَكَانَتْ لَهُمْ حُجَّتَانِ:

إحدهما: أَنْ يَقُولُوا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ.

والأخرى: كُنَّا تَبَاعًا لِأَسْلَافِنَا، فَكَيْفَ نَهْلِكُ، وَالذَّنْبُ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ طَرَّقَ لَنَا وَأَضَلَّنَا، فَوَقَعَ شَهَادَةُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وشهادة الملائكة عَلَيْهِمْ، لتقطعَ لَهُمْ هَذِهِ الْحُجَّةُ.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾^(١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ^(١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلُمٍ^(١٧٧)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾.

(١) أخرجه الطبري (١١١/٦ - ١١٢) برقم: (١٥٣٦٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٥/٢)، وابن كثير (٢/ ٢٦٢)، والسيوطي (٣/ ٢٦١ - ٢٦٢)، وعزاه لابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (١١٦/٦) برقم: (١٥٣٨٤)، وذكره ابن عطية (٤٧٦/٢)، والبغوي (٢/ ٢١٢).

قال ابن عباس: هو رجلٌ من الكَنَعَانِيِّينَ الجَبَّارِينَ، أَسْمُهُ بَلْعَمُ بْنُ بَاغُورَاءَ^(١)، وقيل: بَلْعَامُ بْنُ بَاعِرٍ.

وقيل: غير هذا، وكان في جملة الجَبَّارِينَ الذي غَرَّاهُمْ مُوسَى عليه السلام، فَلَمَّا قَرَّبَ مِنْهُمْ مُوسَى، لَجَّؤُوا إِلَى بَلْعَام، وَكَانَ صَالِحاً مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وقيل: كان عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَنَحْوِهَا.

وقيل: كان يعلم أَسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ، قاله ابنُ عَبَّاسٍ^(٢) أيضاً، وهذا الخلاف هو في المراد بقوله: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾، فقال له قومه: أَدْعُ اللَّهَ عَلَى مُوسَى وَعَسْكَرِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: وَكَيْفَ أَدْعُو عَلَى نَبِيِّ مُرْسَلٍ، فما زالوا به حتى فُتِنُوهُ، فَخَرَجَ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى جَبَلٍ يَرَى مِنْهُ عَسْكَرَ مُوسَى، وَكَانَ قَدْ قَالَ لِقَوْمِهِ: لَا أَفْعَلُ حَتَّى أَسْتَأْمِرَ رَبِّي، فَفَعَلَ، فَنَهِيَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ تُهِيتُ، فما زالوا به حَتَّى قَالَ: سَأَسْتَأْمِرُ ثَانِيَةً، ففعل، فَسَكَتَ عَنْهُ، فَأَخْبَرَهُمْ، فَقَالُوا لَهُ: إِنْ اللَّهُ لَمْ يَدْعُ نَهْيَكَ إِلَّا وَقَدْ أَرَادَ ذَلِكَ، فَخَرَجَ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى الْعَسْكَرِ، جَعَلَ يَدْعُو عَلَى مُوسَى، فَتَحَوَّلَ لِسَانُهُ بِالْدَعَاءِ لِمُوسَى، وَالْدَعَاءِ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالُوا لَهُ: مَا تَقُولُ؟ فَقَالَ: إِنِّي لَا أُمْلِكُ هَذَا، وَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ، فَرُوي أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ لِسَانُهُ عَلَى صَدْرِهِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: إِنِّي قَدْ هَلَكْتُ، وَلَكِنْ لَمْ يَبْقَ لَكُمْ إِلَّا الْحِيلَةُ، فَأَخْرَجُوا النِّسَاءَ إِلَى عَسْكَرِ مُوسَى عَلَى جِهَةِ التَّجَرِّ وَغَيْرِهِ، وَمُرُوءُهُنَّ أَلَّا تَمْتَنِعَ أَمْرَاءُ مِنْ رَجُلٍ، فَإِنَّهُمْ إِذَا زَنَوْا هَلَكُوا، ففعلوا، فَخَرَجَ النِّسَاءُ، فَزَنَى بِهِنَّ رَجُلًا [مِنْ] بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَجَاءَ فَنَحَاصُ بْنُ الْعِيزَارِ بْنِ هَارُونَ، فَانْتَضَمَ بِرُفْعِهِ أَمْرَاءُ وَرَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَرَفَعَهُمَا عَلَى الرَّمْحِ، فَوَقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ الطَّاعُونَ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي سَاعَةٍ [وَاحِدَةٍ] سَبْعُونَ أَلْفًا، ثُمَّ ذَكَرَ الْمُعْتَمِرُ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الْمُتَسَلِّخَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ.

قال المَهْدَوِيُّ: رُوي أَنَّهُ دَعَا عَلَى مُوسَى أَلَّا يَدْخُلَ مَدِينَةَ الْجَبَّارِينَ؛ فَأَجِيبَ، وَدَعَا عَلَيْهِ مُوسَى أَنْ يَنْسَى أَسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ؛ فَأَجِيبَ، وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ رَوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى صَحَّةِ إِسْنَادٍ، وَ﴿أَنْسَلِخَ﴾: عِبَارَةٌ عَنِ الْبَرَاءَةِ مِنْهَا، وَالْإِنْفِصَالِ وَالْبُعْدِ، كَالْمُتَسَلِّخِ مِنَ الثِّيَابِ وَالْجِلْدِ، وَ﴿أَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾، أَي: صَيَّرَهُ تَابِعاً؛ كَذَا قَالَ الطَّبْرِيُّ: إِمَّا لَضَلَالَةٍ رَسَمَهَا لَهُ، وَإِمَّا لِنَفْسِهِ، وَ﴿مِنَ الْعَاوِينَ﴾، أَي: ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، قَالَ ابْنُ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١١٩/٦) بِرَقْمٍ: (١٥٣٩٨، ١٥٤٠١) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٧٦/٢)، وَابْنُ الْبُيُوتِيِّ (٢١٣/٢) بِنَحْوِهِ، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢٦٤/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ (٢٦٦/٣)، وَعِزَّاهُ لَابِنِ الْمُنْذَرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٢١/٦) بِرَقْمٍ: (١٥٤٢٣)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٧٧/٢)، وَابْنُ الْبُيُوتِيِّ (٢١٥/٢).

عباس وجماعة: معنَى «لرفعناه» لشرفنا/ ذكره، ورفَعْنَا منزلته لدينا؛ بهذه الآيات^(١) التي ١٢٠٤ آتيناه، ولكنه أخلد إلى الأرض، أي: تقاعَسَ إلى الحضيض الأسفلِ الأخس من شهوات الدنيا ولذاتها؛ وذلك أَنَّ الأرض وما أرتكَنَ فيها: هي الدنيا وكلُّ ما عليها فإن، ومن أخلد إلى الفاني، فقد حرم حظَّ الآخرة الباقية.

* ت * قال الهَرَوِيُّ: قوله: «أخلد إلى الأرض»: معناه: سَكَنَ إلى لذاتها، وتَبِعَ هواه، يقال: أخلد إلى كذا، أي: رَكَنَ إليه واطمأنَّ به. انتهى.

قال عَبْدُ الْحَقِّ الإِسْبِيلِيُّ رحمه الله في «العاقبة»: واعلم رحمك الله؛ أَنَّ لسوء الخاتمة أعاذنا الله منها أسباباً، ولها طرق وأبواب، أعظمها: الإكبابُ على الدنيا، والإعراضُ عن الآخرة، وقد سَمِعْتُ بقِصَّةَ بَلْعَامِ بْنِ بَاعُورَاءَ، وما كان آتاه الله تعالى من آياته؛ وأطلعه عليه من بيئانه؛ وما أراه من عجائب مَلَكُوتِهِ، أخلدَ إلى الأرض، وتَبِعَ هواه؛ فسَلَبَهُ الله سبحانه جَمِيعَ ما كان أعطاه؛ وتَرَكَهُ مع مَنْ أَسْتَماله وأغواه. انتهى.

وقوله: «فمثلُه كمثلِ الْكَلْبِ»، شَبَّه به في أنه كان ضالاً قبل أن يُؤْتَى الآياتِ، ثم أَوْتِيَهَا، فكان أيضاً ضالاً لم تنفعه، فهو كالْكَلْبِ في أَنَّهُ لا يَفَارِقُ اللَّهْتَ في كُلِّ حال؛ هذا قول الجمهور.

وقال السَّدِّيُّ وغيره: إِنَّ هذا الرجل عُوقِبَ في الدنيا، فإنه كان يَلْهَثُ كما يَلْهَثُ الْكَلْبُ، فشَبَّه به صورة^(٢) وهيئته، وذكر الطبري، عن ابن عباس؛ أَنَّ معنى: «إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ»: إِنْ تَطْرُدْهُ^(٣).

وقوله: «ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا»، أي: هذا المَثَلُ، يا محمد، مثل هؤلاء الذين كانوا ضالِّين قَبْلَ أن تأتيهم بالهدى والرَّسالة، ثم جثتهم بها، فَبَقُوا على ضلالتهم، ولم يتفَعُوا بذلك، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْكَلْبِ.

وقوله: «فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ»، أي: أسرد عليهم ما يعلمون أنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا أهل الكتب الماضية ولَسْتُ منهم؛ «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» في ذلك؛ فيؤمنوا.

(١) أخرجه الطبري (١٢٥/٦) برقم: (١٥٤٣٦)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٢)، والبغوي (٢١٥/٢ - ٢١٦).

بنحوه، والسيوطي (٢٦٧/٣) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (١٢٨/٦) برقم: (١٥٤٥٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٢٧/٦) برقم: (١٥٤٤٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٢).

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ
 كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا
 أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧٩) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْعُظْمَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ
 يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠)

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾،
 القول فيه: أن ذلك كله من عند الله: الهداية منه وبخلقه واختراعه؛ وكذلك الإضلال،
 وفي الآية تعجيب من حال المذكورين.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، هذا خبر من الله تعالى
 أنه خلق لسكنى جهنم وألحراق فيها كثيراً، وفي ضمنه وعيد للكفار، «وذراً»: معناه:
 خلق وأوجد، مع بثّ ونشر.

وقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَاذَانٌ لَا
 يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ...﴾ الآية: لما كانت هذه الطائفة الكافرة
 المغرصة عن النظر في آيات الله، لم ينفعهم النظر بالقلب، ولا بالعين، ولا ما سمعوه من
 الآيات والمواعظ، استوجبوا الوصف بأنهم لا يفقهون، ولا يبصرون، ولا يسمعون،
 والفقه: الفهم، ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ في أن الأنعام لا تفقه الأشياء، ولا تعقل المقاييس، ثم
 حكم سبحانه عليهم بأنهم أضل؛ لأن الأنعام تلك هي بئسها وخلقت لها، وهؤلاء معدون
 للفهم والنظر، ثم بين سبحانه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الطريق الذي به صاروا أضل
 من الأنعام، وهو الغفلة والتقصير.

قال الفخر^(١): أمّا قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، فتقريه: أن الإنسان
 وسائر الحيوانات متشاركة في قوى الطبيعة؛ الغاذية، والنامية، والمولدة، ومتشاركة أيضاً
 في منافع الحواس الخمس؛ الباطنة والظاهرة، وفي أحوال التخيل، والتفكير، والتذكر،
 وإنما حصل ألامتياز بين الإنسان، وسائر الحيوانات؛ في القوة العقلية والفكرية التي تهديه
 إلى معرفة الحق، فلما أعرض الكفار عن أحوال العقل والفكر، ومعرفة الحق، كانوا
 كالأنعام، بل هم أضل؛ لأن الحيوانات لا قدرة لها على تخصيل هذه الفضائل، وقد قال
 حكيم الشعراء: [البسيط]

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٥٣/١٦).

الرُّوحُ مِنْ عِنْدَ رَبِّ الْعَرْشِ مَبْدُوءُهُ وَتُزَيِّنُ الْأَرْضِ أَصْلُ الْجِسْمِ وَالْبَدَنِ
قَدْ أَلَفَ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ بَيْنَهُمَا لِيَضْلَحَا لِقَبُولِ الْأَمْرِ وَالْمِحَنِ
فَالرُّوحُ فِي غُرْبَةٍ وَالْجِسْمُ فِي وَطَنِ فَلَتَعْرِفَنَّ ذِمَامَ النَّازِحِ الْوَطَنِ
انتهى .

وقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا...﴾ الآية: السبب في هذه الآية على ما روي، أن أبا جهل سمع بغض أصحاب النبي ﷺ يقرأ، فيذكر الله تعالى في قراءته، ومرة يذكر الرحمن، ونحو ذلك، فقال: محمّد يزعم أن إلهه واحد، وهو إنما يعبد آلهة كثيرة، فنزلت هذه الآية، ومن أسماء الله تعالى ما ورد في القرآن، ومنها ما ورد في الحديث وتواتر، وهذا هو الذي ينبغي أن يُعتمد عليه.

وقوله سبحانه: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾، قال ابن زيد: معناه: أتركوهم^(١)، فالآية على هذا منسوخة، وقيل: معناه: الوعيد؛ كقوله سبحانه: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ [المدر: ١١] و﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر: ٣] يقال: ألحد ولحد بمعنى جاز، ومال، وأنحرف، و«ألحد»: أشهر؛ ومنه لحد القبر، ومعنى الإلحاد في أسماء الله عز وجل: أن يسموا الثلاث نظير اسم الله تعالى؛ قاله ابن عباس^(٢)، والعزى نظير العزيز؛ قاله مجاهد^(٣)، ويسمون الله أبا، ويسمون أوثانهم أرباباً.

وقوله سبحانه: ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾: وعيد محض.

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ * والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، الآية تتضمن الإخبار عن قوم أهل إيمان واستقامة وهداية، وظاهرها، يقتضي كل مؤمن كان من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، وروي عن كثير من المفسرين: أنها في أمة نبينا محمد ﷺ، وروي في ذلك حديث أن النبي ﷺ

(١) أخرجه الطبري (١٣٣/٦) برقم: (١٥٤٦٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٨١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٣٢/٦) برقم: (١٥٤٦٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٨١/٢)، والبغوي (٢١٨/٢)، وابن كثير (٢٦٩/٢) بنحوه، والسيوطي (٢٧١/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١٣٢/٦) برقم: (١٥٤٦٥)، وذكره ابن عطية (٤٨١/٢)، والبغوي (٢١٨/٢)، وابن كثير (٢٦٩/٢).

قَالَ: «هَذِهِ الْآيَةُ لَكُمْ».

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ الآية وعيد، والإشارة إلى الكُفَّار، و﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ معناه: سنُسوقهم شيئاً بعد شيءٍ ودرجةً بعد درجةٍ؛ بالنَّعم عليهم والإمهال لهم؛ حتى يغتروا ويظنُّوا أنهم لا ينالهم عقابٌ، وقوله: ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من حيث لا يَعْلَمُونَ أنه أَسْتَدْرَاجٌ لهم، وهذه عقوبةٌ لهم مِنَ اللَّهِ سبحانه عَلَى التَّكْذِيبِ لِمَا حَتَمَ عَلَيْهِمُ بِالْعَذَابِ، أَمَلَى لَهُمُ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا.

وقوله: ﴿وَأْمُلِي﴾: معناه: أَوْخِرْ مِلَاوَةً مِنَ الدَّهْرِ، أي: مُدَّةً و﴿مَتِين﴾: معناه: قويٌّ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٦﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ هَآيَ حَذِيثٍ بَعْدَهُمْ يَوْمُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِي لَمْ يَذَرُهُمْ فِي طَعْنِنِهِمْ يَمْعُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَو لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ...﴾ الآية: تقريرٌ يقارنه ب٢٠٤ توبيخٌ للكُفَّار، والوقوف على قوله: ﴿أَو لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، ثم ابتداء القول بنفي ما ذكره، فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي: بِمُحَمَّدٍ ﷺ، ويحتمل أن يكون المعنى: أو لم يتفكروا أنه ما بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ، ويظهر من رصف الآية أنها باعثة لهم على الفكرة في أمره ﷺ وأنه ليس به جنةٌ كما أحالهم بعد هذه الآية على النَّظَرِ.

وقال الفَخْر^(١): قوله تعالى: ﴿أَو لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أمر بالفكر والتأمل والتدبر، وفي اللفظ محذوفٌ، والتقدير: أو لم يتفكروا فيعلموا ما بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ، والجِنَّةُ: حالةٌ مِنَ الْجُنُونِ، كَالْجِلْسَةِ، ودخولُ «مِنْ» في قوله: ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ ينفي أنواع الجنون. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿أَو لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: النَّظَرُ هنا بالقلب عِبْرَةً وفكراً، و﴿مَلَكُوتٍ﴾: بناءً عظيمةً ومبالغةً.

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾: لفظٌ يعمُّ جميع ما ينظر فيه، ويستدلُّ به من الصنعة الدالة على الصانع، وَمِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَحَوَاسِهِ وَمَوَاضِعِ رِزْقِهِ، وَالشَّيْءُ: واقعٌ على الموجودات، ﴿وَأَنْ عَسَى﴾: عطفٌ على قوله: ﴿فِي مَلَكُوتٍ﴾، والمعنى: توقُّعُهُمْ عَلَى أَنْ لَمْ يَقَعْ لَهُمْ نَظَرٌ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا، وَلَا فِي أَنَّهُمْ قَرَّبَتْ آجَالُهُمْ، فَمَاتُوا فَقَاتَ أَوَانٌ

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/٦٢).

التدَارُكُ، وَوَجِبَ عَلَيْهِمُ الْمَحْذُورُ، ثُمَّ وَقَفَهُمْ «بِأَيِّ حَدِيثٍ» أَوْ أَمْرٍ يَقَعُ إِيمَانُهُمْ وَتَضَدُّقُهُمْ؛ إِذَا لَمْ يَقَعْ بِأَمْرٍ فِيهِ نَجَاتُهُمْ، وَدَخُولُهُمُ الْجَنَّةَ؛ وَنَحْوُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الشَّاعِرِ: [الطويل]

وَعَنْ أَيِّ نَفْسٍ دُونَ نَفْسِي أَقَاتِلُ^(١)

والضمير في ﴿بعده﴾ يراد به القرآن.

وقيل: المراد به النبي ﷺ وقصته وأمره أجمع، وقيل: هو عائد على الأجل، أي: بعد الأجل، إذ لا عمل بعد الموت.

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ يَضِلُّ اللَّهُ فَمَا هَادِي لَهُ...﴾ الآية: هذا شرط وجواب، مضمته اليأس منهم، والمقت لهم؛ لأن المراد أن هذا قد نزل بهم، والطغيان: الإفراط في الشيء، وكأنه مستعمل في غير الصلاح، والعمّة: الحيرة.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنَا لَوْحًا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَهْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يسألونك عن الساعة﴾، قال قتادة: السائلون: هم قريش^(٢).

وقال ابن عباس: هم أحبار اليهود^(٣).

* ت * وفي «السيرة» لابن هشام: أن السائلين من أحبار اليهود: حمل بن أبي قشير، وسموئل بن زيد. انتهى.

والساعة: القيامة موت كل من كان حيًا حينئذ، ويُبعث الجميع، و﴿أيان﴾: معناه متى، وهي مبنية على الفتح، قال الشاعر: [الرجز]

(١) البيت من شواهد «المحرر الوجيز» (٤٨٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٣٦/٦) برقم: (١٥٤٧٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٨٤/٢)، والبيهقي (٢١٩/٢) بنحوه، والسيوطي (٢٧٤/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (١٣٦/٦) برقم: (١٥٤٧٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٨٤/٢)، والسيوطي (٣/٢٧٤)، وعزاه لابن إسحاق، وابن جرير، وأبي الشيخ.

أَيَّانَ تَقْضِي حَاجَتِي أَيَّانَا أَمَا تَرَى لِفَعْلِهَا أَبَانًا^(١)
و﴿مَرْسَاهَا﴾ معناه: مُنْتَبَهَا وَمُنْتَهَاهَا؛ مأخوذٌ من: أَرْسَى يُرْسِي، فـ «مَرْسَاهَا»: رَفَعَ
بِالْإِتْدَاءِ، والخبرُ «أَيَّانَ»، وعِبَارَةُ الْبَخَارِيِّ: ﴿أَيَّانَ مَرْسَاهَا﴾: مَتَى خَرُوجُهَا. انْتَهَى،
و﴿يُجَلِّيهَا﴾: معناه يُظْهِرُهَا.

وقوله سبحانه: ﴿تُقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قيل: معناه: ثَقُلَ أَنْ تُعْلَمَ وَيُوقَفَ
١٢٥٥ عَلَى حَقِيقَةِ وَقْتِهَا، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: معناه: ثَقُلَتْ هَيْئَتُهَا وَالْفَزَعُ عَلَى أَهْلِ
السَّمَوَاتِ^(٢) وَالْأَرْضِ، ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، أَي: فَجَاءَةً.

وقوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: الْمَعْنَى
يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ، أَي: مُتَحَفٌّ وَمُهْتَبِلٌ^(٣) بِهِمْ، وَهَذَا يَنْحُو إِلَى مَا قَالَتْ قَرِيشٌ: يَا
مُحَمَّدُ، إِنَّا قَرَابَتُكَ، فَأَخْبِرْنَا بِوَقْتِ السَّاعَةِ.

وقال ابن زَيْدٍ وَغَيْرُهُ: معناه: كَأَنَّكَ حَفِيٌّ فِي الْمَسْأَلَةِ عَنْهَا، وَالِاشْتِغَالُ بِهَا، حَتَّى
حَصَلَتْ عِلْمُهَا^(٤).

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٥) فِيمَا ذَكَرَ أَبُو حَاتِمٍ: «كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهَا».

وقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ الْطَّبْرِيُّ: معناه: لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ
هَذَا الْأَمْرَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، بَلْ يَظُنُّ أَكْثَرُهُمْ أَنَّهُ مِمَّا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾ الْآيَةُ: هَذَا
أَمْرٌ بِأَنْ يَبَالِغَ فِي الْإِسْتِسْلَامِ، وَيَتَجَرَّدَ مِنَ الْمِشَارَكَةِ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ، وَغَيْبِهِ، وَأَنْ يَصِفَ نَفْسَهُ
لِهَؤُلَاءِ السَّائِلِينَ؛ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ مَنَافِعِ نَفْسِهِ وَمَضَارِّهَا إِلَّا مَا سَأَى اللَّهُ وَشَاءَ وَيَسَّرَ، وَهَذَا

(١) الْبَيْتُ فِي «تَهْذِيبِ الْأَزْهَرِيِّ» (٦٥٣/١٥) [أَي]، وَ«الدَّر الْمَصُون» (٣٧٩/٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٣٧/٦ - ١٣٨) بِرَقْمٍ: (١٥٤٨٥) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٨٤/٢)، وَابْنُ الْبُغْيِ (٢/ ٢١٩ - ٢٢٠).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٣٩/٦) بِرَقْمٍ: (١٥٤٩١) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٨٤/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢/ ٢٧١)، وَالسَّيُوطِيُّ (٢٧٥/٣)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْدُودِيَةٍ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٤٠/٦) بِرَقْمٍ: (١٥٥٠٣) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٨٤/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢/ ٢٧١).

(٥) وَقَرَأَ بِهَا ابْنُ مَسْعُودٍ كَمَا فِي «الشَّوَاذِ» ص: (٥٣).

وَيَنْظُرُ: «الْمَحْتَسِبُ» (٢٦٩/١)، وَ«الْكَشَافُ» (١٨٥/٢) وَ«الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ» (٤٨٤/٢ - ٤٨٥)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٤٣٣/٤)، وَ«الدَّر الْمَصُون» (٣٨١/٣).

الاستثناء منقطع، وأخبر أنه لو كان يَعْلَمُ الْغَيْبَ، لعمل بِحَسَبِ ما يأتي، وأستعد لكل شيء استعداداً مَنْ يعلم قَدَر ما يَسْتَعِدُّ له، وهذا لفظ عام في كل شيء.

وقوله: ﴿وما مسني السوء﴾ يحتمل وجهين، وبكليهما قيل.

أحدهما: أن «ما» معطوفة على قوله: ﴿لاستكثرث﴾ أي: وَلَمَّا مسني السوء.

والثاني: أن يكون الكلام مقطوعاً تَمَّ في قوله: ﴿لاستكثرث من الخير﴾ وابتدأ يخبر بتفني السوء عنه، وهو الجنون الذي رَمَوْهُ به.

قال مؤرِّج السُّدُوسِي^(١): ﴿السوء﴾ الجنون؛ بلغة هُذَيْل.

* ت *: وأما على التأويل الأول، فلا يريد بـ «السوء» الجنون، ويدرِّج الثاني بنحو قوله سبحانه: ﴿ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم...﴾ [سبأ: ٤٦] الآية، و﴿لقوم يؤمنون﴾: يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يريد: لقوم يُطَلَّبُ منهم الإيمان، رهؤلاء الناس أجمع.

والثاني: أن يخبر أنه نذير، ويتم الكلام، ثم يبتدئ يخبر أنه بشير للمؤمنين به، ففي هذا وعد لمن حصل إيمانه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ. فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَ لَهُمُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَبَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُظْلَمُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمُ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْهِمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِيمُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

وقوله: جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وهو الذي خلقكم من نفس واحدة...﴾ الآية.

قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة: آدم عليه السلام، وبقوله: ﴿وجعل منها زوجها﴾ حواء، وقوله: ﴿منها﴾ هو ما تقدّم ذكره مِنْ أَنَّ آدَمَ نام، فَاسْتُخْرِجَتْ قُضْرَى أَضْلَاعِهِ، وَخُلِقَتْ مِنْهَا حَوَاءُ.

(١) مؤرِّج بن عمرو بن الحارث، من بني سدوس بن شيان، أبو فيد: عالم بالعربية والأنساب، من أعيان أصحاب الخليل بن أحمد، من أهل «البصرة». كان له اتصال بالمأمون العباسي، ورحل معه إلى خراسان، فسكن مدة، بـ «مرو»، وانتقل إلى «نيسابور». من كتبه «جماهير القبائل» و«حذف من نسب قریش»، و«غريب القرآن» و«الأمثال» و«المعاني» وله شعر جيد. ينظر: ترجمته في «الأعلام» (٣١٨/٧) (٢٥٦٩).

وقوله: ﴿لَيْسَ كُنْهَ الْإِلَهِ﴾، أي: ليأنس، ويطمئن، وكان هذا كله في الجنة.

ثم ابتدأ بحالة أخرى، وهي في الدنيا بعد هبوطهما، فقال: ﴿فَلَمَّا تَخَشَّاهَا﴾، أي: غَشِيَهَا، وهي كناية عن الجماع، والحمل الخفيف: هو المنى الذي تحمله المرأة في رَحِمِهَا.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: أَسْتَمَرَّتْ بِهِ، وقرأ ابن عباس: «فَأَسْتَمَرَّتْ بِهِ»، وقرأ ابن^(١) مسعود: «فَأَسْتَمَرَّتْ بِحَمْلِهَا» وقرأ عبد الله بن عمرو بن^(٢) العاص: «فَمَارَتْ بِهِ»، أي: جَاءَتْ بِهِ، وَذَهَبَتْ، وَتَصَرَّقَتْ؛ كما تقول: مَارَتْ الرِّيحُ مَوْراً، وَ﴿أَنقَلَتْ﴾: دخلت في الثقل، كما تقول: أَصْبَحَ وَأَمْسَى، والضمير في قوله ﴿دَعَوَا﴾، على هذا التأويل: عائد ب ٢٠٥ على آدم وحواء، وروي في قصص ذلك/؛ أن الشيطان أشار على حواء، أن تُسَمِّيَ هذا المولود «عَبْدَ الْحَارِثِ»، وهو اسم إبليس، وقال لها: إن لم تفعلني قَتَلْتُه، فزعموا أنهما أطاعاه؛ حرصاً على حياة المولود، فهذا هو الشرك الذي جَعَلَ لِلَّهِ، في التسمية قَفْطُ.

وقال الطبري والسدي^(٣) في قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كلام منفصل من خبرِ آدم وحواء، يراد به مشركو العرب^(٤).

* ت * : وينزه آدم وحواء عن طاعتهما لإبليس، ولم أَقِفْ بَعْدُ عَلَى صَحَّةِ مَا رُوِيَ فِي هَذِهِ الْقِصَصِ، وَلَوْ صَحَّ، لَوَجِبَ تَأْوِيلُهُ، نَعَمْ؛ روى الترمذي عن سُمُرَةَ بِنِ جُنْدُبٍ^(٥)، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لَمَّا حَمَلَتْ حَوَاءُ، طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَكَانَ لَا يَعْشُرُ لَهَا وَلَدًا، فَقَالَ لَهَا: سَمِّهِ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَسَمَّتهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَعَاشَ ذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٨٦)، و«البحر المحيط» (٤/٤٣٧).

(٢) قال أبو الفتح: والمعنى واحد.

ينظر: «المحتسب» (١/٢٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٢/٤٨٦)، و«البحر المحيط» (٤/٤٣٧)، وزاد نسبتها إلى الجحدري، وينظر: «الدر المصون» (٣/٣٨٢). وقد نسبها ابن خالويه في «مختصره» ص: (٥٣) إلى ابن أبي عمار.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/١٤٦).

(٤) أخرجه الطبري (٦/١٤٨) برقم: (١٥٥٤٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٤٨٧)، والسيوطي (٣/٢٧٩)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٥) هو: سمرة بن جندب بن هلال بن خريج بن مرة بن حرب بن عمرو بن جابر أبو سليمان الفزاري، سكن «البصرة»، قدمت به أمه المدينة بعد موت أبيه، فتزوجها رجل من الأنصار اسمه: مري بن سنان بن ثعلبة، وكان في حجره إلى أن صار غلاماً، وكان رسول الله ﷺ يعرض غلمان الأنصار كل سنة، فمَرَّ بِهِ غلام فأجازه في البعث، وعرض عليه سمرة بعده فردة، فقال سمرة: لقد أجزت هذا وزددتني، ولو صارعتني لصرعتك قال: فدونكه فصارعته، فصارعته سمرة، فأجازه من البعث. قيل: أجازه يوم أحد، والله أعلم...

وَحِي الشَّيْطَانُ، وَأَمْرِهِ، قال الترمذي: هذا حديث حسن^(١) غريب، انفرد به عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ^(٢)، عن قَتَادَةَ، وعمرُ شَيْخٍ بَصْرِيٍّ. انتهى.

وهذا الحديث ليس فيه أنهما أطاعاه، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: الواجب التوقف، والتتريه لِمَنْ أَجْتَبَاهُ اللَّهُ، وَحُسْنُ التَّأْوِيلِ مَا أَمَكُنْ، وقد قال ابنُ العربي في توهينِ هذا القول وتزييفه: وهذا القول ونحوه مذکور في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره، وفي الإسرائيليات التي لَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ، ولا يعول عليها مَنْ له قَلْبٌ، فَإِنَّ آدَمَ وَحَوَاءَ - وَإِنْ كَانَا غَرَّهُمَا بِاللَّهِ الْعَزَّوْرُ - فلا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ، وما كانا بعد ذلك لِيَقْبَلَا لَهُ نُصْحًا، ولا يسمعا له قولاً، والقول الأشبه بالحَقِّ: أن المراد بهذا جنسُ الآدميين. انتهى من «الأحكام».

قال^(٣) * ع * وقوله ﴿صَالِحًا﴾: قال الحَسَنُ: معناه: عَلَامًا^(٤)، وقال ابن عباس؛ وهو الأظهر: بَشَرًا سَوِيًّا^(٥) سليماً.

وقال قومٌ: إنما الغَرَضُ من هذه الآية تعديدُ النعمة في الأزواج، وفي تسهيل النسل والولادة، ثم ذكر سُوءَ فِعْلِ المُشْرِكِينَ المُوجِبِ للعقاب، فقال مخاطباً لجميع الناس: ﴿هو الذي خلقكم مِنْ نفس واحدة وجعل منها زوجها﴾ يريد: آدم وحواء، أي: وأستمرت

توفي قيل: سنة ٥٥٨ هـ، وقيل: ٥٩ هـ بـ «البصرة».

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٤٥٤/٢)، «الإصابة» (١٣٠/٣)، «الثقات» (١٧٤/٣)، «الاستيعاب» (٦٥٣/٢)، «الإكمال» (٦٧/٢)، «الأعلام» (١٣٩/٣)، «العبر» (٦٥/١)، «الكاشف» (٤٠٣/١)، «بقي بن مخلد» (٣٥)، «الرياض المستطابة» (١٠٧)، «التاريخ الكبير» (١٧٦/٤)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢٣٩/١)، «التاريخ الصغير» (١٠٦/١ - ١٠٧)، «الوافي بالوفيات» (٦١١/١٥)، «تاريخ جرجان» (٢٣٩)، «التحفة اللطيفة» (١٩٣)، «الطبقات الكبرى» (٨٩/٩)، «سير أعلام النبلاء» (٣/١٨٣).

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧/٥ - ٢٦٨) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة الاعراف»، حديث (٣٠٧٧)، من طريق عمر بن إبراهيم، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه؛ عمر بن إبراهيم شيخ بصري.

(٢) عمر بن إبراهيم العبدي أبو حفص البصري، صاحب الهروي بفتح الهاء. عن قتادة، وعنه ابنه الخليل وعباد بن القوام، وثقه ابن معين في رواية الدارمي، وقال ابن عدي: حديثه عن قتادة مضطرب.

ينظر ترجمته في: «الخلاصة» (٢٦٥/٢) (٥١٢٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨٦/٢).

(٤) أخرجه الطبري (١٤٣/٦) برقم: (١٥٥١٧)، وذكره ابن عطية (٤٨٦/٢)، وابن كثير (٢٧٤/٢)، والسيوطي (٢٧٨/٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره ابن عطية (٤٨٦/٢)، وابن كثير (٢٧٤/٢).

حَالِكُمْ واحداً واحداً كذلك، فهذه نعمة يختص كل واحد بجزء منها، ثم جاء قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا...﴾ إلى آخر الآية، وصفاً لحال الناس واحداً واحداً، أي: هكذا يفعلون، فإذا آتاهم الله ولداً صالحاً سليماً كما أرادوه، صرفوه عن الفطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين.

قال ابن العربي في «أحكامه» وهذا القول هو الأشبه بالحق وأقرب للصدق، وهو ظاهر الآية، وعمومها الذي يشمل جميع متناولاتها، ويسلم فيها الأنبياء عن التقص الذي لا يليق بجهاال البشر، فكيف بساداتهم، وأنبيائهم؟! انتهى، وهو كلام حسن؛ وبالله التوفيق.

وقرأ نافع^(١)، وعاصم؛ في رواية أبي بكر: «شركاً» - بكسر الشين، وسكون الراء -؛ على المصدر، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «شركاء» على الجمع، وهي بينة؛ على هذا التأويل الأخير، وقلقة على قول من قال: إن الآية الأولى في آدم وحواء، وفي مضعف أبي بن كعب^(٢): «فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً أَشْرَكَ فِيهِ».

وقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً...﴾ الآية: ذهب بعض من قال بالقول الأول ١٢٠٦ إلى أن هذه الآية في آدم وحواء على ما تقدم، وفيه قلق وتعسف من التأويل/ في المعنى وإنما تنسق هذه الآيات، ويروى نظمها، ويتناصر معناها على التأويل الأخير، فإنهم قالوا: إن الآية في مشركي الكفار الذي يُشْرِكُونَ الأصنام في العبادة، وإياها يراد في قوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾، وعبر عن الأصنام بـ «هُنَّ»؛ كأنها تغفل على اعتقاد الكفار فيها؛ وبحسب أسمائها، و﴿يُخْلَقُونَ﴾: معناه: يُنَحْتَوْنَ وَيُضَعَّوْنَ، يعني: الأصنام، ويحتمل أن يكون المعنى، وهؤلاء المشركون يُخْلَقُونَ؛ أي: فكان حقهم أن يعبدوا خالقهم، لا من لا يخلق شيئاً، وقرأ أبو عبد الرحمن: «عَمَّا تُشْرِكُونَ»^(٣) بالتاء من فوق «أَتُشْرِكُونَ».

وقوله سبحانه: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أَدْعَوْتُمُوهُمْ أم أُنْتُمْ صَامِتُونَ﴾، من قال: إن الآيات في آدم عليه السلام، قال: هذه مخاطبة مستأنفة

(١) ينظر: «السبعة» (٢٩٩)، و«الحجة» (١١١/٤)، و«إعراب القراءات» (٢١٦/٢)، و«حجة القراءات» (٣٠٤)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٧١/٢)، و«العنوان» (٩٨) و«شرح الطيبة» (٣١٨/٤)، و«شرح شملة» (٤٠)، و«معاني القراءات» (٤٣١/١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨٧/٢)، و«البحر المحيط» (٤٣٨/٤).

(٣) ينظر: «الشواذ» ص: (٥٣)، و«المحرر الوجيز» (٤٨٨/٢)، و«البحر المحيط» (٤٣٨/٤)، و«الدر المصون» (٣٨٣/٣).

للنبي ﷺ، وأمره في أمر الكفار المعاصرين للنبي ﷺ ومن قال بالقول الآخر، قال: إن هذه مخاطبة للمؤمنين والكفار؛ على قراءة من قرأ: «أُيْشِرِكُونَ» - بالياء من تحت -، وللکفار فقط على قراءة من قرأ بالتاء من فوق على جهة التوقيف، أي: هذا حال الأصنام معكم؛ إن دعوتهم، لم يجيبوكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَثْنَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩٤) ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصْهَرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ (١٩٥) ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ إِلَهِي الَّذِي نَزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦) ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَهْضَمُونَ﴾ (١٩٧) ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَلَائِكَةِ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٩٨)

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَثْنَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...﴾ الآية مخاطبة للكفار في تحقير شأن أصنامهم، وقوله: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ أي: فأخبروا، فإن لم يستجيبوا، فهم كما وصفنا.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصْهَرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾ الآية. الغرض من هذه الآية ﴿أَلَهُمْ﴾ حواس الحي وأوصافه، فإذا قالوا: «لا»، حكموا بأنها جمادات من غير شك، لا خَيْرَ عندها.

قال الزهراوي: المعنى: أنتم أفضل منهم بهذه الجوارح النافعة؛ فكيف تعبدونهم، ثم أمر سبحانه نبيه عليه السلام أن يعجزهم بقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾، أي: أَسْتَجِدُّوهُمْ وَأَسْتَنْفِرُوهُمْ إِلَى إِضْرَارِي وَكَيْدِي، وَلَا تُوْخَرُونِي، الْمَعْنَى: فَإِنْ كَانُوا آلِهَةً، فَسَيُظْهِرُ فَعْلَكُمْ، وَلَمَّا أَحَالَهُمْ عَلَى أَلَا سَتَنْجَادُ بِأَلِهَتِهِمْ فِي ضَرَرِهِ، وَأَرَاهُمْ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا تَلْكَ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِالِاسْتِنَادِ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالْإِعْلَامَ بِأَنَّهُ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾؛ إنما تكرر القول في هذا، وتردَّدت الآيات فيه؛ لأن أمر الأصنام وتعظيمها كان متمكناً من نفوس العرب في ذلك الزمان، ومستولياً على عقولها، فأوعب القول في ذلك؛ لطفاً منه سبحانه بهم.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهَدْيِ لَا يَسْمَعُوا...﴾ الآية: قالت فرقة: هذا خطاب

للنبي ﷺ، وأمته في أمر الكُفَّار، والهَاءُ والميمُ في قوله: «تدعوهم» للكُفَّار، ووصفهم بأنهم لا يَسْمَعُونَ، ولا يبصرون؛ إذ لم يتحصَّلْ لهم عن النَّظَرِ والاستماع فائدة؛ قاله مجاهد^(١) والسَّدي^(٢)؛

وقال الطبري^(٣): المراد بالضمير المذكور: الأصنام، ووصفهم بالنظر كنايةً عن المحاذاة والمقابلة؛ ولَمَّا فيها من تخييل النَّظَر؛ كما تقول: دَارَ فَلَانٌ نَظَرَ إِلَى دار فلان.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ...﴾ الآية: وصية من الله سبحانه لنبيه ﷺ عليه السلام تعمُّ جميع أمته، وأخذٌ بجميع/ مكارم الأخلاق.

قال الجمهور: معنى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أقبل من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أتى عفوًا، دون تكلف، فالعفو هنا: الفضل والصفو، قال مكِّي؛ قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ...﴾ الآية.

قال بعض أهل المعاني، في هذه الآية بيان قول النبي ﷺ: «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»^(٤)؛ فهذه الآية قد جمعت معاني كثيرة، وفوائد عظيمة، وجمعت كلُّ خُلُقٍ حَسَنٍ؛ لأنَّ في أخذ العفو صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالمعروف نَفْوَ الله وطاعته، وصلة الرِّجَم، وصون الجوارح عن المحرمات، وسمي هذا ونحوه عُرْفًا؛ لأن كلَّ نفس تعرفه، وتركنُ إليه، وفي الإعراض عن الجاهلين: الصبر، والجلُم، وتنزيه النفس عن مخاطبة السفیه، ومنازعة اللُّجوج، وغير ذلك من الأفعال المرضية. انتهى من «الهداية».

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾: معناه: بكلِّ ما عرفته النفوس ممَّا لا ترده الشريعة؛ ومن ذلك: «أَنْ تُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتَغْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ...» الحديث^(٥)،

(١) أخرجه الطبري (١٥١/٦) برقم: (١٥٥٤٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٩٠/٢)، وابن كثير (٢٧٧/٢) طرفاً منه، والسيوطي (٢٨٠/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (١٥١/٦) برقم: (١٥٥٤٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٩٠/٢)، وابن كثير (٢٧٧/٢) بنحوه، والسيوطي (٢٨٠/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥١/٦).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

فَالْعُرْفُ بِمَعْنَى الْمَعْرُوفِ.

وقوله عز وجل: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾، هذه الآية وصية من الله سبحانه لنبيه ﷺ تعم أمته رجالاً رجلاً، والنزغ: حركة فيها فساد قلماً تستعمل إلا في فعل الشيطان؛ لأن حركته مسرعة مفسدة؛ ومنه قول النبي ﷺ: «لَا يُشِرْ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسَّلاحِ؛ لَا يَنْزِعَ الشَّيْطَانُ فِي يَدِهِ»، فالمعنى في هذه الآية: فَإِذَا تَلَمَّنْ بِكَ لَمَّةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، فاستعذ بالله، وعبارة البخاري: يَنْزِعُكَ: يَسْتَحِفُّكَ. انتهى.

وَنَزَغَ الشَّيْطَانُ عَامٌ فِي الْعَصَبِ، وتحسين المعاصي، واكتساب الغوائل، وغير ذلك وفي «جامع الترمذي» عن النبي ﷺ قَالَ: «إِنْ لِمَلَكٍ لَمَّةٌ، وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ...»^(١) الحديث.

قال * ع^(٢) * : عن هاتين اللَّمَّتَيْنِ: هي الخواطرُ من الخير والشر، فالآخذُ بالواجبِ يلقي لَمَّةَ الْمَلَكِ بِالْإِمْتِثَالِ وَالْإِسْتِمَامَةِ، وَلَمَّةَ الشَّيْطَانِ بِالرَّفْضِ وَالْإِسْتِعَاذَةِ، وَأَسْتَعَاذَ: معناه: طَلَبَ أَنْ يُعَادَ، وَعَادَ: معناه: لاذَ، وَأَنْصَوَى، وَأَسْتَجَارَ.

قال الفخر^(٣): قال ابنُ زيد: لما نَزَلَ قوله تعالى: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ قال النبي ﷺ: «كَيْفَ يَا رَبِّ، وَالْعَصَبُ؟ فَتَزَلَ قوله: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾»^(٤)، وقوله: ﴿إنه سميع عليم﴾ يدلُّ على أن الاستعاذة لا تفيدُ إلا إذا حضر في الْقَلْبِ الْعِلْمُ بِمَعْنَى الاستعاذة، فكانه تعالى قال: أَذْكَرُ لَفْظَ الاستعاذة بلسانك؛ فإن سميعٌ، وَأَسْتَحْضِرُ معاني الاستعاذة بِعَقْلِكَ وَقَلْبِكَ؛ فَإِنِّي عَلِيمٌ بِمَا فِي صَمِيرِكَ، وفي الحقيقة: القولُ اللسانيُّ دون المعارفِ العقلية، عديمُ الفائدة والأثر. انتهى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٧١﴾﴾
وَلِخَوَانَتِهِمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْفِتْنَةِ ثُمَّ لَا يَصْصِرُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا...﴾ الآية خَرَجَتْ مَخْرَجَ الْمَدْحِ لِلْمُتَّقِينَ، وَالتَّقَوَى ههنا عَامَةٌ فِي اتِّقَاءِ الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي، وَقَرَأَ ابْنُ ١٢٠٧

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٩١).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/٧٩).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/١٥٥) برقم: (١٥٥٦٤).

كثير^(١) وغيره: «طَيْفٌ».

قال أبو علي الطائف كالخاطر، والطيف كالخُطرة، وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾: إشارة إلى الاستعاذة بالمأمور بها، وإلى ما لله عز وجل من الأوامر والنواهي في النازلة التي يقع تعرض الشيطان فيها، وقرأ ابن الزبير^(٢): «مِنَ الشَّيْطَانِ تَأْمَلُوا فَإِذَا هُمْ»، وفي مُصْحَف^(٣) أبي بن كعب «إِذَا طَافَ مِنَ الشَّيْطَانِ طَائِفٌ تَأْمَلُوا»، وقوله: ﴿مُبْصِرُونَ﴾: من البصيرة، أي: فإذا هم قد تبينوا الحق، ومالوا إليه، والضمير في ﴿إخوانهم﴾، عائذ على الشياطين، وفي ﴿يمدونهم﴾ عائذ على الكفار، وهم المراد بـ «الإخوان»، هذا قول الجمهور.

قال * ع^(٤) *: «وقرأ جميع السبعة^(٥) غير نافع: «يَمْدُونَهُمْ»؛ من مَدَدْتُ، وقرأ نافع: «يَمْدُونَهُمْ»، من أَمَدَدْتُ.

قال الجمهور: هما بمعنى واحد، إلا أن المستعمل في المحبوب «أَمَدٌ»، والمستعمل في المكروه «مَدٌ»، فقراءة الجماعة جارية على المنهاج المستعمل، وقراءة نافع هي مقيدة بقوله: ﴿فِي الْغِي﴾؛ كما يجوز أن تقيّد البشارة، فتقول: بَشَرْتُهُ بَشْرٌ وَمَدَّ الشَّيَاطِينِ لِلْكَفَرَةِ، أي: ومن نحا نحوهم: هو بالتزيين لهم، والإغواء المتتابع، وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾؛ من أَقْصَرَ، والضمير عائذ على الجميع، أي: هؤلاء لا يقصرون عن الإغواء، وهؤلاء لا يُقْصِرُونَ في الطاعة للشياطين.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإِيرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَذِي لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢٢﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا﴾، سببها فيما روي أن الوحي

(١) ينظر: «السبعة» (٣٠١)، و«الحجة» (١٢٠/٤)، و«حجة القراءات» (٣٠٥)، و«إعراب القراءات» (١) / (٢١٧)، و«إتحاف» (٧٣/٢)، و«العنوان» (٩٩)، و«معاني القراءات» (٤٣٣/١)، و«شرح الطيبة» (٤) / (٣٢١)، و«شرح شعلة» (٤٠٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩٢/٢)، و«البحر المحيط» (٤٤٦/٤).

(٣) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩٣/٢).

(٥) ينظر: «السبعة» (٣٠١)، و«الحجة» (١٢٢/٤)، و«إعراب القراءات» (٢١٩/١)، و«حجة القراءات» (٣٠٦)، و«إتحاف» (٧٣/٢)، و«معاني القراءات» (٤٣٤/١)، و«شرح الطيبة» (٣٢١/٤)، و«شرح شعلة» (٤٠٣)، و«العنوان» (٩٩).

كان يتأخر أحياناً، فكان الكُفَّار يقولون: هَلَّا أَجْتَبَيْتَهَا، أي: اخترتها، فأمره الله عز وجل؛ أن يجيب بالتسليم لله، وأن الأمر في الوحي إليه ينزله متى شاء، ثم أشار بقوله: ﴿هذا بصائر﴾ إلى القرآن، أي: علامات هُدى، وأنوار تستضيء القلوب به.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، ذكر الطبري وغيره؛ أن أصحاب النبي ﷺ كانوا بمكة يتكلمون في المكتوبة بحوائجهم، فنزلت الآية أمراً لهم بالاستماع والإنصات في الصلاة، وأما قول من قال: إنها في الخطبة، فضعيف، لأن الآية مكّية، والخطبة لم تُكُنْ إلا بعد الهجرة، وألفاظ الآية على الجملة تتضمن تعظيم القرآن وتوقيره، وذلك واجب في كل حالة، والإنصات: السكوت.

قال الزجاج: ويجوز أن يكون: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، أي: أعملوا بما فيه، ولا تجاوزوه.

قال ابن العربي في «أحكامه»: روى الترمذي، وأبو داود، عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قال: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَقُلْتُ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ، فَلَمَّا أَنْصَرَفَ، قَالَ: «إِنِّي لَأَرَاكُمْ تَقْرَؤُونَ وَرَاءَ إِمَامِكُمْ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَاللَّهِ، فَقَالَ: لَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِأَمْرِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا»^(١) وقد روى الناس في قراءة المأمومين خلف الإمام بفاتحة الكتاب أحاديث كثيرة، وأعظمهم في ذلك أهبالاً الدارقطني، وقد جمع البخاري في ذلك جزءاً^(٢)، وكان رأيُه قراءة الفاتحة خلف الإمام في الصلاة الجهرية، وهي إحدى روايات مالك، وهو اختيار الشافعي. انتهى، وقد تقدّم أول الكتاب ما اختاره ابن العربي.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ...﴾ الآية: مخاطبة للنبي ﷺ، وتعم ٢٠٧ ب جميع أمته، وهو أمر من الله تعالى بذكره وتسبيحه وتقديسه، والثناء عليه بمحامده، والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس، ولا يراعى إلا بحركة اللسان، ويدل على ذلك من هذه الآية قوله: ﴿ودون الجهر من القول﴾، وهذه مرتبة السر، والمخافة.

وقال الفخر^(٣): المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾، كونه عارفاً بمعاني

(١) تقدم.

(٢) أسماء القراءة خلف الإمام.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/٨٦).

الأذكار التي يقولها بلسانه، مستحضراً لصفات الجلال والعظمة، وذلك أن الذكر باللسان، إذا كان عارياً عن الذكر بالقلب، كان عديم الفائدة، ألا ترى أن الفقهاء أجمعوا على أن الرجل، إذا قال: بِغْتُ وَأَشْتَرَيْتُ مع أنه لا يفهم معاني هذه الألفاظ، ولا يفهم منها شيئاً، فإنه لا ينعقد البيع والشراء، فكذلك هنا، قال المتكلمون: وهذه الآية تدل على إثبات كلام النفس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾، يدل على أن الذكر القلبي يجب أن يكون دائماً، وألا يغفل الإنسان لحظة عن استحضار جلال الله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية، وتحقيق القول في هذا أن بين الروح والبدن علاقة عجيبة؛ لأن كل أثر يحصل في البدن ينعكس منه نتائج إلى الروح؛ ألا ترى أن الإنسان إذا تخيل الشيء الحامض، ضرس منه، وإذا تخيل حالة مكروهة، أو غضب، سخن بدنه. انتهى. و﴿تضرعاً﴾: معناه: تدللاً وخضوعاً، البخاري: ﴿وخيفة﴾، أي: خوفاً انتهى.

وقوله: ﴿بِالْغَدُوِّ وَالْآصَالِ﴾: معناه: دأباً، وفي كل يوم، وفي أطراف النهار، ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ تنبيه منه عز وجل، ولما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾: جعل بعد ذلك مثلاً من أجتهد الملائكة؛ ليبتعث على الجِدُّ في طاعة الله سبحانه.

* ت * قال صاحب «الكلم الفارقة»: غفلة ساعة عن ربك مكذرة لمرآة قلبك؛ فكيف بغفلة جميع عمرك. انتهى.

قال ابن عطاء الله رحمه الله: لا تترك الذكر، لعظم حضورك مع الله فيه؛ لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره فحسب أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة، إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور، إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز. انتهى، قال ابن العربي في «أحكامه»: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾: أي: فيما أمرت به، وكلفته، وهذا خطاب له عليه السلام، والمراد به جميع أمته. انتهى.

وقوله: ﴿الَّذِينَ﴾، يزيد به الملائكة:

وقوله: ﴿عند﴾، إنما يريد به المنزل، والتشريف، والقرب في المكان، لا في المكان، فهم بذلك عنده، ثم وصف سبحانه حالهم؛ من تواضعهم، وإدمانهم العبادة، والتسبيح والسجود، وفي الحديث: «لَطَّيْتُ السَّمَاءَ، وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَنْطَ مَا فِيهَا مَوْضِعَ شِبْرِ

إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ، أَوْ رَاكِعٌ، أَوْ سَاجِدٌ^(١) وهذا موضع سجدة.

/ قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ عفا الله عنه: كَمُلَ ما أَنْتَخِبْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ السُّورَةِ، ١٢٠٨
والحمد لله على ما به أنعم، وصَلَّى اللهُ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

(١) أخرجه الترمذي (٥٥٦/٤) كتاب «الزهد» باب: في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً»، حديث (٢٣١٢)، وابن ماجه (١٤٠٢/٢) كتاب «الزهد» باب: الحسن والبكاء، حديث (٤١٩٠)، والحاكم (٥١٠/٢) من طريق مجاهد، عن مورك العجلي عن ابن ذر به.
وقال الترمذي: حديث حسن غريب.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي.

سورة الأنفال

مَدِينَةُ كُلِّهَا

قال مجاهد: إِنْ آيَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الْآيَةُ: وَلَا خِلَافَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ بَدْرٍ، وَأَمْرٍ غَنَائِمِهِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١)

قوله عز وجل: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ...﴾ الْآيَةُ، الثَّقُلُ وَالنَّافِلَةُ، فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الزَّيَادَةُ عَلَى الْوَاجِبِ، وَالْأَكْثَرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ السُّؤَالَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ حُكْمِ الْأَنْفَالِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: إِنَّمَا سَأَلُوهُ الْأَنْفَالَ نَفْسَهَا؛ مُحْتَجِينَ بِقِرَاءَةِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَغَيْرِهِ: «يَسْتَلُّونَكَ الْأَنْفَالَ» (١) وَعَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ عَنِ الْأَنْفَالِ، فَقَالَ: فِينَا - أَهْلُ بَدْرٍ - نَزَلَتْ، حِينَ اخْتَلَفْنَا، وَسَاءَتْ أَخْلَاقُنَا (٢)، فَزَعَمَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا، وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِهِ ﷺ وَقَسَمَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بَوَاءٍ - يَرِيدُ: عَلَى سَوَاءٍ - فَكَانَ فِي ذَلِكَ تَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ، وَصَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ.

قال * ع (٣): * وَيَجِيءُ مِنْ مَجْمُوعِ الْأَثَارِ الْمَذْكُورَةِ هُنَا؛ أَنَّ نَفُوسَ أَهْلِ بَدْرٍ تَنَافَرَتْ، وَوَقَعَ فِيهَا مَا يَقَعُ فِي نَفُوسِ الْبَشَرِ؛ مِنْ إِرَادَةِ الْأَثَرِ، لَا سِيَّمَا مَنْ أَبْلَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْآيَةَ، فَرَضِيَ الْمُسْلِمُونَ، وَسَلَّمُوا، فَأَصْلَحَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ غَنَائِمَهُمْ.

(١) وَقَرَأَ بِهَا ابْنُ مَسْعُودٍ، وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، وَأَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، وَزَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَطَلْحَةُ بْنُ مَرْصُوفٍ.

يَنْظُرُ: «الشَّوَاذُ» ص: (٥٤)، وَ«الْمَحْتَسِبُ» (١/٢٧٢)، وَ«الْكَشَافُ» (٢/١٩٥) وَ«الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٢/٤٩٦)، وَزَادَ نَسْبَتَهَا إِلَى عِكْرَمَةَ، وَالضَّحَّاكِ، وَعَطَاءٍ. وَيَنْظُرُ: «الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٤/٤٥٣)، وَ«الدَّرُ الْمَصُونُ» (٣/٣٩٢).

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢/٤٩٧).

(٣) يَنْظُرُ «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٢/٤٩٧).

قال بعض أهل التأويل؛ عكرمة، ومجاهد: كان هذا الحُكْم من الله سبحانه لرفع الشعب ثم نسيح بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ...﴾ [الأنفال: ٤١] الآية. وهذا أولى الأقوال وأصحها.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: تصريح بأنه شَجَرَ بينهم اختلاف، ومالت النفوس إلى التشاح، و﴿ذات﴾ في هذا الموضع يراد بها نفس الشيء وحقيقته، والذي يفهم من بينكم هو معنى يعم جميع الوصل، والالتحامات، والمودات، وذات ذلك هو المأمور بإصلاحها، أي: نفسه وعينه، وباقي الآية بين.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَقْفَرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ الآية، ﴿إنما﴾ لفظ لا تفارقه المبالغة والتأكيد؛ حيث وقع، ويصلح مع ذلك للحصر، بحسب القرينة، فقوله هنا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط، أي الكاملون.

قال الشنخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري الساحلي المالقي في كتابه الذي ألفه في «السلوك»: واعلم أن الإنسان مطلوب بطهارة نفسه، وتركيتها، وطرق التزكية وإن كثرت، فطريق الذكر أسرع نفعاً، وأقرب مَرَاماً، وعليه درج أكثر مشائخ التربية، ثم قال: والذكر ضد النسيان، والمطلوب منه عِمَارَةُ الباطن بالله تعالى في كل زمان، ومع كل حال؛ لأن الذكر يدل على المذكور لا محالة، فذكره ديدناً يوجب المحبة له، والمعرفة به، والذكر وإن اختلف ألفاظه ومعانيه، فلكل معنى [من] معانيه اختصاص بنوع من التخليّة والتزكية، والتزكية، ثم قال: والذكر على / قسمين: ذكر العامة، وذكر الخاصة. أما ذكر العامة، وهو ذكر الأجور، فهو أن يذكر العبد مَوْلَاهُ بما شاء من ذكره لا يقصد غير الأجور والثواب، وأما ذكر الخاصة، فهو ذكر الحضور، وهو أن يذكر العبد مَوْلَاهُ بأذكار معلومة، على صفة مخصوصة؛ لينال بذلك المعرفة بالله سبحانه بطهارة نفسه من كل خلق دميم، وتحليتها بكل خلق كريم. انتهى.

و﴿وجلّت﴾: معناه: فَرِغَتْ، وَرَقَّتْ، وخافت، وبهذه المعاني فسرتها العلماء.

و﴿تليت﴾ معناه: سُرِدَتْ، وقرئت، والآيات هنا: القرآن المثلّو.

ومن كلام صاحب «الكلم الفارقة»: إِنْ تَبَقَّظْتَ يِقْظَةَ قَلْبِيَّةٍ، وَانْتَبَهَتْ أَنْتَبَاهَةً حَقِيقِيَّةً لَمْ تَرِ فِي وَفِّكَ سَعَةً لَغَيْرِ ذِكْرِ رَبِّكَ، واستشعار عظمته، ومهابته، والإقبال على طاعته، ما في

وَقَتِ الْعَاقِلُ فَضْلَهُ فِي غَيْرِ مَا خُلِقَ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ خَالِقِهِ، وَالْإِهْتِمَامِ بِمَصَالِحِ آخِرَتِهِ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِمَعَادِهِ، أَعْرِفَ الْعَبِيدَ بِجَلَالِ مَوْلَاهُ أَخْلَاهُمْ عَمَّا سِوَاهُ، وَأَكْثَرَهُمْ لَهْجًا بِذِكْرِهِ، وَتَعْظِيمًا لَأَمْرِهِ، وَأَحْسَنَهُمْ تَأْمُلًا لِآثَارِ صُنْعَتِهِ، وَبِدَائِعِ حِكْمَتِهِ، وَأَشْدَّهُمْ شَوْقًا إِلَى لِقَائِهِ، وَمُشَاهَدَتِهِ أَنْتَهَى.

وزيادة الإيمان على وجوه كلها خَارِجٌ، عَنْ نَفْسِ التَّصَدِيقِ: مِنْهَا أَنْ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ لَمْ يَسْمَعْ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ، فَتَنَزَّلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعَهُ، فَأَمِنَ بِهِ، زَادَ إِيمَانًا إِلَى سَائِرِ مَا قَدْ آمَنَ بِهِ؛ إِذْ لِكُلِّ حُكْمٍ تَصَدِيقٌ خَاصٌّ، وَهَذَا يَتَرْتَّبُ فِيْمَنْ بَلَغَهُ مَا لَمْ يَكُنْ عَنْدهُ مِنَ الشَّرْعِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَتَرْتَّبَ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ بِزِيَادَةِ الدَّلَائِلِ، وَلِهَذَا قَالَ مَالِكٌ: الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَيَتَرْتَّبُ بِزِيَادَةِ الْأَعْمَالِ الْبَرَّةِ عَلَى قَوْلٍ مِنْ يَرَى أَنَّ لَفْظَةَ الْإِيمَانِ وَاقِعَةٌ عَلَى التَّصَدِيقِ وَالطَّاعَاتِ، وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: يَزِيدُ وَيَنْقُصُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ عبارة جامعة لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِذَا اعْتَبَرْتَ، وَعَمِلَ بِحَسْبِهَا فِي أَنْ يُمَثِّلَ الْإِنْسَانَ مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَبْلُغَ فِي ذَلِكَ أَفْصَى جَهْدِهِ دُونَ عَجْزٍ، وَيَنْتَظِرُ بَعْدَ مَا وَعَدَ بِهِ مِنْ نَصْرِ، أَوْ رِزْقٍ، أَوْ غَيْرِهِ، وَهَذِهِ أَوْصَافٌ جَمِيلَةٌ وَصَفَ اللَّهُ بِهَا قُضَلَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، فَجَعَلَهَا غَايَةً لِلْأُمَّةِ يَسْتَبِقُ إِلَيْهَا الْأَفَاضِلُ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ وَعَدَهُمْ وَوَسَّعَهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَمَدَحَهُمْ بِهَا حُضًا عَلَى ذَلِكَ.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: هِيَ الزَّكَاةُ وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ اقْتِرَانُ الْكَلَامِ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَإِلَّا فَهُوَ لَفْظٌ عَامٌّ فِي الزَّكَاةِ، وَنَوَافِلِ الْخَيْرِ، وَصِلَاتِ الْمُسْتَحَقِّينَ، وَلَفْظُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى مُحْتَمَلٌ.

وقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ ظَاهِرَةٌ﴾، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْمُرَادَ مَرَاتِبُ الْجَنَّةِ، وَمَنَازِلُهَا، وَدَرَجَاتُهَا عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يَرِيدُ مَأْكِلَ الْجَنَّةِ، وَمَسَارِبَهَا، وَ﴿كَرِيمٌ﴾ صِفَةٌ تَقْتَضِي رَفْعَ الْمَدَامِ، كَقَوْلِهِ: ثَوْبٌ كَرِيمٌ.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٥﴾ يُجْعِدُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَانَتْهُمْ يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ...﴾ الآية: اختلف في معنى

١٢٠٩ هذه الآية، فقال الفراء: التقدير افضض لأمرِك/ في العَنَائِمِ، وَإِنْ كَرِهُوا كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ.

قال ع^(١): * وتحرير هذا المعنى عندي أن يقال: هذه الكاف شَبَّهَتْ هَذِهِ الْقِصَّةَ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥٠٢).

التي هي إخراجُه من بيته بالقِصَّةِ المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال، كأنهم سألوا عن الثقل، وتشاجروا، فأخرج الله ذلك عنهم، فكانت فيه الخيرة، كما كرهوا في هذه القصة انبعاث النبي ﷺ فأخرجه الله من بيته، فكانت في ذلك الخيرة، وعلى هذا التأويل يُمكن أن يكون قوله: ﴿يجادلونك﴾ كلاماً مُستأنفاً يراد به الكفار، أي: يجادلونك في شريعة الإسلام من بعد ما تبيّن الحق فيها، كأنما يساقون إلى الموت في الدُّعاء إلى الإيمان، وهذا الذي ذكرت من أن ﴿يجادلونك﴾ في الكفار منصوص.

وقال مجاهد وغيره: المعنى في الآية: كما أخرجك ربك من بيتك على كراهية من فريق منهم، كذلك يُجَادِلُونَكَ في قتال كفار «مكة»، ويؤدون غير ذات الشؤكة من بعد ما تبيّن لهم أنك إنما تفعل ما أمرت به لا ما يريدون^(١) هم، وقائل هذه المقالة يقول: إن المجادلين هم المؤمنون، وقائل المقالة الأولى يقول: إن المُجَادِلِينَ هم المشركون، وهذان القولان يتم بهما المعنى، ويحسن رصف اللفظ.

وقيل غير هذا.

وقوله: ﴿من بيتك﴾ يريد من «المدينة» يثرب» قاله الجمهور.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُُمِدِّمٌ بِالْأَيْدِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْسِلٌ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ...﴾ الآية: في هذه الآية قَصَصٌ حَسَنٌ، محل استيعابه «كتاب سيرة رسول الله ﷺ» لابن هشام، واختصاره: أن رسول الله ﷺ لما بلغه، وقيل: أوحى إليه أن أبا سُفْيَانَ بن حَزْبٍ، قد أقبل من «الشام» بالعبير التي فيها تجارة قُرَيْشٍ وأموالها قال لأصحابه: إن عير قريش قد عثت لكم، فأخرجوا إليها، لعل الله أن ينفلكموها. قال: فانبعث معه من خف، وثقل قوم، وكرهوا الخروج، وأسرع رسول الله ﷺ لا يلوي على من تعذر، ولا ينظر من غاب ظهره، فصار في ثلاث

(١) أخرجه الطبري (١٨٠/٦ - ١٨١) برقم: (١٥٧١٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥٠٢/٢)، وابن كثير (٢/ ٢٨٧) بنحوه، والسيوطي (٣/ ٣٠٠)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

مائة وثلاثة عشر، أو نحو ذلك من أصحابه بين مُهاجِرِيٍّ وَأَنْصَارِيٍّ، وقد ظَنَّ الناس بأجمعهم أن رسول الله ﷺ لا يلقى حَزْباً، فلم يكثُر اسْتِعْدَادُهُمْ، وكان أبو سُفْيَانٍ في خلال ذلك يَسْتَقْصِي، ويحذر، فلما بلغه خُرُوجُ رسول الله ﷺ بعث ضَمُضَمَ بْنَ عَمْرِو الغفاري إلى «مكة» يَسْتَنْفِرُ أَهْلَهَا، ففعل ضَمُضَمُ، فخرج أهل «مكة» في ألف رَجُلٍ، أو نحو ذلك، فلما بلغ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خروجهم أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ وَخِيَاً غير مَثْلُو يَعِذُّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، فَعَرَفَ رسول الله ﷺ أصحابه بذلك، فَسَرَوْا، وَوَدَّوْا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْعِيْرُ التي لا قِتَالَ معها، فلما علم أبو سُفْيَانٍ بِقُرْبِ رسول الله ﷺ منه أخذ طَرِيقَ السَّاحِلِ، وأبعد وفات، ولم يبق إلا لقاء أهل «مكة»، وأشار بعض الكُفَّارِ على بَعْضِ الْأَنْصَارِ، وقالوا: هذه عِيْرُنَا قد نَجَتْ، فلتنصرف/ فحَرَشَ^(١) أبو جهل وَلَجٌ، حتى كَانَ أَمْرُ الْوَاقِعَةِ. وقال بعض المؤمنين: نحن لم نخرج لِقِتَالٍ، ولم نَسْتَعِذْ لَهُ، فجمع رسول الله ﷺ أَصْحَابَهُ، وهو بِوَادٍ يَسْمَى «ذَقْرَان» وقال: أَسِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ، فقام أبو بَكْرٍ، فتكلم، وأحسن، وَحَرَّضَ النَّاسَ عَلَى لِقَاءِ الْعَدُوِّ، فأعاد رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الاسْتِشَارَةَ، فَقَامَ عُمَرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فأعاد رسول الله ﷺ الاسْتِشَارَةَ، فتكلم المِقْدَادُ بْنُ الْأَسَدِ الْكَنْدِيُّ^(٢)، فقال: لا نقول لك يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، ولكن نَقُولُ: إِنَّا مَعَكُمْ مَقَاتِلُونَ، وَاللَّهُ لَوْ أَرَدَتْ بَنَا بَرَكِ الْغَمَادِ يَعْنِي مَدِينَةَ «الْحَبِشَةِ» لَقَاتَلْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهَا، فسر رسول الله ﷺ بكلامه، ودعا له بخير، ثم قال: أَسِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ، فكلمه سعد بْنُ مُعَاذٍ، وقيل: سعد بْنُ عِبَادَةَ، ويحتمل هُمَا مَعَاً؛ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّكَ إِيَّانَا تُرِيدُ مَغَشَرَ الْأَنْصَارِ، فقال النبي ﷺ: أَجَلْ، فقال: إِنَّا قَدْ آمَنَّا بِكَ، وَاتَّبَعْنَاكَ،

(١) التحريش: الإغراء بين القوم.

ينظر: «لسان العرب» (٨٣٤).

(٢) هو: المِقْدَادُ بْنُ عَمْرِو (الأسود الكندي) بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود بن عمرو بن سعد... أبو الأسود البهراوي.

الشهرة: المِقْدَادُ بْنُ الْأَسَدِ الْكَنْدِيُّ، قال ابن حجر: أسلم قديماً وتزوج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، وكان فارساً يوم بدر حتى أنه لم يثبت أنه كان فيها على فرس غيره، وروى المِقْدَادُ عَنْ النَّبِيِّ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً، توفي سنة ٣٣ في خلافة عثمان وله ٧٠ سنة.

ينظر: «الثقات» (٣/٣٧١)، «أسد الغابة» (٥/٢٥١)، «التاريخ الصغير» (١/٨٣)، «معجم الثقات» (١٢٣)، «الاستبصار» (١٤٥، ٢٠٨)، «تقريب التهذيب» (٢٧٢/٢)، «المنق» (٤٥٣، ٥١٣، ٥١٤)، «تراجم الأجبارة» (٣/٣٥١، ٣٧٠)، «الإصابة» (٦/١٣٣)، «الأعلام» (٧/٢٨٢)، «أصحاب بدر» (٨٥)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢/٩٢)، «الجرح والتعديل» (٨/٤٢٦)، «الطبقات» (١٦/١٢٠).

وَبَايَعْنَاكَ، فامض لأمر الله، فوالله لو خُضَّت بنا هذا الْبَحْرُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، فقال النبي ﷺ: «امضوا على بَرَكََةِ اللَّهِ، فكأنني أنظر إلى مَصَارِعِ الْقَوْمِ» فالتقوا وكانت وقعة بدر.

* ت * : وفي «صحيح البخاري» من حَدِيثِ عائشة، في خروج أبي بكر من «مكة» فلقبه ابن الدغنة عند برك الغماد^(١) الحديث، وليست بمدينة «الحبشة» من غير شك. فالله أعلم، ولعلمهما مَوْضِعَان. انتهى.

و﴿الشُّوْكَةُ﴾ عبارة عن السِّلَاحِ والحِذَّةِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ المعنى: ويريد الله أن يُظْهِرَ الإسلام، ويعلي دعوة الشَّرْعِ بكلماته التي سَبَقَتْ في الْأَزَلِ، والدابر الذي يدبر الْقَوْمَ، أي يأتي آخرهم، وإذا قطع فقد أتى على آخرهم بِشَرْطِ أَنْ يَبْدَأَ الْإِهْلَاكَ من أولهم، وهي عبارة في كل من أتى الْهَلَاكَ عليه.

وقوله سبحانه: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي: ليظهر الحق الذي هو دينُ الإسلام، و﴿يَبْطُلُ الْبَاطِلُ﴾، أي: الكفر، و﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ معناه: تَطْلُبُونَ الْعَوْثَ، و﴿مَمْدُكُم﴾ أي: مكثركم، ومقويكم من: أَمْدَدْتُ، و﴿مَرْدِفِينَ﴾ معناه: متبعين.

وقرأ سائر السبعة^(٢) غير نافع: «مردفين» - بكسر الدال -، ونافع بفتحها، وروي عن ابن عباس: خَلَفَ كُلُّ مَلِكٍ مَلِكًا^(٣)، وهذا معنى التتابع، يقال: رَدَفَ وَأَزْدَفَ؛ إذا اتبع، وجاء بعد الشيء، ويحتمل أن يُرَادَ مُرْدِفِينَ للمؤمنين، ويحتمل أن يُرَادَ مردفين بعضهم بَعْضًا، وأنشد الطبري^(٤) شَاهِدًا على أن أزدَفَ بمعنى جاء تَابِعًا قَوْلَ الشاعر: [الوافر]

إِذَا الْجَوْرَاءُ أزدَفَتِ الثُّرَيَّا ظَنَنْتُ بِآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا^(٥)
والثُرَيَّا تطلع قبل الْجَوْرَاءِ.

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥/٤ - ٥٥٦) كتاب «الكفالة» باب: جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، حديث (٢٢٩٧).

(٢) ورويت عن أبي عمرو كما في «الكشاف» (١/٢ - ٢)، و«المحرر الوجيز» (٥٠٤/٢)، و«البحر المحيط» (٤٦٠/٤)، و«الدر المصون» (٣٩٨/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٨٩/٦) برقم: (١٥٧٥٨)، وذكره ابن عطية (٥٠٤/٢)، وابن كثير (٢٩٠/٢)، والسيوطي (٣١٠/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩٠/٦).

(٥) البيت لخزيمة بن مالك. ينظر: «تفسير الطبري» (١٩٠/٦)، وينظر: «اللسان» (ردف)، و«الدر المصون» (٤٠٠/٣).

وروي في «الصحيح»: الأشهر أن الملائكة قاتلت يوم بدر.

واختلف في غيره؛ قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ؛ أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَّارٍ، قَالَ: أَقْبَلْتُ أَنَا وَابْنُ عَمِّ لِي حَتَّى صَعَدْنَا فِي جَبَلٍ يُشْرِفُ بِنَا عَلَى بَدْرٍ، وَنَحْنُ مُشْرِكَانِ نَنْتَظِرُ الْوَقْعَةَ عَلَى مَنْ تَكُونُ، فَتُنْتَهَبُ مَعَنَا مِنْ يَنْتَهَبُ. قَالَ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْجَبَلِ، إِذْ دَنَتْ مِنَّا سَحَابَةٌ، فَسَمِعْنَا فِيهَا حَمَمَةَ الْخَيْلِ، / فَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: أَقْدَمَ خَيْزُومٌ، فَأَمَّا ابْنُ عَمِّي، فَانْكَشَفَ قِنَاعَ قَلْبِهِ، فَمَاتَ مَكَانَهُ، وَأَمَّا أَنَا فَكِدْتُ أَهْلُكَ، ثُمَّ تَمَاسَكْتُ^(١).

قال ابن إسحاق: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَنْ بَعْضِ بَنِي سَاعِدَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ، وَكَانَ شَهِيدَ بَدْرًا، قَالَ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ بِصَرُّهُ: لَوْ كُنْتُ الْيَوْمَ بِبَدْرٍ، وَمَعِيَ بَصْرِي لَارْتَيْتُكُمْ الشُّعْبَ الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ لَا أَشْكُ وَلَا أَتَمَارِي. أَنْتَهَى مِنْ «سيرة ابن هشام».

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ الضمير في «جعله» عائِد على الوَعْدِ، وَهَذَا عِنْدِي أَمَكُنُ الْأَقْوَالِ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى.

وقيل: عائِد على الْمَدَدِ، وَالْإِمْدَادِ.

وقيل: عائِد على الْإِرْدَافِ.

وقيل: عائِد على الْأَلْفِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تَوْقِيفٌ عَلَى أَنْ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ وَأَنْ تَكْتَسِبَ الْمَرْءُ لَا يَغْنِي، إِذَا لَمْ يَسَاعِدْهُ الْقَدَرُ، وَإِنْ كَانَ مَطْلُوبًا بِالْجِدِّ، كَمَا ظَاهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ دَرْعَيْنِ.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١﴾ إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ إِنِّي مَعَكُمْ فَنَیْنُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْزَعَبُ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاوُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾. الْقَضْدُ تَعْدِيدُ نِعَمِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٢/٢٩٦) ومن طريقه الطبري في «تاريخه» (٢/٤٥٣)، وذكره ابن كثير في «البدية والنهاية» (٣/٢٧٩ - ٢٨٠).

المؤمنين في يوم بَدْرٍ، والتقدير: اذكروا إذ فعلنا بكم كذا، وإذ فعلنا كذا، والعامل في «إذ» «اذكروا» وقرأ نافع: «يُعْشِيْكُمْ» - بضم ^(١) الياء، وسكون الغين - وقرأ حمزة وغيره: «يُعْشِيْكُمْ» - بفتح الغين وَشَدَّ الشين المكسورة، وقرأ بن كثير وغيره: «يُعْشَاكُمْ» - بفتح الياء وألف بعد الشين - «التُعَاسُ» بالرفع، ومعنى «يُعْشِيْكُمْ»: يغطيكم، والتُعَاسُ أَخْفُ النّوم، وهو الذي يصيب الإنسان، وهو واقف أو ماشٍ، وينص على ذلك قَصَصُ هذه الآية؛ أنهم إنما كان بهم خَفَقُ الرُّؤُوسِ، وقوله: «أَمَنَّا» مصدر من أَمِنَ يَأْمُنُ أَمْنًا وَأَمَنَةً وَأَمَانًا، والهاء فيه لتأنيث المصدر، كما هي في الْمَسَاءَةِ وَالْحَمَاقَةِ وَالْمَشَقَّةِ.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: التُعَاسُ عند حضور القتالِ عَلَامَةٌ أَمِنَ، وهو من الله، وهو في الصَّلَاةِ من الشيطان ^(٢).

قال ع ^(٣): * وهذا إنما طريقه الوَحْيي، فهو لا مَحَالَةَ يسنده وقوله سبحانه: «وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ». وذلك أن قَوْمًا من المؤمنين لحقتهم جَنَابَاتٌ في سفرهم، وعدموا المَاءَ قَرِيبَ بَدْرٍ، فصلوا كذلك، فَزَسَّوَسَ الشيطان في نفوس بعضهم مع تخويفه لهم من كثرة العَدُوِّ وقتلهم، وأيضاً فكانت بينهم وبين مَاءِ بَدْرٍ مَسَافَةٌ، من رمل دَهَسٍ ^(٤) تَسُوخٌ ^(٥) فيها الأَرْجُلُ، فكانوا يتوقعون أن يسبقهم الكُفَّارُ إلى ماء بدر، فأنزل الله تلك المَطَرَةَ فَسَالَتِ الأودية، فاغتسلوا، وطهرهم الله تعالى فذهب رَجَزُ الشيطان، وَتَدَمَّتْ ^(٦) الطريق، وَتَلَبَّدَتْ ^(٧) تلك الرَّمَالُ، فسهل الله عليهم السير، وأمكنهم الإسراع

(١) ينظر: «السبعة» (٣٠٤)، «الحجة» (١٢٥/٤)، «إتحاف فضلاء البشر» (٧٧/٢)، «حجة القراءات» (٣٠٨)، «إعراب القراءات» (٢٢٢/١)، «النشر» (٢٧٦/٢) و«شرح الطيبة» (٣٢٤/٤)، و«شرح شذوذه» (٤٠٥)، و«معاني القراءات» (٤٣٧/١).

(٢) أخرجه الطبري (١٩٢/٦) برقم: ١٥٧٧١ - ١٥٧٧٢ - ١٥٧٧٣، وذكره ابن عطية (٥٠٦/٢)، والبغوي (٢٣٤/٢)، وابن كثير (٢٩١/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٦/٢).

(٤) رمل أدهس بَيْنَ الدَّهَسِ، والدَّهَاس من الرمل: ما كان كذلك، لا ينبت شجراً، وتغيب فيه القوائم... وقيل: ما سهل ولان من الأرض، ولم يبلغ أن يكون رملًا.

ينظر: «لسان العرب» (١٤٤١)، و«النهاية» (١٤٥/٢).

(٥) أي: غاصت في الأرض. ينظر: «اللسان» (٢١٤١).

(٦) الدَّمْتُ: السهول من الأرض، الواحدة دَمِيَّةٌ، وهو أيضاً المكان اللين ذو رمل، ودَمَّتْ الشيء: إذا مَرَسَهُ حتى يلين.

ينظر: «لسان العرب» (١٤١٨ - ١٤١٩).

(٧) أي: صارت قوية لا تسوخ فيها الأرجل.

ينظر: «لسان العرب» (٣٩٨٤).

حتى سبقوا إلى ماء بذرٍ، وأصاب المشركين من ذلك المَطَرُ ما صَعَبَ عليهم طريقهم، فسر المؤمنون، وتبينوا من فعلِ الله بهم ذلك قَصْدَ المعونة لهم، فطابت نفوسهم، واجتمعت، وتَسَجَّعت، فذلك الرَبْطُ على قلوبهم، وثبتت أقدامهم على الرملة اللَّيْتَةِ.

والضمير في «به» على هذا الاحتمال عَائِدٌ على الماء، ويحتمل عَوْدُهُ على رَبْطِ القلوب، ويكون تثبيت/ الأقدام عِبَارَةً عن النصر والمعونة في مَوْطِنِ الحَرْبِ، ونزول الماء كان في الزمن قبل تَغْشِيَةِ النعاس، ولم يترتب كذلك في الآية، إذ القَصْدُ فيها تَعْدِيدُ النعم فقط.

وقوله سبحانه: ﴿فَشَبَّوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وتثبتهم يكون بقتالهم، وبحضورهم، وبأقوالهم المؤنَّسَةِ، ويحتمل أن يكون التَثْبِيتُ بما يلقيه المَلَكُ في القلب بِلَمَّتِهِ من تَوَهُّمِ الظُّفْرِ، واحتقار الكفار، وبخواطير تشجعه.

قال * ع^(١) *: ويقوي هذا التأويل مطابقة قوله تعالى: ﴿سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ وعلى هذا التأويل يجيء قوله: ﴿سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ مخاطبة للملائكة، ويحتمل أن يكون مخاطبة للمؤمنين. وقوله سبحانه: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ قال عكرمة: هي على بابها، وأراد الرؤوس^(٢)، وهذا أنبل الأقوال.

قال * ع^(٣) *: ويحتمل عندي أن يريد وَضَفَ أُلْبَغَ ضربات العنق وأحكمها، وهي الضربة التي تكون فَوْقَ عَظْمِ العنق دون عَظْمِ الرأس في المفصل، كما وصف دريد بن الصُّمَّة^(٤)، فيجيء على هذا فوق الأعناق متمكناً.

والبَّان: قالت فرقة: هي المَفَاصِلُ؛ حيث كانت من الأعضاء.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٩٧/٦) برقم: (١٥٨٠٠) نحوه، وذكره ابن عطية (٥٠٨/٢)، والبغوي (٢٣٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣١٣/٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٨/٢).

(٤) دريد بن الصمة الجشمي البكري، من هوازن: شجاع، من الأبطال، الشعراء، المعمرين في الجاهلية، كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، وغزا نحو مائة غزوة لم يهزم في واحدة منها، وعاش حتى سقط حاجباه عن عينيه، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، فقتل على دين الجاهلية «يوم حنين»، وكانت هوازن خرجت لقتال المسلمين فاستصحبته معها تيمناً به، وهو أعمى، فلما انهزمت جموعها أدركه ربيعة بن رفيع السلمي فقتله، له أخبار كثيرة، والصمة لقب أبيه معاوية بن الحارث.

ينظر ترجمته في: «الأعلام» (٣٣٩/٢) (٤١٦٤).

وقال فرقة: البنان الأصابع، وهذا هو الصحيح؛ لأنه إذا قطع البنان لم ينتفع صاحبه بشيء من أعضائه واستأسر.

و﴿شاقوا﴾: معناه خالفوا ونابذوا، وقطعوا، وهو مأخوذ من الشق، وهو القطع والفضل بين شيئين، وعبر المفسرون عن قوله: ﴿شاقوا﴾ أي: صاروا في شق غير شقه.

قال * ع^(١) *: وهذا وإن كان معناه صحيحاً، فتحريز الاشتقاق إنما هو ما ذكرناه، وقوله: ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ جواب للشرط، تضمن وعيداً ونهيدياً.

﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ (١٥) ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحِدِّيًا أَوْ مُتَحِدِّيًا إِلَيْكُمْ فَذُوقُوا كَيْدَ بَغْيِهِمْ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٦)

وقوله سبحانه: ﴿ذلكم فذوقوه﴾ المخاطبة للكفار، أي ذلكم الضرب والقتل، وما أوقع الله بهم يوم بدر، فكانه قال: الأمر ذلكم فذوقوه، وكذا قرره سيويه.

وقال بعضهم: يحتمل أن يكون «ذلكم» في موضع نصب، كقوله: زيداً فاضربه، وقوله سبحانه: ﴿يأيتها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً...﴾ الآية: ﴿زحفاً﴾ يراد به متقابل الصفوف والأشخاص، أي: يزحف بعضهم إلى بعض، وأصل الزحف الاندفاع على الآلية، ثم سمي كل ماشٍ إلى آخر في الحرب رؤيداً زاحفاً، إذ في مشيته من التماهل والتباطؤ ما في مشي الزاحف، وفي هذا المعنى شواهد من كلام العرب، ونهى الله سبحانه في هذه الآية عن تولي الأذبار، وهذا مقيد بالشريطة المنصوصة في مثلي المؤمنين، والفرار هنالك كبيرة موبقة بظاهر القرآن، والحديث، وإجماع الأكثر من الأمة.

وقوله: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره...﴾ الآية. قال جمهور الأمة: الإشارة بـ ﴿يومئذ﴾ إلى يوم اللقاء الذي يتضمنه قوله: ﴿إذا لقيتم﴾ وحكم الآية باقي إلى يوم القيامة، بشرط الضعف الذي بيّنه الله سبحانه.

* ت *: قال ابن رشد: وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفاً، فإن بلغ ١٢١١ حرم الفرار، وإن زاد المشركون على الضعف للحديث «لن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة»، فإن أكثر أهل العلم خصصوا بهذا الحديث عموم الآية.

وعن مالك مثله. انتهى.

وفهم * ع^(١) : الحديث على التَّعَجُّبِ، ذكره عند قوله: ﴿ويوم حنين﴾ [التوبة: ٢٥]، وما قاله ابنُ رشيد هو الصواب. والله أعلم.

و﴿متحرِّفاً لقتال﴾ يراد به الذي يَرَى: أن فعله ذلك أنكى للعدو، ونصبه على الحال، وكذلك نصب ﴿متحيزاً﴾، وأما الاستثناء، فهو من المولين الذين تضمنهم «من».

والفئة هنا الجماعةُ الحاضرة لِلْحَرْبِ، هذا قول الجمهور.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلَئِنْ حَسَبْتَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنُ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَتَدُجَاءَكُمُ الْفِتْنَةُ وَإِنَّ ظَنَّهُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تُعْذِرُوا فَعَدَّ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ هذه الألفاظ تردُّ على من يزعم أن أفعالَ العباد خلقت لهم، ومذهب أهل السنة أنها خلق للرب سبحانه كسب للعبد؛ روي أن النبي ﷺ أخذ يومئذ ثلاث قبضاتٍ من حصي وتراب، فرمى بها في وجوه القوم، فانهزموا عند آخر رمية، ويروى أنه قال يوم بدر: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ»^(٢) وهذه الفعلة أيضاً كانت يوم «حُتَيْن» بلا خلاف.

و﴿ليلي المؤمنين﴾ أي: ليصيبهم بلاء حسن، وظاهر وصفه بالحسن يقتضي أنه أراد الغنيمة، والظفر، والعزة.

﴿إن الله سميع﴾ لاستغاثتكم، ﴿عليم﴾ بوجوه الحكمة في جميع أفعاله لا إله إلا هو.

وقوله سبحانه: ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما تقدم من قتلِ الله لهم، ورميه إياهم، وموضع ﴿ذلكم﴾ من الإعراب رفع.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥١٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/٣٠٣، ٣٦٨)، والحاكم (٣/١٥٧)، وابن حبان (٢٥٠٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/٢٤٠) من طريق ابن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به. وصححه الحاكم وابن حبان. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/٢٢٨)، وقال: رواه أحمد بإسنادين، ورجال أحدهما: رجال الصحيح.

قال سيبويه: التقدير: الأمر ذلكم، و﴿موهن﴾ معناه مضعف مبطل.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ...﴾ الآية: قال أكثر المتأولين: هذه الآية مخاطبة لكفار «مكة»؛ روي أن قريشاً لما عزموا على الخروج إلى حِمَاةِ الْعَبِيرِ، تعلقوا بأستار الكعبة، واستفتحوا، وروي أن أبا جهل قال صبيحة يوم بدر: اللهم أَنْصُرْ أَحَبَّ الْفَتْنَيْنِ إِلَيْكَ، وأظهر خَيْرَ الدِّينَيْنِ عِنْدَكَ، اللهم أَفْطَعْنَا لِلرَّحِمِ فَأَخْنِهِ الْغَدَاةَ، ونحو هذا فقال الله لهم: إِنْ تَطْلُبُوا الْفَتْحَ فَقَدْ جَاءَكُمْ، أي: كما ترونه عليكم لَا لَكُمْ، وفي هذا توبيخ لهم، وَإِنْ تَنْتَهُوا عَنْ كُفْرِكُمْ وَغِيكُم فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَعُودُوا لِلِاسْتِفْتَاكِ نَعُدُّ بِمِثْلِ وَقْعَةٍ بِدَرْ، وباقِي الآية بَيِّنٌ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبِكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية: قيل: إنها نزلت بسبب اختلافهم في الثقل، ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروج النبي ﷺ، و﴿تولوا﴾ أصله: تتولوا.

وقوله: ﴿أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ يريد دُعَاءَهُ لَكُمْ بِالْقُرْآنِ وَالْمَوَاعِظِ.

وقوله: ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا﴾ يريد الكفار؛ إما من قريش لقولهم: ﴿سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١]، وإما الكفار على الإطلاق.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبِكْمُ﴾ مَقْصِدُ الْآيَةِ بَيَانُ أَنَّ هَذِهِ / الصَّنِيفَةَ الْعَاتِيَةَ مِنَ الْكُفَّارِ هِيَ شَرُّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَأَنَّهَا فِي أَحْسَنِ الْمَنَازِلِ لَدَيْهِ، ٢١١ ب وعبر بالدواب ليتأكد ذمهم، وقوله: ﴿الصَّمُّ الْبِكْمُ﴾ عبارة عما في قلوبهم، وعدم انشراح صدورهم، وإدراك عقولهم.

وقوله: ﴿لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي سماع هدى، وَتَقَهُمْ، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: وَلَوْ فَهَمَهُمْ ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ بِحَكْمِ الْقَضَاءِ السَّابِقِ فِيهِمْ، وَلَأَعْرَضُوا عَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ مِنَ الْهَدَى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ. وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وَاتَّقُوا فَتَنَةَ لَا تُضَيِّبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ فَتَأْتِيَكُمْ فَتَاتُكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَضِرِهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ...﴾ الآية: ﴿استجيبوا﴾ بمعنى: أجبوا وقوله: ﴿لما يحييكم﴾ قال مجاهد والجمهور: المعنى للطاعة^(١)، وما يتضمنه القرآن، وهذا إحياء مستعار؛ لأنه من مَوْتِ الكفر والجهل، والطَّاعَةُ تؤدي إلى الْحَيَاة الدائمة في الآخرة.

وقوله سبحانه: ﴿واعلموا أن الله يَحُولُ بين المرء وقلبه﴾ يحتمل وجوهاً:

منها: أنه لما أمرهم سبحانه بالاستجابة في الطاعة، حَضَّهم على المبادرة والاستعجال، وأعلمهم أنه يحول بين المرء وقلبه بالموت والقبض، أي: فبادروا الطاعات، ويلتزم مع هذا التأويل قوله: ﴿وأنه إليه تحشرون﴾، أي: فبادروا الطاعات، وتزوّدوها ليوم الحشر.

ومنها: أن يقصد إعلامهم أن قُدْرَةَ اللَّهِ وعلمه وإحاطته حائلة بين المرء وقلبه، فكان هذا المعنى يحضُّ على المراقبة والخوف لله المطلع على الضمائر؛ حُكِيَ هذا التأويل عن قتادة^(٢) ويحتمل أن يريد تخويفهم؛ إن لم يمثلوا الطاعات، ويستجيبوا لله وللرسول؛ أن يَحُلَّ بهم ما حل بالكفار الذين أرادهم بقوله: ﴿ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون﴾ [الأنفال: ٢٣]؛ لأن حَتْمَهُ عليهم بأنهم لو سَمِعُوا لم ينتفعوا يقتضي أنه كان قد حال بينهم وبين قلوبهم.

ومنها: أن يكون المعنى ترجية لهم بأن الله يبدل الخوف الذي في قلوبهم من كثرة العدو، فيجعله جراءة وقوة، وبضد ذلك للكفار، أي: فإن الله تعالى هو مقلب القلوب؛ كما كان قسم النبي ﷺ، وقيل غير هذا.

قال مكِّي، وقال الطبري^(٣): هذا خبر من الله عز وجل؛ أنه أَمَلَكْ بقلوب العباد منهم لها، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يُدْرِكَ الإنسان شيئاً من إيمان ولا كفر، ولا يعي شيئاً، ولا يفهم شيئاً إلا بإذنه ومشيتته سبحانه، وقد كان النبي ﷺ كثيراً ما يقول في

(١) ذكره ابن عطية (٥١٤/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢١٥/٦) برقم: (١٥٩١٦) بنحوه.

(٣) ينظر: «الطبري» (٢١٥/٦).

دعائه: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١) انتهى من «الهداية».

وروى مالك بن أنس والنسائي، أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ وهو في الصَّلَاةِ، فَلَمْ يُجِبْهُ، وَأَسْرَعَ فِي بَقِيَّةِ صَلَاتِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ جَاءَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ قَالَ أُبَيٌّ: لَا جَرَمَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَدْعُونِي أَبَدًا إِلَّا أَجَبْتُكَ...^(٢) الحديث بطوله، واختلاف ألفاظه، وفي «بخاري ومسلم»؛ أن ذلك / وقع مع أبي سَعِيدٍ بنِ الْمُعَلَّى^(٣)، وروي أنه وقع نحوه ١٢١٢ مع حُذَيْفَةَ بنِ الَيَمَانِ^(٤) في غزوة الخَنْدَقِ.

وقوله: عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ في الآية تأويلات، أسبقها إلى النفس، أن الله سبحانه حذَّر جميع المؤمنين من فتنة إن أصابَتْ لم تخصَّ الظلمة فقط، بل تصيبُ الكلَّ من ظالم وبريء، وهذا تأويلُ الزُّنَيْرِ بنِ الْعَوَّامِ، والحسنِ البَصْرِيِّ^(٥)، وكذلك تأويل ابن عباس؛ فإنه قال: أمر الله المؤمنين في هذه الآية ألا يقرؤا المُتَكَرِّرَ بين أظهرهم، فيعمُّهم العذاب^(٦) و«خاصَّةً»: نعت لمصدرٍ محذوف، تقديره إصابَةٌ خاصَّةٌ، فهي نصب على الحال، وقرأ علي^(٧) بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره: «لِتُصِيبَنَّ» - باللام - على جواب قسم، والمعنى على هذا: وعيدٌ للظلمة فقط.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ...﴾ الآية: هذه الآية تتضمنُ تعديدَ نِعَمِ اللَّهِ على المؤمنين، و«إذ»: ظرفٌ لمعمول، «وَأَذْكُرُوا»: تقديره: وأذكروا حالكم الكائنة، أو

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه في سورة «الفاتحة».

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه في سورة «الفاتحة».

(٥) أخرجه الطبري (٢١٦/٦ - ٢١٧) برقم: (١٥٩١٧) وبرقم: (١٥٩١٨ - ١٥٩١٩ - ١٥٩٢٠)، وذكره ابن عطية (٥١٥/٢)، وذكر نحوه البغوي (٢٤١/٢)، وابن كثير (٢٩٩/٢) بنحوه أيضاً، والسيوطي (٣٢١/٣).

(٦) أخرجه الطبري (٢١٧/٦) برقم: (١٥٩٢٣)، وذكره ابن عطية (٥١٥/٢)، والبغوي (٢٤١/٢)، وابن كثير (٢٩٩/٢)، والسيوطي (٣٢٢/٣).

(٧) وقرأ بها ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبو العالية، وأبو جعفر محمد بن علي، والربيع بن أنس، وابن جُمَار.

ينظر: «الشواذ» ص: (٥٤)، و«المحتسب» (٢٧٧/١)، و«الكشاف» (٢١٢/٢) و«المحرر الوجيز» (٢/ ٥١٦)، و«البحر المحيط» (٤٧٨/٤)، و«الدر المصون» (٤١٢/٣).

الثابتة إذ أنتم قليل، ولا يجوز أن تكون «إذ» ظرفاً للذكر.

وإنما يعمل الذكر في «إذ» لو قدرناها مفعولة، واختلف في الحال المشار إليها بهذه الآية.

فَقَالَتْ فِرْقَةٌ؛ وهي الأكثر: هي حال المؤمنين بمكة في وقت بدء الإسلام، والناس الذين يُخَافُ تَخَطُّفَهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ، والمأوى: المدينة، والتأييد بالنصر: وقعة بدر وما أنجز معها في وقتها، والطيات: الغنائم وسائر ما فتح الله عليهم به، وقالت فرقة: الحال المشار إليها هي حالهم في غزوة بدر، والناس الذين يُخَافُ تَخَطُّفَهُمْ، على هذا: عسكر مكة وسائر القبائل المجاورة، فإن النبي ﷺ كان يتخوف من بعضهم، والمأوى على هذا، والتأييد بالنصر: هو الإمداد بالملائكة والتغليب على العدو، والطيات: الغنيمة.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوْنُوا أَمَنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمَوْلَكُمْ وَأَوَلَدَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، وهو يجمع أنواع الخيانات كلها قليلاً وكثيراً، والخيانة: التنقص للشيء باختفاء، وهي مستعملة في أن يفعل الإنسان خلاف ما ينبغي من حفظ أمر ما، مالا كان أو سراً أو غير ذلك، والخيانة لله عز وجل: هي في تنقص أوامره في سر.

وقوله: ﴿وتخونوا أماناتكم﴾.

قال الطبري^(١): يحتمل أن يكون داخلاً في النهي؛ كأنه قال: لا تخونوا الله والرسول، ولا تخونوا أماناتكم، ويحتمل أن يكون المعنى: لا تخونوا الله والرسول؛ فذلك خيانة لأماناتكم.

وقوله: ﴿فتنة﴾، يريد: محنة واختباراً وأمتحاناً؛ ليرى كيف العمل في جميع ذلك.

وقوله: ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾، يريد: فوز الآخرة، فلا تدعوا حظكم منه؛ للحيلة على أموالكم وأبنائكم؛ فإن المذخور للآخرة أعظم أجراً.

وقوله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ...﴾ الآية: وغد للمؤمنين بشرط

(١) ينظر: «الطبري» (٢٢١/٦).

التقوى والطاعة لله سبحانه، و﴿يَجْعَل لَّكُمْ فِرْقَانًا﴾: معناه: فزقاً بين حقكم، وباطل من ينازعكم؛ بالنصر والتأييد، وعبر قتادة، وبعض المفسرين عن «الفِرْقَان» ههنا بالنجاة^(١)، وقال مجاهد والسدي: معناه: مَخْرَجاً^(٢)، ونحو هذا مما يعمله ما ذكرناه، وقد يوجد للعرب استعمال «الفِرْقَان»، كما ذكر المفسرون؛ وعلى ذلك شواهد؛ منها قول الشاعر:

[الطويل]

وَكَيْفَ أَرْجِي الْخُلْدَ وَالْمَوْتَ طَالِبِي وَمَالِي مِنْ كَأْسِ الْمَنِيَةِ فُرْقَانُ^(٣)

* ت * قال ابن رشد: وأحسن ما قيل في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فِرْقَانًا﴾؛ أي: فضلاً بين الحق والباطل؛ حتى يعرفوا ذلك بقلوبهم، ويهتدوا إليه. انتهى من «البيان».

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ثَلَاثَةٌ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالَوَا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية: تذكير بحال مكة وضيقها مع الكفرة، وجميل صنع الله تعالى في جميع ذلك، والمكر: المخاتلة والتداهي؛ تقول: ^{٢١٢} ب فلان يَمْكُرُ بفلان؛ إذا كان يستدرجه، وهذا المكر الذي ذكر الله تعالى في هذه الآية هو بإجماع من المفسرين: إشارة إلى اجتماع قُرَيْش في «دار الندوة» بمخضر إبليس في صورة شيخ نجدى على ما نص ابن إسحاق في «سيره» الحديث بطوله، وهو الذي كان خُرُوج رسول الله ﷺ بسبه، ولا خلاف أن ذلك كان بعد موت أبي طالب، ففي القصة: أن أبا جهل قال: الرأي أن نأخذ من كل بطن في قريش فتى قوياً جليداً، فيجتمعون ثم يأخذ كل واحد منهم سيفاً، ويأتون محمداً في مضجعه، فيضربونه ضربة رجل واحد، فلا تقدر بثو هاشم على قتال قريش بأسرها، فيأخذون العقل، ونستريح منه، فقال النجدي: صدق الفتى؛ هذا الرأي: لا رأي غيره، فأفترقوا على ذلك، فأخبر الله تعالى بذلك نبيه ﷺ، وأذن له في الخروج إلى المدينة، فخرج رسول الله ﷺ من ليلته، وقال لعلي بن أبي

(١) أخرجه الطبري (٢٢٤/٦) برقم: (١٥٩٦٣)، وذكره ابن عطية (٥١٨/٢)، والبغوي عن عكرمة (٢/٢٤٣)، وابن كثير (٣٠١/٢)، والسيوطي. (٣٢٤/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٣) برقم: (١٥٩٥٨، ١٥٩٠)، وذكره ابن عطية (٥١٨/٢).

(٣) ينظر البيت في: «البحر المحيط» (٤٨١/٤)، و«الدر المصون» (٤١٤)، و«القرطبي» (٣٩٦/٧).

طالب: «أَلْتَفَّ فِي بُرْدِي الْحَضْرَمِيِّ، وَأَضْطَجَعَ فِي مَضْجَعِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَضْرُكُ شَيْءً، فَفَعَلَ»، فجاء فتیان قُرَيْشٍ، فجعلوا يَرْضُدُون الشَّخْصَ، وِيتَنْتَرُونَ قِيَامَهُ، فِيشُورُونَ بِهِ، فَلَمَّا قَامَ رَأَوْا عَلِيًّا، فَقَالُوا لَهُ: أَيْنَ صَاحِبُكَ؟ فَقَالَ: لَا أَذْرِي، وَفِي «السِّيَرِ»؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ فِي طَرِيقِهِ، فَطَمَسَ اللَّهُ أَعْيُنَهُمْ عَنْهُ، وَجَعَلَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ تَرَابًا، وَمَضَى لَوَجْهِهِ، فَجَاءَهُمْ رَجُلٌ، فَقَالَ: مَا تَنْتَظِرُونَ؟ قَالُوا: مُحَمَّدًا، قَالَ: إِنِّي رَأَيْتُهُ الْآنَ جَائِيًا مِنْ نَاحِيَتِكُمْ، وَهُوَ لَا مَحَالَةَ، وَضَعَ التَّرَابَ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، فَمَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ يَدَهُ إِلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا عَلَيْهِ التَّرَابُ، وَجَاؤُوا إِلَى مُضْجَعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدُوا عَلِيًّا، فَرَكَبُوا وَرَاءَهُ حِينَئِذٍ كُلُّ صَغَبٍ وَذُلُولٍ، وَهُوَ بِالْغَارِ، وَمَعْنَى: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: لِيُسْجَنُوكَ؛ قَالَهُ عَطَاءٌ وَغَيْرُهُ^(١) وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: لِيُوثِقُوكَ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، يَعْنِي: الْقُرْآنَ، ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أَي: قَصَصُهُمُ الْمَكْتُوبَةُ الْمُسْطَوْرَةُ، وَأَسَاطِيرُ: جَمْعُ «أُسْطُورَةٍ»، وَيَحْتَمِلُ جَمْعُ: «أَسْطَارَ»، وَتَوَاتَرَتِ الرِّوَايَاتُ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ وَغَيْرِهِ: أَنَّ قَاتِلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ هُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ السَّفَرِ إِلَى قَارَسَ وَالْحِجِرَةِ، فَكَانَ قَدْ سَمِعَ مِنْ قِصَصِ الرِّهْبَانِ وَأَخْبَارِ رُسْتَمَ وَإِسْفَنْدِيَارَ، فَلَمَّا^(٣) سَمِعَ الْقُرْآنَ، وَرَأَى فِيهِ أَخْبَارَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ، قَالَ: لَوْ شِئْتُ لَقُلْتُ مِثْلَ هَذَا، وَكَانَ النَّضْرُ مِنْ مَرَدَةِ قُرَيْشٍ النَّائِلِينَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَكَنَ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ يَدْرُ، وَقَتْلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَبْرًا بِالصَّفْرَاءِ مُنْصَرَفُهُ مِنْ بَدْرِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «الْأَثِيلُ»، وَكَانَ أَسْرَهُ الْمَقْدَادُ، فَلَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضَرْبِ عُنُقِهِ، قَالَ الْمَقْدَادُ: أَسِيرِي، يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ/ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ»، ثُمَّ أَعَادَ الْأَمْرَ بِقَتْلِهِ، فَأَعَادَ الْمَقْدَادُ مَقَالَتَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ، أَعْنِ الْمَقْدَادَ مِنْ فَضْلِكَ»، فَقَالَ الْمَقْدَادُ: هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ، فَضَرِبَتْ عُنُقُ النَّضْرِ^(٤).

- (١) أخرجه الطبري (٢٢٥/٦) برقم: (١٥٩٧٥)، وذكره ابن عطية (٥١٩/٢)، والبغوي (٢٤٤/٢)، وابن كثير (٣٠٢/٢) نحوه.
- (٢) أخرجه الطبري (٢٢٥/٦) برقم: (١٥٩٧١)، وذكره ابن عطية (٥١٩/٢)، والبغوي (٢٤٤/٢)، وابن كثير (٢٠٣/٢)، والسيوطي (٣٢٦/٣).
- (٣) أخرجه الطبري (٢٢٩/٦) برقم: (١٥٩٩١)، وذكره ابن عطية (٥٢٠/٢)، والبغوي (٢٤٥/٢)، وابن كثير (٣٠٤/٢)، والسيوطي (٣٢٧/٣).
- (٤) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص ٢٤٨ - ٢٤٩) برقم: (٣٣٧) عن سعيد بن جبيرة مرسلًا.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ إِلَّا بِعَذَابِهِمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآؤُهُ إِلَّا الْفِتْنَةُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ...﴾ الآية: رُوي عن مجاهد وغيره: أن قائل هذه المقالة هو النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ الْمَذْكُورُ، وفيه نزلت هذه الآية^(١).

قال * ع^(٢) * : وترتب أن يقول النَّضْرُ مقالةً، وينسبها القرآن إلى جميعهم؛ لأن النضر كان فيهم موسوماً بالثبيل والقهم، مسكوناً إلى قوله، فكان إذا قال قولاً قاله منهم كثيراً، وأتبعوه عليه؛ حسب ما يفعله الناس أبدأً بعلمائهم وفقهائهم.

* ت * : وخرج البخاري بسنده، عن أنس بن مالك، قال: قال أبو جهل: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ، فامطر علينا حجارة من السماء أو آتتنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾، إلى: ﴿عن المسجد الحرام﴾^(٣) هـ، والمشار إليه به ﴿هذا﴾ هو القرآن وشرع محمد ﷺ، والذي حملهم على هذه المقالة هو الحسد، فعميت بصائرهم عن الهدى، وصمموا على أن هذا ليس بحق، نعوذ بالله من جهد البلاء، وشوء القضاء، وحكى ابن فورك: أن هذه المقالة خرجت منهم مخرج العناد، وهذا بعيد في التأويل، ولا يقول هذا على جهة العناد عاقل، وقراءة الناس إنما هي بتضبط^(٤) «الحق»؛ على أنه خبر «كان»، ويكون «هو» فصلاً، فهو حينئذٍ أسم، و«امطر» إنما تستعمل غالباً في المكروه، و«مطر» في الرحمة؛ قاله أبو عبيدة^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم...﴾ الآية: قالت فرقة: نزلت هذه الآية كلها بمكة، وقالت فرقة: نزلت كلها بعد وقعة بدر؛ حكاية عما مضى.

(١) أخرجه الطبري (٢٣٠/٦ - ٢٣١) برقم: (١٥٩٩٥، ١٥٩٩٩)، وذكره ابن عطية (٥٢٠/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢٠/٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٦٠/٨) كتاب «التفسير» باب: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ برقم: (٤٦٤٩).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢١/٢)، و«البحر المحيط» (٤٨٢/٤)، و«الدر المصون» (٤١٤/٣).

(٥) ذكره ابن عطية (٥٢١/٢).

وقال ابنُ أُنزَى^(١): نَزَلَ قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ، وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ بمكةٍ إثر قولهم: ﴿أَوْ أَتُنَّا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ونزل قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، عند خروج النبي ﷺ من مكة في طريقه إلى المدينة، وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون، ونَزَلَ قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ...﴾ إلى آخر الآية، بعد بذر عند ظهور العذاب عليهم.

* ت * : وهذا التأويل بيّن، وعليه اعتمد عِيَاضُ في «الشفا» قال: وفي الآية تأويل آخر، ثم ذكرَ حديثَ التَّزَمِذِّي، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال النبي ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ أَمَانِينَ لَأُمُتِي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فَإِذَا مَضَيْتُ، تَرَكْتُ فِيهِمْ أَلَا سَتِغْفَارُ». انتهى.

قال * ع^(٢) * : وأجمع المتأولون على أن معنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أن الله عز وجل لم يعذب قط أمةً ونبیها بين أظهرها، أي: فما كان الله ليعذب هذه الأمة، وأنتَ فيها، بل كرامتك لديه أعظم.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ تُوعَدُ بعذاب الدنيا، والضميرُ في قوله: ﴿أُولِيَاءَهُ﴾: عائذٌ على الله سبحانه، أو على المسجد الحرام، كل ذلك جيد، ورؤي الأخير عن الحسن^(٣).

وقال الطبري^(٤): عن الحسن بن أبي الحسن أن قوله سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ ناسخ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. قال * ع^(٥) * : وفيه نظر؛ لأنه خبر لا يدخله نسخ.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٢٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ

(١) عبد الرحمن بن أبزي الخزاعي مولى نافع بن عبد الحارث، روى اثني عشر حديثاً، وعن أبي بكر، وأبي، وعن عمار.

قال البخاري: له صحبة، وقال ابن أبي داود: تابعي.

ينظر: «تهذيب الكمال» (٧٧٢/٢)، «تهذيب التهذيب» (١٣٢/٦)، «خلاصة تهذيب الكمال» (٢/١٢٣)، «الكشاف» (١٥٤/٢)، «الجرح والتعديل» (٢٠٠٩/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢١/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٥٢٢/٢).

(٤) ينظر: «الطبري» (٢٣٢/٦).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢٣/٢).

عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَغْلِبُونَ^١ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديةً﴾ المكاء: الصفير؛ ٢١٣ ب قاله ابن عباس^(١) والجمهور، والتصدية: عبّر عنها أكثر الناس؛ بأنها التصفيق، وذهب أكثر المفسرين إلى أن المكاء والتصدية إنما أحدثهما الكفار عند مبعث النبي ﷺ؛ لِنَقْطَعُ عَلَيْهِ وعلى المؤمنين قراءتهم وصلاتهم، وتخلط عليهم، فلما نفى الله تعالى ولايتهم للبيت، أمكن أن يعترض منهم معترض بأن يقول: وكيف لا نكون أولياءه، ونحن نسكنه، ونصلي عنده؛ فقطع سبحانه هذا الاعتراض بأن قال: وما كان صلاتهم عند البيت إلا المكاء والتصدية.

قال ع^(٢) *: والذي مرّ بي من أمر العرب في غير ما ديوان؛ أن المكاء والتصدية كانا من فعل العرب قديماً قبل الإسلام على جهة التقرب به والتشروع؛ وعلى هذا يستقيم تغييرهم وتنقصهم بأن شرعهم وصلاتهم لم تكن رهبة ولا رغبة، وإنما كانت مكاءً وتصديةً من نوع اللعب، ولكنهم كانوا يتزيدون فيهما وقت النبي ﷺ ليشغلوه هو وأمته عن القراءة والصلاة.

وقوله سبحانه: ﴿فذوقوا العذاب...﴾ الآية: إشارة إلى عذابهم ببذر بالسيف؛ قاله الحسن وغيره^(٣)؛ فيلزم أن هذه الآية الآخرة نزلت بعد بذر، ولا بد.

قال ع^(٤) *: والأشبه أن الكل نزل بعد بذر؛ حكاية عما مضى.

وقوله سبحانه: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله...﴾ الآية: لما قُتِلَ من قُتِلَ ببذر، اجتمع أبناؤهم وقرباتهم، فقالوا لِمَنْ خَلَصَ ماله في العير: إن محمداً قد نال منا ما تزوّن، ولكن أعينونا بهذا المال الذي كان سبب الوقعة، فلعلنا أن ننال منه ثاراً، يريدون نفقته في غزوة أُحُد.

وقوله سبحانه: ﴿فسينفقونها ثم تكون حسرةً ثم يغلبون﴾، الحسرة: التلهف

(١) أخرجه الطبري (٢٣٨/٦) برقم: (١٦٠٣٧ - ١٦٠٣٨)، وذكره ابن عطية (٥٢٣/٢)، والبيهقي (٢/٢٤٧)، وابن كثير (٣٠٦/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣/٣٣٢)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه والضياء.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥٢٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٢/٥٢٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥٢٥).

على فائت، وهذا من أخبار القرآن بالغيوب قبل أن تكون، فكان كما أخبر، ثم أخبر سبحانه عن الكافرين، وأنهم يُجْمَعُونَ إلى جهنم، والحشر: الجمع.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَعْمَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَمِيرُونَ﴾ (٧٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُوا الَّذِينَ كَلَّمُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْمُ الْمَوْلَى وَيَغْمُ النَّصِيرُ ﴿٤٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، وقرأ حمزة والكسائي^(١): «لِيَمِيزَ اللَّهُ» - بضم الياء، وفتح الميم، وشد الياء -، قال ابن عباس وغيره: المعنى بـ ﴿الْخَبِيثِ﴾: الكفار، وبـ ﴿الطَّيِّبِ﴾: المؤمنون^(٢)، وقال ابن سلام والزجاج: ﴿الْخَبِيثِ﴾: ما أنفقه المشركون في الصد عن سبيل الله، و﴿الطَّيِّبِ﴾: هو ما أنفقه المؤمنون في سبيل الله^(٣).

قال * ع^(٤): ﴿رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يُخْرِجُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا كَانَ صَدَقَةً أَوْ قُرْبَةً، ثُمَّ يَأْمُرُ بِسَائِرِ ذَلِكَ، فَيُلْقِي فِي النَّارِ: وَعَلَى التَّوْبِلِينَ: فَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا﴾ إنما هي عبارة عن جمع ذلك، وضمه، وتأليف أشتاته، وتكائفه بالاجتماع، ويركمه؛ في كلام العرب: يُكْتَفُه؛ ومنه ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤] وعبارة البخاري: فيركمه: فَيَجْمَعُهُ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾، يعني: عن الكفر، ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ لأن الإسلام يحب ما قبله، و﴿إِنْ يَعُودُوا﴾، يريد به: إلى القتال، ولا يصح أن يُتَأَوَّلَ: وإن يعودوا إلى الكفر؛ لأنهم لم يفصلوا عنه.

وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله؛ حين صد في وجه نبيه بمن هلك في يوم بدر بسيف الإسلام. ١٢١٤

وقوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ قال ابن عباس، وابن عمر،

(١) ينظر: «السبعة» (٣٠٦)، و«الحجة» (١٥٢/٤)، و«إعراب القراءات» (٢٢٩/١)، و«إنحاف» (٧٩/٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٥٢٦/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٥٢٦/٢).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢٦/٢).

وغيرهما: الفِتْنَةُ: الشَّرْكُ^(١).

قال * ع^(٢) *: وهذا هو الظاهر، ويفسر هذه الآية قوله ﷺ: «أَمِزْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...»^(٣) الحديث.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤٥/٦) برقم: (١٦٠٩٠)، وبرقم: (١٦٠٩٢) عن قتادة، وبرقم: (١٦٠٩٣) عن السدي، وذكره ابن عطية (٥٢٧/٢) عن ابن عباس وغيره، وابن كثير (٣٠٩/٢).
(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٥٢٨/٢).

(٣) هذا الحديث متواتر، رواه جماعة من أصحاب النبي ﷺ وهم: أبو هريرة وابن عمر، وجابر، وأنس بن مالك، وأبو بكر، وعمر، وجري، وسهل بن سعد، وأبو بكرة، وأبو مالك الأشجعي، وعياض الأنصاري، والنعمان بن بشير، وسمرة بن جندب، ومعاذ، وأوس بن أوس، ورجل من بلقين، وابن عباس. حديث أبي هريرة:

أخرجه البخاري (٢٦٢/٣) كتاب «الزكاة» باب: وجوب الزكاة، حديث (١٣٩٩)، ومسلم (٥٢/١) كتاب «الإيمان» باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، وأبو داود (١٠١/٣)، كتاب «الزكاة» باب: على ما يقاتل المشركون، حديث (٢٦٤٠)، والترمذي (١١٧/٤)، كتاب «الإيمان» باب: ما جاء أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، حديث (٢٧٣٣)، والنسائي (١٤/٥)، كتاب «الزكاة» باب: مانع الزكاة، وابن ماجه (١٢٩٥/٢) كتاب «الفتن» باب: الكف عنمن قال: لا إله إلا الله، حديث (٣٩٢٧)، والشافعي (١٣/١) باب: الإيمان والإسلام، وعبد الرزاق (٦٧/٦) كتاب «أهل الكتاب» باب: أقاتلهم حتى يقولوا: لا إله إلا الله، حديث (١٠٠٢٢)، وأحمد (٣٤٥/٢)، وابن الجارود ص: (٣٤٣) باب: في ما أمر رسول الله ﷺ بالدعاء إلى توحيد الله عز وجل والقتال عليها، حديث (١٠٣٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢١٣/٣) كتاب «السير» باب: ما يكون الرجل به مسلماً، وابن سعد في «الطبقات»، والدارقطني (٢٣١/١ - ٢٣٢)، كتاب «الصلاة» باب: تحريم دماهم وأمواهم إذا شهدوا بالشهادتين، حديث (٢)، والحاكم (٣٨٧/١) كتاب «الزكاة»، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٠٦/٣)، وابن حبان (١٧٤) من طرق عن أبي هريرة.

أما حديث ابن عمر:

أخرجه البخاري (٢٢/١) كتاب «الإيمان» باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، حديث (٢٥). ومسلم (٥٣/١) كتاب «الإيمان» باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله... (٢٢/٣٦)، والدارقطني (٢٣٢/١)، والبيهقي (٩٢/٣).

حديث جابر:

أخرجه مسلم (٥٣/١) كتاب «الإيمان» باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله... (٢٢/٣٥)، وابن ماجه (١٢٩٥/٢) كتاب «الفتن» باب: الكف عن من قال: لا إله إلا الله (٣٩٢٨)، والترمذي (٤٠٩/٥) كتاب «التفسير» باب: تفسير سورة الغاشية (٣٣٣٨)، وأحمد (٣/٢٩٥)، وأبو حنيفة في «مسنده» (٦)، وأبو يعلى (١٩٠/٤) برقم: (٢٢٨٢) من طرق عنه.
وقال الترمذي: حسن صحيح.

- حديث أنس:

أخرجه البخاري (٥٩٤/١) كتاب «الصلاة» باب: فضل استقبال القبلة، حديث (٣٩٢)، وأحمد (٣/١٩٩، ٢٢٤)، وأبو داود (٥٠/٢ - ٥١) كتاب «الجهاد» باب: على ما يقاتل المشركون، حديث =

وقال ابن إسحاق: معناها: حتى لا يفتن أحدٌ عن دينه؛ كما كانت قريشٌ تفعلُ بمكة بمن أسلم.

(٢٦٤١) والترمذي (٤/٥) كتاب «الإيمان» باب: ما جاء في قول النبي ﷺ: أمرت بقتالهم... (٢٦٠٨)، والدارقطني (٢٣٢/١) كتاب «الصلاة» باب: تحريم دمائهم وأموالهم إذا شهدوا بالشهادتين (٢)، وأحمد (١٩٩/٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٧٣/٨)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/٢١٥)، والبيهقي (٩٢/٣)، والخطيب (٤٦٤/١٠)، والبغوي في «شرح السنة» (٩٦/١ - بتحقيقنا)، من طريق حميد الطويل، عن أنس. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

حديث أبي بكر وعمر:
ويرويه عنهما أنس بن مالك قال: قال عمر لأبي بكر في الردة: ألم يقل رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله.
قال أبو بكر: إنما قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة...

أخرجه النسائي (٧٦٧/٧)، وأبو يعلى (٦٩/١) رقم: (٦٨)، وابن خزيمة (٧/٤) رقم: (٢٤٤٧)، والحاكم (٣٦٨/١) من طريق عمران القطان، عن معمر، عن الزهري، عن أنس به.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠/١)، وقال: رواه البزار وقال: لا أعلمه يروي عن أنس، عن أبي بكر إلا من هذا الوجه وأحسب أن عمران أخطأ في إسناده.
وقال الترمذي بعد الحديث (٢٦١٠): وقد روى عمران القطان هذا الحديث عن معمر، عن الزهري، عن أنس بن مالك، عن أبي بكر وهو حديث خطأ.
وقد حكم عليه بالخطأ أيضاً الإمام أبو زرعة الرازي فقال ابن أبي حاتم في «العلل» (١٥٩/٢) رقم: (١٩٧٠): سئل أبو زرعة عن حديث رواه عمرو بن عاصم، عن عمران القطان، عن معمر، عن الزهري، عن أنس... فذكر الحديث.

قال أبو زرعة: هذا وهم إنما هو الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن أبي هريرة.
أما الحاكم فله مع هذا الحديث شأن آخر فقال بعد إخراجه: صحيح الإسناد غير أن الشيخين لم يخرجوا عمران القطان وليس لهما حجة في تركه فإنه مستقيم الحديث، ووافقه الذهبي.
وعمران روى له البخاري تعليقاً والأربعة، وقال الحافظ في «التقريب» (٨٣/٢): صدوق يهم.
حديث جرير: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٤٧/٢) رقم: (٢٢٧٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٩/١)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» وفي إسناده إبراهيم بن عيينة وقد ضعفه الأكثرون، قال ابن معين: كان مسلماً صدوقاً. اهـ.

وقال النسائي: ليس بالقوي.

وقال أبو حاتم: أتى بمناكير.

ينظر «المغني» (٢١/١).

حديث سهل بن سعد: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٢/٦) رقم: (٥٧٤٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠/١) وقال: رواه الطبراني وفي إسناده مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان والأكثر على تضعيفه اهـ. ضعفه أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، وقال الحافظ: لين الحديث.

وقوله: ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، أي: لا يُشْرَكَ معه صَنَمٌ، ولا وَثَنٌ، ولا يُعْبَدُ غَيْرُهُ

ينظر «المعني» (٢/٦٦٠)، و«التقريب» (٢/٢٥١).

حديث أبي بكرة: ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٣٠) وقال: رواه الطبراني في «الكبير والأوسط» وفيه عبد الله بن عيسى الخزاز وهو ضعيف لا يحتج به اهـ، وذكره الذهبي في «المعني» (١/٣٥٠) وقال: عبد الله بن عيسى أبو خلف الخزاز، عن يونس بن عبيد ضعفه.

حديث أبي مالك الأشجعي: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/٣٨٢) رقم: (٨١٩١)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/٣٠) وقال: رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله موثقون.

حديث عياض الأنصاري: أخرجه البزار (١/١٠ - كشف) رقم: (٤) من طريق عبد الرحمن القرشي عن عياض مرفوعاً: بلفظ: إن لا إله إلا الله كلمة على الله كريمة، لها عند الله مكان، وهي كلمة من قالها صادقاً أدخله الله بها الجنة، ومن قالها كاذباً حقت دمه وأحرزت ماله ولقي الله غداً فحاسبه. قال البزار: ولا نعلم أسند عياض إلا هذا.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٣١) وقال: رواه البزار، ورجاله موثقون إن كان تابعه عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود.

حديث النعمان بن بشير: أخرجه البزار (١/١٥ - كشف) رقم: (١٥) من طريق أسود بن عامر، ثنا إسرائيل، عن سماك، عن النعمان بن بشير به.

وقال البزار: وهذا خطأ فيه أسود. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٣١): رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح.

حديث سمرة بن جندب: ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٣٠) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه مبارك بن فضالة واختلف في الاحتجاج به.

حديث معاذ بن جبل: أخرجه ابن ماجه (١/٢٨): المقدمة: باب في الإيمان، حديث (٧٢)، والدارقطني (١/٢٣٣) كتاب «الصلاة»: باب تحريم دماهم وأموالهم... من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ به.

قال الحافظ البوصيري في «الزوائد» (١/٥٦) هذا إسناد حسن. اهـ.

وفيه شهر بن حوشب وقد اختلف في الاحتجاج به.

حديث أوس بن أوس: أخرجه الدارمي (٢/٢١٨) كتاب «السير» باب: في القتال على قول النبي ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، وابن ماجه (٣٩٢٩)، وأحمد (٤/٨)، وعزاه السيوطي في «الأزهار المتناثرة» ص: (٢٠) رقم: (٤) إلى ابن أبي شبة.

حديث الرجل من بلقين: أخرجه أبو يعلى (١٣١/١٣٢)، والبيهقي (٦/٣٣٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٥٣ - ٥٤)، وقال: رواه أبو يعلى وإسناده صحيح.

وذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٢/١٨٥) رقم: (٢٠١٠)، وعزاه إلى أحمد بن منيع، وذكره برقم: (٢٠١١)، وعزاه إلى أبي يعلى.

حديث ابن عباس: ذكره الهيثمي في «المجمع» (١/٣٠)، وقال: رواه الطبراني، ورجاله موثقون إلا أن فيه إسحاق بن يزيد الخطابي، ولم أعرفه. وهذا الحديث قد صرح الحافظ السيوطي بتواتره فأورده في «الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة» ص: (١٩ - ٢٠) رقم: (٤) وعزاه إلى الشيخين عن ابن عمر وأبي هريرة ومسلم عن جابر وابن أبي شبة في «المصنف» عن أبي بكر الصديق، وعمر وأوس وجابر =

سبحانه، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾، عن الكفر، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِصِيرٍ﴾ بِعَمَلِهِمْ، مُجَازٍ عليه، عنده ثوابه، وجميل المقارضة عليه.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نَعِمَ الْمَوْلَى وَنَعِمَ النَّصِيرُ﴾: معادل لقوله: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾، المعنى: وإن تولَّوا، ولم ينتهوا، فأعلموا أن الله تعالى ينصركم عليهم، وهذا وعدٌ مخضٌ بالنصر والظفر، و﴿الْمَوْلَى﴾؛ ههنا الموالى والمعين، والمولى في اللغة على معانٍ، هذا هو الذي يليق بهذا الموضع منها، والمولى: الذي هو السيد المقترن بالعبد يعم المؤمنين والمشركين.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُوفِ وَالرَّكْبُ أَهْلُ مَعَكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافَةٍ فِي الْيَعْدِ وَلَكِنْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَازِلِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفَسَّدَتُمْ وَلَنَنْتَرَعُتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَغْنَيْنِكُمْ قَلِيلًا وَقَلِيلُكُمْ فِي أَغْنَيْنِهِمْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤٤)

وقوله عز وجل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾ الآية: الغنيمة؛ في اللغة: ما يناله الرجل بسعي؛ ومنه قوله ﷺ: «الصَّيَّامُ فِي الشَّتَاءِ هِيَ الْغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ»^(١)،

البجلي، والطبراني، عن أنس وسمرة بن جندب وسهل بن سعد وابن عباس، وأبي بكر، وأبي مالك الأشجعي، والبخاري عن عياض الأنصاري والنعمان بن بشير.

(١) أخرجه الترمذي (١٥٣/٣) كتاب «الصوم»، باب: ما جاء في الصوم في الشتاء، حديث (٧٩٧)، وأحمد (٣٣٥/٤)، وابن أبي شيبة (١٠٠/٣)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٢٢٣)، والبيهقي (٢٩٦/٤ - ٢٩٧) كتاب «الصيام»، باب ما ورد في صوم الشتاء، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٣١) كلهم من طريق نمير بن عريب، عن عامر بن مسعود مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث مرسل، عامر بن مسعود لم يدرك النبي ﷺ.

وقال البيهقي: هذا مرسل.

قال ابن أبي حاتم في «المراسيل» ص: (١٦٠): قال أبو زرعة: عامر بن مسعود من التابعين.

وقال الترمذي في «العلل الكبير» ص (١٢٧) رقم: (٢١٨): سألت محمداً عن حديث أبي إسحاق، عن

نمير بن عريب، عن عامر بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «الغنيمة الباردة الصوم في الشتاء».

فقال: هو حديث مرسل، وعامر بن مسعود لا صحبة له، ولا سماع من النبي ﷺ اهـ.

وقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾: ظاهره العموم، ومعناه الخصوص، فأما النَّاضُ^(١) والمتاع والأطفال والنساء وما لا يؤكل [لحمه] من الحيوان ويَصِحُّ تملكه، فالإمام يأخذ حُمْسَهُ، وَيَقْسِمُ الباقي في الجيش، وأما الأرض، فقال فيها مالك: يقسمها الإمام؛ إن رأى ذلك صواباً؛ كما فعل النبي ﷺ بِخَيْبَرَ، أَوْ لَا يَقْسِمُهَا، بل يتركها لنواب المسلمين؛ إن أداه أجتهدُهُ إلى ذلك؛ كما فعل عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه بِأَرْضِ مِصْرٍ وبِسَوَادِ الْكُوفَةِ، وأما الرجال، وَمَنْ شارفَ الْبُلُوغَ مِنَ الصُّبْيَانِ، فالإمام؛ عند مالك وجمهور العلماء، مُخَيَّرٌ فيهم على خمسة أوجه^(٢):

وقال يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (١٢٧/٣): ليس لعامر صحة. =
وقد جزم بعدم صحبته أيضاً أبو داود، وابن حبان، والبغوي، وابن السكن. ينظر: «الإصابة» (٤٨٩/٣) بتحقيقنا اهـ.

لكن لهذا الحديث شاهد من حديث أنس: أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢٥٤/١)، وابن عدي في «الكامل» (١٢١٠/٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٦/٣) رقم: (٣٩٤٣) من طريق الوليد بن مسلم، ثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً.

وقال الطبراني: لم يروه عن قتادة إلا سعيد، تفرد به الوليد. وقال ابن عدي: لا يرويه عن قتادة غير سعيد، وعن سعيد غير الوليد. والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٠٣/٣) وقال: رواه الطبراني في «الصغير»، وفيه سعيد بن بشير، وهو ثقة لكنه اختلط اهـ.

وللحديث شاهد آخر من حديث جابر: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٠٧٥/٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٦/٣) رقم: (٣٩٤٢) من طريق عبد الوهاب بن الضحاك: نا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن ابن المنكدر، عن جابر مرفوعاً.

وعبد الوهاب بن الضحاك: قال الحافظ في «التقريب» (٥٢٨/١): متروك؛ كذبه أبو حاتم.

(١) النَّاضُ: أَهْلُ الْحِجَازِ يُسَمُّونَ الدَّرَاهِمَ وَالذَّنَانِيرَ: النَّاضُ وَالنَّضُّ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: إِنَّمَا يُسَمُّونَهَا نَاضًا إِذَا تَحَوَّلَ عَيْنًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَتَاعًا؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: مَا نَضَّ بِيَدِي مِنْهُ شَيْءٌ، وَخُذْ مَا نَضَّ لَكَ مِنْ دِينَ، أَيْ: تَيْسَرَ وَهُوَ يَنْتَضِرُ حَقَّهُ مِنْ فُلَانٍ، أَيْ: يَسْتَجِزُهُ، وَيَأْخُذُ مِنْهُ الشَّيْءَ بَعْدَ الشَّيْءِ. مَاخُودٌ مِنْ نَضَاضَةِ الْمَاءِ وَهِيَ: بَقِيَّتُهُ، وَكَذَلِكَ النُّضِضَةُ، وَجَمْعُهَا: نَضَائِضٌ. ذَكَرَهُ الْأَزْهَرِيُّ. ينظر: «النظم» (١٥٤/١).

(٢) الأسرى: إما أن يكونوا من الرجال العقلاء البالغين، أو يكونوا من النساء، والصبيان، ومن في حكمهم، فإذا كانوا من هؤلاء فالمشهور عند عامة الفقهاء أنهم يصيرون أرقاء بنفس الأسر، ولا يجوز قتلهم اتفاقاً، لأن النبي ﷺ نهى عن قتل النساء والصبيان في حديث متفق عليه. أما إذا كانوا من الرجال البالغين العقلاء، فالإمام مخير فيهم بين خصال بعضها متفق عليه، وبعضها مختلف فيه، وهي كما يأتي:

«الْقَتْلُ»: ثبت عند فقهاء الأمصار أنه يجوز للإمام قتل المحارب الكافر بعد أسره، والاستيلاء عليه، وحكي عن الحسن البصري وعطاء، وسعيد بن جبير، والضحاك، وابن عمر كراهته.

«الْمَنْ»: ويكون بتخليه سبيل الأسرى من غير عوض، وقال به الشافعية والمالكية في المشهور عنهم والحنابلة، وذهب الحنفية إلى عدم جوازه.

منها: القتل، وهو مستحسنٌ في أهل الشجاعة والنكابة.

ومنها: الفداء، وهو مستحسنٌ في ذي المنصب الذي ليس بشجاع ولا يخاف منه رأي ومكيدة؛ لانتفاع المسلمين بالمال الذي يؤخذ منه.

ومنها: المَن، وهو مستحسنٌ فيمن يرجى أن يحنو على أسرى المسلمين، ونحو ذلك من القرائن.

ومنها: الاسترقاق.

ومنها: ضربُ الجزية، والتَّرك، في الذمة.

وأما الطعام، والعَنَم، ونحوها ممَّا يؤكل، فهو مباحٌ في بلد العدو أكله، وما فضل منه كان في المَعَم.

ومحلُّ استيعاب فُرُوعِ هذا الفضل كُتِبَ الفقه.

وقوله سبحانه: ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾، أي: من النصر والظهور الذي أنزله الله

«الفداء»: ذهب جمهور الفقهاء ومعهم أبو يوسف، ومحمد من علماء الحنفية إلى جواز الفداء بالأسرى، وجاء ذلك رواية عن أبي حنيفة، وجاءت عنه رواية أخرى بمنعه.

وأما الفداء بالمال فالجمهور على جوازه، والمشهور من مذهب الحنفية عدم الجواز، وقد جاء في «السير الكبير» أنه لا بأس به إذا كان بالمسلمين حاجة إليه.

«الاسترقاق»: اتفق الفقهاء على أن الأسير إذا كان مرتدّاً لا يجوز ضرب الرق عليه، فلا بد أن يسلم أو يقتل؛ لأنه كفر بربه بعد ما هدي إلى الإسلام.

واختلفوا في غيره من الأسرى، فذهب المالكية، والشافعية والحنابلة إلى جواز استرقاقهم لا فرق بين عربي منهم أو عجمي، وذهب الحنفية إلى عدم جواز استرقاق المشركين من العرب. وإذا قلنا: إن الإمام مخير في الأسرى، فليس معناه أن يجعل التصرف فيهم تبعاً لعاطفته وميل هواه، وإنما معناه أن يتحرى فيهم ما تقتضيه مصلحة المسلمين ثم ينفذها، فإذا كان الأسير شديد الدهاء، كثير التأليب على المسلمين والكيد لهم، ولا يؤمن مكره، أو تكرر نقضه لعهدهم قتله الإمام كفاية لشره وقطعاً لدابره.

ويظهر ذلك للإمام من اطلاع على أحواله أو علمه بأخباره، وإذا ظهر له أن الأسير مأمون الجانب، ويتألف بإطلاقه طائفة عظيمة على الإسلام، أو يتوسم أن تطلق عشيرته ما عندها من أسرى الحرب من عليه، وكذلك إذا كان الأسير من ذوي العلل والعاهات، أو الضعفاء والزمنى الذين لا يرجى منهم منفعة للمسلمين، أو كان للأسير قيمة، وترجح عند الإمام الحاجة إلى المال لمصالح المسلمين جعل نظير كل رقة يطلقها مقداراً من المال يختلف بحسب مكانة الأسير في قومه، وإن رأى أن في استرقاقه عزة ومهابة للمسلمين اختار من بينهم من يضرب الرق عليه، وهكذا.

سبحانه يَوْمَ بَدْرٍ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى قرآن/ نَزَلَ يَوْمَ بَدْرٍ، أو في قِصَّة يوم بَدْرٍ، ٢١٤ ب ويوم الفُرْقَان: معناه: يَوْمَ الفُرْقِ بين الحقِّ والباطل؛ بإعزاز الإسلام وإِذلالِ الشُّرك، والجمْعان: يريد: جَمَعَ المسلمين وَجَمَعَ الكُفَّار، وهو يوم بَدْرٍ، ولا خلاف في ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، يَغْضُذُ أَنْ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾، يراد به النُّصْرُ وَالظَّفَرُ، أي: الآيات والعظائم مِنْ غلبة القليلِ للكثيرِ، وذلك بقُدرة اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقَصَوَى وَالرَّكِبِ أَصْفَلِ مِنْكُمْ﴾، الْعُدُوَّة: شَفِيرُ الْوَادِي، وَحَرْفُهُ الَّذِي يَتَعَذَّرُ الْمَشْيُ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ رَجَا الْبُئْرِ؛ لِأَنَّهَا عَدَّتْ مَا فِي الْوَادِي مِنْ مَاءٍ وَنَحْوِهِ؛ أَنْ يَتَجَاوَزَ الْوَادِيَّ، أي: منعتهُ؛ ومنه قول الشاعر: [الوافر]

عَدَّتْنِي عَنْ زِيَارَتِكَ الْعَوَادِي وَحَالَتْ دُونَهَا حَزْبُ رُبُونٍ^(١)
وقرأ ابنُ كثير^(٢)، وأبو عمرو: ﴿بِالْعُدُوَّةِ﴾ - بِكَسْرِ الْعَيْنِ -، وقوله: ﴿الدُّنْيَا﴾، وَ﴿الْقُصُورِ﴾، إِنَّمَا هُوَ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ وَوَادِي بَدْرٍ مَوْضِعُ الْوَقْعَةِ مَزْحَلَتَانِ، وَالدُّنْيَا: مِنَ الدُّنُوِّ، وَالْقُصُورُ: مِنَ الْقُصُورِ، وَهُوَ الْبُعْدُ، ﴿وَالرُّكْبُ﴾، بِإِجْمَاعِ مِنَ الْمَفْسَّرِينَ: عَيْرُ أَبِي سَفْيَانَ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَسْفَلُ﴾، فِي مَوْضِعِ خَفْضٍ، تَقْدِيرُهُ: فِي مَكَانٍ أَسْفَلَ كَذَا.

قال سَيِّوْنِي: وَكَانَ الرُّكْبُ، وَمُدَبِّرُ أَمْرِهِ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ حَزْبٍ، قَدْ نَكَبَ عَنْ بَدْرٍ حِينَ نَزَرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَأَخَذَ سَيْفَ الْبَحْرِ، فَهُوَ أَسْفَلُ؛ بِالإِضَافَةِ إِلَى أَعْلَى الْوَادِي.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، الْمَقْصَدُ مِنَ الْآيَةِ: تَبَيُّنُ نِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي شَأْنِ قِصَّةِ بَدْرٍ، وَتَسْيِيرُهُ سُبْحَانَهُ مَا يَسَّرَ مِنْ ذَلِكَ، وَالْمَعْنَى: لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ بِسَبَبِ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَغْرُضُ لِلنَّاسِ، إِلَّا مَعَ تَسْيِيرِ اللَّهِ الَّذِي تَمَّ ذَلِكَ، وَهَذَا كَمَا تَقُولُ لِصَاحِبِكَ فِي أَمْرِ سَنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ تَعَبٍ كَثِيرٍ: لَوْ بَيَّنَّا عَلَى هَذَا، وَسَعَيْنَا فِيهِ، لَمْ يَتِمَّ هَكَذَا، ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، أي: لِيُنْفِذَ وَيُظْهِرَ أَمْرًا قَدْ قَدَّرَهُ فِي الْأَزَلِ مَفْعُولًا لَكُمْ؛ بِشَرَطِ وَجُودِكُمْ فِي وَقْتِ وَجُودِكُمْ، وَهَذَا كُلُّهُ مَعْلُومٌ عِنْدَهُ عَزَّ وَجَلَّ

(١) ينظر الدر المنثور (٤٢١/٣).

(٢) ينظر: «السبعة» (٣٠٦)، و«الحجة» (١٢٨/٤)، و«حجة القراءات» ص: (٣١٠ - ٣١١)، و«إهراء القراءات» (٢٢٤/١)، و«إتحاف» (٧٩/٢)، و«معاني القراءات» (٤٤٠/١)، و«شرح الطيبة» (٤/٣٢٧)، و«شرح شملة» (٤٠٦).

لم يتجدد له به علم، وقوله عز وجل: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، قال الطبري^(١): المَعْنَى: لِيُقْتَلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ؛ بَيِّانٍ مِنَ اللَّهِ وَإِعْذَارٍ بِالرِّسَالَةِ، وَيَحْيَا أَيْضاً وَيَعِيشَ مَنْ عَاشَ؛ عَنْ بَيِّانٍ مِنْهُ أَيْضاً وَإِعْذَارٍ؛ لَا حُجَّةَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ سَبْحَانَهُ.

* ت * : قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب «فضل العلم» في قوله عز وجل: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ...﴾ الآية: البَيِّنَةُ: مَا بَانَ بِهِ الْحَقُّ. انتهى.

وقال ابن إسحاق وغيره: معنى «لِيَهْلِكَ»، أي: لِيَكْفُرَ، و«يَحْيَا» أي: لِيُؤْمِنَ؛ فَالْحَيَاةُ وَالْهَلَاكُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ: مُسْتَعَارَتَانِ.

١٢١٥ وقوله سبحانه: ﴿إِذْ يَرْيَكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ / قَلِيلاً...﴾ الآية: وتظاهرت الروايات؛ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي رُؤْيَا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأَى فِيهَا عَذَذَ الْكُفَّارِ قَلِيلاً، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ أَصْحَابَهُ، فَقَوَّيَتْ نَفُوسُهُمْ، وَخَرِصُوا عَلَى الْقَاءِ؛ قَالَه مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ رَأَاهُمْ ﷺ فِي نَوْمِهِ قَلِيلاً قَدْزَهُمْ وَبَأْسُهُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ رَأَاهُمْ قَلِيلاً عَذَذَهُمْ، فَكَانَ تَأْوِيلُ رُؤْيَاهُ أَنْهَزَامُهُمْ، وَالْفَسْلُ: الْخَوَرُ عَنِ الْأَمْرِ، وَ«لَتَنَازَعْتُمْ»، أي: لَتَخَالَفْتُمْ فِي الْأَمْرِ، يَرِيدُ: فِي الْقَاءِ وَالْحَرْبِ. وَ«سَلَّمَ»: لَفْظٌ يَعْمُ كُلُّ مَتَخَوِّفٍ.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْيَكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ...﴾ الآية، وهذه الرؤية هي في اليقظة بإجماع، وهي الرؤية التي كَانَتْ حِينَ التَّقَوُّ، وَوَقَعَتْ الْعَيْنُ عَلَى الْعَيْنِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى؛ لِمَا أَرَادَهُ مِنْ إِنْفَازِ قَضَاءِهِ فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ، قَلَّلَ كُلَّ طَائِفَةٍ فِي عُيُونِ الْأُخْرَى، فَوْقَ الْخَلَلِ فِي التَّخْمِينِ وَالْحَزَرِ الَّذِي يَسْتَعْمَلُهُ النَّاسُ فِي هَذَا؛ لَتَجَسَّرَ كُلُّ طَائِفَةٍ عَلَى الْأُخْرَى، وَتَتَسَبَّبَ أَسْبَابُ الْحَزَبِ، وَالْأَمْرُ الْمَفْعُولُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَتَيْنِ هُوَ الْقِصَّةُ بِأَجْمَعِهَا.

وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾: تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ الْحَوْلَ بِأَجْمَعِهِ لِلَّهِ، وَأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ، قَلَّةٌ وَإِلَيْهِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلِبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ عَجِيبٌ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا...﴾ الآية: هذا أَمْرٌ من الله سبحانه بما فيه داعية النَّصْر، وسَبَبُ الْعِزِّ، وهي وصية منه سبحانه بِحَسَبِ التَّقْيِيدِ الذي في آية الضَّغْفِ، والفِئَةُ الجماعة، أصلها: «فِئَةٌ»، وهي مِنْ: «فَأَوْتُ»، أي: جمعتُ، ثم أمر سبحانه بإكثار ذكره هناك؛ إذ هو عصمةُ المستنجد، وَوَزَّرَ المستعين.

قال قتادة: افترض الله ذِكْرَهُ عند أَشْغَلٍ ما يكون؛ عند الضَّرَابِ والسيوف.

قال * ع^(١): * وهذا ذِكْرٌ خَفِيٌّ؛ لَأَن رَفَعَ الصَّوْتُ في موطن القتال رديءٌ مكروه؛ إِذَا كَانَ الْغَطَا، فأما إِنْ كَانَ من الجميع عند الحَمْلَةِ، فَحَسَنٌ فَأَتَى فِي عَضْدِ الْعَدُوِّ؛ قَالَ قَيْسُ بْنُ عُبَادٍ^(٢): كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَكْرَهُونَ الصَّوْتُ عِنْدَ ثَلَاثٍ؛ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَعِنْدَ الْجَنَازَةِ، وَعِنْدَ الْقِتَالِ^(٣)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَطْلُبُوا إِجَابَةَ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْقِتَالِ، وَإِقَامَةَ الصَّلَاةِ، وَزُكُورِ الْغَيْثِ»^(٤) وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَكْرَهُ التَّلَثُّمَ عِنْدَ الْقِتَالِ^(٥).

قال الثَّوَوِيُّ: وَسُئِلَ الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الصَّلَاحِ^(٦)، عَنِ الْقَدْرِ الَّذِي يَصِيرُ بِهِ الْمَرْءُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٦/٢).

(٢) قيس بن عباد، القنيسي الضُّبَعِيُّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبَصْرِيُّ مَخْضَرَمٌ، عَنْ عَمْرِو بْنِ عَلِيٍّ وَعُمَارَ، وَعَنْ ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَابْنِ سِيرِينَ مَاتَ بَعْدَ الثَّمَانِينَ.

ينظر ترجمته في: «الخلاصة» (٣٥٧/٢) (٥٨٨٦).

(٣) ذكره ابن عطية (٥٣٦/٢).

(٤) ذكره الهندي في «كنز العمال» (١٠٢/٢) رقم: (٣٣٣٩)، وعزاه للشافعي، والبيهقي في «المعرفة» عن مكحول مرسلًا.

(٥) ذكره ابن عطية (٥٣٥/٢).

(٦) عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر، الإمام العلامة مفتي الإسلام، تقي الدين، أبو عمرو بن الإمام البارِع صلاح الدين أبي القاسم، النصري - بالنون والصاد المهملة، نسبة إلى جده أبي نصر - الكردي، الشهرزوري الأصل، الموصلي المريا، الدمشقي الدار والوفاة، ولد سنة سبع وسبعين - بتقديم السين فيهما - وخمسائة بشهرزور، وتفقه على والده، ثم نقله إلى الموصل فاشتغل بها مدة وبرع في المذهب.

ينظر ترجمته في «الأعلام» (٣٦٩/٤) و«طبقات الشافعية» للسبكي (١٣٧/٥) و«وفيات الأعيان» (٢/

٤٠٨) و«البداية والنهاية» (١٦٨/١٣) و«طبقات الشافعية» لابن هداية ص: (٨٤) و«النجوم الزاهرة» (٦/

٣٥٤) و«شذرات الذهب» (٥/٢٢١) و«مفتاح السعادة» (١/٣٩٧)، (٢/٢١٤) و«مرآة الزمان» (٨/٥٠٢)

و«مرآة الجنان» (٤/١٠٨).

من الذاكرين الله كثيراً، فقال: إذا واظب على الأذكارِ الماثورةِ المُثَبِّتَةِ؛ صباحاً ومساءً، وفي الأوقاتِ والأحوالِ المختلفة؛ ليلاً ونهاراً - وهي مَبْنِيَّةٌ في كتب «عمل اليوم والليلة» - كان من الذاكرين الله كثيراً؛ والله سبحانه أعلم. انتهى من «الحلية».

* ت * : وأحسنُ من هذا جوابُهُ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ! قَالُوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الذاكِرُونَ اللهَ كثيراً والذاكِراتُ»، رواه مسلم/، والترمذي، وعنده: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْمُفْرَدُونَ؟ قَالَ: الْمُسْتَهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ؛ يَضَعُ عَنْهُمْ الذِّكْرَ أَثْقَالَهُمْ، فَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِفَافًا»^(١)، قال صاحب «سلاح المؤمن»: المستهترون في ذكر الله، - هو بفتح التاءِينِ المُثَنَّنَيْنِ - يعني: الذين أولعوا به؛ يقال: استهتر فلان بكذا، أي: أولع به، والله أعلم. انتهى.

فَقَدْ بَيَّنَّ ﷺ هنا صفةَ الذاكرين الله كثيراً، وقد نقلنا في غير هذا المَحَلِّ بيانَ صفةِ الذاكرين الله كثيراً، بنحو هذا مِنْ طريقِ ابنِ المبارك، وإذا كان العبدُ مُسْتَهْتِراً بِذِكْرِ مولاه، أُنِسَ به، وأحبه، وأحبَّ لقاءه؛ فلم يبالِ بقاءِ العدوِّ، وإنْ هي إلا إحدى الْحُسَيْنَيْنِ: إما النضر؛ وهو الأغلبُ لمن هذه صفته، أو الشهادة؛ وذلك منه، ومطلبه. انتهى.

و﴿تفلحون﴾: تنالون بغيتكم، وتنالون آمالكم، والجمهور على أن الرِّيحَ هنا مستعارةٌ.

قال مجاهد: الرِّيحُ: النضر والقوة، وذَهَبَ رِيحُ أصحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ نَازَعُوهُ يَوْمَ أَحَدٍ^(٢)، وقوله سبحانه: ﴿واصبروا...﴾ إلى آخر الآية: تَتِمُّمٌ في الوصية وعدة مؤنسة، وقوله سبحانه: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم...﴾ الآية: الإشارة إلى كفار قريش، والْبَطَرُ: الأشرُ وعَمُطُ الثَّغْمَةِ، وَرَوِيَّ أَنْ أَبَا سَفْيَانَ، لَمَّا أَحْرَزَ عِيره، بَعَثَ إِلَى قريش، وقال: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَلَّمَ عِيرَكُمْ، فَأَرْجِعُوا، فَاتَى رَأْيِي الْجَمَاعَةَ عَلَى ذَلِكَ، وَخَالَفَ أَبُو جَهْلٍ، وقال: وَاللَّهِ، لَا نَفْعَ لِحَتِّي نَأْتِي بَذْراً - وَكَانَتْ بَذْرُ سَوْقٍ مِنْ أَسْوَاقِ الْعَرَبِ لَهَا يَوْمٌ مُوسِمٌ - فَتَنَحَّرَ عَلَيْهَا الْإِبِلُ، وَتَشَرَّبَ الْخَمْرُ، وَتَعَرَّفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَسْمَعُ بَنَا الْعَرَبِ، وَيَهَابُنَا النَّاسُ، فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ورثاء الناس﴾.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٦١/٦) برقم: (١٦١٧٨ - ١٦١٧٩) بنحوه، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٣٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٤٣)، وعزاه إلى الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْوُجُوهَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾، الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ عائذٌ على الكُفَّار، و﴿الشَّيْطَانُ﴾: إبليس نفسه، والذي عليه الجمهور، وتظاهرت به الروايات أن إبليس جاء كُفَّار قريش، ففي «السيرة» لابن هشام: أنه جاءهم بمكة، وفي غيرها: أنه جاءهم، وهم في طريقهم إلى بدر، وقد لحقهم خوفٌ من بني بكرٍ وكِنَانَةٍ؛ لحروبٍ كانت بينهم، فجاءهم إبليس في صورة سُرَّاقَةٍ بَنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ، وهو سيّد من ساداتهم، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، ولن تخافوا من قومي، وهم لكم أَعْوَانٌ على مَقْصِدِكُمْ، ولن يغلبكم أحدٌ، فروي أنه لما أَلْتَقَى الجمعان، كانت يده في يد الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فلما رأى الملائكة، نَكَصَ، فقال له الحارث: أَتَقِرُّ يَا سُرَّاقَةُ؟! فلم يَلُوْا عليه، وَيُزَوِّى أَنَّهُ قَالَ لَهُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ، وروي أن عُمَيْرَ بْنَ وهبٍ، أو الحارثَ بْنَ هِشَامٍ قَالَ لَهُ: أَيْنَ يَا سُرَّاقُ؟ فلم يَلُوْا مِثْلَ عَدُوِّ اللَّهِ، فذهب، ووقعت/ الهزيمة، فتحدّثوا ١٢١٦ أَنَّ سُرَّاقَةَ قَرَّ بِالنَّاسِ، فبلغ ذلك سُرَّاقَةَ بْنَ مَالِكٍ، فأتى مكة، فقال لهم: واللّه، ما عَلِمْتُ بشيء من أمركم حتى بَلَغْتَنِي هزيمَتُكُمْ، ولا رَأَيْتُكُمْ، ولا كُنْتُ معكم.

* ت * : قال ابنُ إسحاق: ذكر لي أنهم كانوا يروونه في كلِّ مَنَزِلٍ في صُورَةِ سُرَّاقَةٍ لَا يُنْكِرُونَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، وَأَلْتَقَى الجمعان، نَكَصَ عَدُوُّ اللَّهِ عَلَى عَقَبَيْهِ، فأوردتهم ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ. انتهى من «السيرة» لابن هشام.

وقوله: ﴿إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: أنتم في ذمتي وجمّائي، و«تراءت»: تفاعلت من الرؤية، أي: رأى هؤلاء هؤلاء.

قوله: ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾، أي: رَجَعَ من حيث جاء، وأضلَّ التُّكُوصُ؛ في اللغة: الرجوعُ الْقَهْقَرَى.

وقوله: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، يريد: الملائكة، وهو الخبيث، إنما شرط أن لا غَالِبَ لَهُمُ مِنَ النَّاسِ، فلما رأى الملائكة، وَخَرَقَ العادة، خَافَ وَفَزَّ.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، قال الزُّجَاج وغيره: خَافَ مِمَّا رَأَى مِنَ الْأَمْرِ، وقوله؛ أَنَّهُ يَوْمُهُ الَّذِي أُنْظِرَ إِلَيْهِ؛ ويقوي هذا أنه رأى خَرَقَ العادة، ونزول الملائكة للحزب.

﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

قَالَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ...﴾ الآية: قال المفسرون: إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق، إنما هم من أهل عسكر الكفار ممن كان الإسلام داخل قلوبهم، خَرَجُوا مع الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَذَرٍ، منهم مَكْرَةٌ وَغَيْرُ مَكْرَةٍ، فلما أَسْرَفُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَرَأَوْا قُلْتَهُمْ، أَرْتَابُوا، وَقَالُوا مُشِيرِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ: غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ.

قال * ع^(١): * ولم يُذَكَّرْ أَحَدٌ مِّنْ شَهِيدٍ بَدْرًا بِنِفَاقٍ إِلَّا مَا ظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مُعْتَبَرٍ ابْنِ قُشَيْرٍ؛ فَإِنَّهُ الْقَاتِلُ يَوْمَ أَحُدٍ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهْنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقد يحتمل أن يكون منافقو المدينة، لما وَصَلَهُمْ خُرُوجُ قُرَيْشٍ فِي قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ، قالوا هذه المقالة، ثم أخبر الله سبحانه بأنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّ عَزَّتْهُ سُبْحَانَهُ وَحِكْمَتُهُ كَفِيلَةٌ بِنُصْرِهِ، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ...﴾ الآية: هذه الآية تتضمن التعجب ممَّا حَلَّ بِالْكَافِرِ يَوْمَ بَذَرٍ؛ قاله مجاهدٌ وغيره، وفي ذلك وعيدٌ لمن بَقِيَ مِنْهُمْ، وقوله: ﴿وَأَذْبَرَهُمْ﴾، قال جُلُّ المفسرين: يريد أَسَنَاهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ كَثِي^(٢)، وقال ابن عباس، والحسن: أراد ظَهَرَهُمْ وَمَا أَذْبَرَ مِنْهُمْ^(٣) وباقي الآية بَيَّن.

﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ^١ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبَرًا نَفْسَةً أَنْفَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْذِرُوا مَا بَأْنُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ^٢ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ^٣ وَكُلًّا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ...﴾ الآية: الدَّأْبُ: العادة في كلام العرب، وهو مأخوذٌ من دَأَبَ عَلَى الْعَمَلِ، إِذَا لَازَمَهُ.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥٣٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/٢٦٧) برقم: (١٦٢١٥ - ١٦٢١٦ - ١٦٢١٧) برقم: (١٦٢١٨) عن سعيد بن جبیر، وذكره ابن عطية (٢/٥٤٠)، وعزاه إلى جمهور المفسرين، والبخاري في «تفسيره» (٢/٢٥٦) عن سعيد بن جبیر ومجاهد برقم: (٥٠)، وابن كثير (٢/٣١٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٤٦)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وأبي الشيخ، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره ابن عطية (٢/٥٤٠).

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ الآية: معنى هذه الآية إخبار من الله سبحانه، إذا أنعم على قوم نعمة، فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكيدها، حتى يجيء ذلك منهم؛ بأن يغيروا حالهم التي تَرَادُّ، أو تَحْسُنُ منهم، فإذا فعلوا ذلك، غيّر الله نعمته عندهم بنقمتهم منهم، ومثال هذه نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى قُرَيْشٍ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فكفروا به، فغيّر الله تلك النعمة، بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار، وأحلّ بهم عقوبته.

وقوله تعالى: ﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۖ بِذُنُوبِهِمْ﴾، هذا التكرير هو لمعنى ليس للأول؛ إذ الأول ذأَبٌ في أن هَلَكُوا؛ لما كَفَرُوا، وهذا الثاني ذأَبٌ في أنه لم يغيّر نعمتهم؛ حتى غيروا ما بأنفسهم، والإشارة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، إلى قوم شعيب وصالح وهود ونوح وغيرهم.

﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِنَّمَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرٌّ بِهِمْ مَنَ خَلَفَهُمْ لَمَلَهُمْ يَدَكُرُونُ (٥٧) وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قُوَّةِ حَيَاتِهِ فَأَنِذِ إِلَهُهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩)﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾، أجمع المتأولون؛ أن الآية نزلت في بني قريظة، وهي بعد تعم كل من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿فِي كُلِّ مِرَّةٍ﴾: يقتضي أن الغدر قد تكرر منهم.

وحديث قريظة هو أنهم عاهدوا النبي ﷺ؛ على ألا يحاربوه، ولا يعينوا عليه عدوا من غيرهم، فلما اجتمعت الأحزاب على النبي ﷺ بالمدينة، غلب على ظن بني قريظة؛ أن النبي ﷺ مغلوب ومستأصل، وخدع خبيث بن أخطب النضري كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة، وعهدهم، فغدروا والوا قريشاً، وأمدهم بالسلاح والأدراع، فلما أتجلت تلك الحال عن النبي ﷺ، أمره الله تعالى بالخروج إليهم وحربهم، فاستنزلوا، وضربت أعناقهم بحكم سعد، واستيعاب قصتهم في «السيرة» وإنما اقتضت منها ما يخص تفسير الآية.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ...﴾ الآية: معنى ﴿تَتَّقَنَّهُمْ﴾ تأسرهم، وتحصلهم في ثقافتك، أو تلقاهم بحالٍ تقدّر عليهم فيها، وتغلبهم، ومعنى: ﴿فَشَرُّذُ﴾ أي:

طَرَدَ، وَأَبْعَدَ، وَخَوْفٌ. والشريدُ: أَلْمَبْعَدُ عن وَطَنِ ونحوه، ومعنى الآية: فَإِنْ أَسْرَتْ هَؤُلَاءِ الناقضين في حريك لهم، فَأَفْعَلَ بهم من النعمة ما يَكُونُ تشريداً لمن يَأْتِي خَلْفَهُمْ في مثْلِ طريقتهم، وعبارَةُ البخاري: «فَشَرَّدَ» فَرَّقَ. انتهى.

والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ عائِدٌ على الفرقة المشردة، وقال ابن عباس: المعنى: نكل بهم مِنْ خَلْفِهِمْ^(١).

وقالت فرقة: معناه: سَمِعَ بهم، والمعنى متقارب، ومعنى: ﴿خَلْفَهُمْ﴾ أي: بعدهم، و﴿يَذْكُرُونَ﴾، أي: يتعظون.

وقوله سبحانه: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً...﴾ الآية: قال أكثر المفسرين: إن الآية في بني قُرَيْظَةَ، والذي يظهر من ألفاظ الآية أَنَّ أَمْرَ بني قريظة قد أَنْقَضِيَ عند قوله: ﴿فَشَرَّدَ﴾ بهم مِنْ خَلْفِهِمْ، ثم ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية بما يَصْنَعُهُ في المستقبل، مع مَنْ يخافُ منه خيانةً إلى آخر الدهر، ويَبْنُو قريظة لم يَكُونُوا في حَدٍّ مَنْ تُخَافُ خيانتَه، وقوله: ﴿فَأَنْبَذَ إِلَيْهِمْ﴾، أي: ألقى إليهم عَهْدَهُمْ، وقوله: ﴿عَلَى سِوَاءٍ﴾، قيل: معناه: حتى يَكُونَ الأَمْرُ في بَيَانِهِ والعِلْمُ به، عَلَى سِوَاءٍ مِنْكَ ومنهم؛ فَتَكُونُونَ في أَسْتِشْعَارِ الْحَرْبِ سِوَاءٍ، وَذَكَرَ الْفَرَاءُ؛ أَنَّ الْمَعْنَى: فَأَنْبَذَ إِلَيْهِمْ عَلَى أَعْتِدَالٍ وَسِوَاءٍ مِنَ الأَمْرِ، أي: بَيَّنَّ لَهُمْ عَلَى قَدَرٍ ما ظهر منهم، لَا تُفَرِّطُ، وَلَا تُفْجَأْ بِحَرْبٍ، بَلْ أَفْعَلْ بِهِمْ مِثْلَ ما فَعَلُوا بِكَ، يعني: موازنةً ومقايسةً، وقرأ نافع وغيره: «وَلَا تَخْسَبَنَّ» - بالتاء - مخاطبةً للنبي ﷺ، و﴿سَبَقُوا﴾: معناه: فَاتُوا بأنفسهم وَأَنْجَوْهَا، ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي: لَا يُفْلِتُونَ، وَلَا يُعْجِزُونَ طالِبَهُمْ، وَرَوِيَ أَنَّ الآية نَزَلَتْ فِيمَنْ أَقْلَّتْ مِنَ الْكُفَّارِ فِي بَدْرِ وَغَيْرِهِ فَالْمَعْنَى: لَا تَنْظَنَّهُمْ نَاجِينَ، بَلْ هُمْ مُذْرَكُونَ، وقرأ حمزة وغيره: «وَلَا يَخْسَبَنَّ» - بالياء مِنْ تَحْتِ، وبفتح السين^(٢).

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

(١) أخرجه الطبري (٢٧١/٦) برقم: (١٦٢٢٧ - ١٦٢٢٨)، وذكره ابن عطية (٥٤٢/٢)، والبغوي (٢/

٢٥٧) بنحوه، وابن كثير (٣٢٠/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المشثور» (٣/٣٤٧).

(٢) وقرأ بها ابن عامر وحفص عن عاصم.

ينظر: «السبعة» ص: (٣٠٧)، «الحجة» (١٥٤/٤ - ١٥٥)، «حجة القراءات» (٣١٢)، «إعراب

القراءات» (١/٢٣٠)، و«إتحاف» (٢/٨١ - ٨٢)، و«معاني القراءات» (١/٤٤١)، و«شرح الطيبة» (٤/

٣٢٩)، و«العنوان» (١٠١).

وقوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا/ أَستطعتم من قوة...﴾ الآية: المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين، وفي «صحيح مسلم»: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ»^(١) ولما كانت الخيل هي أضل الحرب، وأوزارها، والتي عَقِدَ الخير في نواصيها^(٢)، حَصَّهَا اللَّهُ تعالى بالذكر، تشريفاً لها، ولما كانت السهام من أنجع ما يُتَعَاطَى

(١) أخرجه مسلم (١٥٢٢/٣) كتاب «الإمارة»، باب: فضل الرمي والحث عليه، حديث (١٩١٧/١٦٧)، وأبو داود (١٧/٢) كتاب «الجهاد» باب: في الرمي، حديث (٢٥١٤)، وابن ماجه (٩٤٠/٢)، كتاب «الجهاد»، باب: الرمي في سبيل الله، حديث (٢٨١٣)، وأحمد (١٥٧/٤)، وأبو يعلى (٢٨٣/٣) رقم: (١٧٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٤/٤) رقم: (٤٢٩٩)، كلهم من طريق عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثمامة بن شفي، عن عقبة بن عامر به.

وأخرجه الدارمي (٢٠٤/٢)، كتاب «الجهاد»، باب: في فضل الرمي والأمر به، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٤/٤) رقم: (٤٢٩٨)، كلاهما من طريق سعيد بن أبي أيوب: ثنا يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير مرثد بن عبد الله، عن عقبة به.

وأخرجه الترمذي (٢٧٠/٥ - ٢٧١) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة الأنفال»، حديث (٣٠٨٣) من طريق صالح بن كيسان، عن رجل لم يسمه، عن عقبة بن عامر.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٨/٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وأبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم القراب في كتاب «فضل الرمي».

(٢) ورد عن جماعة من الصحابة: منهم: عروة البارقي، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله، وأبو كيشة، وابن مسعود، وجابر:

أما حديث عروة البارقي، فأخرجه البخاري (٦٤/٦) في «الجهاد والسير»؛ باب الخير معقود في نواصيها الخيل (٢٨٥٠)، و (٦٦/٦)؛ باب: الجهاد ماض مع البر والفاجر (٢٨٥٢) و (٢٥٣/٦) في فرض الخمس (٣١١٩)، (٧٣١/٦) في المناقب (٣٦٤٣)، ومسلم (١٤٩٣/٣) في «الإمارة» باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٩٨، ٩٩، ٨٧٣)، والنسائي (٢٢٢/٦) في «الجهاد» باب: قتل ناصية الفرس، وابن ماجه (٩٢٣/٢) في «الجهاد» باب: ارتباط الخيل في سبيل الله (٢٧٨٦)، وأحمد (٤/٣٧٥ - ٣٧٦)، وأبو يعلى (٦٨٢٨)، والحميدي في «مسنده» (٢٧٢/٢ - ٢٧٣) برقم: (٨٤١ - ٨٤٢)، والدارمي (٢١١/٢ - ٢١٢) في «الجهاد» باب: فضل الخيل في سبيل الله، وسعيد بن منصور في «سننه» (١٩٨/٢) في «الجهاد» باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٤٢٦)، والطالسي في «الجهاد» (٢٤١/١) برقم: (١١٨٤ - ١١٨٥) والطبراني (١٥٥/١٧) برقم (٣٩٦ - ٤٠٠)، والبيهقي (٦/١١٢) في «القراض»: باب المضارب يخالف بما فيه زيادة لصاحبه، و (٣٢٩/٦) في قسم «الفيء» باب: الإسهام للفرس دون غيره من الدواب، و (٥٢/٩) في «السير» باب: تفضيل الخيل و (١٥/١٠) في كتاب «السبق والرمي» باب: ارتباط الخيل عدة في سبيل الله عز وجل، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢٧٤ - ٢٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٢٧/٨)، والبخاري في «شرح السنة» بتحقيقنا (٥/٥٣٠) في «السير والجهاد» باب: اتخاذ الخيل للجهاد (٢٦٣٩) من طرق عنه به.

وأما حديث ابن عمر، فأخرجه البخاري (٦٤/٦) في «الجهاد والسير» باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٤٩)، و (٧٣١/٦) في «المناقب» (٣٦٤٤) ومسلم (١٤٩٢/٣ - ١٤٩٣) في =

في الحرب وأتكاها في العدو وأقربه تناولاً للأرواح، خَصَّها ﷺ بالذكر والتنبية عليها.

«الإمارة» باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٨٧١/٩٦)، والنسائي (٢٢١/٦ - ٢٢٢) في الخيل: باب قتل ناصية الفرس، وابن ماجه (٩٢٣/٢)، في «الجهاد» باب: ارتباط الخيل في سبيل الله (٢٧٨٧)، ومالك (٤٦٧/٢) في «الجهاد» باب: ما جاء في الخيل والمسابقة (٤٤)، وأحمد (١٠١/١) و (٤٩/٢)، والطحاوي (٢٧٣/٣ - ٢٧٤)، وأبو يعلى (٢٦٤٢)، والبيهقي (٣٢٩/٦) في «الفء» باب: الإسهام للفرس دون غيره من الدواب، والخطيب في «التاريخ» (٣٩٤/١٢)، والبغوي في «شرح السنة» بتحقيقنا (٥٣٠/٥) برقم: (٢٦٣٨) من طريق نافع عن ابن عمر رفعه بنحوه.

وأما حديث أنس، فأخرجه البخاري (٦٤/٦) في «الجهاد» باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥١)، (٧٣١/٦) في «المناقب» (٣٦٤٥)، ومسلم (١٤٩٤/٣) في «الإمارة» باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٨٧٤/١٠٠)، والنسائي (٢٢١/٦) في «الخيال» باب: بركة الخيل، وأحمد (١٢٧/٣)، وسعيد بن منصور (١٩٩/٢) في «الجهاد» باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٤٢٧)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤١٧٣، ٤١٧٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٥٢٩/٥) برقم: (٢٦٣٧) بتحقيقنا من طريق شعبة عن أبي التياح قال: سمعت أنس بن مالك يحدث عن النبي ﷺ قال: «البركة في نواصي الخيل».

وأما حديث أبي هريرة، فأخرجه مسلم (٦٨٢/٢) في «الزكاة»، باب: إثم مانع الزكاة (٢٤ - ٩٨٧)، والترمذي في «الجهاد» باب: ما جاء في فضل من ارتبط فرساً في سبيل الله (١٦٣٦)، وابن ماجه (٢/٩٢٣) في «الجهاد» باب: ارتباط الخيل في سبيل الله (٢٧٨٨)، وأحمد (١٠١/٢)، وأبو يعلى (٢٦٤١ - ٢٦٤٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦١/٨)، والخطيب في «التاريخ» (١٩٦/٥)، والبيهقي (٨١/٤) في الزكاة، باب ما ورد في الوعيد فيمن كثر مال زكاة ولم يؤد زكاته، من طرق عن أبي هريرة.

وأما حديث جرير، فأخرجه مسلم (١٤٩٣/٣) في «الإمارة» باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٩٧٢/٩٧)، والنسائي (٢٢١/٦) في الخيل، باب: قتل ناصية الفرس، وأحمد (٣٦١/٤)، والطحاوي (٢٧٤/٣)، والبغوي في «شرح السنة» بتحقيقنا (٥٣٠/٥) برقم: (٢٦٤٠) من طريق يونس بن عبيد، عن عمرو بن سعيد، عن أبي زرعة، عن جرير بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرس بإصبعه وهو يقول: «الخيال معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والغنيمة».

وأما حديث أبي كبشة، فأخرجه الطبراني (٣٣٩/٢٢) برقم: (٨٤٩)، وابن حبان (١٦٣٥) - موارد، والطحاوي (٢٧٤/٢)، والحاكم (٩١/٢) من طريق ابن وهب: حدثني معاوية بن صالح، حدثني نعيم بن زيادة، أنه سمع أبا كبشة صاحب النبي ﷺ يقول: الخيل معقود في نواصيها الخير، وأهلها معانون عليها، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بهذه الزيادة، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٢/٥) رجاله ثقات.

وأما حديث ابن مسعود فهو عند أبي يعلى (٥٣٩٦)، قال: حدثنا داود بن رشيد، حدثنا بقية بن الوليد، عن علي بن علي حدثني يونس، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن مسعود قال: جاءه =

* ت *: وفي «صحيح مسلم»، عن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ، وَتَرَكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ قَدْ عَصَى»^(١)، وفي «سنن أبي داود»، والترمذي، والنسائي: «عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَدْخُلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ أَنْفُسِ الْجَنَّةِ؛ صَانِعُهُ يَخْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالرَّامِيَ بِهِ، وَمُثْبِلُهُ، فَأَرْمُوا وَأَرْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا، كُلُّ شَيْءٍ يُلْهُو بِهِ الرَّجُلُ، بَاطِلٌ إِلَّا رَمْيَهُ بِفَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ قَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ أَمْرَاتُهُ»^(٢). انتهى.

ورباط الخيل: مصدرٌ من رَبَطَ، ولا يكثرُ رَبْطُهَا إِلَّا وهي كثيرة، ويجوز أن يكون

رجل فقال: أسمعت رسول الله ﷺ يقول في الخيل شيئاً؟ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيل معقود...» فذكره مطولاً.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٨٠/٥) وقال: رواه أبو يعلى. وفيه بقية بن الوليد، وهو مدلس. وبقيّة رجاله ثقات.

وأما حديث جابر، فأخرجه أحمد (٣/٣٥٢) من طريق إبراهيم بن إسحاق، وعلي بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، عن عتبة بن أبي حكيم، حدثني حصين بن حرملة، عن أبي مصبح، عن جابر به. وأخرجه أبو يعلى في «معجم شيوخه» (١٩٥) من طريق يحيى بن سعيد الأموي، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر، عن النبي ﷺ مرفوعاً.

وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/٢٥٥٧) من طريق الحسن بن سفيان، حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا علي بن ثابت عن الوازع، عن أبي سلمة، عن جابر.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/٢٦١) وقال: رواه أحمد، والطبراني في «الأوسط» باختصار، ورجال أحمد ثقات.

وقال الحافظ في «الفتح» (٦/٦٧): روى حديث «الخيل معقود في نواصيها الخير» جمع من الصحابة غير من تقدم ذكره، وهم: ابن عمر، وعروة، وأنس، وجابر، وممن لم يتقدم سلمة بن نفيل (٦/٢١٤)، وأبو هريرة عند النسائي، وعتبة بن عبد عند أبي داود (٢٥٤٢)، وجابر، وأسماء بنت يزيد (٦/٤٥٥)، وأبو ذر (٥/١٨١) عند أحمد، وابن مسعود عند أبي يعلى، وأبو كبشة عند أبي عوانة، وابن حبان في «صحيحهما»، وحذيفة عند البزار، وأبو أمامة، وعريب - (وهو بفتح المهملة وكسر الراء بعدها تحتانية ساكنة ثم موحدة) - المليكي، والنعمان بين بشير وسهل بن الحنظلية عند الطبراني. وعن علي، عند ابن أبي عاصم في «الجهاد»...

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥٢٢ - ١٥٢٣) كتاب «الإمارة» باب: فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، حديث (١٦٩/١٩١٩)، وابن ماجه (٢/٩٤٠ - ٩٤١) كتاب «الجهاد» باب: الرمي في سبيل الله، حديث (٢٨١٤) من حديث عقبة بن عامر.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/١٦ - ١٧) كتاب «الجهاد» باب: في الرمي، حديث (٢٥١٣)، والترمذي (٤/١٧٤) كتاب «فضائل الجهاد» باب: ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، حديث (١٦٣٧)، والنسائي (٦/٢٢٢ - ٢٢٣) كتاب «الخيل» باب: تأديب الرجل فرسه، حديث (٣٥٧)، والحاكم (٢/٩٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/٤٤ - ٤٥) رقم: (٤٣٠١) من حديث عقبة بن عامر.

مصدراً من رَابَطَ، وَإِذَا رَبَطَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِرْساً لِأَجْلِ صَاحِبِهِ، فَقَدْ حَصَلَ بَيْنَهُمْ رِبَاطٌ، وَذَلِكَ الَّذِي حَضَّ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ أَرَبَطَ فِرْساً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ كَالْبَاسِطِ يَدَهُ بِالْصَّدَقَةِ لَا يَقْبُضُهَا»^(١)، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ.

* ت * : وقد ذكرنا بغض ما ورد في فضل الرباط في آخر «آل عمران»؛ قال صاحب «التذكرة»^(٢) : وعن عثمان بن عفان، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَانَتْ لَهُ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ؛ صِيَامُهَا وَقِيَامُهَا»^(٣)، وعن أبي بن كعب، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِرِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مُخْتَصِباً مِنْ غَيْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ - أَغْظَمُ أَجْراً مِنْ عِبَادَةِ مِائَةِ سَنَةٍ؛ صِيَامُهَا وَقِيَامُهَا، وَرِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ - أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَعْظَمُ أَجْراً - أَرَاهُ قَالَ: مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِي سَنَةٍ؛ صِيَامُهَا وَقِيَامُهَا - فَإِنْ رَدَّ اللَّهُ إِلَى أَفْغَلِهِ سَالِماً، لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ سِتَّةٌ أَلْفَ سَنَةٍ، وَيُكْتَبُ لَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَيَجْزِي لَهُ أَجْرُ الرِّبَاطِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤)، قال القرطبي^(٥) في «تذكرته»: فدلَّ هذا الحديث على أن رباط يوم في رمضان يحصل له هذا الثواب الدائم، وإن لم يمت مرابطاً. خرَّج هذا الحديث، والذي قبله ابن ماجه. انتهى من «التذكرة».

و﴿تَرْهِيْبُونَ﴾: معناه: تخوِّفون وتفرِّعون، والرهبة: الخوف؛ وقوله: ﴿وآخرين من

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٩٦/٣) وعزاه لابن سعد.

(٢) ينظر: «التذكرة» (٢٠٩/١).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٩٢٤/٢) كتاب «الجهاد» باب: فضل الرباط في سبيل الله، حديث (٢٧٦٦) من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن مصعب بن ثابت، عن عبد الله بن الزبير، عن عثمان بن عفان به.

وقال البوصيري في «الزوائد» (٣٩٠/٢): هذا إسناد ضعيف؛ عبد الرحمن بن زيد ضعفه أحمد وابن معين وابن المديني والنسائي.

وقال الحاكم: روى عن أبيه أحاديث موضوعة. وقال ابن عبد البر: أجمعوا على ضعفه.

قال المنذري في «الترغيب» (٢٠٣/٢): وآثار الوضع ظاهرة عليه هـ.

وقال البوصيري في «الزوائد» (٣٩٢/٢ - ٣٩٣): هذا إسناد ضعيف، لضعف محمد بن يعلى وشيخه عمر بن صبيح، ومكحول لم يدرك أبي بن كعب، ومع ذلك فهو مدلس.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٩٢٤/٢ - ٩٢٥) كتاب «الجهاد» باب: فضل الرباط في سبيل الله، حديث (٢٧٦٨) من طريق محمد بن يعلى السلمي، ثنا عمر بن صبيح، عن عبد الرحمن بن عمرو، عن مكحول، عن أبي بن كعب مرفوعاً.

(٥) ينظر: «التذكرة» (٢٠٩/١).

دونهم، فيه أقوال: قيل: هم المنافقون، وقيل: فارس، وقيل: غير هذا.

قال * ع^(١): * ويحسن أن يقدر قوله: ﴿لا تعلمونهم﴾، بمعنى: لا تعلمونهم فازعين زاهيين.

وقال * ص: * لا تعلمونهم بمعنى: لا تعرفونهم، فيتعدى لواحد، ومن عداه إلى اثنين، قدره: محاربين، واستبعد؛ لعدم تقدم ذكره، فهو ممنوع عند بعضهم، وعزيز جداً عند بعضهم انتهى.

﴿وَلَا تَجْنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّيِّعُ الْخَلِيمُ﴾ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَتَاكَ نَصْرُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَشَقَّتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)

وقوله سبحانه: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ جَنَحَ الرَّجُلُ إلى الأمر؛ إذا مال إليه، وعاد الضمير في «لها» مؤنثاً؛ إذ «السلم» بمعنى المسالمة والهدنة، وذهب جماعة من المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة، والضمير في «جَنَحُوا» هو للذين نُبذَ إليهم على سواء.

وقوله سبحانه: ﴿وإن يريدوا﴾ أن يخدعوك فإن حسبك الله... الآية: الضمير في ٢١٧ ب قوله: «وإن يريدوا» عائذ على الكفار الذين قال فيهم: ﴿وإن جنحوا﴾، أي: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾، بأن يظهروا السلم، ويُبْطِئُوا العَدْرَ والخيانة، ﴿فإن حسبك الله﴾، أي: كافيك ومعطيك نصره، و﴿أيدك﴾: معناه: قواك ﴿وبالمؤمنين﴾، يريد الأنصار، بذلك تظاهرت أقوال المفسرين.

وقوله: ﴿ألف بين قلوبهم...﴾ الآية: إشارة إلى العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج.

قال * ع^(٢): * ولو ذهبَ ذاهبٌ إلى عموم المؤمنين في المهاجرين والأنصار، وجعل التأليف ما كان بين جميعهم من التحاب، لساغ ذلك، وقال ابن مسعود: نزلت هذه الآية في المتحابين في الله^(٣).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٤٧/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٤٨/٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨١/٦) برقم: (١٦٢٧٥)، وابن كثير (٣٢٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦١/٣)، وزاد نسبته إلى ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان»، والنسائي، والبزار، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والحاكم، وصححه.

وقال مجاهد: إِذَا تَرَائى الْمُتَحَابَّانِ فِي اللَّهِ، وَتَصَافَحَا، تَحَاثَّتْ خَطَايَاهُمَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدَةُ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ^(١): إِنَّ هَذَا لَيْسِيرٌ، فَقَالَ لَهُ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، قَالَ عَبْدَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ أَفْقَهُ مِنِّي^(٢).

قال * ع^(٣) *: وهذا كله تمثيل حسن بالآية، لا أن الآية نزلت في ذلك، وقد روى سهل بن سعد، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن مألوفة لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»^(٤).

قال * ع^(٥) *: والتشابه سبب الألفة، فمن كان من أهل الخير، ألف أشباهه وألوفه.

* ت *: وفي «صحيح البخاري»: «الأزواج جنود مجتدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(٦). انتهى، وروى مالك في «الموطأ»، عن أبي هريرة قال: قَالَ

(١) عبدة بن أبي لبابة الأسدي الغاضري بمعجمتين مولا هم أبو القاسم البراز الكوفي الفقيه نزيل دمشق. عن عمر في مسلم مرسلًا وابن عمر وعبد الله بن عمرو وجماعة، وعنه حبيب بن أبي ثابت والأعمش وابن جريج والسفيانان، وثقه أبو حاتم.

قال الأوزاعي: لم يقدم علينا أفضل منه.

قال ابن عيينة: جالسه سنة ثلاث وعشرين ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (١٨٩/٢)، «طبقات خليفة» (١٦٠)، «التاريخ الكبير» (١١٤/٦)، «تهذيب التهذيب» (٤٦١/٦).

(٢) أخرجه الطبري (٢٨٠/٦) برقم: (١٦٢٧٤)، وذكره ابن عطية (٥٤٨/٢)، وابن كثير (٣٢٣/٢).

(٣) ينظر: «المحور الوجيز» (٥٤٨/٢).

(٤) أخرجه أحمد (٣٣٥/٥)، والطبراني في «الكبير» (١٣١/٦) رقم: (٥٧٤٤)، والخطيب (٣٧٦/١١) من طريق مصعب بن ثابت، عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي به.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٠/٨) وقال: رواه أحمد والطبراني، وفيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات اهـ.

وذكره أيضاً في (٢٧٦/١٠) وقال: وإسناده جيد.

(٥) ينظر: «المحور الوجيز» (٥٤٩/٢).

(٦) أخرجه مسلم (٢٠٣١/٤) في البر والصلة، باب: الأرواح جنود مجتدة، (٢٦٣٨/١٥٩)، وأحمد (٢/٢٩٥، ٥٢٧)، والخطيب في «التاريخ» (٣٢٩/٣) (٣٥٢/٤) من طريق سهل بن أبي صالح، عن أبيه،

عن أبي هريرة به. وكذا أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٨).

وأخرجه أبو داود (٦٧٥/٢) في «الأدب» باب: من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٤)، وأحمد (٥٣٩/٢) من طريق جعفر بن يرقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة به.

وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٤٦٠/٦) برقم: (٣٣٦٥) بتحقيقنا من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

ويشهد له حديث عائشة، رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٦ - ٩٠٧)، وأبو يعلى (٤٣٨١)، =

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيُّنَ الْمُتَحَابُّونَ لَجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أَظْلَهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»^(١).

قال أبو عمر بن عبد البرّ في «التمهيد»: وروينا عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، أَتَذَرِي، أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: الْوَلَايَةُ فِي اللَّهِ: الْحُبُّ وَالْبُغْضُ فِيهِ»^(٢)، ورواه البراء بن عازب، عن النبي ﷺ أيضاً^(٣)، وعن عبد الله في قوله تعالى: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ»، قال: نزلت في المتحابين في الله^(٤) قال أبو عمر: وأما قوله: الْيَوْمَ أَظْلَهُمْ فِي ظِلِّي، فإنه أراد - والله أعلم - في ظلّ عرشه، وقد يكون الظل كناية عن الرحمة؛ كما قال: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ» [المرسلات: ٤١]، يعني: بذلك مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالنَّعِيمِ. انتهى.

﴿يَتَأْتِيَ آلَ النَّبِيِّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى

والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٧٤) عن يحيى بن سعيد، عن عمرة بنت عبد الرحمن، عن عائشة مرفوعاً به.

وعلقه البخاري (٤٢٦/٦) في أحاديث الأنبياء، باب: الأرواح جنود مجتدة (٣٣٣٦). بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩١/٨): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

ويشهد له حديث علي رواه أبو نعيم في «الحلية» (١١٠/٤ - ١١١) عن الأعمش، عن أبي وائل عنه وقال: غريب من حديث الأعمش لم نكتبه إلا بهذا الإسناد.

وأخرجه العقيلي (١٣٥/١) من طريق سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه عنه به.

وقال العقيلي: هذا الحديث يعرف من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي موقوف، كما يشهد له حديث سلمان. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٩٨/١)، وينظر: «مجمع الزوائد»

(٩١/٨) وحديث ابن عباس رواه السهمي في «تاريخ جرجان» ص: (٢٤٤)، وحديث ابن مسعود رواه الطبراني في «الكبير» (٢٨٣/١٠) برقم: (١٠٥٥٧) وفيه عن عبد الله بن مسعود أو غيره.

(١) أخرجه مالك (٩٥٢/٢) كتاب «الشعر» باب: ما جاء في المتحابين في الله، حديث (١٣)، ومسلم (٤/١٩٨٨) كتاب «البر والصلة» باب: فضل الحب في الله، حديث (٢٥٦٦/٣٧)، وأحمد (٢٣٧/٢)، (٥٣٥)، والطيالسي (٢٣٣٥)، والدارمي (٣١٢/٢)، وابن حبان (٣٣٤/٢) رقم: (٥٧٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطيالسي (٣٧٨)، والحاكم (٤٨٠/٢) من طريق الصعق بن حزن، عن عقيل الجعد، عن أبي إسحاق، عن سويد بن غفلة، عن ابن مسعود به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

وتعقبه الذهبي فقال: ليس بصحيح، فإن الصعق وإن كان موثقاً فإن شيخه منكر الحديث. قاله البخاري.

(٣) أخرجه أحمد (٢٨٦/٤) من حديث البراء بن عازب.

(٤) تقدم.

الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال الثَّقَافِي: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِالْبَيْدَاءِ^(١) فِي غَزْوَةِ بَذْر، وَحُكِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ.

وقيل: إِنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ أَسْلَمَ عُمَرُ وَكَمَلَ الْمُسْلِمُونَ أَرْبَعِينَ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ، وَأَنْسَ؛ فَهِيَ عَلَى هَذَا مَكْنِيَّةٌ: وَ«حَسْبُكَ»؛ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَشَرْعُكَ: بِمَعْنَى كَافِيكَ وَيَكْفِيكَ، وَالْمَحْسَبُ: الْكَافِي، قَالَتْ فِرْقَةٌ: مَعْنَى الْآيَةِ: يَكْفِيكَ اللَّهُ، وَيَكْفِيكَ مَنْ اتَّبَعَكَ، فـ «مَنْ» فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَى الْآيَةِ: حَسْبُكَ اللَّهُ وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فـ «مَنْ» فِي مَوْضِعِ نَضْبٍ عَطْفًا عَلَى مَوْضِعِ الْكَافِ؛ لِأَنَّ مَوْضِعَهَا نَضْبٌ عَلَى الْمَعْنَى بِـ «يَكْفِيكَ» الَّتِي سَدَّتْ «حَسْبُكَ» مَسَدَهَا.

قَالَ * ص * : وَرَدَ بِأَنَّ الْكَافَ لَيْسَ مَوْضِعَهَا نَضْبٌ لِأَنَّ إِضَافَةَ حَسْبٍ إِلَيْهَا إِضَافَةٌ صَحِيحَةٌ انْتَهَى.

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾ الْآيَةُ: ﴿حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أَيُّ: حُثُّهُمْ وَحُضُّهُمْ، وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، لَفْظٌ خَبَرٌ، مَضْمُونُهُ وَعَدٌّ بِشَرْطٍ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنْ يَكُنْ/ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ﴾، بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ: إِنْ يَضْبِرْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ يَغْلِبُوا، وَفِي ضَمْنِهِ الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ، قَالَ الْفَخْرُ: وَحَسَنَ هَذَا التَّكْلِيفُ لَمَّا كَانَ مَسْبُوقًا بِقَوْلِهِ: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فَلَمَّا وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَفَايَةِ وَالنَّصْرِ، كَانَ هَذَا التَّكْلِيفُ سَهْلًا؛ لِأَنَّ مَنْ تَكَلَّفَ اللَّهُ بِنَصْرِهِ، فَإِنْ أَهْلَ الْعَالَمِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى إِدَاءَتِهِ انْتَهَى، وَتَظَاهَرَتِ الرِّوَايَاتُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ: بِأَنَّ ثَبُوتَ الْوَاحِدِ لِلْعَشْرَةِ، كَانَ فَرْضًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ لَمَّا شَقِيَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، حَطَّ اللَّهُ

(١) الْبَيْدَاءُ: اسْمُ الْأَرْضِ بَيْنَ مَكَّةَ، وَالْمَدِينَةِ، وَهِيَ إِلَى مَكَّةَ أَقْرَبُ، تُعَدُّ مِنَ الشَّرَفِ أَمَامَ ذِي الْحُلَيْفَةِ. ينظر: «مراصد الاطلاع» (١/٢٣٩).

الْقَرْضَ إِلَى ثُبُوتِ الْوَاحِدِ لِلْاِثْنَيْنِ، وَهَذَا هُوَ نَسْخُ الْأَثْقَلِ بِالْأَخْفِ^(١)، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾: مَعْنَاهُ: لَا يَفْهَمُونَ مَرَاثِدَهُمْ، وَلَا مَقْصِدَ قِتَالِهِمْ، لَا يَرِيدُونَ بِهِ إِلَّا الْغَلْبَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ، فَهَمْ يَخَافُونَ الْمَوْتَ؛ إِذَا صَبَرَ لَهُمْ، وَمَنْ يِقَاتِلُ؛ لِيُغْلِبَ، أَوْ يُسْتَشْهَدَ، فَيَصِيرَ إِلَى الْجَنَّةِ، أَتَبَّتْ قَدَمًا لَا مَحَالَةَ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: لَفْظُ خَبَرٍ فِي ضَمْنِهِ وَغَدٌّ وَحُضٌّ عَلَى الصَّبْرِ، وَيُلْحِظُ مِنْهُ وَعِيدٌ لِمَنْ لَمْ يَصْبِرْ؛ بِأَنَّهُ يُغْلَبُ.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتَخَرَّجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧) ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨) ﴿كُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَفِيعٌ ذَرِيمٌ﴾ (٢٩)

وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى...﴾ الآية: قال * ع^(٢): * هذه آية تتضمن عندي معاني من الله عز وجل لأصحاب نبيه عليه السلام والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي أسرى قبل الإثخان؛ ولذلك استمر الخطاب لهم بـ ﴿تُرِيدُونَ﴾ والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قطع عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مبائري الحرب، وجاء ذكر النبي ﷺ في الآية؛ مشيراً إلى دخوله عليه السلام في العتب؛ حين لم يثنه عن ذلك حين رآه من العريش، وأتكره سعد بن معاذ، ولكنه ﷺ شغلته بغت الأمر، وظهور النصر؛ عن النهي ومَرَّ كثير من المفسرين؛ على أن هذا التوبيخ إنما كان بسبب إشارة من أشار على النبي ﷺ؛ بأخذ الفدية، حين استشارهم في شأن الأسرى، والتأويل الأول أحسن، والإثخان: هو المبالغة في القتل والجراحة، ثم أمر مخاطبة أصحاب النبي ﷺ، فقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، أي: مالها الذي يعز ويغرض، والمراد: ما أخذ من الأسرى من الأموال، ﴿والله يريد الآخرة﴾، أي: عمل الآخرة، وذكر الطبري وغيره؛ أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إِنْ

(١) اتفق الأصوليون على جواز نسخ الحكم بأخف أو مساو. واختلفوا في جوازه بأثقل. فالجمهور ذهب إلى جوازه عقلاً ووقوعه شرعاً ومنع ذلك طائفة منهم الإمام الشافعي رضي الله عنه مفترقين إلى فرقتين. فرقة منعت جوازه عقلاً ووقوعه شرعاً، وفرقة منعت وقوعه شرعاً فقط.

ينظر: «المعتمد» (٤١٦/١) «المحصول» (٧٦٦) (٤٨٠/٣) «المستصفى» (١٢٠/١) «التبصرة» (٢٥٨)، «شرح الكوكب» (٥٥٠/٣) «العدة» (٧٨٥/٣) «الإحكام للأمدى» (١٢٦/٣) «ميزان الأصول» (١٠٠/٢) «كشف الأسرار» (١٨٧/٣) «التلويح» (٣٦/٢) «فتح الغفار» (١٣٤/٢) «إرشاد الفحول» (١٨٨) «الإيهاج» (٢٣٨/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٥١/٢).

شِئْتُمْ، أَخَذْتُمْ فِدَاءَ الْأَسْرَى، وَيُقْتَلُ مِنْكُمْ فِي الْحَرْبِ سَبْعُونَ عَلَى عَدَدِهِمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ، قُتِلُوا وَسَلِمْتُمْ، فَقَالُوا: نَأْخُذُ الْمَالَ، وَيُسْتَشْهَدُ مِنَّا^(١)، وذكر عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ^(٢) بسنده؛ أَنَّ جَبْرِيلَ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِتَخْيِيرِ النَّاسِ هَكَذَا؛ وَعَلَى هَذَا، فَالْأَمْرُ فِي هَذَا التَّخْيِيرِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ إِعْلَامٌ بَغِيْب، وَإِذَا خُيِّرُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ يَقَعُ التَّوْبِيخُ بَعْدَ بَقُولِهِ تَعَالَى: ﴿لِمَسْكَمٍ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابَ عَظِيمٍ﴾؛ فَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا قَدَّمْنَاهُ، أَنَّ الْعَتَبَ لَهُمْ إِنَّمَا هُوَ عَلَى اسْتِبْقَاءِ الرِّجَالِ وَقَتِ الْهَزِيمَةِ؛ رَغْبَةً فِي اخْتِذِ الْمَالِ، وَهُوَ الَّذِي أَقُولُ بِهِ، وَذَكَرَ الْمَفْسُورُونَ أَيْضاً فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَحْلِيلَ/ الْمَغَانِمِ، وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ؛ لِأَن تَحْلِيلَ الْمَغَانِمِ قَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَ بَذْرِ فِي السَّرِيَّةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا ابْنُ الْحَضَرَمِيِّ، وَإِنَّمَا الْمُبْتَدِعُ فِي بَذْرِ اسْتِبْقَاءِ الرِّجَالِ؛ لِأَجْلِ الْمَالِ، وَالَّذِي مِنَ اللَّهِ بِهِ فِيهَا: إِلْحَاقُ فِدْيَةِ الْكَافِرِ بِالْمَغَانِمِ الَّتِي تَقَدَّمَ تَحْلِيلُهَا، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ...﴾ الْآيَةُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَالْحَسَنُ، وَغَيْرُهُمْ: الْكِتَابُ: هُوَ مَا كَانَ اللَّهُ قَضَاءً فِي الْأَزَلِ مِنْ إِحْلَالِ الْغَنَائِمِ وَالْفِدَاءِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: الْكِتَابُ السَّابِقُ: مَغْفَرَةُ اللَّهِ لِأَهْلِ بَدْرٍ، وَقِيلَ: الْكِتَابُ السَّابِقُ: هُوَ أَلَّا يَعْذِبَ اللَّهُ أَحَدًا بِذَنْبٍ إِلَّا بَعْدَ التَّهْنِيءِ عَنْهُ، حَكَاهُ^(٣) الطَّبْرِيُّ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِ الْقُرْآنِ»: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ مُمَكَّنَةٌ، لَكِنْ أَقْوَاهَا مَا سَبَقَ مِنْ إِحْلَالِ الْغَنِيمَةِ، وَقَدْ كَانُوا غَنِمُوا أَوَّلَ غَنِيمَةٍ فِي الْإِسْلَامِ حِينَ أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ^(٤). انْتَهَى، وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْ نَزَلَ فِي هَذَا الْأَمْرِ عَذَابٌ، لَنَجَا مِنْهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»^(٥)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ»؛ وَذَلِكَ أَنَّ رَأْيَهُمَا كَانَ

(١) ذكره الطبري في «تفسيره» (٦/٢٩٢).

(٢) عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ بْنُ نَصْرِ الْكُشِّي أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَافِظُ مُؤَلِّفُ «الْمُسْنَدِ وَالتَّفْسِيرِ» عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَاصِمٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ بَشْرِ الْعَبْدِيِّ، وَعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَالنَّضَرِ بْنِ شُمَيْلٍ، وَخَلَاتِقٍ، وَعَنْهُ مُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَخَلَقَ. قَالَ الْبُخَارِيُّ وَقَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ: أَبَانَا عُثْمَانُ بْنُ عَمْرِو بْنِ فُذَكَرٍ حَدِيثًا، قِيلَ: عَبْدُ الْحَمِيدِ هُوَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، قُلْتُ: رَوَى الْحَدِيثَ مُسْلِمٌ، عَنْ عَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ.

قَالَ ابْنُ حَبَانَ: مَاتَ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ. قَالَ فِي «الْخُلَاصَةِ» (٢/١٨٨).

(٣) يَنْظُرُ: «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (٦/٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠).

(٤) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ الْأَسَدِيُّ بْنُ رِيَابٍ - بَرَاءٌ تَحْتَانِيٌّ وَآخِرُهُ مُوَحَّدَةٌ - ابْنُ يَعْمَرَ الْأَسَدِيِّ: حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَحَدُ السَّابِقِينَ.

قَالَ ابْنُ حَبَانَ: لَهُ صَحْبَةٌ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَشَهِدَ بَدْرًا، وَدُفِنَ هُوَ وَحُمَزَةُ فِي قَبْرِ وَاحِدٍ، وَكَانَ لَهُ يَوْمَ قَتْلِ نَيْفٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً. يَنْظُرُ: «الْإِصَابَةُ» (٤/٣١، ٣٣)، «أَسَدُ الْغَابَةِ» (٢٨٥٨) بِتَحْقِيقِنَا، «الْفَتَا» (٣/٢٣٧)، «صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ» (١/٣٨٥)، «حَلِيَةُ الْأَوْلِيَاءِ» (١/١٠٨ - ١٠٩).

(٥) ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الدَّرَرِ الْمَشْهُورِ» (٣/٢٠٣)، وَعَزَاهُ إِلَى ابْنِ الْمُنْذَرِ، وَأَبِي الشَّيْخِ، وَابْنِ مَرْدَوَيْهِ.

أَنْ تُقْتَلَ الْأَسْرَى، وقوله سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ...﴾ الآية: نصٌّ على إباحة المال الذي أُخِذَ من الأسرى، وإلحاق له بالغنيمة التي كان تقدّم تحليلها.

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، روي أنَّ الأسرى بَذَرِ أَعْلَمُوا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ أَنَّ لَهُمْ مَيْلًا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَنَّهُمْ إِنْ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، سَعَوْا فِي جَلْبِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ أَبُو عَبَّاسٍ: الْأَسْرَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: عَبَّاسٌ وَأَصْحَابُهُ^(١)، قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَمَّا بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَنَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَلَنُتَصَحَّنَ لَكَ عَلَى قَوْمِنَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ: إِنْ كَانَ هَذَا عَنْ جِدِّ مِنْكُمْ، وَعَلِمَ اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِكُمُ الْخَيْرَ وَالْإِسْلَامَ، فَإِنَّهُ سَيَجْبِرُ عَلَيْكُمْ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيتُمْ فَدِيَّةً، وَيَغْفِرَ لَكُمْ جَمِيعَ مَا أَجْتَرَمْتُمُوهُ، وَرَوَى أَنَّ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: فِي وَفِي أَصْحَابِي نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَقَالَ حِينَ أُعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَالِ الْبَحْرَيْنِ مَا قُدِّرَ أَنْ يَقُولَ: هَذَا خَيْرٌ مِمَّا أُخِذَ مِنِّي، وَأَنَا بَعْدُ أَرْجُو أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ^(٢) لِي، وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَوْدُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمْ تَنْزَلْ^(٣)، وَلِي الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَتَانِي خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنِّي، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَغْفِرَ لِي، وَقَوْلُهُ: ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: بِالْكَفْرِ، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أَي: بِأَنْ جَعَلَهُمْ أَسْرَى، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فِيمَا يَظُنُّونَهُ، ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا يَجَازِيهِمْ بِهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَعَةٍ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِوا عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَنَنْزِلَنَّ بِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) أخرجه الطبري (٢٩٢/٦) برقم: (١٦٣٤٠)، وذكره ابن عطية (٥٥٤/٢)، والبغوي (٢٦٣/٢) ولم يعزه لأحد، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٩/٣)، وزاد نسبه لأبي نعيم في «الدلائل».

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩٢/٦) برقم: (١٦٣٣٨) نحوه، وذكره ابن عطية (٥٥٥/٢)، والبغوي (٢٦٣/٢) نحوه، والسيوطي (٣٧٠/٣) بنحوه، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، وابن عساكر.

(٣) ذكره ابن عطية (٥٥٥/٢).

والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴿١﴾، مَقْصِدُ هذه الآية وما بعدها: تبيينُ منازل المهاجرين والأنصار، والمؤمنين الذين لم يُهاجِرُوا، وذكر المهاجرين بَعْدَ الحديبية، فَقَدْ أَوَّلًا ذَكَرَ المهاجرين، وَهُم أصل الإسلام، وتَأَمَّلْ تقديمَ عَمَرَ لَهُم في الاستشارة، وَهَاجَرَ: معناه/ : هَجَرَ أَهْلَهُ وقربته، وَهَجَرُوهُ، ﴿والذين آوُوا ونصروا﴾: هم الأنصار، فَحَكَمَ سبْحَانَهُ على هَاتَيْنِ الطائفتين؛ بَأَن بَغَضَهُم أولياءُ بَغْضٍ، فقال كثيرٌ من المفسرين: هذه الموالاته: هي المؤازرة، والمعانة، وأتصال الأيدي، وعليه قَسَّرَ الطبريُّ الآية، وهذا الذي قالوه لازم من دلالة لفظ الآية، وقال ابن عباس وغيره: هذه الموالاته هي في الموارث^(١)؛ وذلك أَن النبي ﷺ آخَى بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجري إذا مات، ولم يكن له بالمدينة وليٌّ مهاجريٌّ، ورثه أخوه الأنصاريُّ، وكان المسلم الذي لم يُهاجِرْ لا ولايةَ بينه، وَبَيَّنَ قَرِيبَهُ المهاجريُّ، ولا يرثه، ثم نُسِخَ ذلك بقوله سبْحَانَهُ: ﴿وأولوا الأرحام...﴾ الآية [الأنفال: ٧٥]؛ وعلى التأويلين، ففي الآية حُضٌّ على الهجرة، قال أبو عُبَيْدَةَ: الولاية بالكسر - من وَلِيْتُ الْأَمْرَ إِلَيْهِ، فهي في السلطان، وبِالْفَتْحِ هي من المَوْلَى؛ يقال: مَوْلَى بَيَّنَّ الْوَلَايَةَ - بفتح الواو ..

وقوله سبْحَانَهُ: ﴿وإن استنصروكم﴾، يعني: إن استدعى هؤلاء - المؤمنون الذين لم يُهاجِرُوا نَصْرَكُمْ - ﴿فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾؛ فلا تنصروهم عليهم؛ لَأَنَّ ذلك عَذْرٌ ونَفْضٌ للميثاق.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّمْ يَغْفِرَ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

وقوله سبْحَانَهُ: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾؛ وذلك يجمع الموارثة والمعانة والنصرة، وهذه العبارة تحريض وإقامة لنفوس المؤمنين؛ كما تقول لمن تريد تحريضه: عَدُوُّكَ مُجْتَهِدٌ أَي: فَأَجْتَهِدْ أَنْتَ، وحكى الطبريُّ في تفسير هذه الآية^(٢)، عن

(١) أخرجه الطبري (٢٩٤/٦) برقم: (١٦٣٤٥)، وابن عطية (٥٥٥/٢)، والبغوي في «تفسيره» (٢/٤٦٤)، وابن كثير (٣٢٨/٢) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٧١/٣) نحوه، وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٩٧/٦).

قتادة؛ أنه قال: أبى الله أن يقبل إيماناً من آمن ولم يُهاجر، وذلك في صدر الإسلام، وفيهم قال النبي ﷺ «أنا بريء من مسلم أقام بين المشركين لا تترأى نارهما»^(١) الحديث على اختلاف ألفاظه، وقول قتادة، إنما هو فيمن كان يُقيم متريصاً يقول: من غلب، كنت معه؛ وكذلك ذكر في كتاب^(٢) «الطبري»، وغيره، والضمير في قوله: «إلا تفعلوه»، قيل: هو عائذ على المؤازرة والمعاونة، ويحتمل على الميثاق المذكور، ويحتمل على النضر للمسلمين المستنصرين، ويحتمل على الموارثة والتزامها، ويجوز أن يعود مجملاً على جميع ما ذكر، والفتنة: المحنة بالحرب وما أتجر معها؛ من الغارات، والجلء، والأسر، والفساد الكبير: ظهور الشرك.

وقوله سبحانه: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً﴾، تضمنت الآية تخصيص المهاجرين والأنصار، وتشريفهم بهذا الوصف العظيم.

* ت * : وهي مع ذلك عند التأمل يلوح منها تأويل قتادة المتقدم، فتأمله، والرزق الكريم: هو طعام الجنة؛ كذا ذكر الطبري وغيره^(٣).

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٤): وإذا كان الإيمان في القلب حقاً، ظهر ذلك في

(١) أخرجه أبو داود (٥٢/٢) كتاب «الجهاد» باب: النهي عن قتل من اعتصم بالسجود، حديث (٢٦٤٥)، والترمذي (١٣٢/٤ - ١٣٣) كتاب «السير» باب: ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، حديث (١٦٠٤)، والطبراني في «الكبير» (٣٠٣/٢) رقم: (٢٢٦٤)، والبيهقي (١٣١/٨) كتاب «القسامة» باب: ما جاء في وجوب الكفارة في أنواع قتل الخطأ، من طريق أبي معاوية، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير به. وقد أعله أبو داود بالإرسال فقال: رواه هشيم ومعر وخالد الواسطي وجماعة لم يذكروا جريراً.

وقد أخرجه مرسلاً الترمذي (١٣٣/٤) كتاب «السير» باب: ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، حديث (١٦٠٥)، والنسائي (٣٦/٨) كتاب «القسامة» باب: القود بغير حديدة، والبيهقي (١٣٠/٨) كتاب «القسامة»، كلهم من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم مرسلاً. وقال الترمذي: وهذا أصح وأكثر أصحاب إسماعيل، عن قيس بن أبي حازم أن رسول الله ﷺ بعث سرية ولم يذكروا فيه عن جرير، ورواه حماد بن سلمة، عن الحجاج بن أرطاة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس عن جرير مثل حديث أبي معاوية. قال: وسمعت محمداً يقول: الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ اهـ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٩٨/٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٩٩/٦).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٨٨٩/٢).

استقامة الأعمال؛ بأمثال الأمر وأجتناب المنهي عنه، وإذا كان مجازاً، قصرت الجوارح في الأعمال؛ إذ لم تبلغ قوته إليها. انتهى.

﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم﴾: قوله: «من بعد»، يريد به من بعد الحذيبية؛ وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة قبل ذلك، وكان يقال لها الهجرة الثانية، ﴿وجاهدوا معكم﴾: لفظ يقتضي / أنهم تبع لا صدر. ب ٢١٩

وقوله سبحانه: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾، قال من تقدم ذكره: هذه في الموارث، وهي ناسخة للحكم المتقدم ذكره.

وقالت فرقة، منها مالك: إن الآية ليست في الموارث، وهذا قرار من توريث الخال والعمّة ونحو ذلك.

وقالت فرقة: هي في الموارث، إلا أنها نسخت بآية الموارث المبيّنة، وقوله: ﴿في كتاب الله﴾: معناه: القرآن، أي: ذلك مثبت في كتاب الله.

وقيل: في اللّوح المحفوظ.

كَمَلَ تَفْسِيرُ السُّورَةِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ
تسليماً.

تفسير سورة التوبة

وهي مدنية إلا آيتين

قوله سبحانه: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم...﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها؛ وتسمى «سورة التوبة»؛ قاله خُذَيْفَةُ وغيره، وتسمى «الْفَاضِحَةَ»؛ قاله ابن عباس، وقال: ما زال ينزل: وَمِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ، وهي من آخر ما أُنْزِلَ على النبي ﷺ. قال علي رضي الله عنه لابن عباس: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أَمَانٌ وَبَشَارَةٌ، وَبَرَاءَةٌ نَزَلَتْ بِالسَّيْفِ وَتَبْدَأُ الْعُهُودَ؛ فَلِذَلِكَ لَمْ تُبْدَأْ بِالْأَمَانِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ عِزٌّ مُّعْزَى اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾، التقدير: هذه الآيات براءة، ويصح أن يرتفع «براءة»؛ بالابتداء، والخَبَرُ في قوله: ﴿إلى الذين﴾. و«براءة» معناه: تَخَلُّصٌ وَتَبَرُّ من العهود التي يَبْنِكُمْ، وَيَبْنِ الْكَافَرُ الْبَادِئِينَ بِالتَّقْضِ. قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢): تقول: بَرَأْتُ مِنَ الشَّيْءِ أَبْرَأُ بَرَاءَةً، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ؛ إِذَا أُنْزِلَتْ عَنْ نَفْسِكَ، وَقَطَعَتْ سَبَبَ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ. انتهى.

ومعنى السياحة في الأرض: الدُّهَابُ فِيهَا مَسْرَحِينَ آمِنِينَ؛ كَالسَّيْحِ مِنَ الْمَاءِ، وَهُوَ الْجَارِي الْمُنْبَسِطُ؛ قَالَ الضُّحَّاكُ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: كَانَ مِنَ الْعَرَبِ مَنْ لَا عَهْدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ جَمَلَةً، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ، وَتَحَسَّسَ مِنْهُمْ تَقْضُ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ وَلَمْ يَنْقُضُوا، فَقَوْلُهُ: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هُوَ أَجَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ

(١) ذكره ابن عطية (٣/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٧٧)، وزاد نسبه إلى أبي الشيخ، وابن مردويه.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/٨٩٣).

لِمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ، وَتَحَسُّسٌ مِنْهُمْ نَفْضُهُ، وَأَوَّلُ هَذَا الْأَجَلِ يَوْمُ الْأَذَانِ، وَآخِرُهُ أَنْقِضَاءُ الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] حُكْمٌ مُبَايِنٌ لِلأَوَّلِ، حَكَمَ بِهِ فِي الْمُشْرِكِينَ الَّذِي لَا عَهْدَ لَهُمْ أَلَبَتَهُ، فَجَاءَ أَجَلُ تَأْمِينِهِمْ خَمْسِينَ يَوْمًا، أَوَّلُهَا يَوْمُ الْأَذَانِ، وَآخِرُهَا أَنْقِضَاءُ الْمُحَرَّمِ.

وقوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾، يريد به الذين لَهُمْ عَهْدٌ، وَلَمْ يَنْقُضُوا، وَلَا تُحَسُّسُ مِنْهُمْ نَفْضٌ، وَهَمَّ فِيهِمَا رُوِيَ بَنُو ضَمْرَةٍ مِنْ كِنَانَةَ، كَانَ بَقِيَ مِنْ عَهْدِهِمْ يَوْمُ الْأَذَانِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ.

وقوله عز وجل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنْكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾، أي: لَا تَفْلُتُونَ اللَّهَ، وَلَا تَعْجِزُونَهُ هَرَبًا.

﴿وَأَذَّنَ رَبُّكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَلَهُمْ خِيَرَةٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَشِيرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعَذَابُ آلِهِمْ﴾ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لَبَتَهُمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدِينِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

وقوله: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية: أي: إِيْلَامٌ، و﴿يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ قَالَ عُمَرُ وَغَيْرُهُ: هُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ^(١)، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَجَمَاعَةٌ: هُوَ يَوْمُ النَّحْرِ^(٢)، وَتَظَاهَرَتِ الرِّوَايَاتُ؛ أَنْ عَلِيًّا أَذَّنَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ يَوْمَ عَرَفَةَ إِثْرَ خُطْبَةِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَعْمَ النَّاسُ بِالْإِسْتِمَاعِ، فَتَتَبَعَهُمْ بِالْأَذَانِ بِهَا يَوْمَ النَّحْرِ^(٣)، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَعَثَ أَبُو بَكْرٍ مَنْ يَعِينُهُ فِي الْأَذَانِ بِهَا؛ كَأَبِي هُرَيْرَةَ^(٤) وَغَيْرِهِ، وَتَتَبَعُوا بِهَا أَيْضًا أَسْوَاقَ الْعَرَبِ، كَذِي الْمَجَازِ وَغَيْرِهِ؛ وَهَذَا هُوَ سَبَبُ الْخِلَافِ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ: عَرَفَةُ؛ حَيْثُ وَقَعَ أَوَّلُ الْأَذَانِ.

وَقَالَتْ أُخْرَى: هُوَ يَوْمُ النَّحْرِ؛ حَيْثُ وَقَعَ إِكْمَالُ الْأَذَانِ.

وَقَالَ سَفِيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: الْمُرَادُ بِالْيَوْمِ أَيَّامُ الْحَجِّ كُلُّهَا؛ كَمَا تَقُولُ: يَوْمُ صَفِينٍ، وَيَوْمُ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣١٠/٦) رَقْمًا: (١٦٤٠٠)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٣)، وَابْنُ قُيُومٍ (٢٨٦/٢) رَقْمًا: (٣).

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٠٤/٦) رَقْمًا: (١٦٣٧٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٣).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٠٥/٦ - ٣٠٦) بِرَقْمٍ: (١٦٣٨٣ - ١٦٣٨٤) نَحْوَهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٣).

الْجَمَلِ؛ ويتجه أن يوصف بـ «الأكبر»؛ على جهة المدح، لا بالإضافة إلى أصغر معين، بل يكون المعنى: الأكبر من سائر الأيام، فتأمل.

واختصار ما تحتاج إليه هذه الآية؛ على ما ذكر مجاهد وغيره من صورة تلك الحال: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَفْتَتَحَ مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانٍ، فَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا عَتَابَ بْنِ أُسَيْدٍ، وَقَضَى أَمْرَ حُنَيْنٍ وَالطَّائِفِ، وَأَنْصَرَفَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَقَامَ بِهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ مِنْ تَبُوكَ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ تِسْعٍ، فَأَرَادَ الْحَجَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِي أَنَّ الْمَشْرِكِينَ يَحْجُونَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ، وَيَطُوفُونَ عَرَاةً، فَقَالَ: لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى ذَلِكَ، فَأَمَرَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى الْحَجِّ بِالنَّاسِ، وَأَنْفَذَهُ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى نَاقَتِهِ الْعُضْبَاءِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤْذَنَ فِي النَّاسِ بِأَرْبَعِينَ آيَةً: صَدْرُ سُورَةِ «بَرَاءة»، وَقِيلَ: ثَلَاثِينَ، وَقِيلَ: عَشْرِينَ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: عَشْرَ آيَاتٍ، وَفِي بَعْضِهَا: تِسْعَ آيَاتٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤْذَنَ النَّاسَ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ، وَهِيَ: أَلَّا يَحْجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكًا، وَلَا يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرًا، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا، وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ عَهْدٌ، فَهُوَ إِلَى مَدَّتِهِ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ عَهْدٌ، فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ يَسِيحُ فِيهَا، فَإِذَا انْقَضَتْ، فَإِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ.

قال * ع^(١) * : وأقول: إنهم كانوا ينادون بهذا كله، فأربعة أشهر؛ للذين لهم عهدٌ وتُحَسِّنَ منهم نقضه، والإبقاء إلى المدة لمن لم يخبر منه نقض، وذكر الطبري أن العرب قالت يومئذ: نَحْنُ نَبْرَأُ مِنْ عَهْدِكَ، ثُمَّ لَامَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَالُوا: مَا تَضْنَعُونَ، وَقَدْ أَسْلَمْتُ قَرِيشٌ؟ فَاسْلَمُوا كُلُّهُمْ، وَلَمْ يَسِخْ أَحَدٌ.

قال * ع^(٢) * : وحيث دخل الناس في دين الله أفواجاً.

وقوله سبحانه: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي: ورسوله بريء منهم.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَبَيَّنَ﴾، أي: عن الكفر.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ﴾، هذا هو الاستثناء الذي تقدّم ذكره، وقرأ عكرمة وغيره: «يَنْقُضُوكُمْ»^(٣) - بالضاد المعجمة -، و«يظاهروا»: معناه: يعاونوا،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٧/٣).

والظهير: المَعِينُ.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: تنبيه على أَنَّ الوفاء بالعهد من التقوى.

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلٌّ مَرْصِدٌ لِّان تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقِ اللَّهَ مَأْمَنُهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾: ألا تسلاخ: خروج الشيء عن الشيء المتلبس به؛ كأنسلاخ الشاة عن الجلد، فشبه أنصرام الأشهر بذلك.

وقوله سبحانه: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ...﴾ الآية: قال ابن زَيْد: هذه الآية، وقوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤]: هما مُحْكَمَتَانِ؛ أي: ليست إحداهما بناسخة للأخرى.

قال * ع^(١): هذا هو الصواب.

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ معناه: الأسر.

وقوله: ﴿كُلٌّ مَرْصِدٌ﴾: معناه: مواضع الغرة؛ حيث يرصدون ونصب «كُلٌّ» على الظرف أو بإسقاط الخافض، التقدير: في كُلِّ مَرْصَدٍ.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَابُوا﴾، أي: عن الكُفْرِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾، أي: جَلَبَ منك عهداً ب ٢٢٠ وجواراً/ يأمن به، ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، يعني القرآن، والمعنى: يفهم أحكامه، قال الحسن: وهذه آية محكمة؛ وذلك سُنَّةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ الآية: قال ابن إسحاق: هي قبائل بني بَكْرٍ كانوا دخلوا وَفَّتَ الحديبية في العهد، فَأَمَرَ المسلمون بِاتِّمَامِ الْعَهْدِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ نَقَضَ مِنْهُمْ.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨/٣).

(٢) ذكره ابن عطية (٥/٣).

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضَوْنَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ أَشْرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَلِحُورَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ...﴾ الآية: في الكلام حذف، تقديره: كيف يكون لهم عهد ونحوه، وفي «كيف» هنا تأكيد للاستبعاد الذي في الأولى، و﴿لا يرقبوا﴾ معناه: لا يراعوا، ولا يحفظوا، وقرأ الجمهور^(١): «إلا»، وهو الله عز وجل؛ قاله مجاهد، وأبو مجليز، وهو اسمه بالسريانية^(٢)، وعُرب، ويجوز أن يراد به العهد، والعرب تقول للعهد والحلف والجوار ونحو هذه المعاني: «إلا»، والذمة أيضاً: بمعنى الحلف والجوار ونحوه.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتُمْ خَشِيتُهمُ فَاَللَّهُ أَحقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ...﴾ الآية، ويليق هنا ذكر شيء من حُكْم طعن الذمي في الدين، والمشهور من مذهب مالك: أنه إذا فعل شيئاً من ذلك؛ مثل تكذيب الشريعة، وسب النبي ﷺ قُتِلَ.

وقوله سبحانه: ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ﴾، أي: رؤوسهم وأعيانهم الذين يقودون الناس إليه، وأصوب ما يقال في هذه الآية: أنه لا يُعْنَى بها معين وإنما وَقَعَ الأمر بقتال أئمة الناكثين للعهد من الكفرة إلى يوم القيامة، واقتضت حال كفار العرب ومحاربي النبي ﷺ؛ أن تكون الإشارة إليهم أولاً، ثم كُلٌّ مَنْ دَفَعَ فِي صدر الشريعة إلى يوم القيامة فهو بمنزلتهم.

وقرأ الجمهور^(٣): «لَا أَيْمَانَ لَهُمْ» (جمع يمين)، أي: لا إيمان لهم يوقى بها وتبَرُّ، وهذا المعنى يشبه الآية، وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: «لَا إِيْمَانُ لَهُمْ»، وهذا يحتمل وجهين:

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠/٣).

(٢) ذكره ابن عطية (١٠/٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢/٣)، و«البحر المحيط» (١٧/٥).

أحدهما: لا تصديق لهم، قال أبو علي: وهذا غَيْرُ قَوِيٍّ؛ لأنه تكريرٌ، وذلك أنه وَصَفَ أئِمَّةَ الْكُفْرِ بأنهم لا إيمان لهم، والوجه في كَسْرِ الْأَلْفِ أَنَّهُ مُضَدَّرٌ مِنْ آمَنَتْهُ إِيْمَانًا؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] فالمعنى: أنهم لَا يُؤْمِنُونَ كما يُؤْمِنُ أَهْلُ الذِّمَّةِ الْكِتَابِيُّونَ؛ إذ المشركون ليس لهم إِلَّا الْإِسْلَامُ أَوِ السَّيْفُ، قال أبو حاتم: فَسَّرَ الْحَسَنُ قِراءَتَهُ: لَا إِسْلَامَ لَهُمْ.

قال * ع^(١) * : والتكرير الذي قرأ أبو علي منه مَتَّجَةً، لأنه بيانُ المهم الذي يوجب قَتْلَهُمْ.

وقوله عز وجل: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ...﴾ الآية «ألا»: عَرَضٌ وَتَحْضِيضٌ، قال الحسن: والمراد بـ ﴿إِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾: إِخْرَاجُهُ مِنَ الْمَدِينَةِ، وهذا مستقيمٌ؛ كغزوة أُحُدٍ وَالْأَحْزَابِ^(٢). وقال السدي: المرادُ مِنْ مَكَّةَ^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَِّمَرَّةٍ﴾، قيل: يراد أفعالهم بِمَكَّةَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وبالمؤمنين.

وقال مجاهد: يراد به ما بَدَأَتْ به قريشٌ مِنْ معونة بني بَكْرٍ حلفائِهِمْ، على خُرَاعَةٍ حلفاءِ النبي ﷺ، فكان هذا بَدْءُ النَقْضِ^(٤).

وقال الطبري^(٥): يعني فَعْلَهُمْ يَوْمَ بدر.

قال الفخر^(٦): قال ابن إسحاق والسُّدِّيُّ والكَلْبِيُّ: نَزَلَتْ هذه الآية في كَفَّارِ مَكَّةَ؛ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ بعد عَهْدِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَأَعَانُوا بني بَكْرٍ عَلَى خُرَاعَةٍ^(٧). انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾: أَسْتَفْهَامٌ على معنى التقرير والتوبيخ، ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: كَامِلِي الْإِيْمَانَ.

﴿فَقَتَلُوهُمْ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِصِرَاطٍ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢/٣).

(٢) ذكره ابن عطية (١٣/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (١٣/٣).

(٤) ذكره ابن عطية (١٣/٣).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٣١/٦).

(٦) ينظر: «تفسير الرازي» (١٨٧/١٥).

(٧) أخرجه الطبري (٣٣١/٦) برقم: (١٦٥٥٣)، وذكره ابن عطية (١٣/٣) بنحوه.

وَيَذْهَبَ غَيِّظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾، قررت الآيات قبلها أفعال الكفرة، ثم حضت على القتال مقترناً بذنوبهم؛ لتنبعث الحمية مع ذلك، ثم جزم الأمر بقتالهم في هذه الآية مقترناً بوعيد وكيد يتضمن النصر عليهم، والظفر بهم.

وقوله سبحانه: ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾، معناه: بالقتل والأسر، و﴿ويخزهم﴾، معناه: يذلهم على ذنوبهم، يقال: خزى الرجل يخزي خزيًا، إذا ذل من حيث وقع في عار، وأخزاه غيره، وخزي يخزي خزاية/ إذا استخى، وأما قوله تعالى: ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾، فيحتمل أن يريد جماعة المؤمنين، لأن كل ما يهد من الكفر هو شفاء من هم صدور المؤمنين، ويحتمل أن يريد تخصيص قوم من المؤمنين، وروي أنهم خزاعة؛ قاله مجاهد والسدي^(١)، ووجه تخصيصهم أنهم الذين نقض فيهم العهد، ونالهم الحرب، وكان يومئذ في خزاعة مؤمنون كثير؛ ويقتضي ذلك قول الخزاعي المستنصر بالنبي ﷺ: [الرجز]

ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِغْ يَدًا

وفي آخر الرجز:

وَقَتَّلُونَا رُكْعًا وَسُجْدًا^(٢)

- (١) أخرجه الطبري (٣٣٢/٦) برقم: (١٦٥٥٤ - ١٦٥٥٧ - ١٦٥٥٨ - ١٦٥٥٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٣)، والبخاري (٢٧٣/٢) رقم: (١٤)، وابن كثير (٣٣٩/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٩)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
- (٢) والآيات:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا	جَلَفَ أَبِيْنَا وَأَبِي الْأَثَلَدَا
كُنْتُ لَنَا أَبَا وَكُنَّا وَلَدَا	ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا وَلَمْ نَنْزِغْ يَدَا
فَانْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا عَبْدَا	وَاذْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا	أَبْيَضَ مِثْلَ الشَّمْسِ يَنْوُ صَعَدَا
إِنْ سِيمَ خَسَفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا	فِي قَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدَا
إِنْ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا	وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَذْعُرُ أَحَدَا	وَمَنْ أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا
هُمْ بَيِّتُونَا بِالْحَطِيمِ مُجَدَا	وَقَتَّلُونَا رُكْعًا وَسُجْدَا

ذكر السيوطي في هذه الآيات (٢١٥/٣) نقلاً عن ابن إسحاق والبيهقي في «الدلائل»، وانظر القرطبي (٤٣/٨)، و«روح المعاني» (٤٤/١٠)، و«البحر المحيط» (٧/٥)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٨١ - ٤٨٢)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٦١/٤)، وعزاه لأبي يعلى، وينظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (١١٧٥/٣).

وقرأ جمهور الناس: «يَتُوبُ»^(١) - بالرفع -، على القطع مما قبله، والمعنى أن الآية استأنفت الخبر بأنه قد يَتُوبُ على بعض هؤلاء الكفرة الذين أَمَرَ بقتالهم.

وعبارة * ص *: «يَتُوبُ»، الجمهورُ بالرفع على الاستئناف، وليس بداخل في جواب الأمر؛ لأن توبته سبحانه على مَنْ يشاء لَيْسَتْ جزاءً على قتال الكفار. انتهى.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨).

وقوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ...﴾ الآية: خطاب للمؤمنين؛ كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...﴾ الآية [آل عمران: ١٤٢] ومعنى الآية: أظننتم أن تتركوا دون اختبار وامتحان، والمراد بقوله: ﴿ولما يعلم الله﴾، أي: لم يعلم الله ذلك مؤجوداً؛ كما عَلِمَهُ أَوَّلَ بشرط الوجود، وليس يَخْدُثُ له علم تبارك وتعالى عن ذلك، و﴿ولِجَنَّةٍ﴾: معناه: بِطَانَةٍ وَدَّخِيلَةٍ، وهو مأخوذ من الوُلُوجِ، فالمعنى: أَمراً باطنياً مما يُنْكَرُ، وفي الآية طَعْنٌ على المنافقين الذين آتخذوا الولائج، قال الفخر^(٢): قال أبو عُبَيْدَةَ: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه، فهو وَلِيجَةٌ، وأصله من الوُلُوجِ، قال الواحدي يقال: هو وَلِيجَةٌ، للواحد والجمع. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ...﴾ الآية، لفظ هذه الآية الْخَبَرُ، وفي ضمنها أمر المؤمنين بِعِمَارَةِ المساجد، وروى أبو سعيد الْخُدْرِيُّ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَغْتَاذُ الْمَسَاجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ»^(٣).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤/٣)، و«البحر المحيط» (١٩/٥)، و«الدر المصون» (٤٥٢/٣).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٦/١٦).

(٣) أخرجه الترمذي (١٢/٥) كتاب «الإيمان» باب: ما جاء في حرمة الصلاة، حديث (٢٦١٧)، وفي (٥/٢٧٧) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة التوبة»، حديث (٣٠٩٣)، وابن ماجه (٢٦٣/١) كتاب «المساجد» باب: لزوم المساجد وانتظار الصلاة، حديث: (٨٠٢)، وأحمد (٦٨/٣)، والدارمي (١/٢٧٨) كتاب «الصلاة» باب: المحافظة على الصلوات، وابن خزيمة (٣٧٩/٢) رقم: (١٥٠٢)، وابن حبان (١٧٢١)، والحاكم (٣٣٢/٢)، والبيهقي (٦٦/٣) كتاب «الصلاة» باب: فضل المساجد، =

* ت * : زاد ابن الخطيب في روايته: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَغُمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. انتهى من ترجمة محمد بن عبد الله، وفي الحديث عنه ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ ضَمِنَ لِمَنْ كَانَتْ الْمَسَاجِدُ بَيْنَهُ الْأَمْنُ، وَالْأَمَانُ، وَالْجَوَازُ عَلَى الصَّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» خَرَّجَهُ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْبَغَوِيُّ فِي «الْمُسْنَدِ الْمُتَّخَبِ» لَهُ، وَرَوَى الْبَغَوِيُّ أَيْضاً فِي هَذَا «الْمُسْنَدِ»، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ قَالَ: «إِذَا أَوْطَنَ الرَّجُلُ الْمَسَاجِدَ بِالصَّلَاةِ، وَالذِّكْرِ، تَبَشَّشَ اللَّهُ لَهُ كَمَا يَتَبَشَّشُ أَهْلُ الْغَائِبِ لِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ». انتهى من «الكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ»، قيل: ومعنى «يَتَبَشَّشُ»: أي يفرح به.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾، يريد: خشية التعظيم والعبادة، وهذه مرتبة العَدْل من الناس، ولا محالة أَنَّ الإنسان يخشى غيره، ويخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ لِقَارِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَهْدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَيْسَمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ...﴾ الآية: ﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾: كَانَتْ فِي بَنِي هَاشِمٍ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ يَتَوَلَّاهَا، قَالَ الْحَسَنُ: وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَ الْعَبَّاسُ: مَا أَرَانِي إِلَّا أَتَرَكُ السَّقَايَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَقِيمُوا عَلَيْهَا فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ»^(١) «وعِمَارَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»: قِيلَ: هِيَ حِفْظُهُ مِمَّنْ يَظْلِمُ فِيهِ، أَوْ يَقُولُ هُجْرًا، وَكَانَ ذَلِكَ إِلَى الْعَبَّاسِ، وَقِيلَ: هِيَ السَّدَانَةُ^(٢) وَخِدْمَةُ الْبَيْتِ خَاصَّةً، وَكَانَ ذَلِكَ فِي بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وَكَانَ يَتَوَلَّاهَا عِثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ، وَابْنُ عَمِّهِ شَيْبَةَ، وَأَقْرَءَهَا النَّبِيُّ ﷺ لهُمَا ثَانِي يَوْمَ الْفَتْحِ، وَقَالَ: «خُذَاهَا خَالِدَةً تَالِدَةً

وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٣٢٧/٨) كُلُّهُم مِّن طَرِيقِ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ، عَنِ دِرَاجٍ، عَنِ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنِ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ بِهِ.

وقال الترمذي: حديث غريب حسن. وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم والذهبي. وأخرجه أحمد (٧٦/٣)، وعبد بن حميد في «المتخب» ص: (٢٨٩) رقم: (٩٢٣)، عن الحسن بن موسى، ثنا ابن لهيعة عن دراج به.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٩١)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٩٦)، وعزاه لأبي الشيخ عن الحسن.

(٢) سيدانة الكعبة: خدمتها، وتولي أمرها، وفتح بابها وإغلاقه. ينظر: «النهاية» (٢/٣٥٥).

لَا يُتَازَعُكُمْوهَا إِلَّا ظَالِمٌ.

واختلف الناس في سبب نزول هذه الآية، فقال مجاهد: أمروا بالهجرة، فقال العباس: أنا أسقي الحاج، وقال عثمان بن طلحة: أنا حاجب الكعبة، وقال محمد بن كعب: إن العباس وعليًا وعثمان بن طلحة تفاخروا فنزلت الآية، وقيل غير هذا.

٢٢١ ب / وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ الآية: لما حكم سبحانه في الآية المتقدمة بأن الصنفين لا يستون، بين ذلك في هذه الآية الأخيرة، وأوضحه، فعُدَّ الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس، وحكم على أن أهل هذه الخصال أعظم درجة عند الله من جميع الخلق، ثم حكم لهم بالقوز برحمته ورضوانه، والقوز: بلوغ البغية، إما في نيل رغبة، أو نجاة منهلكة، وينظر إلى معنى هذه الآية الحديث: «دعوا لي أصحابي؛ فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(١)؛ ولأن أصحاب هذه الخصال على سيوفهم أنبى الإسلام، وتمهد الشرع.

وقوله سبحانه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾، هذا وغد كريم من رب رحيم، وفي الحديث الصحيح: «إِذَا اسْتَقَرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَكَيْفَ لَا نَرْضَى، يَا رَبَّنَا؟ فَيَقُولُ: إِنِّي سَأَعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ! رِضْوَانِي أَرْضَى عَلَيْكُمْ؛ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا...»^(٢) الحديث.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) قَدْ لَمْ يَكُنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ

(١) ورد ذلك من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس بن مالك: فأما حديث أبي سعيد، فرواه البخاري (٢٥١٧) في «فضائل الصحابة» باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٣)، ومسلم (١٩٦٧/٤) في «فضائل الصحابة» باب: تحريم سب الصحابة (٢٢٢/٢٥٤١)، وأبو داود (٦٢٦/٢) في «السنة» باب: في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ (٤٦٥٨)، والترمذي (٦٥٣/٥) في المناقب (٣٨٦١)، وأحمد (١١/٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٧٨/٢ - ٤٧٩) (٩٩٠ - ٩٩١)، والبيهقي (٢٠٩/١٠) والخطيب في «التاريخ» (١٤٤/٧) عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وأما حديث أبي هريرة، فرواه مسلم (٢٢١ - ٢٥٤٠)، وابن ماجه (٥٧/١) في «المقدمة» باب: فضل أهل بدر (١٦١) عن الأعمش، عن أبي صالح عنه مرفوعاً به. وأما حديث أنس فرواه أحمد (٢٦٦/٣).

(٢) تقدم تخريجه.

وَأَزْوَاجَكُمْ وَعَشِيرَتَكُمْ وَأَتَوَلَّ أَقْرَبْتُمُوهُمْ وَبَحْرَةً فَنَجَّوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحْبُوا
الكفر على الإيمان﴾، ظاهر هذه المخاطبة: أنها لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم
إلى يوم القيامة، وروث فرقة أنها نزلت في الحَضُّ على الهجرة، ورفض بلاد الكفر.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ...﴾
الآية: هذه الآية تقوي مذهب مَنْ رَأَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَالَّتِي قَبْلَهَا إِنَّمَا مَقْصُودُهُمَا الْحَضُّ عَلَى
الهجرة، وفي ضمن قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾: وعيدٌ بين.

وقوله: ﴿بَأْمْرِهِ﴾، قال الحسن: الإشارة إلى عذاب أو عقوبة من الله تعالى^(١).

وقال مجاهد: الإشارة إلى فتح مكة^(٢)، وذكر الأبناء في هذه الآية دون التي قبلها،
لما جلبت ذكرهم المحبة، والأبناء: صَدْرٌ في المحبة وليسوا كذلك، في أن تتبع آراؤهم؛
كما في الآية المتقدمة، واقترفتُموها: معناه: أَكْتَسَبْتُمُوهَا، وَمَسَاكِينُ: جَمْعُ مَسْكِينٍ - بفتح
الكاف:، مَفْعَلٌ مِنَ السُّكْنَى، وما كان من هذا معتلّ الفاء، فإنما يأتي على مَفْعَلٍ (بكسر
العين)؛ كموعدٍ وموطنٍ.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْهَتْكُمْ فَلَاحَ ثَغْنٍ
عَنْكُمْ سَيْنًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، هذه مخاطبة لجميع
المؤمنين يعدد الله تعالى نِعَمَهُ عليهم، والمواطنُ المُشارُ إِلَيْهَا بَدْرُ وَالْخُنْدَقِ وَالْتُّصِيرِ وَقَرْيَظَةَ
وَحَيِّيرَ وَغَيْرَهَا، وَحُنَيْنٌ وادٌّ بين مكة والطائف.

وقوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْهَتْكُمْ﴾، رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ حِينَ رَأَى جَمَلَتَهُ اثْنِي عَشَرَ

(١) ذكره ابن عطية (١٨/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٣٣٩/٦) برقم: (١٦٥٨٤)، وذكره ابن عطية (١٨/٣)، والبغوي (٢٧٧/٢)،
والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٠٣/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
وأبي الشيخ.

ألفاً: «لَنْ تُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ»^(١)، وروي أَنَّ رجلاً من أصحابه قالها فأراد الله تعالى إظهار العجز؛ فظهر حين قرأ الناس.

* ت * : العَجَبُ جائزٌ في حقِّ غير النبي ﷺ، وهو معصومٌ منه ﷺ، والصوابُ في فهم الحديث، أَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ الإِخْبَارِ، لَا عَلَى وَجْهِ العُجْبِ؛ وعلى هذا فَهْمُهُ ابْنُ رُشْدٍ وغيره، وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا حُرِّمَ الْفِرَارُ، وَإِنْ زَادَ عَدَدُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الضَّعْفِ؛ وَعَلَيْهِ عَوَّلَ فِي الْفَتْوَى، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، معناه: يَرْحُبُهَا؛ كَأَنَّهُ قَالَ: عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهَا رَحْبَةً وَاسِعَةً، لَشِدَّةِ الْحَالِ وَصُعُوبَتِهَا؛ فـ «مَا»: مصدرية.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ وَلِيْتُم مَدْبِرِينَ﴾، أي: فراراً عن النبي ﷺ وأختصاراً هذه القصة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ، وَكَانَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأَنْضَافَ إِلَيْهِمْ أَلْفَانِ مِنَ الطُّلُقَاءِ، فَصَارَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، سَمِعَ بِذَلِكَ كُفَّارُ الْعَرَبِ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَجَمَعَتْ لَهُ هَوَازُنُ وَأَلْفَافُهَا، وَعَلَيْهِمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيُّ، وَثَقِيفٌ، وَعَلَيْهِمْ عَبْدُ يَالِيلَ بْنِ عَمْرٍو/ وَأَنْضَافَ إِلَيْهِمْ أَخْلَاطٌ مِنَ النَّاسِ حَتَّى كَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَجْتَمَعُوا بِحُنَيْنٍ، فَلَمَّا تَصَافَّ النَّاسُ، حَمَلَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مَحَافِي الْوَادِي، وَأَنْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ قَتَادَةُ: وَكَانَ يُقَالُ: إِنْ الطُّلُقَاءُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَرُّوا، وَقَصَدُوا إِلْقَاءَ الْهَزِيمَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ^(٢)، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ قَدْ اكْتَنَفَهُ الْعَبَّاسُ عُمُهُ، وَابْنُ عُمَةَ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَيْمَنُ بْنُ أُمِّ أَيْمَنَ، وَثُمَّ قَتَلَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَالنَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

فلما رأى نبيُّ الله ﷺ شِدَّةَ الْحَالِ، نَزَلَ عَنْ بَغْلَتِهِ إِلَى الْأَرْضِ؛ قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ^(٣)، وَاسْتَنْصَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تَرَابٍ وَحَصَى، فَرَمَى بِهَا فِي وَجْهِ الْكُفَّارِ، وَقَالَ: «شَهِتَ الْوُجُوهَ»، وَنَادَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَنْصَارِ، وَأَمَرَ الْعَبَّاسَ أَنْ يَنَادِيَ: «أَيْنَ أَصْحَابُ الشَّجَرَةِ؟ أَيْنَ أَصْحَابُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؟» فَرَجَعَ النَّاسُ عَنَّا وَاحِداً لِلْحَرْبِ، وَتَصَافَحُوا بِالسُّيُوفِ وَالطُّغْنِ وَالضَّرْبِ، وَهَنَّاكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الآنَ حِمِي الْوَطِيسُ»^(٤)

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٠٤/٣)، وعزاه للبيهقي في «دلائل النبوة».

(٢) أخرجه الطبري (٣٤٠/٦) برقم: (١٦٥٨٨) نحوه، وذكره ابن عطية (١٩/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٣٤٣/٦) برقم: (١٦٥٩٥) وذكره ابن عطية (١٩/٣).

(٤) تقدم في: سورة الأنفال.

وهزم الله المشركين، وأغلى كلمة الإسلام إلى يوم الدين، قال يغلى بن عطاء: فحدثني أبناء المنهزمين عن آبائهم، قالوا: لم يبق منا أحد إلا دخل عينيه من ذلك التراب واستيعاب هذه القصة في كتب «السيرة».

﴿مُذْبِرِينَ﴾: نصب على الحال المؤكدة؛ كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١]، والمؤكد هي التي يدل ما قبلها عليها كدلالة التولي على الإدبار.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ...﴾ الآية: السكينة: النضر الذي سَكَتَ إليه ومعه النفوس، والجنود: الملائكة، والرغب؛ قال أبو حازم يزيد بن عامر: كان في أجوافنا مثل ضربة الحجر في الطست من الرغب، ﴿وعذب الذين كفروا﴾، أي: بالقتل والأسر، وروى أبو داود، عن سهل بن الحنظلية^(١) أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فأطنبوا السير حتى كان عشيّة، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس، فقال: يا رسول الله، إني أنطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعيمهم، وشياهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسّم رسول الله ﷺ، وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً، إن شاء الله...» الحديث. انتهى^(٢)، فكانوا كذلك غنيمة بحمد الله، كما أخبر ﷺ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨) قَنِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

(١) هو: سهل بن الربيع بن عمرو بن عدي بن زيد، الأوسي، الأنصاري.

قال ابن الأثير في «الأسد»: كان ممن بايع تحت الشجرة، وكان فاضلاً معتزلاً عن الناس، كثير الصلاة والذكر، كان لا يزال يصلي مَهْمَا هو في المسجد، فإذا انصرف لا يزال ذاكراً، روى عن النبي ﷺ، وروى عنه أبو كيشة.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢/٤٦٩)، «الإصابة» (٣/١٣٨)، «النفقات» (٣/١٧٠)، «نفحة الصديان» (١٩٢)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/٢٤٣)، «الاستيعاب» (٢/٦٦٢)، «بقي بن مخلد» (٣٩١)، «تقريب التهذيب» (١/٣٣٦)، «تهذيب التهذيب» (٤/٢٥١)، «تهذيب الكمال» (١/٥٥٤)، «الجرح والتعديل» (٤/٨٤١)، «التاريخ الكبير» (٤/٩٨)، «الطبقات الكبرى» (٨/٣٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/١٢ - ١٣) كتاب «الجهاد» باب: في فضل الحرس في سبيل الله عز وجل، حديث (٢٥٠١)، والحاكم (٢/٨٣ - ٨٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/١٢٥ - ١٢٦)، والطبراني في «الكبير» (٦/٩٦)، رقم: (٥٦١٩) من حديث سهل بن الحنظلية.

وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، قال ابن عباس وغيره: معنى الشُّرْك هو الذي نَجَسهم؛ كنجاسة الخمر^(١)، ونَصَّ الله سبحانه في هذه الآية على المشركين، وعلى المسجِد الحرام، فقامَ مالكٌ رحمه الله وغيره جميع الكُفَّار من أهل الكتاب وغيرهم؛ على المشركين، وقَامَ سائر المساجِد على المسجِد الحرام، وَمَنَعَ مِنْ دُخُولِ الْجَمِيعِ فِي جَمِيعِ الْمَسَاجِدِ، وَقُوَّةُ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ يقتضي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ بِمَنَعِهِمْ. وقوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾، يريد: بعد عامٍ تَسْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَهُوَ عَامُ حِجِّ أَبِي بَكْرٍ بِالنَّاسِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً﴾، أي: فقراً، ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وكان المسلمون، لَمَّا مَنَعَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْمَوْسِمِ، وَهُمْ كَانُوا يَجْلِبُونَ الْأَطْعِمَةَ وَالتَّجَارَاتِ، قَذَفَ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِهِمُ الْخَوْفَ مِنَ الْفَقْرِ، وَقَالُوا: مِنْ أَيْنَ نَعِيشُ؟ فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يَغْنِيَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، فَكَانَ الْأَمْرُ كَمَا وَعَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، فَاسْلَمَتِ الْعَرَبُ، فَمَا ذَى حُجَّتِهِمْ وَتَجَرُّهُمْ، وَأَغْنَى اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ بِالْجِهَادِ وَالظُّهُورِ عَلَى الْأُمَمِ.

وقوله سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ الآية: هذه الآية تَضَمَّنَتْ قِتَالَ أَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: وَعِنْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوِ الرُّومِ، وَمَشَى نَحْوَ ثَبُوكَ، وَنَفَى سُبْحَانَهُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ حَيْثُ تَرَكُوا شَرْعَ الْإِسْلَامِ؛ وَأَيْضاً فَكَانَتْ أَعْتَادَاتِهِمْ غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ، لِأَنَّهُمْ تَشَعَّبُوا، وَقَالُوا: عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ؛ وَلَهُمْ أَيْضاً فِي الْبُعْثِ آرَاءٌ فَاسِدَةٌ؛ كَشَرَاءِ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ مِنَ الرُّهْبَانِ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْهَذْيَانِ، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾، أي: لَا يَطِيعُونَ، وَلَا يَمْتَثِلُونَ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ عَائِشَةَ: «مَا عَقَلْتُ أَبُوتِي إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ»، وَالَّذِينَ هُنَا: الشَّرِيعَةُ، قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَأَشْهَبُ وَسَخَنُونَ: وَتَوَخَّذَ الْجَزِيَّةُ مِنْ مَجُوسِ الْعَرَبِ وَالْأُمَمِ كُلِّهَا، وَأَمَّا عَبْدَةُ الْأَوْتَانِ وَالنَّيْرَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى قَبُولِ الْجَزِيَّةِ مِنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ فِي «الْمَدُونَةِ».

وقال الشافعي وأبو ثور: لَا تَوَخَّذَ الْجَزِيَّةُ إِلَّا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ فَقَطْ، وَأَمَّا قَدْرُهَا فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ، فَأَرْبَعَةُ دَنَائِيرٍ عَلَى أَهْلِ الذَّهَبِ، وَأَرْبَعُونَ ذَهَباً عَلَى أَهْلِ الْفِضَّةِ، وَهَذَا فِي الْعِنَةِ، وَأَمَّا الصُّلْحُ، فَهُوَ مَا صَالَحُوا عَلَيْهِ، قَلِيلٌ أَوْ كَثِيرٌ. وقوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ يَحْتَمِلُ وَجُوهاً:

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٤٥/٦) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢/٢٠).

منها: أن يريد عن قُوَّة منكم عليهم، وقَهْر، واليدُ في كلام العرب: القُوَّة.
ومنها: أن يريد سَوَقَ الذَّمِّي لها يَبْدِه، لا أن يبعثها مع رَسُول؛ ليكون في ذلك إِذْلالَ لهم.

ومنها: أن يريد نَفَذَهَا ناجزًا، تقول: يَغْتَه يدًا يَبْد، أي: لا يؤخروا بها.

ومنها: أن يريد عن أَسْتِسْلَامٍ، يقال: أَلْقَى فلانٌ بيده، إِذَا عَجَزَ واستسلم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلَهُمُ اللَّهُ أَفَّ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقالت اليهود عِزَّى ابن الله﴾: الذي كثر في كُتُب أهل العلم؛ أن فرقة من اليهود قالت هذه المقالة وروي أنه قالها نَفَرٌ يسير منهم فَنَحَاصٍ وغيره، قال الثَّقَافُ: ولم يبق الآن يهودي يقولها، بل انقرضوا.

قال * ع^(١): ﴿فإذا قالها ولو واحد من رؤسائهم، توجهت شنعة المقالة على جماعتهم، وحكى الطبري وغيره؛ أن بني إسرائيل أصابتهم فتن وجلاء، وقيل: مَرَضٌ، وأذهب الله عنهم التوراة في ذلك، ونسوها، وكان علماءهم قد دَفَنُوا أول ما أحسوا بذلك البلاء، فلما طالت المدة، فُقِدَت التوراة جملةً، فحفظها الله عِزَّىراً؛ كرامةً منه له، فقال لبني إسرائيل: إن الله قد حفظني التوراة، فجعلوا يَدْرُسُونَهَا من عنده، ثم إن التوراة المذفونة وَجَدَتْ، فإذا هي مساوية لما كان عِزَّىراً يدرس، فضلُّوا عند ذلك، وقالوا: إن هذا لم يتهياً لعِزَّىراً إلا وهو ابن الله، نعوذ بالله من الضلال.

وقوله: ﴿بأفواههم﴾، أي: بمجرَّد الدعوى من غير حُجَّة ولا برهان، و﴿يضاهون﴾، قراءة الجماعة^(٢)، ومعناه: يحاكون ويمائلون، والإشارة بقوله: ﴿الذين كفروا من قبل﴾:

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٣/٣).

(٢) وقرأ عاصم وحده من «السبعة» «يضاهون»، وكذلك طلحة بن مصرف. وهي من «ضاهاً» بمعنى «ضاهى»، وهي لغة ثقيف. ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥/٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (١٠٢)، و«الحجة» (١٨٦/٤)، و«السبعة» (٣١٤)، و«معاني القراءات» (٤٥١/١).

إِما لمشركي العرب؛ إِذ قالوا: الملائكة بناتُ اللَّهِ؛ قاله الضَّحَّاك، وإِما لأُمم سالفَةٍ قبلها، وإِما للصُّدْرَ الأول من كُفْرَةِ اليهود والنَّصارَى، ويكون ﴿يُضَاهَتُونَ﴾ لمعاصِرِي النَّبِيِّ ﷺ، وإِن كان الضمير في ﴿يُضَاهَتُونَ﴾ للنصارَى فقط، كانت الإشارة بـ ﴿الذين كفروا من قبل﴾ إلى اليهود؛ وعلى هذا فُسر الطبري، وحكاه غيره عن قتادة^(١).

وقوله: ﴿قاتلهم الله﴾: دعاء عليهم عامٌ لأنواع الشر، وعن ابن عباس؛ أَن المعنى: لعنهم الله^(٢). قال الداوددي: وعن ابن عباس قاتلهم الله: لعنهم الله، وكلُّ شيء في القرآن: قتل، فهو لَعَن. انتهى. و﴿أَتَى يَوْفُكُونَ﴾، أي: يُضَرَفُونَ عن الخير.

وقوله سبحانه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ...﴾ الآية: هذه الآية يفسرها ما حكاه الطبري^(٣)؛ أَن عدي بن حاتم قال: «جئتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ، وفي عُثْقِي صَلِيبٌ دَهَبٌ، فَقَالَ: يَا عَدِيُّ/ أَطْرَحَ هَذَا الصَّلِيبَ مِنْ عُثْقِكَ، فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ ذَلِكَ، وَنَحْنُ لَمْ نَعْبُدْهُمْ؟ فَقَالَ: أَلَيْسَ تَسْتَحِلُّونَ مَا أَحَلُّوا وَتَحَرِّمُونَ مَا حَرَّمُوا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَذَلِكَ^(٤)».

ومعنى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له، و﴿نور الله﴾؛ في هذه الآية: هُذَاهُ الصَّادِرُ عن القرآن والشُّرع.

وقوله: ﴿بأفواههم﴾؛ عبارة عن قَلَّةِ حيلتهم وضعفها.

وقوله: ﴿بألهدي﴾: يعم القرآن وجميع الشُّرع.

وقوله: ﴿ليظهره على الدين كله﴾، وقد فعل ذلك سبحانه، فالضمير في ﴿ليظهره﴾: عائِدٌ على الدين، وقيل: على الرسول، وهذا وإن كان صحيحاً، فالتأويل الأول أبرُّ منه، وألَيَقُ بنظام الآية.

(١) أخرجه الطبري (٣٥٢/٦) برقم: (١٦٦٣٩) نحوه، وذكره ابن عطية (٢٥/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤١٥/٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٣٥٣/٦) برقم: (١٦٦٤٣)، وذكره ابن عطية (٢٥/٣)، وابن كثير (٣٤٨/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤١٥/٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٥٤/٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٧٨/٥) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة التوبة»، حديث (٣٠٩٥) من طريق عبد السلام بن حرب، عن غطفان بن أعين، عن مصعب بن سعد، عن عدي بن حاتم به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطفان بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكَوِّدُ بِهَا بَنَاتُهُمْ وَبُحُورُهُمْ وَتُظَاهَرُ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾، المراد بهذه الآية: بيان نقائص المذكورين، ونهْي المؤمنين عن تلك النقائص مترتب ضمن ذلك، واللام في ﴿ليأكلون﴾: لأم التوكيد، وصورة هذا الأكل هي بأنهم يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً بأسم الكنائس والبيع وغير ذلك مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشَّرْع والتَّقَرُّب إلى الله، وهم خِلَال ذلك يحتججون تلك الأموال، كالذي ذكره سلمان في كتاب «السير»، عن الراهب الذي أَسْتَخْرَج كَنَزَهُ.

وقوله سبحانه: ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾، أي: عن شريعة الإسلام والإيمان بنبينا محمد ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿والذين﴾ ابتداءً، وخبره ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ والذي يظهر من ألفاظ الآية: أنه لما ذَكَر نَقْصُ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ الْأَكْلِينَ لِلْمَالِ بِالْبَاطِلِ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلٍ عَامٍّ نَقْصُ الْكَانِزِينَ الْمَانِعِينَ حَقَّ الْمَالِ، وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ: «الَّذِينَ يَكْنِزُونَ»^(١) بغير واو، وعلى هذه القراءة يجري قول معاوية: أَنَّ الْآيَةَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، وَخَالَفَهُ أَبُو ذَرٍّ، فَقَالَ: بَلْ هِيَ فِينَا.

و﴿يَكْنِزُونَ﴾: معناه: يجمعون ويحفظون في الأوعية، وليس مِنْ شَرَطِ الْكَنْزِ: الدَّفْنُ، وَالتَّوَعُّدُ فِي الْكَنْزِ، إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى مَنَعَ الْحَقُوقِ مِنْهُ، وَعَلَى هَذَا كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَرْبَعَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ فَمَا دُونَهَا نَفَقَةٌ، وَمَا زَادَ عَلَيْهَا فَهُوَ كَنْزٌ، وَإِنْ أَذِيَتْ زَكَاتُهُ.

وقال أبو ذَرٍّ وَجَمَاعَةٌ مَعَهُ: مَا فَضَلَ مِنْ مَالِ الرَّجُلِ عَلَى حَاجَةِ نَفْسِهِ، فَهُوَ كَنْزٌ، وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ يَقْتَضِيَانِ أَنَّ الدِّمَّ فِي حِسْبِ الْمَالِ، لَا فِي مَنَعِ زَكَاتِهِ فَقَطْ.

* ت * : وَحَدَّثَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْخَطِيبِ بِسَنَدِهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَرَضَ لِلْفُقَرَاءِ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ قَدْرَ مَا يَسْعُهُمْ، فَإِنْ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٧/٣)، و«البحر المحيط» (٣٨/٥)، و«الدر المصون» (٤٦٠/٣).

مَنْعُوهُمْ حَتَّى يَجُوعُوا وَيَغْزُوا وَيَجْهَدُوا، حَاسِبَهُمُ اللَّهُ حِسَابًا شَدِيدًا، وَعَذِّبَهُمْ عَذَابًا نُكْرًا» انتهى^(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ...﴾ الآية: قال ابن مسعود: والله، لَا يَمَسُّ دِينَارٌ دِينَارًا، بَلْ يُمَدُّ الْجِلْدُ حَتَّى يَكْوَىٰ بِكُلِّ دِينَارٍ، وَبِكُلِّ دِرْهَمٍ^(٢) قَالَ الْفَخْرُ^(٣): قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ: وَخُصِّتْ هَذِهِ الْمَوَاضِعُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الْمَالِ، إِذَا رَأَى الْفَقِيرَ، قَبَضَ جَيْبَهُ، وَإِذَا جَلَسَ إِلَى جَنْبِهِ، تَبَاعَدَ عَنْهُ، وَوَلَّاهُ ظَهْرَهُ. انتهى.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّتِي كُنْتُمْ فَلَا تَظْلِمُونَ فِيهَا أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٤)

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، هذه الآية والتي بعدها تتضمن ما كانت العرب عليه في جاهليتها من تحريم شهور الحل، وتحليل شهور الحُرمة، وإذا نص ما كانت العرب تفعله، تبين معنى الآيات، فالذي تظاهرت به الروايات، ويتخلص من مجموع ما ذكره الناس: أن العرب كانت لا عيش لأكثرها إلا من الغارات وإعمال سلاحيها، فكانوا إذا توالث عليهم حُرمة الأشهر الحُرُم، صَعَبَ عليهم، وأملقوا^(٥) وكان بنو فُقيم من كنانة أهل دين في العرب، وتَمَسَّك بِشَرِيعِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فانتدب منهم القلمس، وهو حُذَيْفَةُ بْنُ عَبْدِ فُقيم، فتسي الشهور للعرب، ثم خَلَفَهُ عَلَى ذَلِكَ بَنُوهُ، وذكر الطبري وغيره؛ أن الأمر كان في عدوان قبل بني مالك بن كنانة، وكانت صورة فعلهم: أن العرب كانت إذا فرغت من حَجَّها، جاء إليه مَنْ شاء منهم مجتمعين، فقالوا: أُنْسَانَا شَهْرًا، أي: أَخْرَجْنَا عَنْنا حُرْمَةَ الْمُحَرَّم، فأجعلها في صَفَرٍ، فيحلُّ لهم الْمُحَرَّم، فيغيرون فيه، ثم يلتزمون حُرْمَةَ صَفَرٍ؛ ليوافقوا عِدَّةَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ الْأَرْبَعَةِ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ الصَّفَرَ الْمُحَرَّم، ثم يسمعون ربيعاً الأول صَفَرًا وَرَبِيعًا الْآخِرَ رَبِيعاً الْأَوَّلَ، وهكذا في سائر الشهور، وتجيء السنة مِنْ ثَلَاثَةِ عَشَرَ شَهْرًا أُولَها: الْمُحَرَّم

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٣٠٨/٥) عن علي وذكره الهندي في «كنز العمال» (١٥٨٢٣) وقال: وفيه محمد بن سعيد البورقي، كذاب يضع.

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٣/٦، ٣٦٤) برقم: (١٦٦٩٧ - ١٦٦٩٨) نحوه، وابن عطية (٢٩/٣)، والبغوي (٢٨٩/٢) نحوه، وابن كثير (٣٥٢/٢) نحوه.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٩/١٦).

(٤) يعني: افتقروا، وضربهم الإملاق، وهو الافتقار. ينظر: «لسان العرب» (٤٢٦/٥).

المُحَلَّل، ثم المحرَّم الذي هو في الحقيقة صَفَرٌ^(١)، وفي هذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنْ عَدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾، أي: ليست ثلاثة عَشَرَ، ثم كانت حِجَّةُ أَبِي بَكْرٍ في ذي القعدة حقيقةً، وهم يسمونه ذَا الْحِجَّةِ، ثم حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَنَةَ عَشْرِ فِي ذِي الْحِجَّةِ حقيقةً، فذلك قوله عليه السلام: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبٌ مُضَرٌّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ»^(٢).

وقوله في ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾، أي: فيما كتبه، وأثبتته في اللُّوحِ المحفوظ، أو غيره، فهي صفةٌ فِعْلِيَّةٌ مثل خَلَقِهِ وَرِزْقِهِ، وليست بمعنى قضاءه وتقديره؛ لأن تلك هي قَبْلَ خَلْقِ السموات والأرض.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾: نصٌّ على تفضيل هذه الأربعة وتشريفها، قال قتادة: «أَصْطَفَى اللَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ رُسُلًا، وَمِنَ الشُّهُورِ الْمُحَرَّمَ وَرَمَضَانَ، وَمِنَ الْبُقَعِ الْمَسَاجِدِ، وَمِنَ الْأَيَّامِ الْجُمُعَةَ، وَمِنَ اللَّيَالِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَمِنَ الْكَلَامِ ذِكْرُهُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْظُمَ مَا عَظَّمَ اللَّهُ»^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ الدِّينَ الْقِيمَ﴾، قالت فرقة: معناه: الحسابُ المُسْتَقِيمُ، وقال ابن عباس، فيما حكى المَهْدَوِيُّ: معناه: القضاء المستقيم.

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٨/٦) في بدء الخلق، باب: ما جاء في سبع أرضين (٣١٩٧)، و (٧١١/٧) في «المغازي» باب: حجة الوداع (٤٤٠٦)، و (١٧٥/٨) في «التفسير» باب: ﴿إِنْ عَدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ (٤٦٦٢)، و (١٠/١٠) في الأضاحي باب: من قال: الأضحى يوم النحر (٥٥٥٠)، و (٤٣٣/١٣) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَجْهَ يُومِئذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٧٤٤٧)، ومسلم (١٣٠٥/٣)، في القسامة باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩/٢٩)، وأبو داود (٥٩٩/١) في: المناسك، باب: الأشهر الحرم (١٩٤٨)، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن ابن أبي بكرة به.

وأخرجه أبو داود برقم: (١٩٤٧)، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي بكرة به، بدون ذكر ابن أبي بكرة، وقال أبو داود: وسماه ابن عون فقال: عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبي بكرة في هذا الحديث.

ويشهد له حديث أبي هريرة عند البزار (١١٤٢) - «كشف الأستار»، عن شعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رفعه.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٧١/٣) فيه أشعث بن سوار، وهو ضعيف، وقد وثق.

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٣١).

قال * ع^(١) * : والأصوب عندي أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ ههنا على أشهر وجوهه، أي : ذلك الشَّرْع والطَّاعة .

وقوله : ﴿فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِمْ﴾ ، أي : في الِاثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا ، أي : لا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في الزمان كله ، وقال قتادة : المراد الأربعة الأشهر ، وحُصِّصَتْ تشریفاً لها .

قال سعيد بن المسيَّب : كان النبي ﷺ يحرم القتال في الأشهر الحرم ؛ بما أنزل الله في ذلك ؛ حتَّى نزلت «براءة» .

وقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ ، معناه : فيهنَّ فأخرى في غيرهن ، وقوله : ﴿كَافَّةً﴾ ، معناه : جميعاً .

﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَهُكُمْ﴾ ، يعني : ففعل العرب في تأخيرهم الحُرْمَةَ ، «زيادة في الكُفْر» ، أي : جارٍ مع كفرهم بالله ، وخلافهم للحق ، فالكفر متكرر بهذا الفعل الذي هو باطل في نفسه ؛ ومما وُجِدَ في أشعارهم قول جَذَلِ الطَّعَانِ : [الوافر]

وَقَدْ عَلِمْتُ مَعْدَ أَنْ قَوْمِي كِرَامُ النَّاسِ إِنْ لَهُمْ كِرَامًا
أَلَسْنَا النَّاسِيَيْنَ عَلَى مَعْدَ شُهُورِ الْجِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامًا^(٢)

وقوله سبحانه : ﴿يَحِلُّونَهُ عَامًا وَيَحْرُمُونَهُ عَامًا﴾ ، معناه : عَامًا من الأعوام ، وليس يريد أن تلك كانت مداولة .

وقوله سبحانه : ﴿لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ، معناه : ليوافقوا ، والمواطأة : الموافقة .

وقوله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقِلْتُمْ﴾ ، يعني : يا أيُّها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أنتم في سبيل الله أنتم أنتم أنفسكم .

وقوله سبحانه : ﴿لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ، معناه : ليوافقوا ، والمواطأة : الموافقة .

(١) ينظر : «المحرر الوجيز» (٣/ ٣١) .
(٢) الشعر لعمر بن قيس ، ينظر : «أمالي القاضي» (٤/ ١) ، «التهذيب» ، و«اللسان» (نسا) ، و«الدر المصون» (٤٦٣/ ٣) .

إلى الأرض»، هذه الآية بلا خلاف أنها نزلت عتاباً على تخلف من تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد/ الفتح بعام، غزا فيها الروم في عشرين ألفاً بين راكبٍ وراجل، والثفر: هو التنقل بسرعة من مكانٍ إلى مكان، وقوله: «أناقلتم أصله ثَقَأْتُمْ، وكذلك قرأ الأعمش^(١) وهو نحو قوله: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ﴾ تقرير، والمعنى: أرضيتم نَزَرَ الدنيا، على خطير الآخرة، وحَظَّهَا الْأَسْعَدُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ فِي «مِنْ» مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ الْآخِرَةِ﴾ لِلْبَدَلِ. انْتَهَى. ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ، أَنَّ الدُّنْيَا بِالإِضَافَةِ إِلَى الْآخِرَةِ قَلِيلٌ نَزَرَ، فَتُعْطَى قُوَّةُ الْكَلَامِ التَّعَجُّبُ مِنْ ضَلَالِ مَنْ يَرْضَى النَّزَرَ الْفَاقِي بَدَلُ الْكَثِيرِ الْبَاقِي.

* ت * : وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» وَ«الْتَرْمِذِيِّ»، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِضْبَعَةً فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا تَرْجِعُ». قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. انْتَهَى^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا تَتَفَرَّغُوا بِعَذَابِكُمْ﴾: شَرْطٌ وَجَوَابٌ، وَلَفْظُ «العذاب» عامٌ يَدْخُلُ تَحْتَهُ أَنْوَاعُ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: تَوَعَّدُ بِأَنْ يَبْدُلَ لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمًا لَا يَقْعُدُونَ عِنْدَ اسْتِنْفَارِهِ إِيَّاهُمْ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ عَائِدٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ هُوَ أَلْيَقُ.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثِ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُثُودِهِ لَمْ يَرْوَمَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيْبَةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أَنْفَرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ لَكُمْ حَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

(١) ينظر: «الشواذ» ص: (٥٧)، و«الكشاف» (٢/ ٢٧١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٤) و«البحر المحيط» (٥/ ٤٣)، و«الدر المصون» (٣/ ٤٦٤)، و«التخریجات النحویة» (٣٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٣) كتاب «الجنة» باب: فناء الدنيا، حديث (٥٥/ ٢٨٥٨)، و«الترمذي» (٤/ ٤٨٦) كتاب «الزهد» باب: هوان الدنيا، حديث (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦) كتاب «الزهد» باب: مثل الدنيا، حديث (٤١٠٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٨)، و«ابن حبان» (٤٣٣٠)، و«الحاكم» (٤/ ٣١٩) من طريق قيس بن أبي حازم، عن المستورد بن شداد به.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ هذا أيضاً شرطٌ وجوابٌ، ومعنى الآية: إنكم إن تركتم نصره، فالله متكفل به؛ إذ قد نصره في موضع القلة والانفراد وكثرة العدو، ولكن يترك نصره الآن.

وقوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أسند الإخراج إليهم؛ تذنباً لهم، ولما كان مقصداً أبي سفيان بن الحارث الفخري في قوله: من طردت كل مطرد، لم يقره النبي ﷺ على ما عليم في كتب «السيرة»، والإشارة إلى خروج النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وفي صحبته أبو بكر، واختصار القصة أن رسول الله ﷺ كان ينتظر إذن الله سبحانه في الهجرة من مكة، وكان أبو بكر حين ترك ذمة ابن الدغنة قد أراد الخروج، فقال له النبي ﷺ: «أَصْبِرْ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُسَهِّلَ الصُّحْبَةَ» فَلَمَّا أَذِنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ فِي الْخُرُوجِ، تَجَهَّزَ مِنْ دَارِ أَبِي بَكْرٍ، وَخَرَجَا، فَبَقِيَ فِي الْغَارِ الَّذِي فِي جَبَلِ ثَوْرٍ فِي غَرْبِ مَكَّةَ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَخَرَجَ الْمُشْرِكُونَ فِي إِثْرِهِمْ؛ حَتَّى أَتَوْهُمَا إِلَى الْغَارِ، فَطَمَسَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْأَثَرَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَى قَدَمِهِ، لَرَأَانَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا ظَنُّكَ بِأَتَيْنِ اللَّهَ ثَالِثَهُمَا»^(١) هكذا في الحديث الصحيح، ويروى أن العنكبوت نسجت على باب الغار.

ويروى أن الحمامة عششت عند باب الغار، وكان يروح عليهما باللبن عامر بن فهيرة^(٢).

وقوله: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾، معناه: أحد اثنين، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، يريد: بالنصر والنجاة واللطف.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾، قيل: يريد: لا إله إلا الله، وقيل: الشزع بأسره.

(١) تقدم تخريجه في: سورة آل عمران.

(٢) عامر بن فهيرة التيمي، مولى أبي بكر الصديق، أحد السابقين، وكان ممن يعذب في الله. له ذكر في «الصحيح»، حديثه في الهجرة عن عائشة قالت: خرج معهم عامر بن فهيرة، وعنها: لما قدمنا المدينة اشتكى أصحاب النبي ﷺ، منهم: أبو بكر، وبلال، وعامر بن فهيرة... الحديث. وفيه: وكان عامر بن فهيرة إذا أصابه الحمى يقول: [الرجز]

إِنِّي وَجَدْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنَّ الْجَبَانَ خَشَفُوا مِنْ قَوْقِهِ
كُلُّ أَمْرٍ مُجَاهِدٌ بِطَوْقِهِ كَالثَّوْرِ يَخْبِي جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ
وقال ابن إسحاق في «المغازي» عن عائشة: كان عامر بن فهيرة مؤلداً من الأزد، وكان للطفيل بن عبد الله بن سخيصة، فاشترى أبو بكر منه فأعتقه، وكان حسن الإسلام.

ينظر ترجمته في: «الإصابة» (٣/٤٨٢)، (٤٤٣٣).

وقوله سبحانه: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ معنى الخِفَّةِ والثَّقَلِ ههنا: مستعار لمن يمكنه السفر بسهولة، ومن يمكنه بضَعُوبة، وأما من لا يمكنه، كالعُمِّي ونحوهم، فخارج عن هذا.

وقال أبو طلحة^(١): ما سمع الله عذر أحد، وخرج إلى الشام، فجاهد حتى مات.

وقال أبو أيوب: ما أجدني أبداً إلا خفيفاً أو ثقيلاً^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾: تنبيه وهز للنفوس.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الْإِذْيَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣) ﴿لَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٤٤) ﴿إِنَّمَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَّاتَابَ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (٤٥)

وقوله سبحانه: ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾، هذه الآية في المنافقين المتخلفين في غزوة تبوك، وكشف ضمائرهم، وأما الآيات التي قبلها، / فعامة ٢٢٤ ب فيها وفي غيرهم، والمعنى: لو كان هذا الغزو لعرض، أي: لمال وغنيمة تنال قريباً؛ بسفر قاصد يسير، لبادروا لا لوجه الله، ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ وهي المسافة الطويلة.

وقوله: ﴿وسيحلفون بالله﴾، يريد: المنافقين، وهذا إخبار بغيب.

وقوله عز وجل: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾، هذه الآية هي في صنف مباليغ في النفاق، استأذنوا دون اعتذار، منهم: الجذ بن قيس ورفاعة بن التأبوت ومن اتبعهم؛ قال مجاهد: وذلك أن بعضهم قال: نستأذنه، فإن أذن في القعود قعدنا^(٣)، وإلا قعدنا، وقدم له العفو قبل العتاب: إكراماً له ﷺ، وقالت فرقة: بل قوله سبحانه ﴿عفا الله عنك﴾: استفتاح كلام كما تقول: أضلحك الله، وأعزك الله، ولم يكن منه عليه السلام ذنب يعفى عنه؛ لأن صورة الاستنفار وقبول الأعذار مصروفة إلى اجتهداه.

(١) أخرجه الطبري (٣٧٦/٦) برقم: (١٦٧٥١)، وذكره ابن عطية (٣٧/٣).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٧/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٣٨١/٦) برقم: (١٦٧٧٨)، وذكره ابن عطية (٣٨/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣/

٤٤١)، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾، يريد: في استئذانك، وأنت لو لم تأذن لهم، خرجوا معك.

وقوله: ﴿وتعلم الكاذبين﴾، أي: بمخالفتك، لو لم تأذن؛ لأنهم عزموا على العُصيان، أذنت لهم أو لم تأذن، وقال الطبري: معناه: حتى تعلم الصادقين؛ في أن لهم عُذراً، والكاذبين، في أن لا عُذر لهم، والأول أصوب، والله أعلم، وأما قوله سبحانه: في سورة النور: ﴿فإذا استأذنوك لبغض شأنهم...﴾ [النور: ٦٢] الآية، ففي غزوة الخندق نزلت: ﴿وأرتابت قلوبهم﴾، أي: شكّت و﴿يرددون﴾، أي: يتحيرون؛ إذ كانوا تخطر لهم صيحة أمر النبي ﷺ أحياناً، وأنه غير صحيح أحياناً، فهم مذبذبون.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقُلُوبَيْنِ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَعَنُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ اتَّخَذُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَالُوا لَئِنْ أَتَى الْأَمْرُ الْحَقُّ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَفَذَنْ لِي وَلَا نَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾، أي: لو أرادوا الخروج بنياتهم، لنظروا في ذلك وأستعدوا له.

وقوله: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم﴾.

* ص *: و﴿لكن﴾: أصلها أن تقع بين نقيضين أو ضدّين، أو خلاتين، على خلاف فيه. انتهى. و﴿انبعاثهم﴾: نفوذهم لهذه الغزوة، والتثبيط: التّكسييل وكسر العزم.

وقوله سبحانه: ﴿وقيل أقدوا﴾، يحتمل أن يكون حكاية عن الله، أي: قال الله في سابق قضاياه: أقدوا مع القاعدین، ويحتمل أن يكون حكاية عنهم، أي: كانت هذه مقالة بغضهم لبعض، ويحتمل أن يكون عبارة عن إذن النبي ﷺ لهم في القعود، أي: لما كره الله خروجهم، يسّر أن قلت لهم: أقدوا مع القاعدین، والقعود: هنا: عبارة عن التخلف، وكراهية الله انبعاثهم: رفق بالمؤمنين.

وقوله سبحانه: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ الخبال: الفساد في الأشياء المؤتلفة؛ كالمودات، وبغض الأجرام، ﴿لأؤضعوا﴾ معناه: لأسرعوا السّير،

﴿خَلَّالَكُمْ﴾ معناه: فيما بينكم.

قال * ص * : ﴿خَلَّالَكُمْ﴾ جمع خَلَّلَ، وهو الفُرْجَة بين الشَّيْثَيْنِ، وَأَنْتَصَبَ عَلَى الظَّرْفِ بِـ ﴿لَا أَوْضَعُوا﴾، و﴿يَبْغُونَكُمْ﴾: حَالٌ، أَي: بَاغِينَ. انتهى. والإيضاع: سُرْعَةُ السير، وَوَقَعْتُ ﴿لَا أَوْضَعُوا﴾ بِأَلْفِ بَغْدَ «لَا» فِي الْمَصْحَفِ، وَكَذَلِكَ وَقَعْتُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ لَاذْبَحْنَهُ﴾ [النمل: ٢١] ﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾، أَي: يَطْلُبُونَ لَكُمْ الْفِتْنَةَ، «وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ»، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: مَعْنَاهُ: جَوَاسِيسُ يَسْمَعُونَ الْأَخْبَارَ، وَيَنْقُلُونَهَا إِلَيْهِمْ^(١)، وَقَالَ الْجُمْهُورُ: مَعْنَاهُ: وَفِيكُمْ مُطِيعُونَ سَامِعُونَ لَهُمْ.

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَتَبْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾، فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَحْقِيرٌ لِشَأْنِهِمْ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: مَا كَانَ مِنْ حَالِهِمْ فِي أَحَدٍ وَغَيْرِهَا، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾: دَبَّرُوا ظَهْرًا لِبَطْنٍ، وَسَعَوْا بِكُلِّ حِيلَةٍ «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي»، نَزَلَتْ فِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ، وَأَسْنَدَ الطَّبْرِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَغْرُوا تَبُوكَ، تَغْنَمُوا ١٢٢٥ بَنَاتِ الْأَضْفَرِ» فَقَالَ الْجَدُّ: أَئِذَنْ لَنَا وَلَا تَفْتِنَا^(٢) بِالنِّسَاءِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ الْجَدَّ قَالَ: وَلَكِنِّي أُعِينُكَ بِمَالِي^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، أَي: فِي الَّذِي أَظْهَرُوا الْفِرَارَ مِنْهُ.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَوِلُوا وَهُمْ فَرِحُوا ٥٥﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ٥٦﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنَاتِ إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيِّدَيْنَا فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ ٥٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ...﴾ الْآيَةُ: الْحَسَنَةُ هُنَا بِحَسَبِ الْفَرْوَةِ: هِيَ الْغَنِيمَةُ وَالظَّفَرُ، وَالْمُصِيبَةُ: الْهَزِيمَةُ وَالْخِيَةُ، وَاللَّفْظُ عَامٌّ بَعْدَ ذَلِكَ فِي كُلِّ مُحِبِّبٍ وَمَكْرُوهٍ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾، أَي: قَدْ أَخَذْنَا بِالْحَزْمِ فِي تَخْلُقِنَا

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٨٤/٦) بِرَقْمٍ: (١٦٧٩٢ - ١٦٧٩٣) نَحْوَهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤١/٣)، وَالْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٩٨/٢)، وَالسُّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٤٣/٣)، وَزَادَ نَسْبَتَهُ إِلَى ابْنِ أَبِي الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ.

(٢) ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٤٣/٣)، وَعَزَاهُ إِلَى ابْنِ الْمُنْذَرِ، وَالطَّبْرَانِيِّ، وَابْنِ مَرْدُودِيهِ، وَأَبِي نَعِيمٍ فِي «الْمَعْرِقَةِ».

(٣) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢/٣).

وَنَظَرْنَا لَأَنفُسَنَا، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى نَبِيَّهٖ، فَقَالَ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، وَهُوَ إِمَّا ظَفَرًا وَسُرُورًا عَاجِلًا، وَإِمَّا أَنْ نَسْتَشْهَدَ فَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾، أَي: قُلْ لِلْمُنَافِقِينَ، وَ﴿الْحُسَيْنَيْنِ﴾: الظَّفَرُ، وَالشَّهَادَةُ.

وقوله: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، يَرِيدُ: الْقَتْلَ.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٦) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٥٧)

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ الْآيَةُ: سَبَبُهَا أَنَّ الْجَدُّ بْنَ قَيْسٍ حِينَ قَالَ: أَتَذُنُّ لِي وَلَا تَفْتُنِّي، قَالَ: إِنِّي أَعِينُكَ بِمَالِي^(١)، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِ، وَهِيَ عَامَّةٌ بَعْدَهُ.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ ثَوَابَ الْكَافِرِ عَلَى أَعْمَالِهِ الْبِرَّةِ هُوَ فِي الطَّعْمَةِ يَطْعَمُهَا»^(٢) وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَهَذَا مَقْتَعٌ لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى نَظَرٍ، وَأَمَّا أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا فِي الْآخِرَةِ فَلَا، وَ﴿كُسَالَى﴾: جَمْعُ كَسَلَانَ.

﴿فَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٨) وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لَيْسَ مِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْقَهُونَ ﴿٥٩﴾ لَوْ يَخْدُوكَ مُلَجًّا أَوْ مَفْرُطًا أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَا إِيَّاكَ وَهُمْ يَحْمَحُونَ﴾ (٥٧)

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ الْآيَةُ: حَقَّرَ فِي الْآيَةِ شَأْنَ الْمُنَافِقِينَ، وَعَلَّلَ إِعْطَاءَ اللَّهِ لَهُمُ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ؛ بِإِرَادَتِهِ تَعْذِيبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ.

قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ: تَعْذِيبُهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا هُوَ بِمَصَائِبِهَا وَرِزَايَاهَا، هِيَ لَهُمْ عَذَابٌ؛ إِذْ لَا يُؤْجَرُونَ عَلَيْهَا، وَمِنْ ذَلِكَ قَهْرُ الشَّرْعِ لَهُمْ عَلَى آدَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم.

قال الفخر^(١): أما كون كثرة الأموال والأولاد سبباً للعذاب في الدنيا، فحاصل من وجوه: منها: أن كلما كان حُب الإنسان للشيء أشد وأقوى، كان حزنه وتألم قلبه على فراقه أعظم وأصعب، ثم عند الموت يَعْظُمُ حزنه، وتشتد حسرته، لمفارقتة المحبوب، فالمشغوف بحُب المال والولد لا يزال في تعب، فيحتاج في اكتساب الأموال وتحصيلها إلى تعب شديد ومشقة عظيمة، ثم عند حصولها يحتاج إلى متاعب أشد وأصعب في حفظها وصونها؛ لأن حفظ المال بعد حصوله أصعب من اكتسابه، ثم إنه لا ينتفع، إلا بالقليل من تلك الأموال، فالتعب كثير، والنفع قليل، ثم قال: وأعلم أن الدنيا حلوة خضرة، والحواس الخمس مائلة إليها، فإذا كثرت وتوالت استغرقت فيها، وأنصرف الإنسان بكليته إليها، فيصير ذلك سبباً لحرمانه من ذكر الله، ثم إنه يحصل في قلبه نوع قسوة وقوة وقهر، وكلما كان المال والجاه أكثر، كانت تلك القسوة أقوى، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ * أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧] فظهر أن كثرة الأموال والأولاد سبب قوي في زوال حُب الله تعالى وحُب الآخرة مِنَ الْقَلْبِ، وفي حصول الدنيا وشهواتها في الْقَلْبِ، وعند الموت: كأن الإنسان ينتقل من البستان إلى السجن، ومن مجالسة الأقرباء والأحبة إلى موضع الغربة والكربة، فيعظم تألمه، ويقوى حزنه، ثم عند الحشر: خلأها حساب، وحرامها عقاب، فثبت أن كثرة الأموال والأولاد سبب لحصول العذاب في الدنيا والآخرة. انتهى.

ثم أخبر سبحانه: أنهم ليسوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، / وإنما هم يَفْزَعُونَ مِنْهُمْ، والْفَرْقُ: ٢٢٥ ب الخوف.

وقوله سبحانه: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾: الملجأ مِنْ لَجَأٍ يَلْجَأُ، إِذَا أَوَى وَاعْتَصَمَ، وقرأ الجمهور: «أَوْ مَغَارَاتٍ» - بفتح الميم^(٢)، - وهي الغيران في أعراض الجبال، ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾، معناه: السَّرْبُ والثَّقُ في الأرض، وهو تفسير ابن عباس^(٣) في هذه الألفاظ، وقرأ جمهور الناس: «يَجْمَعُونَ»: ومعناه يُسْرِعُونَ.

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/٧٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٤٦)، و«البحر المحيط» (٥/٥٦)، و«الدر المصون» (٣/٤٧٤).

(٣) أخرجه الطبري (٦/٣٩٢) برقم: (١٦٨٢٣ - ١٦٨٢٤)، وابن عطية (٣/٤٦)، وذكره ابن كثير (٢/٣٦٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣/٤٤٧)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

قال الفخر^(١): قوله: ﴿وهم يجمعون﴾ أي: يسرعون إسراعاً لا يرد وجوههم شيء، ومن هذا يقال: جَمَحَ الفَرَسُ، وفَرَسَ جَمُوحٌ، وهو الذي إذا حَمَلَ، لم يرده اللجام، انتهى.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (٥٨)
وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ...﴾ الآية: أي: ومن المنافقين مَن يلمزك، أي: يعيبك ويأخذ منك في الغيبة؛ ومنه قول الشاعر: [البسيط]

إِذَا لَقَيْتُكَ تُبْدِي لِي مُكَاشَرَةً وَإِنْ أَغِيبُ فَأَنْتَ الْهَامِزُ اللَّمَزَةُ^(٢)
ومنه قوله سبحانه: ﴿وَنَزَّلَ لَكُلَّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً﴾ [الهمزة: ١] وقوله سبحانه: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله...﴾ الآية: المعنى: لو أن هؤلاء المنافقين رضوا قِسْمَةَ اللَّهِ الرِّزْقَ لهم، وما أعطاهم على يد رسوله، وأقروا بالرغبة إلى الله، لكان خيراً لهم، وحذف الجواب، لدلالة ظاهر الكلام عليه، وذلك من فصيح الكلام وإيجازه.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُعَلِّمِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٠)

وقوله سبحانه: ﴿إنما الصدقات للفقراء...﴾ الآية: ﴿إنما﴾ في هذه الآية حاصرة تقتضي وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف، وإنما أُخْتَلِفَ في صُورَةِ الْقِسْمَةِ، ومذهب مالك وغيره؛ أَنَّ ذَلِكَ عَلَى قَدَرِ أَلَا جَهَادٍ، وبحسب الحاجة، وأما الفقير والمُسْكِين، فقال ابن عباس والحسن ومجاهد والزُّهْرِيُّ وابن زَيْد وغيرهم: الْمَسَاكِينُ: الَّذِينَ يَسْعَوْنَ وَيَسْأَلُونَ، والفقراء: الَّذِينَ يَتَصَاوَتُونَ^(٣)، وهذا القول أحسن ما قيل في هذا، وتحريره أن الفقير هو الذي لا مال له إلا أنه لم يذل نفسه، ولا يذل وجهه؛ وذلك إما لتعفف مفرط،

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/٧٧).

(٢) البيت لزباد الأعجمي، ينظر: «الكشاف» (٤/٧٩٥)، «البحر المحيط» (٨/٥٠٩)، و«القرطبي» (٢٠/١٢٤)، و«الدر المصون» (٦/٥٦٨)، و«فتح القدير» (٥/٤٩٤).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٦/٣٩٥) برقم: (١٦٨٣٤ - ١٦٨٣٩) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/٤٨)، والبيهقي في «تفسيره» (٢/٣٠٢)، والسيوطي (٣/٤٤٩)، عن ابن عباس نحوه، وزاد نسبته إلى ابن المنذر والنحاس (٣/٤٥٠) عن الزهري بنحوه، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة.

وإِذَا يُبْلَغَةُ تَكُونُ لَهُ، كَالْحَلُوبَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا، وَالْمَسْكِينُ هُوَ الَّذِي يَقْتَرِنُ بِفَقْرِهِ تَذَلُّ وَخُضُوعٌ وَسَوْأٌ، فَهَذِهِ هِيَ الْمَسْكَنَةُ؛ وَيَقْوَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَدْ وَصَفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْمَسْكَنَةِ، وَقَرَّنَهَا بِالذَّلَّةِ مَعَ غَنَاهُمْ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قُلْنَاهُ، بَانَ أَنَّهُمَا صِئْتَانِ مَوْجُودَانِ فِي الْمُسْلِمِينَ.

* ت * : وقد أكثر الناس في الفرق بين الفقير والمسكين، وأولى ما يعول عليه ما ثبت في ذلك عن النبي ﷺ، وقد روى مالك، عن أبي الزناد^(١) عن الأعرج^(٢) عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ الْمَسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالثَّمَرَةُ وَالثَّمَرَتَانِ، إِنَّمَا الْمَسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنَى يُغْنِيهِ، وَلَا يُقْطَنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»^(٣)، انتهى. وأول أبو عمر في «التمهيد» هذا الحديث، فقال: كأنه أراد - والله أعلم - ليس المسكين على تمام المسكنة، وعلى الحقيقة، إلا الذي لا يسأل الناس. انتهى.

(١) عبد الله بن ذكوان الأموي، مولاهم، أبو الزناد المدني، يكنى: أبا عبد الرحمن، كان أحد الأئمة، عن أنس، وابن عمر، وعمر بن أبي سلمة مرسلًا. قال البخاري: أصح الأسانيد أبو الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة. قال الواقدي: مات فجأة سنة ثلاثين ومائة. قال الحافظ شمس الدين الذهبي: ولي بعض أمور بني أمية فتكلم فيه لأجل ذلك، وهو ثقة حجة لا يعلق به جرح. ينظر: «الخلاصة» (٥٣/٢)، «تهذيب الكمال» (٦٧٩/٢)، «تهذيب التهذيب» (٢٠٣/٥) و«تقريب التهذيب» (٤١٣/١)، «الكاشف» (٨٤/٢)، «الثقات» (٦/٧).

(٢) عبد الرحمن بن هزيم الهاشمي، مولاهم، أبو داود المدني الأعرج، القاري عن أبي هريرة، ومعاوية، وأبي سعيد، وعنه الزهري، وأبو الزبير، وأبو الزناد، وخلق، وثقه جماعة. قال أبو عبيد: توفي سنة سبع عشرة ومائة بالإسكندرية. ينظر ترجمته في: «الخلاصة» (٥٣/٢ - ٥٤/١) (٣٤٨٠).

(٣) ورد ذلك من حديث أبي هريرة، وابن مسعود: فأما حديث أبي هريرة، فأخرجه البخاري (٣٩٨/٣) في «الزكاة» باب: قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا﴾ (١٤٧٦، ١٤٧٩)، و (٥٠/٨) في «التفسير»؛ باب: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا﴾ (٤٥٣٩)، ومسلم (٧١٩/٢ - ٧٢٠) في «الزكاة»، باب: المسكين الذي لا يجد غنى، ولا يقطن له، فيتصدق عليه (١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣٩)، وأبو داود (٥١٣/١) في «الزكاة» باب: من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٣١ - ١٦٣٢)، والنسائي (٨٦/٥) في «الزكاة» باب: تفسير المسكين، ومالك (٩٢٣١٢) في صفة النبي ﷺ باب: ما جاء في المساكين (٧)، وأحمد (٢/٢٦٠، ٣١٦، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٥٧، ٤٦٩)، والدارمي (٣٧٩/١) في «الزكاة»، باب: المسكين الذي يتصدق عليه، وأبو يعلى (٦٣٣٧)، والحميدي (١٠٥٩)، والبيهقي (١١/٧) من طرق عنه. وأما حديث ابن مسعود، فأخرجه أحمد (١/٣٨٤، ٤٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٨/٧)، وأبو يعلى (٥١١٨) عن إبراهيم بن مسلم الهجري عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود مرفوعاً به. قال الهيثمي (٣/٩٥): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

وأما العاملون: فهم جُباتها يستنيبهم الإمام في السغي على الناس، وجَمَعَ صَدَقَاتِهِمْ، قال الجُمهور: لَهُمْ قَدْرُ تَعْبِهِمْ وَمَوْنَتِهِمْ، وأما ﴿المؤلفة قلوبهم﴾، فكانوا مُسْلِمِينَ وكافِرِينَ مُسْتَتِرِينَ مُظْهِرِينَ للإسلام؛ حتى وثَّقه أَلَا سَتْلَافٌ في أَكْثَرِهِمْ، وأَسْتَلَفَهُمْ إِنَّمَا كَانَ لِشُجْلَبَ إِلَى الإسلام مُنْفَعَةٌ، أَوْ تُدْفَعُ عَنْهُ مَضْرَّةٌ، والصَّحِيحُ بَقَاءُ حَكْمِهِمْ؛ إِنْ أَحْتِيجَ إِلَيْهِمْ، وَأما ﴿الرقاب﴾، فمَذْهَبُ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ هُوَ أَبْتِدَاءُ عِتْقِ مُؤْمِنٍ، وَأما الْغَارِمُ: فَهُوَ الرَّجُلُ يَرْكِبُهُ دَيْنٌ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَلَا سَفَهٍ، كَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ، وَأما ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فَهُوَ الْغَازِي، وَإِنْ كَانَ مَلِيًّا بَبْلَدِهِ، وَأما ﴿ابْنُ السَّبِيلِ﴾، فَهُوَ الْمَسَافِرُ، وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا بِبَلَدِهِ، وَاسْمِي الْمُسَافِرِ ابْنُ السَّبِيلِ لِمَلَاظِمَتِهِ السَّبِيلِ.

وَمَنْ أَدْعَى الْفَقْرَ صُدِّقَ إِلَّا لَرَبِيَّةٍ؛ فَيَكْلَفُ حِينَئِذٍ / الْبَيْتَةَ، وَأَمَّا إِنْ أَدْعَى أَنَّهُ غَارِمٌ أَوْ ابْنُ السَّبِيلِ أَوْ غَازٍ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُعْلَمُ إِلَّا مِنْهُ، فَلَا يُعْطَى إِلَّا بَيْتَةً، وَأَهْلُ بَلَدِ الصَّدَقَةِ أَحَقُّ بِهَا إِلَّا أَنْ تَفْضُلُ فَضْلَةً، فَتَنْتَقِلَ إِلَى غَيْرِهِمْ.

قال ابن حبيب: وينبغي للإمام أن يأمر السَّعَاةَ بِتَفْرِيقِهَا فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي جُيِّبَتْ فِيهَا، وَلَا يَحْمِلُ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَى الْإِمَامِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَاءِهِمْ، فَتَرُدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ»^(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾: أَي: مَوْجِبَةٌ مُحَدَدَةٌ.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٦﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْشُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْشَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾

(١) أخرجه البخاري (٢٦١/٣) كتاب «الزكاة» باب: وجوب الزكاة، حديث (١٣٩٥)، ومسلم (٥٠/١) كتاب «الإيمان» باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث (١٩/٢٩)، وأبو داود (٢٤٢/٢)، (٢٤٣) كتاب «الزكاة» باب: في زكاة السائمة، حديث (١٥٨٤)، والترمذي (٦٩/٢) كتاب «الزكاة» باب: ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة، حديث (٦٢١)، والنسائي (٥/٢) كتاب «الزكاة» باب: وجوب الزكاة، وابن ماجه (٥٦٨/١)، كتاب «الزكاة» باب: فرض الزكاة، حديث (١٨٧٣)، وأحمد (٢٣٣/١)، من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال: «إني أتاني قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

وقول سبحانه: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾: أي: ومن المنافقين، و﴿يؤذون﴾: لفظ يعم أنواع إذاءتهم له ﷺ، وخص بعد ذلك من قولهم: ﴿هو أذن﴾، وروي أن قائل هذه المقالة نبتل بن الحارث، وكان من مردة المنافقين، وفيه قال ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتَلِ بْنِ الْحَارِثِ»^(١)، وكان نائر الرأس، منتفش الشعر، أحمر العينين، أسفع الخدين، مشوهاً.

قال الحسن البصري ومجاهد: قولهم: ﴿هو أذن﴾: أي: يسمع معاذيرنا ويقبلها^(٢)، أي: فنحن لا نُبالي من الوقوع فيه، وهذا تنقص بقلّة الحزم، وقال ابن عباس وغيره: إنهم أرادوا بقولهم: ﴿هو أذن﴾: أي: يسمع كل ما ينقل إليه عنا، ويصغي إليه^(٣) ويقبله، فهذا تشكك منه عليه السلام، ومعنى ﴿أذن﴾: سماع، وهذا من باب تسمية الشيء بالشيء، إذا كان منه بسبب؛ كما يقال للرؤية: عين؛ وكما يقال للمسنة من الإبل التي قد بزل نابها: ناب.

وقيل: معنى الكلام: ذو أذن، أي: ذو سماع، وقيل: إنه مشتق من قولهم: أذن إلى شيء؛ إذا استمع؛ ومنه قول الشاعر: [البسيط]

صُمْ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا
وقرأ نافع: «أذن» - بسكون الذال فيهما -، وقرأ الباقون^(٤) بضمها فيهما، وكلهم قرأ بالإضافة إلى «خير» إلا ما روي عن عاصم، وقرأ الحسن^(٥) وغيره: «قل أذن خير» - بتووين

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١٦/١٠) بسنده عن ابن إسحاق، فذكره بلاغاً. وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المثور» (٢٥٣/٣)، عن ابن عباس موصولاً.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٠٦/٦) برقم: (١٦٩١٧ - ١٦٩١٨ - ١٦٩١٩) نحوه، وذكره ابن عطية (٥٢/٣)، وابن كثير (٣٦٦/٢) نحوه، والسيوطي في «الدر المثور» (٤٥٤/٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن أبي شيبه.

(٣) أخرجه الطبري (٤٠٥/٦ - ٤٠٦) برقم: (١٦٩١٦)، وذكره ابن عطية (٥٢/٣)، وابن كثير (٣٦٦/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤٥٤/٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) وكان نافعاً استقل ثلاث ضمات فسكن.

ينظر: «السبعة» (٣١٥)، «الحجة للقراء السبعة» (١٩٨/٤، ٢٠٣)، «حجة القراءات» ص: (٣١٩)، «إعراب القراءات» (٢٥٠/١)، «إتحاف» (٩٤/٢)، و«العنوان» (١٠٢)، و«شرح شلعة» (٤١٢).

(٥) قرأ بها عاصم في رواية الأعشى عن أبي بكر عنه. والمعنى حيثنل: قل يا محمد فمن يستمع منك ويكون قريباً منك قابلاً للعذر خير لكم.

«أذن»، ورفع «خير» -، وهذا جار على تأويله المتقدم، والمعنى: من يقبل معاذيركم خير لكم، ورويت هذه القراءة عن عاصم، ومعنى «أذن خير» على الإضافة: أي سَمَاعُ خَيْرٍ وَحَقٌّ، و﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾: معناه: يَصَدِّقُ بِاللَّهِ، «وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ»: قيل: معناه: ويصدق المؤمنين، واللام زائدة، وقيل: يقال: آمَنْتُ لك، بمعنى: صدقتك؛ ومنه: «وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا» [يوسف: ١٧].

قال * ع^(١) *: وعندي أن هذه التي معها اللام في ضمها بَاءً، فالمعنى: ويصدق للمؤمنين بما يخبرونه به، وكذلك قوله: «وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا» بِمَا نَقُولُهُ.

* ت *: ولما كانت أخبار المنافقين تصل إلى النبي ﷺ تارة بإخبار الله له، وتارة بإخبار المؤمنين، وهم عدول، ناسب اتّصال قوله سبحانه: «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ»؛ بما قبله، ويكون التصديق هنا خاصاً بهذه القضية، وإن كان ظاهر اللفظ عاماً؛ إذ من المعلوم أنه ﷺ لم يَزَلْ مصدّقاً باللَّهِ، وقرأ جميع السبعة إلا حمزة و«رَحْمَةً» - بالرفع -؛ عطفاً على «أذن»، وقرأ حمزة وخده: و«رَحْمَةً» - بالخفض -؛ عطفاً على «خَيْرٍ»، وخصّص الرحمة للذين آمنوا؛ إذ هم الذين فازوا ونَجُوا بالرسول عليه السلام، «يحلفون بالله لكم»: يعني: المنافقين.

وقوله: «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ»: التقدير عند سيّونيّه: واللّه أحقُّ أن يرضوه، ورسوله أحقُّ أن يرضوه، فحذف الخبر من الجملة الأولى، لدلالة الثانية عليه.

وقيل: الضمير في «يرضوه» عائذ على المذكور؛ كما قال زُؤْبَةُ: [الرجز]

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقٌ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلَّيْعُ الْبَهَقِ^(٢)
أي: كأنَّ المذكور.

«أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبَقُوا لِمَنْ نَارُ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ

= ينظر: مصادر القراءة السابقة، و«معاني القراءات» (٤٥٧/١)، و«المحرر الوجيز» (٥٣/٣)، و«البحر المحيط» (٦٤/٥)، وزاد نسبتها إلى مجاهد، وزيد بن علي، وهي في «الدر المصون» (٤٧٧/٣).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣/٣).

(٢) ينظر: «ديوانه» ص: (١٠٤)؛ و«أساس البلاغة» ص: (٥٠٩) (ولع)؛ و«الأشياء والنظائر» (٦٣/٥)، و«تخليص الشواهد» ص: (٥٣)؛ و«خزانة الأدب» (٨٨/١)، و«شرح شواهد المغني» (٧٦٤/٢)، و«لسان العرب» (٤١١/٨) (ولع)، (٢٩/١٠) (بهق)، و«المحتسب» (١٥٤/٢)، و«مغني اللبيب» (٢/٦٧٨) وبلا نسبة في «شرح شواهد المغني» (٩٥٥/٢).

الْعَظِيمِ ﴿٦٢﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ نُنْزِلَ عَلَيْهِمْ سُورَةً تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُوا إِنَّ اللَّهَ مُحَرِّجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

وقوله: ﴿ألم يعلموا أنه من يحادِدِ الله ورسوله...﴾ الآية: ﴿يُحَادِدِ﴾: معناه: يخالف ويشاق.

وقوله سبحانه: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾: ﴿يحذر﴾: خبر عن حال قلوبهم.

وقال الزَّجَّاجُ^(١) وغيره: «يحذر»: الأمر، وإن كان لفظه لفظُ الخبر؛ كأنه قال: «ليَحْذَرُ».

وقوله سبحانه: ﴿قل استهزؤا﴾: لفظه لفظُ الأمر، / ومعناه التهديد، ثم أخبر ٢٢٦ ب سبحانه؛ أنه مخرج لهم ما يحذرونه إلى حين الوجود، وقد فعل ذلك تَبَارَكَ وتعالى في «سورة بَرَاءة»، فهي تُسمى «الْفَاضِحَةَ»؛ لأنها فَضَحَتِ المنافقين.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ سَاهُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولمن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب...﴾ الآية: نُزِلَتْ على ما ذكر جماعة من المفسرين في ودیعة بن ثابت؛ وذلك أنه مع قوم من المنافقين كانوا يَسِيرُونَ في غزوة تبوك، فقال بعضهم: هذا يريد أن يَفْتَحَ قُصُور الشام، ويأخذ حصون بني الأَصْفَرِ، هِنَهَاتَ هِنَهَاتٍ! فوقفهم رسولُ الله ﷺ على ذلك، وقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، وذكر الطبري^(٢) عن عبد الله بن عمر؛ أنه قال: رأيتُ قاتل هذه المقالة «ودیعة» متعلقاً بحقب ناقة رسولِ الله ﷺ يماشياها، والحجارة تُنْكِبُ، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، والنبیُّ ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ سَاهُونَ﴾، ثم حكم سبحانه عليهم بالكفر، فقال لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ﴾^(٣) الآية.

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٤٥٩/٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٠٩/٦).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٠٩/٦) برقم: (١٦٩٢٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/

٤٥٥)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾، يريد؛ فيما ذكره المفسرون، رجلاً واحداً، قيل: اسمه مَخْشِي بْنُ جَمِيرٍ، قاله ابنُ إِسْحَاقَ، وذكر جميعهم أنه أَسْتَشْهَدَ بِالْيَمَامَةِ، وقد كان تَابَ، وتَسَمَّى عبد الرحمن، فدعا الله أن يَسْتَشْهَدَ، وَيُجْهَلَ أمره، فكان كذلك، ولم يوجَدْ جَسَدُهُ، وكان مَخْشِي مع المنافقين الذين قالوا: إنما كنا نخوض ونُلْعَبُ، فقيل: كان منافقاً، ثم تاب توبةً صحيحةً، وقيل: كان مسلماً مُخْلِصاً إلا أنه سمع المنافقين، فَضَحِكَ لَهُمْ، ولم يُنْكِرْ عليهم، فعفا الله عنه في كلا الوجهين، ثم أوجب العذاب لباقي المنافقين الذين قالوا ما تقدّم.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ الْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: يريد: في الحكم والمنزلة في الكفر، ولما تقدّم قبل: ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦] حَسُنَ هذه الإخبار، و﴿يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: أي: عن الصدقة، وفعل الخير، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾: أي: تركوه؛ حين تَرَكُوا اتِّبَاعَ نَبِيِّهِ وَشَرْعِهِ، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: أي: فتركهم حين لم يَهْدِهِمْ، والكُفَّار؛ في الآية: الْمُغْلِبُونَ، وقوله: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾: أي: كافيتهم.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا نَفْسًا وَأُولَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَطَّتْ أَعْيُنُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلَّيَهُمْ وَلَكِنَّ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: أي: أنتم، أيها المنافقون، كالذين من قبلكم كانوا أشدَّ منكم قوةً، فَعَصَوْا؛ فَأَهْلَكُوا؛ فأنتم أولى بالإهلاك لمعصيتكم وضعفكم، وَالْخَلَاقُ: الحَظُّ من القَدْرِ والدين وجميع حال المَرْءِ، فخلأ المَرْءُ: الشيء الذي هو به خَلِيقٌ، والمعنى: عَجَلُوا حَظَّهُمْ في دنياهم، وتركوا الآخرة، فَاتَّبَعْتُمُوهُمُ أَنْتُمْ، ﴿أُولَئِكَ

حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة: المعنى: وأنتم أيضاً كذلك، ويحتمل أن يريد بـ ﴿أولئك﴾: المنافقين.

وقوله سبحانه: ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود...﴾ الآية: المعنى ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم السالفة التي عصت الله؛ بتكذيب رسله، فأهلكها، و﴿قوم إبراهيم﴾: ثَمُود وأصحابه وأتباع دولته، ﴿وأصحاب مدين﴾ قوم شُعَيْب، و﴿المؤتفكات﴾: أهل القرى الأربعة أو السبعة التي بعث إليهم لوط عليه السلام، ومعنى ﴿المؤتفكات﴾: المنصرفات والمثقلات أَفَكْتُ فَأَتَفَكْتُ لأنها جعل عاليها سافلها، ولفظ البخاري: ﴿المؤتفكات﴾: اتفكت: انقلبت بهم الأرض. انتهى.

والضمير في ﴿أتتهم رسلهم﴾: عائذ على هذه الأمم المذكورة، ثم عقب سبحانه بذكر المؤمنين، وما من به عليهم من حُسن الأعمال؛ ترغيباً وتنشيطاً؛ لمبادرة ما به أمر؛ لطفاً منه بعباده سبحانه، لا ربَّ غيره، ولا خير إلا خيره.

وقوله سبحانه: ﴿ويقيمون الصلاة﴾: قال ابن عباس: هي الصلوات الخمس^(١).

قال * ع^(٢): * وبحسب هذا تكون الزكاة هي المفروضة، والمدح عندي بالنوافل أبلغ؛ إذ من يقيم النوافل أخرى بإقامة / الفرض، والسين في قوله: ﴿سيرهمهم﴾: مُدْخِلَةٌ ١٢٢٧ في الوعد مهلة؛ لتكون النفوس تنعم برجائه سبحانه، وفضله سبحانه زعيم بالإنجاز، وذكر الطبري^(٣) في قوله تعالى: ﴿ومساكن طيبة﴾، عن الحسن أنه سأل عنها عمران بن حصين وأبا هريرة، فقالا: على الخبر سقطت! سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «قَصُرَ فِي الْجَنَّةِ مِنَ اللَّوْلُؤِ، فِيهِ سَبْعُونَ دَاراً مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، فِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ بَيْتاً مِنْ زُمُرُودٍ خَضْرَاءَ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ سَريراً»^(٤) ونحو هذا مما يشبه هذه الألفاظ، ويقرب منها، فأختصرتها طلباً للإيجاز.

* ت * : وتام الحديث من «الإحياء»، وكتاب الأجرى المعروف بـ «كتاب النصيحة»، عن الحسن عن عمران بن حصين وأبي هريرة، قالوا: «على كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ فِرَاشاً مِنْ كُلِّ لَوْنٍ، عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ زَوْجَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَفِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ مَائِدَةً،

(١) أخرجه الطبري (٤١٥/٦) برقم: (١٩٦٥٤)، وذكره ابن عطية (٥٨/٣).

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٥٨/٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤١٦/٦).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٦١/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن مردويه.

عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ سَبْعُونَ لَوْناً مِنَ الطَّعَامِ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ وَصِيفَةً، وَيُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ عَدَاةٍ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ أَجْمَعُ^(١)، وأما قوله سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، ففي الحديث الصحيح؛ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِعِبَادِهِ إِذَا اسْتَقَرُّوا فِي الْجَنَّةِ: «هَلْ رَضِيتُمْ؟! فَيَقُولُونَ: وَكَيْفَ لَا نَرْضَى، يَا رَبَّنَا؟ فَيَقُولُ: إِنِّي سَأُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، رِضْوَانِي، أَرْضَى عَنْكُمْ؛ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَداً...»^(٢) الحديث، وقوله: ﴿أَكْبَرُ﴾: يريد: أَكْبَرُ من جميع ما تقدّم، ومعنى الآية والحديث مُتَّفِقٌ، وقال الحسن بن أبي الحسن: وصل إلى قلوبهم برضوان الله من اللذة والشُّرور ما هو أَلَدُّ عندهم وأقْرُّ لأعينهم من كل شيء أصابوه من لذة الجنة، قال الإمام^(٣) الفخر: وإنما كان الرضوان أَكْبَرُ؛ لأنه عند العارفين نعيم رُوحانيّ، وهو أشرف من النعيم الجِسْمانيّ. انتهى. أنظره في أوائل «آل عمران».

قال * ع^(٤) *: ويظهر أن يكون قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ إشارة إلى منازل المقرّبين الشاربيين من تسنيم، والذين يُرَوَّنُ كما يُرَى التَّجْمُ الْعَابِرُ في الأفق، وجميع من في الجنة راضٍ، والمنازل مختلفة، وفضل الله مُتَّسِعٌ، و﴿الفوز﴾: النجاة والخلاص، ومن أَدْخَلَ الجنة فقد فاز، والمقرّبون هم في الفوز العظيم، والعبارة عندي بـ «سرور وكمال» أجود من العبارة عنها بـ «لذة»، واللذة أيضاً مستعملة في هذا.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ ٧٣﴾
يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَكْذِبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٧٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ جَاهِدَ الْكُفَّارَ﴾: أي: بالسيف و﴿المنافقين﴾، أي: باللسان والتعنيف والأكْهَرَارِ في الوجه، وبإقامة الحدود عليهم.

قال الحسن: وأكثر ما كانت الحدود يومئذ تصيب المنافقين، ومذهب الطبري؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان يعرفهم ويستترهم، وأما قوله: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، فلفظة عامة في الأفعال والأقوال، ومعنى الغلظ: حَسَنُ الْجَانِبِ، فهو ضدُّ قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (١٠٦/١٦).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٩/٣).

لِمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الشعراء: ٢١٥]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا...﴾ الآية، نزلت في الجلاس بن سويد، وقوله: لَيْتَن كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدَ حَقًّا، لَتُخَنُّ شَرَّ مِنَ الْحُمُرِ، فسمعها منه ربيبه أو رجل آخر، فأخبر النبي ﷺ، فجاء الجلاس، فَحَلَفَ بِاللَّهِ؛ مَا قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، فَكَلِمَةُ الْكُفْرِ: هِيَ مَقَالَتُهُ هَذِهِ؛ لِأَنَّ مَضْمَنَهَا قَوِيٌّ فِي التَّكْذِيبِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾: يَعْنِي: أَنَّ الْجُلَاسَ قَدْ كَانَ هُمْ بِقَتْلِ صَاحِبِهِ الَّذِي أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُبَيٍّ سَلُولَ، وَقَوْلُهُ فِي غَزْوَةِ الْمُرَيْسِيعِ: مَا مَثَلْنَا وَمَثَلُهُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: سَمَنْ كَلَبَكَ يَأْكُلُكَ، وَ﴿لَيْتَن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فَلَبَّغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَوَقَفَهُ، فَحَلَفَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ مَكْذُوبَةً لَهُ.

* ت * : وزاد ابن العربي في «أحكامه»^(١) قولاً ثالثاً؛ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةِ الْمُنَافِقِينَ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ، وَهُوَ الصَّحِيحُ؛ / لِعُمُومِ الْقَوْلِ وَوُجُودِ الْمَعْنَى فِيهِ، وَفِيهِمْ، انْتَهَى. ٢٢٧ ب

وَحَدَّثَ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْخَطِيبِ بِسَنَدِهِ، قَالَ: سُئِلَ سَفِيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنِ الْهَمِّ: أَيُؤَاخِذُ بِهِ صَاحِبُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَانَ عَزْمًا؛ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا...﴾ الآية، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، فَجَعَلَ عَلَيْهِمُ فِيهِ التَّوْبَةَ، قَالَ سَفِيَانُ: الْهَمُّ يَسُودُ الْقَلْبَ انْتَهَى.

قال * ع *^(٢): وَعَلَى تَأْوِيلِ قَتَادَةَ، فَالْإِشَارَةُ بِـ «كَلِمَةِ الْكُفْرِ» إِلَى تَمَثِيلِ ابْنِ أَبِي «سَمَنْ كَلَبَكَ يَأْكُلُكَ»^(٣).

قال قَتَادَةُ: وَالْإِشَارَةُ بِـ «هُمُوا» إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَيْتَن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾^(٤) [المنافقون: ٨].

وَقَالَ الْحَسَنُ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ مِنْ إِظْهَارِ الشَّرْكِ وَمُكَابَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَا لَمْ يَنَالُوا^(٥)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: «بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ»؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَتَجَاوَزْ أَلْسِنَتَهُمْ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ...﴾ الآية: كَأَنَّ الْكَلَامَ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا مَا حَقَّهُ أَنْ يُشْكِرَ، وَذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ فِي إِغْنَائِهِمْ مِنْ حَيْثُ كَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ مِنَ الْغَنَائِمِ،

(١) ينظر: «الأحكام» (٩٧٩/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦٠/٣).

(٣) (٤) أخرجه الطبري (٤٢٢/٦) برقم؛ (١٦٩٨٩)، وذكره ابن عطية (٦٠/٣)، وابن كثير (٣٧١/٢).

(٥) ذكره ابن عطية (٦٠/٣).

وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبَبٌ فِي ذَلِكَ، وَعَلَى هَذَا الْحَدِّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْأَنْصَارِ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ: «كُنْتُمْ عَالَةً، فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ»، قَالَ الْعِرَاقِيُّ: «نَقَمُوا»: أَي: أَنْكَرُوا.

وقال * ص * : «إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ»: إِنْ وَصَلَتْهَا: مَفْعُولٌ «نَقَمُوا»: أَي: مَا كَرِهُوا إِلَّا إِغْنَاءَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، وَقِيلَ: هُوَ مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، وَالْمَفْعُولُ بِهِ مَحْذُوفٌ، أَي: مَا كَرِهُوا الْإِيمَانَ إِلَّا لِلْإِغْنَاءِ. انْتَهَى.

ثم فتح لهم سبحانه باب التوبة؛ رفقاً بهم ولطفاً، فروي أن الجلاس تاب من النفاق، وقال: إِنْ اللَّهُ قَدْ تَرَكَ لِي بَابَ التَّوْبَةِ، فَأَعْتَرَفَ وَأَخْلَصَ، وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ ^(١).

﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبَ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ...﴾ الآية: هذه الآية نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري ^(٢)، قال الحسن: وفي مُعْتَبٍ بن قُشَيْرٍ معه،

(١) أخرجه الطبري (٤٢٤/٦) برقم: (١٦٩٩٩)، وذكره ابن عطية (٦١/٣)، والبغوي (٣١١/٢).

(٢) جاءت في «الإصابة» ترجمة ثعلبة بن حاطب أو ابن أبي حاطب الأنصاري بعد ترجمة ثعلبة بن حاطب بن عمرو وقال في ثعلبة بن حاطب أو ابن حاطب الأنصاري: ذكره ابن إسحاق فيمن بنى مسجد الضرار، وروى البازدي وابن السكن وابن شاهين وغيرهم في ترجمة الذي قبله من طريق معان بن رفاعه، عن علي بن زيد، عن القاسم، عن أبي أمامة - أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال النبي ﷺ: «قَلِيلٌ تُؤْذِي شُكْرُهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تَطِيقُهُ...». فذكر الحديث بطوله في دعاء النبي ﷺ له وكثرة ماله ومنعه الصدقة ونزول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ...﴾.

وفيه أن النبي ﷺ مات ولم يقبض منه الصدقة، ولا أبو بكر، ولا عمر، وأنه مات في خلافة عثمان. قال ابن حجر: وفي كون صاحب هذه القصة - إن صح الخبر ولا أظنه يصح - وهو البذري المذكور قبله - نظر، وقد تأكدت المغايرة بينهما، يقول ابن الكلبي: إن البذري استشهد بأحد، ويقوي ذلك أيضاً أن ابن مردويه روى في تفسيره من طريق عطية عن ابن عباس في الآية المذكورة. قال: وذلك أن رجلاً يقال له ثعلبة بن أبي حاطب من الأنصار أتى مجلساً فأشهدهم فقال: «لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ» [التوبة: ٧٥] الآية فذكر القصة بطولها، فقال: إنه ثعلبة بن أبي حاطب، والبذري اتفقوا على أنه ثعلبة بن حاطب؛ وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَذراً وَالْحَدِيثَةَ».

وحكى عن ربه أنه قال لأهل بدر: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فمن يكون بهذه المثابة كيف يُعقِبُهُ اللَّهُ نفاقاً في قلبه، وينزل فيه ما نزل؟ فالظاهر أنه غيره، والله أعلم.

وأختصار ما ذكره الطبري^(١) وغيره من أمره: أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مَالًا، فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ ذَا مَالٍ، لَقَضَيْتُ حَقُّوقَهُ، وَفَعَلْتُ فِيهِ الْخَيْرَ، فَرَادَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ» فَعَاوَدَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَوْ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَيِّرَ الْجِبَالَ مَعِيَ ذَهَبًا، لَسَارَتْ» فَأَعَادَ عَلَيْهِ حَتَّى دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَاتَّخَذَ غَنَمًا، فَتَمَتَّ كَمَا يَنْمُو الدَّوْدُ؛ حَتَّى ضَاقَتْ بِهِ الْمَدِينَةُ، فَتَنَحَّى عَنْهَا، وَكَثُرَتْ غَنِمُهُ، حَتَّى كَانَ لَا يُصَلِّي إِلَّا الْجُمُعَةَ، ثُمَّ كَثُرَتْ حَتَّى تَنَحَّى بَعِيدًا، فَتَرَكَ الصَّلَاةَ، وَتَجَمَّ نِفَاقُهُ، وَنَزَلَ خِلَالِ ذَلِكَ فَرَضَ الزَّكَاةَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُصَدِّقَيْنِ بِكِتَابِهِ فِي أَخْذِ زَكَاةِ الْغَنَمِ، فَلَمَّا بَلَغُوا ثَغْلَبَةَ، وَقَرَأَ الْكِتَابَ، قَالَ: هَذِهِ أُخْتُ الْجَزْيَةِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: دَعُونِي حَتَّى أَرَى رَأْيِي، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَخْبَرُوهُ، قَالَ: «وَيْحَ ثَغْلَبَةَ ثَلَاثًا، وَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِيهِ، فَحَضَرَ الْقِصَّةَ قَرِيبٌ لثَغْلَبَةَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَذْرُكَ أَمْرَكَ، فَقَدْ نَزَلَ فِيكَ كَذَا وَكَذَا، فَخَرَجَ ثَغْلَبَةُ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَرَغِبَ أَنْ يُؤَدِّيَ زَكَاتَهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَلَّا أَخْذَ زَكَاتَكَ»، فَبَقِيَ كَذَلِكَ حَتَّى تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ وَرَدَ ثَغْلَبَةَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ عَلَى عُمَرَ، ثُمَّ عَلَى عُثْمَانَ، يَرْغَبُ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ الزَّكَاةَ، فَكُلُّهُمْ رَدَّ ذَلِكَ وَأَبَاهُ؛ أَقْتَدَاءُ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَبَقِيَ ثَغْلَبَةُ كَذَلِكَ حَتَّى هَلَكَ فِي مَدَّةِ عُثْمَانَ^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿فَاعْقِبْهُمْ﴾: نص في العقوبة على الذنب بما هو أشد منه.

وقوله: ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾: يقتضي موافقتهم على التفاق، قال ابن العربي: في ضمير

= ينظر في: «أسد الغابة» (٤٨/٥)، «الإصابة» (٣٣/٦)، «تهذيب مستمر الأوهام» (ب ١٤٤)، «الاستيعاب» (١٣٥٨/٣)، «الجرح والتعديل» (٢١٥/٨)، «تجريد أسماء الصحابة» (٦٨/٢)، «الطبقات الكبرى» (٥٣٠/٥)، (٢٩/٦)، «الأنساب» (١٠٨/٣).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٢٥/٦).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢٥/٦ - ٤٢٦) رقم (١٧٠٠٢) والواحدي في «الوسيط» (٥١٣/٢) بتحقيقنا، وفي «أسباب النزول» ص: (١٩١ - ١٩٢) من طريق معان بن رفاعة، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة الباهلي به.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣٤/٧)، وعزاه للطبراني. وقال: وفيه علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (١٣٥/٣) سنده ضعيف، والحديث ضعفه الحافظ في «تخريج الكشاف» (٧٧) وقال: إسناده ضعيف جداً.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٧/٣)، وعزاه إلى الحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في «الأمثال»، والطبراني وابن منده والباوردي وأبو نعيم في «معركة الصحابة» وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» وابن عساكر.

﴿يَلْقَوْنَهُ﴾ قولان:

أحدهما: أنه عائد على الله / تعالى. ٢٢٢٨

والثاني: أنه عائد على النفاق مجازاً؛ على تقدير الجزاء؛ كأنه قال: فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقون جزاءً. انتهى من «الأحكام».

و﴿يلمزون﴾: معناه: ينالون بالسنتهم، وأكثر الروايات في سبب نزول الآية أنَّ عبد الرحمن بن عوف تصدَّق بأربعة آلاف، وأمسك مثلها.

وقيل: هو عمر بن الخطاب تصدَّق بِنُصف ماله، وقيل: عاصم بن عدي^(١) تصدَّق بمائة وسق^(٢)، فقال المنافقون: ما هذا إلا رياء، فنزلت الآية في هذا كله، وأما المتصدَّق بقليل، فهو أبو عقيل تصدَّق بصاع من تمر، فقال بعضهم: إن الله غني عن صاع أبي عقيل، وخزَّجه البخاري^(٣)، وقيل: إن الذي لُمِر في القليل هو أبو خَيْثَمَة؛ قاله كعب بن مالك^(٤).

﴿فيسخرون منهم﴾: معناه: يستهزئون ويستخفون وروى مسلم عن جرير بن

(١) هو: عاصم بن عدي بن الجد بن العجلان بن حارثة بن ضبيعة بن حرام بن جمل بن عمرو بن ودم بن ذبيان، أبو عبد الله، قال ابن الأثير:

شهد بدمراً وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقيل: لم يشهد بدمراً بنفسه لأن رسول الله ﷺ رده من الروحاء واستخلفه على العالية من المدينة، قاله محمد بن إسحاق وابن شهاب وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره. توفي سنة ٤٥ وله ١١٥ سنة.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣/ ١١٤)، «الإصابة» (٤/ ٥)، «الثقات» (٣/ ٢٨٦)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/ ٢٨٢)، «الاستيعاب» (٢/ ٧٨١)، «الاستبصار» (٢٩٨)، «بقي بن مخلد» (٢٥٦)، «الجرح والتعديل» (٦/ ٣٤٥)، «أصحاب بدر» (١٥٨)، «تهذيب التهذيب» (٥/ ٤٩)، «تهذيب الكمال» (٢/ ٦٣٦)، «الأعلام» (٣/ ٢٤٨)، «التحفة اللطيفة» (٢/ ٢٧٠)، «شذرات الذهب» (١/ ٥٤).

(٢) الوُسُق: ستون صاعاً وهو ثلاثمائة وعشرون رطلاً عند أهل الحجاز، وأربعمائة وثلاثون رطلاً عند أهل العراق على اختلافهم في مقدار الصاع والمد.

ينظر: «لسان العرب» (٤٨٣٦).

(٣) ورد هذا في حديث أخرجه البخاري (١٨١/ ٨) كتاب «التفسير» باب: «الذين يلمزون المطوعين في الصدقات» برقم: (٤٦٦٨ - ٤٦٦٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه، وعن ابن عباس أخرجه الطبري (٤٣٠/ ٦) برقم: (١٧٠١٨) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٦٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٧٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٧٠)، وزاد نسبه إلى ابن مردويه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٣٢) برقم: (١٧٠٣١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣/ ٦٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٧٠).

عبد الله، قال: كُنْتُ عند رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قَوْمٌ حُفَاءَ عُرَاةٍ مُجْتَابِي النَّمَارِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامِّيهِمْ مِنْ مُضَرٍّ، بِلِ كُلِّهِمْ مِنْ مُضَرٍّ، فتمتمر وجه رسول الله ﷺ؛ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فدخل ثُمَّ خرج، فأمر بلالاً، فأذن وأقام، فصلى ثم خطب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] والآية التي في سورة الحشر: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] تَصَدَّقَ رَجُلٌ؛ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهِمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ؛ حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجُزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كُومَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ؛ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١). انتهى.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠) فَسَحَّ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

وقوله سبحانه: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾: المعنى: أَلِلَّهِ خَيْرُ نَبِيٍّ فِي هَذَا، فَكَانَهُ قَالَ لَهُ: إِنْ شِئْتَ فَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَإِنْ شِئْتَ لَا تَسْتَغْفِرْ، ثُمَّ أَعْلَمَهُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لَهُمْ، وَإِنْ أَسْتَغْفَرَ سَبْعِينَ مَرَّةً، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِعُمَرَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ خَيْرَنِي فَأَخْتَرْتُ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنِّي إِذَا زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُمْ لَزِدْتُ...»^(٢) الحديث، وظاهر لَفْظِ الْحَدِيثِ رَفْضُ الْإِزَامِ دَلِيلُ الْخُطَابِ، وَظَاهِرُ صَلَاتِهِ ﷺ عَلَى ابْنِ أَبِي أَنْ كَفَرَهُ لَمْ يَكُنْ يَقِيناً عِنْدَهُ، وَمَحَالٌ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى كَافِرٍ، وَلَكِنَّهُ رَاعَى ظَوَاهِرَهُ مِنَ الْإِقْرَارِ

(١) أخرجه مسلم (٢/٧٠٤ - ٧٠٥) كتاب «الزكاة» باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار، حديث (١٠١٧/٦٩)، والنسائي (٥/٧٥) كتاب «الزكاة» باب: التحريض على الصدقة، حديث (٢٥٥٤) من حديث جرير.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/٤٣٥) برقم: (١٧٠٤٥) عن ابن عباس. وأخرجه عن مجاهد أيضاً (٦/٤٣٤) برقم: (١٧٠٤٠، ١٧٠٤٣) بنحو حديث ابن عباس. وذكره السيوطي في «الدر المشهور» (٣/٤٧٢) وعزاه إلى ابن جرير وابن أبي شيبة وابن المنذر.

وَوَكَّلَ سِرِيرَتَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَلَى هَذَا كَانَ سَتْرُ الْمُنَافِقِينَ، وَإِذَا تَرْتَّبَ كَمَا قُلْنَا التَّخْيِيرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، صَحَّ أَنَّ ذَلِكَ التَّخْيِيرَ هُوَ الَّذِي نُسَخَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي «سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ»: [٦]: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

* ت * : والظاهر أن الآيتين بمعنى، فلا نُسَخ، فتأمل، ولولا الإطالة لأَوْضَحْتُ ذلك.

قال * ع ^(١) * : وأما تمثيله بالسبعين دُونَ غيرها من الأعداد، فلأنه عددٌ كثيراً ما يجيء غايةً ومقنعاً في الكثرة.

وقوله: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى أمتناع العُفْرَانِ.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ...﴾ الآية: هذه آية تتضمَّن وصف حالهم، على جهة التوبيخ، وفي ضمنها وعيدٌ، وقوله: ﴿المُخَلَّفُونَ﴾: لفظٌ ب ٢٢٨ يقتضي تحقيرهم، وأنهم الذين أبعدهم الله مِنْ رضاه / و«مَقْعَدٌ»: بمعنى القُعُود، و«خِلَافٌ»: معناه: «بَعْدٌ»؛ ومنه قول الشاعر: [الطويل]

فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى تَأْهَبْ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَأَنَّ قَدِ
يريد: بعد الذي مَضَى.

وقال الطبري ^(٢): هو مصدرٌ: خَالَفَ يُخَالِفُ، وقولهم: ﴿لا تنفروا في الحر﴾: كان هذا القول منهم؛ لأن غزوة تبوك كَانَتْ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَطِيبِ الشَّامِ.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) فَإِنَّ رَجْعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَنْدَوْكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ (٨٣) وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآثُورًا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)

وقوله سبحانه: ﴿فليضحكوا قليلاً﴾؛ إشارة إلى مدة العُمر في الدنيا.

وقوله: ﴿وليبيكوا كثيراً﴾؛ إشارة إلى تأييد الخلود في الثَّارِ، فجاء بلفظ الأمر، ومعناه الخبر عن حالهم، وتقدير الكلام: لِيَبْكُوا كثيراً؛ إذ هم معذبون، جزاء بما كانوا يكسبون،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦٤/٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٣٥/٦).

وخرج ابن ماجه بسنده، عن يزيد الرقاشي^(١)، عن أنس، قال: قال النبي ﷺ: «يُرْسَلُ الْبُكَاءُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، فَيَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَّ حَتَّى تَصِيرَ فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الْأَخْدُودِ لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ»^(٢)، وخرجه ابن المبارك أيضاً عن أنس، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَأْيُهَا النَّاسُ، أَبْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَؤُا، فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ تَسِيلُ دُمُوعُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ، كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ، فَتَسِيلُ الدَّمَاءُ، فَتَقْرُحَ الْعُيُونُ، فَلَوْ أَنَّ سُفُنًا أُجْرِيتَ فِيهَا، لَجَرَتْ»^(٣)، انتهى من «التذكرة».

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ...﴾ الآية: يشبه أن تكون هذه الطائفة قد حُتِمَ عليها بالموافاة على النفاق، وعُيِنُوا للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾: نص في موافاتهم على ذلك؛ ومما يؤيد هذا ما روي أن النبي ﷺ عَنِيتُمْ لحذيفة بن اليمان، وكان الصحابة إذا رأوا حذيفة تأخر عن الصلاة على جنازة، تأخروا هم عنها، وروي عن حذيفة؛ أنه قال يوماً: بقي من المنافقين كذا وكذا^(٤).

وقوله: ﴿أَوَّلُ﴾ هو بالإضافة إلى وقت الاستئذان، و«الخالفون»: جمع من تخلف من نساء، وصبيان، وأهل عذر، وتظاهرت الروايات أنه ﷺ صَلَّى عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُبَيٍّ سَلُولٍ، وأن قوله: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ نزلت بعد ذلك، وقد خرج ذلك البخاري من رواية عمر بن الخطاب. انتهى^(٥).

﴿وَلَا تُجِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥) وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمْ

(١) يزيد بن أبان الرقاشي أبو عمرو البصري الزاهد، عن أبيه، وأنس، وعنه الأعمش، وأبو الزناد من أقرانه، تكلم فيه شعبة.

وقال الفلاس: ليس بالقوي، وضعفه ابن معين وله أخبار في المواعظ والخوف والبكاء. ينظر ترجمته في «الخلاصة» (١٦٦/٣) (٨٠٩٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٤٦/٢) كتاب «الزهد» باب: صفة النار، حديث (٤٣٢٤).

وقال البوصيري في «الزوائد» (٣٢٣/٣) هذا إسناد فيه يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه أبو يعلى (١٦٢/٧) برقم: (٤١٣٤) من طريق يزيد عن أنس به.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣٩٤/١٠) وقال: روى ابن ماجه بعضه، رواه أبو يعلى، وأضعف من فيه يزيد الرقاشي وقد وثق على ضعفه.

(٤) ذكره ابن عطية (٦٦/٣).

(٥) تقدم تخريجه.

الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾: تقدم تفسير مثل هذه الآية، والطول في هذه الآية المال؛ قاله ابن عباس وغيره^(١)، والإشارة بهذه الآية إلى الجد بن قيس ونظرائه، و«القاعدون»: الرُمَى وأهل العذر في الجملة، و«الخوالف»: النساء جمع خالفة؛ هذا قول جمهور المفسرين.

وقال أبو جعفر النحاس: يقال للرجل الذي لا خير فيه: خالفة، فهذا جمعه بحسب اللفظ، والمراد أخسُّ الناس وأخلافهم؛ ونحوه عن النضر بن شميل، وقالت فرقة: الخوالف: جمع خالف؛ كفارس وفوارس.

﴿وطبّع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾: أي: لا يفهمون، و«الخيرات»: جمع خيرة، وهو المستحسن من كل شيء.

وقوله سبحانه: ﴿أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾: ﴿أعد﴾: معناه يسر وهباً، وباقي الآية بين.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلُوبُكَ لَا أَحَدٌ مَّا أَهْلَكُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُ مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: هؤلاء كانوا مؤمنين، وكانت أعذارهم صادقة^(٢)، وأصل اللفظة: «المُعَذِّرُونَ»، فقلبت التاء ذالاً وأدغمت، وقال قتادة، وفرقة معه: بل الذين جاؤوا كفر^(٣)، وقولهم وعذرهم كذب. قال * ص *: والمعنى: تكلفوا العذر، ولا عذر لهم، و﴿كذبوا الله ورسوله﴾،

(١) أخرجه الطبري (٤٤١/٦) برقم: (١٧٠٧٦)، (١٧٠٧٧) نحوه، وذكره ابن عطية (٦٨/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٦/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) ذكره ابن عطية (٦٩/٣)، والبغوي (٣١٨/٢)، وابن كثير (٣٨١/٢) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٧/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٤/٦) برقم: (١٧٠٨٩ - ١٧٠٩٠)، وذكره ابن عطية (٧٠/٣)، وابن كثير (٣٨١/٢) نحوه.

أي: في إيمانهم. انتهى.

وقوله: ﴿سَيَصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ...﴾ الآية / قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ يؤيد أن ١٢٢٩
المعذرين كانوا مؤمنين، فتأمل، قال ابن إسحاق: المعذرون: نَفَرٌ من بني غِفَارٍ؛ وهذا
يقتضي أنهم مؤمنون.

وقوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى...﴾ الآية: يقول:
ليس على أهل الأعداء من ضَعْفِ بدنٍ أو مرضٍ أو عدمِ نفقةٍ إثمٍ؛ والْحَرَجُ: الإثم.

وقوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا﴾: يريد: بِنِيَّاتِهِمْ وأقوالهم سرًّا وجهراً، ﴿ما على المحسنين من
سبيل﴾: أي: من لائمةٍ تناطُ بِهِمْ، ثم أكد الرجاء بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾،
وقرأ ابن عباس^(١): «وَاللَّهُ لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، وهذا على جهة التفسير أشبه منه
على جهة التلاوة؛ لخلافه الْمُضْحَفُ، واختلف في مَنْ المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا
يَنْفِقُونَ﴾: فقالت فرقة: نَزَلَتْ في بَنِي مُقَرِّنٍ: سِتَّةٌ إِخْوَةٍ، وليس في الصحابة سِتَّةٌ إِخْوَةٍ
غيرهم، وقيل: كانوا سبعةً.

وقيل: نَزَلَتْ في عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو الْمُزَنِيِّ؛ قاله قتادة^(٢)، وقيل: في عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ
الْمَزَنِيِّ^(٣). قاله ابن عباس^(٤).

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ هذه الآية نَزَلَتْ في
الْبَكَّائِينَ، واختلف في تعيينهم، فقيل: في أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَرَهْطِهِ، وقيل: في بني
مُقَرِّنٍ؛ وعلى هذا جمهور المفسرين، وقيل: نَزَلَتْ في سبعة نَفَرٍ من بطون شَتَّى، فهم

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧٠/٣)، و«البحر المحيط» (٨٨/٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٥/٦) يرقم: (١٧٠٩٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/

٤٧٨)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) عبد الله بن معقل بن مقرن، أبو الوليد المزني، قال ابن حجر في «الإصابة»:

ذكره ابن فتحون في «ذيل الاستيعاب» ولم يذكر مستنداً لذكره في الصحابة، وقد قال ابن قتيبة: ليست
له صحبة ولا إدراك، وذكره في التابعين ابن سعد، والعجلي، والبخاري، وابن حبان وغيرهم، وله
رواية عند أبي داود في «المراسيل»، وقال بعده: ابن معقل لم يدرك النبي ﷺ.

قال العجلي: تابعي ثقة من خيار التابعين. توفي سنة ٨٨ تقريباً.

ينظر ترجمته في «الإصابة» (١٤٤/٥)، «الثقات» (٣٥/٥)، «بقي بن مخلد» (٦٤٤)، «الجرح والتعديل»

(١٦٩/٥)، «تقريب التهذيب» (٤٥٣/١)، «سير أعلام النبلاء» (٢٠٦/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٤٤٥/٦) يرقم: (١٧٠٩٤)، وذكره ابن عطية (٧٠/٣).

الْبَكَاؤُونَ، وقال مجاهد: الْبَكَاؤُونَ هم بنو مُقَرَّنَ من مُزَيْنَةَ^(١)، ومعنى قوله: ﴿لَتَحْمِلَهُمْ﴾: أي: عَلَى ظَهْرٍ يُرَكَّبُ، وَيُحْمَلُ عَلَيْهِ الْأَثَاثُ.

* ت * : وقصة أبي موسى الأشعريّ وَرَفِطِهِ مذكورة في الصّحيح، قال ابنُ العربيّ في «أحكامه»^(٢): القول بأن الآية نزلت في أبي موسى وأصحابه هو الصحيح، انتهى.

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٩٣) يَتَذَرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَزِيدُونَ لَكُمْ عَلِيمٍ الْعَنِيبِ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْتَشِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٤)

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ . . . ﴾ الآية: هذه الآية نزلت في المنافقين المتقدم ذكرهم: عبدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، وَالْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، وَمُعْتَبٌ، وَغَيْرُهُمْ.

وقوله: ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾: يريد: مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، ومعنى: ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾: لن نصدقكم، والإشارة بقوله: ﴿ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧]، ونحوه من الآيات.

وقوله سبحانه: ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾: توعد، والمعنى: فيقع الجزاء عليه، قال الأستاذ أبو بكر الطرطوشي: أَعْمَلُ لِلدُّنْيَا بِقَدْرِ مُقَامِكَ فِيهَا، وَأَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ بِقَدْرِ بَقَائِكَ فِيهَا، وَأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ، وَأَطْعُهُ بِقَدْرِ حَاجَتِكَ إِلَيْهِ، وَخَفُهُ بِقَدْرِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ، وَأَغْصِيهِ بِقَدْرِ صَبْرِكَ عَلَى النَّارِ. انتهى من «سراج الملوك».

وقوله: ﴿ ثُمَّ تَزِيدُونَ ﴾: يريد البعث من القبور.

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَيُخْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَيُخْرِضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَلَا تَنْزِلْ اللَّهُ عَنِ الْقَوَمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٩٦) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٩٧)

وقوله عز وجل: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ . . . ﴾ الآية: قيل: إن هذه

(١) أخرجه الطبري (٤٤٦/٦) برقم: (١٧٠٩٥، ١٧٠٩٨)، وذكره ابن عطية (٧١/٣)، وابن كثير (٢/٣٨١).

(٢) ينظر: «الأحكام» (٩٩٣/٢).

الآية من أول ما نَزَلَ في شأن المنافقين في غزوة تبوك.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾: أي: نَتَنَ وَقَذَر، وناهيك بهذا الوصف مَحَطَّة دنيوية، ثم عطف بمَحَطَّة الآخِرَةِ، فقال: ﴿وَمَا وَاهِمُ جَهَنَّمَ﴾، أي: مسكنهم.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا...﴾ إلى آخر الآية: شَرَطُ يَتَضَمَّنُ النِّهْيَ عن الرضا عنهم، وَحُكْمُ هذه الآية يستمر في كل مغموص عليه ببدعة ونحوها.

وقوله سبحانه: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾: هذه الآية نزلت في منافقين كانوا في البوادي، ولا محالة أن خوفهم هناك كان أقل من خوف منافقي المدينة، فالسنتهم لذلك مُطْلَقَةٌ، ونفاقهم أُنْجَمٌ، و﴿أَجْدَرُ﴾: معناه أخرى.

وقال * ص: * معناه / أحق، والحدود هنا: السُّنَنُ والأحكام.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَكْرِهُنَّ عَلَى إِتْرَافٍ بِأَعْيُنِهِمْ دَائِرَةً السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا...﴾ الآية نص في المنافقين منهم، و«الدوائر»: المصائب، ويحتمل أن تشتق من دَوْرَانِ الزمان، والمعنى: ينتظر بكم ما تأتي به الأيام، وتدور به، ثم قال على جهة الدعاء: ﴿عليهم دائرة السوء﴾، وكل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله عز وجل، فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء؛ لأن الله لا يدعوا على مخلوقاته، وهي في قبضته؛ ومن هذا ﴿وَنَبِّئْ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، ﴿وَنَبِّئْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، فهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى.

* ت: * وهذه قاعدة جيّدة، وما وقع له رحمه الله مما ظاهره مخالف لهذه القاعدة، وجب تأويله بما ذكره هنا، وقد وقع له ذلك بعد هذا في قوله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، قال: يحتمل أن يكون دعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً، أي: أستوجبوا ذلك، وقد أوضح ذلك عند قوله تعالى: ﴿قَتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]، فانظره هناك.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٩) وَالسَّائِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠)

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ قال قتادة: هذه ثنية الله تعالى من

الأعراب، وروي أن هذه الآية نزلت في بني مُقَرَّن؛ وقاله مجاهد^(١) ﴿ويتخذ﴾؛ في الآيتين بمعنى: يَجْعَلُهُ قَصْدَهُ، والمعنى: ينوي بنفخته ما ذكره الله عنهم، و﴿صَلَّوات الرسول﴾: دعاؤه، ففي دعائه خَيْرُ الدنيا والآخرة، والضَّمير في قوله: ﴿إنها﴾: يحتملُ عودَهُ على النَفَقَةِ، ويحتملُ عودَهُ على الصَّلوات، وباقي الآية بَيِّن.

وقوله سبحانه: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار...﴾ الآية: قال أبو موسى الأشعري وغيره: السابقون الأولون مَنْ صَلَّى القِبْلَتَيْنِ^(٢)، وقال عطاء: هم مَنْ شَهِدَ بَدْرًا^(٣).

وقال الشَّعْبِيُّ: مَنْ أدرك بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ^(٤)، ﴿والذين أتبعوهم بإحسان﴾: يريد: سائر الصحابة، ويدخل في هذا اللفظ: التَّابِعُونَ وسائر الأمة، لكن بشرطة الإحسان، وقرأ عمر بن الخطَّاب وجماعة: و﴿الأنصار﴾^(٥) - بالرفع -؛ عطفاً على «السابقون»، وقرأ ابن كثير: ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وقرأ الباقر^(٦): «تَحْتَهَا»، بإسقاط «مِنْ».

﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُونَ خَبْرَهُمْ تَعْلَمُهُمْ سَتَعْلَمُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّوهُ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾^(٧)

وقوله سبحانه: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق﴾: الإشارة بـ «مَنْ حولكم» إلى جُهَنَّة، ومُرَّنة، وأَسْلَم، وغِفَار، وعُصَيَّة، ولِحْيَان، وغيرهم مِنَ القبائل المجاورة للمدينة، فأخبر الله سبحانه عن منافقيهم، وتقدير الآية: ومن أهل المدينة قومٌ أو منافقون، هذا أحسن ما حُمِلَ اللفظ، ﴿ومردوا﴾: قال أبو عُبَيْدَةَ معناه:

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري (٤٥٤/٦) برقم: (١٧١٢٣)، وذكره ابن عطية (٧٥/٣)، والبيهقي (٣٢١/٢) برقم:

(١٠٠)، وذكره ابن كثير (٣٨٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٣/٣) وزاد نسبه إلى أبي

الشيخ، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في «المعرفة».

(٣) ذكره ابن عطية (٧٥/٣)، والبيهقي (٣٢١/٢) برقم: (١٠٠).

(٤) أخرجه الطبري (٤٥٣/٦) برقم: (١٧١١٦، ١٧١١٨، ١٧١٢٠، ١٧١٢١)، وذكره ابن عطية (٣/

٧٥)، والبيهقي (٣٢١/٢) برقم: (١٠٠)، وابن كثير (٣٨٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/

٤٨٤)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي الشيخ.

(٥) وقرأها الحسن وقتادة، وسلام بن سليمان الطويل، وسعيد بن أسعد، ويعقوب بن طلحة، وعيسى الكوفي.

ينظر: «الشواذ» (٥٩)، و«المحتسب» (٣٠٠/١)، و«الكشاف» (٣٠٤/٢)، و«المحرر الوجيز» (٣/

٧٥)، و«البحر المحيط» (٩٦/٥)، و«الدر المصون» (٤٩٧/٣).

(٦) وهي كذلك في مصاحف أهل مكة خاصة.

ينظر: «معاني القراءات» (٤٦٣/١)، و«حجة القراءات» (٣٢٢)، و«العنوان» (١٠٣)، و«شرح الطيبة»

(٤/٣٤٠)، و«شرح شملة» (٤١٤)، و«إتحاف» (٩٧/٢).

مَرْتَوْا عَلَيْهِ، وَلَجُوا فِيهِ^(١)، وقيل غير هذا ممّا هو قريب منه.

وقال ابن زَيْد: قاموا عليه، لَمْ يَتُوبُوا؛ كما تاب الآخَرُونَ، والظاهر مِنَ اللفظة أَنَّ التمرّد في الشيء أو المُرُود عليه إنما هو اللّجَاج والاشتِهَارُ به، والعتوّ على الزاجر، ورُكُوبُ الرأسِ في ذلك، وهو مستعملٌ في الشر لا في الخير؛ ومنه: شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَمَارِدٌ، وقال ابن العربي في «أحكامه»^(٢): ﴿مَرَدُوا عَلَى التَّفَاقِي﴾: أي: أستمروا عليه، وتحقّقوا به. انتهى، ذكره بعد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ [التوبة: ١٠٧].

ثم نفى عزّ وجلّ علّمَ نبيّه لهم على التغيين.

وقوله سبحانه: ﴿سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذابٍ عظيمٍ﴾: لفظ الآية يقتضي ثَلَاثَ مَوَاطِنَ مِنَ الْعَذَابِ، ولا خلاف بين المتأولين أن العذاب العظيم الذي يُرَدُّونَ إليه هو عذاب الآخرة، وأكثرُ النَّاسِ أن العذاب المتوسط / هو عذاب^(٣) القبر، واختلّف في عذاب المَرَّةِ الأولى: فقال ابنُ عَبَّاسٍ: عذابهم بإقامة حدود الشّرع عليهم، مع كراهيتهم فيه^(٤).

وقال إسحاق: عذابهم: هو هَمُّهم بظهور الإسلام، وَعُلُوّ كَلِمَتِهِ^(٥). وقال ابنُ عباسٍ أيضاً - وهو الأشهر عنه -: عذابهم هو فَضِيحَتُهُمْ وَوَضُمُّهُمْ بِالتَّفَاقِي^(٦). وقيل غيرُ هذا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَخْرَجُوا عَرَضَ الثَّارِ عَلَى اللَّهِ وَخَرَسُوا عَنَّا إِنَّهُ يَحْدُثُ الْغَيْبَ وَلَهُ الْغَيْبُ نُجُومٌ﴾^(٧)

﴿وَأَخْرَجُوا عَرَضَ الثَّارِ عَلَى اللَّهِ وَخَرَسُوا عَنَّا إِنَّهُ يَحْدُثُ الْغَيْبَ وَلَهُ الْغَيْبُ نُجُومٌ﴾ الآية. قال ابنُ عَبَّاسٍ، وأبو عُثْمَانَ: هَذِهِ الْآيَةُ فِي

(١) ذكره ابن عطية (٣/٧٥).

(٢) ينظر: «الأحكام» (٢/١٠١٢).

(٣) استدل على عذاب القبر من القرآن بقوله تعالى: ﴿الثَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ عطف عذاب يوم القيامة على عرض النار صباحاً ومساءً، فَعَلِمَ أَنَّهُ غيره، وما هو إلا عذاب القبر، لأن الآية وردت في حق الموتى، والأحاديث الصحيحة الدالة على عذاب القبر أكثر من أن تحصى بحيث تواتر القدر المشترك بينها في إثباته.

ينظر: «نشر الطوالع» (٣٧١).

(٤) ذكره ابن عطية (٣/٧٦).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/٤٥٨) برقم: (١٧١٥٠)، وذكره ابن عطية (٣/٧٦).

(٦) ذكره ابن عطية (٣/٧٦).

الْأَغْرَابِ، وهي عَامَّةٌ في الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(١). قال أبو عثمان: ما في القرآن آيةٌ أَرْجَى عِنْدِي لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْهَا^(٢). وقال مجاهد: بَلْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَبِي لُبَابَةَ الْأَنْصَارِيِّ خَاصَّةً فِي شَأْنِهِ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ لَمَّا أَشَارَ لَهُمْ إِلَى حَلْفِهِ، ثُمَّ نَدِمَ وَرَبَطَ نَفْسَهُ فِي سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ^(٣)، وقالت فرقة عظيمة: بل نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي شَأْنِ الْمُخَلْفِينَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ.

* ت * : وَخَرَجَ «الْبَخَارِيُّ» بِسَنَدِهِ عَنْ سُمُرَةَ بْنِ جَنْدُبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، فَأَبْتَعَنَانِي فَأَتَيْتَهُمَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَيْنٍ ذَهَبَ وَلَيْنَ فِضَّةٍ، فَتَلَقَانَا رِجَالٌ شَطَرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنَ مَا أَنْتَ رَأَى. وَشَطَرٌ كَأَفْجَحَ مَا أَنْتَ رَأَى، قَالَا لَهُمْ: أَذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنَ صُورَةٍ، قَالَا لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَذْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ، قَالَا: أَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطَرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطَرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ». انتهى^(٤).

﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٩٣﴾

وقوله تعالى: ﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ...﴾ الآية: رُوي أَنَّ الْجَمَاعَةَ التَّائِبَةَ لَمَّا تَيَبَّ عَلَيْهَا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَتَصَدَّقَ بِأَمْوَالِنَا زِيَادَةً فِي تَوْبَتِنَا، فَقَالَ لَهُمْ ﷺ: «إِنِّي لَا أَعْرِضُ لِأَمْوَالِكُمْ إِلَّا بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ»^(٥)، فَتَرَكَهُمْ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَهُمُ الْمُرَادُ بِهَا، فَرُوي أَنَّهُ ﷺ أَخَذَ ثُلُثَ أَمْوَالِهِمْ، مِرَاعَةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾،

(١) أخرجه الطبري (٤٦٢/٦) برقم: (١٧١٦٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٧٧/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٤٦٢/٦) برقم: (١٧١٦٦)، وذكره ابن عطية (٧٧/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٤٦١/٦) برقم: (١٧١٥٦، ١٧١٥٧، ١٧١٥٩)، وذكره ابن عطية (٧٧/٣)، وابن كثير (٣٨٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٨/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

(٤) أخرجه البخاري (١٩٢/٨) كتاب «التفسير» باب: «وآخرهم اعترفوا بذنوبهم»، حديث (٤٦٧٤)، ومسلم (١٧٨١/٤) كتاب «الرؤيا» باب: «رؤيا النبي ﷺ»، حديث (٢٣/٢٢٧٥)، والترمذي (٥٤٣/٤) كتاب «الرؤيا» باب: «ما جاء في رؤيا النبي ﷺ الميزان والدلو»، حديث (٢٢٩٤)، وأحمد (٨/٥)، (١٤، ٩)، وابن حبان (٤٢٧/٢، ٤٣١) برقم: (٦٥٥)، والطبراني في «الكبير» (٦٩٨٦، ٦٩٨٧)، (٦٩٨٨، ٦٩٨٩)، والبيهقي (١٨٧/٢ - ١٨٨)، والبقوي في «شرح السنة» (٤/٢٣٧ بتحقيقنا) كلهم من طريق أبي رجاء العطاردي عن سمرة بن جندب به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) ينظر: حديث توبة كعب بن مالك، وأصحابه، وقد تقدم تخريجه.

فهذا هو الذي تظاهرت به أقوال المتأولين، وقالت جماعة من الفقهاء: المراد بهذه الآية الزكاة المفروضة، وقوله تعالى: ﴿تَطَهَّرْهُمْ وَتَزَكِّهِمْ بِهَا﴾: أحسن ما يحتمل أن تكون هذه الأفعال مسندة إلى ضمير النبي ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: معناه: أدعُ لهم، فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم وطمأنينة ووقاراً، فهي عبارة عن صلاح المعتقد، والضمير في قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ قال ابن زَيْد: يراد به الذين لم يتوبوا من المتخلفين^(١)، ويحتمل أن يراد به الذين تابوا، وقوله: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ قال الزُّجَاج^(٢): معناه: ويقبل الصدقات^(٣)، وقد جاءت أحاديث صحاح في معنى الآية؛ منها حديث أبي هريرة: «إِنَّ الصَّدَقَةَ قَدْ تَكُونُ قَدْرَ اللُّقْمَةِ يَأْخُذُهَا اللَّهُ بِمِيزَانِهِ، فَيُرَبِّيهَا لِأَحَدِكُمْ كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ قَلْوَهُ أَوْ قَصِيلَهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(٤)، ونحو هذا من الأحاديث التي هي عبارة عن القبول والتحفّي بصدقة العبد.

وقوله: ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾: هي بمعنى «من».

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ وَعَمَلُوا إِلَىٰ رَسُولِهِ وَاسْمَعُوا لِمَنْ أَمَرَ اللَّهُ وَعَمَلُوا إِلَىٰ رَسُولِهِ﴾^(١٠٥) وَأَخْرُوجَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَبُوءُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(١٠٦) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ^(١٠٧) لَا نَقْعَ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُتِيَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ^(١٠٨) أَفَمَنْ أَتَسَسَّ بِئْسَنُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَسَّ بِئْسَنُ عَلَىٰ

(١) أخرجه الطبري (٤٦٦/٦) برقم: (١٧١٧٧)، وذكره ابن عطية (٧٩/٣).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤٦٧/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٧٩/٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٦/٣) كتاب «الزكاة» باب: الصدقة من كسب طيب، حديث (١٤١٠)، ومسلم (٧٠٢/٢) كتاب «الزكاة» باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث (٦٣)، (١٠١٤/٦٤)، والترمذي (٤٠/٣ - ٤١) كتاب «الزكاة» باب: ماء جاء في فضل الصدقة، حديث (٦٦١ - ٦٦٢)، والنسائي (٥٧/٥) كتاب «الزكاة» باب: الصدقة من غلول، وابن ماجه (٥٩٠/١) كتاب «الزكاة» باب: فضل الصدقة، حديث (١٨٤٢)، وأحمد (٣٣١/٢، ٣٨٢، ٤١٨، ٤١٩، ٤٣١)، والدارمي (٣٩٥/١) كتاب «الزكاة» باب: فضل الصدقة، وابن خزيمة (٩٣/٤) برقم: (٢٤٢٦)، وابن حبان (٣٣١٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وللحديث شاهد من حديث عائشة.

أخرجه أحمد (٢٥١/٦)، وابن حبان (٨١٩ - «موارد»)، والبخاري (٤٤١/١ - «كشف»)، حديث (٩٣١). والهيتمي في «المجمع» (١١٥/٣) وقال: رواه البزار، ورجاله ثقات.

شَفَا جُرُوبَ هَآرٍ فَاتَّهَارَ يَوْمَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُعِثُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة...﴾ الآية: هذه الآية صيغتها صيغة أمر مضمّنها الوعيد.

وقال الطبري^(١): المراد بها الذين اعتذروا من المتخلفين وتابوا.

قال * ع^(٢) *: والظاهر أن المراد بها الذين اعتذروا، ولم يتوبوا وهم المتوعدون، وهم الذين في ضمير ﴿ألم يعلموا﴾، ومعنى: ﴿فسيرى الله عملكم﴾، أي: موجوداً معرضاً للجزاء عليه بخير أو بشر.

وقال ابن العربي^(٣) في «أحكامه»: قوله سبحانه: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾ هذه الآية نزلت بعد ذكر المؤمنين، ومعناها: الأمر، أي: أعملوا بما يرضي الله سبحانه، وأما الآية المتقدمة، وهي قوله تعالى: ﴿قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ [التوبة: ٩٤]؛ فإنها نزلت بعد ذكر المنافقين، ومعناها: التهديد؛ وذلك لأن / النفاق موضع ترهيب، والإيمان موضع ترغيب، فقول أهل كل محل من الخطاب بما يليق بهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وآخرون مَرْجُونَ لأمر الله﴾: عطف على قوله أولاً: ﴿وآخرون اعترفوا﴾: ومعنى الإرجاء: التأخير، والمراد بهذه الآية فيما قال ابن عباس وجماعة: الثلاثة الذين خلفوا، وهم كعب بن مالك، وصاحبه^(٤) على ما سيأتي إن شاء الله، وقيل: إنما نزلت في غيرهم من المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنائهم مسجدة الضرار، وعلى هذا: يكون ﴿الذين آخذوا﴾ بإسقاط واو العطف بدلاً من ﴿آخرون﴾، أو خبر مبتدأ، تقديره: هم الذين، وقرأ عاصم^(٥) وعوام القراء، والناس في كل قطر إلا ب «المدينة»:

(١) ينظر: «الطبري» (٦/٤٦٧).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٨٠).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٢/٩٩٦).

(٤) سيأتي إن شاء الله تعالى.

(٥) وكذلك هي في مصاحف أهل الشام.

ينظر: «معاني القراءات» (١/٤٦٤)، و«إعراب القراءات» (١/٢٥٦)، و«العنوان» (١٠٣)، و«شرح

الطبية» (٤/٣٤١)، و«شرح شملة» (٤١٥)، و«إتحاف» (٢/٩٨).

﴿والذين اتخذوا﴾، وقرأ أهل المدينة، نافع وغيره الَّذِينَ اتَّخَذُوا - بإسقاط الواو -؛ على أنه مبتدأ، والخبر: ﴿لا يزال بُنيائهم﴾ وأما الجماعة المرادة بـ ﴿الذين اتخذوا مسجداً﴾، فهم منافقو بني عُمَ بن عَوْف، وبني سالم بن عَوْف، وأسند الطبري^(١)، عن ابن إسحاق، عن الزهري وغيره، أنه قال: أَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ من غزوة تبوك، حتى نَزَلَ بِذِي أَوَانَ - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحابُ مسجدِ الضَّرَارِ، قد أتوه ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ إنا قد بَنَيْنَا مَسْجِداً؛ لِدِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ، وَإِنَّا نَحِبُّ أَنْ تَأْتِنَا فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيهِ، فقال: «إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ، وَحَالِ شُغْلٍ، وَلَوْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَتَيْنَاكُمْ، فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ»، فَلَمَّا قَفَلَ، وَنَزَلَ بِذِي أَوَانَ، نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فِي شَأْنِ مَسْجِدِ الضَّرَارِ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَالِكَ بْنَ الدُّخَشَنِ وَمَعْنُ بْنَ عَدِيٍّ، أَوْ أَخَاهُ عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ، فَقَالَ: «انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ، فَأَهْدِمَاهُ، وَحَرِّقَاهُ» فَانْطَلَقَا مُسْرِعِينَ فَفَعَلَا وَحَرَّقَاهُ^(٢)، وَذَكَرَ الثَّقَافِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ لِهَدمِهِ وَتَحْرِيقِهِ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ وَوَخْشِيًّا مَوْلَى الْمُطْعَمِ بْنِ عَدِيٍّ، وَكَانَ بَانُوهُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، مِنْهُمْ ثُعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ، وَمُعْتَبُ بْنُ قُسَيْرٍ، وَتَبْتَلُ بْنُ الْحَارِثِ وَغَيْرِهِمْ، وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا بَنَى ﷺ مَسْجِداً فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَفَتْ الْهَجْرَةَ، وَهُوَ مَسْجِدُ «قُبَاءٍ» وَتَشَرَّفَ الْقَوْمُ بِذَلِكَ، حَسَدَهُمْ حِينَئِذٍ رَجَالٌ مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ مِنْ بَنِي عُمَ بْنَ عَوْفٍ، وَبَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وَكَانَ فِيهِمْ نِفَاقٌ، وَكَانَ مَوْضِعُ مَسْجِدِ «قُبَاءٍ» مَرْبِطاً لِحِمَارِ أَمْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَسْمُهَا: لَيْثٌ، فَكَانَ الْمَنَافِقُونَ يَقُولُونَ: وَاللَّهِ لَا نَضِيرُ عَلَى الصَّلَاةِ فِي مَرْبِطِ حِمَارٍ لَيْثٌ، وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْأَقْوَالِ، وَكَانَ أَبُو عَامِرٍ الْمَعْرُوفُ بِالرَّاهِبِ مِنْهُمْ، وَهُوَ أَبُو حَنْظَلَةَ غَسِيلِ الْمَلَائِكَةِ، وَكَانَ سَيِّداً مِنْ نَظَرَاءِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَيْبٍ سَلُولٍ، فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، نَافَقَ، وَلَمْ يَزَلْ مُجَاهِراً بِذَلِكَ، فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَاسِقَ، ثُمَّ خَرَجَ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمَنَافِقِينَ، فَحَزَبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْأَحْزَابَ، فَلَمَّا رَدَّهُمُ اللَّهُ بِعَنْظِهِمْ، أَقَامَ أَبُو عَامِرٌ بـ «مَكَّةَ» مَظْهَراً لِعِدَاوَتِهِ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ «مَكَّةَ»، هَزَبَ إِلَى «الطَّائِفِ»، فَلَمَّا أَسْلَمَ أَهْلُ الطَّائِفِ، خَرَجَ هَارِباً إِلَى الشَّامِ، يَرِيدُ قَيْصَرَ مُسْتَنْصِراً بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَتَبَ إِلَى الْمَنَافِقِينَ مِنْ قَوْمِهِ أَنْ أَتَوْا مَسْجِداً، مَقَامَةً لِمَسْجِدِ «قُبَاءٍ»، وَتَحْقِيراً لَهُ، فَإِنِّي سَأَتِي بِجَيْشٍ مِنَ الرُّومِ، أَخْرِجُ بِهِ مُحَمَّدًا، وَأَصْحَابَهُ مِنَ «الْمَدِينَةِ»، فَبَنُوهُ وَقَالُوا: سَيَأْتِي أَبُو عَامِرٍ وَيُصَلِّي فِيهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَارْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يَعْنِي: أَبَا عَامِرٍ، وَقَوْلُهُمْ: سَيَأْتِي أَبُو عَامِرٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿ضُرَاراً﴾ أَي: دَاعِيَةً لِلتَّضَارُرِ مِنْ / جَمَاعَتَيْنِ.

(١) أخرجه الطبري (٤٦٩/٦) برقم: (١٧٢٠٠)، وذكره ابن عطية (٨١/٣).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦٩/٦ - ٤٧٠) برقم: (١٧٢٠٠) من طريق ابن إسحاق به.

وقوله: ﴿تفريقاً بين المؤمنين﴾: يريد: تفريقاً بين الجماعة التي كانت تصلي في مسجد «قباء»، فإن من جاور مسجدهم كانوا يضربونه إليه، وذلك داعية إلى صرفه عن الإيمان، وقيل: أراد بقوله: ﴿بين المؤمنين﴾ جماعة مسجد رسول الله ﷺ، وروي: أن مسجد الضرار، لما هدم وأحرق، اتخذ مذبلة ترمى فيه الأقدار والقممات، وروي: أن النبي ﷺ لما نزلت: ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ كان لا يمر بالطريق التي هو فيها.

وقوله: ﴿لمسجد﴾: قيل: إن اللام لام قسم، وقيل: هي لام ابتداء، كما تقول: لزيد أحسن الناس فعلاً وهي مقتضية تأكيداً، وذهب ابن عباس وفرقة من الصحابة والتابعين إلى أن المراد بـ «مسجد أسس على التقوى»: مسجد «قباء»^(١) وروي عن ابن عمر وأبي سعيد وزيد بن ثابت؛ أنه مسجد النبي ﷺ^(٢) ويليق القول الأول بالقصة إلا أن القول الثاني مروى عن النبي ﷺ ولا نظير مع الحديث، قال ابن العربي^(٣) في «أحكامه»: وقد روى ابن وهب وأشهب، عن مالك؛ أن المراد بـ «مسجد أسس على التقوى»: مسجد النبي ﷺ حيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿وتركوك قائماً﴾ [الجمعة: ١١] وكذلك روى عنه ابن القاسم، وقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري، قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد «قباء»، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدني هذا». قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، وخرجه مسلم^(٤) انتهى.

ومعنى: ﴿أن تقوم فيه﴾: أي: بصلاتك وعبادتك.

- (١) أخرجه الطبري (٤٧٤/٦) برقم: (١٧٢٢٦ - ١٧٢٢٧)، وذكره ابن عطية (٨٢/٣).
 - (٢) أخرجه الطبري (٤٧٣/٦) برقم: (١٧٢١٦ - ١٧٢١٧)، وذكره ابن عطية (٨٢/٣)، والبخاري: (٢/٣٢٧).
 - (٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠١٤/٢).
 - (٤) أخرجه مسلم (١٠١٥/٢) كتاب «الحج» باب: بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة، حديث (١٣٩٨/٥١٤)، والترمذي (١٤٤/٢ - ١٤٥) كتاب «الصلاة» باب: ما جاء في المسجد الذي أسس على التقوى، حديث (٣٢٣)، وفي (٢٨٠/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٩)، وأحمد (٨/٣)، ٢٣، ٢٤، ٩١)، وابن أبي شيبة (٣٧٢/٢ - ٢٧٣)، وأبو يعلى (٢٧٢/٢ - ٣٧٣) برقم: (٩٨٥)، وابن حبان (١٦٠٦)، والحاكم (٣٣٤/٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥٤٤/٢ - ٥٤٥) من طرق عن أبي سعيد الخدري به.
- وذكره السيوطي في «الدور المشورة» (٢٧٧/٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ اُخْتَلَفَ فِي الضَّمِير أَيْضاً، هَلْ يَعُودُ عَلَى مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ عَلَى مَسْجِدِ «قُبَاء»؟ رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ أَتْنِي عَلَيْكُمْ بِالطُّهُورِ، فَمَاذَا تَفْعَلُونَ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا رَأَيْنَا جِيرَانَنَا مِنَ الْيَهُودِ يَتَطَهَّرُونَ بِالْمَاءِ يُرِيدُونَ الْأَسْتِنْجَاءَ، فَفَعَلْنَا نَحْنُ ذَلِكَ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، لَمْ نَدْعُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلَا تَدْعُوهُ إِذَنْ»^(١).

والبنیان الذي أُسِّسَ عَلَى شِفَا جُرْفٍ: هُوَ مَسْجِدُ الضَّرَارِ؛ بِإِجْمَاعٍ، وَ«الشَّفَا»: الْحَاشِيَةُ وَالشَّقِيرُ، وَ«هَارٍ»: مَعْنَاهُ مُتَهَدِّمٌ بِالٍ، وَهُوَ مِنْ: هَارَ يَهْوِرُ^(٢) الْبَخَارِيُّ: هَارَ هَائِرٌ تَهَوَّرَتِ الْبِئْرُ، إِذَا تَهَدَّمَتْ وَأَنْهَارَتْ مِثْلَهُ. انْتَهَى.

وَتَأْسِيسُ الْبِنَاءِ عَلَى تَقْوَى؛ إِنَّمَا هُوَ بِحُسْنِ النِّيَّةِ فِيهِ وَقَصْدِ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِظْهَارِ شُرْعِهِ؛ كَمَا صَنَعَ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِي مَسْجِدِ «قُبَاء»، وَالتَّأْسِيسُ عَلَى شِفَا جُرْفٍ هَارٍ إِنَّمَا هُوَ بِفَسَادِ النِّيَّةِ وَقَصْدِ الرِّيَاءِ، وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَهَذِهِ تَشْبِيهَاتٌ صَحِيحَةٌ بَارِعَةٌ.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: الظاهر منه أَنَّهُ خَارِجٌ مَخْرَجَ الْمَثَلِ، وَقِيلَ: بَلْ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْمَسْجِدَ بَعِينُهُ أَنْهَارُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؛ قَالَه قَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ^(٣)، وَرَوَى عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَغَيْرِهِ؛ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ الدُّخَانَ يَخْرُجُ مِنْهُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٤)، وَرَوَى فِي بَعْضِ الْكُتُبِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَاهُ حِينَ أَنْهَارَ بَلَّغَ الْأَرْضَ السَّابِعَةَ، فَقَرَعَ لَذَلِكَ ﷺ، وَرَوَى أَنَّهُمْ لَمْ يُصَلُّوا فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَهَذَا كُلُّهُ بِإِسْنَادٍ لَيِّنٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَأَسْنَدُ الطَّبْرِيِّ عَنْ خُلْفِ بْنِ يَاسِينَ، أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ مَسْجِدَ الْمَنَافِقِينَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، فَرَأَيْتُ فِيهِ مَكَاناً يَخْرُجُ مِنْهُ الدُّخَانُ^(٥) وَذَلِكَ فِي زَمَنِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ، وَرَوَى شَبِيهَ بِهَذَا أَوْ نَحْوَهُ عَنْ أَبِي جُرَيْجٍ^(٦): أَسْنَدُهُ الطَّبْرِيُّ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٤/٨) كتاب «التفسير» باب: سورة التوبة.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٧٩/٦) برقم: (١٧٢٦٠ - ١٧٢٦١)، وذكره ابن عطية (٨٥/٣)، والبخاري (٣٢٨/٣)، وابن كثير (٣٩١/٢)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٤٩٩/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري (٤٧٩/٦) برقم: (١٧٢٦٢)، وذكره ابن عطية (٨٥/٣)، والبخاري (٣٢٨/٢)، وابن كثير (٣٩١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٩/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه.

(٥) ذكره ابن عطية (٨٦/٣).

(٦) أخرجه الطبري (٤٧٩/٦) برقم: (١٧٢٦١).

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١) وفي قوله تعالى: ﴿فَأَنهَارُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، مع قوله: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارة: ٩] إشارة إلى أن النار تَحْتُ؛ كما أن الجنة فَوْقُ. انتهى.

والرَّيْبَةُ: الشُّكُّ، وقد يُسَمَّى رَيْبَةً فسادُ المعتقد، ومعنى الرَّيْبَةِ، في هذه الآية: أمرٌ يَعْمُ الغَيْطُ والْحَقُّ، ويعْمُ اعتقادُ صَوَابٍ فعلهم ونحو هذا مما يُؤدِّي كُلُّهُ إلى الارتياب في الإسلام، فمقصود الكلام: لا يَزَالُ هذا البنيانُ الذي هُدِمَ لهم، يَبْقَى في قلوبهم خَزَاةٌ وأَثَرٌ سَوْءٍ، وبالشُّكِّ فسر ابن عباس الريبة هنا^(٢).

وبالجملة إن الريبة هنا تعم معاني كثيرة يأخذ كل منافق منها بحسب قدره من النفاق.

وقوله: «إلا أن تُقَطَّعَ قلوبهم» - بضم التاء - يعني: بالموت، قاله ابن عباس وغيره^(٣) وفي مُضَحَف^(٤) أبي: «حَتَّى الْمَمَاتِ»، وفيه: «حَتَّى تُقَطَّعَ».

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْلِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْلُونَ وَيُقْلِلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِهِ يَوْمَ الَّذِي بَاعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٣﴾﴾ التَّائِبُونَ الْمُصَدِّقُونَ لِّلْعَهْدِ الَّذِي لَكُمْ وَالسَّامِعُونَ لِلْقَوَاعِدِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُتَّقُونَ الَّذِينَ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْآلَةِ الَّتِي بَاعُوا لَكُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْلِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْلُونَ وَيُقْلِلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِهِ يَوْمَ الَّذِي بَاعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٣﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ...﴾ الآية: هذه الآية نزلت في البيعة الثالثة، وهي بيعة العقبة الكبرى، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين؛ وذلك أنهم اجتمعوا مع النبي ﷺ عند العقبة، فقالوا: اشترط لك، ولربك، والمتكلم بذلك عبد الله بن راحة^(٥) فاشترط نبي الله

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠١٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٨٠/٦) برقم: (١٧٢٦٥)، وذكره ابن عطية (٨٦/٣)، والبيهقي في «تفسيره» (٢/٣٢٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٠/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «دلائل النبوة».

(٣) أخرجه الطبري (٤٨٠/٦) برقم: (١٧٢٦٥)، وذكره ابن عطية (٨٦/٣)، وابن كثير (٣٩١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٠/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «دلائل النبوة».

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٦/٣)، و«البحر المحيط» (١٠٥/٥).

(٥) هو: عبد الله بن راحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك الأغز. أبو محمد الأنصاري، الخزرجي.

كان ممن شهد العقبة، وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج، وشهد بدرًا، وأحدًا، والخندق، =

حمايته مما يحْمُونَ منه أنفسهم، وَأَشْرَطَ لِرَبِّهِ أَلْتَزَامَ الشريعة، وَقَتَالَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدَ فِي الدَّفْعِ عَنِ الْحَوْزَةِ، فَقَالُوا: مَا لَنَا عَلَى ذَلِكَ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ فَقَالَ: الْجَنَّةُ، فَقَالُوا: نَعَمْ، رِبْحَ الْبَيْعِ، لَا تَقِيلُ وَلَا تُقَالُ، وفي بعض الروايات: «وَلَا تَسْتَقِيلُ» فنزلت الآية في ذلك.

وهكذا نقله ابن العربي في «أحكامه»^(١)، عن عبد الله بن رَوَاحَةَ، ثم ذكر من طريق الشعبي، عن أبي أمامة أشْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ نحو كلام ابن رَوَاحَةَ.

قال ابن العربي^(٢): وهذا وإن كان سنده مقطوعاً، فإن معناه ثابتٌ مِنْ طرق. انتهى.

ثم الآية بَعْدَ ذلك عامة في كُلِّ مَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أمة نبينا محمد ﷺ إلى يوم القيامة، قال بعضُ العلماء: مَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا وَلِلَّهِ فِي عُنُقِهِ هذه الْبَيْعَةُ، وَفِي يَدَيْهِ أَوْ لَمِ يَفِ، وفي الحديث: «إِنَّ فَوْقَ كُلِّ بِرٍّ بِرٌّ حَتَّى يَنْزِلَ الْعَبْدُ دَمَهُ، فَإِذَا فَعَلَ، فَلَا بَرٌّ فَوْقَ ذَلِكَ». وأسد الطبري عن كثير من أهل العلم؛ أنهم قالوا: ثَامَنَ اللَّهُ تَعَالَى في هذه الآية عِبَادَهُ، فَأَعْلَى لَهُمْ؛ وقاله ابن عباس وغيره^(٣)، وهذا تأويل الجمهور.

وقال ابن عُيَيْنَةَ: معنى الآية: أَشْتَرَى مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَلَّا يُعْمِلُوهَا إِلَّا فِي طَاعَتِهِ، وَأَمْوَالَهُمْ أَلَّا يُفْقَوْهَا إِلَّا فِي سَبِيلِهِ، فالآية على هذا: أَعْمُ مِنَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وقوله: «يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» على تأويل ابن عُيَيْنَةَ: مقطوعٌ، ومستأنفٌ، وأما على تأويل الجمهور مِنْ أَنَّ الشراء والبيع إنما هو مع المجاهدين، فهو في موضع الحال.

وقوله سبحانه: «وَعِدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ»: قال المفسرون: ب ٢٣٢ يظهر من قوله: «فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» أَنَّ كُلَّ أمة أَمِرَتْ بِالْجِهَادِ، وَوَعِدَتْ عَلَيْهِ.

قال * ع^(٤) *: ويجتمل أَنَّ ميعاد أمة نبينا محمد ﷺ، تقدّم ذكره في هذه الْكُتُبِ، واللَّهُ أعلم.

= والحديبية، وخيبر، وعمرة القضاء، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا الفتح وما بعده، فإنه كان قد قتل قبله، وهو أحد الأمراء في غزوة مؤتة.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٣٤/٣)، «الإصابة» (٦٦/٤)، «النفات» (٢٢١/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (٣١٠/١)، «الاستبصار» (٥٣، ٥٦)، «الاستيعاب» (٢٩٨/٣)، «بقي بن مخلد» (٨٨٥)، «تقريب التهذيب» (٤١٥/١)، «تهذيب التهذيب» (٢١٢/٥)، «تهذيب الكمال» (٦٨١/٢).

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠١٨/٢).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠١٩/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٤٨٢/٦) برقم: (١٧٢٨١) نحوه، وذكره ابن عطية (٨٧/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٧/٣).

قال * ص * : وقوله: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾: ليس للطلب، بل بمعنى: أبشروا؛ كَاسْتَوْقَدَ، قال أبو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ في كتابه المسمَّى بـ «بَهجة المَجَالِسِ»: وروى عن النبي ﷺ أنه قَالَ: «مَنْ وَعَدَهُ اللَّهُ عَلَى عَمَلٍ ثَوَابًا، فَهُوَ مُنْجِزٌ لَهُ مَا وَعَدَهُ، وَمَنْ أَوْعَدَهُ عَلَى عَمَلٍ عِقَابًا، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»^(١). وعن ابن عباس مثله. انتهى. وباقى الآية يَبْنِ.

قال الفَخْر: وَأَعْلَمُ أَنَّ هذه الآية مشتملة على أنواع من التأكيدات:

فأولها: قوله سبحانه: ﴿إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، فكون المشتري هو الله المقدس عن الكذب والحيلة مِنْ أَذَلِّ الدلائل على تأكيد هذا العهد.

والثاني: أنه عبر عن إيصال هذا الثواب بالبيع والشراء، وذلك حَقٌّ مُؤَكَّد.

وثالثها: قوله: ﴿وَعَدَا﴾، ووعد الله حَقًّا.

ورابعها: قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾، وكلمة «على» للوجوب.

وخامسها: قوله: ﴿حَقًّا﴾، وهو تأكيد للتحقيق.

وسادسها: قوله: ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾، وذلك يجري مَجْرَى إَشْهَادِ جَمِيعِ الْكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ، وَجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَى هذه المبيعة.

وسابعها: قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾، وهو غاية التأكيد.

وثامنها: قوله: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾، وهو أيضاً مبالغة في التأكيد.

وتاسعها: قوله: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ﴾.

وعاشرها: قوله: ﴿الْعَظِيمُ﴾.

فثبت اشتمال هذه الآية على هذه الوجوه العشرة في التأكيد والتقريب والتحقيق.

انتهى.

وقوله عز وجل: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾، إلى قوله: ﴿وَيُشْرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هذه الأوصاف هي مِنْ صفات المؤمنين الذين ذكر الله أَنَّهُ اشْتَرَى مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، ومعنى الآية، على ما تقتضيه أقوال العلماء والشُرْع: أَنَّهَا أَوْصَافُ الْكَمَلَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ذكرها سبحانه، لِيَسْتَبَيِّنَ إِلَيْهَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ؛ حَتَّى يَكُونُوا فِي أَعْلَى رَتَبَةٍ، وَالْآيَةُ الْأُولَى مُسْتَقْلَةٌ

(١) تقدم تخريجه من حديث عبادة بن الصامت.

بنفسها، يقع تَحْتَ تلك المبايعة كُلُّ مَوْحَدٍ قَاتِلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعِلْيَا، وَإِنْ لَمْ يَتَّصَفْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ أَوْ بِأَكْثَرِهَا، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: بَلْ هَذِهِ الصِّفَاتُ جَاءَتْ عَلَى جِهَةِ الشَّرْطِ، وَالْآيَتَانِ مُرْتَبِطَتَانِ، فَلَا يَدْخُلُ فِي الْمَبَايَعَةِ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى هَذِهِ الْأَوْصَافِ، وَهَذَا تَحْرِيجٌ وَتَضْيِيقٌ، وَالْأَوَّلُ أَصَوْبٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

والشهادة ماحيةٌ لكلِّ ذَنْبٍ إِلَّا لِمَظَالِمِ الْعِبَادِ، وَقَدْ رَوَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحْمِلُ عَلَى الشَّهِيدِ مَظَالِمَ الْعِبَادِ، وَيَجَازِيهِمْ عَنْهُ، خَتَمَ اللَّهُ لَنَا بِالْحَسَنَى.

و﴿السَّائِحُونَ﴾: معناه: الصائمون، وروى عن عائشة، أَنَّهَا قَالَتْ: سِيَاحَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الصَّيَّامِ^(١)؛ أَسْنَدُهُ الطَّبْرِيُّ^(٢)، وَرَوَى أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ^(٣).

قَالَ الْفَخْرُ: وَلَمَّا كَانَ أَصْلُ السِّيَاحَةِ الْأَسْتِمْرَارَ عَلَى الذُّهَابِ فِي الْأَرْضِ، سُمِّيَ الصَّائِمُ سَائِحًا؛ لِأَسْتِمْرَارِهِ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَةِ وَتَرْكِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ مِنَ الْمَفْطَرَاتِ.

قَالَ الْفَخْرُ^(٤): عِنْدِي فِيهِ وَجْهٌ آخَرٌ، وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَمْتَنَعَ مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْوُقَاقِ، وَسَدَّ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الشَّهَوَاتِ، أُنْفَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْحِكْمَةِ وَتَجَلَّتْ لَهُ أَنْوَارُ عَالَمِ الْجَلَالِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَزْبَعَيْنَ صَبَاحًا، ظَهَرَتْ يَتَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»^(٥) فَيَصِيرُ مِنَ السَّائِحِينَ فِي عَالَمِ جَلَالِ اللَّهِ الْمُتَقَلِّبِينَ مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ، وَمِنْ

(١) أخرجه الطبري (٤٨٦/٦) برقم: (١٧٣٢٧)، وذكره ابن عطية (٨٩/٣).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨٤/٦) برقم: (١٧٣٠٠ - ١٧٣٠١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨٤/٦) برقم: (١٧٣٠٠) عن عبيد بن عمير قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين؟ فقال: هم الصائمون. وأخرجه برقم: (١٧٣٠١) عن أبي هارون قال: قال لي رسول الله ﷺ: السائحون هم: الصائمون.

(٤) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٦١/١٦).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٨٩/٥) من طريق محمد بن إسماعيل، ثنا أبو خالد يزيد الواسطي أنبأنا الحجاج عن مكحول عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً.

وقال أبو نعيم: كذا رواه يزيد الواسطي متصلاً، ورواه أبو معاوية عن الحجاج فأرسله.

ومن طريق أبي نعيم أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٤٤/٣).

وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ففيه يزيد الواسطي وهو يزيد بن عبد الرحمن.

قال ابن حبان: كان كثير الخطأ، فاحش الوهم، خالف الثقات في الروايات لا يجوز الاحتجاج به،

وحجاج مجروح، ومحمد بن إسماعيل مجهول، ولا يصح لقاء مكحول لأبي أيوب، وقد ذكر

محمد بن سعد أن العلماء قدحوا في رواية مكحول وقالوا: هو ضعيف في الحديث ١ هـ.

والحديث قد روي عن مكحول مرسلاً كما أشار إلى ذلك الحافظ أبو نعيم.

درجة إلى درجة». انتهى.

قال * ع^(١) : وقال بعض الناس، وهو في كتاب النقاش: «السائحون»: هم الجائلون بأفكارهم في قُدرة الله ومَلَكُوتِه وهذا قولٌ حَسَنٌ، وهو من أفضل العبادات، و«الراكون الساجدون»: هم المصلُّون الصَّلوات؛ كذا قال أهل العلم، ولكن لا يختلف في أنَّ من يكثر التَّوافل هو أَدْخَلَ في الأسم، وأَغْرَق في الاتِّصاف.

وقوله: «والحافظون لحدود الله» لفظٌ عامٌ تحته / ألتزامُ الشريعة. ١٢٣٣

* ت : قال البخاري: قال ابن عباس: الحدود: الطاعة^(٢).

قال ابن العربي^(٣) في «أحكامه»، وقوله: «والحافظون لحدود الله» خاتمةُ البيان، وعمومُ الاشتمال لكلِّ أمر ونهي. انتهى.

والمرسل أخرجه هُنا بن السري في «الزهد» برقم: (٦٧٨)، وابن أبي شيبة (٢٣١/١٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٨٩/٥) من طريق الحجاج عن مكحول مرسلًا.

وسنده ضعيف لضعف الحجاج مع إرساله. وللحديث شواهد من حديث أبي موسى وابن عباس. حديث أبي موسى: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٩٤٥/٥)، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٤٤/٣) من طريق عبد الملك بن مهران الرفاعي، حدثنا معن بن عبد الرحمن، عن الحسن، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «من زهد في الدنيا أربعين يوماً وأخلص فيها لله أخرج الله على لسانه ينابيع الحكمة من قلبه». وقال ابن عدي: هو منكر، وعبد الملك مجهول وأقره ابن الجوزي في «الموضوعات».

حديث ابن عباس: أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٦٦)، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٤٤/٣ - ١٤٥) من طريق سوار بن مصعب، عن ثابت، عن مقسم، عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «من أخلص لله تعالى أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه».

وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، قال أحمد ويحيى والنسائي: سوار بن مصعب متروك الحديث، وقال يحيى: ليس بثقة ولا يكتب حديثه. وقال أيضاً: وقد عمل جماعة من المتصوفة، والمتزهدين على هذا الحديث الذي لا يثبت، وانفردوا في بيت الخلوة أربعين يوماً، وامتنعوا عن أكل الخبز، وكان بعضهم يأكل الفواكه، ويتناول الأشياء التي تتضاعف قيمتها على قيمة الخبز، ثم يخرج بعد الأربعين فيهدي ويتخيل إليه أنه يتكلم بالحكمة، ولو كان الحديث صحيحاً فإن الإخلاص يتعلق بقصد القلب لا بفعل البدن فلله دُرُ العلم ا هـ.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٩/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥/٦) كتاب «الجهاد والسير» باب: فضل الجهاد والسير عن ابن عباس موقوفاً. وقال الحافظ في «الفتح» (٦/٦): وصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه، قلت: وعلي بن أبي طلحة لم يدرك ابن عباس، وفي ذلك رد على من يجزم أن تعليقات البخاري المجزومة كلها صحيحة.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٢٠/٢).

وقوله سبحانه: ﴿ويبشر المؤمنين﴾: قيل: هو لفظ عام، أمر ﷺ أن يبشر أمته جميعاً بالخير من الله، وقيل: بل هذه الألفاظ خاصة لمن لم يغز، أي: لما تقدم في الآية وغد المجاهدين وفضلهم، أمر ﷺ، أن يبشر سائر المؤمنين ممن لم يغز بأن الإيمان مخلص من النار، والحمد لله رب العالمين.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّتَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مِثْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمِيحُ وَيُخِثُّ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين...﴾ الآية: جمهور المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن أبي طالب، وذلك أن رسول الله ﷺ دخل عليه حين احتضر، فوعظه، وقال: «أني عم؛ قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، وكان بالحضرة أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقالا له: يا أبا طالب؛ أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال أبو طالب: يا محمد، والله، لولا أنني أخاف أن يُعَيَّرَ بها ولدي من بعدي، لأقرزت بها عينك، ثم قال: هو على ملة عبد المطلب، ومات على ذلك؛ إذ لم يسمع منه ﷺ ما قال العباس، فنزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] فقال رسول الله ﷺ: «والله، لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عَنْكَ»، فكان يستغفر له حتى نزلت هذه الآية^(١)، فترك نبي الله ﷺ الاستغفار لأبي طالب، وروي أن المؤمنين لما رأوا نبي الله ﷺ يستغفر لأبي طالب، جعلوا يستغفرون لموتاهم، فلذلك دخلوا في النهي، والآية على هذا ناسخة

(١) أخرجه البخاري (٢٦٣/٣) كتاب «الجنائز» باب: إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، حديث (١٣٦٠)، وفي (٢٣٢/٧) كتاب «مناقب الأنصار» باب: قصة أبي طالب، حديث (٣٨٨٤)، وفي (٨/١٩٢) كتاب «التفسير» باب: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾، حديث (٤٦٧٥) وفي (٨/٣٦٥) كتاب «التفسير» باب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ولكن الله يهدي من يشاء، حديث (٤٧٧٢) وفي (١١/٥٧٥) كتاب «الآيمان والندور»، حديث (٦٦٨١)، ومسلم (١/٢٤٤ - ٢٤٥). شرح النووي، كتاب «الإيمان» باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، حديث (٢٤/٣٩)، والنسائي (٤/٩٠ - ٩١) كتاب «الجنائز» باب: النهي عن الاستغفار للمشركين، حديث (٢٠٣٥)، وأحمد (٥/٤٣٣)، والطبري (٦/٤٨٨) رقم: (١٧٣٣٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/٣٤٢ - ٣٤٣) كلهم من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبيه به، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٥٥) وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، وابن مردويه.

لفعله ﷺ؛ إذ أفعاله في حُكم الشرع المستقر، وقال ابن عباس وقتادة^(١) وغيرهما: إنما نزلت الآية بسبب جماعة من المؤمنين قالوا: نَسْتَغْفِرُ لموتانا؛ كما أَسْتَغْفِرُ إبراهيم عليه السلام، فنزلت الآية في ذلك، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ أَسْتَغْفِرُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ...﴾ الآية: المعنى: لا حجة أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم عليه السلام، فإن ذلك لم يكن إلا عن موعدة، واختلف في ذلك، فقيل: عن موعدة من إبراهيم، وذلك قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مریم: ٤٧] وقيل: عن موعدة من أبيه له في أنه سيؤمن، فقوي طمعه، فحمله ذلك على الاستغفار له؛ حتى نُهي عنه، وموعدة من الوعد، وأما تبينه أنه عدو لله، قيل: ذلك بموت آزر على الكفر، وقيل: ذلك بأنه نُهي عنه، وهو حي، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ثناء من الله تعالى على إبراهيم، و«الأوَّاه» معناه الخائف الذي يُكثر التَّأوُّه من خوف الله عز وجل، والتَّأوُّه: التوجع الذي يكثر حتى ينطق الإنسان معه بـ «أوَّه»؛ ومن هذا المعنى قول المُثَقَّب العبدِي: [الوافر]

إِذَا مَا قُمْتَ أَزْحَلَهَا بَلِيلٍ تَأَوَّهَ أَهْمَةُ الرَّجُلِ الْحَزِينِ^(٢)
ويروى: آهة.

وروي أن إبراهيم عليه السلام كان يُسَمِعُ وَجِيبَ قَلْبِهِ^(٣) من الخشية، كما تُسَمِعُ أجنحة الشُّور، وللمفسرين في «الأوَّاه» عبارات كلها ترجع إلى ما ذكرته.

* ت * : روى ابن المبارك في «رقائقه»، قال: أخبرنا عبد الحميد بن بهرام، قال: حَدَّثَنَا شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْأَوَّاهُ؟ قَالَ: «الْأَوَّاهُ الْخَاشِعُ الدَّعَاءُ الْمُتَضَرِّعُ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾»^(٤) انتهى.

و﴿حليم﴾ معناه: صابر، محتلم، عظيم العقل، والجلم: العقل. وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ...﴾ الآية: معناه التأنيس للمؤمنين، وقيل: إن

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» عن قتادة، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٦/٣)، وعزاه أيضاً لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩١/٣).

(٣) وجب القلب يَجِبُ: وَجِباً وَجُوباً، وَوَجِبَاناً: خفق واضطرب.

ينظر: «لسان العرب» (٤٧٦٧).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٩٨/٦) برقم: (١٧٤٣١) من حديث عبد الله بن شداد، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٩/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

بعضهم خَافَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ، فنزلت الآيةُ مُؤنِّسةً، أي: ما كان الله بَعْدَ / أَنْ هَدَى إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَنْقَذَ مِنَ النَّارِ لِيُحِيطَ ذَلِكَ، وَيُضِلَّ أَهْلَهُ؛ لِمَوَاقِعَتِهِمْ ذَنْباً لَمْ يَتَقَدَّمْ مِنَ اللَّهِ عَنْهُ نَهْيٌ، فَأَمَّا إِذَا بَيَّنَّ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ مِنَ الْأُمُورِ، وَيَتَجَنَّبُونَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، فَحِينَئِذٍ مَنْ وَاقِعَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ النَّهْيِ، اسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ فَرَقِيَ لَهُمْ قُلُوبُ فَرَقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رُدُّوا رَجِيعٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ...﴾ الآية: التوبة مِنَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ رُجُوعُهُ بَعْدَهُ مِنْ حَالَةٍ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا، فَقَدْ تَكُونُ فِي الْأَكْثَرِ رُجُوعاً مِنْ حَالَةٍ طَاعَةٍ إِلَى أَكْمَلٍ مِنْهَا، وَهَذِهِ تَوْبَتُهُ سَبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَمَّا تَوْبَتُهُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَمَعْرُضَةٌ لِأَنْ تَكُونَ مِنْ تَقْصِيرٍ إِلَى طَاعَةٍ وَجِدِّ فِي الْغَزْوِ وَنُصْرَةِ الدِّينِ، وَأَمَّا تَوْبَتُهُ عَلَى الْفَرِيقِ الَّذِي نَادَى يَزِيعُ، فَرُجُوعٌ مِنْ حَالَةٍ مَحْطُوطَةٍ إِلَى حَالٍ غَفْرَانٍ وَرِضَا؛ وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ ذَكَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ تَوْبَةً مَنْ لَمْ يَذْنِبْ لَيْلًا يَسْتَوْجِبُ مَنْ أَذْنِبَ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَلَمْ يَذْنِبُوا، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾، فَذَكَرَ مَنْ لَمْ يَذْنِبْ لِيُؤَنِّسَ مَنْ قَدْ أَذْنِبَ، انْتَهَى مِنَ «لَطَائِفِ الْجَنَنِ».

﴿سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ يريد: وقت العسرة، والعُسرة الشدَّة، وضيق الحال، والعُدْمُ، وهذا هو جيشُ العُسرة الذي قال فيه ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، فَلَهُ الْجَنَّةُ»^(١)، فَجَهَّزَهُ عِثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَلْفٍ جَمَلٍ، وَأَلْفٍ دِينَارٍ، وَجَاءَ أَيْضاً رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِسَبْعِمِائَةٍ وَبَنِي مِنْ تَمَرٍ، وَهَذِهِ غَزْوَةُ تَبُوكَ.

* ت * وعن أَبِي عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: حَدِّثْنَا عَنْ شَأْنِ سَاعَةِ الْعُسْرَةِ، فَقَالَ عُمَرُ: خَرَجْنَا إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ، فَتَرَلْنَا مِنْزَلاً أَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْخَرُ بَعِيرَهُ، فَيَغْصِرُ قَرْعَةً^(٢) فَيَشْرِبُهَا، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧/٥) كتاب «الوصايا» باب: إذا وقف أرضاً أو بئراً، حديث (٢٧٧٨) عن عثمان بن عفان به، وأخرجه معلقاً (٦٥/٧) كتاب «فضائل الصحابة» باب: مناقب عثمان بن عفان.

(٢) القَرْعُ: السَّرْجِينُ مَا دَامَ فِي الْكَرْشِ. ينظر: «لسان العرب» ص: (٣٣٦٩).

عَلَى كَبِدِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَوَّدَكَ فِي الدَّعَاءِ خَيْرًا، فَادْعُ اللَّهَ، فَقَالَ: «أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَلَمْ يَزِجْهُمَا حَتَّى مَالَتْ السَّمَاءُ، فَأَظْلُتْ، ثُمَّ سَكَبَتْ فَمَلُّوا مَا مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ، فَلَمْ نَجِدْهَا جَاوَزَتْ الْعَسْكَرَ، رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ عَلَى الصَّحِيحِينَ»، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، يَعْنِي: مُسْلِمًا وَالبخاري^(١) انْتَهَى فِي «السَّلَاحِ»، وَوَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ إِلَى أَوَائِلِ بَلَدِ الْعَدُوِّ فَصَالَحَهُ أَهْلُ أَذْرَحَ وَأَيْلَةَ وَغَيْرَهُمَا عَلَى الْجِزْيَةِ وَنَحْوِهَا، وَأَنْصَرَفَ، وَالزَّيْفُ الْمَذْكُورُ هُوَ مَا هَمَّتْ بِهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَنْصَرَفِ؛ لِمَا لَقُوا مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْعُسْرَةِ. قَالَه الْحَسَنُ^(٢).

وقيل: زَيْغُهَا إِنَّمَا كَانَ بِظُنُونٍ لَهَا سَاءَتْ فِي مَعْنَى عَزَمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى تِلْكَ الْغَزْوَةِ، لَمَّا رَأَتْهُ مِنْ شِدَّةِ الْحَالِ وَقُوَّةِ الْعَدُوِّ وَالْمَقْصُودِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ؛ أَنَّهُ تَابَ أَيْضًا عَلَى هَذَا الْفَرِيقِ، وَرَاجَعَ بِهِ، وَأَنْسَ بِإِعْلَامِهِ لِلْأُمَّةِ بِأَنَّهُ رَوْفٌ رَحِيمٌ، وَالثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِفُوا هُمْ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةِ الْوَاقِفِيُّ وَمُرَّارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيُّ، وَقَدْ خَرَجَ حَدِيثُهُمْ بِكَمَالِهِ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٣)، وَهُوَ فِي السَّيْرِ؛ فَلِذَلِكَ اخْتَصَرْنَا سَوَقَهُ، وَهُمْ الَّذِينَ تَقَدَّمَ فِيهِمْ: «وَأَخْرَاجُ مَرْجُونٌ لِأَمْرِ اللَّهِ» [التوبة: ١٠٦]، وَمَعْنَى «خُلِفُوا» أَخْرَوْا، وَتَرِكَ النَّظَرَ فِي أَمْرِهِمْ، قَالَ كَعْبٌ: وَلَيْسَ بِتَخْلُفْنَا عَنِ الْغَزْوِ، وَهُوَ بَيِّنٌ مِنْ لَفْظِ الْآيَةِ.

وقوله: «وَضَنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ»، «ضَنُوا»؛ هُنَا بِمَعْنَى: أَيْقَنُوا، قَالَ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٠٢/٦) بِرَقْمٍ: (١٧٤٤٣) وَالبَزَارُ (٣٥٤/٢ - ٣٥٥ - كَشَفَ)، وَالحَاكِمُ (١٥٩/١)، وَابْنُ حِبَانَ (١٣٨٣)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (٢٣١/٥) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَقَالَ الْبَزَارُ: لَا نَعْلَمُهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنْ عُمَرَ بِهَذَا اللَّفْظِ. وَقَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَاقِفُهُ الذَّهَبِيُّ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَانَ. وَالحَدِيثُ ذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٦/١٩٨) وَقَالَ: رَوَاهُ الْبَزَارُ وَالتَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» وَرِجَالُ الْبَزَارِ ثَقَاتٌ.

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٩٣/٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٧١٧/٧، ٧١٩) كِتَابَ «الْمَغَازِي» بَابُ: حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، حَدِيثُ (٤٤١٨)، وَمُسْلِمٌ (٢١٢٠/٤، ٢١٢٨) كِتَابَ «التَّوْبَةِ» بَابُ: حَدِيثِ تَوْبَةِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَصَاحِبِيهِ، حَدِيثُ (٥٣/٢٧٦٩)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٨١/٥ - ٢٨٢) كِتَابَ «التَّفْسِيرِ» بَابُ: وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، حَدِيثُ (٣١٠٢)، وَابْنُ حِبَانَ (٣٣٧٠) وَالبَيْهَقِيُّ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (٢٧٣/٥، ٢٧٩) مِنْ طَرِيقِ الزَّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ بِهِ مَطْوَلًا.

وَقَدْ أَخْرَجَ جُزْءًا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الْبَخَارِيُّ بِرَقْمٍ: (٢٧٥٧، ٢٩٤٧، ٢٩٤٨، ٢٩٤٩، ٢٩٥٠، ٣٠٨٨، ٣٥٥٦، ٣٨٨٩، ٣٩٥١، ٤٦٧٣، ٤٦٧٦، ٤٦٧٧، ٤٦٧٨، ٦٢٥٥، ٦٦٩٠، ٧٢٢٥)، وَأَيْضًا أَبُو دَاوُدَ (٣٣٢٠)، وَالنَّسَائِيُّ (٥٣/٢ - ٥٤)، وَابْنُ مَاجَهَ (١٣٩٣)، وَأَحْمَدُ (٣٩٠/٦)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٥٣٩/١٤) كُلُّهُمْ مِنْ طَرِيقِ الزَّهْرِيِّ بِهَذَا الْإِسْنَادِ مُخْتَصَرًا.

الشيخ ابن أبي جَمْرَةَ رحمه الله: قال بعضُ أهل التوفيق: إذا نزلت بي نازلةٌ ما مِنْ أي نوع كانت، فَأَلْهَمْتُ فيها اللَّجَأَ، فلا أبا لي بها، / واللَّجَأُ على وجوه؛ منها: الاشتغال بالذكر ١٢٣٤ والتعبد وتفريض الأمر له عز وجل، لقوله تعالى على لسان نبيه: «مَنْ شَعَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ»^(١)، ومنها: الصَّدقة، ومنها: الدعاء، فكيف بالمجموع. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ لما كان هذا القول في تعديد النعم، بدأ في ترتيبه بالجهة التي هي عَنِ اللَّهِ عز وجل؛ ليكون ذلك مِنْهَا على تَلْقَى النعمة مِنْ عنده لا رَبِّ غيره، ولو كان هذا القول في تعديد ذَنْب، لكان أَلَبْتُهُم بالجهة التي هي عَنِ الْمُذْنِب، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ليكون ذلك أشدَّ تقريراً للذنب عليهم، وهذا مِنْ فصاحة القرآن وبديع نظمه ومُعْجَزِ آساقه.

وبيان هذه الآية ومواقع ألفاظها إنما يَكْمُلُ مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خَلَفُوا في الكُتُب المذكورة، فأنظره، وإنما عَظُمَ ذنبهم، وَأَسْتَحَقُّوا عليه ذلك، لأن الشرع يطلبهم مِنَ الْجِدِّ فيه بحسب منازلهم منه، وتقدّمهم فيه؛ إذ هم أَسْوَةٌ وَحُجَّةٌ للمنافقين، والطاعنين، إذ كان كُفُوبٌ مِنْ أَهْلِ الْعَقْبَةِ، وصاحبه من أَهْلِ بَدْر، وفي هذا ما يقتضي أَنَّ الرَّجُلَ الْعَالِمَ وَالْمُقْتَدِيَ بِهِ أَقْلُ عَذْرَاءٍ فِي السَّقُوطِ مِنْ سِوَاهُ، وَكُتِبَ الْأَوْزَاعِي رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ فِي آخِرِ رِسَالَةٍ: وَأَعْلَمْتُ أَنَّ قَرَابَتَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَنْ تَزِيدَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْكَ إِلَّا عَظَمًا، وَلَا طَاعَتَهُ إِلَّا وَجُوبًا، وَلَا النَّاسَ فِيمَا خَالَفَ ذَلِكَ مِنْكَ إِلَّا إِنْكَارًا، والسلام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ١١٩ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَفِيضُ الْكَفَّارُ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَعْمَالَ الْمُحْسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يَنْفُتُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٢١ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا الأمر بالكون مع الصَّادِقِينَ حَسَنٌ بعد قصة الثلاثة حين نَفَعَهُم الصَّدَق، وَذَهَبَ بِهِمْ عَنْ مَنَازِلِ الْمَنَافِقِينَ،

وكان ابن مسعود يتأول الآية في صدق الحديث^(١)، وإليه نحا كعب بن مالك.

وقوله سبحانه: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله...﴾ الآية؛ هذه الآية معاتبَةٌ للمؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها، على التخلف عن النبي ﷺ في غزوة، وقوة الكلام تعطي الأمر بضخبيته أين ما توجه غازياً وبذل النفوس دونه، و«المخمصة» مفعلة من خموص البطن، وهو ضموره وأستعير ذلك لحالة الجوع، إذ الخموص ملازم له، ومن ذلك قول الأعشى: [الطويل]

تَبِيتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءً بَطُونُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ غَزَى^(٢) يَبِثْنَ خَمَائِصًا^(٣)

وقوله: ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾: لفظ عامٌ لقليل ما يصنعه المؤمنون بالكفرة - من أخذ مال، أو إيراد هوان - وكثيره و«نيلاً»: مصدر نال يتال؛ وفي الحديث: «ما أزداد قوم من أهلهم في سبيل الله بُغداً إلا أزدادوا من الله قُرْباً».

* ت * : وروى أبو داود في «سننه»، عن أبي مالك الأشعري، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ فَصَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَمَاتَ، أَوْ قُتِلَ، فَهُوَ شَهِيدٌ، أَوْ وَقَصَهُ قَرَسُهُ أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَعَتْهُ هَامَةٌ، أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ بِأَيِّ حَتَفٍ شَاءَ اللَّهُ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ، وَإِنْ لَهُ الْجَنَّةُ»، انتهى^(٤).

قال ابن العربي^(٥) في «أحكامه»: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ولا يقطعون وادياً إلا كُتِبَ لَهُمْ﴾: يعني إلا كُتِبَ لَهُمْ ثَوَابُهُ، وكذلك قال في المجاهد: «إِنْ أَزَوَاتِ دَوَابِّهِ وَأَبْوَالُهَا حَسَنَاتٌ لَهُ» وَكَذَلِكَ أُعْطِيَ سَبْحَانَهُ لِأَهْلِ الْعُدْرِ مِنَ الْأَجْرِ مَا أُعْطِيَ لِلْقَوِيِّ الْعَامِلِ بِفَضْلِهِ،

(١) أخرجه الطبري (٥٠٩/٦ - ٥١٠) برقم: (١٧٤٧٠ - ١٧٤٧١)، وذكره ابن عطية (٩٥/٣)، والبغوي (٣٣٧/٢) نحوه، وابن كثير (٣٩٩/٢) نحوه.

(٢) جمع غَزَى وَغَزَنَانَةٍ، وَالْعَرْتُ: أيسر الجوع. ينظر: «لسان العرب» (٣٢٣١).

(٣) البيت للأعشى ينظر: «ديوانه» (١٤٩)، «الدر المصون» (٨٧/٢).

(٤) أخرجه أبو داود (١٢/٢) كتاب «الجهاد» باب: فيمن مات غازياً، حديث (٢٤٩٩)، والحاكم (٧٨/٢)، والبيهقي (١٦٦/٩) كتاب «السير» باب: فضل من مات في سبيل الله، والطبراني في «الكبير» (٣٢٠/٣) رقم: (٣٤١٨) كلهم من طريق ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي مالك الأشعري به.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي فقال: ابن ثوبان: لم يحتج به مسلم وليس بذلك، وعبد الرحمن بن غنم لم يدره مكحول فيما أظن.

(٥) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٢٩/٢).

ففي الصحيح، بأن النبي ﷺ قال في هذه الغزوة بعينها: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ قَوْمًا مَا سَلَكَتُمْ وَادِيًا وَلَا قَطَعْتُمْ شَيْعًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»^(١) انتهى.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَأَنَّهُمْ قُلُوبًا نَّفَرَتْ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَسْفَرُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٢)

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَأَنَّهُمْ قُلُوبًا نَّفَرَتْ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَسْفَرُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ الآية: قالت فرقة: إن المؤمنين الذين / كانوا بالبادية سكاناً ومبعوثين لتعليم الشَّرع، لما سمعوا قولَ الله عزَّ ٢٣٤ ب وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ...﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]، أهمُّهم ذلك، فنفروا إلى النبي ﷺ؛ خشية أن يكونوا عُصاة في التخلف عن الغزو، فنزلت هذه الآية في نفَرِهِمْ ذلك.

وقالت فرقة: سَبَبُ هذه الآية أن المنافقين، لما نزلت الآيات في المتخلفين، قالوا: هَلَكَ أَهْلُ الْبُؤَادِي، فنزلت هذه الآية مقيمةً لُغْزِرِ أَهْلِ الْبُؤَادِي.

قال * ع^(٢) * : فيجاء قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾: عمومٌ في اللفظ، والمراد به في المعنى الجمهور والأكثر، وتجيء هذه الآية مبينةً لذلك.

وقالت فرقة: هذه الآية ناسخةٌ لكلِّ ما ورد من إلزام الكافة الثَّفير والقتال، وقال ابنُ عباس ما معناه: أنَّ هذه الآية مختصةٌ بالبعوثِ والسرايا^(٣) والآية المتقدمة ثابتة الحكم مع خروج رسولِ الله ﷺ في الغزو، وَقَالَتْ فرقة: يشبه أن يكون التفقه في الغزو وفي

(١) أخرجه مسلم (١٥١٨/٣) كتاب «الإمارة» باب: ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر، حديث (١٩١١/١٥٩)، وابن ماجه (٩٢٣/٢) كتاب «الجهاد»، باب: من حبسه العذر عن الجهاد حديث (٢٧٦٥)، وأحمد (٣٠٠/٣) وأبو يعلى (١٩٣/٤) رقم (٢٢٩١) كلهم من طريق الأعمش عن أبي سفيان، عن جابر مرفوعاً.

وله شاهد من حديث أنس بن مالك. أخرجه البخاري (٧٣٢/٧) كتاب «المغازي» باب: نزول النبي ﷺ الحجر، حديث (٤٤٢٣)، ومسلم (١٥١٨/٣) كتاب «الإمارة» باب: ثواب من حبسه عن الغزو مرض، حديث (١٩١١/٥٩)، وأحمد (١٠٣/٣)، وابن ماجه (٩٢٣/٢)، كتاب «الجهاد»، باب: من حبسه العذر عن الجهاد حديث (٢٧٦٤)، وأبو يعلى (٤٥٠/٦ - ٤٥١) رقم: (٣٨٣٩)، والبيهقي في «شرح السنة» (٥٢٤/٥) - بتحقيقنا.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٦/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٥١٤/٦) برقم: (١٧٤٨٥) نحوه، وذكره ابن عطية (٩٦/٣ - ٩٧)، والبيهقي في «تفسيره» (٣٣٩/٢) نحوه، والسيوطي في «الدر المثور» (٥٢١/٣) نحوه، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «المدخل».

السرايا، لِمَا يَرَوْنَ مِنْ نُصْرَةِ اللَّهِ لِدِينِهِ، وإظهارِهِ الْعَدَدَ الْقَلِيلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَعَلِمَهُمْ بِذَلِكَ صَحَّةَ دِينِ الْإِسْلَامِ وَمَكَاتِهِ.

* ع^(١): والجمهور على أن التفقه إنما هو بمشاهدة رسول الله ﷺ وصُحْبَتِهِ، وقيل غير هذا.

* ت * وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَاَنْفَرُوا»^(٢)، وَقَدْ اسْتَنْفَرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَعْلَنَ بِهَا حَسَبَ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٧/٣).

(٢) ورد ذلك من حديث ابن عباس، وعائشة، ومجاشع بن مسعود، وصفوان بن أمية، ويعلى بن أمية التيمي، وقول ابن عمر، وقول عمر، وحديث أبي سعيد الخدري.
فأما حديث ابن عباس: فأخرجه البخاري (٤٥/٦) في «الجهاد» باب: وجوب النفير (٢٨٢٥)، (٦/٢١٩) باب: لا هجرة بعد الفتح (٣٠٧٧)، ومسلم (١٤٨٧/٣) في «الإمارة» باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام، والجهاد، والخير، وبيان معنى: لا هجرة بعد الفتح (١٣٥٣/٨٥)، وأبو داود (٦/٢) في «الجهاد» باب: في الهجرة، هل انقطعت؟ (٢٤٨٠)، والنسائي (١٤٦/٧) في «البيعة» باب: الاختلاف في انقطاع الهجرة، والترمذي (١٥٩٠)، وأحمد (٢٦٦/١)، (٣١٥، ٣١٦، ٣٤٤)، وعبد الرزاق (٥/٣٠٩) برقم: (٩٧١٣)، والدارمي (٢٣٩/٢) في «السير» باب: لا هجرة بعد الفتح، وابن حبان (٧/٤٨٤٥)، والطبراني في «الكبير» (٣٠/١١ - ٣١) برقم: (١٠٩٤٤)، وابن الجارود في «المتقى» (١٠٣٠)، والبيهقي (١٩٥/٥)، (١٦/٩)، وفي «دلائل النبوة» (١٠٨/٥)، والبخاري في «شرح السنة» بتحقيقنا (١٧٩/٤) برقم: (١٩٩٦)، و (٥٢٠/٥) برقم: (٢٦٣٠) من طريق منصور، عن مجاهد، عن طاووس، عن ابن عباس مرفوعاً به.

وتابعه إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، أخرجه الطبراني (١٨/١١) برقم: (١٠٨٩٨).

وأخرجه الطبراني (٤١٣/١٠) برقم: (١٠٨٤٤) عن شيبان، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأما حديث عائشة: فأخرجه البخاري (٢٢٠/٦) في «الجهاد» باب: لا هجرة بعد الفتح (٣٠٨٠)، (٧/٢٦٧) في «مناقب الأنصار» باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٠)، وفي (٦٢٠/٧) في «الغزاة» باب: (٥٣) برقم: (٤٣١٢)، ومسلم (١٤٨٨/٣) في «الإمارة» باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام، والجهاد، والخير... (٨٦ - ١٨٦٤)، وأبو يعلى (٤٩٥٢)، واللفظ لمسلم، ولأبي يعلى من طريق عطاء، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الهجرة؟ فقال: «لا هجرة بعد الفتح...» الحديث، وفي لفظ البخاري عن عطاء قال: زرت عائشة مع عبيد بن عمير فسألته عن الهجرة؟ فقالت: «لا هجرة اليوم، كان المؤمن يفر أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، فالؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية». وهكذا أخرجه البيهقي (١٧/٩).
وأما حديث مجاشع بن مسعود فأخرجه البخاري (١٣٧/٦) في «الجهاد» باب: البيعة في الحرب ألا

ما هو مصرّح به في حديث كَغَب بن مالِك في «الصَّحاح»، فكان العَتَبُ متوجّهاً على مَنْ

يفروا... (٢٩٦٢، ٢٩٦٣)، و (٢١٩/٦) باب: لا هجرة بعد الفتح (٣٠٧٨ - ٣٠٧٩)، و (٦١٩/٧) في «المغازي» باب: (٥٣) (٤٣٠٥ - ٤٣٠٨)، ومسلم (١٤٨٧/٣) في «الإمارة» باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام، والجهاد والخير، (٨٣ - ٨٤/١٨٦٣)، وأحمد (٤٦٨/٣ - ٤٦٩)، و (٧١/٥)، والحاكم (٣١٦/٣)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٥٢/٣)، والبيهقي (١٦/٩)، وفي «الدلائل» (١٠٩/٥) من طريق أبي عثمان النهدي: حدثني مجاشع قال: أتيت النبي ﷺ بأخي بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله، جئت بك بأخي لتبایعه على الهجرة، قال: «ذهب أهل الهجرة بما فيها»، فقلت: على أي شيء تبایعه؟ قال: «أبایعه على الإسلام، والإيمان، والجهاد»، فقلت معبداً بعد - وكان أكبرهما - فسألته، فقال: صدق مجاشع..

وأما حديث صفوان بن أمية: فأخرجه النسائي (١٤٥/٧) في «البيعة» باب: الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأحمد (٤٠١/٣) عن وهب بن خالد، عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن صفوان بن أمية قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يقولون إن الجنة لا يدخلها إلا مهاجر، قال: «لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، فإذا استغفرتم فانفروا».

وأخرجه أحمد (٤٠١/٣)، (٤٦٥/٦) عن الزهري، عن صفوان بن عبد الله بن صفوان، عن أبيه أن صفوان بن أمية بن خلف قيل له: هلك من لم يهاجر، قال: فقلت: لا أصل إلى أهلي حتى آتي رسول الله ﷺ، فركبت راحلتي، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله زعموا أنه هلك من لم يهاجر، قال: «كلا أبا وهب، فارجع إلى أباطع مكة».

وأما حديث يعلى بن أمية: فأخرجه النسائي (١٤١/٧) في «البيعة» باب: البيعة على الجهاد، (١٤٥/٧) في ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأحمد (٣٢٣/٤ - ٣٢٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٥٧/٢٢) رقم: (٦٦٤ - ٦٦٥)، والبيهقي (١٦/٩) من طريق ابن شهاب، عن عمرو بن عبد الرحمن بن أمية أن أباه أخبره أن يعلى قال: جئت إلى رسول الله ﷺ بأبي يوم الفتح، فقلت: يا رسول الله: بايع أبي على الهجرة، قال رسول الله ﷺ: «أبایعه على الجهاد، وقد انقطعت الهجرة».

وأما حديث أبي سعيد الخدري: فأخرجه أحمد (٢٢/٣) (١٨٧/٥)، والطيلوسي (٦٠١، ٩٦٧، ٢٢٠٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٠٩/٥) عن أبي البخري الطائي، عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ...﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها وقال: «الناس حيز، وأنا وأصحابي حيز»، وقال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية»، فحدثت به مروان بن الحكم وكان على المدينة، فقال له مروان: كذبت، وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت، وهما قاعدان معه على السرير، فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه من عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة، فسكتا، فرفع مروان عليه الدرة ليضربه، فلما رأيا ذلك، قالوا: صدق.

أما قول ابن عمر: فأخرجه البخاري (٢٦٧/٧) في «مناقب الأنصار» باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٨٩٩)، و (٦٢٠/٧) في «المغازي» باب: (٥٣)، و (٤٣٠٩، ٤٣١١) من طريق عطاء، عن ابن عمر كان يقول: لا هجرة بعد الفتح.

وفي لفظ آخر: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: إني أريد أن أهاجر إلى الشام، قال: لا هجرة، ولكن جهاد، فانطلق فاعرض نفسك، فإن وجدت شيئاً وإلا رجعت.

وأما قول عمر: فأخرجه النسائي (١٤٦/٧) في «البيعة» باب: الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأبو يعلى =

تأخر عنه بعد العلم، فيظهر والله أعلم، أن الآية الأولى باقي حكمها؛ كما قال ابن عباس، وتكون الثانية ليست في معنى الغزو، بل في شأن التفقه في الدين على الإطلاق^(١) وهذا هو الذي يفهم من استدلالهم بالآية على فضل العلم، وقد قالت فرقة: إن هذه الآية ليست في معنى الغزو، وإنما سببها قبائل من العرب أصابتهم مجاعة، فنفzوا إلى المدينة لمعنى المعاش، فكادوا يفيدونها، وكان أكثرهم غير صحيح الإيمان، وإنما أضرعه الجوع، فنزلت الآية في ذلك، والإنذار في الآية عام للكفر والمعاصي، والحد من أفعالها أيضاً؛ كذلك قال ابن المبارك في «رقائقه» أخبرنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، قال: إذا أراد الله تبارك وتعالى بعبد خيراً، جعل فيه ثلاث خصال: فقهاً في الدين، وزهادة في الدنيا، وبصره بعيوبه^(٢). انتهى.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قِيلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٦) وَإِذَا مَا أَنُزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَؤُلَاءِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٨﴾ أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا مَا أَنُزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَإِنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣٠﴾

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال الكفار كافة، فهي من التدرج الذي كان في أول الإسلام. قال * ع^(٣) *: وهذا ضعيف فإن هذه السورة من آخر ما نزل.

وقالت فرقة: معنى الآية أن الله تبارك وتعالى أمر فيها المؤمنين أن يقاتل كل فريق منهم الجنس الذي يليه من الكفرة.

وقوله سبحانه: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾: أي: خشونة وبأساً، ثم وعد سبحانه في آخر الآية وحض على التقوى التي هي ملاك الدين والدنيا، وبها يلقي العدو، وقد قال

في «مسنده» (١٨٦)، عن شعبة، عن يحيى بن هاني، عن نعيم بن دجاجة قال: سمعت عمر يقول: لا هجرة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه الطبري (٥١٤/٦) برقم: (١٧٤٨٨)، وابن كثير (٤٠١/٢)، والبيهقي في «تفسيره» (٥٢٢/٢).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٩٥ - ٩٦) رقم: (٢٨٢) ومن طريقه أبي نعيم في «حلية الأولياء» (٢١٣/٣).

(٣) ينظر: «المحور» (٩٧/٣).

بعض الصحابة: إنما تُقَاتِلُونَ النَّاسَ بِأَعْمَالِكُمْ، وَوَعَدَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ، فَلَنْ يُغْلَبَ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا...﴾ الآية: هذه الآية نزلت في شأن المنافقين، وقولهم: ﴿أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾ يحتمل أن يكون لمنافقين يثلبهم، أو لقوم من قراباتهم؛ على جهة الاستخفاف والتحقير لشأن السورة، ثم ابتداء عز وجل الرد عليهم بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إِيْمَانًا﴾ وذلك أنه إذا نزلت ١٢٣٥ سورة، حَدَّثَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهَا تَصْدِيقٌ خَاصٌّ، لم يكن قبل، فتصديقهم بما تضمنته السورة من أخبار وأمر ونهي أمر زائد على الذي كان عندهم قبل، وهذا وجه من زيادة الإيمان.

وجه آخر؛ أن السورة ربما تضمنت دليلاً أو تنبيهاً على دليل، فيكون المؤمن قد عَرَفَ اللَّهَ بَعْدَهُ أَدْلَةً، فإذا نزلت السورة، زادت في أدلته، وَوَجْهٌ آخَرُ مِنْ وَجْهِ الزيادة أن الإنسان ربما عرضه شك يسير، أو لاحث له شبهة مشعبة، فإذا نزلت السورة، ارتفعت تلك الشبهة، وَقَوِيَ إِيْمَانُهُ وَارْتَقَى أَعْتِقَادُهُ عَنْ مَعَارِضَةِ الشُّبُهَاتِ، و﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم المنافقون، و﴿الرَّجُسُ﴾؛ في اللغة: ينجي بمعنى القذر، ويجي بمعنى العذاب، وحال هؤلاء المنافقين هي قَذَرٌ، وهي عذاب عاجل، كقيل بأجل، وإذا تجدد كفرهم بسورة، فقد زاد كفرهم، فذلك زيادة رجس إلى رجسهم.

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني: المنافقين، وقرأ حمزة: «أَوَلَا تَرَوْنَ» - بالتاء من فوق -؛ على معنى: أَوَلَا تَرَوْنَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ؟ ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾، أي: يُخْتَبَرُونَ، وقرأ مجاهد: «مَرَضَةٌ أَوْ مَرَضَتَيْنِ»، والذي يظهر مما قبل الآية، ومما بعدها أن الفتنة والاختبار إنما هي بكشف الله أسرارهم وإفشائه عقائدهم؛ إذ يعلمون أن ذلك من عند الله، وبهذا تقوم الحجة عليهم، وأما الاختبار بالمرض فهو في المؤمنين.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ﴾: المعنى: وإذا ما أنزلت سورة فيها فضيحة أسرار المنافقين، ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾: أي: هل معكم مَنْ يَنْتَقِلُ عَنْكُمْ، هل يراكم من أحد حين تدبرون أموركم، ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ عَنْ طَرِيقِ الْاهْتِدَاءِ؛ وذلك أنهم وقت كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم، يقع لهم لا محالة تَعَجُّبٌ وَتَوَقُّفٌ وَنَظَرٌ، فلو أريد بهم خَيْرٌ، لكان ذلك الْوَقْتُ مَظَنَّةً لِّالْاهْتِدَاءِ، وقد تقدم بيان قوله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

وقوله عز وجل: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم . . .﴾ الآية مخاطبة للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهن؛ إذ جاءهم بلسانهم، وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة، وشرفوا به غابر الدهر.

وقوله: ﴿من أنفسكم﴾: يقتضي مذحاً لنسبه ﷺ، وأنه من صميم العرب، وشرفها، وقرأ عبد الله بن قُسيط المكي: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» - بفتح الفاء -؛ من النَّفَاسَةِ، ورويت عن النبي ﷺ، وقوله: ﴿ما عنتم﴾: معناه عنتكم؛ ف «ما» مصدرية، والعنت: المشقة، وهي هنا لفظة عامة، أي: عزيز عليه ما شق عليكم: من قتل وإسارٍ وأمتحانٍ؛ بحسب الحق وأعتقادكم أيضاً معه، ﴿حريصٌ عليكم﴾ أي: على إيمانكم وهداكم.

وقوله: ﴿بالمؤمنين رءوفٌ﴾ أي: مبالغٌ في الشفقة عليهم، قال أبو عبيدة: الرَّأْفَةُ أَرْقُ الرحمة.

ثم خاطب سبحانه نبيه بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، أي: أعرضوا، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: هذه الآية من آخر ما نزل، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تفسير سورة يونس

٢٣٥ ب

/ بعضها نزل بمكة، وبعضها بالمدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾﴾
 قوله عز وجل: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ المراد بـ ﴿الكتاب﴾: القرآن، و﴿الحكيم﴾: بمعنى مُحْكَم، ويمكن أن يكون: «حكيم» بمعنى ذي حِكْمَة، فهو على النَّسَب.

وقوله عز وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: سبب هذه الآية أَسْتَبْعَاذُ قُرَيْشٍ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بَشْرًا رَسُولًا^(١)، وَالْقَدَمُ هُنَا مَا قُدِّمَ، وَأَخْتَلَفَ فِي الْمُرَادِ بِهَا لِهَئِنَّا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ: هِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَاتُ مِنَ الْعِبَادَاتِ^(٢). وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ وَقَتَادَةُ: هِيَ شَفَاعَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ^(٣)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَغَيْرُهُ: هِيَ السَّعَادَةُ السَّابِقَةُ لَهُمْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ^(٤)، وَهَذَا أَلْيَقُ الْأَقْوَالِ

-
- (١) أخرجه الطبري (٥٢٧/٦) برقم: (١٧٥٤٢) وبرقم: (١٧٥٤٣) عن ابن جريج، وذكره ابن عطية (٣/١٠٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٠٦/٢) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٥/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.
- (٢) أخرجه الطبري (٥٢٧/٦ - ٥٢٨) برقم: (١٧٥٤٤، ١٧٥٤٧)، وذكره ابن عطية (٣/١٠٣)، والبغوي (٣/٣٤٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٠٦/٢) كلهم بنحوه.
- (٣) أخرجه الطبري (٥٢٨/٦) برقم: (١٧٥٥٥)، وذكره ابن عطية (٣/١٠٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٤٠٦) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٦/٣)، وزاد نسبه إلى أبي الشيخ.
- (٤) أخرجه الطبري (٥٢٨/٦) برقم: (١٧٥٥٤)، وذكره ابن عطية (٣/١٠٣)، والبغوي في «تفسيره» (٢/٣٤٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٠٦/٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٥/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

بالآية؛ ومن هذه اللفظة قولُ حَسَّان رضي الله عنه^(١): [الطويل]

لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلَفْنَا لأَوْلَنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ^(٢)
ومن هذه اللفظة قوله ﷺ: «حَتَّى يَضَعَ الْجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ»^(٣) أي ما قَدَّمَ لها، هذا على أن الجَبَّارَ أَسْمُ الله تعالى، و«الصُّدُق» هنا بمعنى الصَّلَاح، وقال البخاري: قال زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿قَدَّمَ صِدْقِي﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ^(٤). انتهى.

وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ مَبِينٌ﴾: إنما هو بسبب أنه فَرَّقَ بذلك كلمتهم، وحَالَ بين القريب وقريبه؛ فأشبهه ذلك ما يفعله السَّاحِرُ في ظَنِّهِمُ القَاصِرِ؛ فَسَمَّوْهُ سَاحِرًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذَنْهُ. ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ الآية: هذا أَبْتَدَأَ دَعَاءً إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وتوحيده، وَذَكَرَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ فِي مُدَّةٍ مَحْدُودَةٍ مَمْتَدَّةٍ، وَفِي الْقُدْرَةِ أَنْ يَقُولَ لَهَا: كُنْ؛ فَتَكُونُ، إِنَّمَا هِيَ لِيُعَلِّمَ عِبَادَهُ التَّوَدُّعَ وَالتَّمَاهُلَ فِي الْأُمُورِ، قَالَ * ع^(٥): * وهذا مما لَا يُوَصَّلُ إِلَى تَعْلِيلِهِ، وَعَلَى هَذَا هِيَ الْأَجَنَةُ فِي الْبُطُونِ، وَخَلَقَ الثَّمَارَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَهُوَ أَعْلَمُ بِوَجْهِ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ.

(١) ذكره ابن عطية (١٠٣/٣).

(٢) البيت في «ديوانه» (٢٤١)، والطبري (٢٠٩/١٣)، و«البحر» (١٢٤/٥)، و«الدر المصون» (٣٦٦/٣)، و«المحرر الوجيز» (١٠٣/٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٠/٨) كتاب «التفسير» باب: وتقول: ﴿هل من مزيد﴾، حديث (٤٨٤٨)، ومسلم (٢١٨٧/٤) كتاب «الجنة» باب: النار يدخلها الجبارون، حديث (٢٨٤٨/٣٧)، والترمذي (٣٩٠/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة ق، حديث (٣٢٧٢)، وأحمد (٣/١٣٤، ١٤١، ٢٣٤)، وأبو يعلى (٤٣٨/٥ - ٤٣٩)، رقم: (٣١٤٠)، وابن حبان (٢٦٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص: (٣٤٩) من حديث أنس.

(٤) أخرجه البخاري (١٩٦/٨) كتاب «التفسير» باب: «سورة يونس»، وذكر معلقاً بصيغة الجزم، ووصله ابن جرير من طريق ابن عيينة، عنه بهذا الحديث. كما قال ابن حجر، والطبري (٥٢٩/٦) برقم: (١٧٥٥٧)، وذكره ابن عطية (١٠٣/٣) بنحوه، والسيوطي في «الدر المثور» (٥٣٦/٣).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٤/٣).

وقوله سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يصحُّ أن يريد بالأمر أَسْمَ الجنس من الأمور، ويصحُّ أن يريد الأمر الذي هو مضدُّ أمر يأْمُرُ، وتدبيره لا إله إلا هو إنما هو الإنفاذ؛ لأنه قد أحاط بكلِّ شيء عِلْماً، قال مجاهد: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: معناه: يَقْضِيهِ وَخَدَهُ^(١).

وقوله سبحانه: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾؛ ردُّ على العرب في اعتقادها؛ أن الأصنام تشفع لها عند الله.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي: الذي هذه صفاته فأعبدوه، ثم قرَّره على هذه الآيات والعبر، فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً...﴾ الآية إنباء بالبعث.

وقوله: ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ يريد: النشأة الأولى، والإعادة: هي البعث من القبور.

﴿لِيَجْزِيَ﴾: هي لام كَيَّ، والمعنى: أن الإعادة إنما هي ليقع الجزاء على الأعمال.

وقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾: أي: بالعدل.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ابتداء، والْحَمِيمُ الحارُّ المسخَّن، وحميم النار فيما ذكَّر عن النبي ﷺ: «إِذَا أَذْنَاهُ الْكَافِرُ مِنْ فِيهِ، تَسَاقَطَتْ قَرْوَةٌ رَأْسِهِ»^(٢) وهو كما وصفه سبحانه: ﴿يَسْبُوِي الْوُجُوهُ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرُ مَنَازِلَ لِيَسْلُمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ نَارُ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِذْنِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾

(١) أخرجه الطبري (٥٣٠/٦) برقم: (١٧٥٥٩، ١٧٥٦٢)، وذكره ابن عطية (١٠٤/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٦/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الترمذي (٧٠٦/٤) كتاب «صفة جهنم» باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار، حديث (٢٥٨٤)، وفي (٤٢٦/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة سأل سائل، حديث (٣٣٢٢)، وأحمد (٣/٧٠-٧١)، وأبو يعلى (٥٢٠/٢) رقم: (١٣٧٥)، والحاكم (٦٠٢/٤) من حديث أبي سعيد الخدري. وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا...﴾ الآية: هذا استمرارٌ على وَصْفِ آيَاتِهِ سبحانه، والتنبيه على صنعته الدالة على وحدانيته، وعظيم قُدْرته.

وقوله: ﴿قُدْرَهُ مَنَازِلَ﴾: يحتمل أن يعود الضمير على «القمر» وحده؛ لأنه المراعى في معرفة عَدَدِ السَّنِينَ والحِسَابِ عند العرب، ويحتمل أن يريدَ الشَّمْسُ والقَمَرَ معاً، لكنه أجتزأ بذكر أحدهما؛ كما قال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وقوله: ﴿لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابِ﴾ أي: رفقا بكم، ورفعا للالتباس في معاشيكم وغير ذلك مما يضطر فيه إلى معرفة التواريخ.

وقوله: ﴿لَقَوْمٌ يَعْلَمُونَ﴾: إنما خصهم، لأن نفع هذا فيهم ظهر.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: آية اعتبار وتنبيه، والآيات: العلامات، وخصص القوم المثقين؛ تشريفاً لهم؛ إذ أُلْعِبُوا فيهم يقع، ونسبتهم إلى هذه الأشياء المنظورة فيها أفضل من نسبة من لم يَهْتَدِ ولا اتقى.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا...﴾ الآية: قال أبو عبيدة^(١) وغيره: ﴿يَرْجُونَ﴾، في هذه الآية: بمعنى يخافون^(٢)؛ واحتجوا ببَيِّنَاتٍ أبي ذؤيب: [الطويل]

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا وَحَالَفَهَا فِي بَيْتِ ثَوْبِ عَوَامِلٍ^(٣)
وقال ابن سيده والفرّاء: لفظة الرجاء، إذا جاءت منفية، فإنها تكون بمعنى الخوف، فعلى هذا التأويل معنى الآية: إن الذين لا يخافون لقاءنا، وقال بعض أهل العلم: الرجاء، في هذه الآية: على بابه؛ وذلك أن الكافر المكذب بالبعث لا يُحْسِنُ ظَنًّا بأنه يَلْقَى اللَّهَ، ولا له في الآخرة أمل؛ إذ لو كان له فيها أمل؛ لقارنه لا محالة خوف، وهذه الحال من الخوف المقارن هي القائدة إلى النجاة.

قال * ع^(٤): * والذي أقول به: إن الرجاء في كل موضع هو على بابه، وأن بيت

(١) ينظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢٧٥/١).

(٢) ذكره ابن عطية (١٠٦/٣).

(٣) البيت لأبي ذؤيب كما ذكر المصنف، ينظر: «ديوان الهذليين» (١٤٣/١)، «الكشاف» (٤٩٩/٤)، و«الدر المصون» (٥٣٤/١) و«جمهرة الشعراء» (٩).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٧/٣).

الهُدَلِيَّ معناه: لَمْ يَزُجْ فَقَدْ لَسِعَهَا، قال ابن زَيْد: هذه الآية في الكُفَّار^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: يريد: كَانَتْ مُنْتَهَى غَرَضِهِمْ، وقال قتادة في تفسير هذه الآية: إِذَا شَتَّتْ رَأَيْتَ هَذَا الْمَوْصُوفَ صَاحِبَ دُنْيَا، لَهَا يَغْضَبُ، وَلَهَا يَرْضَى، وَلَهَا يَفْرَحُ، وَلَهَا يَهْتَمُّ وَيَحْزَنُ، فَكَأَنَّ قَتَادَةَ صَوَّرَهَا فِي الْعَصَا^(٢)، وَلَا يَتَرْتَبِ ذَلِكَ إِلَّا مَعَ تَأْوِيلِ الرَّجَاءِ عَلَى بَابِهِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ الْعَاصِيَ مُسْتَوْجِبٌ مِنْ آخِرَتِهِ، فَأَمَّا عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ، فَمَنْ لَا يَخَافُ اللَّهَ، فَهُوَ كَافِرٌ.

وقوله: ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾: تَكْمِيلٌ فِي مَعْنَى الْقَنَاعَةِ بِهَا، وَالرَّفْضُ لغيرها.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَبْتَدَاءُ إِشَارَةٍ إِلَى فِرْقَةٍ أُخْرَى، ثُمَّ عَقَّبَ سَبْحَانَهُ بِذِكْرِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ...﴾ الآية، الْهَدَايَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَرِيدَ أَنَّهُ يَهْدِيهِمْ وَيُسَبِّحُهُمْ.

الثَّانِي: أَنْ يَرِيدَ أَنَّهُ يَرْشُدُهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ.

وقوله: ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْإِيْمَانُ هُوَ نَفْسُ الْهُدَى، أَيْ، يَهْدِيهِمْ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ بِنُورِ إِيْمَانِهِمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ: يَكُونُ لَهُمْ إِيْمَانُهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ، وَيَتَرَكَّبُ هَذَا التَّأْوِيلُ، عَلَى مَا رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ، إِذَا قَامَ مِنْ قَبْرِهِ لِلْحَشْرِ تَمَثَّلَ لَهُ رَجُلٌ جَمِيلُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُودُهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَبِعَكْسِ هَذَا فِي الْكَافِرِ، وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا أَسْنَدَهُ الطَّبْرِيُّ^(٣) وَغَيْرُهُ.

﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾

وقوله سبحانه: ﴿دَعَاوَهُمْ﴾: أَيْ: دَعَاوُهُمْ فِيهَا ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾: تَقْدِيسٌ وَتَسْبِيحٌ

وَتَنْزِيهٌ لَجَلَالِهِ سَبْحَانَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي ذَلِكَ: هِيَ كَلِمَاتٌ رَضِيَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ^(٤)، وَقَالَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا

(١) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/١٠٦)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرَرِ الْمَثُورِ» (٣/٥٣٧)، وَزَادَ نَسْبَتَهُ إِلَى أَبِي الشَّيْخِ.

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/١٠٧).

(٣) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٦/٥٣٦) بِرَقْمٍ: (١٧٥٨٣)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/١٠٧).

مَعْنَى سُبْحَانَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: مَعْنَاهَا: «تَنْزِيهَاً لِلَّهِ مِنَ السُّوءِ»، وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّهُمْ رَوَوْا أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ إِنَّمَا يَقُولُهَا الْمُؤْمِنُ عِنْدَ مَا يَشْتَهِي الطَّعَامَ، فَإِنَّهُ إِذَا رَأَى طَائِثاً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ»، فَنَزَلَتْ تِلْكَ الْإِرَادَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَوْقَ مَا أَشْتَهَى. رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ وَسَفِيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، وَعِبَارَةُ الدَّادُودِيِّ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ: «دَعَاوُهُمْ فِيهَا»: قَالَ: إِذَا مَرَّ بِهِمُ الطَّائِثُ يَسْتَهْوُونَ، كَانَ دَعَاوَهُمْ بِهِ «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ»، فَيَأْكُلُونَ مِنْهُ مَا يَشْتَهُونَ، ثُمَّ يَطِيرُ، وَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ بِمَا يَشْتَهُونَ، سَلَّمُوا عَلَيْهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ»، وَإِذَا أَكَلُوا حَاجَتَهُمْ، قَالُوا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَأَخْرَجُوا دَعَاوَهُمْ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وقوله سبحانه: «وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ»: يريد تسليم بعضهم على بعض، والتحية: مأخوذة من تَمَنَّى الحياة للإنسان والدُّعَاءُ بها، يقال: حَيَّاهُ وَيُحْيِيهِ؛ ومنه قولُ زهير بن جَنَابٍ: [الكامل]

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الْفَقَى قَدْ نَلَّاهُ إِلَّا التَّحِيَّةَ^(١)

يريد: دعاء الناس للملوك بالحياة، وقال بعض العلماء: «وَتَحِيَّتُهُمْ» يريد: تسليم الله تعالى عليهم، والسلام: مأخوذ من السلامة، «وَأَخْرَجُوا دَعَاوَهُمْ»: أي: خاتمة دعائهم وكلامهم في كل موطن حمدُ الله وشكره، على ما أسبغ عليهم من نعمه، وقال ابن العربي في «أحكامه»^(٢): في تفسير هذه الآية قولان:

الأول: أَنَّ الْمَلَكَ يَأْتِيهِمْ بِمَا يَشْتَهُونَ، فيقول: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، أي: سَلِمْتُمْ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ، فَإِذَا أَكَلُوا، قَالُوا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

الثاني: أَنَّ مَعْنَى «تَحِيَّتُهُمْ»: أي: تحية بعضهم بعضاً، فقد ثبت في الخبر: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اذْهَبْ إِلَى أَوْلَيْكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، فَجَاءَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا لَهُ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ: هَذِهِ تَحِيَّتُكَ، وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣)، وَبَيَّنَّ فِي الْقُرْآنِ هُنَا أَنَّهَا تَحِيَّتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ،

(١) البيت لزهير بن جناب في «إصلاح المنطق» ص: (٣١٦)، و«الأغاني» (٣٠٧/١٨)، و«الشعر والشعراء» (٣٨٦/١)، و«لسان العرب» (٤٦/١١) (بجل)، (٢١٦/١٤) (حيا)، و«المؤتلف والمختلف» ص: (١٣٠)، وبلا نسبة في «خزانة الأدب» (٢٩٩/٥)، و«شرح التصريح» (٣٢٦/١)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي: ص (١٠٠)، و«لسان العرب» (٢١٧/١٤) (حيا).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٥٠/٣).

(٣) تقدم تخريجه.

فهي تحية موضوعة من أول الخلقة إلى غير نهاية، وقد رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ، عن مالكٍ في قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: هذا السَّلام الذي بين أظهركم، وهذا أظهر الأقوال، والله أعلم. انتهى.

وقرأ الجمهور^(١): «أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ»، وهي عند سَيِّبَوْنِي^(٢) «أَنْ» المخففة من الثقيلة؛ قال أبو الفتح: فهي بمنزلة قول الأعشى: [البسيط]:

فِي فَتِيَّةِ كَسِيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ هَالِكُ كُلِّ مَنْ يَخْفَى وَيَسْتَعِجِلُ^(٣)
﴿وَلَوْ يَعْلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَفَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُم رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم...﴾ الآية: هذه الآية نزلت، في دعاء الرجل على نفسه أو ولده، أو ماله، فأخبر سبحانه أنه لو فعل مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريد فعله معهم في إجابته إلى الخير، لأهلكهم، وحذف بعد ذلك جملة يتضمنها الظاهر، تقديرها: فلا يفعل ذلك، ولكن يذُرُ ﴿الذين لا يرجون لقاءنا...﴾ الآية، وقيل: إن هذه الآية نزلت في قولهم: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقيل: نزلت في قولهم: ﴿أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [هود: ٣٢]، وما جرى مجراه، والعمّة: الخطب في ضلال.

وقوله سبحانه: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه...﴾ الآية: هذه الآية أيضاً

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٨/٣)، و«البحر المحيط» (١٣٢/٥).

(٢) ينظر: «الكتاب» (٤٨٠/١).

(٣) ينظر: «ديوانه» ص: (١٠٩)، و«الأزمية» ص: (٦٤)، و«الإنصاف» ص: (١٩٩)، و«تلخيص الشواهد» ص: (٣٨٢)، و«خزانة الأدب» (٤٢٦/٥)، (٣٩٠/٨)، (٣٩٣/١٠)، (٣٥٣/١١ - ٣٥٤)، و«الدور» (١٩٤/٢)، و«شرح أبيات سيويه» (٧٦/٢)، و«الكتاب» (١٣٧/٢)، (٧٤/٣)، (١٦٤، ٤٥٤)، و«المحتسب» (٣٠٨/١)، و«مغني اللبيب» (٣١٤/١)، و«المقاصد النحوية» (٢٨٧/٢)، و«المنصف» (١٢٩/٣)، وبلا نسبة في «خزانة الأدب» (٣٩١/١٠) و«وصف المباني» ص: (١١٥)، و«شرح المفصل» (٧١/٨)، و«المقتضب» (٩/٣)، و«معجم الهوامع» (١٤٢/١).

عتاب على سوء الخُلُق من بعض الناس، ومضمّنه النهي عن مثل هذا، والأمر بالتسليم إلى الله والصّراعة إليه في كلّ حال، والعلم بأنّ الخير والشر منه، لا ربّ غيره، وقوله: ﴿لجنبه﴾، في موضع الحال؛ كأنه قال: مضطجعا، والصّر عام لجميع الأمراض والرزايا.

وقوله: ﴿مر﴾ يقتضي أن نزولها في الكفار، ثم هي بعد تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر وعاص.

١٢٣٧ وقوله سبحانه: ﴿ولقد أهلكنا القرون من / قبلكم ...﴾ الآية: آية وعيد للكفار، وضرب أمثال لهم، و﴿خلائف﴾: جمع خليفة.

وقوله: ﴿لننظر﴾: معناه: لنبين في الوجود ما علمناه أولاً، لكن جرى القول على طريق الإيجاز والفصاحة والمجاز، وقال عمر رضي الله عنه: إنّ الله تعالى إنما جعلنا خلفاء؛ لينظر كيف عملنا؛ فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية^(١).

﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا أَذْرَيْتُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَرَبُّهُمْ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُشْرِكُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني: بغض كفار قريش: ﴿آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾، ثم أمر سبحانه نبيه أن يردّ عليهم بالحق الواضح، فقال: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا أَعْلَمُكُمْ بِهِ، وَلَا أَدْرَاكُمْ﴾ بمعنى: أعلمكم، تقول: دريت بالأمر، وأدريت به غيره، ثم قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ يعني: الأربعين سنة قبل بعثته عليه السلام، أي: فلم تجربوني في كذب، ولا تكلمت في شيء من هذا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أن من كان على هذه الصفة لا يصح منه كذب بعد أن ولى عمره، وتقاصر أمله، واشتدت جنكته وخوفه لربه.

(١) أخرجه الطبري (٥٣٩/٦) برقم: (١٧٥٩٤)، وذكره ابن عطية (١١٠/٣)، والسيوطي (٥٤٠/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، عن قتادة.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾: أَسْتَفْهَامٌ وتقرير، أي: لا أحد أظلم ممن أفتري على الله كذباً، أو ممن كذب بآياته؛ بعد بيانها، والضمير في ﴿يعبدون﴾ لكفار قريش، وقولهم: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾: هذا قول النبلاء منهم، ثم أمر سبحانه نبيه أن يقرّرهم ويوبّخهم بقوله: ﴿أَتُنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، وذكر السموات؛ لأن من العرب من يعبد الملائكة والشجرى، وبحسب هذا حسن أن يقول: ﴿هؤلاء شفعاؤنا﴾، وقيل: ذلك على تجويز في الأصنام التي لا تعقل.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ فِيهَا فَيُخْتَلَفُونَ﴾ (١٩) ﴿وَقَوْلُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢٠) ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَلَةٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا مَكْرُوكٌ﴾ (٢١)

وقوله سبحانه: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلَفوا﴾ قالت فرقة: المراد آدم كان أمة وحده، ثم اختلف الناس بعده، وقالت فرقة: المراد آدم وبنوه من لدن نزوله إلى قتل أحد أبنيه الآخر، ويحتمل أن يريد: كان الناس صنفاً واحداً بالفطرة معداً للاهتداء، وقد تقدّم الكلام على هذا في قوله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقوله سبحانه: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ يريد: قضاءه وتقديره لبني آدم بالآجال المؤقّته، ويحتمل أن يريد: الكلمة في أمر القيامة، وأن العقاب والثواب إنما يكون حينئذ.

وقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل.

وقوله: ﴿فانْتَظِرُوا﴾: وعيد.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ...﴾ الآية: هذه الآية في الكفار، وهي بعد تناول من العصاة من لا يؤدي شكر الله عند زوال المكروه عنه، ولا يرتدع بذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثير، والرحمة هنا بعد الضراء؛ كالمنطر بعد القحط، والأمن بعد الخوف ونحو هذا مما لا ينحصر، والمكر: الاستهزاء والطعن عليها من الكفار وأطراح الشكر والخوف من العصاة.

وقال أبو علي: ﴿أَسْرَعُ﴾ من «سَرَعَ» لا من «أَسْرَعَ يُسْرَعُ»، إذ لو كان من «أَسْرَعَ»، لكان شاذاً.

قال * ع^(١) * وفي الحديث في نار جهنم: «لَهَيَّ أَسْوَدُ مِنَ الْقَارِ»^(٢) وما حفظ للنبي ﷺ، فليس بشاذ. * ص * : وَرَدَّ بَأَن «أَسْوَدُ» مِنْ «فَعِلَ» لَا مِنْ «أَفْعَلَ»: تقول: سَوِدَ فَهُوَ أَسْوَدُ، وَإِنَّمَا أَمْتَنَعَ مِنْ «سَوِدَ» وَنَحْوِهِ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ نَ . انتهى .

﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَكْرٍ الْعَٰلِيِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغِيكُم عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَغَدَّتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰهَا أُنْزِلْنَا عَلَيْهَا لِيلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْزِ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ...﴾ الآية: تعيدُ نِعَمٍ مِنْهُ سبحانه على عباده .

وقوله سبحانه: ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: أي: نسوا الأصنام والشركاء، وأفردوا الدعاء لله سبحانه، وذكر الطبري في ذلك، عَنْ بعض العلماء حكاية قول العَجَم: «ها شرا هيا»، ومعناه: يا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، و﴿يَبْغُونَ﴾: معناه: يُفْسِدُونَ .

وقوله: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متاع: خبر مبتدأ محذوف، تقديره هو متاع، أو ذلك ٢٣٧ ب مَتَاع، ومعنى الآية: إِنَّمَا بِغِيكُم وإفسادكم / مُضِرٌّ لَكُمْ، وهو في حالة الدنيا، ثُمَّ تَلْقَوْنَ عقابه في الآخرة، قال سفيان بن عُيَيْنَةَ: إِنَّمَا بِغِيكُم عَلَى أَنْفُسِكُم مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: أَي تُعَجِّلُ لَكُمْ عِقَابَهُ؛ وَعَلَى هَذَا قَالُوا: الْبَغْيُ يَضُرُّ أَهْلَهُ .

قال * ع^(٣) * : وقالوا: الْبَاغِي مَصْرُوعٌ: قال تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]، وقال النبي عليه السلام: «مَا ذَنْبٌ أَسْرَعَ عُقُوبَةً مِنْ بُغْيٍ» .

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تفاخُرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وزِينَتُهَا بِالْمَالِ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٢/٣) .

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٩٤/٢) برقم: (٢) عن أبي هريرة موقوفاً .

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٤/٣) .

وَالْبَيْنِينَ، إِذْ مَصِيرُ ذَلِكَ إِلَى الْقَنَاءِ؛ كَمَطَرٍ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ﴿فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، أي: اختلف النباتُ بعضُهُ ببعضِ الماء، ولفظ البخاري: قال ابن عباس: ﴿فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾: فنبت بالماء مِنْ كُلِّ لَوْنٍ^(١) انتهى. و﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ﴾ لَفْظَةٌ كَثُرَتْ فِي مِثْلِ هَذَا، كَقَوْلِهِ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٣١] وَالزُّخْرُفُ: التَّزْيِينُ بِالْأَلْوَانِ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ^(٢) وَغَيْرُهُ: «وَتَزَيَّنْتُ»، وَهَذِهِ أَصْلُ قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ.

وقوله: ﴿وِظَنَ أَهْلِهَا﴾: عَلَى بَابِهَا، وَهَذَا الْكَلَامُ فِيهِ تَشْبِيهُ جَمْلَةً أَمْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ الْمَوْصُوفَةِ أَحْوَالِهَا، وَ﴿حَتَّى﴾ غَايَةٌ، وَهِيَ حَرْفُ أَبْتَدَاءٍ؛ لِدُخُولِهَا عَلَى «إِذَا»، وَمَعْنَاهُمَا مُتَّصِلٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾، وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ بَدَأَ الْجَوَابَ، وَالْأَمْرُ الْآتِي: وَاحِدُ الْأُمُورِ؛ كَالرَّيْحِ، وَالصَّيْرِ، وَالسُّمُومِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَتَقْسِيمُهُ «لَيْلًا أَوْ نَهَارًا»، تَنْبِيهُ عَلَى الْخَوْفِ وَارْتِفَاعِ الْأَمْنِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَ﴿حَصِيدًا﴾، بِمَعْنَى مُحْصُودٍ، أَي: تَالِفًا مُسْتَهِلِكًا، ﴿كَأَنَّهُمْ لَمْ تَعْنُ﴾: أَي: لَمْ تَنْضُرْ، وَلَمْ تَنْعَمْ، وَلَمْ تَعْمَرْ بِقَضَارَتِهَا، وَمَعْنَى الْآيَةِ: التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا؛ إِذْ هِيَ مَعْرُوضَةٌ لِلتَّلَفِ؛ كَنَبَاتِ هَذِهِ الْأَرْضِ وَخَصِّصَ الْمُتَفَكِّرِينَ بِالذِّكْرِ؛ تَشْرِيفًا لِلْمُتَزَلَّةِ؛ وَلِيَقَعَ التَّسَابُغُ إِلَى هَذِهِ الرِّبَةِ.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ...﴾ الْآيَةُ: نَصٌّ أَنَّ الدَّعَاءَ إِلَى الشَّرْعِ عَامٌّ فِي كُلِّ بَشَرٍ، وَالْهُدَايَةُ الَّتِي هِيَ الْإِرْشَادُ مَخْتَصَّةٌ بِمَنْ قَدَّرَ إِيْمَانَهُ، وَ﴿السَّلَامُ﴾؛ هُنَا: قِيلَ: هُوَ أَسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمَعْنَى: يَدْعُو إِلَى دَارِهِ الَّتِي هِيَ الْجَنَّةُ، وَقِيلَ: ﴿السَّلَامُ﴾ بِمَعْنَى السَّلَامَةِ.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتْنٍ وَزِيَادَةٍ وَلَا يَرْهَقُهُمْ نُقْرٌ وَلَا ذُلٌّ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَفْلِتُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغْشِيَتْ جُوهَهُمْ قَطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَكُمْ مَا كُنْتُمْ إِتَانًا تَقْبُدُونَ (٣٨) فَكُنْ بِأَلَدٍ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٣٩) هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلُّ نَفْسٍ مَا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٩٦/٨) كِتَابُ «التفسير» بَاب: «سورة يونس» وَذَكَرَهُ مُعْلَقًا بِصِيغَةِ الْجَزْمِ، وَوَصَلَهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ عَنْ ابْنِ جَرِيحٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...»، قَالَ الْحَافِظُ: اخْتَلَطَ فَنَبَتَ بِالْمَاءِ كُلُّ لَوْنٍ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ كَالْحَنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَسَائِرِ حُبُوبِ الْأَرْضِ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تفسيره» (٥٤٦/٦) بِرَقْمٍ: (١٧٦/٣).

(٢) يَنْظُرُ: «الْكَشَافُ» (٣٤١/٢)، وَ«الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (١١٤/٣)، وَزَادَ نَسْبَتَهَا إِلَى الْأَعْمَشِ وَأَبِي بَنْ كَعْبٍ، وَيَنْظُرُ: «الْبَحْرُ الْمُحِيطُ» (١٤٥/٥)، وَزَادَ نَسْبَتَهَا إِلَى زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ، وَهِيَ فِي «الدَّرِّ الْمَصُونِ» (٢١/٤).

أَسْلَفْتُ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَمَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

وقوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: قال الجمهور: ﴿الحُسْنَىٰ﴾: الجنة، وال ﴿زِيَادَةٌ﴾: النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ وفي «صحيح مسلم» من حديث ضَهَبٍ: «فَيَكْشِفُ الْجَحَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»، وفي رواية: ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وأخرج هذه الزيادة النَّسَائِيُّ عن ضَهَبٍ، وَأَخْرَجَهَا عَنْ ضَهَبٍ أَيْضاً أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ ^(١) انتهى من «التذكرة» ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ...﴾ الآية. و﴿يَرْهَقُ﴾ معناه: يَغْشَىٰ مع غلبة وتضييق، وال ﴿قَتَرٌ﴾: الغَبَارُ الْمُسْوَدُّ.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ قالت فِرْقَةٌ: التقدير لهم جزاء سيئة بمثلها، وقالت فرقة: التقدير جزاء سيئة مثلها، والباء زائدة، وتعم السيئات ههنا الكُفْرَ والمعاصي، وال ﴿عَاصِمٌ﴾: المنجِّي والمُجِير، و﴿أَغْشَيْتُ﴾: كُسَيْتُ، و﴿الْقَطْعُ﴾: جمع قِطْعَةٍ، وقرأ ابن كثير والكسائي: «قِطْعاً مِنَ اللَّيْلِ» - بسكون الطاء - ^(٣)، وهو الجزء من الليل، والمراد: الجزء من سواده، وباقي الآية بين.

و﴿مَكَانُكُمْ﴾: أَسْمُ فِعْلِ الْأَمْرِ، ومعناه: قِفُوا وَاسْكُنُوا، * ت * قال * ص * : وقد زب «اثبتوا» وأما من قدره بـ «أَلْزَمُوا مَكَانُكُمْ»، فمردود، لأن «الزموا» متعد، و﴿مَكَانُكُمْ﴾: لا يتعدى، فلا يقدر به، وإلا لكان متعدياً، واسم الفعل عَلَى حَسَبِ الْفِعْلِ إِنْ مُتَعَدِّياً فَمُتَعَدِّ، وَإِنْ لَازِماً فَلَا زِمَ، ثُمَّ أَعْتَذَرَ بِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُهُ بـ «أَلْزَمُوا» تَقْدِيرَ مَعْنَى، لا تَقْدِيرَ إِعْرَابٍ، فلا أَعْتَرَضَ، انتهى.

قال * ع * ^(٤): فأخبر سبحانه عن حالة تكون لعبدة الأوثان يوم القيامة يُؤْمَرُونَ

(١) أخرجه مسلم (١/٥٥٤ - ٥٥٥)، كتاب «الإيمان» باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، حديث (٢٩٧ - ٢٩٨/١٨١)، والنسائي في «التفسير» (٢٥٤)، وابن ماجه (١٨٧)، والترمذي (٢٥٥٢).

(٢) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (٢/٦٥٣).

(٣) وتحتل هذه القراءة أن تكون مفرداً من الجمع، أو تخفيفاً من قِطْعٍ مثل نَطْعٍ، ونَطْعٍ.

ينظر: «الدر المصون» (٤/٢٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/١١٧).

بالإقامة في موقف الجزى مع أصنامهم، ثم يُنطقُ الله شركاءهم بالتبري منهم.

وقوله: ﴿فَزِيلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: معناه: فرّقنا في الحُجّة، والمذهب / روي عن النبي ﷺ، ١٢٣٨
أَنَّ الْكُفَّارَ، إِذَا رَأَوْا الْعَذَابَ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، قِيلَ لَهُمْ: اتَّبِعُوا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ،
فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ هَؤُلَاءِ، فَتَقُولُ الْأَصْنَامُ: وَاللَّهِ، مَا كُنَّا نَسْمَعُ، وَلَا نَعْقِلُ، وَمَا كُنْتُمْ إِيَّانَا
تَعْبُدُونَ، فَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ، لِإِيَّاكُمْ كُنَّا نَعْبُدُ، فَتَقُولُ الْآلِهَةُ: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ...﴾ (١) الآية، وظاهر الآية أَنَّ محاورتهم إنما هي مَعَ الأصنام دون الملائكة
وَعِيسَى؛ بدليل القول لهم: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾، ودون فِرْعَوْنَ وَمَنْ عُبِدَ مِنْ
الْجِنِّ؛ بدليل قولهم: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾، و«إِنْ» هذه عند سَيِّئِهِ (٢) الْمُخَفَّفَةُ
من الثْقِيلَةِ موجِبَةٌ، ولزمتها اللام، فرقاً بينها وبين «إِنْ» النافية، وعندَ الْفَرَاءِ: «إِنْ» نافية
بمعنى «مَا»، واللام بمعنى «إِلَّا»، وقرأ نافع (٣) وغيره: «تَبَلَّوْا» - بالباء الموحدة -؛ بمعنى:
تختبر، وقرأ حمزة والكسائي: «تَتَلَّوْا» - بتاءين -؛ بمعنى تَتَّبِعْ وتطلب ما أَسْلَفَتْ من أعمالها
* ت * : قال * ص * : كقوله: [الرجز]

إِنَّ الْمُرِيبَ يَثْبَعُ الْمُرِيبَا كَمَا رَأَيْتَ الذِّيبَ يَثْلُو الذِّيبَا (٤)
أي: يتبعه. انتهى. ويصح أن يكون بمعنى تَفَرَّقَ كَتَبَهَا التي تُدْفَعُ إليها.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَذَّبِرُ الْأَمْرَ...﴾ الآية: تدبِيرُ الْأَمْرِ عامٌّ في جميع الأشياء، وذلك
استقامة الأمور كلها على إرادته عز وجل، وليس تدبيره سبحانه بفكرٍ ورويةٍ وتغييراتٍ
- تعالى عن ذلك - بل علمه سبحانه محيطٌ كاملٌ دائمٌ.

﴿فَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾: أي: لا مُنْذُوحةَ لهم عن ذلك، ولا تُمكنهم المباهة بسواه، فإذا
أقروا بذلك، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ في أفترائكم، وجعلكم الأصنام آلهة.

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الَّذِي فَلَمَّا دَا بَدَّ الْعَقْبُ إِلَّا السَّيْلُ فَأَنَّ يَصْرُوفُ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمَتْ

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٥٠)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
وأبي الشيخ عن مجاهد بنحوه.

(٢) ينظر: «الكتاب» (١/ ٤٨٠).

(٣) ينظر: «السبعة» ص: (٣٢٥)، و«الحجة» (٤/ ٢٧١)، «حجة القراءات» ص: (٣٣١)، «إعراب
القراءات» (١/ ٢٦٧)، و«إنحاف فضلاء البشر» (٢/ ١٠٨ - ١٠٩)، و«معاني القراءات» (٢/ ٤٣)،
و«العنوان» (١٠٥)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٥٠)، و«شرح شملة» (٤٢١).

(٤) البيت من شواهد «البحر» (٥/ ١٥٥)، والقرطبي (٨/ ٢٣٤)، و«الدر المنثور» (٤/ ٢٨).

رَبِّكَ عَلَى الْإِلَهِاتِ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٢﴾

وقوله: ﴿فذلکم الله ربکم...﴾ الآية: يقول: فهذا الذي هذه صفاته ربکم الحق، أي: المستوجب للعبادة والألوهية، وإذا كان كذلك، فتشريك غيره ضلالٌ وغيرُ حق.

قال *ع^(١): وعبرة القرآن في سوق هذه المعاني تفوت كل تفسير براعة وإيجازاً ووضوحاً، وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرها من مسائل الأصول التي الحق فيها في طرف واحد؛ لأن الكلام فيها إنما في تقرير وجود ذات كَيْفَ هي، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله تعالى فيها: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿فأني تصرفون﴾: تقرير؛ كما قال: ﴿فأين تذهبون﴾ [التكوير: ٢٦] ثم قال: ﴿كذلك حقت﴾ أي: كما كانت صفات الله كما وصف، وعبادته واجبة كما تقرّر، وأنصرف هؤلاء كما قدر عليهم، ﴿كذلك حقت كلمة ربك...﴾ الآية، وقرأ أبو عمرو^(٢) وغيره: «كلمة»؛ على الأفراد الذي يراؤ به الجمع؛ كما يقال للقصيد «كلمة» فعبر عن وعيد الله تعالى بـ «كلمة».

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْ تَوْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنْجِيَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي قُلْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظُلْمًا إِنَّ الظُّلْمَ لَا يَفْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده...﴾ الآية توقيف على قصور الأصنام وعجزها، وتنبيه على قدرة الله عز وجل، و﴿توفكون﴾: معناه: تُضرفون وتُخرمون، وأرض مأفوكه؛ إذا لم يُصَبَّها مطرٌ، فهي بمعنى الخيبة.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٨/٣)

(٢) وحجة من جمع أنها والتي بعدها كتبنا في المصاحف بالتاء. وحجة الباقي: إجماع الكل على التوحيد في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.

ينظر: «السبعة» ص: (٣٢٦)، «الحجة» (٢٧٢/٤ - ٢٧٣)، «حجة القراءات» ص: (٣٣١)، «إعراب القراءات» (٢٦٧/١)، «إتحاف» (١٠٩/٢)، «العنوان» (١٠٥).

وينظر: «المحرر الوجيز» (١١٨/٣)، و«البحر المحيط» (١٥٦/٥)، و«الدر المصون» (٣٠/٤).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾: أي: يبين طرق الصواب، ثم وصف الأصنام بأنها لا تهدي إلا أن تهدي.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾: فيه تجوُّز، لأننا نجدها لا تهدي وإن هُديت، وقال بعضهم: هي عبارة عن أنها لا تنتقل إلا أن تُنقل، ويحتمل أن يكون ما ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ تَسْبِيح الجمادات هو أهداؤها، وقرأ نافع وأبو عمرو: «يَهْدِي»^(١) - بسكون الهاء، وتشديد الدال -، وقرأ ابن كثير وابن عامر: يَهْدِي - بفتح الياء / والهاء، وتشديد الدال^(٢) - وهذه ٢٣٨ ب رواية ورش عن نافع، وقرأ حمزة والكسائي: «يَهْدِي» - بفتح الياء، وسكون الهاء^(٣) - ومعنى هذه القراءة: أَمَنْ لا يَهْدِي أحداً إلا أن يَهْدِي ذلك الأخذ، ووقف القراء: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾، ثم يبدأ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا...﴾ الآية: أخبر الله سبحانه عن فساد طريقتهم، وَضَعَفِ نَظَرِهِمْ، وأنه ظنٌّ، ثم بين منزلة الظن من المعارف، وَبُعْدهُ عن الحق.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: هذا رد لقول من يقول: إن محمداً يفتري القرآن، و﴿الذي بين يديه﴾: التوراة والإنجيل، وهم يقطعون أنه لم يطالع تلك الكتب، ولا هي في بلده، ولا في قومه، و﴿تفصيل الكتاب﴾ هو تبيينه.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ...﴾ الآية: «أم» هذه ليست بالمعادلة لهزمة الاستفهام،

(١) ينظر: «السبعة» ص: (٣٢٦)، «الحجة» (٢٧٤/٤ - ٢٧٥)، «حجة القراءات» ص: (٣٣١ - ٣٣٢)،

«إعراب القراءات» (٢٦٨/١)، و«إنحاف» (١٠٩/٢)، و«معاني القراءات» (٤٤/٢)، و«شرح الطيبة»

(٣٥١/٤)، و«العنوان» (١٠٥)، «شرح شلعة» (٤٢٢): ينظر السابق.

وذكره ابن عطية (١١٩/٣)، وذكر أنها قراءة شيبة والأعرج، وأبي جعفر.

(٢) ذكره ابن عطية (١١٩/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (١١٩/٣).

في قوله: أزيّد قام أم عمرو؟ ومذهب سيبويه: أنها بمنزلة «بَلْ» ثم عجزهم سبحانه بقوله: ﴿قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ...﴾ الآية: والتحدي في هذه الآية عند الجمهور وقع بجهتي الإعجاز اللّتين في القرآن:

إحدهما: النّظم والرّصف والإيجاز والجَزالة، كلّ ذلك في التعريف.

والأخرى: المعاني مِنَ الغَيْبِ لِمَا مَضَى، ولما يُسْتَقْبَلُ.

وحين تحدّاهم بـ «عَشْرِ مَفْتَرِيَّاتٍ» إنما تحدّاهم بالنّظم وخده، ثم قال * ع^(١) : * هذا قول جماعة المتكلّمين، ثم اختار أن الإعجاز في الآيتين إنما وقع في النّظم لا في الإخبار بالغيوب.

* ت * : والصواب ما تقدّم للجمهور، وإليه رجّع في «سورة هود» وأوجّه إعجاز القرآن أكثر من هذا وأنظر «الشفا».

وقوله: ﴿مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾: إحالة على شركائهم.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ...﴾ الآية: المعنى: ليس الأمر كما قالوا مِنْ أَنَّهُ مَفْتَرَى، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾، أي: تفسيره، وبيانه، ويحتمل أن يريد بما لم يأتهم تأويله، أي: ما يؤول إليه أمره؛ كما هو في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وعلى هذا، فالآية تنصّن وعيداً، و﴿الذين من قبلهم﴾: مَنْ سلف من أمم الأنبياء.

وقوله سبحانه: ﴿ومنهم من يؤمن به...﴾ الآية: أي: وَمِنْ قَرِيشٍ مَنْ يَوْمَنَ بِهَذَا الرُّسُولِ، ولهذا الكلام معنيان:

قالت فرقة: معناه: مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَنْ سَيُؤْمِنُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَتَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَوْمَنُ بِهِ أَبَدًا.

وقالت فرقة: معناه: ومنهم مَنْ يَوْمَنَ بِهَذَا الرُّسُولِ إِلَّا أَنَّهُ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ حَفْظاً لِرِيَاسَتِهِ، أَوْ خَوْفاً مِنْ قَوْمِهِ، كَالْفَتِيَّةِ الَّذِينَ قُتِلُوا مَعَ الْكُفَّارِ بِبَذْرِ.

قال * ع^(٢) : * وفائدة الآية على هذا التأويل: التفريق لكلمة الكُفَّار، وإضعاف

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٢٠).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٢٢).

نفوسهم، وفي قوله: ﴿وَرُبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ عَنْهُمْ كَانُ لَوْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ الآية فيها منابذة ومتاركة، قال كثير من المفسرين، منهم ابن زيد: هذه الآية منسوخة بالقتال، وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ...﴾ الآية: وعيدٌ بالحشر وخزيهم فيه، وتعازفهم على جهة التلاؤم والخزي من بغضهم لبعض، حيث لا ينفع ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ...﴾ إلى آخرها: حُكْمٌ من الله عز وجل على المكذبين بالخُسران، وفي اللفظ إغلاط، وقيل: إن هذا الكلام من كلام المحشورين، على جهة التوبيخ لأنفسهم.

* ت * : والأول أثبت.

﴿وَأَمَّا رَبُّنَا الَّذِي أَوْدَعْنَاهُ أَوْ نَنُوقُنَاكَ فإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أَتَمِّ رَسُولٍ جَاءَهُ رَسُولُهُمْ فَضَى بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله: ﴿وَأَمَّا رَبُّنَا...﴾ الآية: «إما» شرط، وجوابه: «فإلينا»، والرؤية في «رَبُّنَا» بصرية، ومعنى هذه الآية: الوعيد بالرجوع إلى الله تعالى، أي: إن أَرَبَّنَا عقوبتهم، أو لم تُرَكَّها، فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب، ثم مع ذلك، فالله شهيدٌ من أول تكليفهم على جميع أعمالهم، و«ثم» لترتيب الأخبار / لا لترتيب القصص في أنفسها، و«إما» هي «إن»، زيدت عليها «ما»، ولأجلها جاز دخول النون الثقيلة، ولو كانت «إن» وحدها، لم يجز.

* ص * : وأغترض بأن مذهب سيبويه^(١) جواز دخولها، وإن لم تكن «ما» انتهى.

(١) ينظر: «الكتاب» (١٥٢/٢).

وقوله سبحانه: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط﴾: قال مجاهد وغيره: المعنى: فإذا جاء رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم، صُيِّرَ قَوْمٌ لِلجَنَّةِ، وقَوْمٌ لِلنَّارِ، فذلك القضاء بينهم بالقسط^(١).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابٌ بَيْنًا أَوْ نَحْوًا مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ مِنْكُمْ بِؤْسٍ مَالِكٍ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقُّ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ﴾ (٥٣)

وقوله سبحانه: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ * قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون... الآية: الضمير في ﴿يقولون﴾ لكفار قريش، وسؤالهم عن الوعد تحريض منهم - بزعمهم - للحجة أي: هذا العذاب الذي تُوعِدنا به، حَدِّدْ لنا وقته؛ لِنَعْلَمَ الصِّدْقَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكَذِبِ، ثم أمر الله تعالى نبيه أن يقول على جهة الرد عليهم: ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله﴾، ولكن ﴿لكل أمة أجل﴾ انفرد الله بعلم حده ووقته، وباقي الآية بين.

وقوله: ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾: أي: فما تستعجلون منه، وأنتم لا قبَلَ لكم به، والضمير في «منه» يحتمل أن يعود على الله عز وجل، ويحتمل أن يعود على العذاب.

وقوله: ﴿أنتم إذا ما وقع أمتم به﴾ المعنى: إذا وقع العذاب وعانيتموه، أمتم حينئذ، وذلك غير نافعكم، بل جوابكم: الآن وَقَدْ كُنْتُمْ تَسْتَعْجِلُونَهُ مَكْذِبِينَ بِهِ، ﴿ويستنبئونك﴾: معناه: يستخبرونك، وهي على هذا تتعدى إلى مفعولين؛ أحدهما: الكاف، والآخر: الجملة، وقيل: هي بمعنى يَسْتَعْلِمُونَكْ؛ فعلى هذا تحتاج إلى ثلاثة مفاعيل.

* ص * : رُوِيَ أَنَّ الْأَسْتِئْذِينَ لَا يُحْفَظُ تَعْدِيهِ إِلَى ثَلَاثَةٍ، وَلَا اسْتَعْلَمَ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَاهُ.

انتهى.

و﴿أحق هو﴾ قيل: الإشارة إلى الشرع والقرآن، وقيل: إلى الوعيد؛ وهو أظهر.

وقوله: ﴿إي وربي﴾: أي: بمعنى «نعم»، وهي لفظة تتقدم القسم، ويجيء بعدها

(١) أخرجه الطبري (٥٦٥/٦) برقم: (١٧٦٨١-١٧٦٨٢) نحوه، وذكره ابن عطية (١٢٣/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٥٦/٢).

حَزَفُ الْقِسْمِ، وَقَدْ لَا يَجِيءُ؛ تَقُولُ: إِي وَرَبِّي، وَإِي رَبِّي، و﴿معجزين﴾: معناه مفلتين.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسروا الندامة...﴾ الآية، و﴿أسروا﴾: لفظة تجيء بمعنى «أخفوا»، وهي حينئذ من السر، وتجيء بمعنى «أظهروا»، وهي حينئذ من أسارى الوجه.

* ص * قال أبو البقاء: وهو مستأنف، وهو حكاية ما يكون في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، «ألا» استفتاح وتنبية، وباقي الآية بين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فَجَعَلَهُمْ مِنْهُمْ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿ياأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم...﴾ الآية: هذه آية خُوطِبَ بها جميعُ العالم، وال «موعظة»: القرآن؛ لأن الوعظ إنما هو بقول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويرقق القلوب، ويعدو ويوعد، وهذه صفة «الكتاب العزيز»، وقوله: ﴿من ربكم﴾ يريد: لم يختلفها محمد ولا غيره، و﴿ما في الصدور﴾: يريد به الجهل ونحوه، وجعله موعظة بحسب الناس أجمع، وجعله هدى ورحمة بحسب المؤمنين فقط، وهذا تفسير صحيح المعنى، إذا تؤمل، بان وجهه.

وقوله سبحانه: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾، قال ابن عباس^(١) وغيره: الفضل: الإسلام، والرحمة: القرآن، وقال أبو سعيد الخدري: الفضل: القرآن، والرحمة: أن جعلهم من أهله.

وقال زيد بن أسلم والضحاك: الفضل: القرآن، والرحمة: الإسلام.

(١) أخرجه الطبري (٥٦٩/٦) برقم: (١٧٦٩٥)، وذكره ابن عطية (١٢٦/٣)، والسيوطي (٥٥٤/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

قال * ع^(١) * : ولا وجه عندي لشئ من هذا التخصيص إلا أن يستند شيء منه إلى النبي ﷺ، وإنما الذي يقتضيه اللفظ، ويلزم منه أن الفضل : هو هداية الله تعالى إلى دينه، والتوفيق إلى اتباع شرعه، والرحمة هي عفوه وسكنت جنته التي جعلها جزاء على التشريع ب ٢٣٩ ب الإسلام والإيمان به، ومعنى / الآية : قل، يا محمد، لجميع الناس : بفضل الله ورحمته فليَقِ الفرَحُ منكم، لا بأمور الدنيا وما يُجمَعُ من حُطَامِها، فإن قيل : كيف أمر الله بالفرح في هذه الآية، وقد وردَ ذمُّه في قوله : ﴿ قَرِحَ قُحُورٌ ﴾ [هود : ١٠] وفي قوله : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦].

قيل : إن الفرح إذا ورد مقيداً في خير، فليس بمذموم، وكذلك هو في هذه الآية، وإذا ورد مقيداً في شر، أو مطلقاً لحقه ذم، إذ ليس من أفعال الآخرة، بل ينبغي أن يغلب على الإنسان حزنه على دينه، وخوفه لربه.

وقوله : ﴿ مما يجمعون ﴾ : يريد : مآل الدنيا وحطامها الفاني المُردي في الآخرة.

وقوله سبحانه : ﴿ قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً ... ﴾ الآية.

قال * ص * : ﴿ أرايتم ﴾ : مضمّن معنى : أخبروني، و«ما» موصولة.

قال * ع^(٢) * : هذه المخاطبة لكفار العرب الذين جعلوا البحائر والسوائب وغير ذلك، وقوله : ﴿ أنزل ﴾ : لفظة فيها تجوز.

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْعَلُونَ فِيهِ وَمَا يَسْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

وقوله : ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾ آية وعيد - لما تحقق عليهم بتقسيم الآية التي قبلها؛ أنهم مفترون على الله - عظم في هذه الآية جزم ألفترا، أي : ظلمهم في غاية الرداءة؛ بحسب سوء أفعالهم، ثم تثنى بذكر الفضل على الناس في الإمهال لهم مع ألفترا والعصيان؛ إذ الإمهال لهم داعية إلى التوبة والإنابة، ثم الآية تعم

(١) ينظر : «المحرر الوجيز» (١٢٦/٣).

(٢) ينظر : «المحرر الوجيز» (١٢٧/٣).

جميعَ فضل الله سبحانه، وجميعَ تَقْصِير الخَلْق.

وقوله سبحانه: ﴿وما تكون في شأن...﴾ الآية: مَقْصِدُ هذه الآية وَضْفُ إحاطة الله عز وجل بكل شيء، لا ربَّ غيره، ومعنى اللفظ: وما تكونُ يا محمد، والمراد هو وَغَيْرُهُ في شأن من جميع الشؤون، ﴿وما تتلو منه﴾: الضمير عائذ على شأن أي: فيه وبسببه «من قرآن»، ويحتمل أن يعود الضمير على جميع القرآن.

وقال * ص *: ضمير «منه» عائذ على «شأن» و﴿من قرآن﴾: تفسير للضمير. انتهى. وهو حسن، ثم عمَّ سبحانه بقوله: ﴿ولا تعملون من عمل﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾ تحذير وتنبية.

* ت *: وهذه الآية عظيمة الموقع لأهل المراقبة تثير من قلوبهم أسراراً، ويغترفون من بحر فيضها أنواراً، و﴿تفيضون﴾ معناه: تأخذون وتنهضون بجِدٍّ، ﴿وما يعزب﴾: معناه: وما يغيب ﴿عن ربك من مثقال ذرة﴾ والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ، ويحتمل ما كتبه الحفظة.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ألا إن أولياء الله...﴾ الآية: «ألا» استفتاح وتنبية، و﴿أولياء الله﴾: هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة، وهذه الآية يُعْطِي ظاهرها أن مَنْ آمَنَ واتقى الله، فهو داخل في أولياء الله، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولي، وروي عن النبي ﷺ: «أَنْتَ سَيِّدُ مَنْ أَوْلِيَائِهِ؟ فَقَالَ: «الَّذِينَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ذَكَرْتَ اللَّهَ»^(١).

قال: * ع ^(٢): وهذا وصف لازم للمتقين؛ لأنهم يَخْشَعُونَ وَيُخْشَعُونَ، وروي عنه ﷺ أيضاً أَنَّهُ قَالَ: «أَوْلِيَائِ اللَّهِ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ، وَاجْتَمَعُوا فِي دَائِهِ، لَمْ تَجْمَعْهُمْ قَرَابَةٌ وَلَا مَالٌ يَتَعَاطَوْنَهُ». وروى الدارقطني في «سننه» عن النبي ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «خِيَارُ عِبَادِ

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨١/١٠) وقال: رواه البزار عن شيخه علي بن حرب الرازي ولم أعرفه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٥٦/٣)، وزاد في نسبه إلى ابن المبارك، والحكيم الترمذي في «نوادير الأصول»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٨/٣).

اللَّهُ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا، ذُكِرَ اللَّهُ، وَشَرُّ عِبَادِ اللَّهِ الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرَّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِلْبِرَاءِ الْعَيْبُ»^(١). انتهى من «الكوكب الدرّي».

وقوله: ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يعني: في الآخرة، ويحتمل في الدنيا لا يخافون أحداً من أهل الدنيا، ولا من أعراسها، ولا يحزنون على ما فاتهم منها، والأول أظهر، والعموم في ذلك صحيح: لَا يَخَافُونَ فِي الْآخِرَةِ جَمْلَةً، وَلَا فِي الدُّنْيَا الْخَوْفَ الدُّنْيَوِيَّ.

وذكر الطبري عن جماعة / من العلماء مثل ما في الحديث في الأولياء؛ أنهم هم الَّذِينَ إِذَا رَأَهُمْ أَحَدٌ، ذَكَرَ اللَّهَ، وروي فيهم حديث؛ «أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ قَوْمٌ يَتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ وَيُجْعَلُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ، وَتُنِيرُ وَجُوهُهُمْ، فَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ لَا يَخَافُونَ وَلَا يَحْزَنُونَ»^(٢) وروى عمر بن الخطاب؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَاداً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ؛ لِمَكَاتِبِهِمْ مِنَ اللَّهِ، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ، وَلَا أَمْوَالٍ...» الحديث، ثم قرأ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣).

* ت * وقد خرَّج هذا الحديث أبو داود والنسائي، قال أبو داود في هذا الحديث: قَوْلَ اللَّهِ، إِنَّ وَجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ، ذكره بإسناد آخر. انتهى.

ورواه أيضاً أبْنُ الْمُبَارَكِ فِي «رِقَائِقِهِ» بِسَنَدِهِ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَأَعْقِلُوا، وَأَعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عِبَاداً لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، فَقَالَ أَغْرَابِيٌّ: انْعَثْتُمْ لَنَا، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَقَالَ: هُمْ نَاسٌ مِنْ أَوْثَانِ النَّاسِ، لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ، تَحَابُّوا فِي اللَّهِ، وَتَصَافَوْا فِيهِ، يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيُجْلِسُهُمْ عَلَيْهَا فَيَجْعَلُ وَجُوهَهُمْ نُوراً وَيُثَابِتُهُمْ نُوراً، يَفْرَغُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ لَا يَفْرَعُونَ، وَهُمْ

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧/٤)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٩٦/٨)، وقال: رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد وبقية رجال أحمد أسانيد رجال الصحيح.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٠/٢ - ٣١١) كتاب «اليوم» باب: في الرهن، حديث (٣٥٢٧)، وهناد بن السري في «الزهد» رقم: (٤٧٥)، والطبري في «تفسيره» (٩٢/١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٩٩٨ - ٨٩٩٩)، من حديث عمر بن الخطاب، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٥٧/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». انتهى^(١).

وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى...﴾ الآية: أمّا بُشْرَى الآخرة، فهي بالجنة؛ بلا خلاف قولاً واحداً، وذلك هو الفضل الكبير، وأمّا بُشْرَى الدنيا، فَتَظَاهَرَتِ الأحاديث من طرق، عن النبي ﷺ؛ أَنَّهَا «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تَرَى لَهُ»^(٢)، وقال قتادة والضَّحَّاك: البُشْرَى في الدنيا: هي ما يُبَشِّرُ به المؤمنُ عند موته، وهو حيٌّ عند المعاينة، ويصح أن تكون بُشْرَى الدنيا ما في القرآن من الآيات المبيّرات؛ ويقوَّى ذلك بقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، ويؤوّل قوله ﷺ: «هي الرؤيا» أنه أعطى مثلاً يعمُّ جميع الناس.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: يريد: لا خُلْفَ لمواعيده، ولا رَدَّ في أمره، وقد أخذ ذلك ابنُ عُمَرَ على نحو غير هذا، وجَعَلَ التبديلَ المنفيَّ في الألفاظ، وذلك أنه روي أنَّ الحجاجَ خَطَبَ، فَقَالَ: أَلَا إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ بَدَّلَ كِتَابَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣)، وأبو يعلى (١٢/٢٣٣ - ٢٣٤) رقم: (٦٨٤٢)، والطبري (١١/٩٢)، وابن المبارك في «الزهد» ص: (٢٤٨ - ٢٤٩) رقم: (٧١٤)، وابن أبي الدنيا في «الإخوان» (٦)، والطبراني في «الكبير» (٣٤٣٣ - ٣٤٣٤ - ٣٤٣٥) من طريق شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي مالك الأشعري به، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢٧٩ - ٢٨٠) وقال: رواه أحمد، والطبراني، ورجاله وثقوا.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٥٨)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه. (٢) أخرجه الترمذي (٤/٥٣٤ - ٥٣٥) كتاب «الرؤيا» باب: قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى في الحياة الدنيا﴾، حديث (٢٢٧٥)، وابن ماجه (٢/١٢٨٣) كتاب «تعبير الرؤيا» باب: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، حديث (٣٨٩٨)، والدارمي (٢/١٢٣) كتاب «الرؤيا» باب: في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى في الحياة الدنيا﴾، وأحمد (٥/٣١٥) والطبري في «تفسيره» (٦/٥٧٧) رقم: (١٧٧٣٣ - ١٧٧٣٤)، والحاكم (٢/٣٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/١٨٥ - ١٨٦) رقم: (٤٧٥٣)، والطيالسي (٢/١٩ - منحة) رقم: (١٩٥٥)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم: (٢٣٨) كلهم من طريق يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة، عن عباد بن الصامت به، وقال الترمذي: حديث حسن.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٥٩)، وزاد نسبه إلى الهيثم بن كليب، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وأخرجه الترمذي (٤/٥٣٤) كتاب «الرؤيا» باب: قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى في الحياة الدنيا﴾، حديث (٢٢٧٣)، وأحمد (٦/٤٥٢)، وابن أبي شيبة (١١/٥١)، والطبري في «تفسيره» (٦/٥٧٧ - ٥٧٨) رقم: (١٧٧٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/١٨٥) رقم (٤٧٥٢) كلهم من طريق عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء به.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٥٩)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي في «نوادير الأصول»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: إِنَّكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ أَنْتَ، وَلَا أَبْنُ الزُّبَيْرِ؛ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَقَدْ رَوَى هَذَا النَّظَرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي غَيْرِ مُقَاوَلَةِ الْحَجَّاجِ، ذَكَرَهُ الْبَخَارِيُّ^(١).

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥) ﴿إِنَّا إِنَّا لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءُ إِنَّا يَكْفُرُونَ﴾ (٦٦) ﴿إِنَّا إِنَّا لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءُ إِنَّا يَكْفُرُونَ﴾ (٦٦)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾: أي: قول قُرَيْشٍ، فهذه الآية تسليّة للنبي ﷺ، ولفظة القول تعمُّ جحدوهم واستهزاءهم وخداعهم وغير ذلك، ثم ابتداء تعالى، فقال ﴿إِنَّا الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: لا يقدرُونَ لَكَ عَلَى شَيْءٍ، وَلَا يُؤْذُونَكَ، إِلَّا بِمَا شَاءَ اللَّهُ، ففِي الْآيَةِ وَعِيدٌ لَهُمْ، ثُمَّ أَسْتَفْتَحَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا إِنَّا لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بِالْمَلِكِ وَالْإِحَاطَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾: يصح أن تكون «ما» استفهاماً، ويصح أن تكون نافيةً.

* ت * : ورجع هذا الثاني.

وقوله: ﴿إِنَّا يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ «إِن»: نافية، و﴿يَخْرُصُونَ﴾: معناه: يَخْدِسُونَ وَيُخَمِّنُونَ.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦٧) ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّا عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨) ﴿قُلْ إِنَّا الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩)

وقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ...﴾ الآية: في هذه الألفاظ إيجاز وإحالة على ذَهْنِ السَّامِعِ؛ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ فِي أَنَّ اللَّيْلَ مُظْلِمٌ يُسْكِنُ فِيهِ، وَالنَّهَارُ مُبْصِرٌ يُتَصَرَّفُ فِيهِ، فَذَكَرَ طَرَفًا مِنْ هَذَا وَطَرَفًا مِنَ الْجِهَةِ الثَّانِيَةِ، وَدَلَّ الْمَذْكُورَانِ عَلَى الْمَتْرُوكَيْنِ.

وقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾/ يريد: يوعون، والضمير في ﴿قَالُوا﴾ لكفار العرب، ثم الآية

بعدُ تعمُّ كلُّ من قال نحو هذا القول؛ كالتَّصَارَى، و﴿سبحانه﴾ معناه: «تنزيهاً له، وبراءةً من ذلك»؛ فسره بهذا النبي ﷺ.

وقوله: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ «إِنْ» نافيةٌ، والسلطانُ: الحُجَّةُ، وكذلك معناه حيث تكرر في القرآن، ثم ويخهم تعالى بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ...﴾ الآية: توعدُّ لهم بأنهم لا يظفرون ببُغْيَةٍ، ولا يَبْقَوْنَ في نعمة، إذ هذه حالُ مَنْ يصير إلى العذاب، وإن نَعِمَ في دنياه يسيراً.

﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠) ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُوا إِنْ كَانُ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِكَائِبَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ (٧١) ﴿وَأَنْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأِمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٢) وقوله تعالى: ﴿متاع﴾ مرفوعٌ على خبر ابتداء؛ أي: ذلك متاع.

قال * ص *: ﴿متاع﴾ جوابُ سؤالٍ مقدَّر، كأنه قيل: كيف لا يُفْلِحون، وهُم في الدنيا مفلحون بأنواعِ التلذذات؟! فقيل: ذَلِكَ مَتَاعٌ، فهو خبر مبتدئٍ محذوف. انتهى، وهذا الذي قدَّره * ص *: يُفْهَمُ من كلام * ص * (١).

وقول نوح عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانُ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي...﴾ الآية: المَقَامُ: وقوف الرجل لكلام أو خطبة أو نحوه، والمَقَام - بضم الميم -: إقامته ساكناً في موضع أو بلد، ولم يقرأ هنا بضمِّ الميم فيما علمت، وتذكيره: وعظه وزجره، وقوله: ﴿فأجمعوا﴾: من أَجْمَعَ الرَّجُلُ عَلَى الشَّيْءِ، إذا عزم عليه؛ ومنه الحديث: ما لم يجمع مكشاً، و﴿أمركم﴾: يريد به: قُدِّرْتُكُمْ وَجِيلْتُكُمْ، ونصب «الشركاء» بفعل مضمر؛ كأنه قال: وآذعوا شركاءكم؛ فهو من باب: [الرجز]

عَلَفْتُهَا تَبْنَأَ وَمَاءً بَارِداً حَتَّى شَتَّتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا (٢)

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣١/٣).

(٢) ينظر: البيت بلا نسبة في «الأشباه والنظائر» (١٠٨/٢)، و«الخصائص» (٤٣١/٢)، و«الدرر» (٦/٧٩)، و«شرح الأشموني» (٢٢٦/١)، و«شرح التصريح» (٣٤٦/١)، و«شرح ديوان الحماسة للمرزوقي» ص: (١١٤٧)، و«شرح شذور الذهب» ص: (٣١٢)، و«شرح شواهد المغني» (٥٨/١)، (٩٢٩/٢)، =

وفي مصحف أبي: «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ، وَادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ» قال الفارسي^(١): وقد ينتصب «الشركاء» بـ«واو مع»؛ كما قالوا: جَاءَ الْبَزْدُ وَالطَّيَالِسَةُ^(٢).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾: أي: ملتبساً مشكلاً؛ ومنه قوله عليه السلام في الهلال: «فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ».

وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُون﴾: أي: أنفذوا قضاءكم نحوي، ولا تؤخروني، والنَّظْرَةُ: التأخير.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّتْهُ وَمِنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ لِحَاوِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥)

وقوله سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّتْهُ وَمِنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾: مَضَى شرح هذه المعاني.

وقوله سبحانه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾: مخاطبة للنبي ﷺ يشاركه في معناها جميع الخلق.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾: الضمير في ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ عائِدٌ عَلَى نوح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾: معنى هذه الآية ضَرْبُ المَثَلِ لحاضري نبينا محمد عليه السلام؛ ليعتبروا بمن سلف، و﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات، والضمائر في ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وفي ﴿كَذَّبُوا﴾ تعود الثلاثة على قوم الرسل، وقيل: الضمير في كَذَّبُوا يعود على «قوم نوح» وقد تقدّم تفسير نظيرها «في الأعراف».

= وشرح ابن عقيل ص: (٣٠٥)، و«لسان العرب» (٢/٢٨٧) (زجج)، (٣/٣٦٧) (قلد)، (٩/٢٥٥)

(علف)، و«مغني اللبيب» (٢/٦٣٢)، و«المقاصد النحوية» (٣/١٠١)، و«معجم الهوامع» (٢/١٣٠).

(١) «الحجة للقرء السبعة» (٤/٢٨٩).

(٢) الطَّلَسَانُ: ضَرْبٌ مِنَ الْأَكْسِيَةِ.

ينظر: «لسان العرب» (٢٦٨٩) (طلس).

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَكَ وَأَجَدْنَا عَلَيْكَ آبَاءَنَا وَكُنَّا لَكُمْ كُفْرًا فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَبَّطِلَهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ الآية: يريد بـ ﴿الحق﴾ آتِي العَصَا واليد.

وقوله: ﴿أسخر هذا﴾: قالت فرقة: هو حكاية عن موسى عنهم، ثم أخبرهم موسى عن الله؛ أَنَّ السَّاحِرِينَ لَا يُفْلِحُونَ، ثم اختلفوا في معنى قول قوم فرعون، فقال بعضهم: قالها منهم كل مستفهم جاهل بالأمر، فهو يسأل عنه، وهذا ضعيف، وقال بعضهم: بل قالوا ذلك على معنى التعظيم للسحر الذي رأوه، وقالت فرقة: ليس ذلك حكاية عن موسى عنهم، وإنما هو من كلام موسى، وتقدير الكلام: أتقولون للحق لما جاءكم سحر، ثم ابتداء يوقفهم بقوله: ﴿أسخر / هذا﴾ على جهة التوبيخ.

١٢٤١

وقولهم: ﴿لتلفتنا﴾: أي: لتصرفنا وتلوينا وتردنا عن دين آبائنا، يقال: لفت الرجل عُنُقَ الآخر؛ إذا ألواه، ومنه قولهم: أَلْتَفَتَ؛ فَإِنَّهُ أَفْتَعَلَ مِنْ لَفَتَ عُنُقَهُ إِذَا أَلَوَاهُ، و﴿الكبرياء﴾: مضد من الكبر، والمراد به في هذا الموضع المُلْك؛ قاله أكثر المتأولين؛ لأنه أعظم تكبر الدنيا، وقرأ أبو عمرو وحده: «به السُّخْرُ» - بهمزة استفهام ممدودة -، وفي قراءة^(١) أبي: «مَا أَتَيْتُمْ بِهِ سِحْرًا»، والتعريف هنا في السُّخْرِ أَرْزَبُ؛ لأنه تقدم منكرًا في قولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لِسِحْرٍ﴾، فجاء هنا بلام العهد.

قال * ص *: قال الفراء: إنما قال: «السُّخْرُ» بـ «أل»، لأن النكرة إذا أعيدت، أعيدت بـ «أل»، وتبعه ابن عطية^(٢)، ورد بأن شرط ما ذكره اتِّخَاذُ مدلول النكرة المعادة؛ كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥]، و﴿هنا السُّخْرُ المنكر هو ما أتى به موسى، والمعروف ما أتوا به هم، فأختلف

(١) ينظر: «السبعة» ص: (٣٢٨)، «الحجة» (٤/ ٢٨٩ - ٢٩٠)، «حجة القراءات» ص: (٣٣٥)، «إعراب

القراءات» (١/ ٢٧٢)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ١١٨)، و«شرح شعله» (٤٢٣)، و«إتحاف» (٢/

١١٨)، و«العنوان» (١٠٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٣٥).

مدلولهما، وألاستفهامُ هنا: على سبيل التحقير. انتهى. وهو حسن.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيِّطِلُهُ﴾: إيجاب عن عِدَّةٍ من الله تعالى.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلَحُ عَمَلُ الْمَفْسِدِينَ﴾: يحتمل أن يكون ابتداءً خَبَرٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ويحتملُ أن يكون من كلام موسى عليه السلام، وكذلك قوله: ﴿وَيَحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ...﴾ الآية، محتملٌ للوجهين، وكون ذلك كله من كلام موسى أقرب، وهو الذي ذكر^(١) الطبري، وأما قوله: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾: فمعناه بكلماته السابقة الأزليَّة في الوعد بذلك.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

وقوله عز وجل: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾: اختلف المتأولون في عود الضمير الذي في ﴿قومه﴾، فقالت فرقة: هو عائذ على موسى، وذلك في أول مبعثه، ومَلَأُ الذُّرِّيَّةَ، هم أشراف بني إسرائيل.

قال * ص *: وهذا هو الظاهر، وقالت فرقة: الضمير في ﴿قومه﴾ عائذ على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، وضمير ﴿مَلَأَهُمْ﴾ عائذ على الذرِّيَّة.

قال * ع *: ومما يضعفُ عودَ الضميرِ على موسى: أَنَّ المعروفَ مِن أخبارِ بني إسرائيل أنهم كانوا قومًا تقدَّمت فيهم النبوءات، ولم يُحْفَظْ قَطُّ أَنَّ طائفةً من بني إسرائيل كَفَرَتْ به، فدلَّ على أن الذرِّيَّةَ مِن قومِ فِرْعَوْنَ.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا...﴾ الآية: هذا ابتداءً حكاية قول موسى لجماعة بني إسرائيل؛ مؤنسًا لهم، وندابًا إلى التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ الذي بيده النضرُ قال المُحَاسِبِيُّ: قُلْتُ لأبي جعفرٍ محمَّد بن موسى: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] فما السَّبِيلُ إِلَى هذا التوكُّل الذي نَدَبَ اللَّهُ إِلَيْهِ، وكيف دُخُولُ النَّاسِ فِيهِ؟ قال: إِنَّ النَّاسَ مُتَفَاوِثُونَ فِي التَّوَكُّلِ، وَتَوَكَّلُهُمْ عَلَى قَدَرِ إِيمَانِهِمْ وَقُوَّةِ عُلُومِهِمْ، قُلْتُ: فما معنى إيمانهم؟ قال: تصديقهم بمواعيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وثقتهم بِضَمَانِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قُلْتُ: مِن أَيِّنَ فَضَلَّتِ الْخَاصَّةُ

منهم على العامة، والتوكل في عقد الإيمان مع كل من آمن بالله عز وجل؟ قال: إن الذي فضلت به الخاصة على العامة دوام سكون القلب عن الاضطراب والهدوء عن الحركة، فعندها، يا فتى، أستراحوا من عذاب الجزص، وفكوا من أسر الطمع، وأعتقوا من عبودية الدنيا، وأبناها، وحطوا بالروح في الدارين جميعاً، فطوبى لهم وحسن مآب، قلت: فما الذي يولد هذا؟ قال: حالتان:

دوام لزوم المعرفة، والأعتماد على الله عز وجل، وترك الحيل.

والثانية: الممارسة حتى يألّفها إلفاً، ويختارها اختياراً، فيصير التوكل والهدوء والسكون والرضا والصبر له شعاراً وداراً. انتهى من «كتاب القصد إلى الله سبحانه».

وقولهم: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾: المعنى: لا تنزل بنا بلاء بأيديهم أو بغير ذلك / مدة محاربتنا لهم؛ فيفتنون لذلك، ويعتقدون صلاح دينهم، وفساد ديننا؛ قاله ٢٤١ ب مجاهد وغيره، فهذا الدعاء على هذا التأويل يتضمن دفع فصلين:

أحدهما: القتل والبلاء الذي توقعه المؤمنون.

والآخر: ظهور الشرك باعتقاد أهله أنهم أهل الحق.

ونحو هذا قوله ﷺ: «بئس الميث أبو أمانة لليهود والمشرّكين يقولون: لو كان نبياً لم يمت صاحبه»^(١).

ورجّح * ع^(٢) في «سورة الممتحنة: ٥» قول ابن عباس: إن معنى: ﴿لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾: لا تسلطهم علينا؛ فيفتنونا؛ أنظره هناك.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ ابْنِ بِنَا لِقَوْمِكَ بِبَصَرٍ يَبِينُ وَأَجْعَلُوا يَوْمَكُمْ قِتْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَابْتِغُوا الْوَيْسَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ رِيسَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ * وَجَوْرُنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَابْتِغَاهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَقْنِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ

(١) أخرجه أحمد (٤/١٣٨)، والحاكم (٤/٢١٤)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٢٩٦).

مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا بِمَضَرٍ بَيْوتًا﴾ رُوي: أَنْ فرعون أَخَافَ بني إِسْرَائِيلَ، وَهَدَّمْ لَهُمْ مَوَاضِعَ كَانُوا اتَّخَذُوهَا لِلصَّلَاةِ، وَنَحْنُو هَذَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ، أَنْ تَبَوَّءَا أَيَّ: اتَّخَذَا وَتَخَيَّرَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَضَرٍ بَيْوتًا، قَالَ مجاهد: مَضَرٌ؛ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ^(١)، وَمَضَرٌ مَا بَيْنَ أَسْوَانَ^(٢) وَالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾: قِيلَ: مَعْنَاهُ: مَسَاجِدُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ^(٤)، قَالُوا: خَافُوا، فَأَمَرُوا بِالصَّلَاةِ فِي بُيُوتِهِمْ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مُوجَّهَةٌ إِلَى الْقِبْلَةِ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٥)، وَمِنْ هَذَا حَدِيثٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ بُيُوتِكُمْ مَا أَسْتَقْبِلَ بِهِ الْقِبْلَةَ»^(٦).

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: خُطَابُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهَذَا قَبْلَ نَزُولِ التَّوْرَةِ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ إِلَّا بَعْدَ إِجَازَةِ الْبَحْرِ.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أَمَرَ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ الطَّبْرِيُّ وَمَكِّي: هُوَ أَمْرٌ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذَا غَيْرُ مَتَمَكِّنٍ.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ زِينَةً...﴾ الْآيَةُ: هَذَا

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٩٧/٦) بِرَقْمٍ: (١٧٨٢٩) نَحْوَهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٣٨/٣)، وَابْنُ الْبُغْوِيِّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٦٥/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٢٨/٢) نَحْوَهُ، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٥٦٦/٣) وَزَادَ نَسْبَتَهُ إِلَى ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ.

(٢) بِالضَّمِّ، ثُمَّ السَّكُونُ، وَوَاوٌ وَالْفَتْحُ وَنُونٌ. وَيُقَالُ: بِغَيْرِ هَمْزَةٍ: مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ، وَكُورَةٌ فِي آخِرِ الصَّعِيدِ. وَأَوَّلُ بِلَادِ الثُّوْبَةِ، عَلَى النَّيْلِ فِي شَرْقِيَّتِهِ، فِي جِبَالِهَا مَقَطْعُ الْعَمْدِ الَّتِي بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، يَنْظُرُ: «مَرَاوِدُ الْإِطْلَاعِ» (٧٨/١).

(٣) بَنَى الْإِسْكََنْدَرُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَدِينَةً وَسَمَّاها كُلَّهَا بِاسْمِهِ، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ أَسْمَاؤها بَعْدَهُ، وَالْمَشْهُورُ بِهَذَا الْأَسْمِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ الْعَظِيمَى فِي بِلَادِ مِصْرَ. يَنْظُرُ: «مَرَاوِدُ الْإِطْلَاعِ» (٧٦/١).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٩٦/٦) بِرَقْمٍ: (١٧٨٠٨ - ١٧٨٠٩ - ١٧٨١٠)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٣٨/٦)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٥٦٦/٣)، وَزَادَ نَسْبَتَهُ إِلَى الْفَرِيَابِيِّ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ، وَابْنَ مَرْدُوَيْهِ.

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٩٧/٦) بِرَقْمٍ: (١٧٨٢٤) نَحْوَهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٣٨/٣)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٥٦٦/٣) بِنَحْوِهِ، وَزَادَ نَسْبَتَهُ إِلَى ابْنِ مَرْدُوَيْهِ.

(٦) تَقْدِمُ تَخْرِيجَهُ بِلَفْظٍ: خَيْرَ مَجَالِسِكُمْ مَا اسْتَقْبَلَ بِهِ الْقِبْلَةَ.

غَضِبَ من موسى على القَبِيْطِ، ودعاء عليهم، لَمَّا عَتَوْا وعاندوا، وقَدَّم للدعاء تقريرَ نعم الله عليهم وكُفْرِهِم بها، و﴿آتَيْتَ﴾ معناه: أَعْطَيْتَ، واللام في ﴿لِيُضِلُّوْا﴾ لام كُنْي، ويحتمل أن تكون لامَ الصَّيْرورة والعاقِبَة، المعنى: آتَيْتَهُمْ ذَلِكَ، فصار أمرهم إلى كذا، وقرأ حمزة وغيره: «لِيُضِلُّوْا» (بضم الياء)؛ على معنى: لِيُضِلُّوْا غيرهم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ﴾: هو من طُمُوسِ الأثر والعين؛ وَطَمَسُ الوجوه منه، وتكرير قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ استغاثته؛ كما يقول الداعي: يا الله، يا الله، روي أنهم حين دعا موسى بهذه الدعوة، رَجَعَ سَكْرُهُمْ حجارةً، ودراهمهم ودنانيرهم وخُبُوبُ أطعمتهم، رَجَعَتْ حجارةً؛ قاله قتادة وغيره^(١)، وقال مجاهد وغيره: معناه: أَهْلِكْهَا ودمرها^(٢).

وقوله: ﴿واشدد على قلوبهم﴾: بمعنى: أَطْبَعْ وَأَخْتِمْ عليهم بالكفر؛ قاله مجاهد والضَّحَّاك^(٣).

وقوله: ﴿فلا يؤمنوا﴾: مذهب الأخفش وغيره: أَنَّ الفعل منصوب؛ عطفاً على قوله: ﴿لِيُضِلُّوْا﴾، وقيل: منصوبٌ في جواب الأمر، وقال الفراء والكسائي: هو مجزومٌ على الدعاء، وجعل رؤية العذاب نهايةً وغايةً؛ وذلك لِعِلْمِهِ من الله أَنَّ المؤمن عند رؤية العذاب لا ينفعه إيمانه في ذلك الوقت، ولا يُخْرِجُهُ من كُفْرِهِ، ثم أجاب الله دعوتهما، قال ابن عباس: العَذَابُ هنا: العَرْقُ^(٤)، وروي أن هارون كان يُؤْمِنُ على دعاء موسى؛ فلذلك نَسَب الدعوة إليهما؛ قاله محمد بن كَعْب القُرْظِيُّ^(٥)، قال البخاري: ﴿وَعَذُوْا﴾: من العُدُوَان. انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٦٠٠/٦) برقم: (١٧٨٣٨، ١٧٨٤٠) نحوه، وبرقم: (١٧٨٣٤، ١٧٨٣٥)، عن محمد بن كعب القرظي (١٧٨٣٦) عن أبي العالية بنحوه، وبرقم: (١٧٨٤٠)، عن سفيان، برقم: (١٧٨٤١)، عن أبي صالح، نحوه، وذكره ابن عطية (١٣٩/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٦٥/٢) - (٣٦٦)، عن قتادة، ومحمد بن كعب، وابن عباس نحوه، وابن كثير (٤٢٩/٢) نحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٧/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٦٠٠/٦ - ٦٠١) برقم: (١٧٨٤٥ - ١٧٨٤٦، ١٧٨٤٧، ١٧٨٤٨)، عن ابن عباس نحوه، وذكره ابن عطية (١٣٩/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٦٥/٢)، عن مجاهد نحوه، وابن كثير (٤٢٩/٢)، عن ابن عباس، ومجاهد، نحوه، والسيوطي في (٥٦٧/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٦٠١/٦) برقم: (١٧٨٥١، ١٧٨٥٤)، وذكره ابن عطية (١٣٩/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٦٠١/٦) برقم: (١٧٨٤٩، ١٧٨٥٠) نحوه، وذكره ابن عطية (١٣٩/٣).

(٥) أخرجه الطبري (٦٠٣/٦) برقم: (١٧٨٦٣ - ١٧٨٦٤) نحوه، وذكره ابن عطية (١٤٠/٣)، وابن كثير (٤٢٩/٢) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٧/٣) نحوه.

وقول فرعون: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ...﴾ الآية: روي عن النبي ﷺ «أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَا أَبْغَضْتُ أَحَدًا قَطُّ بَغْضِي لِفِرْعَوْنَ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿آمَنْتُ...﴾ الآية، فَأَخَذْتُ مِنْ حَالِ الْبَخْرِ، فَمَلَأْتُ فَمَهُ؛ مَخَافَةَ أَنْ تَلْحَقَهُ رَحْمَةُ اللَّهِ»، وفي بعض الطرق: «مَخَافَةَ أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَتَلْحَقَهُ الرَّحْمَةُ»^(١).

قال * ع^(٢): * فانظر إلى كلام فرعون، ففيه مَجْهَلَةٌ وَتَلَعُثْمٌ، وَلَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِي جَهْلٍ هَذَا، وَإِنَّمَا الْعُذْرُ فِيمَا لَا سَبِيلَ / إِلَى عِلْمِهِ، كَقَوْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَهْلَلْتُ بِإِهْلَالٍ كِإِهْلَالِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْحَالُ: الطَّيْنُ، وَالْآثَارُ بِهَذَا كَثِيرَةٌ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْفَاظِ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

وقوله سبحانه: ﴿الآن وقد عصيت قبل﴾، وهذا على جهة التوبيخ له، والإعلان بالنقمة منه، وهذا الكلام يحتمل أن يكون مِنْ مَلِكٍ مُوَصَّلٍ عَنِ اللَّهِ، أَوْ كَيْفَ شَاءَ اللَّهُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ مَعْنَى حَالِهِ وَصُورَةِ خِزْيِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي رَدِّ تَوْبَةِ الْمُعَايِنِ.

﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدِيكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾^(٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صَدَقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْوَعْدُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٩٣)

وقوله سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدِيكَ بِدْنِكَ...﴾ الآية: يَقْوِي أَنَّهُ صُورَةٌ حَالِهِ؛ لِأَنَّهُ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ إِنَّمَا يَظْهَرُ أَنَّهَا قِيلَتْ بَعْدَ غَرْقِهِ، وَسَبَبُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ؛ عَلَى مَا رَوَى: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعُدَ عَنْهُمْ غَرْقُ فِرْعَوْنَ وَهَلَاكُهُ، لِعِظَمِهِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَكَذَّبَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ فِرْعَوْنُ

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٧/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة يونس، حديث (٣١٠٧) من طريق علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس به.

وقال الترمذي: حديث حسن. ومن طريق علي أخرجه الطبري (٦٠٥/٦) رقم: (١٧٨٧٥).

وأخرجه الترمذي (٢٨٧/٥ - ٢٨٨) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة يونس، حديث (٣١٠٨)، والحاكم (٣٤٠/٢)، والطبري (٦٠٥/٦) رقم: (١٧٨٧٢ - ١٧٨٧٣)، من طريق شعبة، عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: «المعحر الوجيز» (١٤١/٣).

يموت، فَتُجَيَّ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، حَتَّى رَأَاهُ جَمِيعُهُمْ مَيِّتًا؛ كَأَنَّهُ تَوْرٌ أَحْمَرٌ، وَتَحَقَّقُوا غَرْقَهُ.

والجمهور^(١) على تشديد ﴿تُنَجِّيكَ﴾؛ فقالت فرقة: معناه: من النَّجَاةِ، أي: من غمراتِ الْبَحْرِ والماءِ، وقال جماعة: معناه: نُثْقِلُكَ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وهي: ما أرتفع منها، وقرأ يعقوب^(٢) بسكون النون وتخفيف الجيم، وقوله: ﴿يَبْدَنُكَ﴾ قالت فرقة: معناه: بشخصيك، وقالت فرقة: معناه: يبدرك، وقرأ الجمهور^(٣): «خَلَقَكَ»، أي: من أتى بعدك، وقرئ شاذًا: «لِمَنْ خَلَقَكَ»^(٤) - بفتح اللام -، والمعنى: ليجعلك الله آيةً له في عباده، وباقى الآية بيّن.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾: المعنى: ولقد اخترنا لبني إسرائيل أحسنَ اختيارٍ، وأحللناهم من الأماكن أحسنَ محلٍّ، و﴿مَبُوءًا صِدْقٍ﴾: أي: يصدقُ فيه ظنُّ قاصده وساكنته، ويعني بهذه الآية إحلالهم بلادَ الشَّامِ وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ؛ قاله قتادة وابن زَيْدٍ، وقيل: بلاد الشام ومصر، والأول أصحُّ، وقوله سبحانه: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ أي: في نبوة نبينا محمد عليه السلام، وهذا التخصيص هو الذي وقع في كُتُبِ المتأولين كلهم، وهو تأويلٌ يحتاج إلى سند، والتأويل الثاني الذي يحتمله اللفظ: أنَّ بني إسرائيل لم يكن لهم اختلافٌ على موسى في أول حاله، فلما جاءهم العلم والأوامر، وغرَقَ فرعون، اختلفوا، فالآية دأمة لهم.

* ت * : قَرَّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ التَّخْصِيصِ، فَوَقَعَ فِيهِ، فَلَوْ عَمَّ اخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ مُوسَى وَغَيْرِهِ، وَعَلَى نَبِيِّنَا، لَكَانَ أَحْسَنَ، وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُتَأَوَّلُونَ مِنَ التَّخْصِيصِ أَحْسَنَ لَقَرِينَةٍ قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾، فَالربطُ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ وَاضِحٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَلِ الْأَلْبَانَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٢/٣)، و«البحر المحيط» (١٨٩/٥)، و«الدر المصون» (٦٧/٤).

(٢) ينظر: «إتحاف فضلاء البشر» (١٢٠/٢)، و«المحرر الوجيز» (١٤٢/٣)، و«البحر المحيط» (١٨٩/٥)، و«الدر المصون» (٦٧/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٢/٣).

(٤) قرأ بها إسماعيل المكي، كما في «الشواذ» ص: (٦٣) وينظر: «البحر المحيط» (١٨٩/٥).

حَقَّ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شك...﴾ الآية: الصواب في معنى الآية: أنها مخاطبة للنبي ﷺ، والمراد بها سواه من كل من يمكن أن يشك أو يعارض.

* ت * : وروينا عن أبي داود سليمان بن الأشعث، قال: حدثنا أحمد بن حنبل، قال: حدثنا يزيد بن هارون، قال: حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «المراء في القرآن كفر»^(١)، قال عياض في «الشفاء»: تأول بمعنى «الشك»، وبمعنى «الجدال». انتهى.

«والذين يقرءون الكتاب من قبلك»: من أسلم من أهل الكتاب، كأبن سلام وغيره، وروي عن النبي ﷺ أنه قال لما نزلت هذه الآية: «أَنَا لَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ»^(٢)، ثم جزم سبحانه الخبر بقوله: «لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ»، واللام في «لَقَدْ» لام قسم.

وقوله: ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يريد به: من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في أمره إلا من بعد مجيئه عليه السلام؛ هذا قول أهل التأويل قاطبة.

قال * ع *^(٣): وهذا هو الذي يشبه أن تُرجى إزالة الشك فيه من قبل أهل الكتاب،

(١) أخرجه أبو داود (٦١٠/٢) كتاب «السنة» باب: النهي عن الجدال في القرآن، حديث (٤٦٠٣)، وأحمد (٢٨٦/٢)، ٤٢٤، ٤٧٥، ٥٠٣، ٥٢٨، وابن حبان (٥٩ - موارد)، والحاكم (٢٢٣/٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢١٣/٨)، وفي «أخبار أصبهان» (١٢٣/٢) كلهم من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به، وأخرجه أحمد (٢٥٨/٢)، وابن أبي شيبة (٥٢٩/١٠)، وأبو يعلى (١٠/٣٠٣) رقم: (٥٨٩٧)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٨١/٤)، من طريق سعد بن إبراهيم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة به. وأخرجه أحمد (٤٧٨/٢)، ٤٩٤، والحاكم (٢٢٣/٢) كلاهما من طريق سعد بن إبراهيم، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

وأخرجه الطبراني في «الصغير» (٥٧٤/١) من طريق شعيب بن أبي حمزة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به. قال ابن أبي حاتم في «العلل» (٧٤/٢) رقم: (١٧١٤)، عن أبيه: هذا حديث مضطرب، ليس هو صحيح الإسناد اهـ.

وفي الباب عن عمرو بن العاص: أخرجه أحمد (٢٠٤/٤ - ٢٠٥)، وعن عبد الله بن عمرو: أخرجه الطيالسي (٦/٢ - منحة) رقم: (١٩٠٢).

وعن زيد بن ثابت: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٥٢/٥) رقم: (٤٩١٦).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦١٠/٦) برقم: (١٧٩٠٧) عن قتادة مرسلاً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧١/٣)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٣/٣).

ويَحْتَمِلُ اللفظُ أَنْ يريد بـ ﴿مَا أَنْزَلْنَا﴾ / جميعَ الشرع.

٢٤٢ ب

* ت * : وهذا التأويلُ عندي أُبَيِّنُ إِذَا لُخِصَ، وإن كان قد أَسْتَبْعَدَهُ * ع^(١) : *
ويكون المراد بـ ﴿مَا أَنْزَلْنَا﴾ : مَا ذكره سبحانه من قصصهم، وَذَكَرَ صِفَتَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ،
وَذَكَرَ أَنْبِيَائَهُمْ وَصِفَتَهُمْ وَسِيرَهُمْ وَسَائِرَ أَخْبَارِهِمُ الْمُوَافِقَةَ لِمَا فِي كِتَابِهِمُ الْمُنَزَّلَةَ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ؛
كَالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالصُّحُفِ، وتكون هذه الآية تُنْظَرُ إِلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿مَا كَانَ
حَدِيثًا يَنْفَتَرُ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾ [يوسف: ١١١]، فتأملهُ، واللَّهُ أعلم.

وأما قوله: هذا قولُ أهلِ التأويلِ قاطبةً، فليس كذلك، وقد تكَلَّمَ صاحبُ «الشفاء»
على الآية، فأَحْسَنَ، ولفظه: واختلف في معنى الآية، فقيل: المراد: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلشَّائِءِ :
﴿إِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ...﴾ الآية، قالوا: وفي السورة نَفْسُهَا مَا دُلَّ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، وهو
قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي...﴾ الآية [يونس: ١٠٤]، ثم
قال عياضٌ: وقيل: إن هذا الشكُّ: الذي أَمَرَ غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِسُؤَالِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ
عنه، إنما هو في مَا قَصَّه اللَّهُ تعالى من أخبار الأمم، لا فيما دعا إِلَيْهِ من التَّوْحِيدِ
والشَّريعة. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ
اللَّهِ...﴾ الآية: مما خَوِطَبَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، والمراد سواه.

قال * ع^(٢) : * : ولهذا فائدةٌ ليست في مخاطبة الناس به، وذلك شِدَّةُ التَّخْوِيفِ؛ لَأَنَّهُ
إِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَذِّرُ مِنْ مِثْلِ هَذَا، فغیره من النَّاسِ أَوْلَى أَنْ يَحْذَرَ وَيَتَّقَى عَلَى
نَفْسِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ : أي: حَقٌّ عَلَيْهِمْ فِي الْأَزَلِ
وخلقهم لعذابه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ إلا في الوقت الذي لَا يَنْفَعُهُمْ فِيهِ
الْإِيمَانُ؛ كما صنع فرعون وأشباهه، وذلك وَقْتُ الْمُعَايَنَةِ.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِطَابَ الْخِزْيِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْعَنَّهُمْ إِلَىٰ خَبِيرٍ ۖ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ
النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۖ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَىٰ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٣/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٣/٣).

الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ ﴿١٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلولا كانت قرية آمنت...﴾ الآية: وفي مصحف أبي وابن مسعود: «فَهَلَّا»، والمعنى فيهما واحد، وأصل «لولا» التحضيض، أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره، ومعنى الآية: فَهَلَّا آمَنَ أَهْلُ قَرْيَةٍ، وهم على مَهَلٍ لم يتلبس العذاب بهم، فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذا الحال، ثم أَسْتَثْنَى قَوْمَ يُونُسَ، فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع، وهو بحسب المعنى متصل لأن تقديره: ما آمن أهل قرية إلا قَوْمُ يُونُسَ، وروي في قصة قوم يونس: أن القوم لما كفروا، أي: تماذوا على كفرهم، أوحى الله تعالى إليه؛ أن أنذرهم بالعذاب لثالثه، ففعل، فقالوا: هو رجل لا يكذب، فأزقوه فإن أقام بين أظهرهم، فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم، فهو نزول العذاب لا شك فيه، فلما كان الليل، تزود يونس، وخرج عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه، فتابوا ودعوا الله، وآمنوا، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم، وكان العذاب فيما روي عن ابن عباس: على ثلثي ميل منهم^(٢)، وروي: على ميل^(٣)، وقال ابن جبير^(٤): غشيهم العذاب؛ كما يغشى الثوب القبر، فرفع الله عنهم العذاب، فلما مضت الثالثة، وعلم يونس أن العذاب لم ينزل بهم، قال: كيف أنصرفت، وقد وجدوني في كذب، فذهب مغاضباً؛ كما ذكر الله سبحانه في غير هذه الآية، وذهب^(٥) الطبري إلى أن قوم يونس خضوا من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاناة العذاب، وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين، وليس كذلك، والمعاناة التي لا تنفع التوبة معها هي تلبس العذاب أو الموت بشخص الإنسان، كقصة فرعون، وأما قوم يونس فلم يصلوا هذا الحد.

* ت * : وما قاله الطبري عندي أبين، «ومتعناهم إلى حين»: يريد: إلى آجالهم ١٢٤٣ المقدرة في الأزل، وروي أن قوم يونس / كانوا بـ«نيتوى» من أرض الموصل.

وقوله سبحانه: «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»: المعنى: أفأنت تكره

(١) ينظر: «الكشاف» (٣٧١/٢)، و«المحرر الوجيز» (١٤٣/٣)، و«البحر المحيط» (١٩٢/٥)، و«الدر المصون» (٦٩/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٦١٣/٦) برقم: (١٧٩١٥)، وذكره ابن عطية (١٤٤/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٥٧٣/٣)، وعزاه لأحمد، وابن جرير.

(٣) ذكره ابن عطية (١٤٤/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٦١٣/٦) برقم: (١٧٩١٤)، وذكره ابن عطية (١٤٤/٣) والسيوطي في «الدر المثور» (٥٧٣/٣)، وعزاه لأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٦١٤/٦) بنحوه.

الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم، والله عز وجل قد شاء غير ذلك، و﴿الرجس﴾ هنا بمعنى العذاب.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: هذه الآية أمر للكفار بالاعتبار والتفكير في المصنوعات الدالة على الصانع من آيات السموات وأفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك، المعنى: أنظروا في ذلك بالواجب، فهو يُنهيكم إلى المعرفة بالله وبوحدانيته، ثم أخبر سبحانه أن الآيات والنذُر - وهم الأنبياء - لا تُغني إلا بمشيئته؛ فـ «ما»؛ على هذا: نافية، ويجوز أن تكون استفهاماً في ضمنه نفى وقوع الغنى، وفي الآية على هذا: توبيخ لحاضري النبي ﷺ.

قال * ص * : و﴿النذُر﴾: جمع نذير، إما مصدر بمعنى الإنذارات، وإما بمعنى مُنذِر. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ الآية: وعيد إذا لجؤا في الكفر، حل بهم العذاب.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي: عادة الله سَلَفَتْ بإنجاء رسله ومتبعيهم عند نزول العذاب بالكفرة ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال * ص * : أي: مثل ذلك الإنجاء الذي نجينا الرسل ومؤمنيهم نُنجي من آمن بك. انتهى، وخط المصحف في هذه اللفظة «نُجِّج» بجيم مطلقة دون ياء، وكلهم قرأ «نُجِّج» - مشددة الجيم - إلا الكسائي وحفصاً عن عاصم؛ فإنهما قرأ بسكون النون وتخفيف الجيم^(١).

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقْرُبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(١) ينظر: «السبعة» ص: (٣٣٠)، «الحجة للقراء السبعة» (٤/٣٠٥)، «حجة القراءات» ص: (٣٣٧)، و«إعراب القراءات» (١/٢٧٥ - ٢٧٦)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/١٢٠)، و«شرح شُعْلة» (٤٢٥)، و«العنوان» (١٠٦).

الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل يأيها الناس إن كنتم في شك من ديني ...﴾ الآية، مخاطبة عامة للناس أجمعين إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَقْنَمُ وَجْهَكَ للدين ...﴾ الآية: الوجه في هذه الآية بمعنى المنحى والمقصود، أي: أجعل طريقك وأعتمالك للدين والشرع.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكونن من المشركين * ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ...﴾ الآية، قد تقدم أن ما كان من هذا النوع، فالخطاب فيه للنبي ﷺ، والمراد غيره.

وقوله سبحانه: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ...﴾ الآية: مقصود هذه الآية أن الحول والقوة لله، والـ ﴿ضر﴾ لفظ جامع لكل ما يكرهه الإنسان.

وقوله: ﴿وإن يردك بخير﴾ لفظ تام العموم.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٥٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٥٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾: هذه مخاطبة لجميع الكفار ومستمرّة مدى الدهر، و﴿الحق﴾: هو القرآن والشرع الذي جاء به النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾: منسوخة بالقتال.

وقوله سبحانه: ﴿واتبع ما يوحي إليك وأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾. قوله: ﴿حتى يحكم الله﴾: وعد للنبي ﷺ بأن يغلبهم، كما وقع، وهذا الصبر منسوخ أيضاً بالقتال، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

تفسير سورة هود

مكية

إلا نحو ثلاث آيات

قال الداوددي: وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ أُسْرِعَ إِلَيْكَ الشَّيْبُ؟ قَالَ: «شَيْبَتِي هُوَ» وَ«الْوَاقِعَةُ» وَ«الْمُرْسَلَاتُ» وَ«عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ» وَ«إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»^(١)، وفي رواية عن ابن عباس: «هُوَ وَأَخَوَاتُهَا». انتهى^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَذَّبُوا أَنْبِيََاءَ مَا جَاءَتْهُمْ مِنْ قُرْآنٍ مِمَّنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْ مَتَهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَفْغَرُوا مِنْكَ لَمَّا جَاءَتْهُمْ مِنْ قُرْآنٍ مِمَّنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

(١) أخرجه الترمذي (٤٠٢/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الواقعة، حديث (٣٢٩٧)، والحاكم (٣٤٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٥٠/٤)، كلهم من طريق شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبي بكر الصديق به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه. وذكره من هذا الوجه السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٧/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث والنشور».

وأخرجه أبو يعلى (١٠٢/١ - ١٠٣) رقم: (١٠٧ - ١٠٨) من طريق أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن أبي بكر به، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٠/٧)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى إلا أن عكرمة لم يدرك أبا بكر.

قال ابن أبي حاتم في «العلل» (١١٠/٢) رقم: (١٨٢٦): سئل أبي عن حديث أبي إسحاق عن عكرمة، عن ابن عباس، قال أبو بكر للنبي ﷺ: ما شيك؟ قال: «شيتني هود». والحديث متصل أصح، كما رواه شيبان، أو مرسلًا كما رواه أبو الأحوص مرسل قال: مرسل أصح، قلت لأبي: روى بقية عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبي بكر، عن النبي ﷺ؟ فقال: هذا خطأ ليس فيه ابن عباس هـ.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٦/٣) من وجه آخر عن أبي بكر، وعزاه إلى ابن المنذر، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر من طريق مسروق عن أبي بكر وعزاه أيضاً إلى البزار، وابن مردويه، من طريق أنس، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٧/٣)، وعزاه إلى ابن عساكر من طريق عطاء، عن ابن عباس.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْآيَاتُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّمَا أَتَى بِالْحَقِّ نَبِيٌّ عَلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: أتيتني وأجيدت، وبهذه الصفة كان القرآن في الأزل، ثم فصل بتقطيعه، وتبيين أحكامه وأوامره على محمد نبيه عليه السلام في أزمنة مختلفة؛ فـ «ثُمَّ» على بابها، / فالإحكام صفة ذاتية، والتفصيل إنما هو بحسب من يفصل له، والكتاب بأجمعه محكم ومفصل، والإحكام الذي هو ضد النسخ، والتفصيل الذي هو خلاف الإجمال، إنما يقالان مع ما ذكرناه بأشتراك.

قال ص * : «ثُمَّ فَصَّلْتُ»: «ثُمَّ» لترتيب الأخبار؛ لا لترتيب الوقوع في الزمان، و«لَدُنْ» بمعنى: «عند». انتهى.

قال الداودودي: وعن الحسن: «أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ»: قَالَ: أَحْكَمْتَ بِالْأَمْرِ وَالنَهْيِ، ثُمَّ فَصَّلْتَ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَعَنْهُ: فَصَّلْتَ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. انتهى. وقدم الـ «نذير»؛ لأنَّ التَّحذِيرَ مِنَ النَّارِ هُوَ الْأَهَمُّ. «وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ»، أي: أطلبوا مغفرتي؛ وذلك بطلب دخولكم في الإسلام، «ثُمَّ تَوْبُوا» مِنَ الْكُفْرِ «يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا»، ووصف المتاع بالحسن؛ لطيب عيش المؤمن برجائه في ثواب ربه، وفَرَحِهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأَدَاءِ مَفْتَرَضَاتِهِ، والسُّرُورِ بِمَوَاعِيدِهِ سُبْحَانَهُ، والكافِرُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا، «وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ»، أي: كُلُّ ذِي إِحْسَانٍ «فَضْلَهُ»، فيحتملُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ مِنْ «فَضْلِهِ» عَلَى «ذِي فَضْلٍ» أي: ثَوَابِ فَضْلِهِ، ويحتملُ أَنْ يَعُودَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أي: يُؤْتِي اللَّهُ فَضْلَهُ كُلَّ ذِي فَضْلٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَحْنُ هَذَا الْمَعْنَى مَا وَعَدَ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ تَضْعِيفِ الْحَسَنَاتِ، «وَأَنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ»، أي: فَقُلْ: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونْ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُخْتُونَ وَمَا يَكْتُمُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ السُّدُورِ ٥﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَلْعَبُكُمْ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ عَمَلَاءُ وَلَكِنْ قُلْتُ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ٧﴾ وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَهُ أَتَمُّ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجْهَشُونَ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٨﴾

وقوله سبحانه: «أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونْ صُدُورَهُمْ...» الآية: قيل: إن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم النبي ﷺ تَطَامَنُوا وَتَنَوُّوا صُدُورَهُمْ؛ كَالْمَتَسَتِّرِ، وَرَدُّوا إِلَيْهِ ظُهُورَهُمْ، وَغَشَّوْا وَجُوهَهُمْ بِثِيَابِهِمْ، تَبَاعَدًا مِنْهُمْ، وَكَرَاهِيَةً لِلِقَائِهِ، وَهُمْ يَنْظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ يَخْفَى عَلَيْهِ، أَوْ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقِيلَ: هِيَ أَسْتِعَارَةٌ لِلْغُلِّ وَالْحِفْدِ الَّذِي كَانُوا يَنْطَوُّونَ

عليه، فمعنى الآية: أَلَا إِنَّهُمْ يُسِرُّونَ العداوةَ، وَيَتَكْتُمُونَ بها، لِتَخْفَى فِي ظَنِّهِمْ عَنِ اللَّهِ وَهُوَ سَبْحَانَهُ حِينَ تَغْشِيهِمْ بِثِيَابِهِمْ، وَإِبْلَاغِهِمْ فِي التَّسْتُرِ، يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ، وَ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: معناه يجعلونها أغشيةً وأغطيةً.

قال * ص * : قرأ^(١) الجمهور: «يُثْنُونَ» - بفتح الياء -؛ مضارع ثَنَى الشَّيْءُ ثَنِيًا: طَوَّاهُ. انتهى، وقرأ ابن عباس^(٢) وجماعة: «تُثْنُونِي صُدُورُهُمْ» - بالرفع -؛ على وزن «تَفْعُوْعُلْ»، وهي تحتمل المعنيين المتقدمين، وحكى الطبري عن ابن عباس على هذه القراءة. أَنَّ هذه الآية نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا لَا يَأْتُونَ النِّسَاءَ وَالْحَدَثَ إِلَّا وَيَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ؛ كَرَاهِيَةً أَنْ يُقْضُوا بِفُرُوجِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ^(٣).

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا...﴾ الآية، المراد جميعُ الحيوانِ المحتاجِ إِلَى رِزْقٍ، والمستقر: صُلْبُ الْأَبِ، و«المستودع»: بَطْنُ الْأُمِّ، وقيل غير هذا، وقد تقدَّم.

وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ﴾: إشارةٌ إِلَى اللُّوحِ المحفوظ.

قال * ص * : ﴿لَيَبْلُوكُمْ﴾ اللام متعلِّقةٌ بِ«خَلَقَ» وقيل: بفعلٍ محذوفٍ، أي: أَعْلَمَ بِذَلِكَ لَيَبْلُوكُمْ، انتهى.

﴿وَلَيْنَ قُلْتَ﴾: اللام فِي «لَيْنَ»: مُؤَدَّةٌ بِأَنَّ اللام فِي «لَيَقُولُنَّ» لَامٌ قَسَمٌ، لَا جَوَابٍ شَرْطٍ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ تناقُضٌ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ مَقْرُونُونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَنْكُرُونَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ الْبَغْثُ مِنَ الْقُبُورِ، وَإِذْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٢٠٣/٥) و«الدر المصون» (٧٨/٤).

(٢) وممن قرأ بها مجاهد، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وعبد الرحمن بن أبيزي، والجحدري، وابن أبي إسحاق، وأبو رزين، وأبو جعفر محمد بن علي، وعلي بن حسين، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد، والضحاك، وأبو الأسود الدؤلي.

ينظر: «الشواذ» ص: (٦٤)، و«المحتسب» (٣١٨/١)، و«المحرر الوجيز» (١٥٠/٣)، و«البحر المحيط» (٢٠٣/٥)، و«الدر المصون» (٧٨/٤).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٢٦/٦) برقم: (١٧٩٦٥) بنحوه، وللحديث طريق آخر عن ابن عباس، وأخرجه البخاري (٦٢٦/٨) برقم: (٤٦٨١ - ٤٦٨٢)، وذكره ابن عطية (١٥١/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٧٤/٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٣٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٩/٣)، وعزاه إِلَى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، كلهم بنحوه.

﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب﴾، أي: المتوَعَّد به ﴿إلى أمة معدودة﴾، أي مدَّة معدودة ﴿ليقولنَّ ما يحبسهُ﴾، أي: ما هذا الحابس لهذا العذاب؛ على جهة التكذيب، ﴿وحاق﴾: معناه: حلَّ وأحاط. البخاري: حاق: نَزَلَ.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافُورًا ۖ وَلَئِنِ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ۖ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾

﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة...﴾ الآية: «الرحمة» هنا: نَعْمُ جميع ما ينتفع به مِنْ مطعوم وملبوس وجاء وغير ذلك، و﴿الإنسان﴾ هنا اسمُ جنس، والمعنى: إن هذا الخلق في سجيَّة الإنسان، ثم أستثنى منهم الذين ردَّتْهم الشرائع والإيمان / إلى الصبر والعمل الصالح، و﴿كفور﴾ هنا: مِنْ كُفْرِ النعمة، وال «نعمة»: تشملُ الصحة والمال، وال «ضراء»: من الضَّر، وهو أيضاً شاملٌ؛ ولفظة «ذهب السيئات عني»: يقتضي بطراً وجهلاً أنَّ ذلك بإنعام من الله تعالى، و﴿السيئات﴾ هنا: كلُّ ما يسوء في الدنيا، وال «فرح»: هنا: مطلق؛ فلذلك دُم، إذ الفرح أنهمال النفس، ولا يأتي الفرح في القرآن ممدوحاً إلا إذا قيد بأنه في خير.

وقوله: ﴿إلا الذين صبروا﴾: استثناء متصل؛ على ما قدَّمنا مِنْ أنَّ الإنسان عامٌ يراد به الجنس؛ وهو الصواب، ومن قال: إنه مخصوص بالكافر قال: ههنا الاستثناء منقطع، وهو قول ضعيف من جهة المعنى، لا من جهة اللفظ؛ لأن صفة الكُفْر لا تطلق على جميع الناس؛ كما تقتضي لفظة الإنسان وأستثنى الله تعالى من الماثبين على سجيَّة الإنسان هؤلاء الذين حملتهم الأديان على الصبر على المكاره، والمثابرة على عبادة الله، وليس شيء من ذلك في سجيَّة البشر، وإنما حمل على ذلك خوفُ الله وحُبُّ الدار الآخرة، والصبر على العمل الصالح لا ينفع إلا مع هداية وإيمان، ثم وعد تعالى أهل هذه الصفة بالمَغْفِرَةِ للذنوب والتفضل بالأجر والنعيم.

وقوله سبحانه: ﴿فلعلَّكَ تاركٌ بغضٍ ما يوْحَىٰ إليك وضائقٌ به صدرُكَ أنَّ يقولوا لولا أنزلَ عليه كُتُبٌ﴾: سبب هذه الآية: أنَّ كفَّار قريش قالوا: يا محمد، لو تركت سبَّ آلِهتنا، وتسفيه آبائنا، لجألسناك وأتبعناك، وقالوا له: أثبت بقرآن غير هذا أو بدله، ونحو هذا من

الأقوال، فخطب الله تعالى نبيه عليه السلام على هذه الصورة من المخاطبة، ووقفه بها توقفاً راداً على أقوالهم ومبطلاً لها، وليس المعنى أنه عليه السلام هم بشيء من ذلك، فزجر عنه، فإنه لم يرد قط ترك شيء مما أوجي إليه، ولا ضاق صدره به، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم وبغدهم عن الإيمان.

قال * ص، وع^(١) * : وعبر بـ ﴿ضائق﴾ وإن كان أقل استعمالاً من «ضيق» لمناسبة ﴿تارك﴾؛ ولأن ﴿ضائق﴾ وصف عارض؛ بخلاف «ضيق»؛ فإنه يدل على الثبوت، والصالح هنا الأول بالنسبة إليه ﷺ، والضمير في «به» عائذ على البغض، ويحتمل أن يعود على «ما» و﴿أن يقولوا﴾ أي: كراهة أن يقولوا، أو لثلاً يقولوا، ثم أنسه تعالى بقوله: ﴿إنما أنت نذير﴾، أي: هذا القدر هو الذي فوض إليك، والله تعالى بعد ذلك هو الوكيل الممضي لإيمان من شاء، وكفر من شاء ﴿أم يقولون آفترأه﴾: «أم» بمعنى: «بل»، وآفترأه أخص من الكذب، ولا يستعمل إلا فيما بهت به المرء وكأبر.

وقوله سبحانه: ﴿قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وأدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ تقدم تفسير نظيرها، وقال بعض الناس: هذه الآية متقدمة على التي في يونس؛ إذ لا يصح أن يعجزوا في واحدة، ثم يكلفوا عشراً.

قال * ع^(٢) * : وقائل هذا القول لم يلحظ ما ذكرناه من الفرق بين التكليفين، في كمال المماثلة مرة كما هو في «سورة يونس»، ووقوفها على النظم مرة كما هو هنا، وقوله: ﴿إن كنتم صادقين﴾: يريد في أن القرآن مفترى.

﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّما أُنزِلَ بِإِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَنْبَرٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي يَدَيْهِ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي

(١) ينظر: «المحور الوجيز» (١٥٤/٣).

(٢) ينظر: «المحور الوجيز» (١٥٥/٣).

الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَالِمَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾، لهذه الآية تأويلان:

أحدهما: أن تكون المخاطبة من النبي ﷺ للكفار، أي: ويكون ضمير ﴿يَسْتَجِيبُوا﴾؛ على هذا التأويل عائداً على معبوداتهم.

والثاني: أن تكون المخاطبة من الله تعالى للمؤمنين، ويكون قوله؛ على هذا ﴿فَاعْلَمُوا﴾ بمعنى: دُومُوا عَلَى عِلْمِكُمْ قال مجاهد: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: هو لأصحاب محمد عليه السلام^(١).

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...﴾ الآية: قالت قتادة وغيره: هي في الكفرة^(٢)، وقال مجاهد: هي في الكفرة وأهل الرياء من المؤمنين^(٣).

٢٤٤ ب / وإليه ذهب معاوية، والتأويل الأول أَرْجَحُ؛ بحسب تقدم ذكر الكفار، وقال ابن العربي في «أحكامه»: بل الآية عامة في كل من ينوي غير الله بِعَمَلِهِ، كان معه إيمان أو لم يكن، وفي هذه الآية بيان لقوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى»^(٤)، وذلك أَنَّ الْعَبْدَ لَا يُعْطَى إِلَّا عَلَى وَجْهِ قَصْدِهِ، وبِحُكْمٍ مَا يَنْعَقِدُ فِي ضَمِيرِهِ، وهذا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وقوله: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾: قيل: ذلك في صحة أبدانهم وإدراج أرزاقهم، وقيل: إن هذه الآية مطلقة، وكذلك التي في «حَمَّ عَسَقَ»: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الآية [الشورى: ٢٠] إلى آخرها، قيدتهما وفسرتهما الآية التي في «سورة سُبْحَانَ»، وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ...﴾ الآية [الإسراء: ١٨]، فأخبر سبحانه أَنَّ الْعَبْدَ يَنْوِي وَيُرِيدُ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، ثم ذكر ابن العربي الحديث الصحيح في الثَّغْرِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ رِيَاءً، وَهُمْ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، وَقَوْلُ اللَّهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ: «مَاذَا عَمِلْتَ؟» ثم قال في آخر الحديث: ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رُكْبَتَيْي، وَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ،

(١) أخرجه الطبري (١٢/٧) برقم: (١٨٠٢٢، ١٨٠٢٤، ١٨٠٢٥)، وذكره ابن عطية (١٥٦/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٣/٣)، وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (١٥٦/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (١٥٦/٣).

(٤) تقدم تخريجه.

أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾^(١)، أي: في الدنيا وهذا نصٌّ في مراد الآية، والله أعلم. انتهى.

﴿حَبِطَ﴾: معناه: بَطَلَ وَسَقَطَ، وهي مستعملةٌ في فَسَادِ الأعمال.

قال * ص *: قوله: ﴿مَا صَنَعُوا﴾: «ما» بمعنى: «الَّذِي»، أو مصدرية، و«فيها»: متعلِّقٌ بـ «حَبِطَ»، والضمير في «فيها» عائد على الآخرة، أي: ظهر حبوطُ ما صَنَعُوا في الآخرة، أو متعلِّقٌ بـ «صَنَعُوا»؛ فيكون عائداً على الدنيا. انتهى.

وال «باطل» ﴿بَاطِلٌ﴾: كُلُّ مَا تَقْتَضِي ذَاتُهُ أَلَّا تُثَالِ بِهِ غَايَةً فِي ثَوَابٍ وَنَحْوِهِ، وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾: في الآية تأويلات.

قال * ع ^(٢): والراجعُ عندي مِنَ الأقوال في هذه الآية: أَنْ يَكُونَ «أَقَمَنَ» للمؤمنين، أو لهم وللنبي ﷺ معهم، وال «بَيْنَةٌ»: القرآن وما تَضَمَّنَ، وال «شَاهِدٌ»: الإنجيل، يريد: أو إعجاز القرآن في قول، والضميرُ في «يتلوه» للبينة، وفي «منه» للرب، والضميرُ في «قبله» للبينة أيضاً، وغير هذا مما ذَكَرَ محتملٌ، فَإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ الضميرُ في «قَبْلَهُ» عائداً على القرآن، فَلِمَ لَمْ يَذْكُرِ الإنجيل، وهو قبله، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ كِتَابِ مُوسَى؟، فالجواب: أَنَّهُ خَصَّ التَّوْرَةَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ مَجْمَعٌ عَلَيْهِ، وَالْإِنْجِيلُ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ تَخَالَفَ فِيهِ، فَكَانَ أَلَسْتَشْهَادَ بِمَا تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَى الْجَمِيعِ أَوَّلَى، وَهَذَا يَجْرِي مَعَ قَوْلِ الْجَنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحقاف: ٣٠] و«الأحزاب»؛ هُنَا يُرَادُ بِهِمْ جَمِيعُ الْأُمَمِ، وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَسْمَعُ بِي مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»^(٣)، قَالَ سَعِيدٌ: فَقُلْتُ: أَيْنَ مُضْدَاقُ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ حَتَّى وَجَدْتُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَكُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ حَدِيثاً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ طَلَبْتُ مُضْدَاقَهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٤)، وَقَرَأَ

(١) أخرجه الترمذي (٥٩١/٤، ٥٩٣) كتاب «الزهد» باب: ما جاء في الرياء والسمعة، حديث (٢٣٨٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) ينظر: «المحور الوجيز» (١٥٧/٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره من هذا الوجه السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٧/٣)، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه.

الجمهور: «في مزية»^(١) - بكسر الميم -، وهو الشك، والضمير في «منه» عائذ على كون الكفرة موعدهم النار، وسائر الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿ويقول الأشهاد﴾: قالت فرقة: يُريدُ الشهداء من الأنبياء والملائكة، وقالت فرقة: الأشهاد: بمعنى المشاهدين، ويريد جميع الخلائق، وفي ذلك إشادة بهم وتشهير لخزيهم، وروي في نحو هذا حديث: «أَنَّهُ لَا يُخْزَى أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَتَعْلَمُ ذَلِكَ جَمِيعٌ مِّنْ شَهِدِ الْمَحْشَرِ»، وباقي الآية بين مما تقدم في غيرها.

قال * ص *: وقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يحتمل أن يكون داخلاً في مفعول القول، وإليه نحا بعضهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾: يَحْتَمِلُ وجوهاً: أحدها: أنه وصف سبحانه هؤلاء الكفار بهذه الصفة في الدنيا؛ على معنى أنهم لا يسمعون سماعاً يتفهمون به، ولا يبصرون كذلك.

والثاني: أن يكون وصفهم بذلك من أجل بغضتهم في النبي ﷺ فهم لا يستطيعون أن يحملوا نفوسهم على السمع منه، والنظر إليه. «وَمَا» في هذين الوجهين: نافية.

الثالث: أن يكون التقدير: يضاعف لهم العذاب بما كانوا، أي: بسبب ما كانوا؛ فـ «مَا» مصدرية، وباقي الآية بين.

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْمَىٰ وَالْأَبْصَرِ وَالْأَسْمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤)

وقوله سبحانه: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم... الآية: ﴿لَا جَرَمَ﴾ تقدم بيانها، ﴿وَأَخْبَتُوا﴾: قال قتادة: معناه: خشعوا^(٢)، وقيل: معناه أنابوا؛ قاله ابن عباس^(٣)،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٩/٣) و«البحر المحيط» (٢١٢/٥)، و«الدر المصون» (٨٦/٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٦/٧) برقم: (١٨١١٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٦١/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٧٩/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٥٩٠/٣)، وعزاه إلى عبد الرزاق وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٥/٧) برقم: (١٨١٠٩)، وذكره ابن عطية في تفسيره (١٦١/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٧٩/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٥٩٠/٣).

وقيل: أطمأثوا؛ قاله مجاهد^(١) وقيل: خافوا؛ قاله ابن عباس^(٢) أيضاً، وهذه أقوال بعضها قريب من بعض.

وقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ...﴾ الآية، «الفریقان» الكافرون والمؤمنون، شبه الكافر بالأعمى والأصم، وشبه المؤمن بالبصير والسميع، فهو تمثيل بمثالين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلَمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين * ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً...﴾ الآية: فيها تمثيل لقريش وكفار العرب، وإعلام بأن محمداً عليه السلام ليس ببذع من الرسل، و«الأراذل» جمع الجمع، فقيل: جمع أزدل، وقيل: جمع أزدال، وهم سفلة الناس، ومن لا خلاق له ولا يبالي ما يقول، ولا ما يقال له، وقرأ الجمهور^(٣): «بَادِي الرَّأْيِ» - بياء دون همز -؛ من بَدَا يَبْدُو، فيحتمل أن يتعلق «بَادِي الرَّأْيِ» بـ «نَرَاكَ»، أي: وما نراك بأول نظر وأقل فكرة، وذلك هو بادي الرأي إلا ومتبعوك أراذلنا، ويحتمل أن يتعلق بقوله: «اتَّبَعَكَ»، أي: وما تراك اتبعك بادي الرأي إلا الأراذل، ثم يحتمل على هذا قوله: «بَادِي الرَّأْيِ» معنيين:

أحدهما: أن يريدوا: اتَّبَعَكَ في ظاهر أمرهم، وعسى أن بواطنهم ليست معك.

والثاني: أن يريدوا: اتَّبَعُوكَ بأول نظر، وبالرأي البادي، دون تثبت.

ويحتمل أن يكون قولهم: «بَادِي الرَّأْيِ» وصفاً منهم لنوح، أي: تدعي عظيماً وأنت مكشوف الرأي، لا خصافة لك، ونصبه على الحال، أو على الصفة لـ «بَشَرٍ».

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٥/٧) برقم: (١٨١١٢ - ١٨١١٣ - ١٨١١٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٦١/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٧٩/٢)، والسيوطي (٥٩٠/٣)، وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٥/٧) برقم: (١٨١١١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٦١/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٧٩/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٩/٣)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٣/٣) و«البحر المحيط» (٢١٥/٥)، و«الدر» * (٩١/٤).

﴿قَالَ يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَالَّذِي رَحِمَهُ مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (٧٨) وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنْ أَنْزَلْتُكُمْ قَوْمًا يَبْهَلُونَ ﴿٧٩﴾ وَيَقُولُ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْمِنَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨١﴾ قَالُوا يَنْبَغُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَلَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْيِكُمُ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده... الآية: كانه قال: أرايتم إن هداني الله وأصلكم أجبركم على الهدى، وأنتم له كارهون، وعبارة نوح عليه السلام كانت بلغته دالة على المعنى القايم بنفسه، وهو هذا المفهوم من هذه العبارة العربية، فبهذا استقام أن يقال: قال كذا وكذا؛ إذ القوم ما أفاد المعنى القايم في النفس، وقوله: ﴿على بينة﴾ أي: على أمر بين جلي، وقرأ الجمهور: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾^(١) ولذلك وجهان من المعنى:

أحدهما: خَفِيَتْ.

والثاني: أن يكون المعنى: فَعُمِّيَتْمْ أنتم عنها.

وقوله: ﴿أنزلتكموها﴾: يريد: إلزام جبر؛ كالقتال ونحوه، وأما إلزام الإيجاب، فهو حاصل.

وقوله: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾: يقتضي أن قومه طلبوا طرد الضعفاء الذين بادروا إلى الإيمان به نظير ما اقترحت قریش، و﴿تزدري﴾: أصله: تَزَرِّي؛ تَفْتَعِلُ مِنْ زَرَى يَزَرِي، ومعنى: ﴿تزدري﴾: تحقر، و«الخير»؛ هنا: يظهر فيه أنه خير الآخرة، اللهم إلا أن يكون أذراؤهم من جهة الفقر، فيكون الخير المال؛ وقد قال بعض المفسرين: حيث ما ذَكَرَ اللَّهُ الْخَيْرَ / في القرآن، فهو الْمَالُ.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٤/٣)، و«البحر المحيط» (٢١٧/٥)، و«الدر المصون» (٩٣/٤). وقد قرأ الأخوان، وحض بالشديد، هكذا «فَعُمِّيَتْ»، وحجتهم في حرف عبد الله: «فَعَمَّاهَا عليكم». ينظر: «حجة القراءات» (٣٣٨)، و«السبعة» (٣٣٢)، و«الحجة» (٣٢٢/٤) و«إعراب القراءات» (١/٢٧٩)، و«شرح شعلة» (٤٢٦)، و«العنوان» (١٠٧)، و«إتحاف» (١٢٤/٢).

قال * ع^(١) * : وفي هذا الكلام تحاملٌ، والذي يشبه أن يقال: إنه حيث ما ذُكر الخير، فإنَّ المالَ يدخل فيه.

* ت * : وهذا أيضاً غير ملخص، والصواب: أنَّ الخيرَ أعمُّ من ذلك كله، وانظر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] فإنه يشملُ المالَ وغيره، ونحوه: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، وانظر قوله عليه السلام: «اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]، فههنا لا مدخل للمال إلا على تجوُّز، وقد يكون الخير المرادُ به المالُ فقط؛ وذلك بحسب القرائن، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا...﴾ الآية [البقرة: ١٨٠].

وقوله: ﴿اللَّهُ أعلم بما في أنفسهم﴾: تسليمٌ لله تعالى، وقال بعضُ المتأولين: هي ردُّ على قولهم: اتبعك أراذلنا في ظاهر أمرهم؛ حسب ما تقدَّم في بعض التأويلات، ثم قال: ﴿إني إذا﴾ لو فعلت ذلك، ﴿لمن الظالمين﴾، وقولهم: ﴿قد جادلنا﴾: معناه: قد طال منك هذا الجدالُ، والمراد بقولهم: ﴿بما تعدنا﴾ العذابُ والهلاكُ، ﴿وما أنتم بمعجزين﴾، أي: بمفلتين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَ ٣٥﴾ وأوحى إلى نوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَتَّبِعِ الْبَاطِلَ وَأَصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ٣٦﴾ وَأَصْنَعْ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَىهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٣٧﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُغْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ٣٨﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاه...﴾ الآية: قال الطبري^(٣) وغيره: هذه الآيةُ اعترضَتْ في قصَّة نوح، وهي في شأن النبي ﷺ مع قُرَيْشٍ.

قال * ع^(٤) * : ولو صحَّ هذا بسندٍ، لوجب الوقوفُ عنده، وإلا فهو يختملُ أن

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٦/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤/١) كتاب «الصلاة» باب: هل تنشئ قبور مشركي الجاهلية، حديث (٤٢٨)، ومسلم (١٤٣١/٣) كتاب «الجهاد» باب: غزوة الأحزاب، حديث (١٨٠٥/١٢٧) من حديث أنس بن مالك.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٣/٧).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٧/٣).

والعذابُ الْمُخْزِي: هو العَرَق، وال ﴿مُقِيمٌ﴾: هو عذاب الآخرة، و«الأمر»: واحد الأمور، ويحتملُ أن يكون مصدر «أمر»، فمعناه: أَمَرْنَا للماءِ بِالْفَوْرَانِ، ﴿وَفَارَ﴾ معناه: أُنْبَعَثَ بِقُوَّةٍ، وأختلف الناس في الثُّور، والذي عليه الأكثرُ، منهم ابنُ عباس وغيره: أنه هو ثُورُ الحَبِزِ الذي يُوقَدُ فيه^(١)، وقالوا: كانت هذه أَمَارَةً، جعلها الله لنوح، أي: إذا فار الثُّور، فَارَزَكَبَ في السفينة.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ...﴾ الآية، الزَّوْجُ: يقال في مشهور كلام العرب: للواحد مما له ازدواج، فيقال: هذا زَوْجٌ / هذا، وهما زَوْجَانِ، والزَّوْجُ أيضاً في كلام العرب: النُّوعُ، وقوله: ١٢٤٦ ﴿وَأَهْلَكَ﴾: عَطَفَ عَلَى مَا عَمِلَ فِيهِ ﴿أَحْمِلْ﴾ والأهل، هنا: القرابة، وبشَرَطَ مَنْ آمَنَ منهم، خُصَّصُوا تَشْرِيفاً، ثم ذكر ﴿مَنْ آمَنَ﴾، وليس من الأهل، واختلف في الذي سبق عليه القولُ بِالْعَذَابِ، فقليل: ابْنُهُ يَام، أو كنعان، وقيل: امرأته وَالْعَتَّةُ - بالعين المهملة -، وقيل: هو عمومُ فيمن لم يؤمن من أهل نوح، ثم قال سبحانه إخباراً عن حالهم: ﴿وما آمن معه إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِّنْهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) وَهِيَ تَجْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقَرٍّ يَتَّبِعُ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَنَأْوِي إِلَى جِبَلٍ يَفْعَلُنِي مِنْ أَلْمَاءٍ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٤٣)

وقوله تعالى: ﴿وقال اركبوا فيها﴾: أي: وقال نوح لمن معه: اركبوا فيها، وقوله: ﴿باسم الله﴾ يصح أن يكون في موضع الحال في ضمير «ارْكَبُوا»، أي: اركبوا متبركين باسم الله، أو قائلين: باسم الله، ويجوز أن يكون: ﴿باسم الله مجراها ومرساها﴾ جملة ثانية من مبتدأ وخبر، لا تعلق لها بالأولى كأنه أمرهم أولاً بالركوب، ثم أخبر أن مجراها ومرساها باسم الله. قال الضحَّاك: كان نوح إذا أراد جَزِي السفينة، جَرَتْ، وإذا أراد وقوفها، قال: باسم الله، فتقف^(٢)، وقرأ الجمهور^(٣) بضم الميم من «مُجَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا»

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥/٧) برقم: (١٨١٦٩ - ١٨١٧٠)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣/١٧٠)، والبغوي في «تفسيره» (٣٨٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٥/٧) برقم: (١٨٢٠١)، وذكره ابن عطية (١٧٢/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٢/٣٨٥) برقم: (٤١).

(٣) وحجة من فتح الميم قوله سبحانه بعدها: «وهي تجري بهم في موج كالجبال»، ولم يقل: تُجْرَى. =

على معنى إجرائها وإرسائها، وقر الأخوان حَمَزَةً والكِسَائِيَّ وحفص بفتح ميمٍ «مَجْرِيهَا» وكسر الراء، وكلُّهم ضمُّ الميم في «مُرْسَاهَا».

* ت *: قوله: «وكسر الراء»: يريد إمالتها، وفي كلامه تسامُح، ولفظ البخاري: مُجْرَاهَا: مَسِيرُهَا، وَمُرْسَاهَا: مَوْقِفُهَا، وهو مصدر: أُجْرِيْتُ وَأُرْسِيْتُ. انتهى.

قال النووي: وَرَوَيْنَا فِي «كِتَابِ ابْنِ السَّنِيِّ» بِسَنَدِهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «أَمَّا لَأَمْتِي مِنَ الْعَرَقِ، إِذَا رَكَبُوا أَنْ يَقُولُوا: ﴿بِاسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَمَا قَدَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ [الأنعام: ٩١]»^(١)، هَكَذَا هُوَ فِي النَّسَخِ: «إِذَا رَكَبُوا»، وَلَمْ يَقُلْ: «فِي السَّفِينَةِ» انتهى.

وقوله: ﴿وَكَانَ فِي مَغْزَلٍ﴾ أي: فِي نَاحِيَةٍ، أي: فِي بُغْدٍ عَنِ السَّفِينَةِ، أَوْ عَنِ الدِّينِ، وَاللَّفْظُ يَعْهُمَا.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ نَهْيًا مُحْضًا مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ كَافِرٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ خَفِيٍّ عَلَيْهِ كُفْرُهُ؛ وَالْأَوَّلُ أَتَيْنُ.

وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: الظاهر أَنَّ ﴿لَا عَاصِمَ﴾ اسْمٌ

= حجة الجمهور في الضم إجماع الجميع على ضم الميم في «مُرْسَاهَا»، فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.

ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٣/٣)، و«البحر المحيط» (٢٢٥/٥)، و«الدر المصون» (٩٩/٤)، و«السبعة» (٣٣٣)، و«الحجة» (٣٢٩/٤)، و«إعراب القراءات» (٢٨١/١) و«شرح الطيبة» (٣٦٣/٤)، و«العنوان» (١٠٧)، و«شرح شعلة» (٤٢٧)، و«إتحاف فضلاء البشر» (١٢٥/٢).

(١) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥٠١) من حديث الحسين بن علي. وفي سنده جبارة بن المغلس، ويحيى بن العلاء، ومروان بن سالم، والأول: ضعيف، والثاني والثالث: متهمان بالوضع.

وأخرجه أبو يعلى (١٥٢/٢) رقم: (٦٧٨١): حدثنا جبارة، ثنا يحيى بن العلاء، عن مروان بن سالم، عن طلحة بن عبيد الله، عن الحسين بن علي به.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٥/١٠) وقال: رواه أبو يعلى عن شيخه جبارة بن المغلس، وهو ضعيف هـ. وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (٢٣٧/٣) رقم: (٣٣٦٥)، وعزاه لأبي يعلى، وقال: فيه ضعف.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٦٠٢/٣)، وزاد نسبته إلى الطبراني، وابن عدي، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وللحديث شاهد من حديث ابن عباس بلفظ حديث الحسين بن علي، ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٦٠٣ - ٦٠٢/٣)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه.

فاعِلٌ على بابه، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: يريد: إِلَّا اللَّهُ الرَّاحِمَ، فـ «مَنْ» كنايةٌ عن الله، المعنى: لا عاصِمَ اليوم إِلَّا الذي رَحِمَنَا.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَكَسِمَاءُ أَهْلِكَ وَفُضِيَ الْمَاءُ كُلُّهُ نَاحِيَةَ الْجُودِيِّ﴾ وَقِيلَ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْشَاكَ أَنْ تَتَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْبِطْ بِسَلْمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك...﴾ الآية: البَلْعُ: تجرُّع الشيء؛ وأزْدِرَأْدُهُ، والإقْلَاعُ عن الشيء: تركُّهُ، و﴿غِيضٌ﴾ معناه: نَقْصٌ، وأكثرُ ما يجيء فيما هو بمعنى الجُفُوف، وقوله: ﴿وقضي الأمر﴾: إشارة إلى جميع القصة: بعث الماء، وإهلاك الأُمم، وإنجاء أهل السفينة.

قال *ع^(١): * وتظاهرت الروايات وكُتِبُ التفسير بأن الغرق نال جميع أهل الأرض، وعمَّ الماء جميعها؛ قاله ابن عباس وغيره، وذلك بين من أمر نوح بحمل الأزواج من كل الحيوان، ولولا خوف فنائها من جميع الأرض، ما كان ذلك، وروي أن نوحاً عليه السلام ركب في السفينة من عَيْنِ الوَزْدَةِ بالشام أولَ يومٍ من رَجَبٍ، وأستوت [السفينة] على الجودي في ذي الحِجَّة، وأقامت عليه شهراً، وقيل له: ﴿أهبط﴾ في يوم عاشوراء، فصامه هو ومن معه، وروي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال: أن السفينة تَرْسِي على واحد منها، فتطاوَلَتْ كلها، وبقي الجودي، وهو جبلٌ بالمَوْصِل في ناحية الجزيرة، لم يتطاوَلْ؛ تواضعاً لله؛ فاستوت السفينة بأمر الله عليه، وقال^(٢) الزَّجَّاجُ: الجودي: هو ناحية «أمد»، وقال قوم: هو عند باقردي، وأكثر الناس في قصص هذه الآية، والله أعلم بما صَحَّ من ذلك.

وقوله: ﴿وقيل بعداً﴾: يحتمل أن يكون من قول الله عز وجل؛ عطفاً على قوله: ﴿وقيل الأول﴾، ويحتمل أن يكون من قول نوح والمؤمنين، والأول أظهر.

وقوله: ﴿إِنْ ابْنِي مِنْ أَهْلِي...﴾ الآية: احتجاج من نوح عليه السلام أن الله أمره

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٥/٣).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥٥/٣).

بَحْمَلٍ أَهْلُهُ، وَأَبْنُهُ مِنْ أَهْلِهِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ لَهُ أَنَّ الْمُرَادَ مَنْ آمَنَ مِنَ الْأَهْلِ،
٢٤٦ ب وهذه الآية تقتضي أن نوحاً عليه السلام ظَنَّ أَنَّ ابْنَهُ مُؤْمِنٌ/.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين عَمَّهم الوعد؛ لأنه ليس على دينك، وإن كان أَبْنُكَ بِالْوِلَادَةِ.

وقوله: ﴿عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾: جعله وصفاً له بالمصدر؛ على جهة المبالغة في وصفه بذلك؛ كما قالت الْخَنَسَاءُ تَصِفُ نَاقَةً ذَهَبَ عَنْهَا وَلَدُهَا: [البسيط]

تَزْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا أَذْكَرَتْ فَلِئَمَّا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ^(١)
أي: ذات إقبال وإدبار؛ ويبيِّن هذا قراءةُ الْكَسَائِيّ «إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ» فعلاً ماضياً، ونصب «غير» على المفعول لـ «عَمِلَ»، وقولٌ من قال: «إِنَّ الْوَلَدَ كَانَ لِغِيَّةٍ» خطأ محضٌ، وهذا قولُ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٢) والجمهور؛ قالوا: وأما قوله تعالى: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ [التحریم: ١٠] فإن الواحدة كانت تقول للناس: هو مجنونٌ، والأخرى كانت تنبّه على الأضياف، وأما خيانةُ غَيْرٍ هذا، فلا؛ وَيَغْضُدُهُ الْمَعْنَى، لشرف النبوة، وجوزُ المَهْدَوِيَّ أَنَّ يَعود الضمير في «إِنَّهُ» على السؤال، أي: إن سؤالك إِيَّايَ ما ليس لك به علمٌ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ؛ قاله النَّخَعِيُّ وغيره. انتهى. والأولُ أبينٌ؛ وعليه الجمهورُ، وبه صدرَ المهدويُّ، ومعنى قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: إِذَا وَعَدْتُكَ، فأعلم يقيناً؛ أَنَّهُ لَا خُلْفَ فِي الْوَعْدِ، فَإِذَا رَأَيْتَ وَلَدَكَ لَمْ يُحْمَلْ، فكان الواجبُ عليك أَنْ تقفَ، وتَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ بِحَقٍّ وَاجِبٍ عِنْدَ اللَّهِ.

قال * ع^(٣): ولكنْ نوحاً عليه السلام حملته شفقةُ الأبوةِ وسجيةُ البَشَرِ على التعرُّضِ لِنَفَحَاتِ الرَّحْمَةِ، وَعَلَى هَذَا الْقَدْرُ وَقَعَ عَتَابُهُ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ بِتَلَطُّفٍ وَتَرْفِيعٍ فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، ويحتملُ قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لَا تَطْلُبْ مِنِّي أَمْرًا لَا تَعْلَمُ الْمَصْلُحَةَ فِيهِ عِلْمٌ يَقِينٌ، ونحنا إلى هذا أبو عليٍّ

(١) ينظر: «ديوانها» ص: (٣٨٣)، و«الأشياء والنظائر» (١/١٩٨)، و«خزانة الأدب» (١/٤٣١)، (٢/٣٤)، و«شرح أبيات سيبويه» (١/٢٨٢)، و«الشعر والشعراء» (١/٣٥٤) و«الكتاب» (١/٣٣٧) و«لسان العرب» (٧/٣٠٥) (رهمط) (١١/٥٣٨) (قبل)، (١٤/٤١٠) (سوا)، و«المقتضب» (٤/٣٠٥)، و«المنصف» (١/١٩٧)، بلا نسبة في «الأشياء والنظائر» (٢/٣٨٧)، (٤/٦٨) و«شرح الأشموني» (١/٢١٣)، و«شرح المفصل» (١/١١٥)، و«المحتسب» (٢/٤٣).

(٢) ذكره البغوي (٢/٣٨٧)، وابن عطية (٣/١٧٧) بنحوه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/١٧٧ - ١٧٨).

الفارسي، وهذا والأول في المعنى واحد.

وقوله: ﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾: إجابة منه عليه السلام، وتسليم لأمر ربه، والسؤال الذي وقع النهي عنه، إنما هو سؤال العزم الذي معه حاجة وطلب ملحة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه، وأما السؤال؛ على جهة الاسترشاد والتعلم، فغير داخل في هذا، ثم قيل له: ﴿أنهبط بسلام﴾، وذلك عند نزوله من السفينة، وال ﴿سلام﴾؛ هنا: السلامة والأمن، وال ﴿بركات﴾ الخير والنمو في كل الجهات، وهذه العدة، تعم جميع المؤمنين إلى يوم القيامة، قاله محمد بن كعب القرظي، ثم قطع قوله: ﴿وأمم﴾ على وجه الابتداء، وهؤلاء هم الكفار إلى يوم القيامة^(١).

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن أنباء النبوة للمتغير﴾ (٤٩) ﴿والى عاد أخاهم هوداً قال يقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيري إن أنتم إلا مفترون﴾ (٥٠) ﴿يقوم لا أنشركم عليهِ أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون﴾ (٥١) وقوله سبحانه: ﴿تلك﴾ إشارة إلى القصة، وباقي الآية بين.

وقوله عز وجل: ﴿والى عاد أخاهم هوداً...﴾ الآية: عطف على قوله: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ [هود: ٢٥].

﴿ويقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ونزدكم قوة إن قومكم ولا تملأوا مجرمين﴾ (٥٢) ﴿قالوا يهود ما جئنا ببينة وما نحن بآلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين﴾ (٥٣) ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أتي بريء مما تشركون﴾ (٥٤) ﴿من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ (٥٥) ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ (٥٦) ﴿فإن قولوا فقد آتلفتكم ما أرسلت به إليكم ولنسخلف ربي قوماً غيركم ولا نضرهم شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ (٥٧) ﴿فجئنا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيتهم من عذاب غليظ﴾ (٥٨) ﴿وتلك عاد جحدوا بما نبأ ربهم وعصوا رسلهم واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ (٥٩)

وقوله: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم...﴾ الآية: الاستغفار: طلب المغفرة، فقد يكون ذلك باللسان، وقد يكون بإجابة القلب وطلب الاسترشاد.

وقوله: ﴿ثم توبوا إليه﴾، أي: بالإيمان من كفركم، والتوبة: عقد في ترك متوب

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ١٧٩)، والبخاري في تفسيره (٣٨٧/ ٢) برقم: (٤٨) بلا نسبة.

منه، يتقدمها علمُ بفساد المَثُوبِ مِنْهُ، وصلاح ما يَزِجُغُ إليه، ويقترن بها نَدَمٌ على فَارِطِ المَثُوبِ مِنْهُ، لا يَنْفُكُ مِنْهُ، وهو من شروطها و﴿مِذْرَارًا﴾ بناءً تكثير، وهو مِنْ دَرٍّ يَدُرُّ، وقد تقدّمت قصة «عاد».

وقوله سبحانه: ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ ظاهره العمومُ في جميع ما يُحْسِنُ اللَّهُ تعالى فيه إلى العباد، ويحتملُ أَنْ خَصَّ القوةَ بالذكرِ، إذ كانوا أَقْوَى الْعَوَالِمِ، فَوَعِدُوا بالزيادة فيما بَهَرُوا فيه، ثم نهاهم عن التولي عن الحقِّ، وقولهم: ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾، أي: لا يكونُ قولُكَ سَبَبَ تَرْكِنا، وقال * ص *: ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾: حالٌ من الضمير في «تاركي»، أي: صَادِرِينَ عن قولك، وقيل: «عن»: للتعليل، كقوله: ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ﴾ [التوبة: ١١٤] وقولهم: ﴿إِنْ نَقُولُ...﴾ الآية: معناه: ما نَقُولُ إِلَّا أَنْ بعضَ آلهتنا التي ضَلَلْتَ عَبْدَتَهَا أَصَابَكَ بَجُونٍ، يقال: / عَرَّ يَعُرُّ، وَأَعْتَرَى يَعْتَرِي؛ إِذَا أَلَمَ بِالشَّيْءِ. ١٢٤٧

وقوله: ﴿فكيدوني جميعاً﴾: أي: أنتم وأصنامكم، ويذكر أن هذه كَانَتْ له عليه السلام معجزة، وذلك أَنَّهُ حَرَّضَ جماعتهم عَلَيْهِ مع أنفاده وقوتهم وكُفْرهم، فلم يَقْدِرُوا على نيله بِسُوءٍ، و﴿تَنْظُرُونَ﴾: معناه: تَوَخَّرُونِي، أي: عاجلونني بما قَدَرْتُمْ عليه.

وقوله: ﴿إِنْ ربي على صراط مستقيم﴾ يريد: إِنْ أفعالَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في غاية الإحكام، وقوله الصَّدُقُ ووَعَدَهُ الْحَقُّ، و﴿عَنَيْدُ﴾: من «عند» إِذَا عَنَّا.

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ ﴿١٥﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اغْبِثُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرِهِ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ ثَوَّبُوا إِلَيْهِ إِنْ ربي قَرِيبٌ يُجِيبُ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَنَا نَسِيْتُ مِنْهُ رَحْمَةً فَتَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْ قَالُوا نَرِيدُونَ غَيْرَ تَخْيِيرٍ ﴿١٨﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٩﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَهْرَاقُنَا بَنَيْنَا صَلِيبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْكَ وَبِخَيْرِ يَوْمٍ بِإِذْنِ رَبِّكَ هُوَ الْأَقْوَى الْعَزِيزُ ﴿٢١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً...﴾ الآية: حَكَمَ عليهم سبحانه بهذا؛ لموافاتهم على الكُفْرِ، ولا يُلْعَنُ مَعِينٌ حَيٌّ: لا مِنْ كَافِرٍ، ولا مِنْ فَاسِقٍ، ولا مِنْ بَهِيمَةٍ،

كُلْ ذَلِكَ مَكْرُوهٌ بِالْأَحَادِيثِ^(١).

* ت * : وتعبيره بالكراهة، لعلّه يريد التحريم، ﴿وَيَوْمَ﴾: ظُفِرَ، ومعناه: إن اللعنة عليّهم في الدنيا، وفي يوم القيامة، ثم ذكر العلة الموجبة لذلك، وهي كُفْرهم بربهم، وباقي الآية بيّن.

وقوله عز وجل: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً...﴾ الآية: التقدير: وأرسلنا إلى ثمود و﴿أنشأكم من الأرض﴾: أي: اخترعكم، وأوجدكم، وذلك بآختر آدم عليه السلام.

وقال * ص * : ﴿من الأرض﴾: لا ابتداءً الغاية باعتبار الأصل المتولّد منه النبات المتولّد منه الغذاء المتولّد منه المنيّ ودم الطمث المتولّد عنه الإنسان. انتهى.

وقد نقل * ع^(٢) * : في غير هذا الموضع نحو هذا، ثم أشار إلى مرجوحيته، وأنّه داع إلى القول بالتولّد، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ فِيهَا﴾: أي: خلّقكم لعمارتها، ولا يصحّ أن يقال: هو طلب من الله لعمارتها؛ كما زعم بعض الشافعية.

* ت * : والمفهوم من الآية أنّها سيقت مساق ألامتان عليهم. انتهى. وقولهم: ﴿يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾، قال جمهور المفسرين: معناه: مسوداً تؤمّل فيك أن تكون سيّداً ساداً مسدّ الأكابر، وقولهم: ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾، معنى: ﴿مريب﴾: مُلبس متهم، وقوله: ﴿أرايتم﴾: أي: أتدبرتم، فالرؤية قلبيةّة، و﴿آتاني منه رحمة﴾، يريد: النبوة وما أنصاف إليها.

(١) قد ورد في تحريم اللعن عدة أحاديث منها، قول النبي ﷺ: «من لعن مؤمناً فهو كقتله». أخرجه البخاري (٤٧٩/١٠) كتاب «الأدب» باب: ما ينهى من السباب واللعن، حديث (٦٠٤٧). ومنها حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً». أخرجه مسلم (٢٠٠٥/٤) كتاب «البر والصلة» باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث (٨٤/٢٥٩٧)، وأحمد (٣٣٧/٢)، والبيهقي (١٩٣/١٠)، والبخاري في «شرح السنة» (٣١٥/٦ - بتحقيقنا). ومنها أيضاً حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا الفاحش ولا البذيء».

أخرجه الترمذي (٣٠٨/٤) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في اللعنة، حديث (١٩٧٧)، وأحمد (١/٤٠٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٧)، والحاكم (١٢/١) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٣/٣).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٥٩/٣).

وقال * ص * : قد تقرر في ﴿أرأيتم﴾ ؛ أنها بمعنى أخبروني . انتهى .

والـ ﴿تخسير﴾ هو من الخسارة ، وليس التخسيرُ في هذه الآية إلا لهم ، وفي حيزهم ، وهذا كما تقول لمن توصيه : أنا أريد بك خيراً ، وأنت تريد بي شراً .

وقال * ص * : ﴿غَيْرُ تَخْسِيرٍ﴾ : من خسر ، وهو هنا للنسبية كـ «فَسَقَتْهُ وَفَجَرَتْهُ» ؛ إذا نسبته إليهما .

* ت * : ونقل الثعلبي عن الحسين بن الفضل ، قال : لم يكن صالح في خسارة ، حين قال : ﴿فما تزيدوني غير تخسير﴾ ، وإنما المعنى : ما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إليكم للخسارة ، وهو من قول العرب : فسقته وفجرتُهُ ؛ إذا نسبته إلى الفسوق والفجور . انتهى . وهو حسن . وباقي الآية بين قد تقدم الكلام في قصصها .

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ ۝٧٧﴾ كَانَ لَمْ يَنْقُضُوا فِيهَا إِلَّا إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِمُؤَدِّ ۝٧٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِنْزِهِم بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالِ سَلَمٌ فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَزِينٍ ۝٧٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِقَوْرٍ لُوطٍ ۝٨٠﴾ وَأَمْرًا فَابْتِغَاءً فَضَحِكْتَ فَتَنَزَّلْنَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٨١﴾ قَالَتْ يَتُوبَلَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلٌ شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٨٢﴾ قَالُوا أَنْتَجِيبُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ۝٨٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِنْزِهِم الرُّوحُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝٨٤﴾

﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ : قال أبو البقاء : في حذف التاء من «أخذ» ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه فصل بين الفعل والفاعل .

والثاني : أن التانيث غير حقيقي .

والثالث : أن الصيحة بمعنى الصياح ، فحُمِلَ على المعنى ، انتهى .

وقد أشار * ع * ^(١) : إلى الثلاثة ، واختار الأخير .

وقوله سبحانه : ﴿ولقد جاءك رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ : الرسل : الملائكة ، قال المهدوي : ﴿بالبشرى﴾ يعني : بالولد ، وقيل : البشرى بهلاك قوم لوط انتهى .

(١) ينظر : «المحرر الوجيز» (٣/١٨٦) .

﴿قَالُوا سَلَامًا﴾: أي: سلّمنا عليك سلاماً، وقروا حمزة^(١) والكسائي: «قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ»، فيحتمل أن يريد بـ «السَّلَم» السلام، ويحتمل أن يريد بـ «السَّلَم» ضدّ الحرب، و﴿حَنِيدٌ﴾: بمعنى: محنود، ومعناه: بعجل مشويّ نَضِج، يَفْطَرُ ماؤه، وهذا القَطَر يفصل الحَنِيد من جملة المشويات، وهيئة المحنود في اللغة: / الذي يُعْطَى بحجارة أو رَمَلٍ مُحْمِيٍّ^{٢٤٧} أو حائل بينه وبين النار يغطى به، والمُعْرَض: من الشّواء الذي يُصَفَّف على الجَمَر، والمُضْهِب: الشّواء الذي بينه وبين النار حائل، ويكون الشّواء عليه، لا مَذْفُوناً به، والتَّحْنِيدُ في تضمير الخيل: هو أن يغطى الفرس بِجِلٍّ على جُلٍّ؛ ليتصبَّ عَرَقُهُ، و﴿تَكْرَهُمُ﴾ على ما ذكر كثير من النّاس، معناه: أتكْرَهُم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾؛ من أجل امتناعهم من الأكل؛ إذ عَرَفَ مَنْ جَاء بِشَرٍّ أَلَّا يَأْكُلَ طَعَامَ الْمَنْزُولِ به، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢): ذهب الليث بن سعد إلى أن الضيافة واجبة، لقوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ صَدَقَةٌ»^(٣)، وفي رواية: «ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَلَا يَجِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِي»^(٤) عنده حتّى يُخْرِجَهُ»^(٥) وهذا حديث صحيح، خرّجه الأئمة، واللفظ للترمذي، وذهب علماء الفقه إلى: أن الضيافة لا تجب، وحملوا الحديث على النّذْب.

قال ابن العربي: والذي أقول به أن الضيافة قرّض على الكفاية، ومن الناس من قال: إنها واجبة في القرى حيث لا مأوى ولا طعام؛ بخلاف الحواضر؛ لتيسر ذلك فيها.

(١) ينظر: «السبعة» (٣٣٧ - ٣٣٨)، و«الحجة» (٣٥٩/٤)، و«إعراب القراءات السبع» (٢٨٨/١) و«حجة القراءات» (٣٤٦)، و«الإنحاف» (١٣٠/٢) و«المحرر الوجيز» (١٨٧/٣)، و«البحر المحيط» (٥/٢٤٢)، و«الدر المصون» (١١٢/٤)، و«المنوان» (١٠٨)، و«شرح شعلة» (٤٣١).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٦١/٣).

(٣) ينظر: الحديث الآتي.

(٤) الثّواء: طول المُقَام. ينظر: «لسان العرب» (٥٢٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٦٠/١٠) كتاب «الأدب» باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٩)، وباب: إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه (٦١٣٥)، و (٣١٤/١١) الرقاق باب: حفظ اللسان (٦٤٧٦)، ومسلم (١٣٥٣/٣) في اللقطة، باب: الضيافة ونحوها (٤٨/١٦)، وأبو داود (٢/٣٦٩) كتاب «الأطعمة» باب: ما جاء في الضيافة (٣٧٤٨)، والترمذي في «البر والصلة» باب: ما جاء في الضيافة، وغاية الضيافة كم هو؟ (١٩٦٧)، وابن ماجه (١٢١٢/٢) في «الأدب» باب: حق الضيف (٣٦٧٥)، وأحمد (٣١/٤) (٣٨٥/٦)، ومالك (٩٢٩/٢) في كتاب «صفة النبي ﷺ» باب: جامع ما جاء في الطعام، والشراب (٢٢)، والبيهقي (١٩٧/٩)، والدارمي (٩٨/٢)، والحميدي (٢٦٢/٢) برقم: (٥٧٦)، والبخاري في شرح السنة (١٠٤/٦) برقم: (٢٨٩٦) من طريق سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي شريح العدوي به مرفوعاً. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قال ابن العربي: ولا شك أن الضيف كريم، والضيافة كرامة، فإن كان عديماً، فهي فريضة انتهى، و﴿أوجس﴾ معناه: أحس والتوجيس: ما يعتري النفس عند الحذر، وأوائل الفرع.

وقوله سبحانه: ﴿فَضَحَكْتُ﴾ قال الجمهور: هو الضحك المعروف، وذكر الطبري^(١) أن إبراهيم عليه السلام لما قدم العجل، قالوا له: إنا لا نأكل طعاماً إلا بشمن، فقال لهم: ثمنه: أن تذكروا الله تعالى عليه في أوله، وتحمده في آخره، فقال جبريل لأصحابه: بحق اتخذ الله هذا خليلاً، ثم بشر الملائكة سارة بإسحاق، وبأن إسحاق سيولد يعقوب، ويسمى ولد الولد وراء، وهو قريب من معنى «وراء» في الظرف، إذ هو ما يكون خلف الشيء وبعده.

وقال * ص * : «وراء» ؛ هنا: استعمل غير ظرف، لدخول «من» عليه، أي: ومن بعد إسحاق. انتهى.

وقولها: ﴿يَا وَيَلْتِي﴾: الألف بدل من ياء الإضافة، أصلها: يَا وَيَلْتِي، ومعنى: «يَا وَيَلْتَا» في هذا الموضع: العبارة عما دهم النفس من العجب في ولادة عجوز، و﴿من أمر الله﴾: واحد الأمور.

وقوله سبحانه: ﴿رَحِمْتَ اللَّهَ وَبَرَكَاتِهِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾: يحتمل أن يكون دعاء، وأن يكون خبراً.

* ص * : ونصب ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ على النداء أو على الاختصاص، أو على المدح، انتهى. وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته.

* ت * : وهي هنا من أهل البيت على كل حال، لأنها من قرابته، وأبنة عمه، و«البيت»، في هذه الآية، وفي «سورة الأحزاب» بيت السكنى.

وقوله: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الرزق وجاءته البشري يجادلنا﴾: أي: أخذ يجادلنا «في قوم لوط».

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يُبَايِعُهُمْ خُشْعَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ عَذَابٍ غَيْرَ مُرْدُورٍ ﴿٧٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ وَصِفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَلِيمِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَغْضَبْ قَطُّ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ يَغْضَبَ لِلَّهِ، وَأَمْرُهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُجَادَلَةِ يَقْتَضِي أَنَّهَا كَانَتْ فِي الْكُفْرَةِ، حَرَصًا عَلَى إِسْلَامِهِمْ، وَ﴿أَمْر رَبِّكَ﴾ وَاحِدُ الْأُمُورِ، أَي: نَفَذَ فِيهِمْ قَضَاؤَهُ سُبْحَانَهُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مُقْتَضِيَةٌ أَنَّ الدُّعَاءَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ يُوَفَّقَ اللَّهُ الدَّاعِيَ إِلَى طَلَبِ الْمَقْدُورِ، فَأَمَّا الدُّعَاءُ فِي طَلَبِ غَيْرِ الْمَقْدُورِ، فَغَيْرُ مُجْدٍ وَلَا نَافِعٍ.

* ت * والكلام في هذه المسألة مَتَّسِعٌ رَخْبٌ، وَمَنْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِيهَا قَوْلُ الْعَزَّالِيِّ فِي «الْإِحْيَاءِ»: فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا فَائِدَةُ الدُّعَاءِ، وَالْقَضَاءُ لَا يُرَدُّ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ مِنَ الْقَضَاءِ رَدَّ الْبَلَاءِ بِالْدُّعَاءِ، فَالدُّعَاءُ سَبَبٌ لِرَدِّ الْبَلَاءِ، وَأَسْتَجْلَابُ الرَّحْمَةِ؛ كَمَا أَنَّ التَّرْسَ سَبَبٌ لِرَدِّ السَّهْمِ، وَالْمَاءُ سَبَبٌ لَخُرُوجِ النَّبَاتِ، انْتَهَى. وَقَدْ أَطَالَ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَلَوْلَا الْإِطَالَةُ لَأَتَيْتُ بِبَنْدٍ يَثْلُجُ لَهَا الصَّدْرُ، وَخَرَجَ التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ أَبِي خَزَامَةَ، وَاسْمُهُ رِفَاعَةُ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رُقِيَ نَسْرَقِيهَا، وَدَوَاءٌ نَتَدَاوَى بِهِ، وَثِقَاةٌ نَتَّقِيهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ»^(١)، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي بَعْضِ نُسَخِهِ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، انْتَهَى. فَلَيْسَ وَرَاءَ هَذَا الْكَلَامِ مِنَ السَّيِّدِ الْمَعْصُومِ مَرْمَى لِأَحَدٍ، وَتَأَمَّلْ جَوَابَ الْفَارُوقِ لِأَبِي عُبَيْدَةَ، حِينَ هَمَّ بِالرَّجُوعِ مِنْ أَجْلِ الدُّخُولِ عَلَى أَرْضٍ بِهَا الطَّاعُونَ، وَهِيَ الشَّامُ^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٤/٣٩٩ - ٤٠٠) كِتَابُ «الطَّبِّ» بَاب: مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالْأَدْوِيَةِ، حَدِيثٌ (٢٠٦٥)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢/١١٣٧) كِتَابُ «الطَّبِّ» بَاب: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، حَدِيثٌ (٣٤٣٧)، كِلَاهُمَا مِنْ طَرِيقِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي خَزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ، بِهِ.

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَلَا نَعْرِفُ لِأَبِي خَزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ غَيْرَ هَذَا الْحَدِيثِ. وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ (٤/٤٠٢)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (٣/٢١٤ - ٢١٥) رَقْمًا: (٣٠٩٠) مِنْ طَرِيقِ صَالِحِ بْنِ أَبِي الْأَخْضَرِ، عَنِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ حَكِيمِ بْنِ حَزَامَ بِهِ، وَسَكَتَ عَنْهُ الْحَاكِمُ وَالذَّهَبِيُّ، وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٥/٨٨)، وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَفِيهِ صَالِحُ بْنُ أَبِي الْأَخْضَرِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، يَعْتَبَرُ حَدِيثُهُ.

(٢) هَذَا الْقَوْلُ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٨٩/١٠) كِتَابُ «الطَّبِّ» بَاب: «مَا يَذْكُرُ فِي الطَّاعُونَ» رَقْمًا: (٥٧٢٩).

مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَسْرِعُ لِقَاةِ أَمْرَاءِ الْأَجْنَادِ، أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: «إِذَا لِيَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، فِدْعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ، فَاخْتَلَفُوا عَلَيْهِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُمْ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَرَنَ قَتْلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي صَبِيحَةِ الْيَسْرِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا رُئِدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَيَّ زَكِيٌّ شَدِيدٌ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَنْفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُورٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾: الرسل هنا: الملائكة أضياف إبراهيم.

قال المهدوي: والرسل هنا: جبريل وميكائيل وإسرافيل، ذكره جماعة من المفسرين. انتهى، والله أعلم بتعيينهم، فإن صَحَّ في ذلك حديث، صير إليه، وإلا فالواجب الوقف، و﴿سِيقَهُمْ﴾ أي: أصابه سوء، و«الذرع»: مصدر مأخوذ من الذراع، ولما كان الذراع موضع قوة الإنسان، قيل في الأمر الذي لا طاقة له به: ضَاقَ بِهِذَا الْأَمْرُ ذِرَاعُ فُلَانٍ، وَذِرْعُ فُلَانٍ، أي: حيلته بذراعه، وتوسَّعوا في هذا حتَّى قلبوه، فقالوا: فلان رَحِبُ الذَّرَاعِ، إِذَا وَصَفُوهُ بِاتِّسَاعِ الْقُدْرَةِ، و﴿عَصِيبٌ﴾: بناء اسم فاعل، معناه: يعصب

وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ. ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء. فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوه لهم فسلخوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوه فلم يختلف عليه منهم رجلان.

قالوا: نرى أن نرجع بالناس ولا نقدمهم على هذا الوباء. فنأدى عمر في الناس: «إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه». قال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرايت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان غائباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علماً، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه»، قال: فحمد الله ثم انصرف.

وأخرجه مسلم (١٧٤٠/٤) كتاب «السلام» باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٩/٩٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢١٧/٧ - ٢١٨) كتاب «النكاح» باب: ولا يورد ممرض على مصح فقد يجعل الله تعالى بمشيئته مخالطته إياه سبباً لمرضه، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٠٤ - ٣٠٣/٤) كتاب «الكراهية» باب: الرجل يكون به الداء هل يجتنب أم لا؟، وعبد الرزاق (١٤٧/١١) كتاب «الجامع» باب: الوباء والطاعون، رقم: (٢٠١٥٩) نحوه

النَّاسَ بالبشر، فهو من العِصَابَةِ، ثم كَثُرَ وصفهم لليَوْمِ بعصيبٍ؛ ومنه: [الوافر]

..... وَقَدْ سَلَكَوْكَ فِي يَوْمٍ عَصِيبٍ^(١)

وبالجملة فـ «عصيب»: في موضع شديد وصعب الوطأة، و﴿يُهَرَّغُونَ﴾ معناه: يُسْرِعُونَ، و﴿مِنْ قَبْلِ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: أي: كَانَتْ عَادَتُهُمْ إِيَّانِ الْفَاحِشَةِ فِي الرِّجَالِ.

وقوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: يعني: بالتزويج، وقولهم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: إشارة إلى الأضياف، فلما رأى لوطُ أَسْتَمْرَارَهُمْ فِي غَيْبِهِمْ، قال: على جهة التفجع والاستكانة: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾.

قال * ع^(٢): * «لَوْ أَنَّ»: جوابها محذوف، أي: لَفَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَيُرْوَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَجَدَتْ عَلَيْهِ؛ حِينَ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَقَالُوا: إِنَّ رُكْنَكَ لَشَدِيدٌ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَزْحُمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»^(٣) فَالْعَجَبُ مِنْهُ لَمَّا أَسْتَكَانَ.

قال * ع^(٤): * وَإِنَّمَا خَشِيَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَمْهَلَ اللَّهُ أَوْلَئِكَ الْعِصَابَةَ حَتَّى يَغْضُوهُ فِي الْأَضْيَافِ، كَمَا أَمْهَلَهُمْ فِيمَا قَبْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَرَبَ الْقَوْمَ بِجَنَاحِهِ، فَطَمَسَ أَعْيُنَهُمْ، ثُمَّ أَمَرُوا لُوطًا بِالسَّرَى، وَأَعْلَمُوهُ أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِالْقَوْمِ، فَقَالَ لَهُمْ لُوطٌ: فَعَذَّبُوهُمْ السَّاعَةَ، فَقَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾، أَي: بِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ، ثُمَّ آتَسُوهُ فِي قَلْبِهِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، وَالْقِطْعُ: الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّيْلِ.

قال * ص: * «إِلَّا أَمْرًا تَكُ»: ابن كثير وأبو عمرو بالرفع، والباقون بالتَّضْبِيبِ^(٥)، فَقِيلَ: كِلَاهُمَا اسْتِثْنَاءٌ مِنْ «أَخَذَ»، وَقِيلَ: النَّصْبُ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ مِنْ «أَهْلَكَ» أَنْتَهَى.

(١) عجز بيت وصدرة:

وكنيت لزاز خصمك ام أعرد

ينظر: «مجاز القرآن» (٢٩٤/١)، «تفسير الطبري» (٤٧/١٢) «الدِّر المصون» (١١٧/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٥/٣).

(٣) تقدم تخريجه وهو حديث: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»، الحديث.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٥/٣).

(٥) ينظر: «الحجة» (٣٦٩/٤)، و«إعراب القراءات السبع» (٢٩٢/١)، و«حجة القراءات» (٣٤٧)،

و«الإتحاف» (١٣٣/٢)، و«المحرر الوجيز» (١٩٦/٣)، و«البحر المحيط» (٢٤٨/٥)، و«الدِّر المصون»

(١١٩/٤)، و«السبعة» (٣٣٨)، و«إعراب القراءات» (٢٩٢/١)، و«شرح الطيبة» (٣٧٠/٤)، و«شرح

شعلة» (٤٣١).

وقوله سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ ذهبت فرقة، منهم ابن عباس إلى أن الحجارة التي رُمُوا بها كَانَتْ كَالْأَجْرِ الْمَطْبُوحِ^(١)، كَانَتْ مِنْ طِينٍ قَدْ تَحَجَّرَ، وَأَنْ سِجِّيلًا مَعْنَاهَا: مَاءٌ وَطِينٌ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: «مِنْ سِجِّيلٍ» مَعْنَاهُ: مِنْ جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: سِجِّيلٌ وَسِجِّينٌ، حَفِظَ فِيهَا بَدَلُ الثُّونِ لَامًا، وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا ﴿وَمَنْضُودٍ﴾: مَعْنَاهُ: بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، مُتَابِعٌ، وَ﴿مَسْوَمَةٍ﴾: أَي: مُعْلَمَةٌ بِعَلَامَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى الْحِجَارَةِ، وَالظَّالِمُونَ: قِيلَ: يَعْنِي قَرِيشًا، وَقِيلَ: يَرِيدُ عَمُومَ كُلِّ مَنْ اتَّصَفَ بِالظُّلْمِ، وَهَذَا هُوَ الْأَصَحُّ، وَقِيلَ: يَعْنِي بِهَذَا الْإِعْلَامَ بَأَنَّ هَذِهِ الْبِلَادَ قَرِيبَةً مِنْ مَكَّةَ، وَمَا تَقَدَّمَ أَبَيَّنَ.

﴿وَالَّذِينَ مَدَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ يُخَوِّرُ وَيَافِكُ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُخِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَتَقَوَّمُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ مَدَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ يُخَوِّرُ وَيَافِكُ﴾ قوله: ﴿بَخِيرٌ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ: فِي رُخْصٍ مِنَ الْأَسْعَارِ^(٢)، وَقِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿بَخِيرٌ﴾: عَامٌّ فِي جَمِيعِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ﴿تَعْتُوا﴾: مَعْنَاهُ تَسْعُونَ فِي فَسَادٍ، يُقَالُ: عَتَا يَغْتُو، وَعَتَى يَغْيِي؛ إِذَا أَفْسَدَ.

﴿يَقِئْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِي إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحُ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَتَقَوَّمُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا تَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَرَأَوْكُمْ ظَاهِرًا لِنَاكَ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُخِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ وَيَتَقَوَّمُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنْ عَمِلْتُمْ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ

(١) ذكره ابن عطية (٣/١٩٨).

(٢) أخرجه الطبري (٧/٩٧) برقم: (١٨٤٨١)، وابن عطية (٣/١٩٩)، والسيوطي في «الدر المشثور» (٣/

٦٢٦)، وعزاه إلى أبي الشيخ.

يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبَاءٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْعَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩٤﴾

وقوله: ﴿بَقِيتَ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ﴾: قال ابن عباس: معناه: الذي يُبْقِي اللهَ لَكُمْ من أموالكم بَعْدَ توفيتكم / الكَيْلَ وَالْوَزْنَ خَيْرَ لَكُمْ مما تستكثرونَ به على غير وجهه^(١)، وهذا ٢٤٨ ب تفسير يليق بلفظ الآية، وقال مجاهد: معناه: طاعةُ الله^(٢)، وهذا لا يعطيه لفظ الآية.

قال * ص * : ﴿وَقَرَأَ الْحَسَنُ^(٣) : «تَقِيَّةُ اللَّهِ»، أَي : تقواه.

قال * ع^(٤) * : ﴿وإنما المعنى عندي : إبقاءُ اللهِ عَلَيْكُمْ إِنْ أَطَعْتُمْ، وقولهم : «أصلواتك تأمرُك أَنْ تترك ما يعبد آباؤنا﴾ : قالت فرقة : أرادوا الصلوات المعروفة، وروي أن شعيباً عليه السلام كان أَكْثَرَ الأنبياء صلاةً، وقال الحسنُ : لم يَنْعَثِ اللهُ نبيّاً إِلا فرضَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ^(٥)، وقيل : أرادوا : أدعواؤك، وذلك أَنَّ من حَصَلَ في رتبةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، ففي الأكثرِ تَدْعُوهُ رتبته إِلَى التَّزْيِيدِ من ذلك النوع، فمعنى هذا : لما كُنْتُ مصلِّياً، تجاوزتُ إِلَى ذِمٍّ شرعنا وحالنا، فكان حاله من الصلاة جَسَرْتَهُ عَلَى ذلك، فقليل : أَمَرْتُهُ؛ كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت : ٤٥].

قال * ص، وع^(٦) * : ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلُ﴾ : معطوفٌ على ﴿ما يعبد﴾، و«أو» للتنويع، انتهى. وظاهر حالهم الذي أشاروا إليه هو بَخْسُ الكيلِ وَالْوَزْنِ الذي تقدَّم ذكره، وروي أن الإشارةَ إِلَى قَرْضِهِمُ الدِّينَارَ وَالذَّرْهَمَ، وإجراء ذلك مع الصَّحِيحِ على جهة التذليل؛ قاله مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ^(٧)، وتوَوَّلَ أيضاً بمعنى تبديل السَّكِّكَ التي يقصد بها أَكْلُ أموالِ الناس، قال ابنُ العربي^(٨) : قال ابنُ المسيَّب : قطع الدنانير والذَّراهم مِنَ الفَسَادِ في

(١) ذكره ابن عطية (١٩٩/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٩٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٩٩/٧) برقم : (١٨٤٩٦، ١٨٤٩٦)، وذكره ابن عطية (١٩٩/٣)، والبغوي (٨٦١/٢) بنحوه، وابن كثير (٤٥٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٢٦/٣)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر : «البحر المحيط» (٢٥٣/٥).

(٤) ينظر : «المحرر الوجيز» (١٩٩/٣).

(٥) ذكره ابن عطية (٢٠٠/٣).

(٦) ينظر : «المحرر الوجيز» (٢٠٠/٣).

(٧) أخرجه الطبري (١٠٠/٧) برقم : (١٨٥٠٣ - ١٨٥٠٢)، وذكره ابن عطية (٢٠١/٣)، والسيوطي في

«الدر المنثور» (٦٢٧/٣)، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٨) ينظر : «أحكام القرآن» (١٠٦٤/٣).

الأرض؛ وكذلك قال زيد بن أسلم في^(١) هذه الآية، وقسرها به، ومثله عن يحيى بن سعيد من رواية مالك، قال ابن العربي: وإذا كان قُطِعَ الدنانير والدراهم وقُرْضُها من الفساد، عُوقِبَ مَنْ فَعَلَ ذلك، وقُرْضُ الدراهم غَيْرُ كَسْرِها؛ فَإِن الكسر: فساد الوصف، والقَرْض: تنقيصُ للقدْر، وهو أَشدُّ من كَسْرِها، فهو كالسرقة. انتهى من «الأحكام» مختصراً، وبعضه بالمعنى، وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾: قيل: إنهم قالوه؛ على جهة الحقيقة، أي: أنت حلِيم رشيدٌ، فلا ينبغي لك أن تُثْهِنَا عن هذه الأحوال، وقيل: إنما قالوا هذا؛ على جهة الاستهزاء.

وقوله: ﴿وَزَرَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: أي: سالمًا من الفساد الذي أَدْخَلْتُم في أموالكم، وجوابُ الشَّرْط الذي في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ محذوفٌ، تقديره: أَضِلُّ كما ضَلَلْتُمْ، أو أتركُ تَبْلِيغَ رِسَالَةِ رَبِّي، ونحو هذا.

وقوله: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: معناه: لا يُكْسِبَنَّكُمْ، و﴿شِقَاقِي﴾: معناه: مُسَاقَتِي، وَعَدَاوَتِي و«أَنْ»: مفعولة بـ ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾.

قال * ص، وع^(٢) * : ﴿وما قوم لوطٍ منكم ببعيد﴾: أي: بزمانٍ بعيدٍ، أو بمكانٍ.

قال * ص * : ﴿وَدُودٌ﴾ بناءً مبالغةً مِنْ وَدَّ الشَّيْءَ، إذا أَحَبَّهُ، وآثره.

* ع^(٣) * : ومعناه: أن أفعاله سُبْحَانَهُ وَلُطْفُهُ بعباده لَمَّا كَانَتْ في غاية الإحسان إليهم، كَانَتْ كَفَعْلٍ مَنْ يَتَوَدَّدُ وَيَوَدُّ المصنوعَ له، وقولهم: ﴿مَا نَفَقَةٌ﴾: كقول قريش: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ﴾ [فصلت: ٥]، والظاهر من قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾: أنهم أرادوا ضَعْفَ الْأَنْتِصَارِ والقُدْرَةِ، وأنَّ رَهْطَهُ الكُفْرَةِ يُزَاعُونَ فيه، والرَّهْطُ: جماعةُ الرَّجُلِ، وقولهم: ﴿لَرَجْمَنَّكَ﴾ أي: بالحجارة؛ قاله ابن زَيْد، وقيل^(٤): بالسَّبِّ باللسان، وقولهم: ﴿بِعَزِيزٍ﴾: أي: بذي منعةٍ وعِزَّةٍ، ومنزلةٍ، و«الظُّهْرِيُّ»: الشيء الذي يكون وراء الظهر، وذلك يكون في الكلام على وجهين: إما بمعنى الأطراح؛ كما تقول: جَعَلْتُ كَلَامِي وَرَاءَ

(١) أخرجه الطبري (١٠٠/٧) برقم: (١٨٥٠١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٢٧/٣)، وعزاه إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠١/٣ - ٢٠٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٢/٣).

(٤) أخرجه الطبري (١٠٤/٧) برقم: (١٨٥٢٧)، وذكره ابن عطية (٢٠٢/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٣٠/٣)، وعزاه لأبي الشيخ.

ظَهَرَكَ، وَذَبَرَ أَذُنَكَ، وعلى هذا المعنى حمل الجمهور الآية، أي: اتخذتم أمر الله وشِرعَه وراء ظُهوركم، أي: غَيَّرَ مراعى، وإما بأن يستند إليه ويلجأ؛ كما قال عليه السلام: «وَالْجَاثُ ظَهْرِي إِلَيْكَ»^(١)؛ وعلى هذا المعنى حمل الآية قَوْمٌ: أي: وأنتم تَتَّخِذُونَ الله سَنَدَ ظُهورِكُمْ وِعِمَادَ آمالكم.

وقوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ معناه: على حالاتكم، وفيه تهديدٌ.

وقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: والصحيح: أن الوقف في قوله: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَخَذْتُ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ...﴾ الآية: ﴿الصَّيْحَةُ﴾: هي صَيْحَةٌ / جبريل عليه السلام.

١٢٤٩

﴿كَانَ لَرَّ يَغْتَوَّ فِيهَا أَلَا بَعْدًا لِمَنْ كَا بَعَدَتْ شُعُودُ ۝٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِنْ فِرْعَوْنُكَ وَمَلَائِكُهُ فَابْتَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَبْدَأُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَشْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامِ يَشْسُ الْوَرْدُ الْمَرْقُودُ ﴿٩٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا...﴾ الآية: ﴿يَغْتَوَّ﴾: معناه: يقيمون بِنِعْمَةٍ وَخَفْضِ عَيْشٍ؛ ومنه المَعَانِي، وهي المنازل المعمورة بالأهل، وضمير «فيها» عائد على الديار.

وقوله: ﴿بُعْدًا﴾: مصدرٌ دعا به؛ كقولك: سُخْقًا للكافرين، وفَارَقْتُ هذه قولَهُمْ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل: ٣٢]؛ لأن ﴿بُعْدًا﴾ إخبارٌ عن شيء قد وَجَبَ وتحصَّلَ، وتلك إنما هي دعاء مرتجى، ومعنى البُعْد في قراءة: «بَعْدَتْ» - بكسر العين -: الهلاك، وهي قراءة الجمهور^(٢)؛ ومنه قول خَزْنَقٍ بِنْتِ هَقَّانَ: [الكامل]

لَا يَبْعَدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ سُمُّ الْعُدَاةِ وَآقَةُ الْجُزْرِ^(٣)

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٤/٣)، و«البحر المحيط» (٢٥٧/٥)، و«الدر المنصور» (١٢٧/٤).

(٣) البيت في «ديوانها» ص: (٤٣)، و«الأشباه والنظائر» (٢٣١/٦)، و«أمالى المرتضى» (٢٠٥/١)، و«الإنصاف» (٤٦٨/٢)، و«أوضح المسالك» (٣١٤/٣)، و«الحماسة البصرية» (٢٢٧/١)، و«خزانة الأدب» (٥١/٥ - ٤٢، ٤٤)، و«الدر» (١٤/٦)، و«سمط اللآلي» ص: (٥٤٨)، و«شرح أبيات سيويه» (١٦/٢)، و«شرح التصريح» (١١٦/٢)، و«الكتاب» (٢٠٢/١)، (٥٧/٢ - ٥٨، ٦٤)، =

ومنه قول مالك بن الرِّبيع: [الطويل]

يَقُولُونَ لَا تَبْعِدْ وَهُمْ يَذْفِئُونَنِي وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا^(١)
وأما من قرأ: «بَعْدَتْ»، وهو السُّلَمِيُّ وأبو حَنِوَةَ^(٢) فهو من الْبُعْدِ الذي هو ضدُّ
القُرْبِ، ولا يُدْعَى به إِلَّا على مَبْغُوضٍ.

قال * ص * : وقال ابنُ الأنباري: من العرب مَنْ يُسَوِّي بين الْهَلَاكِ وَالْبُعْدِ الَّذِي هو
ضِدُّ الْقُرْبِ، فيقولون فيهما: بَعْدَ يَبْعُدُ، وَيَعْدَ يَبْعُدُ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾: أي: وخالفوا أَمْرَ مُوسَى، ﴿وما أَمْرُ فِرْعَوْنَ
بِرَشِيدٍ﴾، أي: بمرشِدٍ إلى خير.

وقال * ع^(٣) * : ﴿برشيد﴾: أي: بمصيب في مَذْهَبِهِ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾: أي: يقدمهم
إلى النار، و﴿الورد﴾، في هذه الآية: هو ورودُ دُخُولٍ.

قال * ص * : و﴿الْوَزْدُ﴾: فاعلٌ «بشس»، و﴿المُوزود﴾: المخصوصُ بالذَّمِّ، وفي
الأول حذف، أي: مَكَانُ الْوَزْدِ، ليطابق المخصوصُ بالذَّمِّ.

وجوز * ع^(٤) * : وأبو البقاء أن يكونَ «المُوزود» صفةً لمكانِ الْوَزْدِ، والمخصوص
محذوفٌ، أي: بشس مكانُ الْوَزْدِ المورودُ النَّارَ، و﴿الْوَزْدُ﴾: يجوز أن يكونَ مضدراً بمعنى
الْوُزْدِ، أو بمعنى الْوَارِدَةِ من الإبل، وقيل: الْوَزْدُ: بمعنى الْجَمْعِ للوَارِدِ، والمُوزود: صفةٌ
لهم، والمخصوصُ بالذَّمِّ ضميرٌ محذوف، أي: بشس القومُ الْمُوزودُ بهم هُم، انتهى.

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾: يريد: دارَ الدنيا.

وقوله: ﴿بَشَسَ الرُّفْدُ الْمَرْفُودَ﴾: أي: بشس العطاءَ المعطى لهم، وهو الْعَذَابُ، والرُّفْدُ

= و«لسان العرب» (٢١٤/٥) (نضر)، و«المحتسب» (١٩٨/٢)، و«المقاصد النحوية» (٦٠٢/٣)، (٤/٧٢)، وبلا نسبة في «رصف المبانى» ص: (٤١٦)، و«شرح الأشموني» (٣٩٩/٢).

(١) البيت من الطويل، وهو لمالك بن الرِّبيع في «ديوانه» ص: (٤٦)، و«خزانة الأدب» (٣٣٨/٢)، (٥/٤٦)، و«شرح شواهد المغني» (٦٣٠/٢)، و«لسان العرب» (٩١/٣) (بعد)، وبلا نسبة في «مغني اللبيب» (٢٤٧/١).

(٢) ينظر: «مصادر القراءة السابقة»، و«الشواذ» ص: (٦٥)، و«المحتسب» (٣٢٧/١)، و«الكشاف» (٢/٤٢٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٤/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٥/٣).

في كلام العرب: العطية.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقَصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠١﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيهٌ ﴿١٠٢﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لِهَ النَّاسِ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٤﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدودٍ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سَفِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَنْدٌ وَشِهيقٌ ﴿١٠٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ذلك من أنباء الفرى...﴾ الآية: ﴿ذلك﴾: إشارة إلى ما تقدم من ذكر العقوبات النازلة بالأمم المذكورة، ﴿منها قائمٌ وحصيدٌ﴾: أي: منها قائم الجذرات، ومتهدمٌ دائر، والآية بجملة متضمنة التخويف وضرب المثل للحاضرين من أهل مكة وغيرهم، وال ﴿تنبيه﴾: الخسران؛ ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١].

وقوله: ﴿وكذلك﴾: الإشارة إلى ما ذكر من الأخذات في الأمم، وهذه آية وعيد يعم قري المؤمنين والكافرين، فإن «ظالمة»: أعم من «كافرة»، وقد يمهل الله تعالى بغض الكفرة، وأما الظلمة، فمعاجلون في الغالب، وقد يُملي لبغضهم، وفي الحديث، من رواية أبي موسى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ، لَمْ يُفْلَنِهِ»، ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة...﴾ الآية^(١)، وهذه قراءة الجماعة، وهي تعطي بقاء الوعيد، واستمراره في الزمان؛ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾: أي: لعلبة وعلامة انتهاء، ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾، ثم عَظَّمَ اللَّهُ أَمْرَ الْآخِرَةِ، فقال: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾، وهو يوم الحشر، ﴿وذلك يوم مشهود﴾ يشهده الأولون والآخرون؛ من الملائكة، والإنس، والجن والحيوان؛ في قول الجمهور، ﴿وما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدودٍ﴾ لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥/٨) كتاب «التفسير» باب: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، حديث (٤٦٨٦)، ومسلم (١٩٩٧/٤ - ١٩٩٨) كتاب «البر والصلة» باب: تحريم الظلم، حديث (٦١/٢٥٨٣)، والترمذي (٢٨٨/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة هود، حديث (٣١١٠)، وابن ماجه (١٣٣٢/٢) كتاب «الفتن» باب: العقوبات، حديث (٤٠١٨)، والنسائي في «التفسير» رقم: (٢٦٥)، من حديث أبي موسى الأشعري.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٣٢/٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

قال * ص * : والظاهر أن ضمير فاعل: «يأت»: يعود على ما عاد عليه ضمير «نؤخره»، والناصب لـ «يؤم» «لا تكلم»، والمعنى: لا تكلم نفس يوم يأتي ذلك اليوم إلا بإذنه سبحانه. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فمنهم﴾: عائد على الجمع الذي يتضمنه قوله: ﴿نفس﴾، إذ هو اسم جنس يراد به الجمع ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾ وهي أصوات المكروبين والمخزوين والمعذبين، ونحو ذلك، قال قتادة: الزفير: أول صوت الجمار، والشهيق: آخره^(١)، فصياح أهل النار كذلك، وقال أبو العالية: «الزفير»: من الصدر، و«الشهيق»: من الحلق^(٢)، والظاهر ما قال أبو العالية.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾^(١٧)
 ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوفٍ﴾^(١٨) فلا تك في مرتبة مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لمؤفونهم نصيبهم غير منوص^(١٩) ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لغوي بينهم وإنتهم لفي شك منه مريب^(٢٠) وإن كلاً لئما يؤمنهم ربك أعمأهم إنهم بما يعملون خبيرون^(٢١) فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنهم بما تعملون بصيرون^(٢٢)

وقوله سبحانه: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾: يؤى عن ابن عباس: ب ٢٤٩ أن الله خلق السموات والأرض من نور العرش، ثم يردهما إلى هنالك / في الآخرة^(٣)، فلهما ثم بقاء دائم، وقيل: معنى: ﴿ما دامت السموات والأرض﴾: العبارة عن التأييد بما تعهده العرب، وذلك أن من فصيح كلامها، إذا أرادت أن تخبر عن تأييد شيء أن تقول: لا أفعل كذا وكذا أمد الدهر، وما ناح الحمام، وما دامت السموات والأرض، وقيل غير هذا.

قال * ص * : وقيل: المراد سموات الآخرة، وأرضها؛ يدل عليه قوله: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ [إبراهيم: ٤٨] انتهى. وأما قوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾: في الاستثناء ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه متصل، أي: إلا ما شاء ربك من إخراج الموحدين؛ وعلى هذا يكون قوله: ﴿فأما الذين شقوا﴾ عاماً في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من ﴿خالدين﴾،

(١) أخرجه الطبري (١١٤/٧) برقم: (١٨٥٨٢)، وابن عطية (٢٠٧/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١١٤/٧) برقم (١٨٥٨٠، ١٨٥٨١)، وذكره ابن عطية (٢٠٧/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٠٨/٣).

وهذا قول قتادة وجماعة^(١).

الثاني: أن هذا الاستثناء ليس بمتصل ولا منقطع، وإنما هو على طريق الاستثناء الذي ندب إليه الشنغ في كل كلام؛ فهو على نحو قوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧].

الثالث: أن «إلا» في هذه الآية بمعنى «سوى»، والاستثناء منقطع، وهذا قول الفراء، فإنه يقدر الاستثناء المنقطع بـ «سوى» وسيؤيد يقدره بـ «لكن»، أي: سوى ما شاء الله زائداً على ذلك؛ ويؤيد هذا التأويل قوله بعد: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ﴾، وقيل: سوى ما أعد الله لهم من أنواع العذاب، وأشد من ذلك كله سخطه سبحانه عليهم، وقيل: الاستثناء في الآيتين من الكون في النار والجنة، وهو زمان الموقف، وقيل: الاستثناء؛ في الآية الأولى: من طول المدة، وذلك على ما روي أن جهنم تخرب، ويُعَدَّم أهلها، وتخفق أبوابها، فهم على هذا يخلدون حتى يصير أمرهم إلى هذا.

قال * ع^(٢): * وهذا قول محتمل، والذي روي ونقل عن ابن مسعود وغيره أن ما يخلى من النار إنما هو الذك الأعلی المختص بعصاة المؤمنين^(٣)، وهذا الذي يسمى جهنم، وسمي الكل به تجوزاً.

* ت: * وهذا هو الصواب - إن شاء الله - وهو تأويل صاحب «العاقبة»؛ أن الذي يخرب ما يخص عصاة المؤمنين، وتقدم الكلام على نظير هذه الآية، وهو قوله في «الأنعام»: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قال * ع^(٤): * والأقوال المترتبة في الاستثناء الأول مرتبة في الاستثناء الثاني في الذين سعدوا إلا تأويل من قال: هو استثناء المدة التي تخرب فيها جهنم؛ فإنه لا يترتب هنا، والـ ﴿مجذوذ﴾: المقطوع، والإشارة بقوله: ﴿مما يعبد هؤلاء﴾ إلى كفار العرب، ﴿وإنما لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ معناه: من العقوبة، وقال الداوودي عن ابن عباس: ﴿وإنما لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾: قال: ما قدر لهم من خير وشر انتهى^(٥).

(١) أخرجه الطبري (١١٥/٧) برقم: (١٨٥٨٥ - ١٨٥٨٦) نحوه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٨/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٠٨/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٨/٣).

(٥) أخرجه الطبري (١٢٠/٧) برقم: (١٨٦٠٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٣٦/٣)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ﴾: أي: اختلف الناس عليه، فلا يَغْظُم عليك، يا محمد، أَمُرُ مَنْ كَذَبَكَ.

وقال * ص * : «فيه»: الظاهرُ عودُهُ على الكتاب، ويجوزُ أن يعود على موسى، وقيل: «في» بمعنى «على»، أي: عليه، انتهى.

والـ ﴿كَلِمَةً﴾؛ هنا عبارة عن الحُكْم والقضاء ﴿لِقَضِي بَيْنَهُمْ﴾: أي: لفصل بين المؤمن والكافر؛ بنعيم هذا وعذاب هذا، ووَصَفَ الشُّكَّ بالريب؛ تقويةً لمعنى الشك، فهذه الآية يحتملُ أن يكون المراد بها أمة موسى، ويحتملُ أن يراد بها معاصرو النبي ﷺ، وأن يعمهم اللفظ أحسن، ويؤيده قوله: ﴿وَإِنْ كُلاُ﴾، وقرأ نافع^(١) وابن كثير: «وَإِنْ كُلاُ لَمَّا» وقرأ أبو عمرو، والكسائي بتشديد «إِنْ»، وقرأ حمزة وحَفْص بتشديد «إِنْ»، وتشديد «لَمَّا»، فالقراءتان المتقدمتان بمعنى «إِنْ» فهما على بابها، و«كُلاُ»، اسمها، وعُزِّفَها أن تدخل على خبرها لام، وفي الكلام قَسَمٌ تدخلُ لामه أيضاً على خبر «إِنْ»، فلما اجتمع لَامَانِ، فصل بينهما بـ «ما»؛ هذا قول أبي عليٍّ، والخبر في قوله: ﴿لِيُوفِيَهُمْ﴾، وهذه الآية وعيدٌ، ومعنى الآية: أن كل الخلق موقى في عمَلُهُ.

وقوله عز وجل: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾: أمر النبي ﷺ بالاستقامة، ١٢٥٠ / وهو عليها إنما هو أمر بالدوام والثبوت، وهو أمر لسائر الأمة، وروي أن بعض العلماء رأى النبي ﷺ في النوم، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَلَّغْنَا عَنْكَ أَنَّكَ قُلْتَ: «شَيَّبَنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»، فَمَا الَّذِي شَيَّبَكَ مِنْ هُودٍ؟ فَقَالَ لَهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾^(٢).

قال * ع^(٣) * : والتأويل المشهور في قوله عليه السلام: «شَيَّبَنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا» أنه إشارة إلى ما فيها مما حلَّ بالأُمم السالفة، فكان حَذَرُهُ على هذه مثل ذلك شَيْبَهُ عليه السلام.

﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَنَسَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١١٢) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَ لِلذَّكِرِينَ (١١٤) وَأَسْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيْعُ أَعْمَارَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)

(١) ينظر: «السبعة» (٣٣٩)، و«الحجة» (٣٨١/٤)، و«إعراب القراءات» (٢٩٤/١)، و«شرح الطيبة» (٤/

٣٧٣)، و«العنوان» (١٠٨)، و«شرح شُعْلة» (٤٣٢ - ٤٣٣)، و«الإتحاف» (١٣٥/٢).

(٢) تقدم تخريجه في سورة «هود» دون قول: «فاستقم كما أمرت».

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٩/٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ الآية: الرُّكُونُ: السُّكُونُ إِلَى الشَّيْءِ، والرضا به، قال أبو العالية: الرُّكُونُ: الرُّضَا. قال ابنُ زَيْدٍ: الرُّكُونُ: أَلَا دُهَانٌ^(١).

قال * ع^(٢): ﴿فالركون يقع على قليل هذا المعنى وكثيره، والنهْي هنا يترتب من معنى الرُّكُونِ عَلَى الْمَيْلِ إِلَيْهِمْ بِالشَّرْكَ مَعَهُمْ إِلَى أَقْلِ الرُّتْبِ مِنْ تَرْكِ التَّغْيِيرِ عَلَيْهِمْ مَعَ الْقُدْرَةِ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هنا: هم الكُفَرَةُ، ويدخلُ بالمعنى أَهْلُ الْمَعَاصِي.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ...﴾ الآية: لا خلاف أن ﴿الصَّلَاةَ﴾ في هذه الآية يرادُ بها الصَّلَوَاتُ الْمَفْرُوضَةُ، واختلفَ في طَرَفَيْ النَّهَارِ زُلْفَى اللَّيْلِ، فقليل: الطَّرَفُ الْأَوَّلُ: الصُّبْحُ، والثَّانِي: الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ، والزُّلْفَى: الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ؛ قاله مجاهد وغيره^(٣)، وروي عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ فِي الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ: «هُمَا زُلْفَتَا اللَّيْلِ»^(٤) وقيل: الطَّرَفُ الْأَوَّلُ: الصُّبْحُ، والثَّانِي: الْعَصْرُ؛ قاله الحسن وقتادة^(٥)، والزُّلْفَى: الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ، وليست الظهر في هذه الآية على هذا القول، بل هي في غيرها.

قال * ع^(٦): ﴿والأول أحسن الأقوال عِنْدِي، وَرَجَّحَ الطَّبْرِيُّ^(٧) الْقَوْلَ بِأَنَّ الطَّرَفَيْنِ الصُّبْحَ وَالْمَغْرِبَ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ، وَإِنَّهُ لَظَاهِرٌ، إِلَّا أَنَّ عُمُومَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ بِالْآيَةِ أَوَّلَى، وَالزُّلْفَى: السَّاعَاتُ الْقَرِيبُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، ذهب جمهورُ المتأولين من صَحَابَةِ وَتَابِعِينَ إِلَى أَنَّ الْحَسَنَاتِ يَرَادُ بِهَا الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَإِلَى هَذِهِ الْآيَةِ ذَهَبَ عَثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَضُوئِهِ عَلَى الْمَقَاعِدِ، وَهُوَ تَأْوِيلُ مَالِكٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿الْحَسَنَاتِ﴾:

(١) أخرجه الطبري (١٢٤/٧) برقم: (١٨٦٢٠)، وذكره ابن عطية (٢١٢/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٢/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٢٤/٧) برقم: (١٨٦٢١ - ١٨٦٢٢ - ١٨٦٢٣)، عن مجاهد برقم: (١٨٦٢٤)، عن محمد بن كعب القرظي، وبرقم: (١٨٦٢٦)، عن الضحاك، وذكر طرفاً منه، وأخرج طرفه الآخر (٧/١٢٧) برقم: (١٨٦٤٩ - ١٨٦٥٠ - ١٨٦٥١)، عن مجاهد وبرقم: (١٨٦٤٦ - ١٨٦٤٧ - ١٨٦٤٨)، عن الحسن، وذكره ابن عطية (٢١٢/٣)، والبغوي (٤٠٤/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٦٣٧).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢٨/٧) برقم: (١٨٦٥٢) عن الحسن مرسلاً، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٦٣٧)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) أخرجه الطبري (١٢٥/٧) برقم: (١٨٦٣٢ - ١٨٦٣٣ - ١٨٦٣٤ - ١٨٦٣٥)، وذكره ابن عطية (٣/٢١٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤٠٤/٢ - ٤٠٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٦٣٧) بنحوه.

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٢/٣).

(٧) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢٤/٧ - ١٢٥).

قول الرجل: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ^(١).

قال * ع^(٢): وهذا كله إنما هو على جهة المِثَال في الحسنات، ومن أجل أن الصلوات الخمس هي معظم الأعمال، والذي يظهر أن لفظ الآية عام في الحسنات، خاص في السيئات؛ بقوله عليه السلام: «مَا أَجْتَنِبَتِ الْكِبَائِرُ»، وروي أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار، وهو أبو اليسر بن عمرو، وقيل: اسمه عبّاد، خلاً بامرأة، فقُبِّلها، وتلذذ بها فيما دون الجماع، ثم جاء إلى عمر، فشكا إليه، فقال له: قَدْ سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ، فَاسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ، فَقَلِقَ الرَّجُلُ، فجاء أبا بكر، فشكا إليه، فقال له مثل مقالة عمر، فَقَلِقَ الرَّجُلُ، فأتى النبي ﷺ، فَصَلَّى معه، ثم أخبره، وقال: أَقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَعَلَّهَا زَوْجَةٌ غَارِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟!» قَالَ: نَعَمْ، فَوَبَّخَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «مَا أَذْرِي»، فنزلت هذه الآية، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ، فَتَلَاها عَلَيْهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَهَذَا لَهُ خَاصَّةٌ؟ فَقَالَ: «بَلْ لِلنَّاسِ عَامَّةٌ»^(٣).

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٤): وهذا الحديث صحيح، رواه الأئمة كلهم، انتهى.

قال * ع^(٥): وروى: أن الآية قد كانت نزلت قبل ذلك، واستعملها النبي ﷺ في ذلك الرجل، وروي أن عمر قال ما حُكِيَ عن معاذ، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «الْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَالصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا؛ إِنْ أَجْتَنِبَتِ الْكِبَائِرُ»^(٦).

(١) أخرجه الطبري (١٣١/٧) برقم: (١٨٦٨)، وذكره ابن عطية (٣١٣/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٣/٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٢/٢) كتاب «مواقيت الصلاة» باب: «وأقم الصلاة طرفي النهار»، حديث (٥٢٦)، وفي (٢٠٦/٨) كتاب «التفسير» باب: «وأقم الصلاة طرفي النهار»، حديث (٤٦٨٧)، ومسلم (٤/٢١١٥، ٢١١٧) وكتاب «التوبة» باب: قوله تعالى: ﴿إِنْ الْحَسَنَاتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، حديث (٣٩)، (٢٧٦٣/٤١)، والترمذي (٢٩١/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة هود، حديث (٣١١٤)، والنسائي في «التفسير» (٢٦٧)، وابن ماجه (٤٤٧/١) كتاب «الصلاة» باب: ما جاء في أن الصلاة كفارة، حديث (١٣٩٨)، وفي (١٤٢١/٢) كتاب «الزهد» باب: ذكر التوبة، حديث (٤٢٥٤)، وأحمد (٤٤٥/١)، وابن خزيمة (٣١٣)، وابن حبان (١٧٢٩ - ١٧٣٠)، والطبري في «تفسيره» (١٨٦٧٦)، والبيهقي (٨/٢٤١) من طرق عن عبد الله بن مسعود.

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٧٣/٣).

(٥) أخرجه الطبري (١٢٥/٧ - ١٢٦) برقم: (١٨٦٣٢ - ١٨٦٣٣ - ١٨٦٣٤)، وذكره البغوي (٤٠٥/٢)، وذكره ابن عطية (٢١٢/٣) بنحوه.

(٦) تقدم تخريجه.

وقوله: ﴿ذلك ذكرى﴾: إشارة إلى الصلوات، أي: هي سبب الذكرى، وهي العظة، ويحتمل أن تكون إشارة إلى الإخبار بأن الحسنات يذهبن السيئات.

/ ويحتمل أن تكون إشارة إلى جميع ما تقدم من الأوامر والنواهي والقصاص في هذه ٢٥٠ ب السورة، وهو تفسير الطبري.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَنَوَتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الْآذِينَ ظَلَعُوا مَا أَتَرَوْا فِيهِ وَكَانُوا مُحْجَرِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية...﴾ الآية، ﴿لولا﴾: هي التي للتحضيض، لكن، يقترب بها هنا معنى التفجع والتأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد، وهذا نحو قوله سبحانه: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]، والقرون من قبلنا قوم نوح وعاد وثمود، ومن تقدم ذكره.

وقوله: ﴿أولوا بقية﴾: أي: أولو بقية من عقل وتمييز ودين، ﴿ينهون عن الفساد﴾ وإنما قيل: ﴿بقية﴾؛ لأن الشرائع والدول ونحوها، قوتها في أولها، ثم لا تزال تضعف، فمن ثبت في وقت الضعف، فهو بقية الصدر الأول.

و﴿الفساد في الأرض﴾: هو الكفر وما اقترب به من المعاصي، وهذه الآية فيها تنبيه لهذه الأمة وحض على تغيير المنكر، ثم استثنى عز وجل القوم الذين تجاهم مع أنبيائهم، وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم، و﴿قليلاً﴾ استثناء منقطع، أي: لكن قليلاً ممن أنجينا منهم، نهوا عن الفساد، و﴿المُتَرَفِّ﴾: المنعم الذي شغلته ترفته عن الحق حتى هلك؛ ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم﴾ منه سبحانه وتعالى عن ذلك، ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾: أي مؤمنة لا يقع منهم كفر؛ قاله قتادة^(١)، ولكنه عز وجل لم يشأ ذلك، فهم لا يزالون مختلفين في الأديان والآراء والملل، هذا تأويل الجمهور، ﴿إلا من رحم ربك﴾، أي: بأن هداه إلى الإيمان؛ وقوله تعالى: ﴿ولذلك خلقهم﴾: قال الحسن: أي: وللاختلاف خلقهم^(٢).

(١) أخرجه الطبري (١٣٧/٧) برقم: (١٨٧١٢) نحوه، وذكره ابن عطية (٢١٥/٣)

(٢) أخرجه الطبري (١٣٩/٧) برقم: (١٨٧٣٣)، وذكره ابن عطية (٢١٥/٣) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٤٥/٣)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

قال * ع^(١) : * وذلك أن الله تعالى خلق خلقاً للسعادة، وخلقاً للشقاوة، ثم يسّر كلاً لما خلق له، وهذا نص في الحديث الصحيح، وجعل بعد ذلك الاختلاف في الدين على الحق هو أماراة الشقاوة، وبه علّق العقاب، فيصح أن يُحمَلَ قول الحسن هنا: وللإختلافِ خلقَهُم، أي: لثمرة الاختلاف، وما يكون عنه من شقاوة أو سعادة، وقال أشهب: سألت مالكا عن هذه الآية، فقال: خلقَهُم؛ ليكون فريق في الجنة، وفريق في السعير، وقيل غير هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: نفذ قضاؤه، وحق أمره، واللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾: لام قسم.

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢٦﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، و«كلّا» مفعولٌ مقدّم بـ «نَقُصُّ»، و«ما» بدلٌ من قوله: «وكلّا»، و«نُنبئ به فؤادك» أي: نؤنسك فيما تلقاه، ونجعل لك الإِسوة.

﴿وجاءك في هذه الحق﴾ قال الحسن: ﴿هذه﴾ إشارة إلى دار الدنيا^(٢)، وقال ابن عباس: ﴿هذه﴾، إشارة إلى السورة^(٣)، وهو قول الجمهور.

قال * ع^(٤) : * ووجه تخصيص هذه السورة بوضفها بحق، والقرآن كله حق أن ذلك يتضمن معنى الوعيد للكفرة، والتنبية للنّاظر، أي: جاءك في هذه السورة الحق الذي أصاب الأُمم الماضية، وهذا كما يقال عند الشدائد: جاء الحق، وإن كان الحق يأتي في غير الشدائد، ثم وصف سبحانه أن ما تضمنته السورة هو موعظة وذكرى للمؤمنين.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٤٢/٧ - ١٤٣) برقم: (١٨٧٥٧، ١٨٧٦١)، وذكره ابن عطية (٢١٦/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤٠٧/٢)، وابن كثير (٤٦٥/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦٤٦/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٤٤/٧) برقم: (١٨٧٧٧)، وذكره ابن عطية (٢١٦/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦٤٦/٣)، وعزاه إلى عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٦/٣).

وقوله سبحانه: ﴿وقل للذين لا يؤمنون...﴾ الآية: آية وعيد.

وقوله تعالى: ﴿ولله غيب السموات والأرض...﴾ الآية: أية تعظيم وأنفراد بما لا حَظَّ لمخلوق فيه، ثم أمر سبحانه العبد بِعِبَادَتِهِ، والتوكل عليه، وفيهما زوالُ هَمِّهِ وَصَلَاحُهُ، ووضوؤه إلى رضوان الله تعالى، فقال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ تَوَكَّلْ عَلَيْكَ، وَوَقَّفْتَهُ لِعِبَادَتِكَ كَمَا تَرْضَى، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى جَزِيلِ مَا بِهِ أَنْعَمَ.

تفسير سورة يوسف

هذه السورة مكيّة، والسبب في نزولها أن اليهود أمروا كفّار مكّة؛ أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أحلّ بني إسرائيل بمصر، فنزلت السورة.

وقيل: سبب نزولها تسليّة النبي ﷺ عما / يفعل به قومه بما فعل إخوة يوسف بيوسف، وسورة يوسف لم يتكرّر من معانيها في القرآن شيء؛ كما تكرّرت قصص الأنبياء، ففيها حجة على من أعترض بأن الفصاحة تمكّنت بتزاد القول، وفي تلك القصص حجة على من قال في هذه: لو كرّرت، لفترت فصاحتها. ١٢٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَنِيفِ ﴿٣﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿الكتاب﴾؛ هنا القرآن، ووصفه بـ ﴿المبين﴾ من جهة بيان أحكامه وحلاله وحرامه ومواعظه وهداه ونوره، ومن جهة بيان اللسان العربي وجودته، والضمير في ﴿أنزلناه﴾: للكتاب، و﴿قرآنًا﴾ حال، و﴿عربيًا﴾: صفة له، وقيل: ﴿قرآنًا﴾: توطئة للحال، و﴿عربيًا﴾ حال.

وقوله سبحانه: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص...﴾ الآية: روى ابن مسعود، أن أصحاب النبي ﷺ ملؤا ملة، فقالوا: لو قصصت علينا، يا رسول الله! فنزلت هذه الآية، ثم ملؤا ملة أخرى، فقالوا: لو حدثتنا، يا رسول الله، فنزلت: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا^(١)...﴾ الآية [الزمر: ٢٣] و﴿القصص﴾: الإخبار بما جرى من الأمور.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤)، وعزاه لابن جرير عن عون بن عبد الله.

وقوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: أي: بوحينا إليك هذا، و﴿القرآن﴾: نعت لـ «هذا» ويجوز فيه البدل، والضمير في «قبله»: للقصص العام؛ لما في جميع القرآن منه، و﴿من الغافلين﴾، أي: عن معرفة هذا القصص، وعبارة المَهْدَوِيّ: قال قتادة: أي: نقص عليك من الكتب الماضية، وأخبار الأمم السالفة أحسن القصص؛ بوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴿عن أخبار الأمم، انتهى.﴾

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١﴾ قَالَ يَبْنَئِي لَكَ نَقْصُ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾: قيل: إنه رأى كواكب حقيقة، والشَّمْسُ والقَمَرُ، فتأولها يعقوب إخوته وأبويه، وهذا هو قول الجمهور، وقيل: الإخوة والأب والخالة؛ لأن أمه كانت ميتة، وروي أن رؤيا يوسف حُرِّجَتْ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وقيل: بعد ثمانين سَنَةً.

وقوله: ﴿يَا بَنِي لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ من هنا ومن فعل إخوة يوسف بيوسف: يظهر أنهم لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت، وما وَقَعَ في «كتاب الطبري» لابن زيد؛ أنهم كانوا أنبياء يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي، وعن عقوق الآباء، وتعرض مؤمن للهلاك، والتأمر في قتله.

﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾: أي: يختارك ويصطفيك.

﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ قال مجاهد وغيره: هي عبارة الرؤيا^(١) وقال الحسن: هي عواقب الأمور^(٢) وقيل: هي عامة لذلك وغيره من المعانيات.

﴿ويتم نعمته عليك...﴾ الآية: يريد بالنبوة وما أنضاف إليها من سائر النعم، ويروي: أن يعقوب عَلِمَ هذا مِنْ دَعْوَةِ إِسْحَاقَ لَهُ حِينَ تَشَبَّهَ بِـ «عِصْو»، وباقي الآية بين.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَسَاءِلِينَ ﴿٧﴾﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مَتَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لِنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾﴾ أَفْتَلَوْا يُوسُفَ أَوْ اطَّرَحُوهُ أَرْضًا يَخُلُ لَكُمْ وَمِنْهُ أَيْكُمُ

(١) أخرجه الطبري (١٥١/٧) برقم (١٨٨٠٣)، وذكره ابن عطية (٢٢٠/٣)، وابن كثير (٤٦٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/٤)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٢٠/٣).

وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾؛ إذ كل أحد ينبغي أن يسأل عن مثل هذا القصص، إذ هي مَقَرُّ العبر والآلِعاظ؛ وقولهم: ﴿وأخوه﴾: يريدون به «يَامين»، وهو أصغر من يوسف، ويقال له: «يَنَيامين» قيل: وهو شقيقه، ﴿أحب إلى أينا منا﴾: أي: لصغيرهما وموت أمهما، وهذا مِنْ حُبِّ الصغير هي فطرة البَشَر، وقولهم: ﴿ونحن عصبه﴾: أي: جماعة تضر وتنفع، وتحمي وتخذل، أي: لنا كانت تنبغي المحبة والمراعاة، والعُصبة في اللغة: الجماعة، وقولهم: ﴿لفي ضلال مبين﴾، أي: لفي أنتلاف وخطإ في محبة يوسف وأخيه، وهذا هو معنى الضلال، وإنما يصغر قدره، ويعظم بحسب الشيء الذي فيه يقع أنتلاف، و﴿مبين﴾: معناه: ظاهر للمتأمل، وقولهم: ﴿أو أطرحوه ب ٢٥١ / أرضاً﴾: أي: بأرض بعيدة؛ ف «أرضاً» مفعول ثانٍ بإسقاط حرف الجر، والضمير في «بعده» عائد على يوسف، أو قتله، أو طرحه، ﴿وصالحين﴾: قال مقاتل وغيره: إنهم أرادوا صلاح الحال عند أبيهم^(١)، والقائل منهم: «لا تقتلوه» هو: «رؤييل» أسنهم؛ قاله قتادة^(٢) وابن إسحاق، وقيل: هو شمعون؛ قاله مجاهد^(٣)، وهذا عطف منه على أخيه لا محالة؛ لما أراد الله من إنفاذ قضائه، و«الغيابة»: ما غاب عنك، و﴿الجُبُّ﴾ البئر التي لم تُطو؛ لأنها جُبَّت من الأرض فقط، قال المهدوي: والجُبُّ؛ في اللغة: البئر المقطوعة التي لم تُطو، انتهى. وال «سيارة»: جمع سيار، وروي أن جماعة من الأعراب ألقطت يوسف عليه السلام.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُنْصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَكَاغِيرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوا فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون...﴾ الآية المتقدمة تقتضي أن أباهم قد كان عليم منهم إرادتهم سوء في جهة يوسف، وهذه

(١) ذكره ابن عطية (٢٢٢/٣)

(٢) أخرجه الطبري (١٥٣/٧) برقم: (١٨٨١١)، ويرقم: (١٨٨١٢)، وذكره ابن عطية (٢٢٢/٣)، والبعوي (٤١٢/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٢٢/٣).

الآية تقتضي أنهم علموا هُم منه بعلمه ذلك، وقرأ أبو عامر^(١) وابن عمرو: «نَزَعَ وَنَلَعَبَ» بالنون فيهما وإسكان العين والباء -، و«نَزَعَ»؛ على هذا: من الرثوع، وهي الإقامة في الخضب والمرعى في أكلٍ وشربٍ، وقرأ ابن كثير: «نَزَعَ وَنَلَعَبَ» - بالنون فيهما وكسِر العين وإسكان الباء -، وقد روي عنه «وَيَلَعَبَ» - بالياء - و«نَزَعَ» على هذا: من رعاية الإبل. وقال مجاهد: من المُرَاعاة، أي: يرعى بعضنا بعضاً، ويحرسه^(٢)، وقرأ عاصم وحمة والكسائي: «يَرْتَع وَيَلَعَبَ» بإسناد ذلك كله إلى يوسف، وقرأ نافع «يَزَعَ وَيَلَعَبَ»، فـ «يَزَعَ»؛ على هذا: من رعاية الإبل، قال أبو علي: وقراءة ابن كثير «نَزَعَ» - بالنون - و«يَلَعَبَ» - بالياء -: منزعها حسنٌ؛ لإسناد النظر في المال، والرعاية إليهم، واللعب إلى يوسف لصباه، ولعبهم هذا داخل في اللعب المباح والمندوب كاللعب بالخيول والرمي؛ وعللوا طلبه والخروج به بما يمكن أن يستهوي يوسف لصباه من الرثوع واللعب والنشاط، وإنما خاف يعقوب عليه السلام الذئب دون سواه، وخصصه؛ لأنه كان الحيوان العادي المنبت في القطر، ولصغر يوسف، و«أجمعوا»: معناه: عزموا.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحِينَا إِلَيْهِ﴾ يحتمل أن يكون الوحي إلى يوسف حينئذ برسول، ويحتمل أن يكون بالهام أو بنوم، وكل ذلك قد قيل، وقرأ الجمهور^(٣): «لَتَنْبِتْنَهُمْ» بالتاء من فوق.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: قال ابن جزيج: معناه: لا يشعرون وقت النبوة؛ أنك يوسف^(٤)، وقال قتادة: لا يشعرون بوخينا إليك^(٥).

(١) الصواب فيهما أبو عمرو، وابن عامر، ولعله سبق قلم من المصنف أو الناسخ. وقد قرأ بقراءتهما ابن كثير، وحجتهم هي قولهم بعد: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾، فكانهم أسندوا جميع ذلك إلى جماعتهم إذا أسندوا الاستباق، فقيل لأبي عمرو: فكيف يلعبون وهم أنبياء الله؟ فقال: إذا لم يكونوا أنبياء الله.

ينظر: «السبعة» (٣٤٥ - ٣٤٦)، و«الحجة» (٤٠٢/٤ - ٤٠٣)، و«إعراب القراءات» (٣٠٣/١)، و«شرح الطيبة» (٣٧٧/٤ - ٣٧٨)، و«العنوان» (١١٠)، و«إتحاف» (١٤١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٥٦/٧) برقم: (١٨٨٣٨)، وذكره ابن عطية (٢٤٤/٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٥/٣)، و«البحر المحيط» (٢٢٨/٥)، و«الدر المصون» (١٦٢/٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٥٩/٧) برقم: (١٨٨٥٠)، وذكره ابن عطية (٢٢٦/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٥/٤).

(٥) أخرجه الطبري (١٥٨/٧) برقم: (١٨٨٤٨)، وذكره ابن عطية (٢٢٦/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٤٧١)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٤/٤)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَالْكَاهِنُ الْكَذُّبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ يَدَمٌ كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

وقوله: ﴿وجاءوا وأباهم عشاء يبكون﴾: أي: وقت العشاء، وقرأ الحسن: «عُشَى»^(١)؛ على مثال «دُجِي»، جمع «عاش»، ومعنى ذلك: أصابهم عشى من البكاء أو شبه العشى، إذ كذلك هي عَيْنُ الباكي؛ لأنه يتعاشى، ومثل شُرَيْحَ امرأة بَكْتُ، وهي مبطلّة ببكاء هؤلاء؛ وقرأ الآية، و﴿نَسْتَبِقُ﴾: معناه: على الأقدام، وقيل: بالرُمي، أي: نَتَضِلُّ، وهو نوعٌ من المسابقة؛ قاله الزَّجَّاج، وقولهم: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾: أي بمصدق لنا، ﴿ولو كنا صادقين﴾، أي: ولو كنا موصوفين بالصدق، ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿ولو كنا صادقين﴾: بمعنى: وإن كنا صادقين في معتقدينا.

وقوله سبحانه: ﴿وجاءوا وعلى قميصه بدم كذب﴾: روي أنهم أخذوا سَخْلَةً أَوْ جَذِيًّا، فذبحوه، ولَطَّخُوا به قميصَ يوسُفَ، وقالوا ليعقوب: هذا قميصه، فأخذه وبكى ثم تأمله، فلم يرَ خَرْقًا، ولا أثرَ نابٍ؛ فاستدلَّ بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان الذئبُ حليماً يأكلُ يوسُفَ، ولا يخرق قميصه؛ قصَّ هذا القصص ابن عباس وغيره^(٢)، وأجمعوا على أنه استدلَّ على كذبهم بصحّة القميص، واستند الفقهاء إلى هذا في إعمالِ الأماراتِ في مسائل؛ كالقسامة^(٣) بها في قول مالكٍ إلى غير ذلك. قال الشعبي: كان في القميص ثلاث

(١) قال أبو الفتح: وكان قياسه عِشَاءَ كماش ومُشَاءَ، إلا أنه حذف الهاء تخفيفاً وهو يريد بها، كقوله: أبلغ النعمان عني مألُكا أنه قد طال حبسي وانتظار أراد مألُكة، فحذف الهاء.

ينظر: «المحتسب» (١/٣٣٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/٢٢٦)، و«البحر المحيط» (٥/٢٨٨)، و«الدر المصون» (٤/١٦٢). وهي من «شواذ ابن خالويه» ص: (٦٧)، «عشاء» بالمد منسوبة للحسن والأعمش.

(٢) أخرجه الطبري (٧/١٦١) برقم: (١٨٨٧١)، ورقم: (١٨٨٦٥ - ١٨٨٦٦ - ١٨٨٦٧)، وبرقم: (١٨٨٦٨)، وذكره ابن عطية (٣/٢٢٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٦)، وعزاه إلى الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) القَسَامَةُ: في اللغة مأخوذة من القَسَم، وهو اليمين، والقَسَامَةُ الْإِيمَانُ تقسم على أولياء القتل إذا ادعوا الدم، يقال: قتل فلان بالقسامة إذا اجتمعت جماعة من أولياء القتل، فادعوا على رجل أنه قتل صاحبهم، ومعهم دليل دون التَّيْنَةِ فكلفوا خمسين يميناً أن المدعى عليه قتل صاحبهم. وفي اصطلاح الفقهاء هي الأيمان المَكْرُرة في دعوى القتل.

ذهب جمهور الفقهاء إلى أن القَسَامَةَ مشروعة، وقد استدلوا على ذلك بأحاديث منها: ما روي عن سهل بن أبي حثمة قال: انطلق عبدُ الله بن سهل، ومحبيته بن مسعود إلى «خير» وهي يومئذ صلح،

آيات: دلالتُهُ على كذبهم، وشهادتُهُ في قَدِّه، وَرَدُّ بَصَرِ يَعْقُوبَ به، ووصف الدَّم بالكَذِبِ الَّذِي هُوَ مُضَدَّرٌ عَلَى / جهة المبالغة، ثم قال لهم يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾، أي: ١٢٥٢ رَضِيَتْ وَجَعَلَتْ سَوْلاً وَمَرَاداً ﴿أَمْرًا﴾، أي: صنعاً قبيحاً بيوسف^(١).

وقوله: ﴿فَصَبِرْ جَمِيلٌ﴾: إما على حذف المبتدأ، أي: فشأنِي صَبْرٌ جَمِيلٌ، وإما على حَذْفِ الخبر، تقديره: فصَبِرْ جَمِيلٌ أَمْثَلُ، وَجَمِيلُ الصَّبْرِ: أَلَّا تَقَعَ شَكْوَى إِلَى البَشَرِ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ بَثَّ، لَمْ يَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا»^(٢).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾: تسليم لأمر الله تعالى، وتوكل عليه.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُهُ يَضَعُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩) ﴿وَسَرَّوهُ سَمْعَيْنِ بَحْسَ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٢٠) ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأُمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

وقوله سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾: قيل: إن السيارة جاءت في اليوم الثاني من طرحه، و«السيارة»: بقاء مبالغة للذين يرددون السير في الطرق.

قال * ص * و«السَّيَّارَةُ»: جمع سَيَّار، وهو الكثيرُ السَّيْرِ في الأرض. انتهى.
و«الوارد»: هو الذي يأتي الماء يستقي منه لجماعته، وهو يَقَعُ عَلَى الواحدِ وعلى الجَمَاعَةِ.

فتفرقا، فَأَتَى مَحِيصَةَ إِلَى عبد الله بن سهل وهو يتشخط في ذِمِّهِ قِتْلًا، فدفعه، ثم قدم «المدينة» فانطلق عبد الرحمن بن سهل ومحيصة وحويصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ فذهب عبد الرحمن يتكلم فقال ﷺ: «كبر كبر» وهو أحدث القوم، فسكت فتكلما، فقال: «أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم»، فقالوا: كيف نحلف ولم نشهد ولم نر، قال: «فتبرئكم يهود بخمسين يمينا»، فقالوا له: كيف نأخذ بأيمان قوم كفار، فعلقه النبي ﷺ من عنده.

وفي رواية متفق عليها قال ﷺ: «يقسم خمسون منكم على رجل منهم، فيدفع برمته»، فقالوا: أمر لم نشهده كيف نحلف؟، قال: «فتبرئكم يهود بأيمان خمسين منهم»، قالوا: يا رسول الله قوم كفار، الحديث. فقله ﷺ: «أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم» دليل على مشروعية القَسَامَةِ، وإلى هذا ذهب جمهور الصحابة والتابعين، والعلماء، من «الحجاز» و«الكوفة» و«الشام»، كما حكى ذلك القاضي عِيَّاضٌ، ولم يختلفوا في الجملة، ولكن اختلفوا في التفاصيل.

(١) أخرجه الطبري (١٦١/٧ - ١٦٢)، برقم: (١٨٨٧٢ - ١٨٨٧٣ - ١٨٨٧٤)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٢٧)، وعزاه للشافعي.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨٤/٧) برقم: (١٩٧٣٨)، عن مسلم بن يسار به وذكره السيوطي في =

وروي أنَّ مُذْلِيَّ الدَّلْوِ كان يسمَّى مَالِكَ بَنِ دَعْرٍ، وَيُرْوَى أَنَّ هَذَا الْجُبَّ كان بِالْأَزْدَنْدُ عَلَى ثَلَاثَةِ فَرَسِيخٍ مِنْ مَنْزِلِ يَعْقُوبَ، وَيَقَالُ: أَدْلَى دَلْوُهُ؛ إِذَا أَلْقَاهُ لِيَسْتَقِيَّ الْمَاءَ، وَفِي الْكَلَامِ حَذَفٌ، تَقْدِيرُهُ: فَتَعْلَقُ يَوْسُفُ بِالْحَبْلِ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ الْمُذْلِي، قَالَ: ﴿يَا بُشْرَايَ﴾، وَرَوَى أَنَّ يَوْسُفَ كان يَوْمِئِذٍ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ؛ وَرَجَّحَ هَذَا لَفْظُهُ ﴿غَلَامٌ﴾؛ فَإِنَّهَا لِمَا بَيْنَ الْحَوْلَيْنِ إِلَى الْبُلُوغِ، فَإِنْ قِيلَتْ فِيمَا فَوْقَ ذَلِكَ، فَعَلَى أَسْتِصْحَابِ حَالٍ، وَتَجَوُّزٍ، وَقَرَأَ نَافِعٌ^(١) وَغَيْرُهُ: «يَا بُشْرَايَ» بِإِضَافَةِ الْبُشْرَى إِلَى الْمُتَكَلِّمِ، وَبِفَتْحِ الْيَاءِ عَلَى نَدَائِهَا؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَحْضُرِي، فَهَذَا وَقْتُكَ، وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِي: «يَا بُشْرَى»، وَبِمِيلَانٍ وَلَا يَضِيفَانِ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يَفْتَحُ الرَّاءَ وَلَا يُمِيلُ، وَاخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ السُّدِّي: كَانَ فِي أَصْحَابِ هَذَا الْوَارِدِ رَجُلٌ أَسَمَهُ «بُشْرَى»؛ فَنَادَاهُ، وَأَعْلَمَهُ بِالْغَلَامِ^(٢)، وَقِيلَ: هُوَ عَلَى نَدَاءِ الْبُشْرَى؛ كَمَا قَدَّمْنَا.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَسْرَوْهُ بَضَاعَةً﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَذَلِكَ أَنَّ الْوُرَادَ حَشُّوا مِنْ تُجَّارِ الرِّفْقَةِ، إِنْ قَالُوا وَجَدْنَاهُ؛ أَنَّ يَشَارِكُوهُمْ فِي الْغَلَامِ الْمَوْجُودِ، يَعْنِي: أَوْ يَمْنَعُوهُمْ مِنْ تَمْلُكِهِ^(٣)، إِنْ كَانُوا أَحْيَارًا، فَأَسْرَوْا بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: أَبْضَعُهُ مَعَنَا بَعْضُ أَهْلِ الْمَضَرِّ، وَ«بَضَاعَةٌ»: حَالٌ، وَالبَضَاعَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الْمَالِ يَتَجَرَّ فِيهَا بِغَيْرِ نَصِيبٍ مِنَ الرِّبْحِ؛ مَا خُوذَ مِنْ قَوْلِهِمْ: «بَضْعَةٌ»؛ أَي: قِطْعَةٌ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي «أَسْرَوْهُ» يَعُودُ عَلَى إِخْوَةِ يَوْسُفَ.

وقوله سبحانه: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾: «شَرَوْهُ»؛ هُنَا: بِمَعْنَى بَاعُوهُ، قَالَ الدَّائِدِيُّ: وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أَي: بَاعُوهُ، فَإِذَا أَبْتِغَيْتَ أَتَتْ، قُلْتُ: أَشْتَرَيْتُ

= «الدَّرِ الْمَثْوُورُ» (٥٩/٤)، وَزَادَ نِسْبَتَهُ إِلَى عَبْدِ الرَّزَاقِ. وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمَرَ، بِلَفْظٍ: «مَنْ كُنُوزَ الْبَرِّ إِخْفَاءَ الصَّدَقَةِ وَكُتْمَانَ الْمَصَائِبِ وَالْأَمْرَاضِ وَمَنْ بَثَّ لَمْ يَصْبِرْ»، ذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِ الْمَثْوُورِ»، وَعَزَاهُ إِلَى ابْنِ عَدِيٍّ، وَابْنِ أَبِي عَدِيٍّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ».

(١) وَقِرَاءَةُ الْبَاقِينَ فِيهَا وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ اسْمَ رَجُلٍ، فَيَكُونُ دَعَا إِنْسَانًا اسْمُهُ بُشْرَى. وَحُجَّتُهُمْ مَا قَدْ رَوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: كَانَ اسْمُهُ «بُشْرَى»، فَدَعَاهُ الْمُسْتَقِي بِاسْمِهِ. وَالثَّانِي: أَنَّ يَكُونُ أَضَافَ الْبُشْرَى إِلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ حَذَفَ الْيَاءَ، كَمَا تَقُولُ: يَا غُلَامُ لَا تَفْعَلْ، يَكُونُ مَفْرُودًا بِمَعْنَى الْإِضَافَةِ.

يَنْظُرُ: «حِجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» (٣٥٧)، وَ«السَّبْعَةُ» (٣٤٨)، وَ«الْحِجَّةُ» (٤١٠/٤)، وَ«إِعْرَابُ الْقِرَاءَاتِ» (١/٣٠٦)، وَ«شَرْحُ الطَّبِيَّةِ» (٣٨٠/٤)، وَ«الْعُنْوَانُ» (١١٠)، وَ«شَرْحُ شَمْلَةٍ» (٤٣٧)، وَ«إِتْحَافُ» (٢/١٤٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٦٤/٧) بِرَقْمٍ: (١٨٨٩١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢٢٩/٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٦٥/٧ - ١٦٦) بِرَقْمٍ: (١٨٨٩٩، ١٨٩٠٢)، وَابْنُ الْبُيُوتِيِّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤١٥/٢)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢٢٩/٣).

انتهى، وقال ابن العربي في «أحكامه»^(١): قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾: يقال: أَشْتَرَيْتُ بِمَعْنَى بَعْتُ، وَشَرَيْتُ بِمَعْنَى أَشْتَرَيْتُ؛ لغة انتهى، وعلى هذا، فلا مانع من حمل اللفظ على ظاهره، ويكون «شَرَوْهُ» بمعنى: «أَشْتَرَوْهُ».

قال ع^(٢): * روي أن إخوة يُوسُفَ لَمَّا علموا أن الوُرَادَ قد أخذوه جاؤوهم، فقالوا: هذا عَبْدٌ قد أَبَقَ منا، ونحن نبيعُهُ منكم، فقارَهُم يوسُفُ على هذه المقالة؛ خوفاً منهم، ولينفذ الله أمره، وال «بَخْسٍ»: مصدر وُصِفَ به الثمن، وهو بمعنى التَّقْصِصِ.

وقوله: ﴿دراهم معدودة﴾: عبارة عن قلة الثمن؛ لأنها دراهم، لم تبلغ أن توزن لقلتها، وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما كان دون الأوقية، وهي أربعون درهماً.

وقوله سبحانه: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾: وصف يترتب في إخوة يوسف، وفي الوُرَادَ، ولكنه في إخوة يوسف أرتب؛ إذ حقيقة الزهد في الشيء إخراج حُبِّهِ من القلب ورَفْضُهُ من اليد، وهذه كانت حال إخوة يوسف في يوسف، وأما الوُرَادَ، فإن تمسكهم به وتَجَرُّهُمُ يمانع زهدهم إلا على تجوُّز، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾: أي: إخوته والواردة، أما إخوته؛ فلأن مقصودهم زوال عَيْنِهِ، وأما الواردة، فلأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لأمراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا﴾: روي أن مبتاع يوسف وَرَدَّ به مضر البلد المعروف؛ ولذلك لا ينصرف، فَعَرَضَهُ في السوق، وكان أجمل الناس، فوقعت فيه مزيدة / حتى بلغ ثمناً عظيماً، ف قيل: وزنه من ذهب، ومن ٢٥٢ ب فضة، ومن حرير، فأشتراه العزيز، وهو كان حاجب المليك وخازنه، وأسم المليك الرِّئَانُ بْنُ الْوَلِيدِ، وقيل: مُضْعَبُ بْنُ الرِّئَانِ، وهو أحد الفراعنة، وأسم العزيز المذكور: «قطيفين»؛ قاله ابن عباس، وقيل: «أظفير»، وقيل: «قنطور»، وأسم امرأته: «زاعيل»، قاله ابن إسحاق، وقيل: «زُلَيْخَا»، قال البخاري: و﴿مثواه﴾: مقامه.

وقوله: ﴿أو نتخذه ولداً﴾ أي: نتبأه، وكان فيما يُقَالُ: لا ولد له، ثم قال تعالى: ﴿وكذلك﴾، أي: وكما وصفنا ﴿مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه﴾ فعلنا ذلك، و﴿الأحاديث﴾: الرؤيا في النوم؛ قاله مجاهد، وقيل: أحاديث الأنبياء والأمم، والضمير

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٠٧٩).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٢٢٩).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٠٧٩).

في «أمره» يحتمل أن يعود على يوسف؛ قاله الطبري^(١)، ويحتمل أن يعود على الله عز وجل؛ قاله ابن جبير، فيكون إخباراً منبهاً على قدرة الله عز وجل ليس في شأن يوسف خاصة، بل عاماً في كل أمر، و«الأشد»: استكمال القوة وتناهي بنية الإنسان، وهما أشدان: أولهما، البلوغ، والثاني: الذي يستعمله العرب.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾: يحتمل أن يريد بالحُكم: الحكمة والنبوة، وهذا على الأشد الأعلى، ويحتمل أن يريد بالحُكم: السلطان في الدنيا وحكماً بين الناس، وتدخل النبوة وتأويل الأحاديث وغير ذلك في قوله: ﴿وَعِلْماً﴾، وقال ابن^(٢) العربي: ﴿أَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾: الحُكم: هو العمل بالعلم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾: عبارة فيها وعد للنبي ﷺ، أي: فلا يهولئك فعل الكفرة وعتوهم عليك، فالله تعالى يصنع للمحسنين أجمل صنع.

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ. وَعَلَّقَتْ الْأَتْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُمْ رَبِّي أَحْسَنَ مَوَاقِفَ إِنَّمَا لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ. كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾: المرادة: الملاطفة في السوق إلى غرض، و«التي هو في بيتها» هي زليخا امرأة العزيز، وقوله: ﴿عن نفسه﴾: كناية عن غرض الواقعة، وظاهر هذه النازلة أنها كانت قبل أن ينبأ عليه السلام، وقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: معناها: الدعاء، أي: تعال وأقبل على هذا الأمر، قال الحسن: معناها: هلم، قال البخاري: قال عكرمة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بالخورانية: هلم.

وقال ابن جبير: تعال، انتهى.

وقرأ هشام عن ابن عامر^(٣): «هَيْتُ لَكَ» - بكسر الهاء والهمز وضم التاء -، ورويت عن أبي عمرو، وهذا يحتمل أن يكون من هاء الرجل يهيء، إذا حسن هيئته، ويحتمل أن يكون بمعنى: تهيأت، و«معاذ»: نصب على المصدر، ومعنى الكلام: أعوذ بالله، ثم

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧٤/٧).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٨٢/٣).

(٣) ينظر: «السبعة» (٣٤٧)، و«الحجة» (٢٣/٤)، و«إعراب القراءات» (٣٠٧/١)، و«شرح الطيبة» (٤/

٣٨٠)، و«العنوان» (١١٠)، و«شرح شعلة» (٤٣٨)، و«إتحاف» (١٤٣/٢)، و«حجة القراءات» (٣٥٨).

قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، فيحتمل أن يعود الضمير في «إِنَّهُ» على اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ويحتمل أن يريد العزيزَ سيِّدَهُ، أي: فلا يصلح لي أن أخونه، وقد أَكْرَمَ مَثْوَايَ، وَأَتَمَّنَّنِي، قال مجاهد وغيره: «رَبِّي» معناه سيِّدي^(١) وإذا حفظ الآدمي لإحسانه فهو عمل زَاكٍ، وأحرى أن يحفظ ربه، والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَلْفَحُ﴾ مراد به الأمر والشأن فقط، وحكى بعض المفسرين أن يوسف عليه السلام لما قال: مَعَاذَ اللَّهِ، ثم دافع الأمرَ بِأَحْتِجَاجٍ وملاينة، أمتحنه الله تعالى بالهَمِّ بما هَمَّ به، ولو قال: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ودافعَ بِعُتْفٍ وتغيير، لم يَهَمَّ بشيء من المَكْرُوهِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾: اختلف في هَمِّ يوسف.

قال * ع^(٢): * والذي أقول به في هذه الآية: أَنَّ كَوْنَ يوسف عليه السلام نبياً في وقت هذه النازلة لم يصحَّ، ولا تظاهرت به رواية، فإذا كان ذلك، فهو مؤمنٌ قد أُوتِيَ حكماً وعِلْماً، ويجوز عَلَيْهِ الهَمُّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقفته، وأن يستصحب الخَاطِرَ الرديء؛ عَلَى ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت، فلا يجوز عليه عندي إِلَّا الهَمُّ الذي هو الخاطر، ولا يصحُّ عندي شيء مما ذكر من حَلِّ تَكَّةٍ، ونحو ذلك؛ لِأَنَّ الْعِصْمَةَ مع النبوة، وَلِلْهَمِّ بالشيء مرتبتان، فالخاطر المجرد دون استصحاب يجوزُ عليه، ومع استصحاب لا يَجُوزُ عليه؛ إِذ الإجماع منعقد أَنَّ الهَمَّ بالمعصية واستصحاب التلذُّذ بها غير جائز، / ولا داخل في التجاوز.

١٢٥٣

* ت: * قال عياض: والصحيح إن شاء الله تنزيههم أيضاً قبل النبوة مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، وعصمتهم مِنْ كُلِّ ما يوجب الرِّيبَ، ثم قال عياض بعد هذا: وأما قولُ الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى برهان رَبِّهِ﴾، فعلى طريق كثيرٍ من الفقهاء والمحدثين؛ أَنَّ هَمَّ النفس لا يؤاخذ به، وليس بسِيئةٍ، لقوله عليه السلام عن رَبِّهِ: «إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسِيئةٍ، فَلَمْ يَغْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ»^(٣)؛ فَلَا مَعْصِيَةَ في هَمِّ إِذْنٍ، وأما عَلَى مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين، فإن الهَمَّ إِذَا وُطِّئَتْ عَلَيْهِ النفسُ سِيئةٌ، وأما ما لم توطَّنْ عليه النفس مِنْ هُمومها وخواطرها، فهو المعفو عنه، وهذا هو الحق، فيكون إن شاء الله هَمُّ يوسف من هذا، ويكونُ قوله: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نفسي...﴾ الآية [يوسف: ٥٣]: أي:

(١) أخرجه الطبري (١٨٠/٧) برقم: (١٩٠١٤ - ١٩٠١٥ - ١٩٠١٦)، وذكره ابن عطية (٢٣٣/٣)، والسيوطي (٢٢/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٣٤/٣).

(٣) تقدم تخريجه.

من هذا الهم، أو يكون ذلك منه على طريق التواضع. انتهى.

واختلف في البرهان الذي رآه يوسف، فقيل: ناداه جبريل: يا يوسف، تكون في ديوان الأنبياء، وتفعل فعل السفهاء، وقيل: رأى يعقوب عاضاً على إبهامه، وقيل غير هذا، وقيل: بل كان البرهان فكرته في عذاب الله ووعيده على المعصية، والبرهان في كلام العرب: الشيء الذي يُعْطِي القطع واليقين، كان مما يعلم ضرورة أو بخبر قطعي أو بقياس نظري «وأن» في قوله: ﴿لولا أن رأى﴾ في موضع رفع، تقديره: لولا رؤيته برهان ربه، لفعل، وذهب قوم إلى أن الكلام تم في قوله: ﴿ولقد همّت به﴾، وأن جواب «لولا» في قوله: ﴿وهم بها﴾، وأن المعنى: لولا أن رأى البرهان لهم، أي: فلم يهّم عليه السلام، وهذا قول يردّه لسان العرب، وأقوال السلف * ت *: وقد ساق عياض هذا القول مساق احتجاج به متصلاً بما نقلناه عنه آنفاً، ولفظه: فكيف، وقد حكى أبو حاتم عن أبي عبيدة، أن يوسف لم يهّم، وأن الكلام فيه تقديم وتأخير، أي: ولقد همّت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، وقد قال الله تعالى عن المرأة: ﴿ولقد راودته عن نفسها فاستغصم﴾، [يوسف: ٢٣] وقال تعالى: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾، وقال: ﴿معاذ الله...﴾ الآية. انتهى. وكذا نقله الداودي ولفظه: وقد قال سعيد بن الخدّاد: في الكلام تقديم وتأخير، ومعناه: أنه لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فلما رأى البرهان لم يهّم، انتهى. قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): وقد أخبر الله سبحانه عن حال يوسف من حين بلوغه بأنه آتاه حكماً وعلماً، والحكم: هو العمل بالعلم، وكلام الله صادق، وخبره صحيح، ووصفه حق، فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنا، وتحريم خيانة السيد في أهله، فما تعرض لأمرأة العزيز، ولا أناب إلى المراودة، بل أذبر عنها، وفّر منها؛ حكماً خص بها، وعمل بما علمه الله تعالى، وهذا يطمس وجوه الجهلة من الناس والعقلاء من العلماء في نسبتهم إلى الصديق ما لا يليق، وأقل ما اقتحموا من ذلك هتك السراويل، والهم بالفتك فيما رآوه من تأويل، وحاشاه من ذلك، فما لهؤلاء المفسرين لا يكادون يفقهون حديثاً؛ يقولون: فعل فعل، والله تعالى إنما قال هم بها، قال علماء الصوفية: إن فائدة قوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً...﴾ [يوسف: ٢٢] أن الله عز وجل أعطاه العلم والحكمة؛ بأن غلب الشهوة؛ ليكون ذلك سبباً للعظمة، انتهى.

والكاف من قوله تعالى: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء﴾: متعلقة بمضمر، تقديره: جرّث أفعالنا وأقدارنا كذلك؛ لنصرف، ويصح أن تكون الكاف في موضع رفع بتقدير

عَصَمْتُنَا لَهُ كَذَلِكَ، وقرأ ابن كثير وغيره: «المُخْلِصِينَ» - بكسر اللام^(١) - في سائر القرآن، ونافع وغيره بفتحها.

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِيهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَمَا قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّكُمْ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿واستبقا الباب...﴾ الآية: معناه: سَاقَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ إِلَى الْبَابِ، هِيَ لَتَرَدَّهُ إِلَى نَفْسِهَا، وَهُوَ لِيَهْرُبَ عَنْهَا، فَقَبَضَتْ فِي أَعْلَى قَمِيصِهِ، فَتَخَرَّقَ الْقَمِيصُ عِنْدَ طَوْرِهِ، وَنَزَلَ التَّخْرِيقُ إِلَى أَسْفَلِ الْقَمِيصِ، قَالَ الْبَخَارِيُّ: ﴿وَالْفَيَا﴾: أَي: وَجَدَا؛ ﴿أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ﴾ [الصافات: ٦٩]: وَجَدُوهُمْ. انْتَهَى، وَالْقَدْ: الْقَطْعُ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ فِيهَا كَانَ طَوْلًا، وَالْقَطُّ: يَسْتَعْمَلُ فِيهَا كَانَ / عَرْضًا، وَ﴿الْفَيَا﴾: وَجَدَا، وَالسَّيِّدُ: ٢٥٣ ب الزَّوْجُ؛ قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَمُجَاهِدٌ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا...﴾ الآية: قَالَ تَوْفُ الشَّامِيِّ: كَانَ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُبَيِّنْ عَلَى كَشْفِ الْقِصَّةِ، فَلَمَّا بَعَثَ عَلَيْهِ، غَضِبَ، فَقَالَ الْحَقُّ، فَأَخْبَرَ أَنَّهَا هِيَ رَاوَدَّتْهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَرَوِيَ أَنَّ الشَّاهِدَ كَانَ أَبْنَى عَمَّهَا، قَالَ: انظُرُوا إِلَى الْقَمِيصِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ رَجُلًا مِنْ خَاصَّةِ الْمَلِكِ^(٣)؛ وَقَالَ مُجَاهِدٌ^(٤) وَغَيْرُهُ، وَالضَّمِيرُ فِي «رَأَى» هُوَ لِلْعَزِيزِ، وَهُوَ الْقَاتِلُ: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾؛ قَالَ الطَّبْرِيُّ^(٥)، وَقِيلَ: بَلْ

(١) وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرٍو وَابْنِ عَامِرٍ، وَجَعَلُوهَا اسْمَ فَاعِلٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤].
يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٣٤٨)، وَ«الْحَجَّةُ» (٤٢١/٤)، وَ«إِعْرَابُ الْقِرَاءَاتِ» (٣٠٩/١)، وَ«حُجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» (٣٥٨)، وَ«الْعِنَانُ» (١١٠)، وَ«شَرْحُ الطَّيْبَةِ» (٣٨٢/٤)، وَ«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٤٣٩)، وَ«إِتْحَافٌ» (٢/١٤٥).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٩٠/٧) بِرَقْمٍ: (١٩١٠٣) وَبِرَقْمٍ: (١٩١٠٤)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢٣٥/٣)، وَالسَّيُوطِيُّ (٢٥/٤). وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٩٢/٧) بِرَقْمٍ: (١٩١٢٢)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢٣٦/٣)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٤٧٥/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ (٢٦/٤)، وَعَزَاهُ لِلْفَرَايِبِيِّ، وَابْنِ جَرِيرٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٩٢/٧) بِرَقْمٍ: (١٩١٢٥ - ١٩١٢٦ - ١٩١٢٧)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٤٢٢/٢)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٢٣٦/٣)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٤٧٥/٢).

(٥) يَنْظُرُ: «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (١٩٤/٧).

الشاهد، قال ذلك، وَنَزَعَ بهذه الآية مَنْ يرى الْحُكْمَ بالإمارة من العلماء؛ فإنها معتمدتهم، و«يوسف» في قوله: «يوسفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا»: مناذى، قال ابن عباس: ناداه الشاهد، وهو الرجل الذي كان مَعَ الْعَزِيزِ^(١)، و«أَعْرَضَ عَنْ هَذَا»: معناه: عن الكلام بِهِ، أي: أكتمه، ولا تتحدث به، ثم رَجَعَ إِلَيْهَا، فقال: «وَأَسْتَغْفِرِي لَذَنْبِكَ»، أي: أَسْتَغْفِرِي زَوْجَكَ وَسَيِّدَكَ، وقال: «مَنْ الْخَاطِئِينَ»، ولم يقل «مَنْ الْخَاطِئَاتِ»؛ لأن الْخَاطِئِينَ أَعْمٌ.

❖ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَمَاتَ كُلٌّ وَجَدَ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُو لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّيِّئُونَ الْعَالِمُ ﴿٣٤﴾

وقوله سبحانه: «وقال نسوة في المدينة امرأت تراود فتاها عن نفسه»: «نسوة»: جمع قلة، وجمع الكثير نساء، ويروى أن هؤلاء النسوة كن أربعاً: امرأة خبازة، وأمرأة ساقية، وأمرأة بوابة، وأمرأة سحابة، والعزير: الملك، والفتى: الغلام، وعزفه في المملوك، ولكنه قد قيل في غير المملوك؛ ومنه: «إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَّاهُ» [الكهف: ٦٠]، وأصل الفتى، في اللغة: الشاب، ولكن لما كان جُلُ الْخَدَمَةِ شَبَاباً، استعير لهم أَسْمُ الْفَتَى، و«شَغَفَهَا»: معناه بَلَغَ حَتَّى صار مِنْ قَلْبِهَا مَوْضِعَ الشَّغَافِ، وهو؛ على أكثر القول: غِلَافٌ من أغشية الْقَلْبِ.

وقيل: الشَّغَافُ: سويداء الْقَلْبِ.

وقيل: الشَّغَافُ: داءٌ يَصُلُّ إِلَى الْقَلْبِ.

«فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن»: ليحضرن.

«وأعدت لهن متكا»: أي: أعدت وِسْرَتَ ما يُتَكَا عَلَيْهِ من فُرُشٍ ووسائد وغير ذلك، وقرأ ابن عباس^(٢) وغيره: «مُتَكًا» - بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف -،

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٣٧).

(٢) وقرأ بها ابن عمر، والجحدري، وقتادة، والضحاك، والكلبي، وأبان بن تغلب، ورويت عن الأعمش. وأما معنى هذه القراءة - كما حكى المصنف -: هو الْأَثْرُجُ، وقيل: أيضاً: هو الزُّمَّارُودُ، وهو طعام من اللحم والبيض.

واختلف في معناها، ف قيل: هو الأثرُج^(١)، وقيل: هو اسمُ يعُمُّ جميع ما يُقَطَّع بالسَّكِين، وقولها: ﴿أَخْرِجْ عليهن﴾: أمر ليوسف، وأطاعها بحسب المُلْك.

وقوله: ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾: معناه: أعظمْنُهُ وأَسْتَهْوَلْنَ جَمَالَهُ، هذا قول الجمهور.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾: أي: كَتَرْنَ الحَزَّ فيها بالسَّكَاكِين، وقرأ أبو عمرو^(٢) وحده: «حَاشَى لِلَّهِ»، وقرأ سائر السبعة: ﴿حَاشَى لِلَّهِ﴾، فمعنى «حَاشَى لِلَّهِ»: أي: حَاشَى يَوْسُفَ؛ لطاعته لِلَّهِ، أو لمكانه من اللَّهِ أَنْ يَرْمَى بِمَا رَمَيْتَهُ بِهِ، أو يدعى إلى مثله، لأنَّ تِلْكَ أفعال البشر، وهو لَيْسَ منهم، إنما هو مَلِكٌ، هكذا رَتَّب بعضهم معنى هذا الكلام على القراءَتَيْنِ، وقرأ الحسن^(٣) وغيره: «مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلِكٌ كَرِيمٌ» - بكسر اللام من «مَلِكٌ»؛ وعلى هذه القراءة، فالكلامُ فصيحٌ: لَمَّا اسْتَعْظَمْنَ حُسْنَ صورته، قُلْنَ ما هذا مما يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مما يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا كَرِيمًا.

* ت * : وفي «صحيح مسلم» من حديث الإسراء: «ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسَيْنِ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ»^(٤) انتهى.

وقولها: ﴿فَذَلِكُنَ الَّذِي لِمْتَنَنِي فِيهِ﴾: المعنى: فهذا الذي لُمْتَنَنِي فِيهِ، وقطعتُنْ أَيْدِيَكُنَّ بسببه: هو الذي جَعَلَنِي ضَالَّةً فِي هَوَاهُ، ثُمَّ أَقَرَّتْ أَمْرًا الْعَزِيزِ لِلنِّسْوةِ بِالْمَرَاوِدَةِ،

= ينظر: «المحتسب» (٣٣٩/١ - ٣٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٢٣٨/٣)، و«البحر المحيط» (٢٠٢/٥)، و«الدر المصون» (١٧٤/٤).

(١) هو شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبي اللون، ذكي الرائحة، حامض الماء.

قال في «اللسان»: الأثرُج: معروف... والعامة تقول: أثْرُج، وَثْرُج، والأول كلام الفصحاء.

ينظر: «المعجم الوسيط» (٤)، و«لسان العرب» (٤٢٥) (تج).

(٢) وحجته أنه ليس أحد من العرب يقول: حاشك، ولا حاش لك. وإنما يقال: حاشاك، وحاشالك. وحجة الباقي: أنها هكذا في المصحف.

ينظر: «السبعة» (٣٤٢)، و«الحجة» (٤٢٢/٤)، و«إعراب القراءات» (٣٠٩/١)، و«شرح الطيبة» (٤/٣٨٣)، و«العنوان» (١١٠)، و«شرح شعلة» (٤٣٩)، و«إتحاف فضلاء البشر» (١٤٦/٢)، و«حجة القراءات» (٣٥٩).

(٣) وهي قراءة أبي الحويرث الحنفي، وعبد الوارث عن أبي عمرو.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٤٠/٣)، و«البحر المحيط» (٣٠٤/٥)، و«الدر المصون» (١٧٩/٤).

(٤) سيأتي تخريجه في سورة الإسراء.

وَأَسْتَأْمَنْتُ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ؛ إِذْ عَلِمْتُ أَنَّهُنَّ قَدْ عَذَّرْنَهَا.

و﴿استعصم﴾ معناه طلب العِصْمة، وتمسك بها، وعَصَانِي، ثم جعلت تتوَعَّدُه، وهو يسمع بقولها.

﴿ولئن لم يفعل ما أمره...﴾ إلى آخر الآية.

* ت * : واعترض * ص * : بأنَّ تفسير «أستعصم» بـ «اعتصم» أولى من جعله للطلب، إذ لا يلزم من طلب الشيء حصوله. انتهى، واللام في «لَيْسَجُنَّ»: لام قَسَم، واللام الأولى هي المؤدَّنة بالمجيء بالقَسَم، و«الصاغرون»: الأذلاء، وقَوْلُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلام: «رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ» إلى قوله: «من الجاهلين»، كلامٌ يتضمَّن التشكِّي إلى الله تعالى من حاله معهن، / و﴿أضْبُ﴾: مأخوذ من الصَّبْوة، وهي أفعال الصَّبا، ومن ذلك قولُ دُرَيْدِ بْنِ الصَّمَّةِ: [الطويل]

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَاةً قَالَ لِلْبَاطِلِ أَبْعِدِ^(١)
قال * ص * : «أضْبُ» معناه: أَمِلْ، وهو جوابُ الشرط، والصَّبَابَةُ: إفراط الشوق. انتهى.

﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ أي: أجابه إلى إرادته، وصَرَفَ عنه كَيْدَهُنَّ؛ في أنَّ حالَ بَيْتِهِ وبين المَغْصِيَةِ.

(١) البيت في «ديوانه» (٦٩)، و«التعازي والمراثي» (٢٢/٥)، و«نور القبس» (٥٣).
معنى: صبا ما صبا: قال المرزوقي (٨٢١/٢) قوله: «صبا ما صبا» يجوز أن يكون صبا الأول من الصَّبا واللهو، وصبا الثاني من الصَّبا بمعنى الفَتَاء فيكون المعنى:
تعاطى اللهو والصبا ما دام صيباً، فلما اكتمل وظهر في رأسه الشيب، فاشتعل، نحى الباطل عن نفسه زاهداً فيه، ورجوعاً إلى الحق ورغبة فيما يكسبه الأحداث الجميلة من أبواب الصلاح، ويجوز أن يكون المعنى: تعاطى الصبا ما تعاطاه إلى أن علاه المشيب فيسقط التجنيس من البيت وهو يحسن به.
وقال العلوي في الطراز (٨٤/٢): «فقوله: صبا ما صبا فيه من الإيهام البالغ ما لو تناهت في تفسيره فإنك لا تجد له من البيان مثل ما تجده في إيهامه».
ابعد: قال المرزوقي قوله: (ابعد) (٨٢١/٢) قوله (ابعد) من بعد يَبْعُدُ إذا هلك ولو أراد البُعْدَ لقال أَبْعُدُ بضم العين.
وقال في «جمهرة اللغة» (٢٤٥/١) (ب ع د) «يَبْعُدُ يَبْعُدُ بُعْداً من النَّأْيِ فإذا أمرت قلت: أَبْعِدْ، قال دريد: «البيت».

ويشتد إعجاب يونس بن حبيب بالبيت، ويراها أشعر بيت قالته العرب انظر: «نور القبس» (٥٣)، ينظر: «ديوان دريد بن الصمة» (٦٩)، تحقيق الدكتور عمر.

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿٣٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾: ﴿بَدَأْ﴾ معناه: ظهر، ولما أبى يوسف عليه السلام من المعصية، وَتَسَّتْ منه امرأة العزيز، طالبتَه بأن قالت لزوجها: إِنَّ هَذَا الْعُلَّامَ الْعِبْرَانِيَّ قَدْ فَضَحَنِي فِي النَّاسِ، وَهُوَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِمْ، وَيَصِفُ الْأَمْرَ بِحَسَبِ اخْتِيَارِهِ، وَأَنَا مَحْبُوسَةٌ مَحْبُوبَةٌ، فِيمَا أَذْنْتُ لِي، فَخَرَجْتُ إِلَى النَّاسِ، فَأَعْتَذَرْتُ وَكَذَّبْتُهُ، وَإِمَّا حَبَسْتَهُ كَمَا أَنَا مَحْبُوسَةٌ، فحِينَئِذٍ بَدَأَ لَهُمْ سَجْنُهُ.

* ع^(١): ﴿وَلَيْسَجْنُهُمْ﴾: جملة دَخَلَتْ عَلَيْهَا لَامَ قَسَمٍ، و﴿الآيَاتِ﴾: ذكر فيها أهلُ التفسير؛ أنها قَدْ الْقَمِيصُ، وَخَمَشُ الْوَجْهِ، وَخَزُّ النِّسَاءِ أَيْدِيَهُنَّ، وَكَلَامُ الصَّبِيِّ؛ عَلَى مَا رُوِيَ.

قال * ع^(٢): ﴿وَمَقْصِدُ الْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ أَنَّهُمْ رَأَوْا سَجْنَهُ بَعْدَ ظُهُورِ الْآيَاتِ الْمُبَرَّنَةِ لَهُ مِنَ التَّهْمَةِ، فَهَكَذَا يَبِينُ ظُلْمُهُمْ لَهُ وَالْـحِينُ﴾؛ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْوَقْتُ مِنَ الزَّمَانِ غَيْرَ مَحْدُودٍ يَقَعُ لِلْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَذَلِكَ يَبَيِّنُ مِنْ مَوَارِدِهِ فِي الْقُرْآنِ.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّلُورَ مِنْهُ نَبْتُنَا بِنَاوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا بِأَيِّكُمْ طَعَامٌ تُزَوَّدَانِهِ إِلَّا بِنَاؤُكُمَا بِنَاوِيلِهِ. قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَأَتَيْتُكَ مِلَّةَ آبَائِي ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَالْحَقُّ وَيَقُوبُ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٣٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ...﴾ الآية: المعنى: فسَجَّنُوهُ، فَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ، غُلَامَانِ سُجِّنَا أَيْضًا، وَرُوِيَ أَنَّهُمَا كَانَا لِلْمَلِكِ الْأَعْظَمِ الْوَلِيدِ بْنِ الرَّيَّانِ؛ أَحَدَهُمَا: خُبَّازُهُ، وَأَسْمُهُ مَجْلَتْ، وَالْآخَرُ: سَاقِيهِ، وَاسْمُهُ نَبُو، وَرُوِيَ أَنَّ الْمَلِكَ أَتَاهُمَا بِأَنْ الْخُبَّازَ مِنْهُمَا أَرَادَ سَمُّهُ، وَوَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ السَّاقِي، فَسَجَّنَهُمَا، قَالَهُ السَّدِيُّ^(٣)، فَلَمَّا دَخَلَ يَوْسُفُ السَّجْنَ، اسْتَمَالَ النَّاسَ فِيهِ بِحُسْنِ حَدِيثِهِ وَفَضْلِهِ وَنَبْلِهِ، وَكَانَ يُسَلِّي حَزِينَهُمْ، وَيَعُودُ مَرِيضَهُمْ، وَيَسْأَلُ لِفَقِيرِهِمْ، وَيَنْدُبُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ، فَأَحْبَبَهُ الْفَتَيَانِ، وَلَزَمَاهُ، وَأَحْبَبَهُ صَاحِبُ السَّجَنِ، وَالْقَيْمُ عَلَيْهِ، وَكَانَ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ قَالَ لِأَهْلِ السَّجَنِ: إِنِّي أَغْبَرُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٢٤٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٢٤٢ - ٢٤٣).

(٣) أخرجه الطبري (٧/٢١٢) برقم: (١٩٢٧٥)، وذكره ابن عطية (٣/٢٤٣)، وابن كثير (٢/٤٧٧).

الرؤيا، وأجيد، فروي عن ابن مسعود: أن الفتيتين أستعملتا هاتين المتأمتين ليَجْرِيَا^(١). وروي عن مجاهد: أنهما رأيا ذلك حقيقة^(٢)، فقال أحدهما: إني أراني أعصرُ خُمراً: قيل فيه: إنه سَمِيَ العِنَبَ خُمراً، بالمآل، وقيل: هي لغةُ أزدِ عُمَانٍ؛ يسمون العِنَبَ خُمراً، وفي قراءة أبي وأبن مسعود: «أَغْصِرُ عِنَباً»^(٣).

وقوله: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾: قال الجمهور: يريدان في العلم، وقال الضحاك وقتادة: المعنى: من المحسنين في جزيه مع أهل السُّجَنِ وإجماله معهم^(٤).

وقوله عز وجل: ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾: روي عن السُّدِّيِّ وابن إسحاق: أن يوسف عليه السلام لما عَلِمَ شدةَ تعبٍ مَنَامِهِ الرَّائِي الخُبَرَ، وأنها تُؤذِنُ بقتله، ذهب إلى غير ذلك من الحديث عَسَى أَلَّا يَطَالِبَاهُ بالتعبير، فقال لهما: مُغْلِماً بِعَظِيمِ عِلْمِهِ للتعبير: إنه لا يجيئكما طَعَامٌ في نومكما تَرَيَانِ أنكما رُزِقْتُمَا إِلَّا أعلمتكما بتأويل ذلك الطَعَامِ، أي: بما يؤولُ إِلَيْهِ أمره في الیقظة قَبْلُ أن يظهر ذلك التأويل الذي أُغْلِمَكُمَا به^(٥)، فروي أنهما قالَا: وَمِنْ أَيْنَ لَكَ مَا تَدْعِيهِ مِنْ الْعِلْمِ، وَأَنْتَ لَسْتَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَنْجَمٍ؟! فقال لهما: ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، ثم نهض يُنْجِي لهما على الكُفْرِ ويقبّحه، ويحسن الإيمان بالله، فروي أنه قصد بذلك وجهين؛ أحدهما: تنسيتهما أمرَ تعبٍ ما سألَا عنه؛ إذ في ذلك النَّذَارَةُ بقتل أحدهما، والآخر: الطماعية في إيمانهما؛ ليأخذ المَقْتُولُ بحظه من الإيمان، وتسلم له آخرته، وقال ابنُ جُرَيج: أراد يوسف عليه السلام لا يأتيكما طعامٌ في / الیقظة^(٦).

(١) أخرجه الطبري (٢١٢/٧) برقم: (١٩٢٧٧)، وذكره البغوي (٤٢٥/٢)، وابن عطية (٢٤٣/٣)، وابن كثير (٤٧٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢١٢/٧) برقم: (١٩٢٧٩)، وذكره البغوي (٤٢٥/٢).

(٣) ينظر: «المحتسب» (٢٤٣/١)، و«الكشاف» (٤٦٨/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٤٤/٢)، و«البحر المحيط» (٣٠٨/٥)، و«الدر المصون» (١٨٣/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٢١٤/٧) برقم: (١٩٢٨٧ - ١٩٢٨٨)، وذكره البغوي (٤٢٥/٢) - (٤٢٦)، وابن عطية (٢٤٤/٣)، والسيوطي (٣٤/٤)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ، عن قتادة، وعزاه أيضاً لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٥) أخرجه الطبري (٢١٥/٧) برقم: (١٩٢٩١ - ١٩٢٩٢)، وذكره ابن عطية (٢٤٤/٣)، وابن كثير (٤٧٨).

(٦) أخرجه الطبري (٢١٦/٧) برقم: (١٩٢٩٣)، وذكره ابن عطية (٢٤٤/٣)، والسيوطي (٣٤/٤)، وعزاه لأبي عبيدة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

قال * ع^(١): فعلى هذا إنما أعلمهم بأنه يعلم مغيبات لا تعلق لها برؤيا، وقصد بذلك أحدَ الوجهين المتقدمين، وهذا على ما روي أنه نبيء في السجن فإخباره كإخبار عيسى عليه السلام.

وقوله: ﴿تركت﴾، مع أنه لم يتشبَّث بها جائزٌ صحيح؛ وذلك أنه أخبر عن تجنُّبه من أول بالترك، وساق لفظ التَّرك استجلاباً لهما عسى أن يتركا التَّرك الحقيقي الذي هو بُعد الأخذ في الشيء، والقَوْمُ المتروكُ ملتهم: المَلِكُ وأتباعه.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعْتُ...﴾ الآية: تمادٍ من يوسف عليه السلام في دعائهما إلى المَلَّة الحنيفة.

وقوله: ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾، «مِنْ»: هي الزائدة المؤكدة التي تكون مع الجُحود.

وقوله: ﴿لا يشكرون﴾: يريد: الشكر التَّام الذي فيه الإيمان بالله عز وجل.

﴿يَصْدِجِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَتَيِّئُوهُمَا أَن تَشْرَأَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْدِجِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّلِيذُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

وقوله: ﴿يا صاحبي السجن﴾ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار: وصفه لهما بـ ﴿صاحبي السجن﴾ من حيث سُكنَاهُ؛ كما قال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ و﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ونحو ذلك، ويحتمل أن يريد صُحْبَتَهُمَا له في السِّجْنِ، كأنه قال: يا صاحِبَيَّ في السِّجْنِ، وعرضه عليهما بطلان أمر الأوثان بأن وصفها بالتفرق، ووصف الله تعالى بالوَحدة والفهر تَلَطَّفَ حَسَنًا، وأخذ بيسير الحُجَّة قبل كثيرها الذي ربَّما تَفَرَّتْ منه طباعُ الجاهل وعائدته، وهكذا الوجه في محاكاة الجاهل: أن يؤخِّدَ بدرجة يسيرة من الاحتجاج بقبلها، فإذا قبلها، لزمته عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك أبداً حتى يصل إلى الحق، وإن أخذ الجاهل بجميع المذهب الذي يُساق إليه دفعة أباه للحين وعائده، ولقد أبْثَلِي بأرباب

متفرقين مَنْ يَخْدُمُ أبناء الدنيا ويؤمِّلهم.

وقوله: ﴿ما تعبدون من دون إلا أسماء﴾: أي: مسميات، ويحتمل - وهو الراجح المختار - أن يريد: ما تعبدون من دونه ألوهية، ولا لكم تعلق بإله إلا بحسب أن سميت أصنامكم آلهة، فليست عبادتكم لا لله إلا بالاسم فقط لا بالحقيقة، وأما الحقيقة: فهي وسائر الحجارة والخشب سواء، وإنما تعلقت عبادتكم بحسب الاسم الذي وضعتم، فذلك هو معبودكم، ومفعول «سميت» الثاني محذوف، تقديره: آلهة؛ هذا على أن الأسماء يراد بها ذوات الأصنام، وأما على المعنى المختار من أن عبادتهم إنما هي لمعانٍ تعطىها الأسماء، وليست موجودة في الأصنام، فقله: ﴿سميتموها﴾ بمنزلة وضعتموها، وإن الحكم إلا لله: أي ليس لأصنامكم، والقِيم: معناه المستقيم، وأكثر الناس لا يعلمون؛ لجهالتهم وكفرهم، ثم نادى: ﴿يا صاحبي السجن﴾ ثانية؛ لتجتمع أنفسهما، لسماع الجواب، فروي أنه قال لنبو: أما أنت، فتعود إلى مرتبتك وسقاية ربك، وقال لمجلت: أما أنت، فتضلب، وذلك كله بعد ثلاث، فروي أنهما قالا له: ما رأينا شيئاً، وإنما تحالمتا لتجربك، وروي أنه لم يقل ذلك إلا الذي حدثه بالصلب، وقيل: كانا رأيا، ثم أنكرا، ثم أخبرهما / يوسف عن غيب علمه من الله تعالى، أن الأمر قد قضي ووافق ١٢٥٥ القدر.

وقوله: ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما...﴾ الآية: الظن؛ هنا: بمعنى اليقين؛ لأن ما تقدم من قوله: ﴿قضي الأمر﴾ يلزم ذلك، وقال قتادة: الظن هنا على بابه؛ لأن عبارة الرؤيا^(١) ظن.

قال * ع^(٢): * وقول يوسف عليه السلام: ﴿قضي الأمر﴾: دال على وخي، ولا يترتب قول قتادة إلا بأن يكون معنى قوله: ﴿قضي الأمر﴾: أي: قضي كلامي، وقلت ما عندي، وتم، والله أعلم بما يكون بعد، وفي الآية تأويل آخر: وهو أن يكون «ظن» مسنداً إلى الذي قيل له: إنه يسقي ربه خمرأ؛ لأنه داخله السرور بما بُشِّر به، وغلب على ظنه ومعتقدِه أنه ناج.

وقوله: ﴿أذكرني عند ربك﴾: يحتمل أن يريد أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل: أن يذكره بمظلمته، وما أمتحن به بغير حق، أو يذكره بجُملة ذلك، والضمير في «أنساه»

(١) أخرجه الطبري (٢٢٠/٧) برقم: (١٩٣١٧)، وذكره ابن عطية (٢٤٦/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٤٦/٣).

قيل: هو عائذ إلى يوسف، أي: نسي في ذلك الوقت أن يشتكي إلى الله، فروي أن جبريل جاءه، فعائنه عن الله عز وجل في ذلك، قيل: أوجي إليّ: يا يوسف، اتّخذت من دوني وكيلاً، لأطيلن سجنك، والله أعلم بصحتك، وقيل: الضمير في «أنساه» عائذ على الساقى، قاله ابن إسحاق، أي: نسي ذكر يوسف عند ربّه، وهو الملك^(١)، وال «بضع»: اختلف فيه، والأكثر أنه من الثلاثة إلى العشرة؛ قاله ابن عباس^(٢): وعلى هذا فقه مذهب مالك في الدعاوى والأيمان، وقال قتادة: ال «بضع»: من الثلاثة إلى التسعة^(٣)، ويقوي هذا قوله ﷺ لأبي بكر الصديق في قصة خطره مع قريش في غلبة الروم لفارس: «أما علمت أن البضع من الثلاث إلى التسع»^(٤).

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ إِنِّي أُنَبِّئُكَ فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنُوزَ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣) ﴿قَالُوا أَضَلَّكَ أَهْلُكَ وَمَا تَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ (٤٤) ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥)

وقوله سبحانه: ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف﴾: روي أنه قال: رأيتهما خارجة من نهر، وخرجت وراءها سبع عجاف، فأكلت تلك السمان، وحصلت في بطونها، ورأى السنبال أيضاً؛ كما ذكر، وال «عجاف»: التي بلغت غاية الهزال، ثم قال لحاضريه: ﴿يأيها المأأفوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾، وعبرة الرؤية: مأخوذة من عبر النهر، وهو تجاوزه من شط إلى شط، فكأن عابر الرؤيا ينتهي إلى آخر تأويلها.

قال ص * : وإنما لم يصف «سبع» إلى عجاف؛ لأن اسم العدد لا يضاف إلى الصفة إلا في الشعر، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿قالوا أضغاث أحلام...﴾ الآية: «الضغث»: في كلام العرب: أقل من الحزمة، وأكثر من القبضة من النبات والعشب ونحوه، وربما كان ذلك من جنس

(١) أخرجه الطبري (٢٢٢/٧) برقم: (١٩٣٢٩)، وذكره ابن عطية (٢٤٧/٣)، والسيوطي (٣٧/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٢/٧) برقم: (١٩٣٣٦)، والسيوطي (٣٨/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٢٢٢/٧) برقم: (١٩٣٣٤)، وذكره ابن عطية (٢٤٧/٣)، وابن كثير (٤٧٩/٢)، والسيوطي (٣٨/٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٢/٥ - ٣٤٣) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الروم، حديث (٣١٩١) من طريق الزهري، عن عبيد الله بن عتبة، عن ابن عباس به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث الزهري، عن عبيد الله، عن ابن عباس.

واحد، وربما كان من أخلاط النبات، والمعنى: أن هذا الذي رأيت أيها الملك اختلاط من الأحلام بسبب النوم، ولسنا من أهل العلم بما هو مختلط ورديء، و﴿الأحلام﴾: جمع حلم، وهو ما يخيّل إلى الإنسان في منامه، والأحلام والرؤيا ممّا أثبتته الشريعة، وقال رسول الله ﷺ: «الرؤيا من الله، وهي من المَـبْشُـرَةِ والحُلُمُ المُخْزَنُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَّقِلْ عَنْ يَسَارِهِ / ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ مَا رَأَيْتُ، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ»^(١). وما كان عن حديث النفس في اليقظة، فإنه لا يلتفت إليه، ولما سمع الساقى الذي نجا هذه المقالة من المَلِكِ، ومُراجَعَة أصحابه، تذكّر يوسف، وعلمه بالتأويل، فقال مقالته في هذه الآية، «وَأَذْكُرُ»: أصله: «أَذْكُرُ» من الذِّكْر، فقلبت التاء دالاً، وأدغم الأول في الثاني، وقرأ جمهور الناس^(٢): «بَعْدَ أُمَةٍ»، وهي المدة من الدهر، وقرأ ابن عباس^(٣) وجماعة: «بَعْدَ أُمَةٍ»، وهو النسيان، وقرأ مجاهد^(٤) وشبل: «بَعْدَ أُمَةٍ» - بسكون الميم -، وهو مضدٌّ من «أُمَةٍ»؛ إذا نسي، ويقول: «أَذْكُرُ» يقوِّي قول من قال: إن الضمير في «أنساه» عائِد على الساقى، والأمر محتمل، وقرأ الجمهور^(٥): «أَنَا أَنْبِئُكُمْ»، وقرأ

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٥٧/٢) كتاب «الرؤيا» باب: ما جاء في الرؤيا، حديث (٢)، والبخاري (٣٣٨/٦) كتاب «بدء الخلق» (باب: صفة إبليس وجنوده، حديث (٣٢٩٢)، ومسلم (١٧٧٢/٤)، كتاب «الرؤيا»، حديث (٢٢٦١/٢)، وأبو داود (٧٢٤/٢) كتاب «الأدب» باب: ما جاء في الرؤيا، حديث (٥٠٢١)، والترمذي (٥٣٥ - ٥٣٦/٤) كتاب «الرؤيا» باب: إذا رأى في المنام ما يكره ما يصنع، حديث (٢٢٧٧)، وابن ماجه (١٢٨٦/٢) كتاب «تعبير الرؤيا» باب: من رأى رؤيا يكرهها، حديث (٣٩٠٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٩٧، ٩٠٠ - ٩٠١)، وأحمد (٣١٠/٥)، وابن أبي شيبة (٧٠/١١)، والدارمي (١٢٤/٢)، وابن حبان (٤٢٣/١٣ - ٤٢٤) برقم: (٦٠٥٩)، والبيهقي في «شرح السنة» (٢٩٤/٦ - بتحقيقنا)، كلهم من طريق يحيى بن سعيد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي قتادة به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٤٩/٣).

(٣) وقرأ بها ابن عمر، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وأبو رجاء، وقتادة، وشيئل بن عزة الضبي، وربيعة بن عمرو، وزيد بن علي.

ينظر: «الشواذ» (٦٨)، و«المحتسب» (٣٤٤٨)، و«البحر المحيط» (٣١٣/٥)، و«الدر المصون» (٤/١٨٨).

(٤) قال الزمخشري: ومن قرأ بسكون الميم فقد خطيء. (يعني: أثم) وقال مثله أبو عبيد كما في «اللسان» (أمة).

ينظر: «الكشاف» (٤٧٦/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٤٩/٣)، و«البحر المحيط» (٣١٣/٥)، و«الدر المصون» (٤/١٨٨).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٤٩/٣).

الحسن بن أبي الحسن^(١): «أَنَا آتِيكُمْ»، وكذلك في مُضْحَف أَبِي.

وقوله: ﴿فَارْسَلُون﴾: أَسْتِثْذَان فِي الْمُضْيِي.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عَجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنبُلَةٍ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَنَا إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ (٤٩)

وقوله: ﴿يوسف أيها الصديق أفتنا﴾: المعنى: فجاء الرسول، وهو الساقى، إلى يوسف، فقال له: يوسف أيها الصديق، وسمّاه صديقاً من حيث كَانَ جَرَّبَ صدقه في غَيْرِ مَا شَيْءٍ، وهو بناء مبالغة مِنَ الصَّدَق، ثم قال له: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾، أي: فَيَمْنِ رَأَى فِي الْمَنَامِ سَبْعَ بَقَرَاتٍ.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: تأويل هذه الرؤيا، فيزول هَمُّ الْمَلِكِ لذلك، وَهُمْ النَّاسُ، وقيل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ مكانتكَ مِنَ الْعِلْمِ، وَكُنْهُ فَضْلِكَ؛ فيكون ذلك سبباً لَتَخْلُصَكَ وَ﴿دَابًّا﴾: معناه: ملازمةً لِعَادَتِكُمْ فِي الزَّرَاعَةِ.

وقوله: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنْبُلَةٍ﴾: إشارة برأى نافع؛ بحسب طعام مِضْرٍ وَجَنَظَتِهَا التي لا تَبْقَى عامين بوجهٍ إِلَّا بِحِيلَةٍ إِبْقَائِهَا فِي السُّنْبُلِ، وَالْمَعْنَى: أَتْرَكُوا الزَّرْعَ فِي السُّنْبُلِ إِلَّا مَا لَا غِنَى عَنْهُ لِلْأَكْلِ فيجتمع الطَّعَامُ هَكَذَا، وَيَتَرَكَّبُ وَيُؤْكَلُ الْأَقْدَمُ فالأقدم، وروي أَنَّ يوسُفَ عليه السلام لَمَّا خَرَجَ وَوَصَفَ هَذَا التَّرْتِيبَ لِلْمَلِكِ، وَأَعْجَبَهُ أَمْرُهُ، قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: قَدْ أَسْنَدْتُ إِلَيْكَ تَوَلَّى هَذَا الْأَمْرَ فِي الْأَطْعِمَةِ هَذِهِ السَّنِينَ الْمُقْبِلَةِ، فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ مَا وَلَّى يوسُفَ، وَ﴿تُحْصِنُونَ﴾ معناه: تَحْرِزُونَ وَتَحْزِنُونَ؛ قاله ابن عباس^(٢)، وَهُوَ مَاخُذٌ مِنَ الْحِصْنِ، وَهُوَ الْجِرْزُ وَالْمَلْجَأُ؛ وَمِنْهُ: تَحْصُنُ النِّسَاءُ؛ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى التَّحْرِزِ.

وقوله: ﴿يَغَاثُ النَّاسُ﴾: جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْغَيْثِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٣)،

(١) وقرأ بها الحجاج، والحسن، ويحيى بن يعمر.

ينظر: «الشواذ» (٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٢٤٩/٣)، و«الكشاف» (٤٧٦/٢)، و«البحر المحيط» (٥/٣١٤)، و«الدر المصون» (١٨٩/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٩/٧) برقم: (١٩٣٨١)، وذكره البغوي (٤٢٩/٢)، وابن عطية (٢٥١/٣)، والسيوطي (٤١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٢٣٠/٧) برقم: (١٩٣٨٧)، وذكره البغوي (٤٣٠/٢)، بلا نسبة، وابن عطية (٣/٢٥١)، والسيوطي (٤١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وجمهور المفسرين، أي: يُمَطَّرُونَ، وجائز أن يكون من أغاثهم الله: إذا فَرَجَ عنهم؛ ومنه العَوْتُ، وهو الفَرَجُ، ﴿وفيه يَغْصِرُونَ﴾: قال جمهور المفسرين: هي من عَصَرَ النباتات، كالزيتون، والعنب، والقصب، والسَّمْسِم، والفجل، ومِضْرُ بَلَدٍ عَصِرَ لأشياء كثيرة.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَافٍ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ هَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْغَالِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقال الملك أتتوني به فلما جاءه الرسول...﴾ الآية: لما رأى المَلِكُ وحاضروه ثُبُلَ التَّغْيِيرِ وحُسْنَ الرَّأْيِ، وتضمَّن الغيب في أمر العام الثامن، مع ما وُصِفَ به من الصَّدْقِ عَظَمَ يوسُفُ في نفس الملك، وقال: ﴿أتتوني به فلما جاءه الرسول قال أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾: يعني: المَلِكُ، ﴿فَأَسْأَلُهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، وقضده عَلَيْهِ السلام بيان براءته، وتحقق منزلته من العِفَّةِ وَالْخَيْرِ، فرسم القصة بطرف منها، إذا وقع النظر عَلَيْهِ، بان الأمر كله، وَنَكَبَ عن ذكرِ أُمْرَأَةِ الْعَزِيزِ؛ حُسْنُ عِشْرَةٍ ورعاية لِدِمَامِ مُلْكِ الْعَزِيزِ له، وفي «صحيح البخاري»، عن عبد الرحمن / بن القاسم صاحب مالِك، عن النبي ﷺ: «وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السُّجْنِ لَبِثْتُ يُوسُفَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ»^(١): المعنى: لو كُنْتُ أَنَا، لَبَادَزْتُ بالخروج، ثم حاولْتُ بيان عُذْرِي بَعْدَ ذَلِكَ؛ وذلك أَنَّ هذه القصص والنوازل، إنما هي معرُضة ليقْتي النَّاسُ بها إلى يوم القيامة، فأراد ﷺ حَمْلَ النَّاسِ عَلَى الْأَحْزَمِ مِنَ الْأُمُورِ؛ وذلك أَنَّ التَّارِكَ لِمِثْلِ هَذِهِ الْقُرْصَةِ رَبُّمَا نَتَجَّ لَهُ بِسَبَبِ التَّأْخِيرِ خِلَافٌ مَقْصُودُهُ، وَإِنْ كَانَ يوسُفُ قَدْ أَمِنَ ذَلِكَ؛ بِعِلْمِهِ مِنَ اللَّهِ، فغیره من النَّاسِ لَا يَأْمَنُ ذَلِكَ، فَالْحَالَةُ الَّتِي ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِنَفْسِهِ إِلَيْهَا حَالَهُ حَزْمٍ وَمَدْحٍ؛ لِيَقْتَدِيَ بِهِ، وَمَا فَعَلَهُ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَالَهُ صَبْرٍ وَتَجَلُّدٍ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(٢): وَأَنْظِرْ إِلَى عَظِيمِ حِلْمِ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوُفُورِ أَدْبِهِ، كَيْفَ قَالَ: ﴿مَا بَالَ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، فَذَكَرَ النَّسَاءَ جَمْلَةً؛ لِتَدْخُلَ فِيهِنَّ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ مَدْخَلَ الْعَمُومِ؛ بِالتَّلْوِيحِ دُونَ التَّصْرِيحِ. وَهَذِهِ كَانَتْ أَخْلَاقُ نَبِينَا مُحَمَّدٍ ﷺ، لَا يَقَابِلُ أَحَدًا بِمَكْرُوهِهِ، وَإِنَّمَا يَقُولُ: «مَا بَالَ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا»، مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ، وَبِالْجَمْلَةِ فَكُلُّ خُضْلَةٍ حَمِيدَةٍ مَذْكُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ اتَّصَفَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَصْفِيَاءُ، فَقَدْ

(١) تقدم تخريجه وهو حديث: «نحن أحق بالشك من إبراهيم».

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٩١/٣).

أَتَصَفَّ بِهَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، إِذْ كَانَ خَلَقَهُ الْقُرْآنُ، كَمَا رَوَتْهُ عَائِشَةُ فِي الصَّحِيحِ، وَكَمَا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] انتهى.

وقوله: ﴿إِنْ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ عَلِيمٌ﴾، فِيهِ وَعِيدٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾: الْمَعْنَى: فَجَمَعَ الْمَلِكُ النِّسْوَةَ، وَأَمْرًا الْعَزِيزِ مَعَهُنَّ، وَقَالَ لَهُنَّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ...﴾ الْآيَةُ: أَي: أَيُّ شَيْءٍ كَانَتْ قَصَصُكُنَّ، فَجَاوَبَ النِّسَاءُ بِجَوَابٍ جَيِّدٍ، تَظْهَرُ مِنْهُ بَرَاءَةُ أَنْفُسِهِنَّ، وَأَعْطَيْنَ يَوْسُفَ بَعْضَ بَرَاءَةٍ، فَقُلْنَ: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾، فَلَمَّا سَمِعَتْ أَمْرًا الْعَزِيزِ مَقَالَتَهُنَّ وَحَيْدَتَهُنَّ، حَضَرَتْهَا نِيَّةٌ وَتَحْقِيقٌ، فَقَالَتْ: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾، أَي: تَبَيَّنَ الْحَقُّ بَعْدَ خَفَائِهِ؛ قَالَ الْخَلِيلُ وَغَيْرُهُ، قَالَ الْبَخَارِيُّ: حَاشَ وَحَاشَى: تَنْزِيَةٌ وَأَسْتِثْنَاءٌ، وَحَصْحَصَ: وَضَحَ. انتهى.

ثُمَّ أَقْرَأَتْ عَلَى نَفْسِهَا بِالْمَرَاوِدِ، وَالتَّرَمَّتِ الذَّنْبَ، وَأَبْرَأَتْ يَوْسُفَ الْبَرَاءَةَ التَّامَّةَ. وقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: اخْتَلَفَ فِيهِ أَهْلُ التَّأْوِيلِ، هَلْ هُوَ مِنْ قَوْلِ يَوْسُفَ أَوْ مِنْ قَوْلِ أَمْرَةِ الْعَزِيزِ.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَنِي بِذِهِ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا سَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُفِصِلُ بَرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٥٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقال الملك أتتوني به أستخلصه لنفسي﴾: المعنى: أن الملك، لَمَّا تَبَيَّنَتْ لَهُ بَرَاءَةُ يَوْسُفَ وَتَحَقَّقَ فِي الْقِصَّةِ أَمَانَتُهُ، وَفَهُمْ أَيْضًا صَبْرُهُ وَعُلُوُّ هِمَّتِهِ، عَظُمَتْ عَنْدهُ مَنْزِلَتُهُ، وَتَيَقَّنَ حُسْنَ خِلَالِهِ، فَقَالَ: ﴿أتتوني به أستخلصه لنفسي﴾، فَلَمَّا جَاءَهُ وَكَلَّمَهُ قَالَ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(١): قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: أَي: مَتَمَكَّنَ مِمَّا أَرَدْتُ، أَمِينٌ عَلَى مَا أَتُّمِّنْتُ عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ؛ أَمَّا أَمَانَتُهُ فَلِظْهَرِ بَرَاءَتِهِ، وَأَمَّا مَكَانَتُهُ، فَلِثَبُوتِ عَقْدَتِهِ وَنِزَاهَتِهِ / انتهى، وَلَمَّا فَهِمَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ٢٥٦ بَ مِنْ الْمَلِكِ أَنَّهُ عَزَمَ عَلَى تَصْرِيفِهِ وَالْإِسْتِعَانَةَ بِنَظَرِهِ، قَالَ: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾، لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادَةِ.

قال * ع^(٢): وَطَلَبَةُ يَوْسُفَ لِلْعَمَلِ إِنَّمَا هِيَ جِسْبَتُهُ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رَغْبَتِهِ فِي أَنْ

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٩١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦).

يقع العدل، وجائز أيضاً للمرء أن يُثني على نفسه بالحق، إذا جهل أمره، والـ ﴿خزائن﴾: لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره.

وقوله سبحانه: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾: الإشارة بـ «ذلك» إلى جميع ما تقدم من جميل صنع الله به، فروي أن العزيز مات في تلك الليالي، وقال ابن إسحاق: بل عزله الملك^(١)، ثم مات أظفير، فولاه الملك مكانه، وزوجه زوجته، فلما دخلت عليه عروساً، قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت أردت، فدخل يوسف بها، فوجدها بكرراً، وولدت له ولدَيْن، وروي أيضاً: أن الملك عزل العزيز، وولى يوسف موضعه، ثم عظم ملك يوسف وتغلب على حال الملك أجمع، قال مجاهد: وأسلم الملك آخر أمره^(٢)، ودرس أمر العزيز، وذهبت دنياه، ومات، وأفقرت زوجته، وشاخت، فلما كان في بعض الأيام، لقيت يوسف في طريق، والجنود حوله ووراءه، وعلى رأسه بُنود عليها مكتوب: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي أَذْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] فصاحت به، وقالت: سُبْحَانَ اللَّهِ مَنْ أَعَزَّ الْعَبِيدَ بِالطَّاعَةِ، وأذل الأرباب بالمعصية، فعرفها، وقالت له: تَعَطَّفَ عَلَيَّ وَأَرْزُقْنِي شَيْئاً، فدعا لها، وكلمها، وأشفق لحالها، ودعا الله تعالى فرد عليها جمالها، وتزوجها، وروي في نحو هذا من القصص ما لا يُوقَفُ عى صحته، ويطول الكلام بسوقه، وباقي الآية بين واضح للمستبصرين، ونور وشفاء لقلوب العارفين.

وقوله: «لِيُيُوسِفَ»: أبو البقاء: اللام زائدة، أي: مكنا يوسف، ويجوز ألا تكون زائدة، فالمفعول محذوف، أي: مكنا ليوسف الأمور. انتهى.

﴿وَجَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ٥٩﴾ فَإِنْ لَرْتَأُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ٦١﴾ وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ أَجْمَلُوا بِضْعَتَهُمَا فِي رِحَالِهِمَا لَعَلَّهُمَا يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَيْنَا فَأَرْسِلْهُمَا لَهُمَا بِرِجْمَتٍ ٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِمَا قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا خَافَا أَنْ نَكْتَلُ وَإِنَّا لَمَحْفُطُونَ ٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا

(١) أخرجه الطبري (٢٤٢/٧) برقم: (١٩٤٦٦)، وذكره البغوي (٤٣٣/٢)، وابن عطية (٢٥٦/٣)، وابن كثير (٤٨٢/٢)، والسيوطي (٤٦/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٢/٧) برقم: (١٩٤٦٩)، وذكره البغوي (٤٣٣/٢)، وابن عطية (٢٥٦/٣)، والسيوطي (٤٤/٤)، وعزاه لابن جرير.

مَتَّعَهُمْ وَجَدُوا بِصَنَعِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِصَنَعِنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمْتُمْ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

وقوله عز وجل: ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾، قال السدي^(١) وغيره: سبب مجيئهم أن المجاعة اتصلت ببلاؤهم، وكان الناس يمتارون من عند يوسف، وهو في رتبة العزيز المتقدم، وكان لا يعطي الوارد أكثر من حملٍ بعير يسوي بين الناس، فلما ورد إخوته، عرفهم، ولم يعرفوه لبُعْدِ العهد وتغير سنه، ولم يقع لهم بسبب ملكه ولسانه القبطي ظنٌ عليه، وروي في بعض القصص، أنه لما عرفهم أراد أن يخبروه بجميع أمرهم، فباحثهم بأن قال لهم بتزجمان: «أظنكم جواسيس»، فأحتاجوا حينئذٍ إلى التعريف بأنفسهم، فقالوا: نحن أبناء رجلٍ صديق، وكنا اثني عشر ذهب منا واحد في البرية، وبقي أصغرنا عند أبينا، وجئنا نحن للميرة، وسقنا بعير الباقي منا، وكنا عشرة، ولهم أحد عشر بعيراً، فقال لهم يوسف: ولم تخلف أحدكم؟ قالوا: لمحبة أبينا فيه، قال: فاتوا بهذا الأخ؛ حتى / أعلم حقيقة قولكم، وأرى لِمَ أحبه أبوكم أكثر منكم؛ إن كنتم صادقين، وروي في القصص أنهم وزدوا مضراً وأستاذنوا على العزيز، وأنتسبوا في الاستئذان، فعرفهم، وأمر بإنزالهم وأدخلهم في ثاني يوم على هيئة عزيمة لملكه، وروي أنه كان مثلثاً أبداً شتراً لجماله، وأنه كان يأخذ الصواع، فينقره، ويفهم من طينه صدق الحديث من كذبه، فسئلوا عن أخبارهم، فكلما صدقوا، قال لهم يوسف: صدقتم، فلما قالوا: وكان لنا أخ أكله الذئب، أظن يوسف الصواع، وقال: كذبتم، ثم تغير لهم، وقال: أراكم جواسيس، وكلّفهم سوق الأخ الباقي؛ ليظهر صدقهم في ذلك؛ في قصص طويل، جاءت الإشارة إليه في القرآن، «والجهاز» ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع.

وقوله: ﴿بأخ لكم﴾ * ص: * نكره، ليريهام أنه لا يعرفه، وفزق بين غلام لك، وبين غلامك، ففي الأول أنت جاهل به، وفي الثاني أنت عالم، لأن التعريف به يفيد نوع عهد في الغلام بينك وبين المخاطب، انتهى.

وقول يوسف: ﴿ألا ترون أنني أوفي الكيل...﴾ الآية: يرغبهم في نفسه آخراً

(١) أخرجه الطبري (٢٤٣/٧) برقم: (١٩٤٧١)، وذكره ابن عطية (٣/٢٥٧ - ٢٥٨).

وَيُؤْتِسَهُمْ وَيَسْتَمِيلُهُمْ، و﴿الْمُتَرَلِّينَ﴾: يعني: المُضِيفِينَ، ثم تَوَعَّدَهُمْ بقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون﴾، أي: في الْمُسْتَأْنَفِ، وروي عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ يُوسُفُ يُلْقِي حَصَاةً فِي إِنَاءٍ فِضَّةٍ مَخُوصٍ بِالذَّهَبِ فَيَطْرُقُ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الْإِنَاءَ يُخْبِرُنِي أَنَّ لَكُمْ أَبَا شَيْخًا»، وَرَوَى أَنَّ ذَلِكَ الْإِنَاءَ بِهِ كَانَ يَكِيلُ الطَّعَامَ، إِظْهَاراً لِعِزَّتِهِ بِحَسَبِ غَلَائِهِ، وَرَوَى أَنَّ يوسُفَ اسْتَوْفَى فِي تِلْكَ السَّنِينَ أَمْوَالَ النَّاسِ، ثُمَّ أَمْلَاكَهُمْ، وَظَاهَرَ كُلُّ مَا فَعَلَهُ يوسُفُ مَعَهُمْ أَنَّهُ بُوخِي وَأَمْرٍ، وَإِلَّا فَكَانَ يَرَى يَعْقُوبَ يَقْتَضِي أَنْ يَبَادِرَ إِلَيْهِ وَيَسْتَدْعِيهِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمَهُ بِمَا يَصْنَعُ؛ لِيَكْمَلَ أَجْرَ يَعْقُوبَ وَمِخْتَتَهُ، وَتَنْفَسَرَ الرُّؤْيَا الْأُولَى.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾: يريد: لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَ لَهَا يَدَا وَتَكْرِمَةً يَرْزُونَ حَقَّهَا؛ فَيَرْغَبُونَ فِي الرَّجُوعِ إِلَيْنَا، وَأَمَّا مِيزُ الْبِضَاعَةِ، فَلَا يُقَالُ فِيهِ: «لَعَلُّ» وَقِيلَ: قَصْدُ يوسُفَ بِرَدِّ الْبِضَاعَةِ أَنْ يَتَحَرَّجُوا مِنْ أَخْذِ الطَّعَامِ بِهَا ثَمَنٍ، فَيَرْجِعُوا لِدَفْعِ الثَّمَنِ، وَهَذَا ضَعِيفٌ مِنْ وَجْهِهِ، وَسَرُورُهُمْ بِالْبِضَاعَةِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا﴾ يَكْشِفُ أَنَّ يوسُفَ لَمْ يَقْصِدْ هَذَا، وَإِنَّمَا قَصْدُ أَنْ يَسْتَمِيلَهُمْ، وَيَصْلَهُمْ، وَيُظْهِرُ أَنَّ مَا فَعَلَهُ يوسُفَ مِنْ صَلَتِهِمْ وَجَبَرَهُمْ فِي تِلْكَ الشَّدَّةِ كَانَ وَاجِباً عَلَيْهِ، وَقِيلَ: عَلِمَ عَدَمَ الْبِضَاعَةِ وَالْدَّرَاهِمِ عِنْدَ أَبِيهِ؛ فَزَدَ الْبِضَاعَةَ إِلَيْهِمْ؛ لِئَلَّا يَمْنَعَهُمُ الْعُدَمُ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: جَعَلَهَا تَوَطُّنَةً لَجَعَلِ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ، لِيَبَيِّنَ أَنَّهُ لَمْ يَسْرِقْ لِمَنْ يَتَأَمَّلُ الْقِصَّةَ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْقِصَّةِ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ الْأَسْتِثْلَافَ وَصِلَةَ الرَّجَمِ، وَأَضَلَّ «تَكْتَلُ»: «نَكْتَلُ»، وَقَوْلُهُمْ: ﴿مُنِجٌ مَنَا الْكَيْلُ﴾: ظَاهِرُهُ أَنَّهُمْ أَشَارُوا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾، فَهُوَ خَوْفٌ فِي الْمُسْتَأْنَفِ، وَقِيلَ: أَشَارُوا إِلَى بَعِيرِ يَامِينَ، وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ، ثُمَّ تَضَمَّنُوا لَهُ حِفْظَهُ وَحَيْطَتَهُ، وَقَوْلُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَلْ آمَنَ كُمْ عَلَيْهِ...﴾ الْآيَةُ: «هَلْ» تَوْقِيفٌ وَتَقْرِيرٌ / وَلَمْ يَصْرَحْ بِمَنْعِهِمْ مِنْ حَمَلِهِ؛ لِمَا رَأَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، لَكِنَّهُ أَعْلَمَهُمْ بِقَلَّةِ طَمَأْنِينَتِهِ إِلَيْهِمْ، وَلَكِنْ ظَاهِرُ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ سُتْحَانَهُ، وَانْتَقَلَتْ حَالُهُمْ، فَلَمْ يَخَفْ عَلَى يَامِينَ، كَخَوْفِهِ عَلَى يوسُفَ، وَقَرَأَ نَافِعٌ وَغَيْرُهُ^(١): «خَيْرٌ حَفْظًا»، وَقَرَأَ حَمْزَةً وَغَيْرُهُ: «خَيْرٌ حَافِظًا»، وَنَصَبَ ذَلِكَ فِي الْقَرَاءَتَيْنِ؛ عَلَى التَّمْيِيزِ وَالْمَعْنَى: أَنَّ حَفِظَ اللَّهُ خَيْرٌ مِنْ حَفِظِكُمْ، فَاسْتَسْلَمَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ

ب ٢٥٧

(١) وَحِجَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُمْ قِيلَ: «وَنَحْفِظُ أَخَانَا»، فَلَمَّا أَضَافُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ، قَالَ يَعْقُوبُ: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفْظًا» أَيَّ مَنْ حَفِظَكُمْ الَّذِي نَسْتَمِوهُ إِلَى أَنْفُسِكُمْ.

وَحِجَّةُ الْبَاقِينَ: قَوْلُهُمْ قِيلَ: «وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ»، فَقَالَ يَعْقُوبُ رَادًّا عَلَيْهِمْ: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا».

يَنْظُرُ: «الْعُنُودُ» (١١١)، وَ«شَرْحُ الطَّبِيعَةِ» (٣٨٦/٤)، وَ«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٤٤٠)، وَ«إِعْرَابُ الْقَرَاءَاتِ» (١/٣١٤).

السلام لله، وتوكل عليه، وقولهم: ﴿ما نبغي﴾: يحتمل أن تكون «ما» أستفهاماً؛ قاله قتادة: و﴿نبغي﴾: من البُغْيَة، أي: ماذا نَطْلُبُ بَعْدَ هذه التَّكْرَمَةِ؛ هذا مَالُنَا رُدُّ إلينا مع مِيرَتِنَا، قال الزُّجَاجُ^(١): ويحتمل أن تكون «ما» نافية، أي: ما بقي لنا ما نَطْلُبُ، ويحتمل أن تكون أيضاً نافية، و﴿تَبْغِي﴾ من البَغْيِ، أي: ما تَعَدُّنَا فَكَذَّبْنَا على هذا المَلِكِ، ولا في وَصْفِ إجماله وإكرامه، هذه البضاعة رُدَّتْ إلينا، وقرأ أبو حنيفة^(٢): «ما تَبْغِي»؛ على مخاطبة يعقوب، وهي بمعنى ما تُرِيدُ، وما تطلب وقولهم: ﴿ونزداد كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ يريدون بَعِيرَ أَخِيهِمْ؛ إذ كان يوسفُ إنما حمل لهم عَشْرَةَ أَبْعَرَةٍ، ولم يحملِ الحَادِيَّ عشر؛ لغيب صاحبه، وقولهم: ﴿ذلك كَيْلٌ يسير﴾: قيل: معناه: يسيرٌ على يوسف أن يعطيه.

وقال السُّدِّيُّ: ﴿يسير﴾، أي: سريع لا تُحْبَسُ فيه ولا تُمَظَلُّ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فلما آتوه موثقهم﴾ الآية: أي لما عاهدوه، أشهد الله بينه وبينهم بقوله: ﴿الله على ما نقول وكيل﴾، و«الوكيل»: القيم الحافظ الضامن.

وقوله: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾: لفظ عام لجميع وجوه الغلبة، وأنظر أن يعقوب عليه السلام قد توثق في هذه القصة، وأشهد الله تعالى، ووصى بنيه، وأخبر بعد ذلك بتوكله، فهذا توكل مع سبب، وهو توكل جميع المؤمنين إلا مَنْ شَدَّ في رَفْضِ السَّغْيِ بالكَلِيَّةِ، وَقَنَعَ بالماء وبَقِلَ البرِّيَّةِ، فتلك غاية التوكل، وعليها بعض الأنبياء عليهم السلام، والشارعون منهم مثبتون سُنَنُ التسبب الجائر، قال الشيخ العارف بالله عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَمْرَةَ رضي الله عنه: وقد أشتمل القرآن على أحكام عديدة، فمنها: التعلق بالله تعالى، وترك الأسباب، ومنها: عمل الأسباب في الظاهر، وَخَلُّو الباطن من التعلق بها، وهو أجْلُها وأزكاها؛ لأن ذلك جَمْعٌ بين الحكمة وحقيقة التوحيد، وذلك لا يَكُونُ إلا للأفذاذ الذين مَنَّ الله عليهم بالتوفيق؛ ولذلك مَدَحَ الله تعالى يعقوب عليه الصلاة والسلام في كتابه، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨] لأنه عمل الأسباب، وأجتهد / في توفيتها، وهو مقتضى الحكمة، ثم رَدَّ الأمر كله لله تعالى، وأستسلم إليه، وهو حقيقة ١٢٥٨ التوحيد، فقال: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ...﴾ الآية، فأثنى

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٣/١١٨).

(٢) وهي قراءة ابن مسعود كما في «الكشاف» (٢/٤٨٦)، وينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٢٦٠)، و«البحر المحيط» (٥/٣٢١)، و«الدر المصون» (٤/١٩٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/٢٦١).

اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ جَمْعِهِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ .

وقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾: قيل: خَشِيَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ، لكونهم أَحَدَ عَشَرَ لرجلٍ واحدٍ، وكانوا أَهْلَ جَمَالٍ وَبَسْطَةٍ؛ قاله ابن عباس وغيره^(١).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَلَهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنَّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾، روي أنه لَمَّا ودَّعُوا آبَاهُمْ، قال لهم: بَلَّغُوا مَلِكَ مُضَرَ سَلَامِي، وقولوا له: إِنَّ أَبَانَا بِصَلِّيَ عَلَيْكَ، وَيَذْعُو لَكَ، وَيَشْكُرُ صَنِيعَكَ مَعَنَا، وفي كتاب أبي مَنْصُورِ المِهْرَانِيِّ أَنَّهُ خَاطَبَهُ بِكِتَابِ قُرَيْءٍ عَلَى يَوْسُفَ، فَبَكَى.

وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ يَغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾: بمثابة قولهم: لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ دَفْعٌ قَدَرِ اللَّهِ، بل كَانَ أَرْبَاباً لِيَعْقُوبَ قَضَاهُ، فالاستثناء ليس من الأول، والحاجة هي أَنْ يَكُونَ طَيِّبَ النَّفْسِ بِدُخُولِهِمْ مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ؛ خَوْفَ الْعَيْنِ، ونظير هذا الفعل أَنْ النَّبِيَّ ﷺ سَدَّ كُوَّةَ فِي قَبْرِ بِحَجَرٍ، وقال: «إِنَّ هَذَا لَا يُغْنِي شَيْئاً، وَلَكِنَّهُ تَطْيِيبٌ لِنَفْسِ الْحَيِّ»، ثم أَثْنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى يَعْقُوبَ؛ بِأَنَّهُ لَقِّنَ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى، وَأَنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَيْسَ كَذَلِكَ، وقال قتادة: معناه: لِعَامِلٍ بِمَا عَلَّمَنَاهُ^(٢)، وقال سفيان: مَنْ لَا يَعْمَلُ لَا يَكُونُ عَالِماً^(٣).

قال * ع^(٤): * وهذا لا يعطيه اللفظ، أمَّا أَنَّهُ صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ يَرْجُّحُهُ الْمَعْنَى وَمَا تَقْتَضِيهِ مَنَزَلَةُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ قال ابنُ إِسْحَاقَ وغيره: أَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ أَخُوهُ حَقِيقَةً، وَأَسْتَكْتَمَهُ، وقال له: لَا تَبَالِ بِكُلِّ مَا تَرَاهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ فِي تَحْلِيلِي فِي أَخْذِكَ مِنْهُمْ، وَكَانَ

(١) أخرجه الطبري (٢٤٩/٧) برقم: (١٩٤٩٦)، وذكره ابن عطية (٢٦١/٣)، وابن كثير (٤٨٤/٢)، والسيوطي (٤٩/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٠/٧) برقم: (١٩٥٠٦)، وذكره ابن عطية (٢٦٢/٣)، وابن كثير (٢٨٤/٢)، والسيوطي (٤٩/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٢٥٠/٧) برقم: (١٩٥٠٨)، وذكره ابن عطية (٢٦٢/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٦٢/٣).

يَا مِائِينَ شَقِيقَ يُوسُفَ.

وقوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: يحتمل أن يشير إلى ما عمله الإخوة، ويحتمل الإشارة إلى ما عمله فتیان يُوسُفَ من أمر السقاية، ونحو ذلك، و﴿تَبْتَئِسْ﴾: من البؤس، أي: لا تَحْزَنْ، ولا تَهْتَمَّ، وهكذا عبّر المفسرون.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾: هذا من الكيد الذي يَسْرُه الله ليوسف عليه السلام، وذلك أنه كان في دين يَغْقُوبُ؛ أن يُسْتَبْعَدَ السارق، وكان في دين مِصْرَ؛ أن يُضْرَبَ، وَيُضْعَفَ عليه العُزْمُ، فعلم يوسف أن إخوته لثقتهم ببراءة سَاحَتِهِمْ سَيَذْعُونُ في السَّرقة إلى حكمهم، فتحيل لذلك، وأستسهل الأمر على ما فيه من رَمِي أبرياء وإدخال الهَمَّ على يَغْقُوبَ وَعَلَيْنِهِمْ؛ لِمَا علم في ذلك من الصَّلاح في الآجِلِ، وبوخِي لا محالة، وإرادة مِنَ الله مُحْتَتُهُمْ بذلك، و﴿السَّقَايَةَ﴾: الإناء الذي به يَشْرَبُ الْمَلِكُ؛ وبه كان يَكِيلُ الطعام للنَّاسِ؛ هكذا نصَّ جمهور المفسرين ابنُ عباس وغيره، وروي أنه كان من فَضَّةٍ^(١)، وهذا قول الجمهور، وكان هذا الْجُعْلُ بِغَيْرِ عِلْمٍ من «يَآمِينَ»؛ / قاله السُّدِّيُّ^(٢) وهو الظاهر، فلما ٢٥٨ ب فَصَلَتِ الْعِيرُ بأوقارها، وخرجت من مصر فيما رَوِيَ أمر بهم فَحْبِسُوا، وأذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون، ومخاطبة العير مجاز، والمراد أربابها.

* ت: قال الهَرَوِيُّ: قوله تعالى: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾: «العير»: الإبل والحمير التي يحمل عليها الأحمال، وأراد أصحاب العير؛ وهذا كقوله ﷺ: «يَا خَيْلَ اللَّهِ، أَزْكَبِي»^(٣) أراد: يَا أَصْحَابَ خَيْلِ اللَّهِ أَزْكَبِي، وأنت «أَيَّا»؛ لَأَنَّهُ لِلْعِيرِ، وهي جماعة، انتهى. فلما

(١) أخرجه الطبري (٢٥٥/٧) برقم: (١٩٥٣٢)، وذكره ابن كثير (٤٨٥/٢)، والسيوطي (٥٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، وأبي الشيخ، وابن منده في «غرائب شعبة»، وابن مردويه، والضياء.

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٣/٧) برقم: (١٩٥٢٧)، وذكره البغوي (٤٣٨/٢).

(٣) قال السخاوي في «المقاصد» ص: (٤٧٣ - ٤٧٤): أخرجه أبو الشيخ في النسخ والمنسوخ من طريق أبي حمزة السكري عن عبد الكريم حدثني سعيد بن جبيرة عن قصة المحاربين، قال: كان ناس أنوا رسول الله ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام، فذكر القصة وفيها فأمر النبي ﷺ فنودي في الناس: يا خيل الله أركبي، فركبوا لا ينتظر فارس فارساً، وللعسكري من حديث عبد الله بن العثني، عن ثمامة، عن أنس =

سمع إخوة يوسف هذه المقالة، أقبلوا عليهم، وساءهم أن يرموا بهذه المثابة، وقالوا: ماذا تفقدون، ليقع التفتيش، فتظهر براءتهم، ولم يلودوا بالإنكار من أول، بل سألوا إكمال الدعوى؛ عسى أن يكون فيها ما تبطل به، فلا يحتاج إلى خصام، قالوا: نفقد صواع المليك، وهو المكيال، وهو السقاية، قال أبو عبيدة: يؤث الصواع؛ من حيث سمي سقاية، ويذكر من حيث هو صاع.

* ت *: ولفظ أبي عبيدة الهروي قال الأخفش: الصاع: يذكر ويؤث، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ فأث، وقال: ﴿لَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ فذكر لأنه عنى به الصواع. انتهى.

وقوله: ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾: أي: لمن دل على سارقه، وجبر الصواع، وهذا جمل.

وقوله: ﴿وأنا به زعيم﴾: حمالة، قال مجاهد: «الزعيم»: هو المؤذن الذي قال أيتها العير^(١) و«الزعيم»: الضامن في كلام العرب.

في حديث ذكره، قال: فنادى منادي رسول الله ﷺ: يا خيل الله اركبي، ومن حديث يوسف بن عطية، عن ثابت، عن أنس أن النبي ﷺ قال لحارثة بن النعمان؟ كيف أصبحت: الحديث وفيه أنه قال: يا نبي الله ادع الله لي بالشهادة فدعا له قال: فتودي يوماً بالخيل: يا خيل الله اركبي، قال: فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد، ولابن عائد في «المغازي»، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة قال: بعث رسول الله ﷺ يومئذ يعني: يوم قريظة يوم الأحزاب منادي ينادي: يا خيل الله اركبي وعزى السهيلي في غزوة حنين من «الروض» هذه اللفظة «لصحيح مسلم» فيحمر، نعم عند ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» حدثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر بن حزم وغيرهما قالوا: لما قدم رسول الله ﷺ إلى بني لحيان، فذكر حديث إغارة بني فزارة على لقاح النبي ﷺ صرخ في المدينة: يا خيل الله اركبوا، وجاءت أحاديث عن علي وخالد بن الوليد، ففي «المستدرک» للحاكم في قصة أويس من حديث أبي نضرة، عن أسير بن جابر، فذكر القصة وقال في آخرها: فنادى علي: يا خيل الله اركبي، وفي الردة للواقدي من رواية عاصم بن عمر، عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم اليمامة: يا خيل الله اركبي، فركبوا وساروا إلى بني حنيفة، وقال أبو داود في «السنن»: باب: النداء عند النفر: يا خيل الله اركبي، وساق في الباب حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ سقى خيلنا خيل الله، وللعسكري من حديث موسى بن نفع الحارثي عن مشيخة من قومه أن النبي ﷺ قال: الأناة في كل شيء خير إلا في ثلاث: إذا صبح في خيل لله فكونوا أول من يشخص. وذكر حديثاً، قال العسكري قوله: يا خيل الله اركبي، هذا على المجاز والتوسع، أراد: يا فرسان خيل الله اركبي، فاختصر لعلم المخاطب بما أراد.

(١) أخرجه الطبري (٢٥٦/٧) برقم: (١٩٥٥٠ - ١٩٥٥١)، وذكره البيهقي (٤٣٩/٢)، وابن عطية (٣/٢٦٤)، والسيوطي (٥١/٤)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾: روي أن إخوة يوسف كانوا رذوا البضاعة الموجودة في الرحال، وتخرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن؛ فلذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾؛ أي: لقد علمتكم منا التحري، وروي أنهم كانوا قد أشتهروا بمضرب صلاح وتعفف، وكانوا يجعلون الأكمة في أفواه إبلهم، لئلا تنال زروع الناس؛ فلذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾، والتاء في «تَاللَّهِ» بدل من الواو، ولا تدخل التاء في القسم إلا في هذا الاسم.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): قال الطبري^(٢): قوله تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ على حذف مضاف، تقديره: جزاؤه استعباد أو استرقاق من وجد في رحله. انتهى.

وقولهم: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾: أي: هذه سُنَّتُنَا وديُنُنَا في أهل السرقة؛ أن يتملك السارق؛ كما تملك هو الشيء المسروق.

وقوله سبحانه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ...﴾ الآية: بدؤه أيضاً من أوعيتهم تمكين للحيلة، وإبعاداً لظهور أنها حيلة، وأضاف الله سبحانه الكيد إلى ضميره؛ لما خرج القدر الذي أباح به ليوسف أخذ أخيه مخرج ما هو في اعتقاد الناس كيد، وقال السدي والضحاك: ﴿كِدْنَا﴾: معناه: صَنَعْنَا^(٣)، و«دين الملك»: فسره ابن عباس بسُلْطَانِهِ^(٤)، وفسره قتادة بالقضاء والحكم^(٥)، وهذا متقارب، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٦): قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٩٨/٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٥٨/٧).

(٣) أخرجه الطبري (٢٦١/٧) برقم: (١٩٥٧٣)، ويرقم: (١٩٥٧٤)، والبغوي (٤٤٠/٢)، وابن عطية (٢٦٥/٣)، والسيوطي (٥١/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٢٦١/٧) برقم: (١٩٥٧٥)، وذكره البغوي (٤٤٠/٢)، وابن عطية (٢٦٦/٣)، والسيوطي (٥١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) أخرجه الطبري (٢٦١/٧) برقم: (١٩٥٧٧ - ١٩٥٧٨)، وذكره ابن عطية (٢٦٦/٣)، والسيوطي (٤/٥٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٦) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٩٩/٣).

كذنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك، إذ كان المَلِكُ لا يَرى أَسْتَرْقَاقَ السَّارِقِ،
٢٥٨ ب وإنما كان دِينُهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمُجْنِي / عليه من السارقِ مِثْلِي السَّرْقَةِ. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾: أَلْتَرَامُ
الإِخْوَةَ لَدَيْنَ يَعْقُوبَ بِأَلَا سَرَقَاقٍ، فَقَضَى عَلَيْهِمْ بِهِ، انْتَهَى.

قال * ع^(١): * : وَالْأَسْتِنَاءُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حِكَايَةُ حَالِ التَّقْدِيرِ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ مَا وَقَعَ
من هذه الحيلة، وروى أبو عمر بن عَبْدَ الْبَرِّ بسنده، عن مالك، عن زيد بن أسلم؛ أنه قال
في قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِنْ نَشَاءٍ﴾: قال: بالعلم، انتهى من «كتاب العلم».

وقوله سبحانه: ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، المعنى: أَنَّ الْبَشَرَ فِي الْعِلْمِ دَرَجَاتٌ،
فكُلُّ عَالِمٍ فَلَا بُدَّ مِنْ أَعْلَمَ مِنْهُ، فإِذَا مِنَ الْبَشَرِ، وَإِذَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَذَا تَأْوِيلُ الْحَسَنِ
وَقَتَادَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ^(٢) وروى أيضاً عن ابن عباس: إِنَّمَا الْعَلِيمُ اللَّهُ، وَهُوَ فَوْقَ كُلِّ^(٣) ذِي
علم.

قال ابن عطاء في «التنوير»: أَعْلَمُ أَنَّ الْعِلْمَ حَيْثُ مَا تَكَرَّرَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، أَوْ فِي
السُّنَّةِ، فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي تَقَارَنُهُ الْخَشْيَةُ، وَتَكْتَفِيهِ الْمَخَافَةُ. انْتَهَى.

قال الشيخ العارف أبو القاسم عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَوْسُفَ اللَّجَائِي رَحِمَهُ اللَّهُ: إِذَا كَمَلَتْ
لِلْعَبْدِ ثَلَاثُ خِصَالٍ، وَصَدَّقَ فِيهَا، تَفَجَّرَ الْعِلْمُ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ، وَهِيَ الزُّهْدُ،
وَالْإِخْلَاصُ، وَالتَّقْوَى، قال: وَلَا مَطْمَعٌ فِي هَذَا الْعِلْمِ الْمَذْكُورِ إِلَّا بَعْدَ مَعَالِجَةِ الْقَلْبِ مِنْ
عَلَلِهِ الَّتِي تَشِينُهُ، كَالْكِبَرِ، وَالْحَسَدِ، وَالْغَضَبِ، وَالرِّيَاءِ، وَالسُّمْعَةِ، وَالْمَحْمَدَةِ وَالْجَاهِ،
وَالشَّرَفِ، وَغُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ، وَالطَّمَعِ، وَالْجِرْصِ، وَالْقَسْوَةِ، وَالْمُدَاهَنَةِ، وَالْحِقْدِ، وَالْعَدَاوَةِ،
وَكُلِّ مَا عَدَدْنَاهُ مِنَ الْعِلَلِ، وَمَا لَمْ نَعُدَّهُ رَاجِعٌ إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ، وَهُوَ حُبُّ الدُّنْيَا، لِأَنَّ حُبَّهَا
عَنْهُ يَتَفَرَّغُ كُلُّ شَرٍّ، وَعَنْهُ يَتَشَعَّبُ كُلُّ قَبِيحٍ، فَإِذَا زَالَتْ هَذِهِ الْعِلَلُ ظَهَرَ الصُّدُقُ،
وَالْإِخْلَاصُ، وَالتَّوَاضُّعُ، وَالْجَلْمُ، وَالْوَرَعُ، وَالْقَنَاعَةُ، وَالزُّهْدُ، وَالصَّبْرُ، وَالرِّضَا، وَالْأُنْسُ،
وَالْمَحَبَّةُ، وَالشُّوقُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالْحُزْنُ، وَقَصْرُ الْأَمَلِ، وَمِزَاجُ النِّيَّةِ بِالْعَمَلِ، فَيَنْبُغُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٦٥ - ٢٦٦).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٢٦٣ - ٢٦٤) برقم: (١٩٥٩٧ - ١٩٥٩٨ - ١٩٥٩٩ - ١٩٦٠٠) ويرقم: (١٩٥٩٠)،
وذكره ابن عطية (٣/ ٢٦٦)، وابن كثير (٢/ ٤٨٦)، والسيوطي (٤/ ٥٣)، وعزاه لابن جرير، وأبي
الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٢٦٣) برقم: (١٩٥٨٧ - ١٩٥٨٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٦٦)، وابن كثير (٢/ ٤٨٦)،
والسيوطي (٤/ ٥٢)، وعزاه للفرياحي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والبيهقي
في «الأسماء والصفات».

العِلْمُ، وَيَنْتَفِي الْجَهْلُ، وَيُضِيءُ الْقَلْبَ بنور إلهي، ويتلأل الإيمان، وتوضح المعرفة، وَيَسُحُّ اليقين، ويتقوى الإلهام، وتبدو الفرائد، ويصفى السر، وتتجلى الأسرار، وتوجد الفوائد. قال رحمه الله: وليس بين العبد والترقي من سفلى إلى علو إلا حب الدنيا؛ فإن الترقي يتعذر من أجل حبها؛ لأنها جاذبة إلى العالم الظلماني، وطباع النفوس لذلك مائلة، فإن أردت أن تقتفي أثر الذاهبين إلى الله تعالى، فاستخف بدنياك، وأنظرها بعين الزوال، وأنزل نفسك عند أخذ القوت منها منزلة المضطر إلى الميتة، والسلام. انتهى.

وروي أن المفتش كان إذا فرغ من رخل رخل، فلم يجد فيه شيئا، استغفر الله عز وجل من فعله ذلك، وظاهر كلام قتادة وغيره؛ أن المستغفر هو يوسف حتى انتهى إلى رخل بنيامين، فقال: ما أظن هذا الفتى رضي بهذا، ولا أخذ شيئا، فقال له إخوته: والله، لا تبرح حتى تفتشه، فهو أطيّب / لنفسك ونفوسنا، ففتش حينئذ، فأخرج السقاية، وروي ١٢٥٩ أن أخوة يوسف لما رأوا ذلك، عثفوا بنيامين، وقالوا له: كيف سرقت هذه السقاية؟ فقال لهم: والله، ما فعلت، فقالوا له: فمن وضعها في رخلك؟ قال: الذي وضع البضاعة في رخلكم، والضمير في قوله: ﴿استخرجها﴾: عائد على السقاية، ويحتمل على السرقة.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (VII) قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنْ لَهُ أَبٌ شَيْعًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (VIII) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَنَا تَطَلُّمُونَ﴾ (IX)

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ أي: قالوا إخوة يوسف: إن كان هذا قد سرق، فغير بدع من أبني راحيل؛ لأن أخاه يوسف قد كان سرق، فهذا من الإخوة إنحاء على أبني راحيل يوسف وبنيامين، وهذه الأقوال منهم عليهم السلام إنما كانت بحسب الظاهر، وموجب الحكم في النازلتين، فلم يغتوا في غيبة ليوسف، وإنما قصدوا الإخبار بأمر جرى؛ ليزول بعض المعرفة عنهم، ويختص بها هذان الشقيقان، وأما ما روي في سرقة يوسف، فالجمهور على أن عمته كانت زنته، فلما شب، أراد يعقوب أخذه منها، فولعت به، وأشفقت من فراقه، فأخذت منطقة إسحاق، وكانت متوارثة عندهم، فنطقت بها من تحت ثيابه، ثم صاحت، وقالت: إني قد فقدت المنطقة، ويوسف قد خرج بها، ففتشت، فوجدت عنده، فاسترقته، حسب ما كان في شرعهم، وبقي عندها حتى ماتت، فصار عند أبيه.

وقوله: ﴿فأسرها يوسف﴾: يعني: أسر الحرة التي حدثت في نفسه من قول الاخوة.

وقوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا...﴾ الآية: الظاهر منه أنه قالها إفصاحاً؛ كأنه أسرَّ لهم كراهيةً مقابلتهم، ثم نَجَّهَهُمْ بقوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾: أي: لسوء أفعالكم، واللَّهِ أعلم؛ أن كان ما وصفتُموه حقاً، وفي اللفظ إشارةً إلى تكذيبهم؛ ومِمَّا يَقْوِي هذا عِنْدِي أَنَّهُمْ تَرَكُوا الشَّفَاعَةَ بأنفسهم، وعدَلُوا إلى الشَّفَاعَةِ بأبيهم عليه السلام، وقالت فرقة: لم يَقُلْ هذا الكلام إلا في نفسه، وإنه تفسيرٌ للذي أسرَّ في نفسه، فكأنَّ المراد: قال في نفسه: أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا، وذكر الطبري هنا قصصاً اختصَّارُهُ أنه لما اسْتَخْرَجَتِ السَّقَايَةُ مِنْ رَحْلِ يَامِينَ، قال إخوته: يَا بَنِي رَاحِيلَ، لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ يَنَالُنَا مِنْ جَهَتِكُمْ، فقال يَامِينَ: بَلْ بَنُو رَاحِيلَ يَنَالُهُمُ الْبَلَاءُ مِنْكُمْ، ذَهَبْتُمْ بِأَخِي، فَأَهْلَكْتُمُوهُ، ووضع هذا الصُّوعَ في رَحْلِي الذي وَضَعَ الدَّرَاهِمَ في رَحَالِكُمْ، فقالوا: لَا تَذْكُرِ الدَّرَاهِمَ، لَنَلَّا نُوْخِذَ بِهَا، ثُمَّ دَخَلُوا عَلَى يَوْسُفَ، فَأَخَذَ الصُّوعَ، فَتَقَرَّه، فَطُنَّ، فقال: إِنَّهُ يَخْبِرُ أَنْكُمْ ذَهَبْتُمْ بِأَخٍ لَكُمْ، فَبِعْتُمُوهُ، فَسَجَدَ يَامِينَ، وقال: أَيُّهَا الْعَزِيزُ، سَلْ صُوعَاكَ هَذَا يُخْبِرُكَ بِالْحَقِّ، فِي قِصَصِ يَطُولُ أَثَرُنَا اخْتِصَارُهُ.

وروي أن رُوبِيلَ غَضِبَ، وَقَفَّ شَعْرَهُ، حَتَّى خَرَجَ مِنْ ثِيَابِهِ، فَأَمَرَ يَوْسُفُ بَنِيَّاهُ، فَمَسَّهُ فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فقال رُوبِيلُ: لَقَدْ مَسَّنِي أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ يَعْقُوبَ، ثُمَّ إِنَّهُمْ تَشَاوَرُوا فِي مُحَارَبَةِ يَوْسُفَ، وَكَانُوا أَهْلَ قُوَّةٍ، لَا / يُدَانُونَ فِي ذَلِكَ، فَلَمَّا أَحَسَّ يَوْسُفُ بِذَلِكَ، قَامَ إِلَى رُوبِيلَ، فَلَبَّيْهِ وَصَرَعَهُ، فَأَرَا مِنْ قُوَّتِهِ مَا اسْتَعْظَمُوهُ، وقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ...﴾ الآية، وخاطبوه بِاسْمِ الْعَزِيزِ، إِذْ كَانَ فِي تِلْكَ الْخُطَّةِ بَعَزْلُ الْأَوَّلِ أَوْ مَوْتُهُ، عَلَى مَا رُوِيَ فِي ذَلِكَ، وقولهم: ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْهُمْ مُجَازاً، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً عَلَى طَرِيقِ الْحَمَالَةِ؛ حَتَّى يَصِلَ يَامِينَ إِلَى أَبِيهِ، وَيَعْرِفَ يَعْقُوبُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ، فَمَنَعَ يَوْسُفُ مِنْ ذَلِكَ، وقال: ﴿مَعَادَ اللَّهِ...﴾ الآية.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلَ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِیَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٥﴾ ارْجِعُوا إِلَيَّ أَيْكُمْ فَقُولُوا يَتَابَعًا إِلَيَّ أَبْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٦﴾ وَسَلِ الْقَرِيْبَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْغَمِرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٧﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٨﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَّاسَفُونَ عَلَى يُوسُفَ وَأَبِيعْتُمْ بَيْنَهُمْ أَخَازِنًا ﴿٨٩﴾ فَهُمْ كَاطِمُونَ ﴿٩٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ...﴾ الآية: يقال: يَتَسَسَّسُ وَيَتَسَسَّسُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، قَالَ الْبَخَارِيُّ: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾: اعْتَزَلُوا، وَالْجَمْعُ أَنْجِيَّةٌ، وَلِلثَنَيْنِ وَالْجَمْعُ نَجِيٌّ

وَأُنْجِيَهُ أَنْتَهُى .

وقال الهَرَوِيُّ: ﴿خَلَّصُوا نَجِيًّا﴾: أي تَمَيَّزُوا عن الناس متناجين انتهى .

و﴿كَبِيرُهُمْ﴾: قال مجاهدٌ هو شَمْعُونُ، كان كبيرهم رَأْيَا وَعِلْمًا، وإن كان رُوبِيلُ أَسْنُهُم^(١)، وقال قتادة: هو رُوبِيلُ، لأنه أَسْنُهُم^(٢)، وهذا أظهرُ ورَّجَّحه الطبري^(٣)، وذكرهم أخوهم ميثاقُ أبيهم: ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] .

وقوله: ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ﴾: قال: * ص * : «بَرَحَ» التَّامَّةُ بمعنى ذَهَبَ وَظَهَرَ؛ ومنه: بَرَحَ الْحَفَاءُ، أي: ظَهَرَ، والمتوجَّه هنا: معنى «ذهب»، لكنَّه لا ينصب الظرف المكانيَّ المختصَّ إلا بواسطة، فأحتيج إلى تضمينه معنى «فارق»، والأرض مفعولٌ به، ولا يجوزُ أَنْ تكون «أبرح»: ناقصةً انتهى .

وقوله: ﴿أَرْجِعُوا إِلَى آبِيكُمْ﴾: الأمر بالرجوع قيل: هُوَ مِنْ قولِ كبيرهم، وقيل: من قولِ يوسفَ، والأولُ أظهرُ، وذكر الطبريُّ أَنَّ يوسفَ قال لهم: إِذَا أَتَيْتُمْ آبَاكُمْ فَأَقْرؤُوا عَلَيْهِ السَّلَامَ، وقولوا له: إِنَّ مَلِكَ مِصْرَ يَدْعُو لَكَ الْأَتَمُوتَ حَتَّى تَرَى وَلَدَكَ يَوْسُفَ، ليعلم أَنَّ في أرضِ مِصْرَ صَدِيقَيْنِ مثله، وقرأ الجمهور: «سَرَقَ»، وروي عن الكسائي^(٤) وغيره: «سَرِقَ» - بينائه للمفعول - .

﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾: أي: بِأَعْتِبَارِ الظَّاهِرِ، والعِلْمُ فِي الْعَيْنِ إِلَى اللَّهِ، لَيْسَ ذَلِكَ فِي حِفْظِنَا، هذا تأويل ابنِ إِسْحَاقَ، ثم أَسْتَشْهَدُوا بِالْقَرِيَةِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا، وَهِيَ مِصْرُ؛ قاله ابن عباس^(٥)، والمراد أَهْلُهَا، قال البُخَارِيُّ: ﴿سَوَّلْتُ﴾: أي: زَيَّنْتُ، وقولُ يَعْقُوبَ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعنى بيوسفَ وَيَامِينَ وَرُوبِيلَ الَّذِي لَمْ يَبْرَحِ الْأَرْضَ،

(١) أخرجه الطبري (٢٦٩/٧) برقم: (١٩٦٢٧)، وذكره البغوي (٤٤٢/٢)، وابن عطية (٢٦٩/٣)، والسيوطي (٥٤/٤ - ٥٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ .

(٢) أخرجه الطبري (٢٧٠/٧) برقم: (١٩٦٣٠)، وذكره البغوي (٤٤٢/٢)، وابن عطية (٢٦٩/٣)، والسيوطي (٥٥/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ .

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٧٠/٧) برقم: (١٩٦٣٠ - ١٩٦٣١) .

(٤) وقرأ بها أبو ذر وابن عباس، كما في «الشواذ» ص: (٦٩)، وقرأها مبنية للمفعول مشددة الكسائي في رواية ابن أبي شريح عنه، وقرأ بها أحمد بن جبير المكي، والوليد بن حسان، عن يعقوب، وغيرهم .

ينظر: «البحر المحيط» (٣٢٩/٥)، و«الدر المصون» (٢٠٣/٤) .

(٥) أخرجه الطبري (٢٧٣/٧) برقم: (١٩٦٤٧)، وذكره ابن عطية (٢٧١/٣) .

ورجاؤه هذا مِنْ جهاتٍ، منها: حُسْنُ ظَنِّهِ بِاللَّهِ سبحانه في كُلِّ حالٍ، ومنها: رؤيا يوسفَ المتقدمة؛ فإنه كان ينتظرُها، ومنها: ما أخبروه عَنْ مَلِكٍ مِصْرَ؛ أنه يدعو له برؤيةِ أُنْبِيَّهِ.

وقوله سبحانه: ﴿وتولَّى عنهم﴾: أي: زال بوجهه عنهم مُلتَجِئاً إِلَى اللَّهِ: ﴿وقال: يا أَسْفَى على يوسف﴾.

قال الحسن: خُصَّتْ هذه الأُمَّة بالاستِرجاع؛ أَلَا تَرَى إِلَى قول يعقوبَ: ﴿يا أَسْفَى﴾^(١).

قال * ع^(٢): * والمراد يا أسفي، لكن هذه لَعْنَةٌ مَنْ يردُّ ياء الإضافة ألفاً؛ نحو: يا غلاماً، ويا أبتاً، ولا يبعد أَنْ يجتمع الاستِرجاعُ، ويا أَسْفَى لهذه الأُمَّة، وليعقوب عليه السلام، وروي أن يعقوبَ عليه السلام / حَزَنَ حُزْنَ سَبْعِينَ ثَكْلَى، وَأُعْطِيَ أَجْرَ مِائَةِ شَهِيدٍ، وما ساءَ ظَنُّهُ بِاللَّهِ قَطُّ، رواه الحَسَنُ عن النبي ﷺ^(٣)، ﴿فهو كَظِيمٌ﴾ بمعنى: كاظم، كما قال: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ووصف يعقوب بذلك، لأنه لم يَشْكُ إِلَى أَحَدٍ، وإنما كان يَكْمُدُ في نَفْسِهِ، وَيُمْسِكُ هَمَّهُ في صَدْرِهِ، فكان يكظمه، أي: يردُّه إِلَى قلبه.

* ت * وهذا ينظر إِلَى قولِ النبي ﷺ: «الْقَلْبُ يَخْزَنُ وَالْعَيْنُ تَذْمَعُ وَلَا تَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي الرَّبَّ . . .» الحديث، ذكر هذا ﷺ عِنْدَ مَوْتِ ولده إبراهيم^(٤)، قال ابن المبارك في «وفائقه»: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، قَالَ: كَظِمَ عَلَى الْحُزَنِ، فلم يَقُلْ إِلَّا خَيْراً^(٥) انتهى، قال ابن العربي في «أحكامه»: وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قال في أُنْبِيَّهِ إبراهيم: «إِنَّ الْعَيْنَ تَذْمَعُ، وَالْقَلْبُ يَخْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي الرَّبَّ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَخْزُونُونَ»، وقال أيضاً في الصحيح ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِذَمِّ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزَنِ الْقَلْبِ، وَإِنَّمَا يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَزْحَمُ»^(٦) انتهى. خرَّجه البخاري وغيره.

(١) ذكره ابن عطية (٢٧٢/٣) بنحوه.

(٢) ينظر: «المحور الوجيز» (٢٧٢/٣).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨١/٧) برقم: (١٩٧٢٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه الطبري (٢٧٦/٧) برقم: (١٩٦٧٧)، وذكره البغوي (٤٤٤/٢) نحوه.

(٦) أخرجه البخاري (٢٠٩/٣) كتاب «الجنائز» باب: البكاء عند المريض، حديث (١٣٠٤)، ومسلم (٢/ =

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَمًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّقَ إِلَ اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْقَى أَذْهَبُوا فَتَحَسُّوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّكُمْ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَقْرُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْنَعَةٍ مُزْنَعَةٍ قَاوِفْ لَنَا الْكِيلَ وَنَصَدِّقْ عَلَيْكَ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا﴾ الآية: المعنى: تالله لا تفتأ فتحدف «لا» في هذا الموضع من القسم؛ لدلالة الكلام عليها؛ فمن ذلك قول امرئ القيس: [الطويل]

فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحَ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي^(١)
ومنه قول الآخر: [البسيط]

تَاللَّهِ يَبْقَى عَلَى الْإِيَّامِ دُو حَيْدٍ^(٢)

(٦٣٦) كتاب «الجنائز» باب: البكاء، حديث (٩٢٤/١٢)، والبيهقي (٦٩/٤) من حديث عبد الله بن عمر به، والحديث أخرجه البغوي في «شرح السنة» (٢٨٥/٣ - بتحقيقنا)، وقال: هذا حديث متفق على صحته.

(١) ينظر البيت في: «ديوانه» ص: (٣٢)، و«خزانة الأدب» (٢٣٨/٩ - ٢٣٩)، (٤٣/١٠ - ٤٤ - ٤٥)، و«الخصائص» (٢٨٤/٢)، و«الدرر» (٢١٢/٤)، و«شرح أبيات سيويه» (٢٢٠/٢)، و«شرح التصريح» (١٨٥/١)، و«شرح شواهد المغني» (٣٤١/١)، و«شرح المفضل» (١١٠/٧)، (٣٧/٨)، (١٠٤/٩)، و«الكتاب» (٥٠٤/٣)، و«لسان العرب» (٤٦٣/١٣) (يمن)، و«اللمع» ص: (٢٥٩)، و«المقاصد النحوية» (١٣/٢)، وبلا نسبة في «أوضح المسالك» (٢٣٢/١)، و«خزانة الأدب» (٩٣/١٠ - ٩٤)، و«شرح الأشموني» (١١٠/١)، و«مغني اللبيب» (٦٣٧/٢)، و«المقتضب» (٣٦٢/٢)، و«معجم الهوامع» (٣٨/٢).

(٢) صدر بيت وعجزه:

يُمَشَّمَجِرُ بِهِ الظُّيَّانُ وَالْأَسُ
يُمَشَّمَجِرُ بِهِ الظُّيَّانُ وَالْأَسُ

وهو لأبي ذؤيب الهذلي في «شرح شواهد الإيضاح» ص: (٥٤٤)، و«شرح شواهد المغني» (٥٧٤/٢)، و«لسان العرب» (٢٧٥/١٣) (ظين) ولأمية بن أبي عائذ في «الكتاب» (٤٩٧/٣)، ولمالك بن خالد الخناعي في «جمهرة اللغة» ص: (٥٧)، و«شرح أبيات سيويه» (٤٩٩/١)، و«شرح أشعار الهذليين» (٤٣٩/١)، و«شرح شواهد الإيضاح» ص: (٣٠٤)، و«لسان العرب» (جيد)، (قرنس)، (ظبا)، ولعبد مائة الهذلي في «شرح المفضل» (٩٨/٩) ولأبي ذؤيب أو لمالك في «شرح أشعار الهذليين» (٢٢٨/١)، ولأبي ذؤيب أو لمالك أو لأمية في «خزانة الأدب» (٩٥/١٠)، ولأبي ذؤيب أو لمالك أو لأمية أو لعبد مناف الهذلي أو للفضل بن عباس أو لأبي زيد الطائي في «خزانة الأدب» (١٧٦/٥ - ١٧٧ - ١٧٨)، ولأبي ذؤيب أو لمالك أو لأمية أو لعبد مناف في «الدرر» (١٦٢/٤، ١٦٥)، ولأمية أو لأبي ذؤيب أو للفضل بن العباس في «شرح المفضل» (٩٩/٩)، وللهمذلي في «جمهرة اللغة» ص: (٢٣٨)، وبلا نسبة =

أراد: لا أَبْرَحُ، وَلَا يَبْقَى، و«فَتَى»: بمنزلة زَالٍ وَبَرَحَ في المعنى والعمل؛ تقول: واللَّهُ، لَا فَيْتَتْ قَاعِدًا؛ كما تقول: لَا زِلْتُ وَلَا بَرَحْتُ، وعبارة الداودي: وعن ابن عباس: تَفْتَأُ أَي: لَا تَزَالُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ، ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾^(١). انتهى، والْحَرَضُ: الذي قد نَهاه الهَرَمُ أو الحُبُّ أو الحُزْنُ إلى حَالِ فسادِ الأَعْضاءِ وَالبَدَنِ والحسِّ، يقال: رَجُلٌ حَارِضٌ، أَي: ذُو هَمٍّ وَحُزْنٍ؛ ومنه قول الشاعر: [البسيط]

إِنِّي أَمَرُو لَجَّ بِي حُبٌّ فَأَخْرَضَنِي حَتَّى بَلَيْتُ وَحَتَّى شَفَنِي السَّقَمُ^(٢)
والْحَرَضُ بالجملة الذي فَسَدَ ودنا موته، قال مجاهد: الْحَرَضُ: ما دون الموت^(٣)؛ وفي حديث النبي ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمْرُضُ حَتَّى يُخْرِضَهُ الْمَرَضُ إِلَّا غُفِرَ لَهُ»^(٤) انتهى من «رقائق ابن المبارك».

ثم أجابهم يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾: أَي: إِنِّي لست مَمَّنْ يَجْزَعُ وَيَضْجَرُ، وَإِنَّمَا أَشْكُو إِلَى اللَّهِ، وَالبَثُّ: ما في صَدْرِ الإنسان مما هو مُعْتَرِمٌ أَنْ يَبْثَهُ وينشره.

وقال أبو عُبَيْدَةَ وغيره: البَثُّ: أَشَدُّ الحُزْنِ^(٥) قال الداودي عن ابن جُبَيْر، قال: مَنْ بَثَّ، فلم يَصِرْ، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. انتهى.

وقوله: ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ...﴾ الآية: «الرَّوْحُ»: الرحمة، ثم جعل اليأس مِنْ رحمة اللَّهِ وتفريجه مِنْ صفة الكافرين؛ إِذْ فِيهِ إِما التَكْذِيبُ بالرُّبُوبِيَّةِ، وإِما الجَهْلُ بصفاتِ اللَّهِ تعالى، / وال«بِضَاعَة»: القِطْعَةُ مِنَ المَالِ يُقْصَدُ بِهَا شَرَاءُ شَيْءٍ، وَلِزِمَها عُرْفُ الفَقْهِ فِيمَا لَا حَظَّ لِحَامِلِهَا مِنَ الرِّيحِ، وال «مُزْجَاةٌ»: معناها: المدفوعة المتحيِّلُ لها،

= في «الأشباه والنظائر» (٢٣/٦)، و«الجنى الداني» ص: (٩٨)، و«جواهر الأدب» ص: (٧٢)، و«الدرر» (٢١٥/٤)، و«رصف المياني» ص: (١١٨، ١٧١)، و«شرح الأشموني» (٢٩٠/٢)، والصاحبي في «فقه اللغة» ص: (١١٤)، و«اللامات» ص: (٨١)، و«مغني اللبيب» (٢١٤/١)، و«المقتضب» (٢/٣٢٤)، و«معجم الهوامع» (٣٢/٢)، (٣٩).

(١) أخرجه الطبري (٢٧٧/٧) برقم: (١٩٦٨٦)، وذكره السيوطي (٥٩/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) البيت للعرجي ينظر: «أمالي ابن الشجري» (٣٦٩/١)، و«الطبري» (٢٢٢/١٦)، و«مجاز القرآن» (١/٣١٧)، و«الصحاح» و«التاج» و«اللسان» (حرض)، «روح المعاني» (١٩/٥)، «القرطبي» (٢٥٠/٩).

(٣) أخرجه الطبري (٢٧٨/٧) برقم: (١٩٦٩٠)، وذكره ابن عطية (٢٧٣/٣).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٠/١).

(٥) ذكره ابن عطية (٢٧٣/٣).

وبالجملة؛ فَمَنْ يَسوق شيئاً، ويتلطف في تسييره، فقد أجزاه، فإذا كانت الدراهم مدفوعة نازلة القدر، تحتاج أن يُعْتَدَر معها، ويُشْفَع لها، فهي مزجاة، فقل: كان ذلك لأنها كانت زيوفاً، قاله ابن عباس^(١).

وقيل: كانت بضاعتهم عروضاً، وقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾: معناه ما بين الدراهم الجياد وبين هذه المزجاة، قاله السدّي وغيره^(٢) وقال الداودي عن ابن جريج: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾: قال: أَرَدْتُ عَلَيْنَا أَخَانَا، انتهى^(٣)، وهو حسن.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨٩) ﴿قَالُوا لَوْ أَنَّكَ لَأَنْتَ يُّوسُفَ قَالَ أَنَا يُّوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَبَصِيرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ (٩١) ﴿قَالَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْنَا الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٢)

وقوله تعالى: ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾، روي أن يوسف عليه السلام لما قال له إخوته: ﴿مَسْنَا وأهلنا الضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]، واستعطفوه رَقَّ ورحمهم، قال ابن إسحاق: وَأَرْفَضَ دمعاً باكياً، فَشَرَعَ في كَشْفِ أمره إليهم، فروي أنه حَسَرَ قناعه، وقال لَهُمْ: ﴿هل علمتم...﴾ (٤) الآية، و﴿ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾: أي: التَّفْرِيقَ بَيْنَهُمَا في الصَّغَرِ وما نالهما بِسَبَبِكُمْ من المَحَنِّ؛ ﴿إذ أنتم جاهلون﴾، نسبهم إمّا إلى جَهْلِ المعصية، وإمّا إلى جَهْلِ الشَّبَابِ وَقِلَّةِ الحُكْمَةِ، فلَمَّا خاطبهم هذه المخاطبة، تَنَبَّهُوا، ووَفَّقَ لَهُم من الظَّنِّ القويِّ وقرائن الحال؛ أنه يوسف فقالوا: ﴿أأنك لَأَنْتَ يُّوسُفَ؟﴾ مستفهمين، فأجابهم يوسف كاشفاً عن أمره، ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي﴾ وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه: ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾: هذا منهم أَسْتِزْأَلُ ليوسفَ، وإقرار بالذنب في ضِمْنِهِ أَسْتَغْفَارُ منه، و﴿آثرك﴾: لفظٌ يعُمُّ جميعَ التفضيل.

(١) أخرجه الطبري (٢٨٦/٧) برقم: (١٩٧٤٨) نحوه، وذكره البغوي (٤٤٦/٢)، وابن عطية (٢٧٥/٣)، وابن كثير (٤٨٨/٢)، والسيوطي (٦٢/٤)، وعزاه لأبي عبيد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٢٨٩/٧) برقم: (١٩٧٨٩)، وذكره ابن عطية (٢٧٦/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٢٨٩/٧) برقم: (١٩٧٩٣)، وذكره البغوي (٤٤٦/٢)، وابن عطية (٢٧٦/٣)، والسيوطي (٦٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (٢٩١/٧) برقم: (١٩٧٩٧)، وذكره البغوي (٤٤٦/٢)، وابن عطية (٢٧٦/٣).

وقوله: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ عَفْوٌ جَمِيلٌ، وقال عكرمة: أوحى الله إلى يوسف بِعَفْوِكَ عَنْ إِخْوَتِكَ، رَفَعْتُ لَكَ ذِكْرَكَ^(١)، و«التثريب»: اللُّومُ والعقوبةُ وما جَرَىَ معهما من سوءِ مُعْتَقَدٍ ونحوه، وعَبَّرَ بعضُ الناس عن التثريبِ بالتعيير، ووقَّفَ بغضُ القَرَآةِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾، وابتدأ^(٢): ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ ووقف أكثرهم: ﴿اليوم﴾ وابتدأ: ﴿يغفر الله لكم﴾ على جهة الدعاء وهو تأويلُ ابنِ إسحاق^(٣) والطبري، وهو الصحيحُ الراجحُ في المعنى؛ لأنَّ الوقفَ الآخرَ فيه حُكْمٌ على مغفرة الله، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَوْحِي.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِمْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ^(٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ^(٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَنُةً عَلَى وَجْهِهِ فَأَزْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(٩٦)

وقوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾: قال النقَّاش: روي أن هذا القميصَ كَانَ مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ، كساه الله إبراهيم، ثم توارثته^(٤) بنوه.

قال *ع^(٥): * هذا يحتاجُ إلى سندٍ والظاهرُ أنه قميصُ يوسفَ كسائرِ القُمُصِ، وقولُ يوسف: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ فيه دليلٌ على أنَّ هذا كُلُّهُ بوحي وإعلامٍ مِنَ اللَّهِ تعالى، وروي أنَّ يعقوبَ وجدَ رِيحَ يوسفَ وَبَيَّنَّهُ وَبَيَّنَ القَمِيصَ مسيرةً ثمانية أيام؛ قاله ابن عباس^(٦)، وقال: هاجَتْ رِيحٌ، فحملتْ عَرْفَهُ، وقولُ يعقوب: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾: مخاطبةٌ لحاضريه، فروي أنهم كانوا حَقَدَتُهُ، وقيل: كانوا بغضَ بنيه، وقيل: كانوا / قرابتهُ^{١٢٦١} و﴿تُفَنِّدُونَ﴾ معناه: تردُّون رأيي، وتذفَعُون في صَدْرِهِ، وهذا هو التفنيد لغة، قال مُنْذِرُ بن سَعِيدٍ: يقال: شَيْخٌ مُفْنَدٌ، أي: قد فسد رأيه^(٧) والذي يشبه أنَّ تفنيدهم ليعقوب؛ إنما كان لأنهم كانوا يعتقدون أنَّ هواه قد غَلَبَهُ في جانبِ يوسفَ.

(١) ذكره ابن عطية (٢٧٧/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٧٨/٣)، و«البحر المحيط» (٣٣٨/٥)، و«الدر المصون» (٢١٤/٤).

(٣) ينظر: «الطبري» (٢٩١/٧).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٧٨/٣).

(٥) ينظر: «المحرر» (٢٧٨/٣).

(٦) أخرجه الطبري (٢٩٣/٧) برقم: (١٩٨١٣)، وذكره البغوي (٤٤٨/٢)، وابن عطية (٢٧٨/٣)، والسيوطي (٦٦/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٧) ذكره ابن عطية (٢٧٨/٣).

وقال * [ص] *: معنى ﴿تفندون﴾: تسفهون، انتهى، وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾: يريدون: لَفِي أَتْلَافِكَ فِي مَحَبَّةِ يَوْسُفَ، وليس بالضلال الذي هو فِي الْعُرْفِ ضُدُّ الرِّشَادِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْجَفَاءِ الَّذِي لَا يَسُوعُ لَهُمْ مُوَاجَهَتَهُ بِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَتَى الْبَشِيرَ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾: روي عن ابن عَبَّاسٍ؛ أَنَّ الْبَشِيرَ كَانَ يَهُودًا؛ لِأَنَّهُ كَانَ جَاءَ بِقَمِيصِ الدِّمِّ^(١) وَ﴿تَصِيرًا﴾: معناه: مُبْصِرًا، وروي أَنَّهُ قَالَ لِلْبَشِيرِ: عَلَى أَيِّ دِينٍ تَرَكْتَ يَوْسُفَ؟ قَالَ: عَلَى الْإِسْلَامِ؛ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ الْآنَ كَمَلْتَ النِّعْمَةَ.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَيْتَ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا فِي صَفِّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا...﴾ الآية: روي أَنَّ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لَمَّا غَفَرَ لِإِخْوَتِهِ، وَتَحَقَّقُوا أَنَّ أَبَاهُمْ يَغْفِرُ لَهُمْ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا يُغْنِي عَنَّا هَذَا إِنْ لَمْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَنَا، فَطَلَبُوا حِينَئِذٍ مِنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَطْلُبَ لَهُمُ الْمَغْفِرَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَعْتَرَفُوا بِالْخَطَا، فَقَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

* [ت] *: وعن ابن عباس؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا كَانَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَقُومَ فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنَّهَا سَاعَةٌ مَشْهُودَةٌ وَالِدُعَاءِ فِيهَا مُسْتَجَابٌ، وَقَدْ قَالَ أَخِي يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، يَقُولُ: حَتَّى تَأْتِيَ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ...»^(٢) وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ»، وَقَالَ: صَحِيحٌ

(١) ذكره ابن عطية (٣/٢٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٦٣/٥، ٥٦٥) كتاب «الدعوات» باب: دعاء الحفظ، حديث (٣٥٧٠)، والحاكم (٣١٦/١) من طريق الوليد بن مسلم، عن ابن جريج، عن عطاء، وعكرمة، عن ابن عباس به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

وقال الذهبي: هذا حديث منكر شاذ، أخاف ألا يكون موضوعاً، وقد حيرني واللّه جوده إسناده.

على شرط الشيخين، يعني البخاري ومسلماً انتهى من «السلاح».

وقوله سبحانه: ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوبِهِ﴾ قال ابن إسحاق، والحسن: أراد بالأبوين: أباه وأمه^(١)، وقيل: أراد؛ أباه وخالته.

قال * ع^(٢): والاول أظهر؛ بحسب اللفظ، إلا أن يثبت بسند أن أمه قد كانت مائت.

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا الاستثناء هو الذي ندب القرآن إليه؛ أن يقوله الإنسان في جميع ما ينفذه في المستقبل، و﴿العَرْشُ﴾: سرير المُلْك، و﴿خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾: أي: سجدوا تَحِيَّةً، ف قيل: كان كالسجود المعهود عندنا من وَضَعَ الوجه بالأرض.

وقيل: بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه ممّا كان سيرة تَحِيَّاتِهِم للملوك في ذلك الزمان، وأجمع المفسرون؛ أنه كان سُجُودَ تَحِيَّةٍ لا سُجُودَ عِبَادَةٍ، وقال الحسن: الضمير في «له» لله عز وجل، ورُدَّ هذا القول على الحسن.

وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾: المعنى: قال يوسف ليعقوب، هذا السجود الذي كَانَ مِنْكُمْ هو ما آلت إليه رؤياي قديماً في الأَحَدِ عَشَرَ كَوْكَباً والشمس والقمر، ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ ثم أخذ عليه السلام يعدد نعم الله عَلَيْهِ، وقال: وقد أخرجني من السجن، وترك ذكر إخراجي من الجُبِّ؛ لأنَّ في ذكره تَجْدِيدَ فِعْلٍ / إخوته وخَزَنَتِهِمْ، وَتَحْرِيكَ تِلْكَ الْغَوَائِلِ، وَتَخْيِيبَ الْنَفُوسِ، وَوَجْهَ آخِرِ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْجُبِّ إِلَى الرَّقِّ، وَمِنَ السَّجْنِ إِلَى الْمُلْكِ، فَالْنِعْمَةُ هُنَا أَوْضَحُ، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾، أي: من الأمور أن يفعله؛ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

قال * ع^(٣): ولا وَجْه في ترك تعريف يوسف أباه بحاله مُنْذُ خَرَجَ مِنَ السَّجْنِ إِلَى الْعِزِّ إِلَّا الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَ بِهِ يَعْقُوبَ وَبْنِيهِ، وَأَرَادَ مِنْ صُورَةٍ جَمْعِهِمْ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وقال الثَّقَافُ: كان ذلك الوحْيُ في الجُبِّ، وهو قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، وهذا محتمل.

(١) أخرجه الطبري (٣٠٢/٧) برقم: (١٩٨٨٨)، عن ابن إسحاق.

(٢) ينظر: «المحرر» (٣/٢٨١).

(٣) ينظر: «المحرر» (٣/٢٨٢ - ٢٨٣).

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

وقوله: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث...﴾ الآية: ذكر كثير من المفسرين أن يوسف عليه السلام لما عدّد في هذه الآية نعم الله عنده، تشوّق إلى لقاء ربه ولقاء الجلّة وصالحه سلفه وغيرهم من المؤمنين، ورأى أن الدنيا قليلة فتمنّى الموت في قوله: ﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾.

وقال ابن عباس: لم يتمنّ الموت نبيٌّ غيرُ يوسف^(١)، وذكر المهدوي تأويلاً آخر، وهو الأقوى عندي: أنه ليس في الآية تمنّي موت، وإنما تمنى عليه السلام الموافاة على الإسلام لا الموت، وكذا قال القرطبي^(٢) في «التذكرة»؛ أن معنى الآية: إذا جاء أجلي، توفني مسلماً، قال: وهذا القول هو المختار عند أهل التأويل، والله أعلم، انتهى، وقوله ﷺ: «لَا يَمْتَنِينَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ نَزَلَ بِهِ»^(٣)؛ إنّما يريد ضرر الدنيا؛ كالقفر، والمَرَضِ ونحو ذلك، ويبقى تمنّي الموت؛ مخافة فساد الدين مباحاً، وقد قال ﷺ في بغض أدعيته: «وَإِذَا أَرَدْتَ بِالنَّاسِ فِتْنَةً، فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»^(٤).

وقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ﴾: أي القائم بأمرى، الكفيل بضرتي ورخصتي.

وقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: ﴿ذلك﴾: إشارة إلى ما تقدّم من قصّة يوسف، وهذه الآية تعريض لقريش، وتنبيه على آية صدق نبينا محمد ﷺ، وفي

(١) أخرجه الطبري (٣٠٨/٧) برقم: (١٩٩٤٢)، وذكره ابن عطية (٢٨٣/٣)، وابن كثير (٤٩٢/٢)، والسيوطي (٧٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (١٨/١).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٢/١٠) كتاب «المرض» باب: تمنى المريض الموت، حديث (٥٦٧١)، ومسلم (٢٠٦٤/٤) كتاب «الدعاء والذكر» باب: كراهة تمنى الموت لضر نزل به، حديث (٢٦٨٠/١٠)، وأبو داود (٢٠٥/٢) كتاب «الجنائز» باب: في كراهية تمنى الموت برقم: (٣١٠٨ - ٣١٠٩)، والنسائي (٤/٤٥٣) كتاب «الجنائز» باب: تمنى الموت، والترمذي (٢٩٣/٣) كتاب «الجنائز»، باب: ما جاء في النهي عن التمني للموت، حديث (٩٧١)، وابن ماجه (١٤٢٥/٢) كتاب «الزهد» باب: ذكر الموت والاستعداد له، حديث (٤٢٦٥)، وأحمد (١٠١/٣)، وابن حبان (٩٦٨)، والبيهقي (٣٧٧/٣).

(٤) هو جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي (٣٤٢/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة ص، حديث (٣٢٣٣)، وأحمد (٦٦/٤).

ضمن ذلك الطغرنُ على مكذبيه، والضمير في ﴿لديهم﴾: عائذُ على إخوة يوسفَ، و﴿أجمعوا﴾: معناه: عزموا، و«الأمر»، هنا: هو إلقاء يوسفَ في الجُبِّ، وحكى الطبري^(١) عن أبي عمران الجوني؛ أنه قال: واللّه ما قصّ الله نبأهم؛ ليغيرهم؛ إنهم الأنبياءُ من أهل الجنة، ولكنّ الله قصّ علينا نبأهم؛ لئلا يقنط عبده.

وقوله سبحانه: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين...﴾ الآية خطاب للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿وما تسألهم عليه من أجر...﴾ الآية توبيخ للكفرة، وإقامة للحجة عليهم، ثم أبتدأ الإخبار عن كتابه العزيز؛ أنه ذكر وموعظة لجميع العالم، نفعا الله به، ووفر حظنا منه.

﴿وَكَايْنِ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللّٰهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللّٰهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿١٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض﴾: يعني بـ﴿الآية﴾؛ هنا: المخلوقات المنصوبة للاعتبار الدالة على توحيد خالقها سبحانه، وفي مضمحف عبد الله^(٢): «يَمْشُونَ / عَلَيْهَا».

وقوله سبحانه: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾: قال ابن عباس: هي في أهل الكتاب^(٣)، وقال مجاهد وغيره: هي في العرب^(٤)، وقيل: نزلت بسبب قول قرئش في الطواف، والتلبية: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكاً هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكٌ»، وروي أن النبي ﷺ كان إذا سمع أحدهم يقول: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، يقول له: قط قط، أي: قف هنا، ولا تزدد إلا شريكاً هو لك، والـ﴿غاشية﴾: ما يغشى ويغطي ويغمر، و﴿بغتة﴾: أي: فجأة، وهذه الآية من قوله: ﴿وكأين من آية﴾، وإن كانت في الكفار، فإن العصاة يأخذون من ألفاظها بحظ ويكون الإيمان حقيقة، والشرك لغوياً، كالرياء، فقد قال

(١) ينظر: «الطبري» (٣١٠/٧ - ٣١١).

(٢) ينظر: «المحتسب» (٣٥٠/١)، و«الكشاف» (٥٠٨/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٨٥/٣)، و«البحر المحيط» (٣٤٥/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٣١٣/٧) برقم: (١٩٩٧٠) بلفظ: يعني النصارى، وذكره ابن عطية (٢٨٥/٣).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٨٥/٣).

عليه السلام: «الرِّيَاءُ الشُّرْكُ الْأَضْعَفُ»^(١).

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله...﴾ الآية: إشارة إلى دعوة الإسلام والشريعة بأسرها، قال ابن زيد: المعنى هذا أمري وسُنَّتِي وَمِنْهَا جِي (٢) وال «بصيرة»: أَسْمُ لِمَعْتَقِدِ الْإِنْسَانِ فِي الْأَمْرِ مِنَ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ.

وقوله: ﴿أنا ومن اتبعني﴾: يحتمل أن يكون «أنا» تأكيداً للضمير المستكن في «أدعوا» و«من» معطوف عليه؛ وذلك بأن تكون الأمة كلها أُمِرَتْ بالمعروف داعية إلى الله الكفرة والعصاة.

قال * ص * : ويجوز أن يكون «أنا» مبتدأ، و«على بصيرة» خبر مقدم، و«من» معطوف عليه انتهى، «وَسُبْحَانَ اللَّهِ» تنزيه لله، أي: قل: سبحان الله متبرئاً من الشرك.

وقوله سبحانه: ﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية: تتضمن الرد على من استغرب إرسال الرُّسُل من البَشَرِ، و«الْقُرَى»: المَدُن. قال الحسن: لم يَبْعَثِ اللَّهُ رَسُولًا قَطُّ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ^(٣).

قال * ع^(٤) * : وَالتَّبْدِي مَكْرُوهُ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ، وَحِينَ يُفَرُّ بِالْدِينِ، وَلَا يَعْتَرِضُ هَذَا بُدُو يَعْقُوب؛ لَأَنَّ ذَلِكَ الْبُدُو لَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِ عَمُودٍ، بَلْ هُوَ بَتَقَرٍّ، وَفِي مَنَازِلَ وَرَبُوعٍ؛ وَأَيْضاً إِنَّمَا جَعَلَهُ بُدُوّاً بِالإِضَافَةِ إِلَى مُضَرٍّ؛ كَمَا هِيَ بَنَاتُ الْحَوَاضِرِ بُدُوّاً بِالإِضَافَةِ إِلَى

(١) أخرجه أحمد (٤٢٨/٥)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٤٣/٧) - بتحقيقنا)، من حديث محمود بن لبيد، والحديث ذكره العراقي في «تخريج الإحياء» (٢٩٤/٣)، وعزاه لأحمد، والبيهقي، وقال: رجاله ثقات.

(٢) أخرجه الطبري (٣١٥/٧) برقم: (١٩٩٨٣)، وذكره ابن عطية (٢٨٥/٣)، والسيوطي (٧٦/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره ابن عطية (٢٨٦/٣).

(٤) ينظر: «المحرر» (٢٨٦/٣).

الحواضر، ثم أحال سبحانه على الاعتبار في الأمم السالفة، ثم حَصَّ سبحانه على الآخرة، وألاستعداد لها بقوله: ﴿ولدار الآخرة خير...﴾ الآية.

قال * ص *: ﴿ولَدارُ الآخرة﴾: خرَّجه الكوفيون على أنه من إضافة الموصوف لصفته، وأصله: «ولَدارُ الآخرة»، والبصريون على أنه عن حذف الموصوف، وإقامة صفته مقامه، وأصله: «ولَدارُ المدة الآخرة أو النشأة الآخرة». انتهى.

ويتضمَّن قوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾؛ أن الرسل الذين بعثهم الله من أهل القرى، دَعَوْا أممهم، فلم يؤمنوا بهم، حتى نزلت بهم المثلثات، فصاروا في حَيْرٍ مَنْ يُعْتَبَرُ بعاقبته، فلهذا المضمَّن حَسُنَ أَنْ تدخل «حتى» في قوله: ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾.

وقرأ نافع وابن كثير^(١) وأبو عمرو وابن عامر: «وظنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا» -/ بتشديد الذال -، وقرأ الباقون: «كُذِّبُوا» - بضم الكاف، وكسر الذال المخففة، فأما الأولى، فمعناها أن الرسل ظنُّوا أن أممهم قَدْ كُذِّبَتْهم، و«الظنُّ»؛ هنا: يحتملُ أن يكون بمعنى اليقين، ويحتمل أن يكون الظنُّ على بابه، ومعنى القراءة الثانية؛ على المشهور من قول ابن عباس وابن جُبَيْر: أي: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم^(٢)، وظنُّ المُرْسَلُ إليهم أن الرسل قد كُذِّبُوهم فيما أدعَوْه من النبوة، أو فيما توعدوهم به من العذاب، لما طال الإمهال، واتصلت العافية، جاءهم نَصْرنا.

ب ٢٦٢

وأَسَد الطبري^(٣) أن مسلماً بن يسار، قال لسعيد بن جبَّير: يا أبا عبد الله، آية بلغت مِنِّي كُلِّ مبلغ: «حتى إذا استيأس الرسل وظنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا»؛ فهذا هو الموت أن تظنُّ الرسل أنهم قد كُذِّبُوا - مخففة -، فقال له ابن جبَّير: يا أبا عبد الرحمن، إنما يئس الرسل من قومهم؛ أن يجيبوهم، وظنُّ قومهم أن الرسل قد كُذِّبَتْهم، فقام مُسْلِم إلى سعيد،

(١) ينظر: «السبعة» (٣٥١)، و«الحجة» (٤٤١/٤)، و«إعراب القراءات السبعة» (٣١٧/١)، و«حجة القراءات» (٣٦٦ - ٣٦٧)، و«الإتحاف» (١٥٦/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٨٧/٣)، و«البحر المحيط» (٣٤٧/٥)، و«الدر المصون» (٢١٨/٤).

وينظر: «معاني القراءات» (٥٢/٢)، و«شرح الطيبة» (٣٨٨/٤)، و«العنوان» (١١١)، و«شرح شلعة» (٤٤٢).

(٢) أخرجه الطبري (٣١٦/٧، ٣١٨) برقم: (١٩٩٨٨) ويرقم: (٢٠٠٠٨)، وذكره ابن عطية (٢٨٨/٣)، والسيوطي (٧٧/٤)، وعزاه لأبي عبيد، وسعيد بن منصور، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٣) أخرجه الطبري (٣١٩/٧) برقم: (٢٠٠١٠).

فَاعْتَقَهُ، وَقَالَ: فَرَجَّتْ عَنِّي، فَرَجَّ اللَّهُ عَنْكَ^(١).

قال * ع^(٢) : * فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كَيْفَ كَانَ خُلُقُهُمْ فِي الْعِلْمِ، وَقَالَ بِهَذَا التَّأْوِيلِ جَمَاعَةٌ، وَهُوَ الصَّوَابُ، وَأَمَّا تَأْوِيلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَعْنَى: وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبَهُمْ مَنْ أَخْبَرَهُمْ عَنِ اللَّهِ، فَغَيْرُ صَحِيحٍ، وَلَا يَجُوزُ هَذَا عَلَى الرَّسْلِ، وَأَيْنَ الْعِصْمَةُ وَالْعِلْمُ.

* ت : * قَالَ عِيَاضٌ: فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾؟ عَلَى قِرَاءَةِ التَّخْفِيفِ؟ قُلْنَا: الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ مَا قَالَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَعَاذَ اللَّهِ، أَنَّ تَظَنُّ الرُّسُلُ ذَلِكَ بِرَبِّهَا، وَإِنَّمَا مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ، لَمَّا اسْتَيْأَسُوا، ظَنُّوا أَنَّ مَنْ وَعَدَهُم النُّصْرَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، كَذَّبَهُمْ^(٣)؛ وَعَلَى هَذَا أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي «ظَنُّوا» عَائِدٌ عَلَى الْأَتْبَاعِ وَالْأُمَمِ، لَا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ؛ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالنَّخَعِيِّ وَابْنِ جُبَيْرٍ^(٤) وَجَمَاعَةٍ، وَبِهَذَا الْمَعْنَى قَرَأَ مُجَاهِدٌ: «كَذَّبُوا» بِالْفَتْحِ، فَلَا تَشْغَلُ بِالْكَ مِنْ شَاذِ التَّفْسِيرِ بِسِوَاهِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِ الْعُلَمَاءِ، فَكَيْفَ بِالْأَنْبِيَاءِ، انْتَهَى مِنَ «الشُّفَا».

وقوله سبحانه: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾: أَي: بِتَعْذِيبِ أُمَّمِهِمُ الْكَافِرَةِ.

﴿فَتُجْجِي مِنْ نِشَاءٍ﴾: أَي: مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسْلِ.

﴿وَلَا يَرِدُ بِأَسْنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ﴾: أَي: الْكَافِرِينَ، وَ«الْبَأْسُ»: الْعَذَابُ.

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أَي: فِي قِصَصِ يَوْسُفَ وَإِخْوَتِهِ وَسَائِرِ الرُّسُلِ الَّذِينَ ذُكِرُوا عَلَى الْجُمْلَةِ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ عَنْهُ: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾، وَ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ وَاضِحٌ.

* ت : * كُنْتُ فِي وَقْتٍ أَنْظُرُ فِي «السِّيَرَةِ» لِابْنِ هِشَامٍ، وَأَتَأَمَّلُ فِي خُطْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ أَوَّلُ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا بِالْمَدِينَةِ، فَإِذَا هَاتِفٌ يَقُولُ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾، وَقَدْ كَانَ حَصَلَ فِي الْقَلْبِ عِبْرَةٌ فِي أَمْرِهِ ﷺ وَأَفَاضِلِ أَصْحَابِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَسَلَكَ بِنَا مَنَاجِهُهُمْ الْمَرْضِيَّةَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى / وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا. ١٢٦٣

(١) ذكره ابن عطية (٢٨٨/٣)، وابن كثير (٤٩٧/٢)، والسيوطي (٧٧/٤)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ.

(٢) ينظر: «المحرر» (٢٨٨/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٨٨/٣).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٨٨/٣).

تفسير سورة الرعد

قيل: مَكِّيَّةٌ إِلَّا بَعْضَ آيَاتٍ، وقيل: مدنية، والظاهر أَنَّ المدنيَّ فيها كثيرٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾
اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾: قال ابن عباس: هذه الحروف هي من قوله: «أَنَا اللَّهُ أَعْلَمُ وَأَرَى»^(١).

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ...﴾ الآية: قال جمهور الناس: لَا عَمَدَ لِلسَّمَوَاتِ أَلْبَنَّةَ، وهذا هو الْحَقُّ وَالْعَمَدُ: اسم جَمْع.

قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: «ثم»؛ هنا: لعطفِ الْجُمْلِ، لا للترتيب؛ لأنَّ الْأَسْتَوَاءَ عَلَى الْعَرْشِ قَبْلَ رَفْعِ السَّمَوَاتِ، ففي الصحيح عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»^(٢) وقد تقدَّم القول في هذا، وفي معنى الْأَسْتَوَاءِ.

* ت * والمَعْتَقْدُ في هذا: أَنَّهُ سبحانه مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي قَالَه، وبِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ أَسْتَوَاءً مَنْزَهاً عَنِ الْمَمَاسَةِ وَالْأَسْتِقْرَارِ وَالتَّمَكُّنِ وَالْحُلُولِ وَالْأَنْتِقَالِ، لَا

(١) ذكره ابن عطية (٣/٢٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦/٣٣٠ - ٣٣١) كتاب «بدء الخلق» باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، حديث (٣١٩١)، وفي (١٣/٤١٤ - ٤١٥) كتاب «التوحيد» باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، حديث (٧٤١٨)، وأحمد (٤/٤٢٦، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٦)، والترمذي مختصراً (٥/٧٣٢ - ٧٣٣) كتاب «المناقب» باب: مناقب في ثقيف وبني حنيفة، حديث (٣٩٥١)، وابن حبان (١٤/١١) برقم: (٦١٤٢)، والدارمي في «الرد على الجهمية» ص: (١٤)، والبيهقي (٩/٢ - ٣)، وفي «الأسماء والصفات» ص: (٢٣١) كلهم من طريق الأعمش عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين به.

يَحْمِلُهُ الْعَرْشُ، بل العرشُ وَحَمَلَتْهُ مَحْمُولُونَ بِلُطْفِ قُدْرَتِهِ، وَمَقْهُورُونَ فِي قَبْضَتِهِ، كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، كَانَ سَبْحَانَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْمَكَانَ وَالزَّمَانَ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ.

وقوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: تنبيه على القدرة، وفي ضَمَنِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الْكَوَكِبُ، ولذلك قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ أي: كُلُّ مَا هُوَ فِي مَعْنَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَ«الْأَجَلُ الْمُسَمَّى»: هُوَ أَنْقِضَاءُ الدُّنْيَا، وَفَسَادُ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ.

﴿يَدْبُرُ الْأَمْرَ﴾: مَعْنَاهُ: يُبْرِمُهُ وَيَنْفِذُهُ، وَعَبَّرَ بِالتَّدْبِيرِ، تَقْرِيباً لِلْإِفْهَامِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يَدْبُرُ الْأَمْرَ﴾: مَعْنَاهُ يَقْضِيهِ وَخَدُّهُ.

و﴿لَعَلَّكُمْ بَلَقَاءَ رَبِّكُمْ تَوْفَنُونَ﴾: أَي: تَوْفَنُونَ بِالْبَغْيِ.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْأَرْضَ الْيَوْمَ لِلَّيْلِ لَأَنْبَتٍ لِقَوْمٍ يَنْكُرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِزَةٌ وَجَعَلْنَا مِنَ الْغَنَاءِ لِلْأُنثَى ذَرْعًا وَغَيْرَ صِنَوَانٍ وَغَيْرَ صِنَوَانٍ يَسْتَقِي بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنَفْضُلٌ بَقَعَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَنْبَتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾: لَمَّا فَرَعَتْ آيَاتُ السَّمَاءِ، ذُكِرَتْ آيَاتُ الْأَرْضِ، وَال «رَوَاسِيَ»: الْجِبَالُ الثَّابِتَةُ.

وقوله سبحانه: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: «الزَّوْجُ»؛ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الصَّنْفُ وَالنُّوعُ، وَلَيْسَ بِالزَّوْجِ الْمَعْرُوفِ فِي الْمُتَلَاذِمِينَ الْفَرْدَيْنِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَغَيْرِهِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ...﴾ الْآيَةُ [يُس: ٣٦]، وَمِنْهُ: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧]، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَقْتَضِي أَنْ كُلَّ ثَمَرَةٍ، فَمَوْجُودٌ مِنْهَا نَوْعَانِ، فَإِنْ أَتَفَقَ أَنْ يَوْجَدَ مِنْ ثَمَرَةٍ أَكْثَرُ مِنْ نَوْعَيْنِ، فَغَيْرُ ضَارٍّ فِي مَعْنَى الْآيَةِ، وَ﴿قِطْعٌ﴾: جَمْعُ قِطْعَةٍ، وَهِيَ الْأَجْزَاءُ، وَقِيدٌ مِنْهَا فِي هَذَا الْمَثَالِ مَا جَاوَزَ وَقَرُبَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ؛ لِأَنَّ اخْتِلَافَ ذَلِكَ فِي الْأَكْثَلِ أَغْرُبُ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ^(١): «وَجَعَلْنَا» - بِالرَّفْعِ -؛ عَطْفًا عَلَى «قِطْعٌ»، وَقَرَأَ نَافِعٌ^(٢) وَغَيْرُهُ: «وَزَرَعَ وَنَخِيلَ صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ»

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٣/٣)، و«البحر المحيط» (٣٥٦/٥)، و«الدر المصون» (٢٢٥/٤).

(٢) ينظر: «الحجة» (٥/٥ - ٦)، و«إعراب القراءات السبع» (٣٢٠/١)، و«حجة القراءات» (٣٦٩)، و«الإتحاف» (١٦٠/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٩٣/٣)، و«البحر المحيط» (٣٥٦/٥)، و«الدر المصون» (٢٢٥/٤)، و«شرح الطيبة» (٣٩١/٤)، و«العنوان» (١١٣)، و«شرح شُعَلَة» (٤٤٤)، و«معاني القراءات» (٥٥).

٢٦٣ ب إ بالخفض في الكل -؛ عطفاً على «أعنان»، وقرأ ابن كثير وغيره: / «وزرع» - بالرفع في الكل -؛ عطفاً على «قطع»، و﴿صنوان﴾: جمع صنو، وهو الفرع يكون مع الآخر في أصل واحد، قال البراء بن عازب: «الصُّنَوَان»: المجتمع، و﴿صُنَوَان﴾: المفترق فرداً فرداً^(١) وفي «الصحيح»: «الْعَمُّ صِنُو الْأَبِ»، وإنما نص على الصُّنَوَان في هذه الآية؛ لأنها بمثابة التجاور في القطع تظهر فيها غرابة اختلاف الأكل، و﴿الأَكْلُ﴾ - بضم الهمزة -؛ أَسْمُ ما يؤكل، والأكل المَصْدَر، وحكى الطبري^(٢) عن ابن عباس وغيره: ﴿قَطَعَ مُتَجَاوَرَاتٌ﴾: أي: واحدة سبخة، وأخرى عذبة، ونحو هذا من القول^(٣)، وقال قتادة: المعنى: قُرِيَ مُتَجَاوَرَاتٌ^(٤).

قال * ع^(٥): وهذا وجه من العبرة، كأنه قال: وفي الأرض قِطَعٌ مختلفات بتخصيص الله لها بمعاني فهي تُشَقَّى بماءٍ واحدٍ، ولكن تختلف فيما تُخْرِجُهُ، والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور؛ أنها من تَرْبِيَةٍ واحدةٍ، ونوع واحدٍ، وموضع العبرة في هذا أبين، وعلى المَعْنَى الأول قال الحسن: هذا مَثَلٌ ضربه الله لقلوب بني آدم: الأرض واحدة، وينزل عليها ماء واحد من السماء، فتخرج هذه زهرةً وثمرَةً، وتخرج هذه سبخةً وملحاً وخبثاً، وكذلك الناس خُلِقُوا من آدم، فنزلت عليهم من السماء تذكرةً، فَرَقَّتْ قُلُوبٌ وَخَشَعَتْ، وَقَسَّتْ قُلُوبٌ وَلَهَتْ.

قال الحسن: فوالله، ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٦) [الإسراء: ٨٢].

❖ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْذَا كُنَّا تُرْبًا لَوْنَا لَنِي خَلَقِي جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا

- (١) أخرجه الطبري (٣٣٤/٧) برقم: (٢٠٠٨٧)، وذكره ابن عطية (٢٩٤/٣)، والسيوطي (٨٣/٤)، وعزاه للفرجاني، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.
- (٢) ينظر: «الطبري» (٣٣٢/٧).
- (٣) أخرجه الطبري (٣٣٢/٧) برقم: (٢٠٠٧١ - ٢٠٠٧٢)، وذكره ابن عطية (٢٩٤/٣)، والسيوطي (٨٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
- (٤) أخرجه الطبري (٣٣٢/٧) برقم: (٢٠٠٧٨)، وذكره ابن عطية (٢٩٤/٣)، والسيوطي (٨٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ.
- (٥) ينظر: «المحرر» (٢٩٤/٣).
- (٦) أخرجه الطبري (٣٣٦/٧) برقم: (٢٠١١٣)، وذكره ابن عطية (٢٩٥/٣)، والسيوطي (٨٤/٤)، وعزاه لابن جرير.

يَرْبِّيهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَالُ فِيْ أَغْنَانِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَجِيبُكَ بِالسَّيْنَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُوْ مَنَافِقٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلُمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنْثَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، المعنى: وإن تعجب، يا محمد، من جهالتهم وإعراضهم عن الحق، فهم أهل لذلك، وَعَجَبٌ غريبٌ قولهم: أنعود بعد كوننا تراباً، خلقاً جديداً؛ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾؛ لتصميمهم على الجحود وإنكارهم للبعث، ﴿وأُولَئِكَ الْأَعْلَالُ فِيْ أَغْنَانِهِمْ﴾: أي: في الآخرة، ويحتمل أن يكون خبراً عن كونهم مغفلين عن الإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَغْنَانِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْحَمُونَ﴾ [يس: ٨].

وقوله سبحانه: ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة...﴾ الآية: تبين لخطيئهم كطلبهم سقوط كسف من السماء، وقولهم: ﴿أَمْ نَظَرُ عَلَيْنَا جِبَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونحو هذا مع نزول ذلك بأناس كثير، وقرأ الجمهور^(١): ﴿الْمَثَلَاتُ﴾ - بفتح الميم وضم الثاء -، وقرأ مجاهد^(٢) «الْمَثَلَاتُ» - بفتح الميم والفاء - أي: الأخذة القذة بالعقوبة، ثم رجى سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾، ثم خوفه بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: قال ابن المسيب: لما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «لَوْلَا عَفْوُ اللَّهِ وَمَغْفِرَتُهُ مَا تَهَأَّأَ أَحَدٌ عَيْشًا، وَلَوْلَا عِقَابُهُ لَا تُكَلِّ كُلُّ أَحَدٍ»^(٣)، وقال ابن عباس: ليس في القرآن أرجى من هذه الآية^(٤): ﴿وَالْمَثَلَاتُ﴾: هي العقوبات المنكلات التي تجعل الإنسان مثلاً يُتَمَثَّلُ به؛ ومنه التمثيل بالقتلى؛ ومنه: المثلثة بالعبيد.

ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾: هذه من أقتراحتهم، / والآية هنا يراد بها ١٢٦٤ الأشياء التي سمّتها قريش؛ كالمُلْك، والكَنْز، وغير ذلك، ثم أخبر تعالى بأنه منذر وهاد، قال عكرمة، وأبو الضحى: المراد بـ «الهادي» محمد ﷺ؛ فـ «هادٍ» عطفٌ على «منذر»؛

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٦/٣)، و«الدر المصون» (٢٢٨/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٦/٣)، و«البحر المحيط» (٣٥٩/٥)، وزاد نسبتها إلى الأعمش، وهي في «الدر المصون» (٢٢٨/٤).

(٣) ذكره العراقي في «تخريج الإحياء» (١٤٧/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم، والثعلبي.

(٤) ذكره ابن عطية (٢٩٦/٣).

(٥) أخرجه الطبري (٣٤٢/٧) بقرم: (٢٠١٣٩)، وذكره البغوي (٨/٣)، وابن عطية (٢٩٧/٣).

كانه قال: إنما أنت مُنْذِرٌ وهادٍ لكل قوم، و«هادٍ»؛ على هذا التأويل: بمعنى دافع إلى طريق الهدى، وقال مجاهد وابن زَيْد: المعنى: إنما أنت مُنْذِرٌ، ولكل أمة سَلَفَتْ هادٍ، أي: نبيٌّ يَدْعُوهم^(١)، أي: فليس أمرك يا محمد ببذع، ولا مُنْكَر، وهذا يشبه غرض الآية، وقالت فرقة: «الهادي» في هذه الآية: الله عز وجل، والألفاظ تَقْلُق بهذا المعنى، ويعرف أن الله تعالى هو الهادي من غير هذا المَوْضِع، والقولان الأولان أَرْجَحُ ما تُؤَوِّل في الآية.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۚ سَوَاءٌ مِنْكَ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۚ لَمْ تُعَقِّبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۚ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ۚ﴾

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾: هذه الآيات أمثالٌ منبهات على قدرة الله تعالى القاضية بتجوير البعث، ﴿وما تغيض الأرحام﴾: معناه: ما تنقص، ثم اختلف المتأولون في صورة الزيادة والثقصان، وجمهور المتأولين على أن غِيضَ الرَّحِمِ هو نقصُ الدم على الحمل، وقال الضحَّاك: غِيضُ الرَّحِمِ: أن تسقط المرأة الولد، والزيادة أن تضعه لمدة كاملة، ونحوه لقتادة^(٢).

وقوله: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾: عامٌ في كل ما يدخله التقدير، و﴿الغيب﴾: ما غاب عن الإدراكات، و﴿الشهادة﴾: ما شوهد من الأمور.

وقوله: ﴿الكبير﴾: صفة تعظيم، و﴿المتعال﴾: من العلو.

وقوله سبحانه: ﴿سواء منكم من أسر القول... الآية: أي: لا يخفى على الله شيء، وال «سارِبٌ»؛ في اللغة: المتصرف كيف شاء.

وقوله سبحانه: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾: المعنى: جعل الله للعبد معقبات يحفظونه في كل حالٍ من كل ما جرى القدرُ بأندفاعه،

(١) أخرجه الطبري (٣٤٣/٧). برقم: (٢٠١٤٩، ٢٠١٥٤) وبرقم: (٢٠١٥٦)، وذكره ابن عطية (٣/٢٩٧)، وابن كثير (٥٠١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٣٤٧/٧) برقم: (٢٠١٩٤) وبرقم: (٢٠١٨٨) بلفظ مختلف فقال: ﴿ما تغيض الأرحام﴾ ما تنقص من التسعة (وما تزداد) أي: ما فوق التسعة، وذكره ابن عطية (٣/٢٩٨)، وابن كثير (٥٠٢/٢)، والسيوطي (٨٧/٤ - ٨٨)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

فإذا جاء المَقْدُورُ الواقعُ، أسلم المَرْءُ إليه، وال «معقبات»؛ على هذا التأويل: الحَفَظَةُ على العِبَادِ أعمالهم، والحَفَظَةُ لهم أيضاً؛ قاله الحسن^(١)، وروى فيه عن عثمان بن عفان حديثاً عن النبي ﷺ، وهذا أقوى التأويلات في الآية، وعبارة البخاري: «معقبات»: ملائكة حَفَظَةُ يَعْقُبُ الأوَّل منها الآخر. انتهى.

وقالت فرقة: الضمير في «له» عائد على اسم الله المتقدم ذكره، أي: لله معقبات يحفظون عبده، والضمير في قوله: «يديه» وما بعده من الضمائر عائد على العبد، ثم ذكر سبحانه أنه لا يغير هذه الحالة من الحفظ للعبد؛ حتى يغير العبد ما بنفسه، وال «معقبات»: الجماعات التي يعقب بعضها بعضاً، وهي الملائكة، وهي الملائكة، وفي قراءة النبي ﷺ: «يَتَعَاقَبُ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ...»^(٢) الحديث، وفي قراءة أبي بن كعب: «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ / وَرَقِيبٌ مِنْ خَلْفِهِ»، وقرأ ابن عباس: «وَرُقَبَاءُ مِنْ خَلْفِهِ»^{٢٦٤ ب} يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ»، وقوله: «يَحْفَظُونَهُ»: أي: يحرسونه ويذُبُّون عنه، ويحفظون أيضاً أعماله، ثم أخبر تعالى؛ أنه إذا أراد بقوم سوءاً، فلا مردَّ له، ولا حِفْظَ منه.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢ وَيسُبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ. وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ. وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُخَذِّلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِسَابِ ۝١٣ لَمْ دَعُوهُ لَخِيقٌ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْئًا إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى آلاءِ لَيْلَةٍ فَأَمْ هُوَ بَلِيغٌ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝١٤﴾

وقوله سبحانه: «هو الذي يريكم البرق»... الآية: قد تقدَّم في أول البقرة تفسيره، والظاهر أن الخوف إنما هو من صَوَاعِقِ البرق، والطَّمَعُ في الماء الذي يكون معه، وهو قول الحسن^(٤)، و«السحاب»: جمع سحابة؛ ولذلك جمع الصفة، و«الثقال»: معناه: يحمل الماء، قاله قتادة ومجاهد^(٥)، والعرب تصفها بذلك، وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ، قَالَ: «سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ»^(٦)، وقال ابن أبي

(١) ذكره ابن عطية (٣/٣٠٠)، والسيوطي (٤/٩٠)، وعزاه لابن جرير.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٠٢)، و«البحر المحيط» (٥/٣٦٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٣/٣٠٣).

(٥) أخرجه الطبري (٧/٣٥٩) برقم: (٢٠٢٥٣) وبرقم: (٢٠٢٥٤، ٢٠٢٥٨)، وذكره ابن عطية (٣/

٣٠٣)، وابن كثير (٢/٥٠٥)، والسيوطي (٤/٩٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

حاتم، وأبي الشيخ.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/٣٦٠) برقم: (٢٠٢٦٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٩٧)، =

زكرياء: مَنْ قَالَ إِذَا سَمِعَ الرِّغْدَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَبِحَمْدِهِ، لَمْ تُصِبْهُ صَاعِقَةٌ.

* ت * وعن عبد الله بن عمر، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَمِعَ الرِّغْدَ وَالصَّوَاعِقَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ، لَا تُقَتِّلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»^(١)، رواه الترمذي والنسائي والحاكم في «المستدرک»، ولفظهم واحد انتهى من «السلام»، قال الداودي: وعن ابن عباس، قال: مَنْ سَمِعَ الرِّغْدَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرِّغْدَ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، فَإِنْ أَصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ، فَعَلِيَ دَيْتُهُ، انْتَهَى.

وقوله سبحانه: ﴿وِيرْسِلُ السَّوَاعِقَ...﴾ الآية: قال ابن جريج: كَانَ سَبَبُ نَزُولِهَا قِصَّةُ أَرْبَدَ، وَعَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ، سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ الْأَمْرَ بَعْدَهُ لِعَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ، وَيَدْخُلَا فِي دِينِهِ، فَأَبَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ تَأَمَّرَا فِي قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ عَامِرٌ لَأَرْبَدَ: أَنَا أَشْغَلُهُ لَكَ بِالْحَدِيثِ، وَأَضْرِبُهُ أَنتَ بِالسَّيْفِ، فَجَعَلَ عَامِرٌ يَحْدُثُهُ، وَأَرْبَدُ لَا يَصْنَعُ شَيْئًا، فَلَمَّا أَنْصَرَفَا، قَالَ لَهُ عَامِرٌ: وَاللَّهِ، يَا أَرْبَدُ، لَا خِفْتُكَ أَبَدًا، وَلَقَدْ كُنْتُ أَخَافُكَ قَبْلَ هَذَا، فَقَالَ لَهُ أَرْبَدُ: وَاللَّهِ، لَقَدْ أَرَدْتُ إِخْرَاجَ السَّيْفِ، فَمَا قَدَرْتُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَاكَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، أَفَأَضْرِبُكَ، فَمَضًيًا لِلْحَشْدِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَصَابَتْ أَرْبَدُ صَاعِقَةً، فَقَتَلَتْهُ، وَ﴿الْمِحَالُ﴾: الْقُوَّةُ وَالْإِهْلَاكُ.

* ت * وفي «صحيح البخاري»: ﴿الْمِحَالُ﴾: الْعُقُوبَةُ.

وقوله عز وجل: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾: الضمير في «له» عائذٌ على أَسْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قال ابن عباس: ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢)، يريد: وما كان من الشريعة في معناها.

= وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(١) أخرجه الترمذي (٤٦٩/٥٠) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا سمع الرعد، حديث (٣٤٥٠)، وأحمد (١٠٠/٢)، والنسائي في «الكبرى» (٢٣٠/٦) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول إذا سمع الرعد والصواعق، حديث (١٠٧٦٣ - ١٠٧٦٤)، والحاكم (٢٨٦/٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٢٩٨) من حديث ابن عمر، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٩٧/٤)، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبي الشيخ، والخرائطي في «مكارم الأخلاق».

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٣ - ٣٦٤) برقم: (٢٠٢٨٠ - ٢٠٢٨١)، وذكره البغوي (١٢/٣)، وابن عطية (٣٠٥/٣)، وابن كثير (٥٠٧/٢)، والسيوطي (١٠١/٤)، وعزه لعبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾: يراد به ما عُبدَ من دون الله، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ لكفار قريش وغيرهم، ومعنى الكلام: والذين يدعونهم الكفار في حوائجهم ومنافعهم ﴿لا يجيبونهم بشيء إلا﴾، ثم مثل سبحانه مثلاً لإجابتهم بالذي ينسبط كفيه نحو الماء، ويشير إليه بالإقبال إلى فيه، فلا / يبلغ قمه أبداً، فكذاك إجابة هؤلاء والانتفاع بهم لا يقع.

١٢٦٥

وقوله: ﴿هُوَ﴾: يريد به الماء، وهو البالغ، والضمير في ﴿بالغ﴾ للقم، ويصح أن يكون هو يراد به القم، وهو البالغ أيضاً، والضمير في ﴿بالغ﴾ للماء؛ لأن القم لا يبلغ الماء أبداً على تلك الحال، ثم أخبر سبحانه عن دعاء الكافرين؛ أنه في أتلاف وضلال لا يفيد.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا ۖ إِنَّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّحِيدُ الْقَهَّارُ ۝١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعَهُ لَأَفْتَدَوْا بِهِمْ أُولَٰئِكَ هُمْ سُوءَ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا لَهُمْ ۝١٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض...﴾ الآية: تنبيه على قدرته وعظمته سبحانه، وتسخير الأشياء له، والطعن على الكفار التاركين للسجود، و﴿من﴾: تقع على الملائكة عموماً، و﴿سجودهم﴾: طوع، وأما أهل الأرض، فالمؤمنون داخلون في ﴿من﴾، وسجودهم أيضاً طوع، وأما سجود الكفرة، فهو الكره، وذلك على معنيين، فإن جعلنا السجود هذه الهيئة المعهودة، فالمراد من الكفرة من أسلم، خوف سيف الإسلام؛ كما قاله قتادة^(١)، وإن جعلنا السجود الخضوع والتذلل، حسب ما هو في اللغة، فيدخل الكفار أجمعون في ﴿من﴾؛ لأنه ليس من كافر إلا ويلحقه من التذلل والاستكانة لقدرة الله تعالى أنواع أكثر من أن تحصي بحسب رزايته، وأعتباراته.

وقوله سبحانه: ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾: إخبار عن أن الظلال لها سجود لله

(١) ذكره ابن عطية (٣/٣٠٦)، والسيوطي (٤/١٠١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ...﴾ الآية [النحل: ٤٨]، وقال مجاهد: ظلُّ الكافر يسجدُ طوعاً، وهو كاره^(١) ورُوي أن الكافر إذا سجدَ لصنمه، فإن ظلَّهُ يسجدُ لله حيثُ، وباقي الآية بين، ثم مثل الكفار والمؤمنين بقوله: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾، وشبه الكافر بالأعمى، والكُفَر بالظلمات، وشبه المؤمن بالبصير، والإيمان بالنور.

وقوله سبحانه: ﴿قل الله خالق كل شيء﴾: لفظ عام يراد به الخصوص؛ كما تقدم ذكره في غير هذا الموضع.

وقوله سبحانه: ﴿أنزل من السماء ماء﴾: يريد به المطر، ﴿فسألت أودية بقدرها﴾: «الأودية»: ما بين الجبال من الانخفاض والخنادق، وقوله: ﴿بِقَدَرِهَا﴾: يحتمل أن يريد بما قُدِّر لها من الماء، ويحتمل أن يريد بقدر ما تحمله على قدر صغرها وكبرها.

* ت * وقوله: ﴿فأحتمل﴾ بمعنى: حمَلَ، كَأَقْتَدَرَ وَقَدَّرَ قاله * [ص] *.

و﴿الزَّيْدُ﴾ ما يحمله السيل من غُثاء ونحوه، و«الرابي»: المنتفخ الذي قد ربا، ومنه الرَبْوَة.

وقوله سبحانه: ﴿ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله﴾: المعنى: ومن الأشياء التي توقدون عليها ابتغاء الحلي، وهي الذهب والفضة، أو ابتغاء الاستمتاع بها في المرافق، وهي الحديد والرصاص والنحاس ونحوها من الأشياء التي توقدون عليها، فأخبر تعالى أن من هذه أيضاً إذا أحمي عليها يكون لها زبد مماثل للزبد الذي يحمله السيل، ثم ضرب سبحانه ذلك مثلاً للحق والباطل، أي: إن الماء الذي / تشربه الأرض من السيل، فيقع النفع به هو كالحق، والزبد الذي يخدم وينفس ويذهب هو كالباطل، وكذلك ما يخلص من الذهب والفضة والحديد ونحوه هو كالحق، وما يذهب في الدخان هو كالباطل.

وقوله: ﴿جُفَاءً﴾: مصدر من قولهم: «أَجْفَأَتِ القَدْرُ» إذا غَلَتْ حتى خَرَجَ زَبْدُهَا وذهب.

وقال * ص * ﴿جُفَاءً﴾: حال، أي: مضمحلاً متلاشياً، أبو البقاء: وهمزته منقلبة

(١) أخرجه الطبري (٣٦٧/٧) برقم: (٢٠٣٠٢)، وذكره البغوي (١٢/٣)، وابن عطية (٣٠٦/٣)، والسيوطي (١٠٢/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ بنحوه.

عن واو، وقيل: أصل. انتهى.

وقوله: ﴿ما ينفع الناس﴾: يريد الخالص من الماء ومن تلك الأحجار.

وقوله سبحانه: ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾: ابتداء كلام، و﴿الحسنى﴾: الجنة. ﴿والذين لم يستجيبوا﴾: هم الكفرة، و﴿سوء الحساب﴾: هو التقضي على المحاسب، والألأ يقع في حسابيه من التجاوز شيء؛ قاله شهر بن حوشب والتخعي وفرقد السبخي وغيرهم^(١).

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفُضُونَ الْعَيْثُ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَبَدَرُوا عَنِ الْمَسْنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)

وقوله سبحانه: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى...﴾ المعنى: أسوأ من هداه الله، فعلم صدق نبوتك، وأمن بك؛ كمن هو أعمى البصيرة باق على كفره؛ روي أن هذه الآية نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وأبي جهل، وهي بعد هذا مثال في جميع العالم، ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾: «إنما»؛ في هذه الآية: حاصرة، أي: إنما يتذكر، فيؤمن ويراقب الله من له لب، ثم أخذ في وصفهم، فقال: ﴿الذين يوفون بعهد الله...﴾ الآية: قال الثعلبي: قال عبد الله بن المبارك: هذه ثمان خلال مسيرة إلى ثمانية أبواب الجنة^(٢)، وقال أبو بكر الوراق: هذه ثمان جسور، فمن أراد القربة من الله عبّر بها. انتهى. وباقي الآية ألفاظها واضحة، وأنوارها لذوي البصائر لائحة.

﴿ويدرءون﴾: يدفعون.

قال الغزالي: لما ذكر هذه الآية: والذي أثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة، فليس من

(١) أخرجه الطبري (٣٧٣/٧) برقم: (٢٠٣٢٦)، وذكره البغوي (١٤/٣)، وابن عطية (٣٠٨/٣)، والسيوطي (١٠٥/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ولسعيد بن منصور، وابن جرير، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره البغوي (١٦/٣).

ذوي الألباب، ولذلك لا تُنْكَشِفُ له أسرارُ الكتاب، انتهى.

و﴿جنات﴾: بدل من ﴿عُقْبَى﴾ وتفسيرُ لها، و﴿عدن﴾: هي مدينةُ الجنةِ ووسَطُها، ومعناها: جناتُ الإقامة؛ مِنْ عَدَنَ فِي الْمَكَانِ، إِذَا أَقَامَ فِيهِ طَوِيلًا، ومنه المَعَادِنُ، و﴿جناتِ عَدْنٍ﴾: يقال: هي مَسْكَنُ الأنبياءِ والشُّهداءِ والعُلَمَاءِ فَقَطْ؛ قاله عبد الله بن عمرو بن العاص^(١)، ويروى أَنَّ لها خَمْسَةَ آلافِ باب، وقوله: ﴿ومن صلح﴾: أي: عمل صالحًا، و﴿الملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم﴾: أي: يقولون: سَلامٌ عَلَيْكُمْ، والمعنى: هذا بما صَبَرْتُمْ، وباقِي الآية واضح.

وقوله سبحانه: ﴿والذين يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ...﴾ الآية: هذه صفةُ حالٍ مضادةٍ للمتقدمة - نعوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ -.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي الْقُرْآنِ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ الآية: لما أخبر عَمَّنْ تَقَدَّمَ وصفه ب٢٦٥ بأنَّ لهم اللعنةَ وسوءَ الدار، أُنْحَى بعد ذلك على أغنيائهم، / وحَقَّرَ شأنهم وشَأْنَ أموالهم، المعنى: إِنَّ هَذَا كُلَّهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ يَهَبُ الْكَافِرَ الْمَالَ؛ لِيَهْلِكَ بِهِ، وَيَقْدِرُ عَلَى الْمُؤْمِنِ؛ لِيُعْظِمَ ذَلِكَ أَجْرَهُ وَدُخْرَهُ.

وقوله: ﴿ويقدر﴾: من التَّقْدِيرِ المناقِضِ لِلْبَسْطِ وَالْإِتْسَاعِ.

﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء...﴾ الآية: رد على مقترحي الآيات من كفار قريش؛ كما تقدَّم.

وقوله سبحانه: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾: «الذين»: بدلٌ مِنْ «مَنْ» في قوله: ﴿مَنْ أُنَابَ﴾، وطَمَئِنَةُ الْقُلُوبِ هي أَلَا سَتَكَانَةُ السُّرُورِ بِذِكْرِ اللَّهِ، والسُّكُونُ به، كَمَالاً به، ورضاً بالشَّوَابِ عليه، وجودة اليقين، ثم قال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾: أي: لا بِالْآيَاتِ الْمُقْتَرَحَةِ التي رُبَّمَا كُفِّرَ بعدها؛ فنزل العذاب، «والذين» الثاني:

(١) أخرجه الطبري (٣٧٦/٧) برقم: (٢٠٣٤١)، وذكره ابن عطية (٣/٣١٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/١٥٠).

مبتدأ، وخبره ﴿طوبى﴾ لهم.

واختلف في معنى ﴿طوبى﴾، فقال ابن عباس: ﴿طوبى﴾: اسمُ الجنةِ بالحَبَشِيَّة^(١)، وقيل: ﴿طوبى﴾: اسمُ الجنةِ بالهنديَّة، وقيل: ﴿طوبى﴾: اسمُ شجرةٍ في الجنة، وبهذا تواترت الأحاديث؛ قال رسولُ الله ﷺ: «طوبى أَسْمُ شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ يَسِيرُ الرَّابِطُ الْمُجِدُّ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا...»^(٢) الحديث.

قال * ص * : ﴿طوبى﴾: «فُعْلَى» من الطيب، والجمهور أنها مفردة مضدرة؛ كـ «سُقْيَا وبُشْرَى».

قال الضَّحَّاكُ: ومعناها: غِبْطَةٌ لهم^(٣)، قال الفرطبي^(٤): والصحيح أنها شجرة؛ للحديث المرفوع. انتهى.

* ت * : وروى الشيخُ الحافظ أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عليٍّ بنِ ثابتٍ بنِ الخطيبِ البغداديُّ في «تاريخه»، عن شيخه أبي نُعَيْمٍ الأصبهانيِّ بسنده عن أبي سَعِيدٍ الخدرِيِّ، عن النبي ﷺ أَن رجُلًا قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طُوبَى لِمَنْ رَاكَ وَأَمَنَ بِكَ! قَالَ: «طُوبَى لِمَنْ رَأَى وَأَمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرِنِي»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا طُوبَى؟ قَالَ: «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، يُثَابُ أَهْلُ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا»^(٥). انتهى من ترجمة «أحمد بن الحسن».

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ مَدَّ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتَلَوَّا عَلَيْهِمُ الذِّكْرَ أَتَوْحِينَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَن قُرْآنًا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلَّ اللَّهُ الْأُمَمَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِنِيسِ الذِّكْرَ ءَامَنُوا أَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ رَسُولُ مِن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

(١) أخرجه الطبري (٣٨١/٧) برقم: (٢٠٣٧٣)، وذكره البغوي (١٨/٣)، وابن عطية (٣١٢/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥١٢/٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري (٣٨١/٧) برقم: (٢٠٣٦٥)، وابن عطية (٣١٢/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥١٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١١/٤)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢٠٨/٩).

(٥) تقدم تخريجه.

وقوله تعالى: «كذلك أرسلناك في أمة قد خَلَتْ من قبلها أمم»: أي: كما أجرينا عَادَتَنَا، «كذلك أرسلناك...» الآية.

وقوله: «وهم يكفرون بالرحمن»: قال قتادة: نزلت في قريش: لما كُتِبَ في الكتاب: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» في قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، فقال قائلهم: نَحْنُ لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ^(١).

قال * ع^(٢): * وذلك منهم إِبَاءُ أَسْمٍ فَقَطْ، وهروبٌ عن هذه العبارة التي لم يَعْرِفُوها إِلَّا مِنْ قِبَلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وال «مَتَابُ»: المرجعُ؛ كـ «المآب» لأن التوبة هي الرجوعُ.

وقوله سبحانه: «ولو أن قرآنًا سِيرَتْ به الجبال أو قطعت به الأرض...» الآية: قال ابن عباس وغيره: إن الكفار قالوا للنبي ﷺ: أَرِخْ عَنَّا وَسِرِّ جَبَلِي مَكَّةَ، فَقَدْ ضَيَّقَا عَلَيْنَا، وَأَجْعَلْ لَنَا أَرْضَنَا قِطْعَ غِرَاسَةٍ وَحَرْثٍ، وَأَخِي لَنَا آبَاءَنَا وَأَجْدَادَنَا، / وَقُلَانَا وَقُلَانَا، ١٢٦٦ فنزلت الآية في ذلك معلمة أنهم لا يُؤْمِنُونَ، ولو كان ذلك كله^(٣).

وقوله تعالى: «أفلم يَنْتَسِ الذين آمنوا...» الآية: «يَنْتَسِ»: معناه: يعلم، وهي لغة هَوَازَنَ، وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس وجماعة: «أَفَلَمْ يَتَّبِعِينَ»، ثم أخبر سبحانه عن كُفَّارِ قريش والعرب؛ أنهم لا يزالونَ تصيِّبُهُمْ قِوَارِغٌ من سرايا النبي ﷺ وغزواته، ثم قال: «أَوْ تَحُلْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ». [هذا تأويلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وغيره^(٤)].

وقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى: أو تَحُلْ القارعةُ قَرِيبًا من دارهم^(٥)، و«وعد الله»؛ على قول ابن عباس وغيره: هو فَتْحُ مَكَّةَ، وقال الحسن: الآيةُ عامَّةٌ في الكُفَّارِ إِلَى

(١) أخرجه الطبري (٣٨٥/٧) برقم: (٢٠٣٩٦)، وذكره البغوي (١٩/٣) بنحوه، وابن عطية (٣١٢/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥١٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١٦/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ينظر: «المحرر» (٣١٢/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٣٨٦/٧) برقم: (٢٠٣٩٩)، وذكره ابن عطية (٣١٣/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥١٥) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١٦/٤)، وعزاه للطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبري (٣٨٩/٧) برقم: (٢٠٤١٧)، وذكره البغوي (٢٠/٣) بنحوه، وابن عطية (٣١٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥١٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١٩/٤)، وعزاه للطيالسي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

(٥) أخرجه الطبري (٣٩١/٧) برقم: (٢٠٤٣٦)، وذكره ابن عطية (٣١٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥١٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١٩/٤)، وعزاه لابن جرير.

بالآية: مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ^(١) وغيره.

قال * ع^(٢): والمعنى مَذَحَهُمْ، وباقي الآية بَيَّن.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣٩) وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَ عِلْمُهُ الْكُنُوزَ لِمَنْ عَقِيَ الدَّارِ (٤٢) وَيَسْأَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)

وقوله سبحانه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾: المعنى أَنَّ اللَّهَ سبحانه يَمْحُو من الأمور ما يَشَاءُ، وَيُغَيِّرُهَا عن أحوالها مما سَبَقَ في عِلْمِهِ مَخَوُهُ وَتَغْيِيرُهُ، وَيُثَبِّتُهَا في الْحَالَةِ الَّتِي يُثَقِّلُهَا إِلَيْهَا حَسَبَ مَا سَبَقَ في عِلْمِهِ.

قال * ع^(٣): وَأَصَوَّبَ مَا يَفْسِّرُ بِهِ ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾: أَنَّهُ كِتَابُ الْأُمُورِ الْمَجْزُومَةِ الَّتِي قَدْ سَبَقَ الْقَضَاءُ فِيهَا بِمَا هُوَ كَائِنٌ، وَسَبَقَ الْأُتْبُدُّلُ وَيَبْقَى الْمَخُوُّ وَالتَّثْبِيتُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي سَبَقَ فِي الْقَضَاءِ أَنْ تَبْدُلَ وَتَمْحَى وَتُثَبِّتَ؛ قَالَ نَحْوُهُ قَتَادَةُ^(٤)، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾: «إِنْ»: شَرْطٌ دَخَلَتْ عَلَيْهَا «مَا»، وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، «أَوْ» عاطِفَةٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّمَا﴾: جَوَابُ الشَّرْطِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: إِنْ تُبْقِكَ يَا مُحَمَّدُ، لَنَرَى بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ، أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَعَلَى كِلَا الْوَجْهَيْنِ، فَإِنَّمَا يَلْزِمُكَ الْبَلَاغُ فَقَطْ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: عَائِدٌ عَلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ؛ كَالَّذِي فِي «نَعِدُهُمْ».

وقوله: ﴿نَاتِي﴾: مَعْنَاهُ: بِالْقُدْرَةِ وَالْأَمْرِ. وَ«الْأَرْضُ»: يَرِيدُ بِهَا أَسْمَ الْجِنْسِ، وَقِيلَ: يَرِيدُ أَرْضَ الْكُفَّارِ الْمَذْكُورِينَ، الْمَعْنَى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَاتِي أَرْضَ هَؤُلَاءِ بِالْفَتْحِ / عَلَيْكَ، فَتَنْقُصُهَا بِمَا يَدْخُلُ فِي دِينِكَ مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْبِلَادِ الْمَجَاوِرَةِ لَهُمْ، فَمَا يُؤْمِنُهُمْ أَنْ نَمَكِّنَكَ مِنْهُمْ أَيْضًا؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَهَذَا عَلَى أَنَّ الْآيَةَ مَدْنِيَّةٌ^(٥)، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْأَرْضَ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٩٧/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٤٥٨) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٣١٥)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٧/١٢١)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ.

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحَرَّرُ» (٣/٣١٥).

(٣) يَنْظُرُ: «الْمَحَرَّرُ» (٣/٣١٨).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٤/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٥٠٧) بِنَحْوِهِ، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٣١٨)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢/٥٢٠) بِنَحْوِهِ، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤/١٢٥)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ.

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٦/٧) بِرَقْمٍ (٢٠٥١٤) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٣/٢٤)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٣١٩)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢/٩٢٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤/١٢٧)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ.

أَسْمُ جَنَسٍ، جَعَلَ أَنتَقَاصَ الْأَرْضِ بِتَخْرِيبِ الْعُمُرَانِ الَّذِي يُجِلُّهُ اللَّهُ بِالْكَفَّارِ، وَقِيلَ:
الْأَنْتَقَاصُ بَمَوْتِ الْبَشَرِ، وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ، وَقِيلَ: بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَخْيَارِ؛ قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ أَيْضاً^(١)، وَكُلُّ مَا ذَكَرَ يَدْخُلُ فِي لَفْظِ الْآيَةِ، وَجُمْلَةُ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: الْمَوْعِظَةُ
وَضَرْبُ الْمَثَلِ، وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ بِسَنَدِهِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ فِي
مَعْنَى «تَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا» قَالَ: بِذَهَابِ فَقَهَايِهَا، وَخِيَارِ أَهْلِهَا؛ وَعَنْ وَكِيعٍ^(٢) نَحْوَهُ.
وَقَالَ الْحَسَنُ: نَقْصَانُهَا: هُوَ بَظْهُورُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ^(٣).

قَالَ أَبُو عَمْرٍو: وَقَوْلُ عَطَاءٍ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ حَسَنٌ جِدًّا، تَلَقَّاهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْقَبُولِ، وَقَوْلُ
الْحَسَنِ أَيْضاً حَسَنٌ. انْتَهَى.

وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: «فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً»: أَيِ: الْعُقُوبَاتِ الَّتِي أَحْلَاهَا بِهِمْ، وَسَمَّاهَا مَكْرًا
عَلَى عُرْفِ تَسْمِيَةِ الْعُقُوبَةِ بِأَسْمِ الذَّنْبِ، وَبَاقِي الْآيَةِ تَحْذِيرٌ وَوَعِيدٌ.

«وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا»: الْمَعْنَى: وَيَكْذِبُكَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَةُ؛
وَيَقُولُونَ: لَسَتْ مُرْسَلًا. «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا»: أَيِ: شَاهِدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، «وَمَنْ عِنْدَهُ
عِلْمُ الْكِتَابِ»: قَالَ قَتَادَةُ: يَرِيدُ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ؛ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ^(٤)، كَمَلْ تَفْسِيرُ
السُّورَةِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٦/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٥١٩)، (٤٠٧/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٥٢٣)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٣١٩)،
وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٢/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ» (١٢٧/٤)، وَعَزَاهُ
لِابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٨/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٥٣٣)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٢٤/٣)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٣١٩)،
وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٢/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ» (١٢٦/٤) وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ،
وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَنَعِيمِ بْنِ حَمَادٍ فِي «الْفَتَنِ»، وَابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ
وَصَحَّحَهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٦/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٥١٧)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٢/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ
الْمُنْتَوَرِ» (١٢٦/٤)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤١٠/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٥٤٢)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٢٥/٣) بِنَحْوِهِ، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٣٢٠)،
وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢١/٢) بِنَحْوِهِ، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ» (١٢٨/٤)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ،
وَابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

تفسير سورة إبراهيم

هذه السورة مكية إلا آيتين، وهما قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا...﴾ [إبراهيم: ٢٨] إلى آخر الآيتين، ذكره مكِّي والثَّقَاش.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ أَنْزَلَنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ③﴾

قوله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ أَنْزَلَنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ قال القاضي ابن الطَّيْب، وأبو المعالي وغيرهما: إن الإنزال لم يتعلق بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، لكن بالمعاني التي أفهمها الله تعالى جبريل عليه السلام من الكلام. وقوله: ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾: في هذه اللفظة تشريف للنبي ﷺ وعَمَّ الناس؛ إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق، وقرأ نافع وابن عامر^(١): «اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» برفع أسم الله؛ على القطع والابتداء، وقرأ الباقون بحفص الهاء، «وويل»: معناه: وشدة وبلاء، وباقي الآية بين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ④﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

(١) ينظر: «الحجة» (٢٥/٥)، و«إعراب القراءات السبع» (٣٣٤/١)، و«حجة القراءات» (٣٧٦)، و«الإتحاف» (١٦٦/٢)، و«المحرر الوجيز» (٣٢٢/٣)، و«البحر المحيط» (٣٩٣/٥)، و«الدر المصون» (٢٥٠/٤)، و«السبعة» (٣٦٢)، و«معاني القراءات» (٦١/٢)، و«شرح الطيبة» (٣٩٦/٤)، و«العنوان» (١١٥)، و«شرح شعلة» (٤٤٩ - ٤٥٠).

وَيَذَرُوكَ أَبْنَاءَكُم مَّوَسَّخُونَ نِسَاءَكُم فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم...﴾ الآية، هذه الآية طعن ورد على المستغربين أمر محمد ﷺ، وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه لموسى: ﴿وذكرهم بأيام الله﴾: أي: عظمهم بالتهديد بنقم الله التي / ١٢٦٧ أحلها بالأمم الكافرة قبلهم، وبالتعدي لنعمه عليهم، وعبر عن النعم والنقم بـ «الأيام»؛ إذ هي في أيام، وفي هذه العبارة تعظيم هذه الكوائن المذكر بها، وفي الحديث الصحيح: «بينما موسى في قومه يذكرهم أيام الله...» الحديث، في قصة موسى مع الخضر.

قال عياض في «الإكمال»: «أيام الله»: نغماؤه وبلاؤه، انتهى. وقال الداودي: وعن النبي ﷺ: «وذكرهم بأيام الله»: قال: ينعم الله وعن قتادة: ﴿آيات لكل صبار شكور﴾: قال: نعم، والله، العبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. انتهى^(١).

وقال ابن العربي في «أحكامه»: وفي «أيام الله» قولان: أحدهما: نعمه. والثاني: نقمه. انتهى.

﴿وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي آفْوِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾﴾

وقوله: ﴿وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لئن شكرتم لأزيدنكم...﴾ الآية: «تأذَّن»: بمعنى آذَن، أي: أعلم.

قال بعض العلماء: الزيادة على الشكر ليست في الدنيا، وإنما هي من نعم الآخرة، والدنيا أهون من ذلك.

قال ع^(٢): * وجائز أن يزيد الله المؤمن على شكره من نعم الدنيا والآخرة، «والكفر»؛ هنا: يحتمل أن يكون على بابه، ويحتمل أن يكون كفر النعم، لا كفر الجحد،

(١) أخرجه الطبري (٤١٨/٧) برقم: (٢٠٥٨١)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥٢٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٢/٤)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢٥/٣).

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن رَّوَيْهِ جَهَنَّمَ وَنُفِثَ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾: ﴿أَسْتَفْتَحُوا﴾: أي: طلبوا الحُكْمَ، و«الْفَتْحُ» الحاكم، والمعنى: أنَّ الرسل أَسْتَفْتَحُوا، أي: سألوا الله تبارك وتعالى إنفاذَ الحُكْمِ بنصرهم.

وقيل: بَلِ اسْتَفْتَحَ الْكُفَّارُ عَلَى نَحْوِ قَوْلِ قَرِيشٍ: ﴿عَجَلْ لَّنَا قِطْنًا...﴾ [ص: ١٦] وعلى نحو قول أبي جهل يوم بَذَرِ: اللَّهُمَّ، أَقْطِعْنَا لِلرَّحِمِ، وَأَتَيَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُ، فَأَخْبِهِ الْغَدَاةَ، وهذا قول ابن زيد^(١)، وقرأت فرقة: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾^(٢) - بكسر التاء -؛ على معنى الأمر للرسل، وهي قراءة ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِنٍ: ﴿وَخَابَ﴾: معناه: خسر ولم ينجح، والـ ﴿جَبَّارٌ﴾: المتعظم في نفسه، والـ ﴿عَنِيدٌ﴾: الذي يعاند ولا يناقد.

وقوله: ﴿مِّن رَّوَيْهِ﴾: قال الطبري^(٣) وغيره: مِنْ أَمَامِهِ، وعلى ذلك حملوا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، وليس الأمر كما ذكروا، بل الْوَرَاءُ هُنَا وَهَنًا عَلَى بَابِهِ، أي: هو / ما يَأْتِي بَعْدُ فِي الزَّمَانِ، وذلك أن التقدير في هذه الْحَوَادِثِ ٢٦٧ بـ بِالْأَمَامِ وَالْوَرَاءِ، إِنَّمَا هُوَ بِالزَّمَانِ، وما تقدَّم فهو أَمَامٌ، وهو بَيْنَ الْيَدِ؛ كما نقول في التوراة والإنجيل: إِنَهُمَا بَيْنَ يَدَيِ الْقُرْآنِ، والقُرْآنُ وَرَاءَهُمْ، وعلى هذا فما تأخَّر في الزَّمَانِ فهو وَرَاءَ الْمُتَقَدِّمِ، ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾: «الصدید» القَيْحُ والدَّمُ، وهو ما يسيل من أَجْسَادِ أَهْلِ النَّارِ؛ قاله مجاهد^(٤) والضَّحَّاك.

﴿يَجْرَعُهُمْ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِثٍّ وَمِنْ رَّوَيْهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ

(١) أخرجه الطبري (٤٢٨/٧) برقم: (٢٠٦٢٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٣٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٦/٢) بنحوه.

(٢) وقرأ بها ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن. قال أبو الفتح: هو معطوف على ما سبق من قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾، أي: قال لهم: استفتحوا.

ينظر: «المحتسب» (٣٦٠/١)، و«الشواذ» ص: (٧٢)، و«المحرر الوجيز» (٣٣٠/٣)، و«البحر المحيط» (٤١٠/٥)، و«الدر المصون» (٢٥٦/٤). ينظر: «تفسير الطبري» (٤٢٨/٧ - ٤٢٩).

(٤) أخرجه الطبري (٤٢٩/٧) برقم: (٢٠٦٢٧)، ويرقم: (٢٠٦٣١) بنحوه، وذكر ابن عطية (٣٣١/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٨/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث والنشور».

عَاصِفٌ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْدُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَوْ تَرَأَيْتَ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ نَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الصُّعْفَتَانِ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجِينَ ﴿٢١﴾

وقوله: ﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾: عبارة عن صعوبة أمره عليهم، وروي أنَّ الكافر يؤتى بالشربة من شراب أهل النار، فيتكرهها، فإذا أدت منه، شوت وجهه، وسقطت فيها فروة رأسه، فإذا شربها، قطعت أمعاءه، وهذا الخبر مفرق في آيات من كتاب الله عز وجل، ﴿ويأتية الموت من كل مكان﴾، أي: من كل شعرة في بدنه؛ قاله إبراهيم التيمي^(١)، وقيل: من جميع جهاته الست، ﴿وما هو بميت﴾: لا يراخ بالموت، ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ قال الفضيل بن عياض: العذاب الغليظ: حبس الأنفاس في الأجساد، وفي الحديث: «تخرج عنق من النار تكلم بلسان طليق ذلي لها عيتان تبصر بهما، ولها لسان تكلم به، فتقول: إني أمرت بمن جعل مع الله إلهاً آخر، ويكل جبار غني، وبمن قتل نفساً بغير نفس، فتتطلق بهم قبل سائر الناس بخمسمائة عام، فتنطوي عليهم، فتقذفهم في جهنم»، خرجه البزار^(٢)، انتهى من «الكوكب الدرر».

وقوله: ﴿في يوم عاصف﴾ وصف اليوم بالعُصوف، وهي من صفات الريح بالحقيقة؛ لما كانت في اليوم، كقول الشاعر: [الطويل]

وَنَمْتُ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمٍ
وباقى الآية بين.

(١) أخرجه الطبري (٤٣٠/٧) برقم (٢٠٦٣٦)، وذكره البغوي (٢٩/٣)، وابن عطية (٣٣١/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٩/٣) وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الترمذي (٧٠١/٤) كتاب «صفة جهنم» باب: ما جاء في صفة النار، حديث (٢٥٧٤) بنحوه، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح.

(٣) عجز بيت وصدرة:

لقد لمتنا يا أم عيلان في السرى

والبيت لجرير في «ديوانه» ص: (٩٩٣)، و«خزانة الأدب» (٤٦٥/١)، (٢٠٢/٨)، و«الكتاب» (١/١٦٠)، و«لسان العرب» (٤٤٢/٢) (ريح)، وبلا نسبة في «الأشياء والنظائر» (٦٠/٨)، و«الإنصاف» (٢٤٣/١)، و«تخليص الشواهد» ص: (٤٣٩)، والصاحبي في «فقه اللغة» (٢٢٢)، و«المحتسب» (٢/١٨٤)، و«المقتضب» (١٠٥/٣)، (٣٣١/٤).

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: معناه: صاروا في البراز، وهي الأرض المتسعة، ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾، وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، وهم القادة وأهل الرأي، وقولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيضٍ﴾: «المحيض»: المفز والمَلَجَأُ مأخوذٌ من حَاصٍ يَحِيضُ؛ إذا نفر وفر؛ ومنه في حديث هِرَقْلَ: «فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ» وروى عن ابن زيد، وعن محمد بن كَغَب؛ أن أهل النار يقولون: إنما نال أهل الجنة الرخمة بالصبر على طاعة الله، فتعالوا فلنصبر، فيصبرون خمسمائة سنة، فلا يتفجعون، فيقولون: هلم فلنجزع، فيضجئون ويصيحون ويبنكون خمسمائة سنة أخرى، فحينئذ يقولون هذه المقالة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا...﴾ الآية، وظاهر الآية أنهم إنما يقولونها في موقف العِرض وقت البروز بين يدي الله عز وجل^(١).

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْأ أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِ إِيَّكُمْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر﴾: المراد هنا بـ «الشيطان» إبليس الأقدم، وروى عن النبي ﷺ من طريق عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أنه قال: يقوم يوم القيامة خطيبان؛ أحدهما: إبليس يقوم في الكفرة بهذه الألفاظ، والثاني: عيسى ابن مريم يقوم بقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ...﴾ الآية [المائدة: ١١٧]، وروى في حديث؛ أن إبليس إنما يقوم بهذه الألفاظ في النار على أهلها عند قولهم: ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيضٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] في الآية المتقدمة؛ فعلى هذه الرواية، يكون معنى قوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾، أي: حصل أهل النار في النار، وأهل الجنة في الجنة، وهو تأويل الطبري^(٢).

١٢٦٨

وقوله: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾: أي: من حجة بيّنة، و﴿إلا أن دعوتكم﴾؛ استثناء منقطع، ويحتمل أن يريد بـ «السُّلْطَان» في هذه الآية: الغلبة والقدرة والمُلْك، أي: ما اضطرتكم، ولا خوّفتمكم بقوة مني، بل عرضت عليكم شيئاً فأتى رأيكم عليه.

(١) أخرجه الطبري (٤٣٣/٧) برقم: (٢٠٦٤٠)، ويرقم: (٢٠٦٤١)، وذكره البغوي (٣٠/٣)، وابن عطية (٣٣٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٠/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «الطبري» (٤٣٣/٧).

وقوله: ﴿فلا تلوموني﴾: يريد: بزعمه؛ إذ لا ذنب لي، ﴿ولوموا أنفسكم﴾، أي: في سوء نظركم في أتباعي، وقلة تثبتكم؛ ﴿ما أنا بمصرخكم﴾: «المُصرخُ»: المغيث، والصَّارِخُ: المستغيث، وأما الصَّريخ، فهو مصدرٌ بمنزلة البريح، وقوله: ﴿إني كَفَرْتُ بما أشركتمون﴾: «ما» مصدرية، وكأنه يقول: إني الآن كافرٌ بإشراككم إياي مع الله قبل هذا الوقت، فهذا تبرُّ منه، وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]. وقوله عز وجل: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: «الإذن»؛ هنا: عبارة عن القضاء والإمضاء.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝٢٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة﴾: «ألم تر»: بمعنى: ألم تعلم، قال ابن عباس وغيره: الكلمة الطيبة: هي لا إله إلا الله^(١)، مثلها الله سبحانه بالشجرة الطيبة، وهي النخلة في قول أكثر المتأولين، فكأن هذه الكلمة أصلها ثابت في قلوب المؤمنين، وفضلها وما يصدُر عنها من الأفعال الزكية وأنواع الحسنات هو فرعها يصعد إلى السماء من قبل العبد، والحين: القطعة من الزمان غير محدودة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]، وقد تقتضي لفظة «الحين» بقرينتها تحديداً؛ كهذه الآية، و«الكلمة الخبيثة»: هي كلمة الكفر، وما قاربها من كلام السوء في الظلم ونحوه، و«الشجرة الخبيثة»: قال أكثر المفسرين: هي شجرة الحنظل؛ ورواه أنس عن النبي ﷺ^(٢) وهذا عندي على جهة المثل، «اجْتُثَّتْ»: أي: أَقْتُلِعَتْ جثتها بنزع الأصول، وبقيت في غاية الوهن والضعف، فتقلبها أقل ريح، فالكافر يرى أن بيده شيئاً، وهو لا يستقر ولا يُغني عنه؛ كهذه الشجرة الذي يُظن بها على بُعد أو للجهل بها أنها شيء نافع، وهي خبيثة الجني غير باقية.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ

(١) أخرجه الطبري (٤٣٧/٧) برقم: (٢٠٦٥٩)، وذكره ابن عطية (٣/٣٣٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٣٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٤٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة إبراهيم عليه السلام، حديث (٣١١٩)، والطبري (١٣/٢٠٥)، وأبو يعلى (٧/١٨٢ - ١٨٣) برقم: (٤١٦٥)، والحاكم (٣/٣٥٢)، وابن حبان (٤٦٨) من حديث أنس مرفوعاً به، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾: ﴿الْقَوْلُ الثَّابِتُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: كلمة الإخلاص والنجاة من النار: «لا إله إلا الله»، والإقرار بالنبوة، وهذه الآية تعم العالم من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة. قال طاووس، وقتادة، وجمهور من العلماء: ﴿الحياة الدنيا﴾ هي مدة حياة الإنسان، ﴿وفي الآخرة﴾ وقت سؤاله في قبره^(١)، وقال البراء بن عازب وجماعة: ﴿في الحياة الدنيا﴾: هي وقت سؤاله في قبره، ورواه البراء عن النبي ﷺ في لفظ متاويل، وفي الآخرة: هو يوم القيامة عند العرض، والأول أحسن، ورجحه الطبري.

* ت^(٢): * ولفظ البخاري عن البراء بن عازب / أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾». انتهى، وحديث البراء خرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه^(٣)، قال صاحب «التذكرة»^(٤): وقد روى هذا الحديث أبو هريرة وابن مسعود وابن عباس وأبو سعيد الخدري قال أبو سعيد

(١) أخرجه الطبري (٤٥١/٧) برقم: (٢٠٧٧٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٣٧/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٣٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٤٤٩/٧) برقم: (٢٠٧٦٣) بنحوه، وذكره البغوي (٣٤/٣)، وذكره ابن عطية (٣/٣٣٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٣٢/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٨/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٤/٣) كتاب «الجنائز» باب: ما جاء في عذاب القبر، حديث (١٣٦٩)، وفي (٨/٢٢٩) كتاب «التفسير» باب: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، حديث (٤٦٩٩)، ومسلم (٤/٢٢٠١) كتاب «الجنة» باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، حديث (٢٨٧١/٧٣)، وأبو داود (٢/٦٥١) كتاب «السنة» باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، حديث (٤٧٥٠)، والترمذي (٥/٢٩٥ - ٢٩٦)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة إبراهيم، حديث (٣١٢٠)، والنسائي (٤/١٠١) كتاب «الجنائز» باب: عذاب القبر، حديث (٢٠٥٧)، وابن ماجه (٢/١٤٢٧) كتاب «الزهد» باب: ذكر القبر والبلى برقم: (٤٢٦٩)، والطيالسي (٢/٢٠ - منحة) برقم: (١٩٥٩). كلهم من طريق سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب به، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٤٦)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (١/١٦٦).

هذه الآية: هو محمد ﷺ ودينه، ﴿وَأَحْلُوا/ قومهم﴾، أي: مَنْ أطاعهم، وكأنَّ الإشارة ١٢٦٩ والتعنيف إنما هو للرووس والأغلام، و﴿البوار﴾: الهلاك، قال عطاء بن يسار: نزلت هذه الآية في قتلى^(١) بذر، و﴿الأنداد﴾: جمع نَد، وهو المثل، والمراد: الأصنام، واللام في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ - بضم الياء -: لام كني، ويفتحها: لام عاقبة وصيرورة، والقراءتان^(٢) سبعيتان.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾ الآية: «العباد»: جمع عبد، وعُزْفُهُ في التكرمة بخلاف العبيد، و«السِر»: صدقة التنفل، و«العلانية»: المفروضة؛ هذا هو مقتضى الأحاديث، وفسر ابن عباس هذه الآية بركة الأموال مجملًا، وكذلك فسر الصلاة؛ بأنها الخمس وهذا عندي منه تقريب للمخاطب^(٣). و«الخلال»: مصدر من «خَالَ»، إذا وادَّ وصافى؛ ومنه الخلَّة والخليل، والمراد بهذا اليوم يوم القيامة.

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾: هذه الآية تذكير بالآله سبحانه، وتبيين على قدرته التي فيها إحسان إلى البشر؛ لتقوم الحجة عليهم، وقوله: ﴿بِأَمْرِهِ﴾: مصدر أَمَرَ يَأْمُرُ، وهذا راجع إلى الكلام القديم القائم بالذات، و﴿دَائِبَيْنِ﴾: معناه: متماديتين، ومنه قوله ﷺ لصاحب الجمل

(١) أخرجه الطبري (٤٥٥/٧) برقم: (٢٠٨١٣)، وذكره ابن عطية (٣/٣٣٨)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٥٧/٦)، وعزاه لابن جرير.

(٢) وتفصيل هذه القراءة على ما يلي: قرأ أبو كثير وأبو عمرو: «ليضلوا» بفتح الياء، أي: ليصيروا هم ضللاً.

وحجتها: قوله تعالى: ﴿إِنْ رِبْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [النحل: ٣٠].

وقرأ الباقر: «ليضلوا» بضم الياء، أي: ليضلوا غيرهم، وحجتهم: أن الله سبحانه وصفهم قبل بأنهم ضالون في أنفسهم، فقال: ﴿وجعلوا لله أنداداً﴾، فكان الحال يقتضي زيادة معنى، وهو: أنهم لم يتوقفوا عن ضلالهم هم، بل عدوه إلى غيرهم.

ينظر: «شرح الطيبة» (٤/٣٩٦)، و«العنوان» (١١٥)، و«حجة القراءات» (٣٧٨)، و«إتحاف فضلاء البشر» (١٦٩/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٤٥٧/٧) برقم: (٢٠٨٢٣)، وذكره ابن عطية (٣/٣٣٩).

الذي بَكَى وَأَجْهَشَ^(١) إِلَيْهِ: «إِنَّ هَذَا الْجَمَلَ شَكَا إِلَيَّ أَنْكَ تُجِيعُهُ وَتُذَيِّبُهُ»^(٢)، أي: تديمه في الخِذْمَةِ والعَمَلِ، وظاهر الآية أَنَّ معناه: دائِبِينَ في الطلوع والغروب وما بينهما من المَنَافِعِ للناس التي لا تحصى كثرة، وعن ابن عباس أَنَّهُ قال: معناه: دائِبِينَ في طاعة الله^(٣)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ المعنى: أَنَّ جنس الإنسان بجملته قد أوتي من كلِّ ما شأنه أَنْ يسأل ويتنفع به، وقرأ ابن عباس^(٤) وغيره: «مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» - بتووين كُلِّ -، ورويت عن نافع، وقوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، أي: لكثرتها وعظمتها في الحَوَاسِ والقُوَى، والإيجادِ بعد العَدَمِ والهداية للإيمان وغير ذلك، وقال طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ: إِنَّ حَقَّ اللَّهِ تعالى: أَثْقَلُ مِنْ أَنْ يَقُومَ بِهِ الْعِبَادُ، وَنِعْمَةٌ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَحْصِيهَا الْعِبَادُ، وَلَكِنْ أَصْبَحُوا تَوَائِبِينَ، وَأَمْسُوا تَوَائِبِينَ.

* ت^(٥): * وَمِنْ «الْكَلِمِ الْفَارِقِيَّةِ»: أَيُّهَا الْحَرِيصُ عَلَى نَيْلِ عَاجِلِ حَظِّهِ وَمِرَادُهُ؛ الْغَافِلُ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِمَعَادِهِ تَنْبِيهُ لِعَظَمَةِ مَنْ وَجُودُكَ بِإِيجَادِهِ؛ وَبِقَاوُكُ بِإِزْفَادِهِ؛ وَدَوَامُكَ بِإِمْدَادِهِ، وَأَنْتَ طِفْلٌ فِي حَجَرٍ لُطْفِهِ؛ وَمَهْدُ عَطْفِهِ؛ وَحِصَانَةُ حِفْظِهِ، يَغْذُكَ بِلَبَانٍ بِرِّهِ؛ وَيَقْلِبُكَ بِأَيْدِي أَيْدِيهِ وَفَضْلِهِ؛ وَأَنْتَ غَافِلٌ عَنِ تَعْظِيمِ أَمْرِهِ؛ جَاهِلٌ بِمَا أَوْلَاكَ مِنْ لَطِيفِ سِرِّهِ؛ وَفَضْلِكَ بِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَذْكُرُ عَهْدَ الْإِيجَادِ، وَدَوَامَ الْإِمْدَادِ وَالْإِرْفَادِ؛ وَحَالَتِي الْإِضْطَارَّ وَالْإِيرَادِ؛ وَفَاتِحَةَ الْمَبْدِ وَخَاتِمَةَ الْمَعَادِ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾: يُرِيدُ بِهِ النُّوعَ والجِنْسَ، المعنى: تَوَجَّدَ فِيهِ هَذِهِ

(١) الْجَهْشُ وَالْإِجْهَاشُ: أَنْ يَفْزَعَ الْإِنْسَانُ إِلَى غَيْرِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَأَنَّهُ يَرِيدُ الْبُكَاءَ، كَالصَّبِيِّ يَفْزَعُ إِلَى أُمِّهِ وَأَبِيهِ وَقَدْ تَهَيَّأَ لِلْبُكَاءِ.

ينظر: «النهاية» (٣٢٢/١) و«لسان العرب» (٧١٣).

(٢) ذكره السيوطي في «الخصائص الكبرى» (٩٥/٢)، وعزاه إلى ابن أبي شيبه، وأبي نعيم، والبيهقي كلاهما في «الدلائل».

(٣) أخرجه الطبري (٤٥٨/٧) برقم: (٢٠٨٢٦)، وذكره البغوي (٣٦/٤)، وابن عطية (٣٣٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن جرير.

(٤) وقرأ بها الحسن، وجعفر بن محمد، وسلام بن منذر، والضحاك، ومحمد بن علي، وعمرو بن فائد، ويعقوب، قال أبو الفتح: أما على هذه القراءة فالمفعول ملفوظ به، أي: وأتاكم ما سألتموه أن يؤتيكم منه، وأما قراءة الجماعة... على الإضافة، فالمفعول محذوف: أي: وأتاكم سؤلکم من كل شيء. ينظر: «المحتسب» (٣٦٣/١)، و«الشواذ» ص: (٧٣)، و«المحرر الوجيز» (٣٤٠/٣)، و«البحر المحيط» (٤١٦/٥)، و«الدر المصون» (٢٧٢/٤).

(٥) أخرجه الطبري (٤٥٩/٧) برقم: (٢٠٨٣٥)، وذكره ابن عطية (٣٤٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٤٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٨/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، والبيهقي في «الشعب».

الْخِلَالُ، وهي الظُّلُم والكُفْر، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْخِلَالُ مِنْ جَاحِدٍ، فَهِيَ بِصِفَةٍ، / وَإِنْ كَانَتْ ٢٦٩ ب
مِنْ عَاصٍ فَهِيَ بِصِفَةٍ أُخْرَى.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٣٥﴾ رَبِّ
إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي
أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُيُوتًا مِّنْ ذَرَى زَيْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ
النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّعِيرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا
يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ
إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّلِيلُ ٣٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ تقدم تفسيره.

وقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾: ﴿وَاجْنُبْنِي﴾: معناه: أمتنعني، يقال:
جَنَبَهُ كَذَا، وَاجْتَنَبَهُ؛ إِذَا مَنَعَهُ مِنَ الْأَمْرِ وَحَمَاهُ مِنْهُ.

* ت * : وكذا قال * ص * : ﴿وَاجْنُبْنِي﴾: معناه: أمتنعني، أصله من الْجَانِبِ،
وعبارة الْمَهْدَوِيَّ: أي: أجعلني جانباً من عبادتها.

وقال الثعلبي: ﴿وَاجْنُبْنِي﴾، أي: بغدني وأجعلني منها على جانبٍ بعيد. انتهى،
وهذه الألفاظ كلها متقاربة المعاني، وأراد إبراهيم عليه السلام بَنِيَّ صُلْبِهِ، وأما باقي نَسْلِهِ،
فمنهم مَنْ عبد الأصنام، وهذا الدعاء من الخليل عليه السلام يقتضي إفراطاً خَوْفَهُ عَلَى نَفْسِهِ
وَمَنْ حَصَلَ فِي رَتْبِهِ، فكيف يَخَافُ أَنْ يَعْبُدَ صَنَمًا، لكن هذه الآية ينبغي أَنْ يُقْتَدَى بِهَا فِي
الْخَوْفِ، وَطَلَبِ حُسْنِ الْخَاتِمَةِ، و﴿الْأَصْنَامَ﴾: هي المنحوتة على خَلْقَةِ الْبَشَرِ، وما كان
منحوتاً على غَيْرِ خَلْقَةِ الْبَشَرِ، فهي أوثانٌ، قاله الطبري عن مجاهد^(١)، ونسب إلى الأصنام
أَنَّهُ أَضَلَّتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ تَجَوُّزًا، وَحَقِيقَةُ الْإِضْلَالِ إِنَّمَا هِيَ لِمَخْتَرَعِهَا سُبْحَانَهُ، وقيل:
أراد بـ ﴿الْأَصْنَامَ﴾ هنا: الدنانير والدراهم.

وقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾: ظاهره بالكُفْر؛ لمعادلة قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾،
وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: معناه: بتوبتك على الكُفْرَةِ؛ حتى
يُؤْمِنُوا لَا أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِكَافِرٍ، وحمله على هذه العبارة مَا كَانَ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِهِ مِنْ
الْقَوْلِ الْجَمِيلِ، وَالتُّطْقِ الْحَسَنِ، وَجَمِيلِ الْأَدَبِ ﷺ، قال قتادة: أَسْمَعُوا قَوْلَ الْخَلِيلِ ﷺ:
وَاللَّهُ مَا كَانُوا طَعَانِينَ وَلَا لَعَانِينَ، وكذلك قولُ نَبِيِّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ

(١) أخرجه الطبري (٧/٤٦٠) برقم: (٢٠٨٣٦)، وذكره ابن عطية (٣/٣٤١).

لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»^(١) [المائدة: ١١٨]، وأُسند الطبري^(٢) عن عبد الله بن عمرو حديثاً: أن النبي ﷺ، تلا هاتين الآيتين، ثم دعا لأُمَّته فَبَشَّرَ فِيهِمْ^(٣)، وكان إبراهيم التيمي يقول: مَنْ يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ بَعْدَ خَوْفِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

وقوله: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتِي﴾: يريد: إسماعيل عليه السلام، وذلك أَنَّ سَارَّةَ لَمَّا غَارَتْ بِهَاجَرَ بَعْدَ أَنْ وَلَدَتْ إِسْمَاعِيلَ، تَشَوَّشَ قَلْبُ إِبْرَاهِيمَ مِنْهُمَا، فَرَوَى أَنَّهُ رَكِبَ الْبُرَاقَ هُوَ وَهَاجَرَ، وَالطِّفْلُ، فَجَاءَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنَ الشَّامِ إِلَى بَطْنِ مَكَّةَ، فَتَرَكَهُمَا هُنَاكَ، وَرَكِبَ مَنْصُرفاً مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ بُوخِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمَّا وَلَّى، دَعَا بِمَضْمَنِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ بَقَاءِ هَاجَرَ، وَمَا صَنَعَتْ، وَسَائِرُ خَبَرِ إِسْمَاعِيلَ، فِي كِتَابِ الْبَخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، وَفِي السِّيَرِ، ذُكِرَ ذَلِكَ كُلُّهُ مُسْتَوْعِباً.

* ت * : وفي «صحيح البخاري» من حديثه الطويل في قصة إبراهيم مع هاجر ولديها، لما حَمَلَهُمَا إِلَى مَكَّةَ، قَالَ: وَلَيْسَ / بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ فِيهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جَرَاباً فِيهِ تَمْرٌ، وَسَقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمَ مَنْطَلِقاً، فَتَبِعْتُهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمَ، أَيْنَ تَذْهَبُ، وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أُنْيَسٌ، وَلَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَاراً، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: أَللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يَضِيعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَأَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ، أَسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ الْمُحَرَّمِ»، حَتَّى بَلَغَ: «يَشْكُرُونَ»... الحديث بطوله^(٤) وفي طريق: «قَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا، قَالَ: إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَتْ: رَضِيتُ. انْتَهَى. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ لِأَرْبَابِ الْقُلُوبِ وَالمُتَوَكِّلِينَ وَأَهْلِ الثِّقَةِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ مَا يَطُولُ بِنَا سَزْدَهَا، فَإِلَيْكَ أَسْتَخْرَاجُهَا، وَلَمَّا انْقَطَعَتْ هَاجَرُ وَأَبْنَاهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، آوَاهُمَا اللَّهُ، وَأَتْبَعَ لَهُمَا مَاءَ زَمْزَمَ الْمُبَارَكِ الَّذِي جَعَلَهُ غِذَاءً، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شَرِبَ لَهُ»^(٥).

قال ابن العربي: ولقد كُنْتُ مَقِيماً بِمَكَّةَ سَنَةً سَنِعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ، وَكُنْتُ أَشْرَبُ

(١) أخرجه الطبري (٤٦١/٧) برقم: (٢٠٨٤٠)، وذكره ابن عطية (٣/٣٤١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٦٠)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «الطبري» (٤٦١/٧).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦١/٧) برقم: (٢٠٨٤١).

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٦/٦، ٤٥٨) كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: يزفون، حديث (٣٣٦٤).

(٥) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١١٢٤).

مَاءَ زَمْزَمَ كَثِيرًا، وَكَلَّمَا شَرِبْتَ، تَوَيْتُ بِهِ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ، وَنَسِيتُ أَنْ أَشْرِبَهُ لِلْعَمَلِ، فَفَتَحَ لِي فِي الْعِلْمِ، وَيَا لَيْتَنِي شَرِبْتُهُ لَهْمًا مَعًا؛ حَتَّى يُفْتَحَ لِي فِيهِمَا، وَلَمْ يَقْدَرْ، فَكَانَ صَغْوِي إِلَى الْعِلْمِ أَكْثَرَ مِنْهُ إِلَى الْعَمَلِ، انْتَهَى مِنَ «الْأَحْكَامِ».

و«من»؛ في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾؛ للتبويض؛ لأنَّ إِسْحَاقَ كَانَ بِالشَّامِ، وَ«الوادي»؛ ما بين الجبلَيْنِ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَاءٌ، وَجَمَعَهُ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَقِيمُوا﴾؛ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْلَمَهُ أَنَّ ذَلِكَ الطِّفْلَ سَيُعْقِبُ هُنَاكَ، وَيَكُونُ لَهُ نَسْلٌ، وَاللَّامُ فِي ﴿لِيَقِيمُوا﴾: لَامٌ كِي؛ هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، وَيَصُحُّ أَنْ تَكُونَ لَامُ الْأَمْرِ؛ كَأَنَّهُ رَغِبَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُوَفِّقَهُمْ لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَ«الْأَفْنَدَةُ» الْقُلُوبُ جَمْعُ فَوَادٍ، سَمِّيَ بِذَلِكَ، لِاتِّقَادِهِ، مَاخُذٌ مِنْ «قَادٍ»، وَمِنْهُ: «الْمُقْتَادُ»، وَهُوَ مُسْتَوْدُ الثَّارِ حَيْثُ يُسَوَّى لِلْحُمِّ.

وقوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾: تَبْعِيضٌ، وَمُرَادُهُ الْمُؤْمِنُونَ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾: دَعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَمْرٍ كَانَ مَثَابَرًا عَلَيْهِ، مَتَمَسِّكًا بِهِ، وَمَتَى دَعَا الْإِنْسَانَ فِي مِثْلِ هَذَا، فَإِنَّمَا الْمَقْصِدُ إِدَامَةُ ذَلِكَ الْأَمْرِ، وَأَسْتَمْرَارُهُ، قَالَ السَّهْلِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ بِحَرْفِ التَّبْعِيضِ، وَلِذَلِكَ أَسْلَمَ بَعْضُ ذُرِّيَّتِهِ دُونَ بَعْضٍ، انْتَهَى، وَفَاقًا لِمَا تَقَدَّمَ الْآنَ.

وقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾: اُخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ يَأْسِهِ مِنْ إِيْمَانِ أَبِيهِ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، فَأَرَادَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ؛ لِأَنَّهَا كَانَتِ مُؤْمِنَةً، وَقِيلَ: أَرَادَ آدَمَ / وَنُوحًا عَلَيْهِمَا السَّلَامَ، وَقَرَأَ الزُّهْرِيُّ^(١) وَغَيْرُهُ: «وَلِوَالِدَيَّ»؛ عَلَى أَنَّهُ دَعَاءُ لِإِسْمَاعِيلَ ٢٧٠ ب وَإِسْحَاقَ، وَأَنكَرَهَا عَاصِمُ الْجَحْدَرِيُّ، وَقَالَ: «إِنْ فِي مُضْخَفِ أَبِي بْنِ كَعْبٍ وَلِأَبَوَيْ»^(٢).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الْظَالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) مُهْلِكِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ

(١) وَقَرَأَ بِهَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَأَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ.

يَنْظُرُ: «الْمَحْتَسِبُ» (٣٦٥/١)، وَ«الْكَشَافُ» (٥٦٢/٢)، وَفِيهِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بَدَلًا مِنَ الْحُسَيْنِ،

وَيَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٣٤٣/٣)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٤٢٣/٥)، وَ«الدَّرُ الْمَصُونُ» (٢٧٦/٤).

(٢) يَنْظُرُ: «مَخْتَصِرُ الشَّوَادِ» ص: (٧٣)، وَ«الْكَشَافُ» (٥٦٢/٢)، وَ«الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٣٤٣/٣)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٤٢٣/٥)، وَ«الدَّرُ الْمَصُونُ» (٢٧٦/٤).

فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَيْكَ أَجَلٌ قَرِيبٌ نُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعُ الرُّسُلَ أَوَلَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ
مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

وقوله عز وجل: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم...﴾ الآية: هذه الآية بجملتها فيها وعيدٌ للظالمين، وتسليّةٌ للمظلومين، والخطابُ بقوله: ﴿تَحَسَّبَنَّ﴾ للنبي ﷺ، و﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، معناه: تُجَدُّ النَّظَرُ، لفرط الفزع ولقرط ذلك يَشْخَصُ الْمُخْتَصِرُ، و«المُهْطِعُ» المسرع في مشيه؛ قاله ابن جُبَيْر وغيره^(١)، وذلك بِذَلَّةٍ وأستكانة، كإسراع الأسير ونحوه، وهذا أرجح الأقوال، وقال ابن عباس وغيره: الإهطاع شدة النظر من غير أن يَطْرِفَ^(٢)، وقال ابن زَيْد: «المُهْطِعُ»: الذي لا يرفع رأسه^(٣)، قال أبو عُبَيْدَةَ: قد يكون: الإهطاعُ للوجهين جميعاً: الإسراع، وإدَامَةُ النَّظَرِ^(٤)، و«المُقْنِعُ»: هو الذي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَدَمًا بَوَجهِهِ نحو الشيء، وَمِنْ ذلك قول الشاعر: [الوافر]

يُبَاكِزْنَ الْعِضَاءَ بِمُقْنَعَاتٍ نَوَاجِذُهُنَّ كَالْحَدِيدِ الْوَقِيعِ^(٥)

يصفُ الإبلَ عند رغيها أعالي الشجر، وقال الحسن في تفسير هذه الآية: وجوهُ الناس يوم القيامةِ إلى السماء لا يَنْظُرُ أَحَدٌ إِلَى أَحَدٍ^(٦)، وذكر المبرد فيما حَكَى عنه مَكِّي: أن الإقناع يوجد في كلام العرب بمعنى: خَفَضِ الرَّأْسِ مِنَ الذَّلَّةِ. قال *ع^(٧): * والاول أشهر.

وقوله سبحانه: ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾؛ أي: لا يَطْرِقُونَ مِنَ الْحَدَرِ والجزعِ وشدة الحال.

وقوله: ﴿وأفئدتهم هواء﴾: تشبيه محض، وَجِهَةُ التشبيه يحتملُ أن تكون في فراغ الأفئدة من الخَيْرِ والرَّجَاءِ والطَّمَعِ في الرحمة، فهي متخرقة مُشْبِهَةُ الهَوَاءِ في تَفَرُّغِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ،

(١) ذكره ابن عطية (٣/٣٤٤).

(٢) أخرجه الطبري (٧/٤٦٨) برقم: (٢٠٨٧١)، وذكره ابن عطية (٣/٣٤٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤/١٦٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٧/٤٦٩) برقم: (٢٠٨٧٩)، وذكره ابن عطية (٣/٣٤٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٣/٣٤٤).

(٥) البيت للشماخ ينظر: «ديوانه» ص: (٢٢٠)، و«اللسان» [قنع]، و«المخصص» (١/١٤٦)، و«التاج» حداً، نجد، قنع. والحدة: الفتح الحاء: الفأس لها رأسان، و«مجاز القرآن» (١/٣٤٣)، والطبري (١٣/١٤٢).

(٦) ذكره البغوي (٣/٣٩)، وابن عطية (٣/٣٤٤).

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٤٤).

وأنخرأقِه، ويحتمل أن تكون في اضطراب أفئدتهم وجيشانها في صدورهم، وأنها تذهب وتجيء وتبلغ على ما روي حناجرهم، فهي في ذلك كالهواء الذي هو أبداً في اضطراب.

وقوله سبحانه: ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾: المراد باليوم: يوم القيامة، ونصبه على أنه مفعول بـ «أنذر»، ولا يجوز أن يكون ظرفاً، لأن القيامة ليست بموطن إنذار، قال الشيخ العارف بالله عبد الله بن أبي جَمْرَة: يجب التصديق بكل ما أخبر الله ورسوله به، ولا يتعرض إلى الكيفية في كل ما جاء من أمر الساعة وأحوال يوم القيامة، فإنه أمر لا تسعه العقول، وطلب الكيفية فيه ضعف في الإيمان، وإنما يجب الجزم بالتصديق بجميع ما أخبر الله به، انتهى.

قال العزالي: فأعلم العلماء وأعرف الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباليه، ولا اختلج به ضميره، فلو لم يكن للعاقل هم ولا غم، إلا التفكير في خطر تلك الأحوال، وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة، أو سعادة دائمة / لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر، والعجب من غفلتنا، وهذه العظام بين ١٢٧١ أيدينا. انتهى من «الإحياء».

وقوله: ﴿أو لم تكونوا...﴾ الآية: معناه: يقال لهم، وقوله: ﴿ما لكم من زوال﴾: هو المفسم عليه، وهذه الآية ناظرة إلى ما حكى الله سبحانه عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ (٤٥) وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخَلَّفَ وَعِذَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿وسكنتم...﴾ الآية: المعنى: بقول الله عز وجل: وسكنتم أيها المغرضون عن آيات الله من جميع العالم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر من الأمم السالفة، فنزلت بهم المثلثات، فكان حَقُّكم الاعتبار والاعتاظ. وقوله: ﴿وعند الله مكرهم﴾: أي: جزاء مكرهم، وقرأ السبعة سوى الكسائي^(١): «وإن كان مكرهم لتزول»

(١) ومعنى قراءة الكسائي حينئذ: وقد كان مكرهم يبلغ في المكيدة إلى إزالة الجبال، غير أن الله ناصر دينه، ومزيل مكر الكفار ومآحقه، وحجته قراءة علي وابن مسعود: «وإن كان مكرهم لتزول»، بالدال، واللام في قراءة الجمهور لام الجحود، والمعنى: ما كان مكرهم ليزول به أمر النبي ﷺ، وأمر دين الإسلام. وحجتهم ما روي عن الحسن: «كان مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال».

ينظر: «السبعة» (٣٦٣)، و«الحجة» (٣١/٥)، و«معاني القراءات» (٦٥/٢)، و«إعراب القراءات» (١/١) =

- بكسر اللام من «لَتَزُولَ» وفتح الأخيرة -؛ وهذا على أن تكون «إِنْ» نافية بمعنى «مَا»، ومعنى الآية تحقير مَكْرِهِمْ، وأنه مَا كَانَ لَتَزُولَ منه الشرائع والنبؤات وإقدار الله بها التي هي كالجبال في ثبوتها وقوتها، هذا تأويل الحَسَن وجماعة المفسرين^(١) وتحتملُ عندي هذه القراءة أن تكون بمعنى تَعْظِيم مَكْرِهِمْ، أي: وَإِنْ كَانَ شديداً، وقرأ الكسائي: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» - بفتح اللام الأولى من لَتَزُولَ، وضم الأخيرة -، وهي قراءة ابن عباس^(٢) وغيره، ومعنى الآية: تعظيم مَكْرِهِمْ وشِدَّتُهُ، أي: أنه مما يشقى به، ويزيلُ الجبالَ عن مستقراتها، لقوته، ولكنَّ الله تعالى أبطله ونَصَرَ أوليائه، وهذا أشدُّ في العبرة، وقرأ علي وابن مسعود وعمر بن الخطاب وأبي: «وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ»، وذكر أبو حاتم أن في قراءة أبي: «وَلَوْلَا كَلِمَةُ اللَّهِ لَزَالَ مِنْ مَكْرِهِمْ الْجِبَالُ».

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مَخْلُوفَ عَدُوِّهِ رُسُلُهُ...﴾ الآية: تثبيت للنبي ﷺ ولغيره من أمته، ولم يكن النبي عليه السلام ممن يَحْسَبَنَّ مثل هذا، ولكن خَرَجَتِ العبارة هكذا، والمراد بما فيها من الزجرِ غَيْرُهُ؛ «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ»: لا يمتنع منه شيء، ﴿ذُو انتقام﴾: من الكفرة.

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَرْضَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءُ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِلُهُمْ مِّنْ ظُرُرٍ وَقَتْنَئُ وَجُوهُهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ لِيَسْذَنِبُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ وَلِيَذْكُرَ الْأُولَى الْأَلْبَابِ (٥٢)

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَرْضَ الْأَرْضِ...﴾ الآية: ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ للانتقام المذكور قبله، وروي في تبديل الأرض أخباراً منها في الصحيح: «يُبْدِلُ اللَّهُ هَذِهِ الْأَرْضَ بِأَرْضٍ غَفْرَاءَ بَيْضَاءَ كَأَنَّهَا قُرْصَةُ نَقِي»، وفي الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ يَبْدِلُهَا خُبْرَةً يَأْكُلُ الْمُؤْمِنُ مِنْهَا مِنْ

= (٣٣٦)، و«شرح الطيبة» (٤/٤٠٢)، و«العنوان» (١١٥)، و«حجة القراءات» (٣٧٩)، و«شرح شعلة» (٤٥٢)، و«النشر» (٢/٣٠٠)، و«الشواذ» (٦٩)، و«إتحاف» (٢/١٧١).

(١) أخرجه الطبري (٧/٤٧٧) برقم: (٢٠٩٣٧)، وذكره البغوي (٣/٤٠)، وابن عطية (٣/٣٤٦)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٤٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٦٥)، وعزاه لابن جرير.

(٢) نعم، قرأها هكذا ابن عباس، وابن مسعود، وعلي، وعمر، وأبي، وأبو إسحاق السبيعي، ولكن بإبدال «كاد» مكان «كان».

ينظر: «الشواذ» ص: (٧٤)، و«المحتسب» (١/٣٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/٣٤٦)، و«البحر المحيط» (٥/٤٢٦)، و«الدر المصون» (٤/٢٨٠).

تَحْتَ قَدَمَيْهِ^(١) وروى أنها تبدل أرضاً من فضة، وروى أنها أرض كالفضة من بياضها، وروى أنها تبدل من نار.

قال * ع^(٢) : * وسمعت من أبي رحمه الله؛ أنه روي أن التبدل يقع في الأرض، ولكن تبدل لكل فريق بما يقتضيه حاله، فالمؤمن يكون على خبز يأكل منه بحسب حاجته إليه، وفريق يكون على فضة، إن صحَّ السند بها، وفريق الكفرة يكونون على نار، ونحو هذا مما كله واقع تحت قدرة الله عز وجل، وأكثر المفسرين على أن التبدل يكون بأرض بيضاء عفراء لم يعض الله فيها، ولا سفك فيها دم، وليس فيها معلّم لأحد، وروى عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «المؤمنون وقت التبدل في ظل العرش»، وروى عنه أنه قال: «الناس وقت التبدل / على الصراط»، وروى أنه قال: الناس حينئذ أضياف الله، فلا يعجزهم ما لَدَيْهِ^(٣) وفي «صحيح مسلم» من حديث ثوبان في سؤال الحبر، وقوله: يا مُحَمَّدُ، أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسَّمَوَاتُ؟ فَقَالَ ﷺ: «هُنَّ فِي الظُّلَمَةِ دُونَ الجسر»^(٤) الحديث بطوله، وخَرَّجَهُ مُسْلِمٌ وابنُ مَاجَهَ جميعاً، قالوا: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، ثُمَّ أَسَدًا عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ قَائِنٌ يَكُونُ النَّاسُ؟ قَالَ: عَلَى الصَّرَاطِ»^(٥)، وخَرَّجَهُ الترمذي من حديث عائشة، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩/١١) كتاب «الرقاق» باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة، حديث (٦٥١٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) ينظر: «المحرر» (٣/٣٤٧).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨٣/٧) برقم: (٢٠٩٧٦)، عن أبي أيوب الأنصاري به، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٦٩)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وأبي نعيم في «الدلائل».

(٤) أخرجه مسلم (٢/٢٣٠ - ٢٣١ - نووي)، كتاب «الحيض» باب: بيان صفة مني الرجل والمرأة، حديث (٣٤/٣١٥)، والبيهقي (١/١٦٩) من حديث ثوبان به.

(٥) أخرجه مسلم (٤/٢١٥٠) كتاب «صفات المنافقين» باب: في البعث والنشور، حديث (٢٩/٢٧٩)، والترمذي (٥/٢٩٦) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة إبراهيم، حديث (٣١٢١)، وابن ماجه (٢/١٤٣٠) كتاب «الزهد» باب: ذكر البعث، حديث (٤٢٧٩)، وأحمد (٦/٣٥)، والدارمي (٢/٣٢٨)، وابن حبان (٣٣١)، والحاكم (٢/٣٥٢) من حديث عائشة به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قلت: وقد وهما في ذلك فقد أخرجه مسلم.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٦٧)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

مَطْرِبَاتٍ بِيَمِينِهِ» [الزمر: ٦٧]، فَأَيْنَ يَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «عَلَى الصِّرَاطِ يَا عَائِشَةُ»^(١)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. انتهى من «التذكرة»^(٢).

﴿وترى المجرمين﴾: أي الكفار، و﴿مقرنين﴾: أي: مربوطين في قرْنٍ، وهو الحَبْلُ الذي تُشَدُّ به رؤوس الإِبِلِ والبَقَرِ، و﴿الأَصْفَادُ﴾: هي الأغلال، واجدُها صَفْدٌ، والسَّرَابِيلُ: القُمُصُ، والـ ﴿قَطِرَانٌ﴾: هو الذي تهنأ به الإِبِلُ، وللنار فيه أَشْتَعَالٌ شديدٌ، فلذلك جعل الله قُمُصَ أَهْلِ النَّارِ منه، وقرأ عمر بن الخطاب وعليُّ وأبو هريرة وابنُ عَبَّاسٍ وغيرهم^(٣): «مِنْ قَطْرِ آنٍ»، والقِطْرُ: القَصْدِيرُ، وقيل: الثُّحَاسُ، وروي عن عمر أنه قال: ليس بالقِطْرَانِ، ولكِنَّ الثُّحَاسَ يسر بلونه^(٤)، و«آن»: صفة، وهو الذائبُ الحارُّ الذي تناهى حرُّه؛ قال الحَسَنُ: قد سُعِرَتْ عليه جهنم منذ خُلِقَتْ، فتناهى حرُّه^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿ليجزى الله كل نفس ما كسبت...﴾ الآية: جاء من لفظة الكَسْبِ بما يعم المُسِيءَ والمُحْسِنَ؛ لينبئه على أنَّ المحسن أيضاً يجازى بإحسانه خيراً.

وقوله سبحانه: ﴿هذا بلاغ للناس...﴾ الآية: إشارة إلى القرآن والوعيد الذي تضمنه، والمعنى: هذا بلاغ للناس، وهو لينذروا به وليذكروا أولو الألباب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

(١) انظر الحديث السابق.

(٢) ينظر: «التذكرة» (٢٦٣/١).

(٣) وقرأ بها عكرمة، وعلقمة، وسعيد بن جبير، وابن سيرين، والحسن، وسنان بن سلمة بن المحبق، وعمر بن عبيد، والكلبي، وأبو صالح، وعيسى بن عمر الهمداني، وقتادة، والربيع بن أنس، وعمر بن فائد.

ينظر: «الشواذ» ص: (٧٤)، و«المحتسب» (٣٦٦/١)، و«المحور الوجيز» (٣٤٨/٣)، و«البحر المحيط» (٤٢٨/٥)، و«الدر المصون» (٢٨٣/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٣٤٨/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٧٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٤٨٦/٧) برقم: (٢٠٩٩٣)، وذكره ابن عطية (٣٤٨/٣).

تفسير سورة الحجر

مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾: قال مجاهد وقتادة: ﴿الكتاب﴾: في الآية: ما نزل من الكتب قبل القرآن^(١)، ويحتمل أن يراد بـ ﴿الكتاب﴾ القرآن: ثم تُعْطَفُ الصِّفَةُ عليه، و﴿رَبِّمَا﴾: للتقليل، وقد تجيء شاذة^(٢) للتكثير. وقال قوم: إن هذه مِنْ ذَلِكَ، وأنكر الزُّجَّاج أن تجيء «رُبَّ» للتكثير، واختلف المتأولون في الوقت الذي يَوْدُ فيه الكفار أن يكونوا مسلمين، فقالت فرقة: هو عند معاناة الموت، حكى ذلك الضَّحَّاك^(٣)، وقالت فرقة: هو عند معاناة أهوال يوم القيامة، وقال ابن عباس وغيره: هو عند دخولهم النار، ومعرفةتهم، بدخول المؤمنين الجنة^(٤)، وروي فيه حديث من طريق أبي موسى.

(١) أخرجه الطبري (٤٨٨/٧) برقم: (٢١٠٠٤)، وابن عطية (٣/٣٤٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/

١٧١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) رب: فيها قولان، أحدهما: أنها حرف جر، وزعم الكوفيون وأبو الحسن وابن الطراوة أنها اسم، ومعناها التقليل على المشهور. وقيل: تفيد التكثير. وقيل: تفيد التكثير في مواضع الافتخار، وفيها لغات كثيرة أشهرها: «رُبَّ» بالضم والتشديد والتخفيف، و«رَبَّ» بالفتح والتشديد والتخفيف، و«رُبَّ» و«رَبَّ» بالضم، والفتح مع السكون فيهما، وتتصل تاء التانيث بكل ذلك. وبالتالي قرأ طلحة بن مصرف، وزيد بن علي «رُبِّمَا» وإذا اتصلت بها التاء جاز فيها الإسكان، والفتح كـ «كُتِّمَتْ»، و«لَأَتْ» فتكثر الألفاظ، ولها أحكام كثيرة، منها لزوم تصديرها، ومنها تنكير مجرورها.

ينظر: «الدر المصون» (٤/٢٨٥).

(٣) أخرجه الطبري (٤٩١/٧) برقم: (٢١٠٢١).

(٤) أخرجه الطبري (٤٩١/٧) برقم: (٢١٠٢٥)، وذكره ابن عطية (٣/٣٥٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/

٥٤٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٢١٧٢)، وعزاه لابن المبارك في «الزهد»، وابن أبي شيبة،

وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث».

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٣) ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ (٤) ﴿مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ﴾ (٥) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا...﴾ الآية: وعيد وتهديد، وما فيه من المهادنة منسوخ بآية السيف، وروى ابن المبارك في «رقائقه»، قال: أخبرنا الأوزاعي عن غزوة بن رويم، قال: قال رسول الله / ﷺ: «شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ وَلِدُوا فِي النَّعِيمِ، وَغَدُوا بِهِ، هِمَّتُهُمْ أَلْوَانُ الطَّعَامِ، وَأَلْوَانُ الثِّيَابِ، يَتَشَدَّقُونَ بِالْكَلامِ». انتهى^(١).
وقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾: وعيد ثانٍ، وحكى الطبري^(٢) عن بعض العلماء؛ أنه قال: الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة، فكيف تطيب حياة بين هذين الوعدين.
وقوله: ﴿ويلهم الأمل﴾: أي: يشغلهم أملهم في الدنيا، والتزيد منها.

قال عبد الحق في «العاية»: أغلَمَ رحمك الله أن تقصير الأمل مع حُب الدنيا متعذر، وانتظار الموت مع الإكباب عليها غير متيسر، ثم قال: وأغلَمَ أن كثرة الاشتغال بالدنيا والميل بالكلية إليها، ولذة أمانيتها تمنع مرارة ذكر الموت؛ أن ترد على القلب، وأن تلج فيه؛ لأن القلب إذا امتلأ بشيء، لم يكن لشيء آخر فيه مدخل، فإذا أراد صاحب هذا القلب سماع الحكمة، والانتفاع بالموعظة، لم يكن له بُد من تفريقه، ليجد الذكر فيه منزلاً، وتلقي الموعظة فيه محلاً قابلاً، قال ابن السماك رحمه الله: إن الموتى لم يكنوا من الموت؛ لكنهم بكونهم من حسرة الفوت، فاتتتهم والله، دار لم يتزودوا منها؛ ودخلوا داراً لم يتزودوا لها. انتهى. وإنما حصل لهم القوت؛ بسبب استغراقهم في الدنيا، وطول الأمل الملهي عن المعاد، ألهمنا الله رشدنا بمنه.

وقوله سبحانه: ﴿وما أهلكنا من قرية...﴾ الآية: أي: فلا تستبطئن هلاكهم، فليس من قرية مهلكة إلا بأجل، وكتاب معلوم محدود.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦) ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧) ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا نُظِرَ فِيهِمْ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا أَلَا هِيَ الْمُنْظَرَةُ﴾ (٨) ﴿إِنَّا نَحْنُ قَرَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) ﴿

﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر...﴾ الآية: القائلون هذه المقالة هم كفار قريش، و«لو ما» بمعنى: لولا، فتكون تحضيضاً؛ كما هي في هذه الآية، وفي البخاري:

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٢٦٢) رقم: (٧٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/٤٩٢).

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا﴾: هَلَا تَأْتِينَا.

وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: قال مجاهد: المعنى: بالرسالة والعذاب^(١)، والظاهر أن معناه كما ينبغي وَيَحِقُّ من الوحي والمنافع التي أراها الله لعباده، لا على اقتراح كافر، ثم ذكر عادته سبحانه في الأمم من أنه لم يأتهم بآية اقتراح، إلا ومعها العذاب في إثرها إن لم يؤمنوا، والنظرة: التأخير.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾: رَدُّ عَلَى الْمَسْتَخْفِينَ في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: قال مجاهد وغيره: الضمير في «له» عائذ على القرآن^(٢)، المعنى: وإنا له لحافظون من أن يبدل أو يغير.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٥﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْفُسُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ الآية: تسليّة للنبي ﷺ: أي: لا يضق صدرك، يا محمد، بما يفعله قومك من الاستهزاء في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ﴾، وغير ذلك، والشيع: الفرقة التابعة لرأس ما.

* ت * : قال الفراء ﴿فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾: إِنَّهُ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ كـ ﴿حَقَّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، و﴿جَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤]، وتأوله البصريون على حذف الموصوف، أي: شيع الأمم / الأولين. انتهى من * ص *.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: يحتمل أن يكون الضمير في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ يعود على الذكر المحفوظ المتقدم، وهو القرآن، ويكون الضمير في «به» عائداً عليه أيضاً، ويحتمل أن يعود الضميران معاً على الاستهزاء والشرك ونحوه، والباء في «به»: بآء السبب، أي: لا يؤمنون بسبب شركهم وأستهزائهم، ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ عائداً على الاستهزاء والشرك، والضمير في «به» عائداً على القرآن، والمعنى، في ذلك كله، ينظر بعضه إلى بعض،

(١) أخرجه الطبري (٤٩٣/٧) برقم: (٢١٠٢٨)، وذكره ابن عطية (٣/٣٥١)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٤٧)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤/١٧٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/٣٥٢).

و﴿نسلكه﴾: معناه: ندخله، و﴿المُجْرِمِينَ﴾؛ هنا: يراد بهم كُفَّار قريش، ومعاصرو النبي ﷺ.

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ عمومٌ، معناه الخصوصُ فيمن حُتِمَ عليه، وقوله: ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾: أي: على هذه الوتيرة، ﴿ولو فتحنا عليهم﴾، أي: على قريش وكفرة العَصْر، والضميرُ في قوله: ﴿فظلوا﴾ عائذٌ عليهم، وهو تأويلُ الحَسَنِ، و﴿يعرجون﴾: معناه يَضَعُدُونَ، ويحتملُ أن يعود على الملائكة، أي: ولو رأوا الملائكة يَضَعُدُونَ ويتصَرَّفون في باب مفتوح في السماء لما آمنوا، وهذا تأويلُ ابنِ عَبَّاسٍ^(١)، وقرأ السبعة سِوَى ابنِ كثيرٍ: «سُكَّرَتْ» - بضم السين وشدَّ الكاف -، وقرأ ابن كثيرٍ^(٢) بتخفيف الكاف، تقول العربُ: سَكِرَتِ الرِّيحُ تَسْكُرُ سُكُورًا، إِذَا رَكَدَتْ، ولم تنفذ لما كانت بسبيله أولاً، وسَكِرَ الرَّجُلُ مِنَ الشَّرَابِ، إِذَا تَغَيَّرَ حاله ورَكَدَ، ولم ينفذ لما كان بسبيله أن ينفذ فيه، وتقول العرب: سَكَرَتْ البَثْقُ^(٣) في مجاري الماءِ سَكْرًا؛ إِذَا طَمَسَتْهُ وَصَرَفَتْ الماء عنه، فلم يَنفذ لوجهه.

قال ع^(٤) * : فهذه اللفظة «سُكَّرَتْ» - بشدَّ الكاف - إِنْ كَانَتْ مِنْ سُكْرِ الشَّرَابِ، أَوْ مِنْ سُكُورِ الرِّيحِ، فَهِيَ فِعْلٌ عُدِّيٌّ بِالتَّضْعِيفِ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ سَكْرِ مَجَارِي الْمَاءِ، فَتَضْعِيفُهَا لِلْمَبَالِغَةِ، لَا لِلتَّعْدِي، لِأَنَّ الْمُخَفَّفَ مِنْ فِعْلِهِ مُتَعَدٍّ، وَمَعْنَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ مِنْهُمْ: أَي: غَيَّرَتْ أَبْصَارَنَا عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ، فَهِيَ لَا تَنْفِذَ وَتَعْطِينَا حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ: كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ (١٦) ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (١٧) ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ أَتَمَعُ فَأَنْبَعُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٨) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (١٩) ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِئَةٍ مَعِيشَ وَمَنْ لَشَيْءٍ لَمْ يَرْزُقْهُنَّ﴾ (٢٠) ﴿وَلَنْ يَنْزِلَهُ إِلَّا بِإِذْنِ مَلَكٍ﴾ (٢١)

(١) أخرجه الطبري (٤٩٦/٧) برقم: (٢١٠٤٣)، وذكره ابن عطية (٣/٣٥٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٧٦/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «السبعة» (٣٦٦)، و«الحجة» (٤٣/٥)، و«إعراب القراءات» (١/٣٤٣)، و«معاني القراءات» (٢/٦٨)، و«العنوان» (١١٦)، و«شرح الطيبة» (٤/٤٠٦)، و«شرح شعلة» (٤٥٣)، و«حجة القراءات» (٣٨١ - ٣٨٢)، و«إتحاف» (٢/١٧٤).

(٣) البثق: موضع انبثاق الماء من نهر ونحوه.

ينظر: «لسان العرب» (٢٠٨)، و«المعجم الوسيط» (٣٨).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٥٣).

وعن ابن عُمَرَ: الرِّبَاحُ ثَمَانٍ: أَرْبَعُ رَحْمَةٍ، وَأَرْبَعُ عَذَابٍ؛ فالرحمة: المرسلات، والمُبَشِّرَات، والنَّاشِرَات، والدَّارِيَات، وأما العذاب: فالصَّرَصَرُ، والعَقِيمُ، والقاصِفُ، والعاصِفُ، وهما في البَحْرِ. انتهى.

وقوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وإنا لنحن نحيي ونميت...﴾ الآيات: هذه الآيات مع الآيات التي قبلها تَضَمَّنَت العِبْرَةَ والدَّلَالَةَ على قدرة الله تعالى، وما يُوجِبُ تَوْحِيدَهُ وعبادته، المعنى: وإنا لنَحْنُ نحيي من نشاء بإخراجه من العَدَمِ إلى وجودِ الحياة، ونميت بإزالة الحياة عَمَّنْ كان حَيًّا، ﴿ونحن الوارثون﴾، أي: لا يَبْقَى شيء سِوَانَا، وكلُّ شيء هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لا رَبَّ غَيْرِهِ.

﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾: أي: من لَدُنْ آدَمَ إلى يوم القيامة، قال ابن العربي في «أحكامه»: روى الترمذي وغيره في سبب نُزُولِ هذه الآية، عن ابن عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: كَانَتْ أَمْرَأَةٌ تَصَلِّي خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَلَا، وَاللَّهِ، مَا رَأَيْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، قَالَ: فَكَانَ بَغْضُ الْمُسْلِمِينَ، إِذَا صَلَّوْا تَقَدَّمُوا، وَبَعْضُهُمْ يَسْتَأْخِرُ، فَإِذَا سَجَدُوا نَظَرُوا إِلَيْهَا مِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ^(١)، ثُمَّ قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: فِي شَرْحِ الْمَرَادِ بِهَذِهِ الْآيَةِ حَمْسَةُ أَقْوَالٍ:

أحدها: هذا.

القول الثاني: المتقدمين في الخلق إلى اليوم، والمتأخرين الذين لم يخلقوا بعد، بيان أن الله يعلم الموجود والمعدوم، قاله قتادة وجماعة^(٢).

الثالث: مَنْ مات، وَمَنْ بَقِيَ؛ قاله ابن عَبَّاسٍ أيضًا^(٣).

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٦/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الحجر، حديث (٣١٢٢)، وأحمد (١/٣٠٥)، والنسائي (١١٨/٢) كتاب «الإمامة» باب: المنفرد خلف الصف، حديث (٨٧٠)، وابن ماجه (٣٣٢/١) كتاب «الصلاة» باب: الخشوع في الصلاة، حديث (١٠٤٦)، والطيالسي (٢/٢٠ - منحة) رقم: (١٩٦٠)، وابن خزيمة (١٦٩٦ - ١٦٩٧)، وابن حبان (١٧٤٩ - موارد)، والحاكم (٢/٣٥٣)، والبيهقي (٧٨/٣)، والطبراني في «الكبير» (١٧١/١٢) رقم: (١٢٧٩١)، من طريق أبي الجوزاء، عن ابن عباس مرفوعاً به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه ابن خزيمة، وابن حبان، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وينظر: «الدر المنثور» (٤/١٨٠).

(٢) أخرجه الطبري (٥٠٧/٧) برقم: (٢١١٦) بنحوه، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٤٩).

(٣) أخرجه الطبري (٥٠٨/٧) برقم: (٢١١٢١)، وذكره البغوي (٤٨١٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٨١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

الرابع: المستقدمين: سائر الأمم، والمستأخرين أمة سيدنا محمد ﷺ قاله مجاهد^(١).

الخامس: قال الحسن: معناه: المتقدمين في الطاعة، والمستأخرين في المعصية^(٢).

انتهى.

* ت *: والحديث المتقدم، إن صح، فلا بد من تأويله، فإن الصحابة ينزّهون عن فعل ما ذكّر فيه، فيؤول بأن ذلك صدر من بعض المنافقين، أو بعض الأعراب الذين قرب عهدهم بالإسلام، ولم يرسخ الإيمان في قلوبهم، وأما ابن عباس، فإنه كان يومئذ / صغيراً ب ٢٧٤ بلا شك، هذا إن كانت الآية مدنيّة، فإن كانت مكّيّة، فهو يومئذ في سنّ الطفوليّة، وبالجمله فالظاهر ضَعُفُ هذا الحديث من وجوه. انتهى، وباقي الآية بين.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝٢٦ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ۝٢٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝٢٨ فَاذْ سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَسْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝٣١ قَالَ يَتَّبِعْ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝٣٣﴾

﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾: يعني: آدم، قال ابن عباس: خلق من ثلاثة: من طين لازب، وهو اللازق الجيد، ومن صلصال، وهو الأرض الطيبة يقع عليها الماء، ثم ينحسر؛ فيتشقق وتصير مثل الخزف، ومن حملي مسنون، وهو الطين فيه الحمأة^(٣)، والد «مسنون»: قال معمر: هو المُنْتِن^(٤)، وهو من أسن الماء؛ إذا تغيّر، ورّد من جهة التصريف، وقيل غير هذا، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ التُّرَابِ: الطَّيِّبِ وَالْخَبِيثِ، وَالْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ»^(٥).

وقوله: ﴿والجان﴾: يراد به: جنس الشياطين، وسئل وهب بن منيّه عنهم، فقال هم

(١) أخرجه الطبري (٥٠٩/٧) برقم: (٢١١٢٩)، وذكره البغوي (٤٨١٣).

(٢) أخرجه الطبري (٥٠٩/٧) برقم: (٢١١٣٢)، وذكره ابن عطية (٣/٣٥٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٨١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٥١١/٧) برقم: (٢١١٤٧)، وذكره ابن عطية (٣/٣٥٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٨٢/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وأبي الشيخ في «العظمة».

(٤) أخرجه الطبري (٥١١/٧) برقم: (٢١١٦٠)، وذكره ابن عطية (٣/٣٥٩).

(٥) تقدم تخريجه من سورة البقرة.

أجناس^(١).

قال * ع^(٢) : * والمراد بهذه الخَلْقَةِ إبليسُ أبو الجنِّ، وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾؛ لأنَّ إبليسَ خُلِقَ قبلَ آدمَ بمدة، و﴿السَّمُومُ﴾؛ في كلام العرب: إفراطُ الحرِّ حتى يقتل: مِنْ نارٍ، أو شمسٍ، أو ريحٍ، وأما إضافة «النار» إلى «السَّمُومِ» في هذه الآية، فيحتملُ أن تكون النار أنواعاً، ويكون السَّمُومُ أمراً يختصُّ بنوعٍ منها، فتصحُّ الإضافة حينئذٍ، وإن لم يكن هذا، فيخرج هذا على قولهم: «مَسْجِدُ الْجَامِعِ»، وذَارُ الآخِرَةِ؛ على حذف مضافٍ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾:

أخبر الله سبحانه الملائكةَ بعُجْبِ عندهم، وذلك أنهم كانوا مَخْلُوقِينَ مِنْ نُورٍ، فهي مخلوقاتٌ لطائفٌ، فأخبرهم سبحانه أنه يَخْلُقُ جسماً حياً ذا بَشَرَةٍ، وأنه يخلقه من صلصالٍ، والبَشَرَةُ هي وَجْهُ الجِلْدِ في الأشْهَرِ مِنَ الْقَوْلِ، وقوله: ﴿مِنْ رُوحِي﴾: إضافة خَلْقِ وَمِلْكِ إلى خَالِقِ وَمَالِكِ، وقولُ إبليس: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ...﴾ الآية: ليس إِبَاءَتُهُ نَفْسَ كُفْرِهِ عِنْدَ الْحَذَاقِ؛ لأنَّ إِبَاءَتَهُ إِنَّمَا هِيَ مَعْصِيَةٌ فَقَطْ، وإِنَّمَا كُفْرُهُ بِمَقْتَضَى قَوْلِهِ، وتعليلِهِ، إذ يقتضي أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقاً مَفْضُولاً، وكَلَّفَ خَلْقاً أَفْضَلَ مِنْهُ؛ أَنْ يَذِلَّ لَهُ، فكأنه قال: وهذا جُزْءٌ، وقد تقدَّم تفسير أكثر هذه المعاني.

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجيْمٌ ۖ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِكْ يَوْمِ الدِّينِ ۖ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِكْ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۖ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۖ إِكْ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۖ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۖ﴾

وقوله عز وجل: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجيْمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية: قوله: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: قال أبو عُبَيْدَةَ وغيره: أَقْسَمَ بِالْإِغْوَاءِ^(٣).

(١) أخرجه الطبري (٥١٤/٧) برقم: (٢١١٧٠)، وذكره البغوي (٤٩١٣) بنحوه، وابن عطية (٣/٣٥٩).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٥٩).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/٣٦٢).

قال * ع^(١) : * كأنه جعله بمنزلة قوله: رَبِّ بِقُدْرَتِكَ عَلَيَّ، وقضائك، ويحتمل أن تكون بَاءُ السَّبَبِ.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾: المعنى: هذا أمر إلَيَّ يصير؛ والعرب تقول: طريقك في هذا / الأمر على فلان، أي: إليه يصيرُ النظر في أمرِك، والآية تتضمن وعيداً، وظاهرُ قوله: ﴿عبادي﴾: الخصوصُ في أهل الإيمان والتقوى، فيكون الاستثناء منقطعاً، وإن أخذنا العبادَ عموماً، كان الاستثناء متصلاً، ويكون الأقلُّ في القدر من حيث لا قدر للكفار؛ والنظرُ الأولُ أحسن، وإنما الغرضُ ألا يقع في الاستثناء الأكثرُ من الأقل، وإن كان الفقهاء قد جَوَّزوه.

وقوله: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾: أي: موضعُ اجتماعهم، عافانا الله من عذابه بمنه، وعاملنا بمنحُصِ جوده وكرمه.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٥) ادْخُلُوها بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُحْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ * نَجَّى عِبَادِيَ إِلَيَّ أَنَا الْعَفْوَ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوها بِسَلَامٍ...﴾ الآية: ال ﴿سَلَام﴾؛ هنا: يحتمل أن يكون السَّلام، ويحتمل أن يكون التحيَّة، وال ﴿غَلٍّ﴾: الحقد، قال الداوودي: عن النبي ﷺ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ...﴾ الآية، قال: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الصِّرَاطِ، حُسِبُوا عَلَى صِرَاطٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ بِمَطَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هَذَبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَاللَّهُ، لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْ مَنْزِلِهِ فِي الدُّنْيَا»^(٢). انتهى.

وال ﴿سُرُرٍ﴾: جمع سرير، و﴿متقابلين﴾: الظاهر أن معناه: في الوجوه، إذ الأسرة متقابلة، فهي أحسنُ في الرتبة.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٥٢١) رقم: (٢١٢٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٨٨)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

قال مجاهد: لَا يَنْظُرُ أَحَدُهُمْ فِي قَفَا صَاحِبِهِ^(١)، وقيل غير هذا مما لَا يُعْطِيهِ اللَّفْظُ،
وال «نصب»: التعب، و«نَبَى»: معناه: أَعْلِمَ.

قال العَزَّائِيُّ رحمه الله في «منهاجه»: «ومن الآيات اللطيفة الجامعة بَيْنَ الرجاء والخَوْفِ قوله تعالى: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ثم قال في عقبه: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾؛ لئِلَّا يَسْتَوْلِيَ عَلَيْكَ الرَّجَاءُ بِمَرَّةٍ، وقوله تعالى: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، ثم قال في عقبه: ﴿ذِي الطُّولِ﴾ [غافر: ٣]، لئِلَّا يَسْتَوْلِيَ عَلَيْكَ الخوف، وَأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ثم قال في عقبه: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وَأَعْجَبَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]، فَعَلَّقَ الْخَشْيَةَ بِأَسْمِ الرَّحْمَنِ، دون اسم الْجَبَّارِ أو الْمُتَّقِمِ أو الْمُتَكَبِّرِ ونحوه، ليكون تخويفاً في تَأْمِينٍ، وتحريكاً في تَسْكِينٍ كما تقول: «أما تخشى الوالدة الرحيمة، أما تخشى الوالد الشفيق»، والمراد من ذلك أَنَّ يَكُونَ الطَّرِيقُ عدلاً، فلا تذهب إلى أَمْنٍ وقنوط جعلنا الله وإياكم من المتدبرين لهذا الذِّكْرِ الحكيم، العامِلِينَ بما فيه، إِنَّهُ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ انتهى.

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۖ﴾ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ (٥٣) قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)

وقوله سبحانه: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم...﴾ الآية: هذا ابتداء قصص بعد أنصرام الغرض الأول، و«الضيف»: مصدرٌ وصف به، فهو للواحدِ ولأثنين والجمع، والمذكر والمؤنث؛ بلفظ واحد، وقوله: ﴿إنا منكم وجلون﴾، أي: فزعون، وإِنَّمَا وَجَلْ منهم؛ لما قَدَّمَ إِلَيْهِمُ الْعَجَلَ الْحَنِذَ، فلم يرهم يأكلون، وكانت عندهم العلامة الْمُؤْمَنَةُ أَكْلَ الطعام؛ وكذلك هو في غَايِرِ الدَّهْرِ أَمَنَةٌ لِلنَّازِلِ، والمنزول به.

وقوله: ﴿أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾، أي: في حالةٍ قد مَسَّنِيَ فِيهَا الْكِبَرُ، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿فبِم تبشرون﴾: / تقرير على جهة التعجب والاستبعاد، لكبرهما، أو على جهة الاحتقار وقلة المبالاة بالمسرات الدنيوية، لمضي العمر، وأستيلاء الكِبَرِ، وقولهم:

(١) أخرجه الطبري (٥٢١/٧) برقم: (٢١٢١١)، وذكره ابن عطية (٣/٣٦٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٥٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٨٩)، وعزاه لهناد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

﴿بشرناك بالحق﴾: فيه شدةٌ ما، أي: أبشرك بما بُشِّرْتَ به، ولا تُكُنْ من القابِطِينَ، والقنوط: أتم اليأس.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٧) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ مُجْرِمِينَ﴾ (٥٨) ﴿إِلَّا آءَالَ لُوطُ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٩) ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَنَ الْغَدِيرِ﴾ (٦٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٦١) ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ (٦٢) ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٦٣) ﴿وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمُذْقُونَ﴾ (٦٤) ﴿فَأَنسِرْ بِأَهْلِكَ يَفْطَحْ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٥)

وقوله سبحانه: ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾: لفظةُ الخُطْبِ إنما تستعمل في الأمور الشَّدَاد، وقولهم: ﴿إلا آء لوط﴾: استثناءٌ منقطعٌ، و«الآء»: القومُ الذي يؤوُلُ أمرهم إلى المضافِ إليه؛ كذا قال سيِّوِيه؛ وهذا نصٌّ في أن لفظة «آء» ليست لفظة «أهل»؛ كما قال النَّحَّاس، و﴿إلا امرأته﴾: استثناءٌ متصلٌ، والاستثناءُ بعد الاستثناءِ يرُدُّ المستثنى الثاني في حُكْم الأمر الأول، و﴿الغابرين﴾؛ هنا: أي: الباقين في العذاب، و﴿وَعَبْرَ﴾: من الأضداد، يقال في الماضي وفي الباقي، وقولُ الرُّسُلِ للوط: ﴿بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾، أي: بما وَعَدَكَ اللهُ من تعذيبهم الذي كانوا يَشْكُونُ فيه، و«الْقَطْعُ»: الجُزْءُ من الليل.

وقوله سبحانه: ﴿واتبع أديبارهم﴾، أي: كن خلفهم، وفي ساقَتهم، حتى لا يبقَى منهم أحد، و﴿ولا يلتفت﴾: مأخوذٌ من الالتفاتِ الذي هو نظر العين، قال مجاهد: المعنى: لا ينظر أحد وراءه،^(١) ونُهِوا عن النظرِ مَخَافَةَ الْعُلُقَةِ، وتعلَّقَ النَّفْسُ بِمَنْ خَلْفَ، وقيل: لئلا تنفطر قلوبُهم من معاينة ما جَرَى على القَرْيَةِ في رَفْعِهَا وَطَرَجِهَا.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ﴾ (٦٦) ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧) ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَرَفٌ فَلَا تَنْصَحُونِ﴾ (٦٨) ﴿وَالْقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا﴾ (٦٩) ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْمَكْرِمِ﴾ (٧٠) ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٧١) ﴿لَعَنَّاكُمْ لِيَمْلَأَنَّ لَكُمْ سَكْرَتَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢) ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٣) ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سُلَاطِمًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (٧٤) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٥) ﴿وَإِنَّا لَنَسِيلٌ لِّمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٦) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧)

وقوله سبحانه: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾، أي: أمضيناه وَحَمَمْنَا به، ثم أدخل في

(١) أخرجه الطبري (٥٢٥/٧) برقم: (٢١٢٢٠)، وذكره ابن عطية (٣٦٨/٣).

الكلام إِلَيْهِ من حيثُ أَوْجِي ذلك إِلَيْهِ، وأعلمه الله به، وقوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾، أي: بالأضياف طَمَعاً منهم في الفَاحِشَةِ، وقولهم: ﴿أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: روي أنهم كانوا تَقَدَّمُوا إِلَيْهِ فِي الْأَاضِيفِ أَحَدًا، والعَمُرُ والعُمُر - بفتح العين وضمّها - واحدٌ، وهما مدة الحياة، ولا يَسْتَعْمَلُ فِي الْقَسَمِ إِلَّا بِالْفَتْحِ، وفي هذه الآية شَرَفٌ لِنَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَقْسَمَ بِحَيَاتِهِ، ولم يفعل ذلك مع بَشَرٍ سِوَاهُ؛ قاله ابن عباس^(١).

* ت * : وقال: * ص *: اللام في ﴿لَعَمْرُكَ﴾ للابتداء، والكاف خطابٌ لِلْوَطِ عليه السلام، والتقدير: قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهُ: لَعَمْرُكَ، واقتصر على هذا.

وما ذَكَرَهُ * ع^(٢) *: هو الذي عَوَّلَ عَلَيْهِ عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ.

وقال ابن العربي في «أحكامه»: قال المفسرون بأجمعهم: أَقْسَمَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِحَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا أَذْرِي مَا أَخْرَجَهُمْ عَنْ ذِكْرِ لُوطٍ إِلَى ذِكْرِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا الْمَانِعُ أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ بِحَيَاةِ لُوطٍ، وَيَبْلُغَ بِهِ مِنَ التَّشْرِيفِ مَا شَاءَ، وَكُلُّ مَا يُعْطِي اللَّهُ لِلْوَطِ مِنْ فَضْلٍ، وَيُؤْتِيهِ مِنْ شَرَفٍ، فَلَنَبِيِّنا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ضَعْفَاهُ؛ لِأَنَّهُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ، وَإِذَا أَقْسَمَ اللَّهُ بِحَيَاةِ لُوطٍ، فَحَيَاةِ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَزْفَعُ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْ كَلَامٍ إِلَى كَلَامٍ آخَرَ غَيْرِهِ، لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ؛ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ. انْتَهَى

* ت * : وما ذَكَرَهُ الْجُمْهُورُ أَحْسَنُ؛ لِأَنَّ الْخُطَابَ خُطَابٌ مُوَاجِهَةٌ؛ وَلِأَنَّهُ تَفْسِيرُ صَحَابِيٍّ، وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى غَيْرِهِ.

و﴿يَعْمَهُونَ﴾: معناه: يترددون / في حيرتهم، و﴿مُشْرِقِينَ﴾: معناه: قد دَخَلُوا فِي الْإِشْرَاقِ، وَهُوَ سَطُوعُ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَظُهُورُهُ؛ قَالَه ابْنُ^(٣) زَيْدٍ، وَهَذِهِ الصَّيْحَةُ هِيَ صَيْحَةُ الْوَجْبَةِ، وَلَيْسَتْ كَصَيْحَةِ ثَمُودَ، وَأَهْلَكُوا بَعْدَ الْفَجْرِ مُضْبِحِينَ، وَأَسْتَوْفَاهُمْ الْهَلَاكُ مُشْرِقِينَ، وَبَاقِي قِصَصِ الْآيَةِ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٧/ ٥٢٦) بِرَقْم: (٢١٢٣٠)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٣/ ٥٥)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/ ٣٦٩)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢/ ٥٥٥)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثْنُورِ» (٤/ ١٩٢)، وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ وَالْحَرِثِ بْنِ أَبِي أَسَامَةَ، وَأَبُو يَعْلَى، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ، وَأَبُو نَعِيمٍ، وَابْنُ بَيْهَقٍ مَعًا فِي «الدَّلَالَةِ».

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ» (٣/ ٣٦٩).

(٣) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/ ٣٧٠).

و«المتوسمين»: قال مجاهد: المتفرسون^(١)، وقال أيضاً: المعتبرون^(٢)، وقيل غير هذا، وهذا كله تفسير بالمعنى، وأما تفسير اللفظة، فالمتوسم هو الذي ينظر في وسم المعنى، فيستدل به على المعنى، وكان معصية هؤلاء أبقت من العذاب والإهلاك وسماء، فمن رأى الوسم، استدل على المعصية به وأقتاده النظر إلى تجنب المعاصي؛ لئلا ينزل به ما نزل بهم؛ ومن الشعر في هذه اللفظة قول الشاعر: [الطويل]

تَوَسَّمْتُ لَمَّا رَأَيْتُ مَهَابَةً عَلَيْهِ وَقَلْتُ الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ^(٣)
والضمير في قوله: «وإنها لبسبيل مقيم»: يحتمل أن يعود على المدينة المهلكة، أي: أنها في طريقي ظاهر بين للمعتبر، وهذا تأويل مجاهد وغيره^(٤)، ويحتمل أن يعود على الآيات، ويحتمل أن يعود على الحجازة، ويقويه ما روي عنه عليه السلام؛ أنه قال: «إِنَّ حِجَارَةَ الْعَذَابِ مُعَلَّقَةٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مُنْذُ أَلْفِي سَنَةٍ لِعَصَاةِ أُمَّتِي».

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِبِئْسَ أُمَّةٍ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨٠) وَآتَيْنَهُمْ مَائِدَتَنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْجُوْنَ مِنَ الْجِبَالِ يُوْتَا مَائِدَتِمْ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

وقوله سبحانه: «وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم»: ﴿الأيكة﴾: الغنضة والشجر الملتف المخضر، قال الشاعر: [الطويل]

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا غَضَارَةٌ أَيْكَةٌ إِذَا أَخْضَرَ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبٌ^(٥)
وكان هؤلاء قوماً يسكنون غنضة، ويرتفعون بها في معاشهم، فبعث إليهم شعيب، فكفروا به، فسلب الله عليهم الحر، فدام عليهم سبعة أيام، ثم رأوا سحابة، فخرجوا،

(١) أخرجه الطبري (٥٢٧/٧)، وذكره البغوي (٥٥/٣)، وابن عطية (٣٧٠/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكر السيوطي في «الدر المنثور» (١٩٢/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «المعظمة».

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٤٤٤/٥)، والقرطبي (٤٣/١٠)، و«الدر المصون» (٣٠٥/٤)، و«روح المعاني» (٧٤/١٤).

(٤) أخرجه الطبري (٥٢٩/٧) برقم: (٢١٢٥٦)، وذكره البغوي (٥٥/٣)، وذكره ابن عطية (٣٧٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩٣/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) البيت من شواهد «المحرر الوجيز» (٣٧١/٣).

فَاسْتَظَلُّوا بِهَا، فَأَمْطَرْتُ عَلَيْهِمْ نَارًا، وَحَكِي^(١) الطبريُّ قال: بُعِثَ شَعِيبٌ إِلَى أُمَّتَيْنِ، فَكَفَرْتَا، فَعَذَّبْتَا بِعَذَابَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: أَهْلَ مَدْيَنَ عَذَّبُوا بِالصَّيْحَةِ، وَأَصْحَابَ الْاَيْكَةِ بِالظُّلَّةِ^(٢).

وقوله: ﴿وَإِنَّمَا لِبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾: الضميرُ في «إِنَّمَا»: يَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى مَدِينَةِ قَوْمِ لُوطٍ، وَمَدِينَةِ أَصْحَابِ الْاَيْكَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى لُوطٍ وَشُعَيْبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أَيْ: إِنَّمَا عَلَى طَرِيقٍ مِنَ اللَّهِ وَشَرْعٍ مُبِينٍ، وَ«الْإِمَامُ»، فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الشَّيْءُ الَّذِي يَهْتَدَى بِهِ، وَيُؤْتَمُّ بِهِ؛ فَقَدْ يَكُونُ الطَّرِيقُ، وَقَدْ يَكُونُ الْكِتَابُ، وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ الْمُقْتَدَى بِهِ، وَنَحْوُ هَذَا، وَمَنْ رَأَى عَوْدَ الضَّمِيرِ عَلَى الْمَدِينَتَيْنِ، قَالَ: «الْإِمَامُ»: الطَّرِيقُ، وَقِيلَ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ الَّذِي سَبَقَ فِيهِ إِهْلَاكُهُمَا، وَ«أَصْحَابُ الْحِجْرِ»: هُمُ ثَمُودُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قِصَصُهُمْ، وَ«الْحِجْرُ»: مَدِينَتُهُمْ، وَهِيَ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَتَبُوكَ، وَقَالَ: «الْمُرْسَلِينَ»: مَنْ حَيْثُ يُلْزَمُ مِنْ تَكْذِيبِ رَسُولٍ وَاحِدٍ تَكْذِيبَ الْجَمِيعِ، إِذِ الْقَوْلُ فِي الْمَعْتَقَدَاتِ وَاحِدٌ.

وقوله: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمَنِينَ﴾: «النَحْتُ»: الثَّقَرُ بِالْمَعَاوِلِ، وَ«آمَنِينَ»: قِيلَ: مَعْنَاهُ: مَنْ أَنْهَدَامَهَا، وَقِيلَ: مِنْ حَوَادِثِ الدُّنْيَا، وَقِيلَ: مِنَ الْمَوْتِ؛ لِأَغْتِرَاهُمْ بِطُولِ الْأَعْمَارِ، وَأَصَحُّ مَا يَظْهَرُ فِي ذَلِكَ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْمَنُونَ عَوَاقِبَ / الْآخِرَةِ، فَكَانُوا لَا يَعْمَلُونَ بِحَسَبِهَا.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٥٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٥٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ التَّنْزِيلِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٥٧)

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أَيْ: لَمْ تَخْلُقْ عِشَاءً وَلَا سَدَى، ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾، أَيْ: فَلَا تَهْتَمْ يَا مُحَمَّدٌ بِأَعْمَالِ الْكُفْرَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَهُم بِالْمِرْصَادِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ التَّنْزِيلِ﴾: ذَهَبَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ إِلَى أَنَّ السَّبْعَ التَّنْزِيلِيَّ هُنَا هِيَ السَّبْعُ الطُّوَالُ: «الْبَقْرَةُ»، وَ«آلُ عِمْرَانَ»، وَ«النِّسَاءُ»، وَ«الْمَائِدَةُ»، وَ«الْأَنْعَامُ»، وَ«الْمَائِدَةُ»، وَ«الْأَنْفَالُ» مَعَ «بَرَاءة»^(٣)، وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٣٠/٧).

(٢) الظُّلَّةُ: سَحَابَةٌ أَنْشَأَهَا اللَّهُ تَعَالَى كَانَ فِيهَا عَذَابٌ مُدِينٌ؛ قِيلَ: أَصَابَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَرٌّ عَظِيمٌ إِلَى أَنْ كَادُوا يَهْلِكُونَ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ ظِلَّةً كَثِيفَةً، أَيْ: سَحَابَةً مُتْرَاكِمَةً، فَهَرَعُوا إِلَيْهَا يَسْتَجِيرُونَ بِهَا مِنَ الْحَرِّ، فَلَمَّا تَكَامَلُوا تَحْتَهَا أَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ بِعَذَابُهَا، فَلَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ.

ينظر: «عمدة الحفاظ» (١٠/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٥٣٣/٧) برقم: (٢١٢٨١) بنحوه وذكره ابن عطية (٣٧٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٧/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩٦/٤)، وعزاه لابن جرير.

إلى أن السبغ هنا: آيات الفاتحة، وهو نص حديث أبي بن كعب وغيره^(١).

* ت * : وهذا هو الصحيح، وقد تقدّم بيان ذلك أول الكتاب.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨٨)
 وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾: حكى الطبري عن سفيان بن عيينة؛ أنه قال: هذه الآية آمرة بالاستغناء بكتاب الله عن جميع زينة الدنيا^(٢).

قال * ع *^(٣): فكأنه قال: آتيناك عظيماً خطيراً، فلا تنظر إلى غير ذلك من أمور الدنيا وزينتها التي متّعنا بها أنواعاً من هؤلاء الكفرة؛ ومن هذا المعنى: قول النبي ﷺ: «مَنْ أُوْتِيَ الْقُرْآنَ، فَرَأَى أَنَّ أَحَدًا أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ، فَقَدْ عَظَّمَ صَغِيرًا وَصَغَّرَ عَظِيمًا».

* ت * : وفي «صحيح مسلم» عن أبي سعيد قال: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَقَالَ: «لَا وَاللَّهِ، مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِلَّا مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا...» الحديث، وفي رواية: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا»، قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بَرَكَاتُ الْأَرْضِ...» الحديث، وفي رواية: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا...» الحديث، انتهى. والأحاديث في هذه الباب أكثر من أن يحصيها كتاب، قال الغزالي في «المنهاج»: وإذا أنعم الله عليك بنعمة الدين، فإياك أن تلتفت إلى الدنيا وحطامها، فإن ذلك منك لا يكون إلا بضرب من التهاون بما أولاك مولاك من نعم الدارين؛ أما تسمع قوله تعالى لسيد المرسلين: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ... الآية، تقديره: إن من أوتي القرآن العظيم حقاً له ألا ينظر إلى الدنيا الحقيرة نظرة باستحلاء، فضلاً عن أن يكون له فيها رغبة، فليترجم الشكر على ذلك، فإنه الكرامة التي حرّص عليها الخليل لأبيه، والمصطفى عليه السلام لعمه، فلم يفعل، وأما حطام الدنيا، فإن الله سبحانه يصبّه على كل كافر وفرعون وملحد وزنديق

(١) أخرجه الطبري (٥٣٧/٧) برقم: (٢١٣٢٦).

(٢) ذكره الطبري (٥٤٢/٧)، وذكره البغوي (٥٨١٣) بنحوه، وابن عطية (٣/٣٧٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٧/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٩٨)، وعزاه لابن المنذر.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٧٤).

وجاهلٍ وفاسقٍ؛ الذين هم أهْوَنُ خَلْقِهِ عليه، وَيَضُرُّهُ عن كُلِّ نبيٍّ وصفيٍّ وصديقٍ وعالمٍ وعابِدٍ؛ الذين هم أَعَزُّ خَلْقِهِ عليه؛ حتى إنهم لا يَكَاذُونَ يُصَيِّبُونَ كِسْرَةً وَخِزْفَةً، ويمَنُّ عليهم سبحانه بآلٍ يَلْطَخُهُمْ بِقَدْرِهَا، انتهى.

وقال ابنُ العَرَبِيِّ في «أحكامه»^(١): قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾: المعنى: أعطيناكَ الآخِرَةَ، فلا تنظُرْ إلى الدنيا، وقد أعطيناكَ العلمَ، فلا تتشاغلُ / بالشهواتِ، وقد مَنَحْنَاكَ لَذَّةَ القَلْبِ، فلا تنظرُ إلى لذةِ البَدَنِ، وقد أعطيناكَ القرآنَ، فاستغْنِ به، فَمَنْ استغْنَى به، لا يطمَحُ بنظره إلى زخارف الدنيا، وعنده مَعَارِفُ المولى، حَيَّيْ بالباقي، وفَنِّي عن الفاني. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وقلْ إِنِّي أَنَا النذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾.

قال * ع^(٢): * والذي أقولُ به في هذا: أنَّ المعنى: وقلْ أنا نذيرٌ، كما قال قبلك رُسُلنا، ونزلنا عليهم كما أنزلنا عليك، وأختلف في «المقتسمين»، مَنْ هُمْ؟ فقال ابن عباس، وابن جُبَيْر: «المقتسمون»: هم أهلُ الكتابِ الذين قَرَّعُوا دينهم، وجَعَلُوا كتابَ اللَّهِ أعضاءً، آمنوا ببعض، وكَفَرُوا ببعض؛ وقال نحوه مجاهد^(٣)، وقالت فرقة: «المقتسمون»: هم كفار قريش جعلوا القرآنَ سِخْرًا وشِغْرًا وكَهَانَةً، وجعلوه أعضاءً بهذا التقسيم، وقالت فرقة: «عِصِينَ»: جمعُ عَصَةٍ، وهي أَسَمٌ للسِّخْرِ خاصَّةٌ بِلُغَةِ قريشٍ؛ وقاله عكرمة^(٤).

* ت * وقال الواحدي: كما أنزلنا عذاباً على المقتسمين الذين أَقْتَسَمُوا طُرُقَ مَكَّةَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عن الإيمان. انتهى من «مختصره».

﴿فَوَرَبِّكَ لَشَعَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٦) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٦) ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥) ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٦) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ﴾

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١١٣٦).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٧٤).

(٣) أخرجه الطبري (٥٤٣/٧) برقم: (٢١٣٦٨)، وبرقم: (٢١٣٧٢)، وذكره ابن عطية (٣/٣٧٤)،

وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٨/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤/١٩٨)، وعزاه للبخاري،

وسعيد بن منصور، والحاكم، والفريايبي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبري (٥٤٧/٧) برقم: (٢١٣٩٢)، وبرقم: (٢١٣٧٢)، وذكره ابن عطية (٣/٣٧٤)،

وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٨/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤/١٩٨)، وعزاه لسعيد بن منصور،

وابن المنذر، وابن جرير.

الْيَقِثُ ﴿٩٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَورِكَ لِنَسْأَلَنَهُمْ أَجْمَعِينَ...﴾ الآية: ضمير عام، ووعيد محض، يأخذ كل أحد منه بحسب جُزْأه وعِصْيانه، فالكافر يسأل عن التوحيد والرسالة، وعن كُفْره وقُصْدِهِ به، والمؤمن العاصي يُسأل عَنْ تَضْيِيعه، وكل مكلف عما كُلف القيام به؛ وفي هذا المعنى أحاديث، قال ابن عباس في هذه الآية يقال لهم: لِمَ عَمِلْتُمْ كَذَا وكَذَا، قال: وقوله تعالى: ﴿فَيَزِمْنَاهُ لَأُسْأَلَ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ [الرحمن: ٣٩]: معناه: لا يقال له: مَاذَا أَذْنَبْتَ، لَأَنَّ اللَّهَ تعالى أعلم بذنبه منه^(١)، وقوله سبحانه: ﴿فَأُضْغَ بِمَا تَوَمَّرَ﴾: «أُضْغَ»: معناه: أَتَفَقَّدْ، وصرَّح بما بُعِثَ به.

وقوله: ﴿وأعرض عن المشركين﴾: من آيات المهادنة التي نَسَخَتْهَا آية السِّيفِ^(٢)؛ قاله ابن عباس، ثم أعلمه الله تعالى بأنه قد كَفَّاهُ المُسْتَهْزِئِينَ به مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ ببوائق أصابَتْهم من الله تعالى.

قال ابن إسحاق وغيره: وَهُمْ الَّذِينَ قُذِفُوا فِي قَلْبِ بَذْرِ؛ كَأَبِي جَهْلٍ وغيره. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾: آية تأنيس للنبي ﷺ، و﴿اليقين﴾؛ هنا: الموت؛ قاله ابن^(٣) عمر وجماعة، قال الداودى: وعن النبي ﷺ؛ أنه قَالَ: «مَا أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ الْمَالَ، وَأَكُونَ مِنَ التَّاجِرِينَ، وَلَكِنْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ سَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَتَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ»^(٤). انتهى، وباقى الآية بين، وصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليماً.

(١) أخرجه الطبري (٥٤٨/٧) برقم: (٢١٤٠٣)، وذكره البغوي (٥٨/٣)، وابن عطية (٣٧٥/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٩/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٩٩/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث».

(٢) أخرجه الطبري (٥٥٠/٧) برقم: (٢١٤١٥)، وذكره ابن عطية (٣٧٥/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٧٦/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٢٠٣/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٢٠٣/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في «التاريخ»، وابن مردويه، والديلمي.

تفسير سورة النحل

وهي مكية غير آيات بسيرة يأتي بيانها إن شاء الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤)

قوله سبحانه: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: روي أن رسول الله ﷺ لما قال جبريل في سرد الوحي: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾، وثب رسول الله ﷺ قائماً، فلما قال: / ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، سَكَنَ، وقوله: ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾: قال فيه جمهور المفسرين: إنه يريد القيامة، وفيها وعيد للكفار، وقيل: المراد نضر محمد ﷺ، فَمَنْ قال: إن الأمر القيامة، قال: إن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: ردُّ على المكذبين بالبَغْثِ، القائلين: متى هذا الوعد، واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾، فقال مجاهد: الروح: النبوة^(١)، وقال ابن عباس: الروح الوحي^(٢)، وقال قتادة: بالرحمة والوحي^(٣)، وقال الربيع بن أنس: كل كلام الله روح، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾^(٤) [الشورى: ٥٢]، وقال الزجاج^(٥): الروح: ما تخيا به القلوب من هداية الله عز وجل، وهذا قول حسن، قال الداوددي، عن ابن عباس^(٦) قال: الروح: خلق من خلق الله، وأمر

(١) أخرجه الطبري (٥٥٨/٧) برقم: (٢١٤٥٤)، وذكره ابن عطية (٣/٣٧٨).

(٢) أخرجه الطبري (٥٥٨/٧) برقم: (٢١٤٥١)، وذكره ابن عطية (٣/٣٧٨)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٥٥٨/٧) برقم: (٢١٤٥٦)، وذكره ابن عطية (٣/٣٧٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٢٠٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٥٥٨/٧) برقم: (٢١٤٥٥)، وذكره ابن عطية (٣/٣٧٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٢٠٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) ينظر: «معاني القرآن» (٣/١٩٠).

(٦) أخرجه الطبري (٥٥٨/٧) برقم: (٢١٤٥١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٢٠٥)، وعزاه =

من أمر الله على صور بني آدم، وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه روح؛ كالحفيظ عليه، لا يتكلم ولا يراه ملك، ولا شيء مما خلق الله، وعن مجاهد: الروح: خلق من خلق الله، لهم أيد وأرجل^(١). انتهى، والله أعلم بحقيقة ذلك، وهذا أمر لا يقال بالرأي، فإن صح فيه شيء عن النبي ﷺ، وجب الوقوف عنده انتهى، و«من» في قوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هي للأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من نطفة﴾: يريد بـ «الإنسان» الجنس، وقوله: ﴿خصيم﴾: يحتمل أن يريد به الكفرة الذين يجادلون في آيات الله؛ قاله^(٢) الحسن البصري، ويحتمل أن يريد أعم من هذا، على أن الآية تعديد نعمة الذهن والبيان على البشر.

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا لَبْلِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْإِبَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَسْدٌ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُبْدِي لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُم مِّنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)

وقوله سبحانه: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دِفْءٌ﴾: ال «دِفْء» : السخانة، وذهاب البرد بالأكسية ونحوها، وقيل: ال «دِفْء» : تناسل الإبل، وقال ابن عباس: هو نسل كل شيء^(٣)، والمعنى الأول هو الصحيح، وال «منافع» : ألبانها وما تصرف منها، وحزنها والتضح عليها وغير ذلك.

وقوله: ﴿جمال﴾، أي: في المنظر، و«تريحون» : معناه: حين تردونها وقت الرواح إلى المنازل، و«تسرحون» : معناه: تخرجونها غداة إلى السرح، و«الأثقال» : الأمتعة، وقيل: الأجسام؛ كقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] أي: أجساد بني آدم، وسميت الخيل خيلاً؛ لاختيالها في مشيتها.

= لآدم بن إياس، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي.

(١) أخرجه الطبري (٥٥٨/٧) برقم: (٢١٤٥٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٥/٤)، وعزه

لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٣٧٩/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٥٦٠/٧) برقم: (٢١٤٦٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٧٩/٣)، والسيوطي في «الدر

المنثور»، وعزه لعبد الرزاق، والفرياحي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

* ت * : ويجبُ على من ملكه الله شيئاً من هذا الحيوان أن يَرْفُقَ به، ويشكر الله تعالى على هذه النعمة التي حَوَّلَهَا، وقد رَوَى مالك في «الموطأ» عن أبي عُبَيْدٍ مولى سليمان بن عبد المَلِكِ، عن خالد بن مَعْدَانَ يرفعه، قال: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفُقَ، ويرضاهُ، ويعينُ عليه ما لا يُعِينُ على العُنْفِ، فإذا ركبتم هذه الدوابَّ العُجَمَ، فأنزلوها منازلها، فَإِنْ كَانَتْ الْأَرْضُ جَذْبَةً، فأنجوا عليها بِتَقِيَّهَا^(١)، وَعَلَيْكُمْ بِسِيرِ اللَّيْلِ؛ فَإِنْ الْأَرْضُ تُطَوَّى بِاللَّيْلِ ما لا تُطَوَّى بالنهار، وإياكم والتَّغْرِيسَ على الطيرِ؛ فَإِنَّهَا طَرَقَ الدَّوَابَّ، ومأوى الحَيَّاتِ»^(٢).

١٢٧٨ قال أبو عمر في «التمهيد»: هذا الحديث يستندُ عن / النبي ﷺ من وجوه كثيرة، فأما «الرفق»، فمحمودٌ في كُلِّ شيء، وما كان الرفقُ في شيءٍ إلا زانه، وقد رَوَى مالك بسنده عن عائشة، وعن النبي ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الرَّفُقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»^(٣)، وأَمَرَ المسافرين في الخُصْبِ بأن يمشي رويداً، ويكثر النزول، لترعى دابته، فأما الأرضُ الجَذْبَةُ، فالسُّتَةُ للمسافر أن يَسْرُعَ السير؛ ليخرج عنها، وبدأته شيء من الشَّحْمِ والقُوَّةِ، و«التقي» في كلام العرب: الشَّحْمُ والوَدَكُ. انتهى.

ورَوَى أبو داود عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَتَابِرَ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنْما سَخَّرَهَا لَكُمْ لِيَبْلَغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَعَلَيْهَا فَأَقْضُوا حَاجَاتِكُمْ» انتهى^(٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: عبرةٌ منصوبةٌ على العموم، أي: إِنَّ مخلوقاتِ اللَّهِ مِنَ الحيوانِ وغيره لا يُحِيطُ بعلمها بشرٍّ، بل ما يخفى عنه أَكْثَرُ مما يعلمه.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ...﴾ الآية: هذه أيضاً من أَجْلِ نعمِ اللَّهِ تعالى، أي: على اللَّهِ تقويمُ طريقِ الهدى، وتبيينُهُ بَنَصْبِ الأدلة، وبَغْثِ الرسل، وإلى هذا ذهب المتأولون، ويحتمل أن يكون المعنى: أَنَّ مَنْ سَلَكَ السَّبِيلَ الْقَاصِدَ، فعلى اللَّهِ،

(١) التَّقْوَى: عظم العُصْد، وقيل: كل عظم فيه مخ.

ينظر: «لسان العرب» (٤٥٣٢).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٧٩/٢) كتاب «الاستئذان» باب: ما يؤمر به من العمل في السفر، حديث (٣٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٢/٢) كتاب «الجهاد» باب: في الوقوف على الدابة، حديث (٢٥٦٧)، والبيهقي (٥/٢٥٥) من حديث أبي هريرة.

ورحمته وتنعيمه طريقه، وإلى ذلك مصيره، و«طريق قاصد»: معناه: بين مستقيم قريب، والألف واللام في «السبل»، للعهد، وهي سبل الشزع.

وقوله: «ومنها جائر»: يريد طريق اليهود والنصارى وغيرهم، فالضمير في «منها» يعود على السبل التي يتضمنها معنى الآية.

وقوله سبحانه: «فيه تسمون»: يقال: أسام الرجل ما شئته؛ إذا أرسلها ترعى.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلَفًا أَلْوَنَ لِبَسٍ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَنْبِذَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَكُم مَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الْخُلُقُ كَمَنْ لَا يَعْلَقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

وقوله سبحانه: «وما ذرا لكم»: ذرا: معناه: بثّ ونشر.

و«مختلفاً ألوانه»: أي أصنافه، ويحتمل أن يكون التنبيه على اختلاف الألوان من حُمْرة وصفرة وغير ذلك، والأول أئبن.

وقوله سبحانه: «وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواجر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»: البحر: الماء الكثير، ملحاً كان أو عذباً.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): قوله تعالى: «وتستخرجوا منه حلية تلبسونها»: يعني به اللؤلؤ والمرجان، وهذا أمتنان عام للرجال والنساء، فلا يحرم عليهم شيء من ذلك. انتهى. و«مواجر»: جمع ماخرة، والمخر: في اللغة: الصوت الذي يكون من هبوب الريح على شيء يشق أو يصحب في الجملة الماء؛ فيترتب منه أن يكون المخر من الريح، وأن يكون من السفينة ونحوها، وهو في هذه الآية من السفن، وقال بعض النحاة: المخر: في كلام العرب: الشق؛ يقال: مخر الماء الأرض، وهذا أيضاً بين أن يقال فيه للفلك مواجر.

وقوله: «وسبلاً لعلكم تهتدون»: يحتمل: تهتدون في مشيكم وتصرفكم في السبل،

ب ٢٧٨ ويحتمل تهتدون بالنظر في دلالة هذه المضنوعات على صانعيها. / «وعلامات وبالنجم هم يهتدون»: قال ابن عباس: العلامات: معالم الطرق بالنهار، والنجوم: هداية^(١) الليل، وهذا قول حسن؛ فإنه عموم بالمعنى، واللفظة عامة؛ وذلك أن كل ما دل على شيء وأعلم به، فهو علامة، والنجم؛ هنا: اسم جنس، وهذا هو الصواب.

﴿وَإِنْ تَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُخْلُتُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرَ أَحْيَاءِ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا...﴾ الآية: وبحسب العجز عن عد نعم الله تعالى يلزم أن يكون الشاكر لها مقصراً عن بعضها؛ فلذلك قال عز وجل: ﴿لغفور رحيم﴾، أي: عن تقصيركم في الشكر عن جميعها؛ نحا هذا المنحى الطبري؛ ويرد عليه أن نعمة الله في قول العبد: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، مع شرطها من النية والطاعة يوازي جميع النعم، ولكن أين قولها بشروطها، والمخاطبة بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾. عامة لجميع الناس. «والذين يدعون من دون الله»؛ أي: تدعونهم آلهة، و«أموات»؛ يراد به الذين يدعون من دون الله، ورفع «أموات»؛ على أنه خبر مبتدأ مضمّر، تقديره: هم أموات، وقوله: ﴿غير أحياء»؛ أي: لم يقبلوا حياة قط، ولا أتصفوا بها، وقوله سبحانه: ﴿وما يشعرون أيان يبعثون»؛ أي: وما يشعر الكفار متى يبعثون إلى التعذيب.

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحِيدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُخْلُتُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّوا الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رُكُوعًا قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوَارِ الْذِّبِ يُحْمِلُونَهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحِيدٌ﴾ واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة» أي: منكرة اتحاد الإله.

* ت *: وهذا كما حكى عنهم سبحانه في قولهم: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥].

(١) أخرجه الطبري (٥٧١/٧) برقم: (٢١٥٤٤)، وذكره ابن عطية (٣/٣٨٤)، والسيوطي في «الدر المشثور»، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ عبّرت فرقة من اللّغويين عن معناها بـ «لَا بُدَّ ولا محالة»، وقالت فرقة: معناها: حق أن الله، ومذهب سيبويه أن «لَا» نفى لما تقدّم من الكلام، و«جرم»: معناه: وجب أو حقّ ونحوه، هذا مذهب الرّجاج^(١)، ولكن مع مذهبهما، «لَا» ملازمة لـ «جَرَمَ» لا تنفك هذه من هذه.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾: عامّ في الكافرين والمؤمنين يأخذ كلُّ أحد منهم بقرينه، قال الشيخ العارف بالله عبّد الله بن أبي جمرّة رحمه الله موثّق النفوس حياتها، من أحبّ أن يحيّا يموت، ببذل أهل التوفيق نفوسهم وهوانها عليهم، نالوا ما نالوا، ويحبّ أهل الدنيا نفوسهم هانوا وطراً عليهم الهوان هنا وهناك، وقد ورد في الحديث: «أَنَّهُ مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَفِي رَأْسِهِ حِكْمَةٌ بَيِّدَ مَلِكٍ، فَإِنْ تَعَاظَمَ، وَأَزْتَفَعَ، ضَرَبَ الْمَلِكُ فِي رَأْسِهِ، وَقَالَ لَهُ: اتَّضِعْ وَضَعَكَ اللَّهُ، وَإِنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ الْمَلِكُ، وَقَالَ لَهُ: أَرْتَفِعْ، رَفَعَكَ اللَّهُ»، مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا بما به يقرّبنا إليه بمثله^(٢). انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: يعني: كفّار قريش: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ...﴾ الآية، يقال: إن سببها النظر بن الحارث، واللام في قوله: ﴿ليحملوا﴾ يحتمل أن تكون لام العاقبة، ويحتمل أن تكون لام كني، ويحتمل أن تكون لام الأمر؛ على معنى الحثّ عليهم والصّغار الموجب لهم.

وقوله / سبحانه: ﴿وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: «من»: للتبعية؛ وذلك ١٢٧٩ أن هذا الرأس المّضِلّ يحمل وزر نفسه ووزراً من وزر كلِّ من ضلّ بسببه، ولا ينقص من أوزار أولئك شيء، والأوزار هي الأثقال.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفْ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْكِرُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَأَدْحَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ...﴾ الآية: قال ابن

(١) ينظر: «معاني القرآن» (١٩٤/٣).

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤٠٢/٤)، عن أنس بن مالك، وذكره الهندي في «كنز العمال» (٥٧٤٤)، وعزا إلى ابن صصري في «أماليه».

عبّاس وغيره من المفسرين^(١): الإشارة بـ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى نَمْرُودَ الذي بَنَى صَرْحاً؛ لِيَضَعَدَ فِيهِ إِلَى السَّمَاءِ بِزَعْمِهِ، فَلَمَّا أَفْرَطَ فِي عُلوِّهِ، وَطَوَّلَهُ فِي السَّمَاءِ فَرَسَخَيْنِ؛ عَلَى مَا حَكَى الثَّقَافُ، بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِيحاً، فَهَدَمَتْهُ، وَخَرَّ سَقْفَهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى أَتْبَاعِهِ، وَقِيلَ: إِنْ جَبْرِيلَ هَدَمَهُ بِجَنَاحِهِ، وَالْقَى أَعْلَاهُ فِي الْبَحْرِ، وَأَنْجَعَفَ مِنْ أَسْفَلِهِ، وَقَالَتْ فِرْعَوْنُ: الْمَرَادُ بِـ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: جَمِيعُ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَمَكَرَ، وَنَزَلَتْ بِهِ عَقُوبَةُ، وَقَوْلُهُ: عَلَى هَذَا: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، تَمَثِيلٌ وَتَشْبِيهُ، أَيْ: حَالُهُمْ كَحَالِ مَنْ فَعَلَ بِهِ هَذَا.

وقوله: ﴿يُخْزِيهِمْ﴾: لَفْظٌ يَعُمُّ جَمِيعَ الْمَكَارِهِ الَّتِي تَنْزِلُ بِهِمْ؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ رَاجِعٌ إِلَى إِدْخَالِهِمُ النَّارَ، وَدُخُولِهِمْ فِيهَا.

و﴿تَشَاقُونَ﴾: مَعْنَاهُ: تَحَارِبُونَ، أَيْ: تَكُونُونَ فِي شِقِّ، وَالْحَقُّ فِي شِقِّ، وَ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ﴾: هُمُ الْمَلَائِكَةُ فِيمَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ.

قال * ع^(٢): * وَالصَّوَابُ أَنْ يَعْمَ جَمِيعُ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمَ ذَلِكَ مِنْ مَلَائِكَةٍ وَأَنْبِيَاءٍ وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْخِزْيِ، وَأَنَّهُ الْفُضِيحَةُ الْمُخْجَلَةُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْعَارَ وَالْخِزْيَةَ لَتَبْلُغَ مِنَ الْعَبْدِ فِي الْمَقَامِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى مَا أَنْ يَتَمَتَّى أَنْ يُنْطَلَقَ بِهِ إِلَى النَّارِ وَيَنْجُو مِنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ»^(٣) أَخْرَجَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «الْمُسْنَدِ الْمُنْتَخَبِ» لَهُ. انْتَهَى مِنَ «الْكُوكَبِ الدَّرِيِّ».

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾: ﴿الَّذِينَ﴾: نَعَتْ لـ ﴿الْكَافِرِينَ﴾؛ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُتَأَوِّلِينَ، وَ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ يَرِيدُ الْقَابِضِينَ لِأَرْوَاحِهِمْ، وَ﴿السَّلَامُ﴾: هُنَا: أَلَا سَتْسَلَامٌ، وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَيْسَ﴾ لَامُ تَأْكِيدٍ، وَالـ ﴿مَثْوًى﴾: مَوْضِعُ الْإِقَامَةِ.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٧٧/٧) بِرَقْمٍ: (٢١٥٦٧)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٦٦/٣)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٨٨/٣)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٦٦/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٢١٨/٤)، وَعِزَّاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٣٨٩/٣).

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي «الْكَامِلِ» (٢٠٣٩/٦).

الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم...﴾ الآية: لما وصف سبحانه مقالة الكفار الذين قالوا: ﴿أساطير الأولين...﴾ [النحل: ٢٤] عادل ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أصحاب النبي ﷺ، وأوجب لكل فريق ما يستحق، وقولهم: ﴿خيراً﴾ جواب بحسب السؤال، واختلف في قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا...﴾ إلى آخر الآية، هل هو ابتداء كلام أو هو تفسير لـ «الخير» الذي أنزل الله في الوحي على نبينا خيراً أن من أحسن في الدنيا بالطاعة، فله حسنة في الدنيا ونعيم في الآخرة، وروى أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً؛ يَثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقُ فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ»^(١).

وقوله سبحانه: ﴿جنات عدن يدخلونها...﴾ الآية: تقدم تفسير نظيرها، و﴿طيبين﴾: عبارة عن صالح حالهم، وأستعدادهم للموت، و﴿الطيب﴾: الذي لا خُبث معه، وقول الملائكة: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾: بشارة من الله تعالى، / وفي هذا المعنى أحاديث ٢٧٩ ب صحاح يطول ذكرها، وروى ابن المبارك في «رقائقه» عن محمد بن كعب القرظي قال: إذا استنقعت نفس العبد المؤمن، جاءه ملك، فقال: السَّلامُ عَلَيْكَ، وليَّ الله، الله يُقْرِئُ عَلَيْكَ السَّلامَ، ثُمَّ نَزَعَ بهذه الآية: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ...﴾ انتهى.^(٢)

وقوله سبحانه: ﴿بما كنتم تعملون﴾: علق سبحانه دخولهم الجنة بأعمالهم؛ من حيث جعل الأعمال أمانة لإدخال العبد الجنة، ولا معارضة بين الآية، وقوله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِ!» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعِدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ مِنْهُ وَرَحْمَةٍ»^(٣)، فَإِنَّ الْآيَةَ تَرُدُّ بِالتَّوِيلِ إِلَى مَعْنَى الْحَدِيثِ.

(١) أخرجه مسلم (٢/٤١٦٢) كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم» باب: جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا، حديث (٢٨٠٨/٥٦)، وأحمد (٣/١٢٥).

(٢) أخرجه الطبري (٧/٥٨٠) برقم: (٢١٥٧٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٢١٩)، وعزاه لابن أبي مالك، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «المعظم»، وأبي القاسم بن منده في كتاب «الأحوال»، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) تقدم تخريجه.

قال * ع^(١) : « ومن الرحمة والتغمُّد أن يوفق الله العبدَ إلى أعمالٍ برةً، ومقصِدُ الحديثِ نفْيُ وجوبِ ذلك على الله تعالى بالعقل؛ كما ذهب إليه فريقٌ من المعتزلة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم﴾: «ينظرون»: معناه: ينتظرون، «وَنَظَرٌ» متى كَانَتْ من رؤية العين، فإنما تعذيبها العربُ بـ «إلى» ومتى لم تتعدَّ بـ «إلى»، فهي بمعنى «أنتظر»؛ ومنها: ﴿أَنظُرُونَا نَقْتِسِبَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، ومعنى الكلام: أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ظالمي أنفسهم.

وقوله: ﴿أو يأتي أمر ربك﴾: وعيدٌ يتضمَّن قيام الساعة، أو عذاب الدنيا، ثم ذكر تعالى أن هذا كان فعل الأمم قبلهم، فعوقبوا.

وقوله سبحانه: ﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾: أي: جزاء ذلك في الدنيا والآخرة، و﴿حاق﴾: معناه: نزل وأحاط.

وقوله سبحانه: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء...﴾ الآية: تقدّم تفسير نظيرها في «الأنعام»، وقولهم: ﴿ولا حرّمنا﴾: يريد: من البحيرة والسائبة والوصيلة وغير ذلك.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله...﴾ الآية: إلى قوله: ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم^(١): «لَا يَهْدِي» - بفتح الياء وكسر الدال -، وذلك على معنيين: أي: إن الله لا يهدي من قضى بإضلاله، والمعنى الثاني: أن العرب تقول: هدى الرجل، بمعنى أهتدى.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ﴾: الضمير في ﴿أقسموا﴾ لكفار قريش، ثم ردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بلى﴾، فأوجب بذلك البعث، و﴿أكثر الناس﴾ في هذه الآية: الكفار المكذبون بالبعث.

وقوله سبحانه: ﴿لَيبئى﴾: التقدير: بلى يبعثه؛ ليبين لهم الذي يَحْتَلِفُونَ فيه.

وقوله سبحانه: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه...﴾ الآية: المقصود بهذه الآية إعلام مُنْكَرِي البعث بهوان أمره على الله تعالى، وقُزِيه في قُدْرته، لا رب غيره.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُوتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٤) ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِفَّ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٤٦) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٤٧)

وقوله سبحانه: ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا﴾: هؤلاء هم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح في سبب نزول الآية؛ لأن هجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية، والآية تتناول كل من هاجر أولاً وآخرأ، وقرأ جماعة^(٢) خارج السبع: «لَنُتَوَيَّنَّهُمْ»، واختلف في معنى الـ ﴿حَسَنَةً﴾ هنا، فقالت فرقة: الحسنَةُ عِدَّةٌ بَبَقْعَةٍ شَرِيفَةٍ، وهي المدينة، وذهبت فرقة إلى أن الحسنَةُ عَامَّةٌ في كل أمر

(١) وقرأ الباقون: «فإن الله لا يهدي» بضم الياء وفتح الدال، والمعنى أي: من أضله الله لا يهديه أحد. ينظر: «السبعة» (٣٧٢)، و«الحجة» (٦٤/٥)، و«معاني القراءات» (٧٩/٢)، و«إعراب القراءات» (١/٣٥٣)، و«حجة القراءات» (٣٨٨)، و«العنوان» (١١٧)، و«شرح الطيبة» (٤١٣/٤)، و«شرح شملة» (٤٥٧)، و«إتحاف» (١٨٤/٢).

(٢) وقد رويت عن علي، وابن مسعود، ونعيم بن مسيرة، والربيع بن خيثم. ينظر: «المحتسب» (٩/٢)، و«الكشاف» (٦٠٧/٢)، و«المحرر الوجيز» (٣٩٤/٣)، و«البحر المحيط» (٤٧٧/٥)، و«الدرر المصونة» (٣٢٧/٤).

مستحسن يناله ابن آدم، وفي هذا القول يدخل ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه كان يُعطي المَالَ وَفَت الْقِسْمَةَ الرَّجُلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، ويقول له: خُذْ مَا وَعَدَكَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ، ثم يتلو هذه^(١) الآية، ويدخل في هذا القول النَّصْرُ عَلَى الْعَدُوِّ، وَفَتْحُ الْبِلَادِ، وَكُلُّ أَمَلٍ بَلَغَهُ الْمُهَاجِرُونَ، وَالضَّمِيرُ فِي «يَعْلَمُونَ» عَائِدٌ عَلَى كِفَارِ قَرِيشٍ.

وقوله: «الذين صبروا»: من صفة المهاجرين.

وقوله تعالى: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يُوحى إليهم»: هذه الآية ردٌ على كفار قريش الذين استبعدوا أن يبعث الله بشراً رسولاً، ثم قال تعالى: «فاسألوا»، أي: قل لهم: «فاسألوا»، و«أهل الذكر»: هنا: أحبار اليهود والنصارى؛ قاله ابن عباس وغيره^(٢)، وهو أظهر الأقوال، وهم في هذه النازلة خاصة إنما يخبرون بأنَّ الرُّسُلَ مِنَ الْبَشَرِ، وأخبارهم حجة على هؤلاء، وقد أرسلت قريش إلى يهود يثرب يسألونهم ويُسندون إليهم.

وقوله: «بالبينات»: متعلق بفعل مضمر، تقديره: أرسلناهم بالبينات، وقالت فرقة: الباء متعلقة بـ «أرسلنا» في أول الآية، والتقدير على هذا: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزُّبُرِ إِلَّا رَجَالاً، ففي الآية تقديم وتأخير، و«الزُّبُرُ»: الكُتُبُ المزبورة.

وقوله سبحانه: «لتبين للناس ما نزل إليهم... الآية».

* ت * : وقد فعل ﷺ ذلك، فبين عن الله، وأوضح، وقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، فأعرب عن دين الله، وأفصح، ولندكر الآن طرفاً من حكمه، وفصيح كلامه بحذف أسانيده، قال عياض في «شفاه»: وأما كلامه ﷺ المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه، وحكمه الماثورة، فمنها ما لا يُوازى فصاحته، ولا يبارى بلاغته؛ كقوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»^(٣)، وقوله: «الناس

(١) أخرجه الطبري (٥٨٦/٧) برقم: (٢١٥٩٥)، وذكره البغوي (٦٩/٣)، وابن عطية (٣/٣٩٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٧٠/٢)، والسيوطي في «الدر المشثور» (٢٢١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري (٥٨٧/٧) برقم: (٢١٦٠٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/٣٩٥) بنحوه، والسيوطي في «الدر المشثور» (٢٢٢/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطيالسي (٣٧/٢ - منحة)، وأحمد (٢/٢١١)، وأبو داود (٣/١٨٣) كتاب «الجهاد» باب: في السرية ترد على أهل العسكر، حديث (٢٧٥١)، وابن ماجه (٢/٨٩٥) كتاب «الديات» باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث (٢٦٨٥)، وابن الجارود في «المتقى» (٧٧١)، والبيهقي (٢٩/٨) كتاب =

«الجنابات» باب: فيمن لا قصاص بينه باختلاف الدينين، وابن أبي شيبة (٤٣٢/٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٧٠) من طرق عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»، وللحديث شاهد من حديث علي، وأخرجه أحمد (١٢٢/١)، وأبو داود (٦٦٧/٤) كتاب «الديات» باب: أئقاد المسلم بالكافر؟، حديث (٤٥٣٠)، والنسائي (١٩/٨) كتاب «القسامة» باب: القود بين الأحرار والمماليك في النفس، وأبو عبيد القاسم بن سلام في «الأموال» ص: (١٧٩) برقم: (٤٩٥)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٩٢/٣)، وفي «مشكل الآثار» (٩٠/٢)، والدارقطني (٩٨/٣) كتاب «الحدود والديات» (٦١)، والحاكم (١٤١/٢)، والبيهقي (٢٩/٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٨٨/٥ - بتحقيقنا) من طريق الحسن عن قيس بن عباد قال: انطلقت أنا والأشتر إلى علي فقلنا: هل عهد إليك رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده للناس عامة؟ قال: «لا إلا ما كان في كتابي هذا»، فأخرج كتاباً من قراب سيفه فإذا فيه: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم، لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده، ومن أحدث حدثاً فعلى نفسه، ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين»، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وفي الباب عن ابن عباس، ومقل بن يسار، وعائشة، وعطاء بن أبي رباح مرسلًا.

حديث ابن عباس: أخرجه ابن ماجه (٨٩٥/٢) كتاب «الديات» باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث (٢٦٨٣)، من طريق حنش عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويرد على أقصاهم»، وذكره الحافظ البوصيري في «الزوائد» (٣٥٣/٢) وقال: هذا إسناد ضعيف، لضعف حنش، واسمه: حسين بن قيس.

حديث مقل بن يسار: أخرجه ابن ماجه (٨٩٥/٢) كتاب «الديات» باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث (٢٦٨٤)، وابن عدي في «الكامل» (٣٣٢/٥) من طريق عبد السلام بن أبي الجنوب، عن الحسن، عن مقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون يد على من سواهم، وتكافأ دماؤهم».

واللفظ لابن ماجه، أما لفظ ابن عدي: «لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده، والمسلمون يد على من سواهم، تتكافأ دماؤهم». وقال ابن عدي: وعبد السلام بن أبي الجنوب بعض ما يرويه لا يتابع عليه منكر.

وذكره الحافظ البوصيري في «الزوائد» (٣٥٣/٢ - ٣٥٤) وقال: هذا إسناد ضعيف؛ عبد السلام ضعفه ابن المديني، وأبو حاتم، وأبو زرعة، والبخاري، وابن حبان.

حديث عائشة: أخرجه الدارقطني (١٣١/٣) كتاب «الحدود والديات»، حديث (١٥٥) من طريق مالك بن محمد بن عبد الرحمن عن عمرة، عن عائشة قالت: وجد في قائم سيف رسول الله ﷺ كتابان: إنه أشد الناس عتوّاً في الأرض رجل ضرب غير ضاربه، أو رجل قتل غير قاتله، ورجل تولى غير أهل نعبته فمن فعل ذلك فقد كفر بالله وبرسله، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، وفي الآخر: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده، ولا يتوارث أهل ملتين».

وقال الزيلعي في «نصب الراية» (٣٩٥/٣)، ومالك هذا هو ابن أبي الرجال أخو حارثة، ومحمد، قال =

كَأَسْنَانِ الْمِشْطِ^(١)، «وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(٢)، «لَا خَيْرَ فِي صُحْبَةٍ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مَا تَرَى لَهُ»^(٣)، وَ«النَّاسُ مَعَادِنٌ»^(٤)، وَ«مَا هَلَكَ أَمْرُؤُ عَرَفَ قَدْرَهُ»، وَ«الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»، وَ«هُوَ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ»^(٥)، وَ«رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَعَنِمَ، أَوْ سَكَتَ عَنْ شَرٍّ فَسَلِمَ».

أبو حاتم: هو أحسن حالاً من أخويه أ هـ.

مرسل عطاء: أخرجه أبو عبيد في «الأموال» ص: (٢٩٠) برقم: (٨٠٣)، ثنا ابن أبي زائدة، عن معقل بن عبد الله الجزي، عن عطاء بن أبي رباح قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون إخوة يتكافؤون دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، ومشدهم على مضغفهم ومتسريهم على قاعدتهم».

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره الهندي في «كنز العمال» (٢٤٨٢٤)، وينظر: تخريج حديث: «الناس كأسنان المشط».

(٤) أخرجه البخاري (٤٨١/٦) كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَلَذِّثِينَ﴾، حديث (٣٣٨٣)، (٢١٢/٨) كتاب «التفسير» باب: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَلَذِّثِينَ﴾، حديث (٤٦٨٩)، ومسلم (١٨٤٦/٤) كتاب «الفضائل» باب: من فضائل يوسف، حديث (٢٣٧٨/١٦٨)، والدارمي (٧٣/١) باب: الاقتداء بالعلماء، وأبو يعلى (٤٣٨/١١) رقم: (٦٥٦٢)، والبيهقي في «شرح السنة» (٥٠٧/٦ - بتحقيقنا)، كلهم من طريق عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة به. وأخرجه أحمد (٢٥٧/٢)، والحميدي (٤٥١/٢) رقم: (١٠٤٥) من طريق أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «تجدون الناس معادن فخيرهم في الجاهلية خيرهم في الإسلام إذا فقهوا».

وأخرجه مسلم (١٩٥٨/٤) كتاب «فضائل الصحابة» باب: خيار الناس، حديث (٢٥٢٦/١٩٩)، وأحمد (٥٢٤/٢ - ٥٢٥)، وابن حبان رقم: (٦٣٦) من طريق يونس، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً باللفظ السابق، وأخرجه أبو يعلى (٤٥٧/١٠ - ٤٥٨) رقم: (٦٠٧٠)، وابن حبان رقم: (٩٢) من طريق أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً: «الناس معادن في الخير والشر خيرهم في الجاهلية خيرهم في الإسلام إذا فقهوا».

وأخرجه الحميدي (٤٥١/٢) رقم: (١٠٤٦) من طريق يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة به. وللحديث شاهد من حديث معاوية بن أبي سفيان، أخرجه أحمد (١٠١/٤) بلفظ: «الناس تبع لقريش خيرهم في الجاهلية خيرهم في الإسلام إذا فقهوا».

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٢٣٣/٢) كتاب «الأدب» باب: المستشار مؤتمن، حديث (٣٧٤٦)، والدارمي (٢/٢١٩) كتاب «السير» باب: المستشار، وأحمد (٢٧٤/٥)، وابن حبان (١٩٩١ - موارد)، والبيهقي (١١٢/١٠) كتاب «آداب القاضي» باب: من يشاور، والطبراني في «الكبير» (٢٣٠/١٧) رقم: (٢٣٨) كلهم من طريق أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن أبي عمر الشيباني، عن أبي مسعود به مرفوعاً.

قال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢٧٤/٢) رقم: (٢٣/١٩): سألت أبي عن حديث رواه الأسود بن عامر... فذكر الحديث وقال: قال أبي: هذا خطأ، إنما أراد: الدال على الخير كفاعله، قلت: الخطأ ممن هو؟ قال: من شريك أ هـ. ومع ذلك فقد صححه ابن حبان.

وقوله: «أَسْلِمَ تَسْلَمَ»، و«أَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»، و«إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي

وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/١٨١): هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات اهـ.
وفي الباب عن جماعة من الصحابة وهم أبو هريرة، وجابر بن سمرة، وسمرة بن جندب، وأبو
الهيثم بن التيهان، وعمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن الزبير، وأم سلمة.
حديث أبي هريرة: أخرجه أبو داود (٢/٧٥٥) كتاب «الأدب» باب: في المشورة، حديث (٥١٢٨)،
والترمذي (١١٥/٥) كتاب «الأدب» باب: إن المستشار مؤتمن، حديث (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٢/
١٢٣٣) كتاب «الأدب» باب: المستشار مؤتمن، حديث (٣٧٤٥)، والبخاري في «الأدب المفرد»،
حديث (٢٥٦)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/١٩٥ - ١٩٦)، والحاكم (٤/١٣١)، والبيهقي (١٠/
١١٢) كتاب «آداب القاضي» باب: من يشار، كلهم من طريق عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة بن
عبد الرحمن، عن أبي هريرة، مرفوعاً، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: صحيح
على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
حديث جابر بن سمرة: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/٢١٤) رقم: (١٨٧٩)، والخطيب في «تاريخ
بغداد» (٥/٩٧) كلاهما من طريق قيس بن الربيع، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة قال:
قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن».
والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/١٠٠) وقال: رواه الطبراني في «الكبير والأوسط»، وفيه من
لم أعرفه.

حديث سمرة بن جندب: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧/٢٦٦) رقم: (٦٩١٤)، وأبو نعيم في
«الحلية» (٦/١٩٠) كلاهما من طريق عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، ثنا سلام بن أبي مطيع، عن
قتادة، عن الحسن، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن».
قال أبو نعيم: غريب من حديث سلام، لم نكتبه عالياً إلا من هذا الوجه، وذكره الهيثمي في «المجمع»
(٨/١٠٠) وقال: وفيه عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، وهو متروك.
حديث أبي الهيثم بن التيهان: أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/٧٤٧) رقم: (١٢٤٧) من
طريق محمد بن جامع العطار، حدثنا عبد الحكيم بن منصور، نا عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة،
عن أبي الهيثم بن التيهان مرفوعاً، وقال ابن الجوزي: وهذا لا يثبت، ولا يصح، أما عبد الحكيم فقال
يحيى: كذاب، وقال الرازي: لا يكتب حديثه، وأما محمد بن جامع، فقد ضعفه.
وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/١٠٠)، وقال: رواه الطبراني من طريق جده عبد الرحمن بن
محمد بن زيد، ولم أعرفهما، وبقيّة رجاله ثقات.

حديث عمر بن الخطاب: أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/٦٠ - ٦١)، ومن طريقه ابن الجوزي
في «العلل المتناهية» (٢/٧٤٦) من طريق محمد بن سليمان قال: حدثني حزام بن هشام قال: سمعت
أبي يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المستشار مؤتمن».
قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يثبت، كان الحميدي يتكلم في محمد بن سليمان، وضعفه النسائي،
وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع لا في إسناده ولا في متنه.

حديث ابن عباس: أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/٣٩) رقم: (٥)، وذكره الهيثمي في
«المجمع» (٨/٩٩)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه عمرو بن الحصين العقيلي، وهو متروك.
حديث ابن الزبير: أخرجه البزار (٢/٤٢٨ - ٤٢٩) رقم: (٢٠٢٧) من طريق أبي عوانة، عن =

مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُوْطُؤُونَ أَكْنَافًا الَّذِينَ يَأْلُقُونَ وَيُؤْلُقُونَ»، وقوله: «لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَغْنِيهِ، وَيَبْخُلُ بِمَا لَا يَغْنِيهِ»، وقوله: «ذُو الْوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» / وَنَهَيْهِ عَنْ قِيلٍ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَمَنْعَ وَهَاتِ، وَعُقُوقِ الْأُمَهَاتِ، وَوَادِ الْبَنَاتِ^(١)، وقوله: «أَتَى اللَّهَ حَيْثُ كُنْتُ، وَأَتْبَعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا،

عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن الزبير مرفوعاً، وقال البزار: لا نعلم أحداً تابع ابن إسحاق على هذه الرواية، وقد اختلفوا على عبد الملك، فرواه غير واحد عن أبي عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة مرسلًا، وروي عن عبد الملك بن عمير، عن أبي هريرة، ورواه الحكم بن منصور، عن عبد الملك، عن أبي سلمة، عن أبي الهيثم بن التيهان، ورواه شريك، عن عبد الملك، عن أبي سلمة، عن أم سلمة، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٩٩/٨) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح اهـ.

قلت: أما المرسل الذي أشار إليه البزار عن أبي سلمة فأخرجه أحمد في «الزهد» ص: (٣٢). حديث أم سلمة: أخرجه الترمذي (١١٦/٥) كتاب «الأدب» باب: إن المستشار مؤتمن، حديث (٢٨٢٣)، وأبو يعلى (٣٣٣/١٢) رقم: (٦٩٠٦) من طريق داود بن أبي عبد الله، عن ابن جددان، عن جدته، عن أم سلمة مرفوعاً به.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث أم سلمة. وفي الباب عن علي بن أبي طالب أيضاً، والنعمان بن بشير أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» (٩٩/٨) وقال الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط» عن شيخه أحمد بن زهير عن عبد الرحمن بن عتبة الطبري، ولم أعرفهما.

وحديث النعمان بن بشير: ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠٠/٨) وقال: رواه الطبراني وفيه حفص بن سليمان الأسدي، وهو متروك، وحديث: «المستشار مؤتمن»، ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (٦/٢٦٨ - فيض) رقم: (٩٢٠٠ - ٩٢٠١ - ٩٢٠٢)، وقد عده متواتراً في «الأزهار المتناثرة» رقم: (٥٢). وقال المناوي في «الفيض» (٢٦٨/٦): «المستشار مؤتمن» أي: أمين على ما استشير فيه فمن أفضى إلى أخيه بسر، وأمنه على نفسه، فقد جعله بمحلها، فيجب عليه أنه لا يشير عليه إلا بما يراه صواباً، فإنه كالأمانة للرجل الذي لا يأمن على إيداع ماله إلا ثقة، والسر الذي يكون في إذاعته تلف النفس أولى بالآلا يجعل إلا عند موثوق به، وفيه حث على ما يحصل به معظم الدين، وهو النصح لله ورسوله وعامة المسلمين وبه يحصل التحاب والاتلاف، وبضده يكون التباغض والاختلاف، قال بعض الكاملين: يحتاج الناصح والمشير إلى علم كبير فإنه يحتاج أولاً إلى علم الشريعة، وهو العلم العام المتضمن لأحوال الناس، وعلم الزمان وعلم المكان، وعلم الترجيح إذا تقابلت هذه الأمور فيكون ما يصلح الزمان يفسد الحال أو المكان، وهكذا فينظر في الترجيح فيفعل بحسب الأرجح عنده؛ مثاله: أن يضيق الزمن عن فعل أمرين اقتضاهما الحال فيشير بأهمهما، وإذا عرف من حال إنسان بالمخالفة وأنه إذا أرشده لشيء فعل ضده يشير عليه بما لا ينبغي ليفعل ما ينبغي، وهذا يسمى علم السياسة، فإنه يسوس بذلك النفوس الجموحة الشاردة عن طريق مصالحها، فلذلك قالوا: يحتاج المشير والناصح إلى علم، وعقل، وفكر صحيح، ورؤية حسنة، واعتدال مزاج، وتودة، وتأن، فإن لم تجمع هذه الخصال فخطأه أسرع من إصابته، فلا يشير ولا ينصح، قالوا: وما في مكارم الأخلاق أدق ولا أخفى ولا أعظم من النصيحة.

وَخَالِقِ النَّاسِ يَخْلُقُ حَسَنًا^(١)؛ و«خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا»، وقوله: «أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا»، وقوله: «الظُّلُمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وقوله في بَغْضٍ دعائه: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتُلِمُّ بِهَا شَعْبِي^(٢)، وَتُصْلِحُ بِهَا عَائِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُرَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمْنِي بِهَا رَشْدِي، وَتَرْزُقْ بِهَا أَلْفَتِي، وَتَعْصِمْنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَوْرَ فِي الْقَضَاءِ، وَنَزَلَ الشُّهَدَاءِ، وَعَيْنِ الشُّعَدَاءِ، وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ»، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بَيَانِهِ، وَحُسْنِ كَلَامِهِ مِمَّا رَوَتْهُ الْكَافَّةُ عَنِ الْكَافَّةِ مِمَّا لَا يُقَاسُ بِهِ غَيْرُهُ، وَحَازَ فِيهِ سَبَقًا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ؛ كَقَوْلِهِ: «السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»؛ فِي أَخَوَاتِهَا مِمَّا يَدْرِكُ النَّاضِرُ الْعَجَبَ فِي مَضْمَنُهَا، وَيَذْهَبُ بِهِ الْفَكْرُ فِي أَدَانِي حِكْمِهَا، وَقَالَ ﷺ: «بَيَدَ أُنْيٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَتَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ»، فَجَمَعَ اللَّهُ لَهُ بِذَلِكَ قُوَّةَ عَارِضَةِ الْبَادِيَةِ وَجَزَالَتِهَا، وَنَصَاعَةَ الْفَاطِ الْحَاضِرَةِ وَرَوْنَقَ كَلَامِهَا، إِلَى التَّايِيدِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي مَدَدَهُ الْوَحْيُ، الَّذِي لَا يَحِيطُ بِعَلَمِهِ بِسَرِّي. انْتَهَى. وَبِالْجُمْلَةِ فَلَيْسَ بَعْدَ بَيَانِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بَيَانٌ لِمَنْ عَمَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ...﴾ الآية: تهديدٌ لَكُفَّارِ مَكَّةَ وَنُصَبِ السَّيِّئَاتِ بِـ ﴿مَكْرُوا﴾ وَعُدِّي ﴿مَكْرُوا﴾ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى عَمَلُوا، قَالَ الْبَخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾، أَي: فِي اخْتِلَافِهِمْ^(٣) انْتَهَى.

وقال المهدوي: قَالَ قَتَادَةَ: ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾: فِي أَسْفَارِهِمْ^(٤)، الضَّحَّاكُ: ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾: بِاللَّيْلِ انْتَهَى.

وقوله: ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾، عَلَى جِهَةِ التَّخَوُّفِ، وَالتَّخَوُّفُ التَّنْقِصُ، وَرَوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَفِيَ عَلَيْهِ مَعْنَى التَّخَوُّفِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَرَادَ الْكَثْبَ إِلَى الْأَمْصَارِ يَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ، فَيُرَوَّى أَنَّهُ جَاءَهُ قَتَّى مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ أَبِي يَتَخَوَّفُنِي مَالِي، فَقَالَ عُمَرُ: اللَّهُ أَكْبَرُ! ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾^(٥)، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّابِغَةِ: [الطَّوِيل]

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أي: تجمع بها ما تفرق من أمري.

ينظر: «النهاية» (٤٧٨/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٥٩٠/٧) برقم: (٢١٦١٣)، وذكره البغوي (٧٠/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٥٩٠/٧) برقم: (٢١٦١٥)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥٧١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٣/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٥٩١/٧) برقم: (٢١٦/٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٩٦/٣)، والسيوطي في «الدر =

تَخَوْفُهُمْ حَتَّى أَذَلَّ سَرَائِهِمْ بِطَغْنٍ ضِرَارٍ بَعْدَ فَتْحِ الصَّفَائِحِ^(١)
وهذا التنقص يتجه به الوعيد على معنيين:

أحدهما: أن يهلكهم ويخرج أرواحهم على تخوف، أي: أفضاذاً يتنقصهم بذلك الشيء بعد الشيء، ويصيرهم إلى ما أعد لهم من العذاب، وفي هذه الرتبة الثالثة من الوعيد راقفة ورحمة وإمهال؛ ليتوب التائب، ويرجع الراجع، والثاني: ما قاله الضحاك: أن يأخذ بالعذاب طائفة أو قرية، ويترك أخرى، ثم كذلك حتى يهلك الكل^(٢).

وقالت فرقة: «التخوف» هنا: من الخوف، أي: فيأخذهم بعد تخوف ينالهم / يعذبهم به.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ وَيَتَعَلَّوْنَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلنَّهْيِ آتَيْنَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَسَّكُمْ الْأُصْرُ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ ﴿٥١﴾﴾ وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِنَّهُ يُخْرِجُ الْخَبْرَ ﴿٥٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء...﴾ الآية: قوله: ﴿من شيء﴾ لفظ عام في كل شخص وجزم له ظل كالجبال والشجر وغير ذلك، وقاء الظل رجع، ولا يقال: الشيء إلا من بعد الزوال؛ في مشهور كلام العرب، لكن هذه الآية: الاعتبار فيها من أول النهار إلى آخره فكأن الآية جارية في بغض؛ على تجوز كلام العرب واقتضائه، والرؤية، هنا: رؤية القلب ولكن الاعتبار برؤية القلب هنا إنما تكون في مريئات بالعين، و﴿عن اليمين والشمال﴾؛ هنا: فيه تجوز واتساع، وذكر^(٣) الطبري عن الضحاك، قال: إذا زالت الشمس، سجد كل شيء قبل القبلة من نبت أو شجر^(٤)؛ ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة في ذلك الوقت. قال الداوودي: وعن النبي ﷺ قال: «أزبغ

= المتثور» (٢٢٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩٦/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٥٩٠/٧) برقم: (٢١٦٢٦)، وذكره البغوي (٧٠/٣) بنحوه، وابن كثير في «تفسيره»

(٢/٥٧١) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٣/٤)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٩٣/٧).

(٤) أخرجه الطبري (٥٩٣/٧) برقم: (٢١٦٣٤)، وذكره ابن عطية (٣٩٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٧٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٤/٤)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم، عن الضحاك.

قَبْلَ الظُّهْرِ بَعْدَ الزَّوَالِ تُحْسَبُ بِمِثْلِهِنَّ فِي صَلَاةِ السَّحَرِ، قَالَ: «وَلَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا يُسَبِّحُ لِلَّهِ تِلْكَ السَّاعَةَ»، وقرأ: ﴿يَتَفَيَّؤُوا ظِلَالَهُ...﴾^(١) الآية كلها. انتهى^(٢). و«الدَّاحِر»: المتصاغر المتواضع.

وقوله سبحانه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾: عامٌ لجميع الحيوان، و﴿مَنْ فَوْقَهُمْ﴾: يريد: فوقية القَدْر والعظْمة والقَهْر.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾: «السَّمُوت» هنا: كلُّ ما أَرْتَفَعَ مِنَ الخلق من جهة فَوْق، فيدخل في ذلك العرش والكرسي وغيرهما، و﴿الَّذِينَ﴾: الطاعة والمُلْك، و«الواصب»: الدائم؛ قاله ابن عباس^(٣).

ثم ذَكَرَ سبحانه بِنَعَمِهِ، ثم ذَكَرَ بِأَوَاقَاتِ المَرَضِ، وَالتَّجَاؤِ العِبَادِ إِلَيْهِ سبحانه، و«الضُّرُّ»، وَإِنْ كَانَ يَعْمُ كُلُّ مَكْرُوهِ، فَأَكْثَرُ مَا يَجِيءُ عَنْ أَرْزَاءِ البَدَنِ، و﴿تَجَاوَزُونَ﴾ معناه: ترفعون أصواتكم بِاسْتِغَاثَةٍ وتَضَرُّعٍ.

﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَسْتَعُوْا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لَنَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ثَالِثُ تَلَاوُفٍ ٥٦﴾

﴿ثم إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾: الـ ﴿فَرِيقٌ﴾، هنا: يراد به المشركون الذين يَزَوْنَ أَنْ لِلْأَصْنَامِ أَفْعَالاً مِنْ شِفَاءِ المَرَضِ، وَجَلْبِ النِّفْعِ، وَدَفْعِ الضُّرِّ، فهم إِذَا شَفَاهُمُ اللَّهُ، عَظَّمُوا أَصْنَامَهُمْ، وَأَضَافُوا ذَلِكَ الشِّفَاءَ إِلَيْهَا.

وقوله سبحانه: ﴿ليَكْفُرُوا﴾: يجوز أَنْ تكون اللامُ لَامَ الصِّيْرُورَةِ، ويجوز أَنْ تكونَ لامُ أَمْرٍ؛ على معنى التهديد.

وقوله: ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾: أي: بما أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٩/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة النحل، حديث (٣١٢٨) من حديث عمر، وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٩/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة النحل، حديث (٣١٢٨) من طريق علي بن عاصم، عن يحيى البكاء، حدثني عبد الله بن عمر، عن عمر بن الخطاب به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن عاصم. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٤/٤)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٥٩٥/٧) برقم: (٢١٦٤٢)، وذكره ابن عطية (٤٠٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٧٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٥/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: أي: لما لا يعلمون له حُجَّةٌ، ولا برهاناً، ويحتمل أن يريد بنفي العِلْمِ الأصنامَ، أي: لجمادات لا تعلم شيئاً نصيباً، و«النصيب» المشار إليه هو ما كانت العرب سئته من الذبح لأصنامها، والقسم من الغلات وغيره.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ۖ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨﴾ ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ...﴾ الآية: تعديد لقبايح الكفرة في قولهم: «الملائكة بنات الله»، تعالى الله عن قولهم، والمراد بقوله: ﴿ولهم ما يشتهون﴾، الذكراُن من الأولاد.

وقوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾: عبارة عما/ يعلو وجهه المغموم.

ب ٢٨١

قال ص * : «ظَلَّ»: تكون بمعنى «صَارَ»، وبمعنى «أقام نهاراً»؛ على الصفة المسندة إلى أسمها، وتحتل هنا الوجهين. انتهى، و«كظيم»: بمعنى: كاظم، والمعنى: أنه يخفي وجهه وهمة بالأنثى، ومعنى «يتوارى»: يتغيب من القوم، وقرأ^(١) الجحدري: «أَيُمْسِكُهَا أَمْ يَدُسُّهَا»، وقرأ الجمهور^(٢): «عَلَىٰ هُونٍ»، وقرأ عاصم الجحدري^(٣): «عَلَىٰ هَوَانٍ»، ومعنى الآية: يُذِيرُ، أيْمِسُكُ هذه الأنثى على هوانٍ يتحمله، وهم يتجلد له، أم يَدُسُّهَا فيدْفنها حيَّةً، وهو الدس في التراب.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦٠﴾ وَلَوْ يُوَاسِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَشْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْقَىٰ لَا جَرَيمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ٦٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾: قالت فرقة: ﴿مَثَلُ﴾، في هذه الآية: بمعنى صفة، أي: لهؤلاء صفة السوء ولله المثل الأعلى.

(١) ينظر: «الشواذ» (٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٤٠٢/٣)، و«البحر المحيط» (٤٨٨/٥)، و«الدر المنصور» (٣٣٩/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٢/٣)، و«البحر المحيط» (٤٨٨/٥)، و«الدر» (٣٣٩/٤).

(٣) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

قال *ع^(١)*: وهذا لا يضطر إليه؛ لأنه خروجٌ عن اللَّفْظِ، بل قوله: ﴿مَثَلٌ﴾ على بابهِ، فلم يَعلَى الإِطلاقِ مَثَلُ السَّوءِ في كُلِّ سَوءٍ، ولا غاية أخرى من عذابِ النارِ، وللهُ سبحانه ﴿المَثَلُ الأَعْلَى﴾ على الإِطلاقِ أيضاً، أي: الكمالُ المُستغْنى.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكُوا عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾: الضميرُ في «عليها» عائذٌ على الأرض، وَتَمَكَّنَ ذلك مع أنه لم يَجْرِ لها ذكر؛ لشهرتها وتمكُّن الإشارة إليها، وسمع أبو هريرة رجلاً يقول: «إِنَّ الظَّالِمَ لَا يَهْلِكُ إِلَّا نَفْسُهُ» فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: بَلَى، إِنَّ اللَّهَ لَيَهْلِكُ الْحَبَارَى فِي وَكْرِهَا هَذَا بِذُنُوبِ الظَّالِمَةِ^(٢). و«الْأَجَلَ الْمَسْمَى»؛ في هذه الآية: هو بحسب شخص شخص.

وقوله: ﴿ما يكرهون﴾ يريد البنات.

وقوله سبحانه: ﴿وتصف السنتهم الكذب أن لهم الحسنی﴾: قال مجاهد وقادة **الحُسْنَى**: **الذُّكُور من الأولاد**^(٣)، وقالت فرقة: يريد الجنة.

قال * ع^(٤) * : وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمَ النَّارَ﴾ ، وَقَرَأَ السَّبْعَةَ^(٥) سَوَى نَافِعَ : «مُفْرَطُونَ» - بَفَتْحِ الرَّاءِ وَخِفَّتِهَا - أَيْ : مُقَدَّمُونَ إِلَى النَّارِ ، وَقَرَأَ نَافِعَ : «مُفْرَطُونَ» - بِكَسْرِ الرَّاءِ الْمَخْفُفَةِ - ، أَيْ : مُتَجَاوِزُونَ الْحَدَّ فِي مَعَاصِي اللَّهِ .

﴿تَاللَّهِ لَآءَدْرُسُنَا إِلَىٰ أَمْرِ مِّنْ قَبْلِكَ فَرَزَ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٦) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِشَيْءٍ كُنْتُمْ تَخْلَعُونَ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٨﴾

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٢/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٦٠١/٧) برقم: (٢١٦٦٩) بنحوه، وذكره البغوي (٧٤/٣)، وابن عطية (٤٠٣/٣)، وابن كثير (٥٧٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٨/٤)، وعزه لعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في «الشعب».

(٣) أخرجه الطبري (٦٠٢/٧) برقم: (٢١٦٧٣)، (٢١٦٧٤)، (٢١٦٧٥)، وذكره ابن عطية (٤٠٣/٣)، وابن كثير (٥٧٤/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٢٢٨/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ولعبد الرزاق، وابن المنذر.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٣/٣).

(٥) ينظر: «السبعة» (٣٧٣)، و«الحجة» (٧٣/٥)، و«معاني القراءات» (٨٠/٢)، و«إعراب القراءات» (١/٣٥٦)، و«شرح الطيبة» (٤/٤١٥)، و«العنوان» (١١٨)، و«شرح شعلة» (٤٥٨)، و«حجة القراءات» (٣٩١)، و«إتحاف» (٢/١٨٥).

وَلَا لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعْنَةً تَشْفِكُمْ بِهَا فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمْرٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ...﴾ الآية: هذه آية ضرب مثل لهم بَمَنْ سَلَفَ، في ضِمْنِهَا وعيدٌ لهم، وتأنيسٌ للنبي ﷺ، وقوله: ﴿فهو وليهم اليوم﴾: يحتمل أن يريد بـ ﴿اليوم﴾ يوم الإخبار، ويحتمل أن يريد يوم القيامة، أي: وليهم في اليوم المشهور.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا لَتَبِينَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾: ﴿لتبين﴾: في موضع المفعول من أجله، أي: إلا لأجل البيان، و﴿الذي اختلَفُوا فِيهِ﴾: لَفْظٌ عامٌّ لأنواعِ كُفْرِ الكفرة، لكن الإشارة هنا إلى تشريكهم الأضنام في الإلهية.

ثم أَخَذَ سبحانه يَنْصُ العِبَرَ المؤدية إلى بيان وحدانيته، وعظيم قدرته، فبدأ بنعمة المَطَرِ التي هي أبينُّ العبر، وهي ملائكة الحياة، وهي في غاية الظهور، لا يخالف فيها عاقل.

وقوله: ﴿مِمَّا فِي بَطُونِهِ﴾: الضمير عائد على الجنس، وعلى المذكور، وهذا كثير.

وقوله سبحانه: ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ / «السائغ»: السهل في الشرب اللذيذ.

١٢٨٢

* ت * : وعن ابن عباس، قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ أَطْعَمَهُ اللَّهُ طَعَامًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَمَنْ سَقَاهُ اللَّهُ لَبَنًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ»، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزِيءُ مَكَانَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ غَيْرُ اللَّبَنِ»^(١)، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي، واللفظ له: هذا حديث حسن، انتهى من «السلاح».

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ اللَّبَالِ يَتْوَكًّا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَيُنَكِّرُكُمْ مَنْ يَرُدُّكُمْ إِلَيْكُمْ أَزْوَاجَ الْمَمَرِّ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥/٢) كتاب «الأسرية» باب: ما يقول إذا شرب اللبن، حديث (٣٧٣٠)، والترمذي (٥٠٦/٥ - ٥٠٧) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا أكل طعاماً، حديث (٣٤٥٥)، وفي «الشمائل» برقم: (٢٠٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٢٨٦ - ٢٨٧)، وأحمد (٢٢٠/١)، ٢٢٥، (٢٨٤)، من حديث ابن عباس، وقال الترمذي: حديث حسن.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا...﴾ الآية: «السَّكْر»: ما يُسَكَّرُ؛ هذا هو المشهور في اللغة، قال ابن عباس: نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر^(١)، وأراد بـ «السَّكْر»: الخمر، وبـ «الرُّزْق الحسن» جميع ما يُشْرَب ويؤكل -حلالاً من هاتين الشجرتين، فالحسن؛ هنا: الحلال، وقال بهذا القول ابن جُبَيْر وجماعة^(٢) وصحَّح ابن العربي^(٣) هذا القول، ولفظه: والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر، فإن هذه الآية مكيّة باتفاق العلماء، وتحريم الخمر مدني انتهى من «أحكام القرآن»، وقال سجاهد وغيره: السكر المائع من هاتين الشجرتين، كالحلّ، والزّب، والنبيذ، والرّزق الحسن: العنب والتمر^(٤).

قال الطبري^(٥): والسَّكْر أيضاً في كلام العرب ما يُطعم، ورجَّح الطبري هذا القول، ولا مدخل للخمر فيه، ولا نسخ في الآية.

وقوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل...﴾ الآية: الوحي؛ في كلام العرب: إلقاء المعنى من الموحى إلى الموحى إليه في خفاء، فمنه الوحي إلى الأنبياء برسالة المَلَك، ومنه وحي الرؤيا، ومنه وحي الإلهام، وهو الذي في آيتنا؛ باتفاق من المتأولين، والوحي أيضاً بمعنى الأمر؛ كما قال تعالى: ﴿بَأْن رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، وقد جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع: إما في الجبال وكواها، وإما في متجوف الأشجار، وإما فيما يغرّش ابن آدم من الأجباح والجيطان، ونحوها، وعَرَش: معناه: هيأ، والـ ﴿سُبُل﴾ الطرق، وهي مسالكها في الطيران وغيره، و﴿ذُلُلًا﴾: يحتمل أن يكون حالاً من «النحل»، أي: مطيعةً منقادةً، قاله قتادة^(٦). قال ابن زَيْد: فهم يخرجون بالنحل

(١) ذكره البغوي (٧٥/٣)، وابن عطية (٤٠٥/٢)، وابن كثير (٥٧٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٨/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وأبي داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وابن مردويه، والحاكم صححه.

(٢) أخرجه الطبري (٦٠٩/٧) برقم: (٢١٧٠٧)، (٢١٧٠٨)، (٢١٧٠٩)، وذكره البغوي (٧٥/٣)، وابن عطية (٤١٥/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٩/٤)، وعزاه للنسائي.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١١٥٣/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٦١١/٧) برقم: (٢١٧٣٧) بنحوه، وذكره البغوي (٧٥/٣)، وابن عطية (٤٠٥/٣)، وابن كثير (٥٧٧/٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٦١١/٧).

(٦) أخرجه الطبري (٦١٣/٧) برقم: (٢١٧٤٨)، وذكره ابن عطية (٤٠٦/٣)، وابن كثير (٥٧٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٠/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر.

ينتجعون، وهي تتبعهم^(١) وقرأ: ﴿أَوْ لَمْ يَزُوا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا...﴾ [يس: ٧١] الآية، ويحتمل أن يكون حالاً من «السُّبُل»، أي: مسهلة مستقيمة؛ قاله مجاهد^(٢)، لا يتوَعَّر عليها سبيلٌ تسلكه.

ثم ذكر تعالى؛ على جهة تعديد النعمة، والتنبيه على العبرة - أَمَرَ الْعَسَلُ فِي قَوْلِهِ: «يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ»، وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النُّحْلِ، واختلاف الألوان في العسل بحسب اختلاف النُّحْلِ والمَرَاعِي، أي والفصول.

* ت * قال الهروي: قوله تعالى: «يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ»، وذلك أنه يستحيل في بطونها، ثم تمجُّه من أفواهها انتهى.

٢٨٢ ب وقوله: «فيه شفاء للناس» الضمير للعسل؛ قاله الجمهور: / قال ابن^(٣) العربي في «أحكامه»؛ وقد روى الأئمة، واللفظ للبخاري، عن عائشة، قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ الْخُلُوءَ وَالْعَسَلَ^(٤)، وروى أبو سعيد الخدري: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ فَقَالَ: «أَسْقِهِ عَسَلًا»، ثم أتاه الثانية، فَقَالَ: «أَسْقِهِ عَسَلًا»، ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: فَقُلْتُ فَمَا زَادَهُ ذَلِكَ إِلَّا اسْتِظْلَاقًا، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، أَسْقِهِ عَسَلًا» فسقاه، فبرأ^(٥)، وروي أَنَّ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيَّ مَرِضًا، فَقِيلَ لَهُ: أَلَا نُعَالِجُكَ؟ فَقَالَ: أَتُؤْنِسُنِي بِمَاءٍ سَمَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق: ٩]

(١) أخرجه الطبري (٦١٣/٧) برقم: (٢١٧٤٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٠٦/٣)، وابن كثير (٢/ ٥٧٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٠/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره البغوي (٧٦/٢)، وابن عطية (٤٠٦/٣).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١١٥٧/٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٧/٩) كتاب «الأطعمة» باب: الحلوى والعسل، حديث (٥٤٣١)، ومسلم (٢/ ١١٠١) كتاب «الطلاق» باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، حديث (٢١/ ١٤٧٤)، وأبو داود (٣٦١/٢)، كتاب «الأشربة» باب: في شراب العسل، حديث (٣٧١٥)، والترمذي (٢٧٣/٤ - ٢٧٤) كتاب «الأطعمة» باب: ما جاء في حب النبي ﷺ الحلوى والعسل، حديث (١٨٣١)، وفي الشماثل (١٦٤)، وابن ماجه (١١٠٤/٢) كتاب «الأطعمة» باب: الحلوى، حديث (٣٣٢٣)، والدارمي (١٠٧/٢)، وأحمد (٥٩/٦) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» ص: (٢٠٣)، والبغوي في «شرح السنة» ٨٤/٦ - بتحقيقنا، كلهم من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة به، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٥) أخرجه البخاري (١٣٩/١٠) كتاب «الطب» باب: الدواء بالعسل، حديث (٥٦٨٤)، ومسلم (٤/ ١٧٣٦) كتاب «السلام» باب: التداوي بسقي العسل، حديث (٢٢١٧/٩١)، وأحمد (١٩/٣)، والبيهقي (٣٤٤/٩)، وفي «دلائل النبوة» (١٦٤/٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٢٤٩/٦) - بتحقيقنا.

وَأَتُونِي بِعَسَلٍ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ وَأَتُونِي بِزَيْتٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥] فَجَاءَ بِهِ بِذَلِكَ كُلِّهِ فَخَلَطَهُ جَمِيعاً، ثُمَّ شَرِبَهُ، قَبِراً انْتَهَى.

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾، وَأَرْدَلُ الْعُمُرِ الَّذِي تَفْسُدُ فِيهِ الْحَوَاسُّ، وَيَخْتَلُ الْعَقْلُ، وَخَصَّ ذَلِكَ بِالرَّذِيلَةِ، وَإِنْ كَانَتْ حَالَةُ الطُّفُولَةِ كَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ كَانَتْ هَذِهِ لَا رَجَاءَ مَعَهَا، وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: أَوَّلُ أَرْدَلِ الْعُمُرِ خَمْسُ وَسَبْعُونَ سَنَةً، رَوَى ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ع ^(٢) *: وهذا في الأغلب، وهذا لا ينحصر إلى مدة معينة، وإنما هو بحسب إنسانٍ إنسانٍ، وَرُبَّ مَنْ يَكُونُ ابْنُ خَمْسِينَ سَنَةً، وَهُوَ فِي أَرْدَلِ عُمُرِهِ، وَرُبَّ ابْنِ تِسْعِينَ لَيْسَ فِي أَرْدَلِ عُمُرِهِ، وَاللَّامُ فِي ﴿لَكِي﴾ يَشْبَهُ أَنْ تَكُونَ لَامُ الصَّيْرُورَةِ، وَالْمَعْنَى: لِيَصِيرَ أَمْرُهُ بَعْدَ الْعِلْمِ بِالْأَشْيَاءِ إِلَى أَلَّا يَعْلَمَ شَيْئاً، وَهَذِهِ عِبَارَةٌ عَنْ قَلَّةِ عِلْمِهِ، لَا أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئاً أَلْبَتَّةَ.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتُ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢) وَبَعْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤)

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ إِنْخِبَارٌ يُرَادُّ بِهِ الْعِبْرَةُ وَإِنَّمَا هِيَ قَاعِدَةٌ بَنِي الْمَثَلِ عَلَيْهَا، وَالْمَثَلُ هُوَ أَنَّ الْمَفْضُلِينَ لَا يَصْحُ مِنْهُمْ أَنْ يَسَاهَمُوا مِمَّا لِيَكُفُّهُمْ فِيمَا أُعْطُوا؛ حَتَّى تَسْتَوِيَ أَحْوَالُهُمْ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْبَشَرِ، فَكَيْفَ تَنْسُبُونَ أَيُّهَا الْكُفَرَةُ إِلَى اللَّهِ؛ أَنَّهُ يَسْمَحُ بِأَنْ يَشْرَكَ فِي الْأَلُوْهِةِ الْأَوْثَانُ وَالْأَصْنَامُ وَغَيْرَهَا مِمَّا عُبِدَ مِنْ دُونِهِ، وَهُمْ خَلَقَهُ وَمِلْكُهُ، هَذَا تَأْوِيلُ الطَّبْرِيِّ، وَحَكَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(٣) قَالَ الْمَفْسُرُونَ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ

(١) أخرجه الطبري (٦١٥/٧) برقم: (٢١٧٥٦)، وذكره البغوي (٧٦/٣)، وابن عطية (٤٠٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٢/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «المحور الوجيز» (٤٠٧/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٦١٥/٧ - ٦١٦) برقم: (٢١٧٥٧)، وذكره ابن كثير (٥٧٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٢/٤ - ٢٣٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ... ﴿الآية [الروم: ٢٨]﴾ ثم وقفهم سبحانه على جحدهم بنعمته في تنبيههم على مثل هذا من مواضع النظر المؤدية إلى الإيمان.

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ هذه أيضاً آيةٌ تعدد نِعَم، «والأزواج»؛ هنا: الزوجات، وقوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾: يحتمل أن يريد خِلَقَةً حَوَاءَ مِنْ نَفْسِ آدَمَ، وهذا قول قتادة^(١) والأظهرُ عندي أن يريد بقوله ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: مِنْ نوعكم كقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، والـ ﴿حَفْدَةٌ﴾: قال ابن عباس: هم أولاد البنين^(٢) وقال الحسن: هم بَنُوكَ وَبَنُو بَنِيكَ^(٣)، وقال مجاهد: الـ ﴿حَفْدَةُ﴾ الأنصار والأغوان^(٤) وقيل غير هذا، ولا خلاف أن معنى «الحفد» الخِذْمَةُ والبِرُّ والمشْيُ مسرعاً في الطاعة؛ ومنه في القنوت: «وَالَيْكَ تَسَعَى وَنَحْفِدُ»، والحَفْدَانُ أيضاً: حَبَبٌ فوق المَشْيِ.

١٢٨٣

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ...﴾ الآية: أي: لا تمثلوا لله الأمثال، وهو مأخوذٌ من قولك: هذا ضَرِيبٌ هَذَا، أي: مثيله، والضَرْبُ: التَّوَعُّ.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِيَنَّ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَبَرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْثِ النَّفَسِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ الآية: الذي هو مثالٌ في هذه الآية هو

- (١) أخرجه الطبري (٦١٦/٧) برقم: (٢١٧٦٢)، وذكره ابن عطية (٤٠٨/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٣/٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
- (٢) أخرجه الطبري (٦١٩/٧) برقم: (٢١٧٩٨ - ٢١٧٩٧)، وذكره البغوي (٧٧/٣)، وذكره ابن عطية (٣/٤٠٨)، وابن كثير (٥٧٧/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.
- (٣) أخرجه الطبري (٦١٨/٧) برقم: (٢١٧٨٣)، وذكره ابن عطية (٤٠٨/٣)، وابن كثير (٥٧٧/٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٤/٤)، وعزاه لابن جرير.
- (٤) أخرجه الطبري (٦١٨/٧) برقم: (٢١٧٨٧)، وذكره البغوي (٧٧/٣)، وابن عطية (٤٠٨/٣)، وابن كثير (٥٧٧/٢).

عَبْدٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، مَمْلُوكٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ، وَلَا أَمْرٍ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مُسَخَّرٌ بِإِرَادَةِ سَيِّدِهِ، مَذْبُورٌ، وَبِإِزَاءِ الْعَبْدِ فِي الْمَثَالِ رَجُلٌ مُوسَّعٌ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ، فَهُوَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ بِإِرَادَتِهِ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الَّذِي لَهُ الْمَثَلُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: هُوَ مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ^(١)، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ: هَذَا الْمَثَلُ وَالْمَثَالُ الْآخَرُ الَّذِي بَعْدَهُ، إِنَّمَا هُوَ مَثَلٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْأَصْنَامُ، فَتِلْكَ كَالْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَصَرَّفُ قُدْرَتَهُ دُونَ مَعْقَبٍ^(٢)، وَكَذَلِكَ فَسَّرَ الزُّجَّاجُ عَلَى نَحْوِ قَوْلِ مُجَاهِدٍ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ أَصَوَّبٌ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ تَكُونُ مِنْ مَعْنَى مَا قَبْلُهَا، وَمَدَارُهَا فِي تَبْيِينِ أَمْرِ اللَّهِ وَالرَّدِّ عَلَى أَمْرِ الْأَصْنَامِ.

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ظهور الحجة.

وقوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ...﴾ الآية: هَذَا مَثَلٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْأَصْنَامُ، فَهِيَ كَالْأَبْكَمِ الَّذِي لَا نُطْقَ لَهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، «وَالْكَلُّ» الثَّقِيلُ الْمُؤَوَّنَةُ، كَمَا الْأَصْنَامُ تَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تُثَقَّلَ وَتُخَدَّمُ وَيَتَعَذَّبَ بِهَا، ثُمَّ لَا يَأْتِي مِنْ جَهَتِهَا خَيْرٌ أَبَدًا، وَالَّذِي يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ...﴾ الآية: الْمَعْنَى، عَلَى مَا قَالَه قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: مَا تَكُونُ السَّاعَةُ وَإِقَامَتُهَا فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى^(٣) إِلَّا أَنْ يَقُولَ لَهَا: كُنْ، فَلَوْ اتَّفَقَ أَنْ يَقِفَ عَلَى ذَلِكَ مُحْضَلٌ مِنَ الْبَشَرِ، لَكَانَتْ مِنَ السَّرْعَةِ بِحَيْثُ يَشْكُ، هَلْ هِيَ كَلَمَحِ الْبَصَرِ أَوْ هِيَ أَقْرَبُ، «وَلَمَحَ الْبَصَرُ» هُوَ وَقُوعُهُ عَلَى الْمَرْتَبِ.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٦٢٢/٧) بِرَقْمٍ: (٢١٨٠٦ - ٢١٨٠٧ - ٢١٨٠٨)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤١٠/٣)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٥٧٨/٢) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٢٣٤/٤)، وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَلَعِبِدِ بْنِ حَمِيدٍ.

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤١٠/٣)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٥٧٨/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٢٣٥/٤)، وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٦٢٤/٧) بِرَقْمٍ: (٢١٨١٦) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٢٣٦/٤)، وَعَزَاهُ لَعِبِدِ الرِّزَّاقِ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمَيِّنُ ﴿٨٧﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء...﴾ الآية: «الجو مسافة ما بين السماء والأرض، وقيل: هو ما يلي الأرض منها، والآية عبرة بينة المعنى، تفسيرها تكلف مَخْت، و﴿يوم ظعنكم﴾ معناه رَجِيلكم، والأصواف: للضأن، والأوبار: للإبل، والأشعار: للمعز، ولم تكن بلادهم بلاد قُطْن وكُتَان، فلذلك اقتصر على هذه، ويحتمل أن تزك ذكر القُطْن والكُتَان والحرير إعراض عن السرف، إذ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصُوف، قال ابن العربي في «أحكامه» عند قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥]: في هذه الآية دليل على لباس الصُوف، فهو أول ذلك وأولاه، لأنه شعار المتقين، ولباس الصالحين، وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهاد والعارفين، وإليه نُسب جماعة من الناس «الصُوفيَّة»؛ لأنه لباسهم في الغالب انتهى.

ب ٢٨٣

/ «والأثاث» متاع البيت، واجدُها أثاثه؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري^(١) وقال غيره: «الأثاث»: جميع أنواع المال، ولا واحد له من لفظه.

قال * ع^(٢) * : والاشتقاق^(٣) يقوي هذا المعنى الأعم؛ لأن حال الإنسان تكون بالمال أثينة؛ كما تقول: شَعْرُ أَثِيثٍ، وَبَنَاتُ أَثِيثٍ، إِذَا كَثُرَ وَالتَّفَّ، والـ ﴿سرايل﴾: جميع ما يُلْبَسُ عَلَى جميع البدن، وذكر وقاية الحر، إذ هو أَمْسُ بتلك البلاد، والبرزُ فيها معدوم في الأكثر، وأيضاً: فذكر أحدهما يدل على الآخر، وعن عمر رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ لَبَسَ ثَوْباً جَدِيداً، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الَّذِي خَلَقَ، فَتَصَدَّقَ بِهِ - كَانَ فِي كَتِفِ اللَّهِ، وَفِي حِفْظِ اللَّهِ، وَفِي سِتْرِ اللَّهِ حَيًّا وَمَيِّتاً^(٤)» رواه الترمذي، واللفظ له، وابن ماجه، والحاكم في «المستدرک»، وعن عائشة قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ثَوْباً

(١) ذكره ابن عطية (٤١٢/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٢/٣).

(٣) الاشتقاق هو: نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتها معنى وتركيباً، ومغايرتهما في الصيغة، وهو يقابل الجمود ويضاده، وقد اختلف النحاة في الأصل الذي يقع فيه الاشتقاق، وهو ينقسم إلى كبير وصغير. ينظر: «التعريفات» للجرجاني ص: (٣٧) و«معجم المصطلحات النحوية والصرفية» ص: (١١٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٥٥٨/٥) كتاب «الدعوات» باب: (١٠٨)، حديث (٣٥٦٠)، وابن ماجه (١١٧٨/٢) كتاب «اللباس» باب: ما يقول الرجل إذا لبس ثوباً جديداً، حديث (٣٥٥٧)، والحاكم (٥٠٧/١)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٦٧) من حديث أبي أمامة.

بِدِينَارٍ أَوْ نِصْفِ دِينَارٍ، فَحَمِدَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِلَّا لَمْ يَبْلُغْ رُكْبَتَيْهِ حَتَّى يَغْفَرَ اللَّهُ لَهُ»^(١) رواه الحاكم في «المستدرک» وقال: هذا الحديث لا أعلم في إسناده أحداً ذكر بجرح. انتهى من «السلح». والسراييل التي بقي البأس: هي الدروع ونحوها، ومنه قول كعب بن زهير في المهاجرين: [البسيط]

شُمُ الْعَرَانِينَ أَبْطَالَ لِبُوسَهُمْ مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِي الْهِنَجَا سَرَائِيلُ^(٢)
والبأس: مس الحديد في الحزب، وقرأ الجمهور^(٣) «تَسْلُمُونَ» وقرأ ابن عباس^(٤): «تَسْلُمُونَ»؛ من السلامة، فتكون اللفظة مخصوصة في بأس الحزب.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤) وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا قَوْفًا الْعَذَابِ يَمَّا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (٨٨)

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: شاهداً على كفرهم وإيمانهم، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ﴾، أي: لا يُؤْذَنُ لهم في المعذرة، وهذا في موطن دون موطن، و﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ بمعنى: يُعْتَبُونَ؛ تقول: أَعْتَبْتُ الرَّجُلَ، إِذَا كَفَيْتُهُ مَا عَتَبَ فِيهِ؛ كما تقول: أَشْكَيْتُهُ؛ إِذَا كَفَيْتُهُ مَا شَكَا.

وقال قومٌ: معناه: لا يُسْأَلُونَ أَنْ يَرْجِعُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا.

وقال الطبري^(٥): معنى ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُغَطُّونَ الرَّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا فَتَقَعُ مِنْهُمْ تَوْبَةٌ وَعَمَلٌ.

* ت * وهذا هو الراجح، وهو الذي تدلُّ عليه الأحاديث، وظواهر الآيات في غير ما وضع.

(١) أخرجه الحاكم (٥٠٧/١).

(٢) البيت في ديوانه (٢٣).

والعرانين: الأنوف، وتكون أطراف الأنوف، الواحد منها عرنين.

والشم: حدة في طرف الأنف مع تشمير.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٣/٣)، و«البحر المحيط» (٥٠٨/٥).

(٤) ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٤١٣/٣)، و«البحر المحيط» (٥٠٨/٥)، و«الدر المصون» (٣٥٣/٤).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٦٣٠/٧).

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي: إِذَا رَأَوْهُمْ بِأَبْصَارِهِمْ ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا...﴾ الآية، كأنهم أرادوا بهذه المقالة تَذْنِيبَ الْمُعْبُودِينَ، وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ...﴾ الآية: الضميرُ في ﴿أَلْقُوا﴾ للمعبودين؛ أنطقهم الله بتكذيب المشركين، وقد قال سبحانه في آية أخرى: ﴿فَزِيلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَغْبُؤُونَ﴾ [يونس: ٢٨] الآية، انظر تفسيرها في سورة يونس وغيرها.

وقوله: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ الضمير في ﴿أَلْقُوا﴾ هنا عائذ على «المشركين»، و﴿السَّلَامَ﴾ الاستسلام.

وقوله تعالى: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ...﴾ الآية: رُوِيَ في ذلك عن ابن مسعود، أَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ يَسْلُطُ عَلَيْهِمْ عَقَارِبَ وَحَيَّاتٍ، لَهَا أُنْيَابٌ، كَالنَّخْلِ الطُّوَالِ^(١)، وقال عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: حَيَّاتٌ لَهَا أُنْيَابٌ كَالنَّخْلِ^(٢) ونحو/ هذا، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أَنَّ لَجَهْتَهُمْ سَوَاحِلَ، فِيهَا هَذِهِ الْحَيَّاتُ وَهَذِهِ الْعَقَارِبُ، فَيَفِرُّ الْكَافِرُونَ إِلَى السَّوَاحِلِ، فَتَلْقَاهُمْ هَذِهِ الْحَيَّاتُ وَالْعَقَارِبُ فَيَفِرُّونَ مِنْهَا إِلَى النَّارِ، فَتَتَّبِعُهُمْ حَتَّى تَجِدَ حَرَّ النَّارِ، فَتَرْجِعُ^(٣). قال: وهي في أَسْرَابٍ.

١٢٨٤

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٩١﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: رسولها، ويجوز أن يبعث الله شهوداً من الصالحين مع الرسل، وقد قال بعضُ الصحابة: إِذَا رَأَيْتَ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ،

(١) أخرجه الطبري (٦٣٢/٧) برقم: (٢١٨٤٧ - ٢١٨٤٨ - ٢١٨٤٩)، وذكره البغوي (٨١/٣)، وابن عطية (٤١٥/٣)، وابن كثير (٥٨١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٩/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد بن السري، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي.

(٢) أخرجه الطبري (٦٣٢/٧) برقم: (٢١٨٥٥)، وذكره ابن عطية (٤١٥/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٩/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٦٣٣/٧) برقم: (٢١٨٥٦)، وذكره ابن عطية (٤١٥/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٤٠/٤)، وعزاه لابن جرير.

فأنه، فإن أطاعك، وإلا كنت شاهداً عليه يوم القيامة.

وقوله سبحانه: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ الإشارة بـ«هؤلاء» إلى هذه الأمة.

وقوله عز وجل: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان...﴾ الآية: قال ابن مسعود رضي الله عنه: أجمع آية في كتاب الله هذه الآية^(١)، وزوي عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه، أنه قال: لما نزلت هذه الآية، قرأتها على أبي طالب، فعجب، وقال: يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا فوالله، إن الله أرسله ليأمر بمكارم الأخلاق^(٢).

قال * ع^(٣) *: و﴿العدل﴾ فعل كل مفروض، و﴿الإحسان﴾ فعل كل مندوب إليه، و﴿إيتاء ذي القربى﴾: لفظ يقتضي صلة الرحم، ويعم جميع إسداء الخير إلى القرابة، و﴿الفحشاء﴾ الزنا؛ قاله ابن عباس^(٤) ويتناول اللفظ سائر المعاصي التي شنعها ظاهرة، و﴿المنكر﴾ أعم منه؛ لأنه يعم جميع المعاصي والردائل، والإذاعات على اختلاف أنواعها، و﴿البغي﴾ هو إنشاء ظلم الإنسان، والسعاية فيه، و﴿كفلاً﴾ معناه: متكفلاً بوفائكم، وباقي الآية بين.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِذِهِ وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخِلُّفُونَ﴾^(٥) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَفْضِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٦)

وقوله سبحانه: ﴿ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها كالتى نقضت قوتى ذلك يخلف أو يعاهد ويبرم عقده، بالمرأة تغزل غزلها وتفتله مُحكماً، ثم تنقض قوتى ذلك الغزل، فتحله بعد إبرامه، و﴿أنكاثا﴾ نصب على الحال، و﴿النكث﴾ النقض، والعرب تقول انتكث الحبل، إذا انتقضت قواه، و﴿الدخل﴾ الدغل بعينه، وهو الذرائع إلى الخدع والغدر،

(١) أخرجه الطبري (٦٣٥/٧) برقم: (٢١٨٦٨ - ٢١٨٦٩) بنحوه، وذكره البغوي (٨٢/٣)، وابن عطية (٤١٥/٣)، وابن كثير (٥٨٢/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٢٤١/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور البخاري، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي.
(٢) ذكره ابن عطية (٤١٦/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٢٤١/٤)، وعزاه لابن النجار من طريق العكلي، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٦/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٦٣٤/٧) برقم: (٢١٨٦٥)، وذكره البغوي (٨٢/٣)، وابن عطية (٤١٦/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٢٤١/٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

وذلك أن المحلوف له مطمئن، فيتمكن الحالف من ضرره بما يريد.

وقوله سبحانه: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ المعنى: لا تنقضوا الأيمان من أجل أن تكون قبيلةً أزيد من قبيلة في العدد والعزة والقوة، و﴿يُبلوكم﴾ أي: يختبركم، والضمير في «به» يحتمل أن يعود على «الرَّبَّاءِ»، أي: أن الله ابتلى عباده بالربا، وطَلَبَ بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك؛ ليرى مَنْ يجاهد بنفسه، مِمَّنْ يَتَّبِعُ هواها، وباقي الآية وعيدٌ بيوم القيامة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسِنَةَ يَمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٥) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

وقوله سبحانه: ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم...﴾ الآية: «الدخل»؛ كما تقدم: الغوائل والخدائع، وكرر مبالغة، قال الثعلبي: قال أبو عبيدة: كلُّ أمرٍ لم يكن صحيحاً فهو دخل انتهى.

وقوله: ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ استعارة للمستقيم الحال يقع في شرٍ عظيم.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً...﴾ الآية: هذه آية نهي عن الرِّشَاءِ^(١)، وأخذ الأموال، ثم أخبر تعالى أن ما عنده من نعيم الجنة، ومواهب الآخرة خيرٌ لمن اتقى وعلم وأهتدى، ثم بيّن سبحانه الفرق بين حال الدنيا، وحال الآخرة، بأن هذه تنفذ وتنقضي عن الإنسان، أو ينقضي عنها، ومن الآخرة باقية دائمة، و﴿صبروا﴾ معناه عن الشهوات وعلى مكاره الطاعات، وهذه إشارة إلى الصبر عن شهوة كسب المال بالوجوه المكروهة.

واختلف النَّاسُ في معنى «الحياة الطَّيِّبَة» فقال ابن عباس: هو الرزق الحلال^(٢) وقال

(١) «الرشوة»: هي بكسر الراء وضمة الجيم رِشا وقد أرشاه من باب عدا و«ارتشى» أخذ الرشوة و«استرشى» في حكم طلب الرشوة عليه، و«أرشاه» أعطاه الرشوة.

ينظر: «تحقيق القضية في الفرق بين الرشوة والهدية» بتحقيقنا (٦٥/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٦٤١/٧) برقم: (٢١٨٩٣ - ٢١٨٩٤)، وذكره ابن عطية (٤١٩/٣)، وذكره ابن كثير (٥٨٥/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٤٤/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

الحسن وعلي بن أبي طالب: هي القناعة^(١).

قال * ع^(٢): والذي أقول به أن طيب الحياة اللازم للصالحين إنما هو بنشاط نفوسهم وثبوتها وقوة رجائهم، والرجاء للنفس أمر مُلِدٌّ، فبهذا تطيب حياتهم، وأنهم احتقروا الدنيا، فزالت همومها عنهم، فإن انضاف إلى هذا مالٌ حلالٌ، وصحةٌ أو قناعةٌ، فذلك كمالٌ، وإلا فالطيب فيما ذكرناه راتبٌ.

وقوله سبحانه: ﴿ولنجزيهم﴾ الآية: وغد بنعيم الجنة.

قال أبو حيان: روي عن نافع: «ولنجزيهم» بالياء؛ التفاتاً من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة، وينبغي أن يكون على تقدير قسم ثانٍ لا معطوفاً على «فلنجزيهم»، فيكون من عطف جملة قسمة على جملة قسمة، وكلتاها محذوفة، وليس من عطف جواب، لتغاير الإسناد. انتهى^(٣).

﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) ﴿إِنَّكُمْ لَمُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٩٩) ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٠)

وقوله سبحانه: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ...﴾ الآية: التقدير فإذا أخذت في قراءة القرآن، والاستعاذة نذب، وعن عطاء أن التعوذ واجب^(٤)، ولفظ الاستعاذة هو على رتبة هذه الآية، والرجيم: المزجوم باللغنة، وهو إبليس ثم أخبر تعالى أن إبليس ليس له ملكة ولا رئاسة، هذا ظاهر السلطان عندي في هذه الآية، وذلك أن السلطان إن جعلناه الحجة، فلنيس لإبليس حجة في الدنيا على أحد لا على مؤمن ولا على كافر، إلا أن يتأول متأول: ليس له سلطان يوم القيامة، فيستقيم أن يكون بمعنى الحجة؛ لأن إبليس له حجة على الكافرين؛ أنه دعاهم بغير دليل، فاستجابوا له من قبل أنفسهم، ويتولونه؛ معناه يجعلونه ولياً، والضمير في «به» يحتمل أن يعود على أسم الله عز وجل، والظاهر أنه يعود على اسم العدو الشيطان، بمعنى من أجله، وبسببه، فكأنه قال: والذين هم بسببه مشركون

(١) أخرجه الطبري (٦٤٢/٧) برقم: (٢١٩٠٢-٢١٩٠١)، وذكره البغوي (٨٣/٣)، وذكره ابن عطية (٣/٤١٩)، وذكره ابن كثير (٥٨٥/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٩/٣).

(٣) ينظر: «البحر» لأبي حيان (٥١٧/٥).

(٤) ذكره ابن عطية (٤٢٠/٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٤٥/٤)، وعزاه لعبد الرزاق في

«المصنف»، وابن المنذر.

بالله، وهذا الإخبار بأن لا سلطان للشيطان على المؤمنين بعقب الأمر بالاستعاذة - يقتضي أن الاستعاذة تصرف كيدَه، كأنها متضمنة للتوكل على الله، والانقطاع إليه.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْسَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَاتِ الَّذِي يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَفَعَجِبْتُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَزِيزٍ ثَبِيتٍ ﴿١١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ يَتَّبِعْتِ اللَّهُ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آية مكان آية﴾ يعني بهذا التبديل الشنخ، ﴿قالوا إنما أنت مفتر﴾: أي قال كفار مكة، و﴿روح القدس﴾: هو جبريل؛ بلا خلاف.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر﴾ قال ابن عباس: كان بمكة غلام أعجمي لبعض قريش يقال له: «بلعام»، فكان النبي ﷺ يعلمه الإسلام، ويرؤمه عليه، فقال بعض الكفار هذا يعلم محمداً، وقيل: اسم الغلام «جبر»، وقيل: يسار، وقيل: يعيش، والأعجمي هو الذي لا يتكلم بالعربية، وأما العجمي، فقد يتكلم بالعربية، ونسبته قائمة^(١).

وقوله: ﴿وهذا﴾ إشارة إلى القرآن والتقدير: وهذا سَرْدُ لسان، أو نطق لسان.

﴿إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ يَتَّبِعْتِ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْنَاهُ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٦﴾﴾

وقوله/ سبحانه: ﴿إنما يفتري الكذب﴾: بمعنى: إنما يكذب، وهذه مقاومة للذين قالوا للنبي ﷺ: ﴿إنما أنت مفتر﴾ [النحل: ١٠١]، ومن في قوله ﴿من كفر﴾ بدل من قوله: ﴿الكاذبون﴾، فروي: أن قوله سبحانه: ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ يراد به مقيس بن ضبابة وأشباهه ممن كان آمن، ثم ارتد بأختياره من غير إكراه.

وقوله سبحانه: ﴿إلا من أكره﴾، أي: كبلال وعمار بن ياسر وأمه وخباب وصهيب

(١) أخرجه الطبري (٦٤٨/٧) برقم: (٢١٩٣٣) بنحوه، وذكره البغوي (٨٥/٣)، وذكره ابن عطية (٣/٤٢١)، وذكره ابن كثير (٥٨٥/٢) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٧/٤)، وعزه لابن أبي حاتم، وابن مردويه بسند ضعيف.

وأشباههم؛ مَن كَانَ يُؤْذِي فِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَرِيئًا سَامَحٌ بَعْضُهُمْ بِمَا أَرَادَ الْكَفَّارُ مِنَ الْقَوْلِ؛ لِمَا أَصَابَهُ مِنْ تَغْذِيبِ الْكَفْرَةِ، فيروى: أَنَّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَعَلَ ذَلِكَ^(١)، فَاسْتَنَاهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَبَقِيَّةِ الرِّخْصَةِ عَامَّةٍ فِي الْأَمْرِ بَعْدَهُ، وَيُرْوَى أَنَّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ شَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَا صَنَعَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَمَا سَامَحَ بِهِ مِنَ الْقَوْلِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ» قَالَ: أَجْدُهُ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، قَالَ: «فَاجِبُهُمْ بِلِسَانِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ، وَإِنْ عَادُوا فَعُدْ»^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ مِنْ شَرِّ مَا سَمِعَ بِمَا كَفَرُوا﴾ معناه: أُنْبَسَطَ إِلَى الْكُفْرِ بِأَخْتِيَارِهِ.

* ت * : وقد ذكر * ع *^(٣) * هنا نَبَذًا مِنْ مَسَائِلِ الْإِكْرَاهِ، تَرَكْتُ ذَلِكَ خَشْيَةَ التَّطْوِيلِ، وَإِذَا مَحَلُّ بَسْطِهَا كُتِبَ الْفَقْهُ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَمَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَ مِنْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٨) ﴿لَا جَزَاءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٩)

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ...﴾ الآية: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الغضب، والعَذَابُ الَّذِي تُوعَدُ بِهِ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ، وَالضَّمِيرُ فِي أَنَّهُمْ لِمَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَنَهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠) ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجُندٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢١)

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا...﴾ الآية: قَالَ ابْنُ

(١) أخرجه الطبري (٦٥١/٧) برقم: (٢١٩٤٤ - ٢١٩٤٥ - ٢١٩٤٦)، وذكره البغوي (٨٦/٣)، وذكره ابن عطية (٤٢٢/٣ - ٤٢٣) بنحوه، وذكره ابن كثير (٥٨٧/٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٤٩/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن أبي مالك بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٥١/٧) برقم: (٢١٩٤٦)، والحاكم (٣٥٧/٢) من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار، عن أبيه به.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٤٨/٤)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق، وابن سعد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢٤/٣).

إسحاق: نزلت هذه الآية في عَمَّار بن يَاسِرٍ، وَعِيَّاش بن أَبِي رَيِّعَةَ، والوليد بن الوليد^(١).

قال * ع *: وِذْكُرْ عَمَّارَ فِي هَذَا عِنْدِي غَيْرُ قَوْمٍ، فَإِنَّهُ أَرْفَعُ مِنْ طَبَقَةِ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّمَا هَؤُلَاءِ مَنْ تَابَ مِمَّنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا، فَتَحَ اللَّهُ لَهُ بَابَ التَّوْبَةِ فِي آخِرِ الْآيَةِ^(٢)، وَقَالَ عِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي شَأْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْجٍ وَأَشْبَاهِهِ^(٣) فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنَهُمُ الشَّيْطَانُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مَدْنِيَّةٌ بِلَا خِلَافٍ، وَإِنْ وَجَدَ، فَهُوَ ضَعِيفٌ، وَقُرَأَ^(٤) الْجُمْهُورُ: «مَنْ بَعْدَ مَا فَتَنُوا»؛ مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ، وَقُرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَخُدَّةٌ: «مَنْ بَعْدَ مَا فَتَنُوا» - بِفَتْحِ الْفَاءِ وَالتَّاءِ أَيْ فَتَنُوا أَنْفُسَهُمْ، وَالضَّمِيرُ فِي «بَعْدَهَا» عَائِدٌ عَلَى الْفِتْنَةِ، أَوْ عَلَى الْفَعْلَةِ، أَوْ الْهَجْرَةِ، أَوْ التَّوْبَةِ، وَالْكَلَامُ يُعْطِيهَا، وَإِنْ لَمْ يَجْرَ لَهَا ذِكْرٌ صَرِيحٌ.

وقوله: «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ»: الْمَعْنَى لِعَفْوَرٍ رَحِيمٍ يَوْمَ، «وَنَفْسُ» الْأُولَى: هِيَ النَّفْسُ الْمَعْرُوفَةُ، وَالثَّانِيَةُ هِيَ بِمَعْنَى الذَّاتِ.

* ت *: قَالَ الْمَهْدَوِيُّ: يَجُوزُ أَنْ يَنْتَسِبَ «يَوْمَ»؛ عَلَى تَقْدِيرِ لِعَفْوَرٍ رَحِيمٍ يَوْمَ، فَلَا يَوْقِفُ عَلَى «رَحِيمٍ».

وقال * ص *: «يَوْمَ» تَأْتِي ظَرْفٌ مَنْصُوبٌ بـ «رَحِيمٍ» أَوْ مَفْعُولٌ بِهِ بـ «أَذْكُرُ» أَنْتَهَى، وَهَذَا الْأَخِيرُ أَظْهَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله سبحانه: «وَتُوفِيَ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ»، أَي: يَجَازَى كُلُّ مَنْ أَحْسَنَ بِإِحْسَانِهِ، وَكُلُّ مَنْ أَسَاءَ بِإِسَاءَتِهِ.

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٦٥٤/٧) بِرَقْم: (٢١٩٥٤)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٥/٣)، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمَشْهُورِ» (٢٥١/٤)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ بِنَحْوِهِ.

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٤٢٥/٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٦٥٤/٧) بِرَقْم: (٢١٩٥٥) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٨٧/٣)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٤٢٥)، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمَشْهُورِ» (٢٥٠/٤)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ.

(٤) وَيَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ عَامِرٍ: أَنَّهُمْ هَجَرُوا أَوْطَانَهُمْ وَقَدْ عَرَفُوا مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الشَّدَةِ، فَيَكُونُونَ فَتَنُوا أَنْفُسَهُمْ.

يَنْظُرُ: «الْحُجَّةُ» (٧٩/٥)، وَ«الْمَعَانِي الْقِرَاءَاتُ» (٨٣/٢)، وَ«إِعْرَابُ الْقِرَاءَاتِ» (٣٦١/١)، وَ«الْعُنْوَانُ» (١١٨)، وَ«شَرْحُ الطَّبِيَةِ» (٤٢٠/٤)، وَ«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٤٦٠)، وَ«حُجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» (٣٩٤)، وَ«إِتْحَافُ» (١٩٠/٢).

رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِنْمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا إِهْلٍ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة...﴾ الآية: قال ابن عباس: القرية؛ هنا مكة، والمراد الضمائر كلها في الآية أهل القرية^(١)، ويتوجه عندي في الآية أنها قصيد بها قرية غير معينة جعلت مثلاً لمكة، على معنى التحذير، لأهلها ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة/ وهو الذي يفهم من كلام حفصة أم المؤمنين، و«أنعم» جمع ٢٨٥ ب نعمة.

وقوله سبحانه: ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾ استعارات، أي: لما باشرهم ذلك، صار كاللباس، والضمير في ﴿جاءهم﴾ لأهل مكة، والرسول محمد ﷺ، و﴿العذاب﴾: الجوع وأمر بذر ونحو ذلك، إن كانت الآية مدنية، وإن كانت مكية، فهو الجوع فقط.

وقوله سبحانه: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً...﴾ الآية: هذا ابتداء كلام آخر، أي: وأنتم أيها المؤمنون، لستم كهذه القرية فكلوا واشكروا الله على تباين حالكم، من حال الكفرة، وقوله: ﴿حلالاً﴾ حال، وقوله: ﴿طيباً﴾: أي مستلذاً؛ إذ فيه ظهور النعمة، ويحتمل أن يكون «الطيب» بمعنى الحلال، كرر مبالغة وتأكيذاً.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُتُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام...﴾ الآية: هذه الآية مخاطبة للكفار الذين حرموا البحائر والسوائب، قال ابن العربي^(٢) في «أحكامه» ومعنى الآية: لا تصفوا الأعيان بأنها حلال أو حرام من قبل أنفسكم، إنما المحرم والمحلل هو الله سبحانه، قال ابن وهب: قال مالك لم يكن من فتننا الناس أن يقال لهم: هذا حلال، وهذا حرام، ولكن يقول: أنا أكره هذا، ولم أكن لأصنع هذا، فكان الناس

(١) أخرجه الطبري (٦٥٥/٧) برقم: (٢١٩٥٦)، وذكره ابن عطية (٤٢٦/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/

٥٨٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٥١/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١١٨٣/٣).

يطيعون ذلك، ويرضونه، ومعنى هذا: أن التحليل والتحريم إنما هو لله؛ كما تقدم بيانه، فليس لأحد أن يصرح بهذا في عين من الأعيان إلا أن يكون الباري تعالى يخبر بذلك عنه، وما يؤدي إليه الاجتهاد أنه حرام يقول فيه: إني أكره كذا، وكذلك كان مالك يفعل، اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى انتهى.

وقوله: ﴿متاع قليل﴾ إشارة إلى عيشهم في الدنيا، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ بعد ذلك في الآخرة، وقوله: ﴿ما قصصنا عليك من قبل﴾ إشارة إلى ما في «سورة الأنعام» من ذي الظفر والشحوم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٩) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ آخِذًا بِهِدْيِهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَئِنَّ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا الشؤء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ هذه آية تأنيس لجميع العالم فهي تتناول كل كافر وعاص تاب من سوء حاله، قالت فرقة: «الجهالة»؛ هنا: العمد، والجهالة؛ عندي في هذا الموضع: ليست ضد العلم، بل هي تعدي الطور ورُكوب الرأس. ومنه قوله ﷺ: «أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»^(١) وقد تقدم بيان هذا، وقلما يوجد في العصاة من لم يتقدم له علم بحظر المعصية التي يواقع.

وقوله سبحانه: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله...﴾ الآية: لما كشف الله فعل اليهود وتحكمهم في شرعهم بذكر ما حرّم عليهم - أراد أن يبين بُعدهم عن شرع إبراهيم عليه السلام، «والأمة»، في اللغة: لفظة مشتركة تقع للحين، وللجمع الكثير، وللرجل المنفرد بطريقة وحده، وعلى هذا الوجه سمي إبراهيم عليه السلام أمة، قال مجاهد: سمي إبراهيم أمة؛ لأنفراده بالإيمان في وقته مدة ما^(٢)، وفي البخاري؛ أنه قال لِسَارَةَ: «لَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ الْيَوْمَ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكَ»، وفي البخاري قال ابن مسعود: الأمة معلّم الخير

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري (٦٦١/٧) برقم: (٢١٩٨٠) بنحوه، وذكره البغوي (٨٩١٣)، وذكره ابن عطية (٣/٤٣٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٩١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٣/٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

والقائِتُ^(١): المطيْعُ الدائمُ على العبادة، والحنيف: المائلُ إلى الخير والصلاح.

/ وقوله سبحانه: ﴿وَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، الآية «الحسنة»: لسانُ الصدق، وإمامته^{١٢٨٦} لجميع الخلق؛ هذا قول جميع المفسرين، وذلك أنَّ كل أمة متشعبة، فهي مقرة أنَّ إيمانها بإيمان إبراهيم، وأنه قُدِّسَتْها، وأنه كان على الصواب.

* ت * : وهذا كلامٌ فيه بعض إجمالٍ، وقد تقدّم في غير هذا الموضع بيانُه، فلا نطولُ بسرده.

وقوله سبحانه: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ...﴾ الآية: ال «مِلَّة»: الطريقة في عقائد الشَّرع.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ...﴾ الآية: أي: لم يكن من ملة إبراهيم، وإنما جعل الله فرضاً عاقب به القومُ المُختلفين فيه؛ قاله ابن زَيْد؛ وذلك أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل أن يجعلوا من الجمعة يوماً مختصاً بالعبادة، وأمرهم أن يكون الجمعة، فقال جمهورهم: بل يكون يومُ السبت؛ لأن الله تعالى فرَّغ فيه من خلق مخلوقاته، وقال غيرهم: بل نقبل ما أمر به موسى، فراجعهم الجمهور، فتابعهم الآخرون، فالزمهم الله يومُ السبت إلزاماً قوياً، عقوبةً لهم، ثم لم يكن منهم ثبوت، بل عصوا فيه، وتعدوا فأهلكهم^(٢)، وورد في الحديث الصحيح، أنَّ اليهود والنصارى اختلفوا في اليوم الذي يختص من الجمعة، فأخذ هؤلاء السبت، وأخذ هؤلاء الأحد، فهدانا الله نحن إلى يوم الجمعة، قال ﷺ: «فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اختلفوا فيه»^(٣) فليس الاختلاف المذكور في الآية هو الاختلاف في هذا الحديث.

(١) أخرجه الطبري (٦٥/٧) برقم: (٢١٩٧١)، وذكره البغوي (٨٩/٣)، وذكره ابن عطية (٤٣٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٩١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٣/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم صححه.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٣١/٣).

(٣) سيأتي تخريجه.

* ت * : يعنى أَنَّ الاختلاف المذكورَ في الآيةِ هو بينَ اليهودِ فيما بينهم، والاختلاف المذكورَ في الحديثِ الصحيحِ هو فيما بينَ اليهودِ والنصارى.

وقوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ هذه الآيةُ نزلتْ بمكةَ، أمرَ عليه السلامُ أَنْ يدعوَ إلى دينِ اللهِ وشرعِهِ بتلطُّفٍ، وهكذا ينبغي أَنْ يوعظَ المسلمونَ إلى يومِ القيامةِ.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٦٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٦٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٦٨)

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ...﴾ الآية: أطبق أهل التفسير أَنَّ هذه الآيةَ مدنيّةٌ، نزلتْ في شأنِ التمثيلِ بِخَمَزَةٍ وغيره في يومِ أُحُدٍ، ووقع ذلك في «صحيح البخاري» وغيره، وقال النبي ﷺ: «لَئِنْ أَطَقَرَنِي اللَّهُ بِهِمْ لَأُمَثِّلَنَّ بِثَلَاثِينَ»^(١) كتاب «النجاس» وغيره: «بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ»، فقال الناس: إِنْ ظَفَرْنَا، لِنَفْعَلَنَّ وَلِنَفْعَلَنَّ، فنزلتْ هذه الآيةُ، ثم عزم على النبي ﷺ في الصَّبْرِ عن المجازاةِ بالتمثيلِ في القتلى، ويروى أنه عليه السلامُ قال لأصحابه: «أَمَّا أَنَا فَأَصْبِرْ كَمَا أَمِرْتُ، فَمَاذَا تَصْنَعُونَ؟ فَقَالُوا: نَصْبِرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا نَدْبِتْنَا!!!».

وقوله: ﴿وما صبرك إلا بالله﴾ أي بمعونة الله وتأييده على ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ قيل: الضمير في قوله: ﴿عليهم﴾ يعودُ على الكُفَرَاءِ، أي: لا تتأسَفْ على أَنْ لم يُسَلِّمُوا، وقالت فرقة: بل يعودُ على القَتْلَى حمزة وأصحابه الذين حَزَنَ عليهم ﷺ والأولُ أصوبُ. ﴿ولا تك في ضيقٍ مما يمكرون﴾ قرأ الجمهور^(٢): «في ضيقٍ» - بفتح الضاد -، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد، وهما لغتان.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: أي بالنصيرِ والمعونةِ، و﴿اتَّقُوا﴾ يريدُ المعاصيَ، ب ٢٨٦ ﴿ومحسنون﴾ هم الذين يتزَيَّدون فيما نُدبَ إليه من فِعْلِ الْخَيْرِ/ وصَلَّى اللَّهُ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تسليمًا.

(١) بهذا اللفظ ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٢٥٥ - ٢٥٦)، وعزاه لابن أبي إسحاق، وابن جرير.

(٢) ينظر: «السبعة» (٣٧٦)، و«الحجة» (٥/٨٠)، و«إعراب القراءات» (١/٣٦١)، و«معاني القراءات» (٢/٨٤).

(٣) و«شرح الطيبة» (٤/٤٢٠)، و«شرح شعلة» (٤٦٠)، و«العنوان» (١١٨)، و«حجة القراءات» (٣٩٥) و«إتحاف» (٢/١٩١).



هذه السورة مَكِّيَّةٌ إِلَّا ثَلَاثَ آيَاتٍ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: فِي «بَنِي إِسْرَائِيلَ»، وَ «الْكَهْفِ»: إِنَّهَا مِنَ الْعَتَاكِ الْأَوَّلِ، وَهَنْ مِنْ تِلَاوَتِي، يَرِيدُ أَنْهَنْ مِنْ قَدِيمٍ كَسَبَهُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ. لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا



حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ مَّأِينِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام﴾: جل العلماء على أن الإسراء كان بشخصه ﷺ، وأنه ركب البراق من مكة، ووصل إلى بيت المقدس، وصلى فيه، وقالت عائشة ومعاوية: إنما أسري برُوحه^(٢)، والصحيح ما ذهب إليه الجمهور، ولو كانت منامة، ما أمكن قريشاً التشنيع، ولا فضل أبو بكر بالتصديق، ولا قالت له أم هانئ: لا تحدث الناس بهذا، فيكذبوك، إلى غير هذا من الدلائل، وأما قول عائشة فإنها كانت صغيرة، ولا حدثت عن النبي ﷺ، وكذلك معاوية.

قال ابن^(٣) العربي: قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ قال علماؤنا: لو كان للنبي ﷺ اسم هو أشرف منه، لسماه الله تعالى به في تلك الحالة العلية، وقد قال الأستاذ جمال الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن: لما رفعه الله إلى حضرته السيئة وأرقاه فوق الكواكب العلوية؛ ألزمه اسم العبودية، تواضعاً وإجلالاً للألوهية. انتهى من «الأحكام».

و﴿سبحان﴾ مصدر معناه: تنزيهاً لله، وروى طلحة بن عبيد الله الفيض أحد العشرة، أنه قال للنبي ﷺ: ما معنى سبحان الله؟ قال: تنزيه الله من كل سوء^(٤)، وكان

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٤/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٦/٨) برقم: (٢٢٠٣٣)، وذكره البغوي، وابن عطية (٤٣٤/٣).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١١٩٢/٣).

(٤) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٧/١٠ - ٩٨). وقال: رواه البزار وفيه عبد الرحمن بن حماد الطلحي، وهو ضعيف بسبب هذا، وغيره.

الإسراء فيما قال مقاتل وقائدة: قبل الهجرة بعام^(١)، وقيل: بعام ونصف، والمتحقق أن ذلك كان بعد شق الصحيفة، وقبل بيعة العقبة، ووقع في «الصحيحين» لشريك بن أبي نمر، وهم في هذا المعنى؛ فإنه روى حديث الإسراء، فقال فيه: وذلك قبل أن يوحى إليه، ولا خلاف بين المحدثين؛ أن هذا وهم من شريك.

قال * ص *: ﴿أسرى بعبد﴾ بمعنى: سرى، وليست همزته للتعدية، بل كـ «سقى وأسقى»، والباء للتعدية، و﴿لئلاً﴾ ظرف للتأكيد؛ لأن السرى لا يكون لغة إلا بليل، وقيل: يعني به في جوف الليل، فلم يكن إذلاًجاً ولا أدلاًجاً انتهى.

و﴿المسجد الأقصى﴾: بيت المقدس، «والأقصى» البعيد، والبركة حوله من وجهين:

أحدهما: النبوة والشرائع والرسل الذين كانوا في ذلك القطر، وفي نواحيه.

والآخر: النعم من الأشجار والمياه والأرض المفيدة.

وقوله سبحانه: ﴿لنريه﴾ يريد لنري محمداً بعينه آياتنا في السموات والملائكة والجنة والسُدرة وغير ذلك من العجائب، مما رآه تلك الليلة، ولا خلاف أن في هذا الإسراء فُرِضَت الصلوات الخمس على هذه الأمة.

وقوله سبحانه: ﴿إنه هو/ السميع البصير﴾ وعيد للمكذبين بأمر الإسراء، أي: هو السميع لما تقولون، البصير بأفعالكم.

١٢٨٧

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَحَمَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَفَضَّلْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَجًا وَلَنُعَلِّقَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾

﴿وأتينا موسى الكتاب﴾، أي: التوراة.

وقوله: ﴿ألا تتخذوا من دوني وكيلاً...﴾ الآية: التقدير: فعلنا ذلك؛ لئلاً تتخذوا يا ذرية فـ ﴿ذُرِّيَّةً﴾: منصوب على النداء، وهذه مخاطبة للعالم، ويتجه نصب ﴿ذُرِّيَّةً﴾ على أنه مفعول بـ «تتخذوا»، ويكون المعنى ألا يتخذوا بشراً إلهاً من دون الله، وقرأ أبو عمرو^(٢)

(١) ذكره البغوي (٩٢/٣)، وابن عطية (٤٣٥/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن مردويه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

(٢) وحجته أن الفعل قرب من الخبر عن بني إسرائيل، فجعل الفعل مسنداً إليهم، والمعنى حيثئذ: جعلناه هدى لبني إسرائيل، لئلا يتخذوا من دوني وكيلاً.

وحده: «أَلَا يَتَّخِذُوا» بالياء، على لفظ الغائب، «والوكيل»؛ هنا من التوكيل، أي: متوكلاً عليه في الأمور، فهو نذٌ لله بهذا الوجه، وقال مجاهد: ﴿وكيلاً﴾: شريكاً^(١)، ووصف نوح بالشكر؛ لأنه كان يحمد الله في كل حال، وعلى كل نعمة من المطعم والمشرب والملبس والبراز وغير ذلك ﷺ، قاله سلمان الفارسي وغيره^(٢)، وقال ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبيه عن عبد الله بن سلام: أن موسى عليه السلام قال: يا رب، ما الشكر الذي ينبغي لك؟ قال: يَا مُوسَى لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِي^(٣)، انتهى، وقد رُوِيَه مسنداً عن النبي ﷺ أعني قوله: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(٤).

وقوله سبحانه: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل...﴾ الآية: قالت فرقة: ﴿قضينا﴾ معناه: في أم الكتاب.

قال * ع^(٥): * وإنما يُلبَسُ في هذا المكان تعديّة ﴿قضينا﴾ بـ«إلى»، وتلخيصُ المعنى عندي: أنَّ هذا الأمر هو مما قضاه الله عزَّ وجلَّ في أم الكتاب على بني إسرائيل،

= ينظر: «السبعة» (٣٧٨)، و«الحجة» (٨٣/٥)، و«إعراب القراءات» (٣٦٣/١)، و«معاني القراءات» (٢/ ٨٧)، و«شرح الطيبة» (٤٢٢/٤)، و«العنوان» (١١٩)، و«شرح شملة» (٤٦١)، و«حجة القراءات» (٣٩٦)، و«إتحاف» (١٩٣/٢).

(١) أخرجه الطبري (١٧/٨) برقم: (٢٢٠٣٦)، وذكره ابن عطية (٤٣٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٩٤/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الطبري (١٩/٨) برقم: (٢٢٠٤٤)، وذكره ابن عطية (٤٣٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٩٤/٤)، وعزاه للفرياحي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٣٣٠) رقم: (٩٤٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٤٥٨/٥) كتاب «الدعوات» باب: ما جاء في فضل الذكر حديث (٣٣٧٥)، وابن ماجه (١٢٤٦/٢) كتاب «الأدب» باب: فضل الذكر، حديث (٣٧٩٣)، وابن أبي شيبة (٣٠١/١٠) رقم: (٥٩٠٢)، وأحمد (١٩٠/٤)، وفي «الزهد» ص: (٣٥)، والحاكم (٤٩٥/١)، وابن حبان (٢٣١٧ - موارد)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥١/٩)، وابن المبارك في «الزهد» ص: (٣٢٨) رقم: (٩٣٥)، والبيهقي (٣٧١/٣) كتاب «الجنائز» باب: طوبى لحسن طال عمره وحسن عمله، كلهم من طريق عمرو بن قيس الكندي، عن عبد الله بن بسر قال: جاء أعرابيان إلى النبي ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله أخبرني بأمر أتشبه به، قال: فذكر الحديث.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٧/٣).

وألزمهم إياه، ثم أخبرهم به في التوراة على لسان موسى، فلما أراد هنا الإعلام لنا بالأمرين جميعاً في إيجاز، جعل ﴿قضينا﴾ دالة على النفوذ في أم الكتاب، وقرن بها «إلى» دالة على إنزال الخير بذلك إلى بني إسرائيل، والمعنى المقصود مفهومٌ خلال هذه الألفاظ، ولهذا فسر ابن عباس مرةً بأن قال: ﴿قضينا إلى بني إسرائيل﴾، معناه: أعلمناهم^(١)، وقال مرةً: «قضينا عليهم»^(٢)، و﴿الكتاب﴾ هنا؛ التوراة لأن القسم في قوله: ﴿لتفسدن﴾ غير متوجه مع أن نجعل ﴿الكتاب﴾ هو اللوح المحفوظ.

وقال * ص * : و﴿قضينا﴾: مضمّن معنى «أوحينا»؛ ولذلك تعدّى به «إلى»، وأصله أن يتعدّى بنفسه إلى مفعولٍ واحدٍ؛ كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] انتهى، وهو حسنٌ موافقٌ لكلام * ع *، وقوله «ولتعلن» أي: لتتجبرن، وتطلبون في الأرض العلو، ومقتضى الآيات أن الله سبحانه أعلم بني إسرائيل في التوراة، أنه سيقع منهم عصيانٌ وكفرٌ لينعم الله، وأنه سيرسل عليهم أمةً تغلبهم وتذلهم، ثم يرحمهم بعد ذلك، ويجعل لهم الكثرة ويردّهم إلى حالهم من الظهور، ثم تقع منهم أيضاً تلك المعاصي والقبائح، فيبعث الله تعالى عليهم أمةً أخرى تخرب ديارهم، وتقتلهم، وتجلبهم جلاءً، مبرحاً، وأعطى الوجود بعد ذلك هذا الأمر كله، قيل: كان بين المرتين مائتا سنة، وعشر سنين مُلكاً مؤيداً بأنبياء، وقيل: سبعون سنة.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيٍّ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝﴾

٢٨٧ ب

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ الضمير في قوله: ﴿أُولَاهُمَا﴾ عائذ/ على قوله «مرتين»، وعبر عن الشر بـ«الوعد»؛ لأنه قد صرح بذكر العقاب.

قال * ص * : ﴿وعد أُولَاهُمَا﴾، أي: موعود، وهو العقاب، لأن الوعد سبق

(١) أخرجه الطبري (٢٠/٨) برقم: (٢٢٠٥١)، وذكره ابن عطية (٤٣٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٩٥/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري (٢٠/٨) برقم: (٢٢٠٥٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٣٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٩٦/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

بذلك، وقيل: هو على حذف مضاف، أي وعد عقاب أولاهما. انتهى، وهو معنى ما تقدّم واختلف الناس في العبيد المبعوثين، وفي صورة الحال اختلافاً شديداً متباعداً، عيونه أن بني إسرائيل عَصَوْا وقتلوا زكرياء عليه السلام، فغزاهم سِنْجَارِيْبُ مَلِك بابل، قاله ابن إسحاق وابن جبير^(١).

وقال ابن عباس: غزاهم جالوث من أهل الجزيرة^(٢)، وقيل: غزاهم بُخْت نَصْرَ، وروي أنه دخل قَبْلُ في جيش من الفرس، وهو خامل يسير في مَطْبَخِ الملك، فَأُطْلِع مِنْ جُور بني إسرائيل على ما لم تعلمه الْفُرْسُ، فَلَمَّا انصرف الجيش، ذكر ذلك للملك الأعظم، فلما كان بعد مدة، جعله الملك رئيسَ جيش، وبعثه فخرَّب بيت المقدس، وقتلهم، وأجلاهم، ثم انصرف، فوجد الْمَلِكُ قد مات، فَمَلَّكَ موضعه، وأستمرت حاله حتى ملك الأَرْضَ بعد ذلك، وقالت فرقة: إنما غزاهم بُخْت نَصْرَ في المرة الأخيرة حين عَصَوْا وقتلوا يحيى بن زكرياء، وصورة قتله: أن الملك أراد أن يتزوج بنتَ امرأته، فنهاه يحيى عَنْهَا، فعزَّ ذلك على امرأته، فزينت بنتها، وجعلتها تسقي الْمَلِكَ الخمر، وقالت لها: إِذَا رَاوَدَكَ عن نفسك، فتمنعي حَتَّى يعطيك الْمَلِكُ ما تَمَنَّيْنِ، فإذا قال لك: تَمْنِي عَلَيَّ ما أردتْ، فقولِي: رأسَ يحيى بن زكرياء، ففعلت الجارية ذلك، فردَّها الملك مرَّتَيْنِ، وأجابها في الثالثة، فجيء بالرأس في طَسْتٍ، ولسانه يتكلَّم، وهو يقول: لا تحلِّ لك، وجرى دُمُّ يحيى، فلم ينقطع، فجعل الملك عليه الثراب، حتى ساوى سور المدينة، والدم ينبعث، فلما غزاهم الْمَلِكُ الذي بُعِثَ عليهم بحسب الخلاف الذي فيه، قَتَلَ منهم على الدم سبعين ألفاً حتى سَكَنَ، هذا مقتضى خبرهم، وفي بعض الروايات زيادة ونقص، وقرأ الناس: «فَجَاسُوا»، وقرأ أبو السَّمَّال^(٣): بالحاء، وهما بمعنى الغلبة والدخول قهراً، وقال مُورِّجٌ: جَاسُوا خِلَالَ الْأَرْقَةِ.

* ت * قال * ص * : ﴿جاسوا﴾ مضارعه يَجُوسُ، ومصدره جَوْسٌ وجَوَسَانٌ،

(١) أخرجه الطبري (٢٧/٨) برقم: (٢٢٠٦٨)، وذكره البغوي (١٠٦/٣)، وابن عطية (٤٣٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٧/٨) برقم: (٢٢٠٦٥)، وذكره ابن عطية (٤٣٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٢٥).

(٣) ينظر: «المحتسب» (١٥/٢)، وقرأ بها طلحة كما في «الكشاف» (٦٤٩/٢)، وينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٩/٣)، و«البحر المحيط» (٩/٦)، و«الدر المصون» (٣٧٢/٤)، ووقع في «مختصر الشواذ» ص: (٧٨)، نسبتها إلى أبي السمال بالحاء والشين «فحاشوا».

ومعناه: التردد، «وخلال» ظرف، أي: وسط الديار انتهى.

وقوله سبحانه: «ثم رددنا لكم الكرة عليهم...» الآية عبارة عما قاله سبحانه لبني إسرائيل في التوراة، وجعل «رددنا» موضع «نرد»، لما كان وعد الله في غاية الثقة، وأنه واقع لا محالة، فعبر عن المستقبل بالماضي، وهذه الكرة هي بعد الجولة الأولى، كما وصفنا، فغلبت بنو إسرائيل على بيت المقدس، وملكوا فيه، وحسنت حالهم بزهة من الدهر، وأعطاهم الله الأموال والأولاد وجعلهم إذا نفروا إلى أمر أكثر الناس، فلما قال الله: «إني سأفعل بكم هكذا، عقّب بوصيتهم في قوله: «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم...» الآية، المعنى: إنكم بعملكم تجازون، و«وعد الآخرة» معناه: من المرّتين.

1288 / وقوله: «ليسوءوا» اللام لام أمر، وقيل: المعنى: بعثناهم، ليسوؤوا وليدخلوا، فهي لام كي كلها، والضمير للعباد أولي البأس الشديد، و«المسجد» مسجد بيت المقدس، «وتبر» معناه: أفسد بغشم وركوب رأس.

وقوله: «ما علوا»، أي: ما علوا عليه من الأقطار، وملكوه من البلاد، وقيل: «ما» ظرفية، والمعنى مدة علوهم وغلبتهم على البلاد.

وقوله سبحانه: «عسى ربكم أن يرحمكم...» الآية: يقول الله عز وجل بقية بني إسرائيل: عسى ربكم إن أطعتم في أنفسكم وأستقمتم أن يرحمكم، وهذه العدة ليست برجوع دولة، وإنما هي بأن يرحم المطيع منهم، وكان من الطاعة أتباعهم لعيسى ومحمد عليهما السلام، فلم يفعلوا، وعادوا إلى الكفر والمعصية، فعاد عقاب الله عليهم بضرب الدلة عليهم، وقتلهم وإذلالهم بيد كل أمة، و«الحصير»: من الحضر بمعنى السجن، وبنحو هذا فسره مجاهد وغيره^(١)، وقال الحسن: «الحصير» في الآية: أراد به ما يفترش ويُنسَط؛ كالحصير المعروف عند الناس^(٢).

قال * ع^(٣) * : وذلك الحصير أيضاً هو مأخوذ من الحضر.

(١) أخرجه الطبري (٤٢/٨) برقم: (٢٢١٠٦)، ذكره ابن عطية (٤٤٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٢٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٤٢/٨) برقم: (٢٢١٠٩)، وذكره البغوي (١٠٧/٣)، وابن عطية (٤٤٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٦/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٠/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٠/٣).

٢٨٨ ب فطرية، ﴿والإنسان﴾ هنا: يراد به/ الجنس؛ قاله مجاهد وغيره^(١).

وقال ابن عباس وسليمان: الإشارة إلى آدم لما نفخ الروح في رأسه، عَطَسَ وأبصر، فلما مشى الروح في بدنه قبل ساقيه، أعجبته نفسه، فذهب ليمشي مستعجلاً لذلك^(٢)، فلم يقدر، والمعنى؛ على هذا فأنتم ذُوموا عَجَلَة موروثه من أبيكم، وقالت فرقة: معنى الآية: معاتبة الناس في دعائهم بالشر مكاناً ما يجب أن يدعو بالخير.

* ت * : قول هذه الفرقة نقله * ع *^(٣) غير ملخص، فأنا لخصته.

وقوله سبحانه: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين...﴾ الآية هنا العلامة المنصوبة للنظر والعبرة.

وقوله سبحانه: ﴿فمحونا آية الليل﴾ قالت فيه فرقة: سبب تعقيب الفاء أن الله تعالى خَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مَضِيئَيْنِ، فمحا بعد ذلك الْقَمَرَ، محاه جبريلُ بجناحه ثلاثَ مرَّاتٍ، فَمِنْ هُنَالِكَ كَفَّهٗ، وقالت فرقة: إن قوله: ﴿فمحونا آية الليل﴾ إنما يريدُ في أضلِّ خلقته، ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾، أي: يُبَصِّرُ بها ومعها، ليبْتَغِي الناسَ الرِّزْقَ وَفَضَلَ اللَّهِ، وجعلَ سبحانه الْقَمَرَ مخالفاً لحالِ الشَّمْسِ؛ ليعلم به العدَدُ من السنينِ والحسابِ للأشهرِ والأيامِ، ومعرفة ذلك في الشَّرْعِ إنما هو من جهة القمرِ، لا من جهة الشمسِ، وحكى عياضُ في «المدارك» في ترجمة الغازي بن قيس قال: روي عن الغازي بن قيس؛ أنه كان يقول: ما مِنْ يَوْمٍ يَأْتِي إِلَّا وَيَقُولُ: أَنَا خَلَقْتُ جَدِيدَ، وَعَلَى مَا يُفْعَلُ فِي شَهِيدٍ، فَخُذُوا مِنِّي قَبْلَ أَنْ أَبِيدَ، فَإِذَا أَمْسَى ذَلِكَ الْيَوْمُ، خَرَّ لِلَّهِ سَاجِداً، وقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْنِي الْيَوْمَ الْعَقِيمَ. انتهى. «والتفصيل» البيان.

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُرْوَةٍ وَنُخْرِجُهُ لَوِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَن آهَتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ إِلَّا ذِكْرًا وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)

وقوله سبحانه: ﴿وكل إنسان أُلزِمناه طائرته﴾ قال ابن عباس: ﴿طائرته﴾ ما قُدِّر له

(١) ذكره الطبري (٤٥/٨)، وذكره ابن عطية (٤٤١/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٤٥/٨) برقم: (٢٢١١٧)، وذكره ابن عطية (٤٤١/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/

٢٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠١/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وابن عساكر.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤١/٣).

وعليه^(١)، وخاطب الله العرب في هذه الآية بما تعرف، وذلك أنه كان من عاداتها التيمُّن والتشاؤم بالطير في كونها سانحةً وبارحةً، وكثر ذلك حتى فعلته بالطَّباء وحيوانِ الفلأ، وسُمِّت ذلك كُلُّه تَطْيِيراً، وكانت تعتقد أن تلك الطَّيْرَ قاضية بما يلقي الإنسان من خيرٍ وشرٍّ، فأخبرهم الله تعالى في هذه الآية بأوجز لفظ، وأبلغ إشارة، أن جميع ما يلقي الإنسان من خيرٍ وشرٍّ قد سَبَقَ به القضاء، وألزم حظه وعمله وتكسُّبه في عنقه، وذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾، فعبر عن الحظِّ والعمل؛ إذ هما متلازمان، بالطائر؛ قاله مجاهد وقتادة^(٢)، بحسب معتقد العرب في التطيُّر، ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾: هذا الكتاب هو عمل الإنسان وخطيئاته، ﴿اقرأ كتابك﴾ أي: يقال له: اقرأ كتابك، وأسند الطبري عن الحسن، أنه قال: يا ابن آدم بُسِطَتْ لك صحيفة، ووَكِّلَ بك مَلَكَانِ كريمان؛ أحدهما عن يمينك يكتبُ حسناتك، والآخر عن شمالك يحفظُ سيئاتك، فأَمْلِلْ ما شئت وأقلِّلْ أو أَكْثِرْ حتى إذا مِتُّ طُوِّيتْ صحيفةُكَ فجعلتُ في عنقك معك في قَبْرِكَ حتى تَخْرُجَ لك / يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليومَ عَلَيكَ حَسِيباً﴾ قد عدَلَّ والله فيك، مَنْ جعلك حَسِيبَ نَفْسِكَ^(٣).

١٢٨٩

قال * ع^(٤) فعلى هذه الألفاظ التي ذكر الحسنُ يكون الطائر ما يتحصَّل مع ابنِ آدم من عمله في قَبْرِهِ، فتأمَّل لفظه، وهذا قول ابن عباس^(٥)، وقال قتادة في قوله: اقرأ كتابك: إنه سيقراً يومئذ من لم يكن يقرأ^(٦).

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَانَ رِيبُكَ بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَيْرًا بَعِيدًا ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا

(١) أخرجه الطبري (٤٧/٨) برقم: (٢٢١٣٣)، وذكره البغوي (١٠٨/٣)، وذكره ابن عطية (٤٤٢/٣)،

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٣/٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٤٧/٨) برقم: (٢٢١٣٣)، وذكره البغوي (١٠٨/٣)، وابن عطية (٤٤٢/٣)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٣/٤)، وعزاه لأبي داود في كتاب «القدر»، وابن جرير،

وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره البغوي (١٠٨/٣)، وذكره ابن عطية (٤٤٣/٣)، وذكره ابن كثير (٢٨/٣) بنحوه، وذكره

السيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٤/٣)، وعزاه لابن جرير.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٣).

(٥) أخرجه الطبري (٤٩/٨) برقم: (٢٢١٤١)، وذكره البغوي (١٠٨/٣)، وابن عطية (٤٤٣/٣)،

وابن كثير في «تفسيره» (٢٨/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٤/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٦) أخرجه الطبري (٥٠/٨) برقم: (٢٢١٤٥)، وذكره البغوي (١٠٨/٣)، وابن عطية (٤٤٣/٣)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٤/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

لَمْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَكُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قرأ الجمهور^(١): «أَمَرْنَا»؛ على صيغة الماضي، وعن نافع وابن كثير، في بعض ما رُوِيَ عنهما: «أَمَرْنَا» بمد الهمزة؛ بمعنى كَثَرْنَا، وقرأ أبو عمرو بخلاف عنه: «أَمَرْنَا» بتشديد الميم، وهي قراءة أبي عثمان التهذبي، وأبي العالية وابن عباس، وزُوَيْتٌ عن علي، قال الطبري^(٢) القراءة الأولى معناها: أَمَرْنَاهُمْ بالطاعة، فَعَصَوْا وَفَسَقُوا فيها، وهو قول ابن عباس^(٣) وابن جبير، والثانية: معناها: كَثَرْنَاهُمْ، والثالثة: هي من الإمارة، أي مَلَكْنَاهُمْ على الناس، قال الثعالبي: واختار أبو عُبَيْد وأبو حاتم قراءة الجمهور، قال أبو عُبَيْد: وإنما اختَرْتُ هذه القراءة، لأنَّ المعاني الثلاثة مجتمعة فيها، وهي معنى الأمر والإمارة والكثرة انتهى.

* ت * : وعبارة ابن العربي^(٤): ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ يعني بالطاعة، ففسقوا بالمخالفة انتهى من كلامه على الأفعال الواقعة في القرآن، «والمترف»: الغنيُّ من المالِ المتنعم، والتَرْفَةُ: النعمة، وفي مُضَحَفِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: «قَرْيَةٌ بَعَثْنَا أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا فَمَكَّرُوا فِيهَا».

وقوله سبحانه: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾، أي: وعيدُ الله لها الذي قاله رسولهم، «والتدميرُ» الإهلاك مع طَمَسِ الآثارِ وهدمِ البناءِ.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ...﴾ الآية: مثال لقريشٍ ووعيدٌ لهم، أي: لستم ببعيد مما حصلوا فيه إن كذبتُم، وأختلف في القرن، وقد روى مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ فِي خَتْنِهِ^(٥) عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ بُسْرِ، قال: وضع رسولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، وقال: «سَيَعِيشُ هَذَا الْعُلَامُ قَرْيَانَا»

(١) ينظر: اختلاف القراء في هذا الحرف في: «السبعة» (٣٧٩)، و«الحجة» (٩١/٥)، و«معاني القراءات» (٨٩/٢)، و«شرح الطيبة» (٤٢٦/٤)، و«إتحاف» (١٩٥/٢)، و«المحرر الوجيز» (٤٤٤/٣)، و«البحر المحيط» (١٧/٦)، و«الدر المصون» (٣٧٩/٤)، و«المحتسب» (١٥/٢).

(٢) ينظر: «الطبري» (٥١/٨).

(٣) أخرجه الطبري (٥١/٨) برقم: (٢٢١٥٠)، وذكره ابن عطية (٤٤٤/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٣٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٧/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (١١٩٦/٣).

(٥) في الحديث: علي خَتَنَ رسول الله ﷺ، أي زوج ابنته.

ينظر: «لسان العرب» (ختن).

قُلْتُ: كم القَرْنُ؟ قَالَ: مِائَةُ سَنَةٍ^(١) قال محمد بن القاسم: فما زِلْنَا نَعُدُّ له حتى كَمَلِ مِائَةُ سَنَةٍ، ثم مات رحمه الله.

والباء في قوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ زائدة، التقديرُ وكَفَى رَبُّكَ، وهذه الباء إنما تجيء في الأغلب في مَذْحٍ أو ذَمٍّ، وقد يجيء «كَفَى» دون باء، كقول الشاعر: [الطويل]

..... كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا^(٢)

وكقول الآخر: [الطويل]

وَيُخْبِرُنِي عَنْ غَائِبِ الْمَرْءِ هَذِيهِ كَفَى الْهَذِي عَمَّا غَيَّبَ الْمَرْءُ مُخْبِرَا^(٣)

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ...﴾ الآية: المعنى فَإِنَّ اللَّهَ يَعَجِّلُ لِمَنْ يَرِيدُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَا يَشَاءُ سبحانه؛ على قراءة النون^(٤)، أو ما يشاء هذا المريد؛ على قراءة الياء، وقوله: ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ شرط كافٍ على القراءتين، وقال أبو إسحاق الفَرَارِيُّ: المعنى: لِمَنْ نُرِيدُ هَلَكَتَهُ^(٥)، و«المدحور»: المهان المُبْعَدُ المَذَلُّ المسخوطُ عليه.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾، أي: إِرَادَةً يَقِينٍ وَإِيمَانٍ بِهَا، وبإلَّهِ ورسالاتِهِ، ثم شَرَطَ/ سبحانه في مريدِ الآخرة أَنْ يَسْعَى لَهَا سَعْيَهَا، وهو ملازمةُ أَعْمَالِ الْخَيْرِ على ٢٨٩ ب

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤/١٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧١/٥)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

(٢) عجز بيت صدره:

عميرة ودع إن تجهزت غاديا

ينظر: «الإنصاف» (١٦٨/١)، و«خزانة الأدب» (٢٦٧/١)، (١٠٢/٢ - ١٠٣)، و«سر صناعة الإعراب» (١٤١/١)، و«شرح التصريح» (٨٨/٢)، و«شرح شواهد المغني» (٣٢٥/١)، و«الكتاب» (٢٦/٢)، (٢٢٥/٤)، و«لسان العرب» (٢٢٦/١٥) (كفى)، و«مغني اللبيب» (١٠٦/١)، و«المقاصد النحوية» (٦٦٥/٣)، وبلا نسبة في «أسرار العربية» ص: (١٤٤)، و«أوضح المسالك» (٢٥٣/٣)، و«شرح الأشموني» (٣٦٤/٢)، و«شرح عمدة الحافظ» ص: (٤٢٥)، و«شرح قطر الندى» ص: (٣٢٣)، و«شرح المفصل» (١١٥/٢)، (٨٤/٧)، (١٤٨)، (٢٤/٨)، (٩٣)، (١٣٨)، و«لسان العرب» (٣٤٤/١٥) (نهي).

(٣) البيت لزياد بن زيد العدوي، ينظر: في «الغراء» (١١٩/٢)، و«التهذيب»، و«اللسان» (هدى)، و«البحر» (١٤/٦)، و«الدر» (٣٧٧/٤).

(٤) قرأ الجمهور بالنون «نشأ». ونافع «يشأ» بالياء من تحت. ينظر: «المحور الوجيز» (٤٤٦/٣)، و«البحر المحيط» (١٨/٦).

(٥) أخرجه الطبري (٥٥/٨) برقم: (٢٢١٧١)، وذكره ابن عطية (٤٤٦/٣).

حُكْمُ الشَّرْعِ، ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعِيهِمْ مَشْكُورًا﴾ ولا يشكر الله سعيًا ولا عملًا إلا أثاب عليه، وَغَفَرَ بِسَبَبِهِ؛ ومنه قوله ﷺ في حديث الرجل الذي سَقَى الْكَلْبَ الْعَاطِشَ: «فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَعَفَّرَ لَهُ»^(١).

وقوله سبحانه: ﴿كَلَّا نَمْدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يريد به «العطاء» الطاعات لمريد الآخرة، والمعاصي لمريد العاجلة، وروي هذا التأويل عن ابن عباس^(٢)، ويحتمل أن يريد بالعطاء رزق الدنيا، وهو تأويل الحسن بن أبي الحسن، وقتادة^(٣)، المعنى أنه سبحانه يرزق في الدنيا من يريد العاجلة ومريد الآخرة، وإنما يقع التفاضل والتباين في الآخرة، ويتناسب هذا المعنى مع قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، أي: ممنوعاً، وَقَلَّمَا تَصْلُحْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ لِمَنْ يُمَدُّ بِالْمَعَاصِي.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِالْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (٢١) لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾

وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية تُدَلُّ دَلَالَةً مَا عَلَى أَنَّ الْعَطَاءَ فِي الَّتِي قَبْلُهَا الرِّزْقُ، وَبَاقِي الْآيَةِ مَعْنَاهُ أَوْضَحُ مِنْ أَنْ يَبَيَّنَ.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ هذه الآية خطابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ والمراد لجميع الخلق، قاله الطبري^(٤) وغيره، ولا مريّة في ذمّ مَنْ نَحَتَ عَوْدًا أَوْ حَجْرًا، وَأَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ.

قال * ص * : ﴿تَقْعُدَ﴾، أي: فتصير؛ بهذا فسرهُ الْفَرَاءُ وغيره أ هـ.

«والخذلان»؛ في هذا بإسلام الله لعبده، ألا يتكفل له بنصر، والمخذول الذي أسلمه ناصروه، وَالْخَاذِلُ مِنَ الظُّبَاءِ الَّتِي تَتْرُكُ وَلَدَهَا.

﴿وَقَفَّيْ رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنَّا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢/١٠) كتاب «الأدب» باب: رحمة الناس والبهايم، حديث (٦٠٠٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٤٦/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٥٦/٨) برقم: (٢٢١٧٥) وبرقم: (٢٢١٧٧)، وذكره ابن عطية (٤٤٦/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» ((٣٠٨/٤))، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي نعيم في «الحلية».

(٤) ينظر: «الطبري» (٥٧/٨).

مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ وَتُكَذِّرُهُمْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا فِي النَّارِ الَّذِي لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَمَا تَدْرِي مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَلَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِآيَاتِنَا عَلَيْكَ إِذْ تُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّا نَحْنُ مُعِزُّ الْمُؤْمِنِينَ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُلًا ﴿٢٧﴾ وَإِنَّا نَحْنُ مُعِزُّ الْمُؤْمِنِينَ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُلًا ﴿٢٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه...﴾ الآية: ﴿قضى﴾، في هذه الآية: هي بمعنى أمر وألزم وأوجب عليكم؛ وهكذا قال الناس، وأقول: إن المعنى وقضى ربك أمره، فالمقضي هنا هو الأمر، وفي مصحف ابن مسعود^(١): «وَوَصَّى رَبُّكَ»، وهي قراءة ابن عباس وغيره، والضمير في ﴿تعبدوا﴾ لجميع الخلق؛ وعلى هذا التأويل مضى السلف والجمهور، ويحتمل أن يكون ﴿قضى﴾ على مشهورها في الكلام، ويكون الضمير في ﴿تعبدوا﴾ للمؤمنين من الناس إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿فلا تقل لهما أف﴾ معنى اللفظة أنها اسم فعل؛ كأن الذي يريد أن يقول: أضجر أو أتقذر أو أكره، ونحو هذا، يعبر إيجازاً بهذه اللفظة، فتعطي معنى الفعل المذكور، وإذا كان النهي عن التأنيف فما فوقه من باب أخرى، وهذا هو مفهوم الخطاب الذي المسكوت عنه حكمه حكم المذكور.

قال * ص *: وقرأ الجمهور ﴿الذَّل﴾ بضم الذال، وهو ضد العِزِّ، وقرأ ابن عباس^(٢) وغيره بكسرها، وهو الانقياد ضد الصعوبة انتهى، وباقي الآية بين.

قال ابن الحاجب في «منتهى الوصول»، وهو المختصر الكبير: المفهوم ما دل عليه اللفظ في غير محل النطق، وهو: مفهوم موافقة، ومفهوم مخالفة، فالأول: أن يكون حكم المفهوم موافقاً للمنطوق في الحكم، ويسمى فخوى الخطاب، ولحن الخطاب، كتحريم الضرب من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ﴾ وكالجزء/ بما فوق المثقال من قوله تعالى: ١٢٩٠

(١) وقال ابن عباس: إنما التصقت الواو بالصاد.

ينظر: «مختصر شواذ ابن خالويه» ص: (٧٩)، و«الكشاف» (٢/٦٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/٤٤٧)، وزاد نسبتها إلى النخعي، وسعيد بن جبير، وميمون بن مهران، وأبي بن كعب. وينظر: «البحر المحيط» (٦/٢٣).

(٢) وقرأ بها سعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، والجحدري، وحمام الأسدي، عن أبي بكر رضي الله عنه، ورويت عن عاصم بن أبي النجود.

قال أبو الفتح: الذل في الدابة: ضد الصعوبة، والذل في الإنسان، وهو ضد العِز.

ينظر: «المحاسب» (٢/١٨)، و«الشواذ» ص: (٧٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/٤٤٩)، و«البحر المحيط» (٦/٢٦)، و«الدر المصون» (٤/٣٨٦).

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [الزلزلة: ٧]، وكتأدية ما دُونَ القنطار من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] وعدم تأدية ما فوق الدينار من قوله تعالى: ﴿بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] وهو من قبيل التنبيه بالأدنى على الأعلى، والأعلى على الأدنى، فلذلك كان الحكم في المسكوت أولى، وإنما يكون ذلك إذا عُرِفَ المقصودُ من الحكم، وأنه أشدُّ مناسبةً في المسكوت؛ كهذه الأمثلة، ومفهومُ المخالفة: أَنْ يَكُونَ الْمَسْكُوتُ عنه مخالفاً للمنطوق به في الحكم ويسمى دليل الخطاب^(١) وهو أقسامٌ: مفهومُ الصفة^(٢)؛ مثل: «في الغنمِ السَّائِمَةِ الزَّكَاةُ»،

(١) تقدم التعريف بـ «دليل الخطاب».

(٢) مفهومُ الصِّفَةِ: هُوَ مَا يَفْهَمُ من تعليق الحكم على الذَّاتِ بصفة من صفاتها، كما في قوله ﷺ: «في سَائِمَةِ الْغَنَمِ زَكَاةٌ»، فإن الغنم ذاتٌ، والسوم والعلف وصفان لها يعترئانها، وَقَدْ عُلِقَ الحكم وهو وجوب الزكاة بأحد وصفيهما، وهو السوم، فَيَفْهَمُ منه نفي الوجوب عن المعلوفة؛ لانتفاء الصِّفَةِ التي عُلِقَ الحكم بها، وهي السوم، وكما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُخَصَّنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ نَتَائِجِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فالفتيات: جمع فتاة، وهي ذات يَغْتَوِرُهَا الإيمان والشرك، وقد عُلِقَ الحكم بأحدهما، وهو الإيمان، فيدل على نفيه عن غَيْرِ المؤمنات. والمراد بالصفة عند الأصوليين: لفظ مقيد لآخر، وليس بشرط، ولا استثناء، ولا غاية، وبعبارة أخرى: هي تقييد لفظ مشترك المعنى بلفظ آخر يختص ببعض معانيه ليس بشرط، ولا استثناء، ولا غاية بعد أن كان صالحاً لما له تلك الصفة ولغيرها، سواء كان ذلك اللفظ المختص نعتاً نحوياً مثل: «في الغنمِ السَّائِمَةِ زَكَاةٌ»، أو مضافاً مثل: «في سَائِمَةِ الْغَنَمِ زَكَاةٌ»، أو مضافاً إليه مثل قوله ﷺ: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ»، أو ظرف زمان مثل قوله ﷺ: «مَنْ ابْتِاعَ تَخْلاً بَعْدَ أَنْ تُوْبِّرَ فَتَمَرَّتْهُا لِلْبَّائِعِ»، أو ظرف مكان مثل «بع في مكان كذا»، أو حالاً نحو: «أحسن إلى العَبْدِ مطيعاً»؛ لأن المخصوص بالكون في مكان أو زمان موصوف بالاستقرار فيه، والحال وَصِفٌ لصاحبها في المعنى، أو كان ذلك اللفظ المختص علة مثل: «أعط السائل لحاجته»، فالمفهوم في المثال «الأول»، و«الثاني»: عدم وجوب الزكاة في الغنم المعلوفة. وفي الثالث: أن مَطْلَ الْفَقِيرِ ليس ظُلماً.

وفي الرابع: أن ثمرة النخلة المؤبَّرة بعد البيع ليست للبائع، وإنما تكون للمشتري.

وفي الخامس: عدم البيع في غير المكان المخصوص.

وفي السادس: عدم الإحسان إليه إذا كان عاصياً.

وفي السابع: عدم الإعطاء عند عدم الحاجة؛ لأن المعلول ينتفي بانتفاء علته، فإن الحكم لما عُلِقَ في هذه الأمثلة بصفة خاصة صار ثبوته مرتبطاً بثبوت تلك الصفة، وعليه فانتفاؤها يدل على انتفائه.

والفرق بين مطلق الصفة، وخصوص العلة. أن الصِّفَةَ قد تكون علة كالإشكَارِ، وقد لا تكون، بل هي متممة لها، كالسُّومِ، فإن وجوب الزكاة في الغنم السائمة ليس للسوم فقط، وإلا لوجبت في الوحوش السائمة، وإنما وجبت لنعمة الملك، وهي مع السوم أتم منها مع العلف، فالصفة أعم من العلة. وبذلك يعلم أن الصفة عند الأصوليين أعم منها عند النحويين.

ومفهوم الشرط^(١)، مثل: ﴿وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمَلٍ﴾ [الطلاق: ٦]

وقد اختلف في الحكم على المشتق نحو: «في السائمة زكاة» هل ذلك يجري مجرى المقيد بالصفة مثل: «في القم السائمة زكاة»؟

ف قيل: لا يجري مجراه لاختلال الكلام بدونه، فيكون كاللقب.

وقيل: إنه يجري مجراه لدلالته على السؤم الزائد على الذات، بخلاف اللقب، فيفيد نفي الزكاة عن المعلوفة مطلقاً، كما يفيد إثباتها للسائمة مطلقاً، ويؤخذ من كلام ابن السمعاني، كما قال الجلال المحلي: إن الجمهور على الثاني حيث قال: «الاسم المشتق، كالمسلم، والكافر والقاتل، والوارث يجري مجرى المقيد بالصفة عند الجمهور، قال شيخ الإسلام: وهو قوي؛ لأن تعريف الوصف صادق عليه.

غايته أن الموصوف مقدر، وذكر الموصوف أو تقديره لا تأثير له فيما نحن بصده، وذلك نحو قوله ﷺ: «الْيَبُّ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا» فمنطوقه ثبوت أحقية الثيب في تزويج نفسها من وليها، ومفهومه المخالف عَدَمُ أَحَقِّيَّةِ غير الثيب، وهي البكر في تزويج نفسها؛ لانتهاء الصفة التي عُلِقَ بها الحكم، وهي الثبوبة.

ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (٣٠/٤)، و«الإحكام في أصول الأحكام» للأمدى (٦٦/٣)، و«التمهيد» للأسنوي (٣٤٥)، و«نهاية السؤل» له (٢٠٥/٢)، و«غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (٣٩)، و«المنحول» للغزالي (٢١٣)، و«حاشية البناي» (٢٤٩/١)، و«الإبهاج» لابن السبكي (١/٣٧٠)، و«الآيات البيئات» لابن قاسم العبادي (٢٦/٢)، و«حاشية العطار على جمع الجوامع» (١/٣٢٦)، و«حاشية الفتازاني» والشريف على «مختصر المنتهى» (١٧٤/٢)، و«شرح التلويح على التوضيح» لسعد الدين مسعود بن عمر الفتازاني (١٤٣/١)، و«ميزان الأصول» للسمرقندي (٥٧٩/١)، و«نشر البنود» للشنقيطي (٩٦/١)، وينظر: «العدة» (٤٥٣/٢)، و«التبصرة» (٢١٨)، و«المنحول» (٢٠٨)، و«المسودة» (٣٥١، ٣٦٠).

(١) مَفْهُومُ الشَّرْطِ هو: ما يفهم من تعليق الحكم على شَيْءٍ بأداة شرط كـ «إِنْ»، و«إِذَا»؛ مما يدل على سببية الأول، ومُسَبِّبَةِ الثاني، كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦]؛ فإنه يفهم منه عند القائلين بمفهوم المخالفة أو غير أولات الأحمال من المطلقات طلاقاً باتناً - لا يجب الإنفاق عليهن، لأن المشروط ينتفي شرطه، وإنما قيدنا الطلاق بـ «البائن»؛ لأن المطلقة طلاقاً رجعيًا يجب الإنفاق عليها في العدة، حاملاً كانت أو لا؛ بالإجماع، والخلاف إنما هو في المبانة.

«والشرط في اللغة»: هو العلامة، وجاء منه أشرط الساعة، أي: علاماتها، وفي العرف العام: ما يتوقف عليه وجود الشيء، وفي اصطلاح المتكلمين: ما يتوقف عليه تحقق الشيء، ولا يكون في ذلك الشيء، ولا مؤثراً فيه.

«وفي اصطلاح النحاة»: ما دخل عليه شَيْءٌ من الأدوات المخصوصة الدالة على سببية الأول ومسببية الثاني ذهنياً أو خارجاً، سَوَاءَ كَانَ عِلَّةً للجزاء؛ مثل: «إِنْ كَانَتِ الشَّمْسُ طَالِعَةً، فَالنَّهَارُ مَوْجُودٌ» - أَوْ مَعْلُولاً؛ مِثْلُ: «إِنْ كَانَ النَّهَارُ مَوْجُوداً، فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ» أو غير ذلك؛ مثل: «إِنْ دَخَلَتِ الدَّارَ، فَأَنْتِ طَالِقٌ».

ويسمى شرطاً لُغَوِيّاً أيضاً؛ لأن المركب من «إِنْ» وأخواتها، ومن مدخولها - لفظ مركب وضع لمعنى يعرف من اللغة، وإن كَانَ التحوي يبحث عنه من وجه آخر، وهو المقصود بالذات، هنا لا الشرعي =

كالطهارة للصلاة، ولا العقلي كالحياة للعلم، ولا العادي كنصب السُّلم لصعود السطح، وإنما كان المقصود هو النحوي؛ لأن الكلام هنا فيما يفهم من تعليق الحكم على شيء بأداة مخصوصة، كما هو مقتضى تعريف مفهوم الشرط، وهذا إنما يتأتى في خصوص الشرط النحوي على ما لا يخفى. هذا حاصل القول في تعريف مفهوم الشرط.

قبل الشروع في بيان مذاهب العلماء في حجية مفهوم الشرط واستدلّاهم ينبغي أن نحرر محلّ النزاع في هذا المقام، ومجمل القول في ذلك؛ أنه لا يزّاع بين العلماء في انتفاء الحكم عند انتفاء شرطه، وإنما النزاع في الدال على هذا الانتفاء هل هو التعليق بالشرط، أو البراءة الأصلية؟ - وبيان ذلك أن في تعليق الحكم بالشرط؛ مثل: «إن دخلت الدار، فأنت طالق» - أموراً أربعة:

«الأمر الأول: ثبوت الجزاء عند ثبوت الشرط.

«الأمر الثاني: عدم الجزاء عند عدم الشرط.

«الأمر الثالث: دلالة التعليق على الأول.

«الأمر الرابع: دلالته على الثاني.

واتفق العلماء على الثلاثة الأول، وإنما النزاع في الأمر الرابع بعد الاتفاق على أن عدم الجزاء ثابت عند عدم الشرط.

فعد القائلين بالمفهوم: ثبوته لدلالة التعليق عليه، وعند النفاة ثابت بمقتضى البراءة الأصلية، فالنزاع إنما هو في دلالة حرف الشرط على العدم، لا على أصل العدم عند العدم؛ فإنّ ذلك ثابت قبل أن ينطق الناطق بكلام، وهذا الكلام في سائر المفاهيم.

قال أبو زيد الدبوسي، وهو من المنكرين له: «انتفاء المعلق حال عدم الشرط، لا يفهم من التعليق، بل يبقى على ما كان قبل ورود النص».

هذا هو تحرير محل النزاع، وإذا تحقّق هذا، فنقول: اختلف العلماء والأصوليون في حجية مفهوم الشرط على مذهبين:

«المذهب الأول»: أنه حجة، أي: أن تعليق الحكم بالشرط يدل على انتفاء ذلك الحكم عند انتفاء الشرط؛ وإلى هذا ذهب جميع القائلين بمفهوم الصفة، وبعض من لم يقل به، كالإمام فخر الدين الرّازي، وابن سُرّيج، وأبي الحسن البصري، وأبي الحسن الكرخي، ونقله أبو الحسين السهيلي في «آداب الجدل» عن أكثر الحنفية، وابن القشيري عن معظم أهل العراق، وإمام الحرمين عن أكثر العلماء. «المذهب الثاني»: أنه ليس بحجة، أي: أن تعليق الحكم بالشرط لا يدل على انتفاء الحكم عند انتفاء الشرط؛ بل يبقى الحكم عند انتفاء الشرط على العدم الأصلي، وهذا مذهب أبي حنيفة والمحققين من أصحاب مذهبه، وأكثر المعتزلة؛ كما نقله عنهم صاحب «المحصول»، ونقله ابن التلمساني عن الإمام مالك كما اختاره القاضي أبو بكر الباقلاني، وحجة الإسلام الغزالي، وسيف الدين الأمدي، والقفال الشاشي، وأبو حامد المرّوزي من الشافعية.

ينظر: «حاشية البناني» (٢٥١/١)، و«الإبهاج» لابن السبكي (٣٨٠/١)، و«الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٣٠/٢)، و«حاشية الططار على جمع الجوامع» (٣٢٩/١)، و«تيسير التحرير» لأمر بادشاه (١/١٠٠)، و«حاشية الفتازاني» والشريف على «مختصر المنتهى» (١٨٠/٢)، و«شرح التلويح على التوضيح» لسعد الدين مسعود بن عمر الفتازاني (١٥٥/١)، و«ميزان الأصول» للسمرقندي (٥٨٠/١)، =

ومفهوم الغاية^(١)، مثل: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠].....

= ونشر البنود للشقراطي (٩٨/١).

(١) «مفهوم الغاية»: هو ما يفهم من تقييد الحكم بأداة غاية؛ كـ «إلى»، و«حتى»، وغاية الشيء آخره، وذلك كما في قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فمنطوق الآية تحريم قربان النساء مدة زمان الحيض، وقبل الطهر، وتدل بمفهومها المخالف على جواز القربان منهن بعد انقضاء زمان الحيض، والاعتسال - وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، فمنطوقه أن عدم حل المطلقة ثلاثاً لمطلقها - ممعياً بتكاح الزوج الآخر، ومفهومه المخالف أنها تحل له بعد نكاح الزوج الآخر لها بشرطه - وقول النبي ﷺ: «لَا زَكَاةَ فِي مَالٍ، حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ» فالمنطوق عدم وجوب الزكاة في المال قَبْلَ حَوْلَانِ الحول عليه، والمفهوم المخالف وجوب الزكاة في المال بعد حولان الحول عليه - وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ فإنه يفهم منه عدم وجوب الصيام في الليل.

واختلف الأصوليون في حجية مفهوم الغاية، وبعبارة أخرى في القول به إثباتاً، ونفيًا - على مذهبي: «المذهب الأول»: أنه حجة، بمعنى أن تقييد الحكم بالغاية يدل على انتفاء ذلك الحكم عما بعدها؛ وإليه ذهب جميع القائلين بمفهوم الصفة والشرط، وبعض من لم يقل بهما؛ كحجة الإسلام الغزالي، وعبد الجبار المعتزلي، والإمام أبي الحسين البصري، والقاضي أبي بكر الباقلاني، وبعض الأصوليين من الحنفية.

وفي هذا يقول سليم الرازي: لم يختلف أهل العراق في ذلك. وقال القاضي في «التقريب»: صار معظم نفاة دليل الخطاب إلى أن التقييد بحرف الغاية يدل على انتفاء الحكم عما وراء الغاية.

قال: ولهذا أجمعوا على تسميتها غاية.

«المذهب الثاني»: أنه ليس حجة، بمعنى أن تقييد الحكم بالغاية لا يدل على انتفاء الحكم عما بعدها، بل هو مسكوت عنه غير متعرض له بنفي أو إثبات؛ وهو مذهب أصحاب أبي حنيفة، وجماعة من الفقهاء والمتكلمين، واختاره سيف الدين الأمدي؛ طرداً لباب المنع من العمل بالمفاهيم.

هذا حاصل في حجية مفهوم الغاية، وقد اتضح لك أنه مفروض فيما وراء الغاية لا في الغاية نفسها وذهب بعضهم إلى أنه مفروض في الغاية نفسها؛ بمعنى أن تقييد الحكم بالغاية، هل يدل على انتفاء ذلك الحكم في الغاية نفسها أو لا يدل؟ - فالذي يقول بمفهومها، يقول بانتفاء الحكم فيها، ومن لا فلا، وهو مردود؛ لتصريح أكثر العلماء، لا سيما المحققين منهم؛ أن النزاع هنا إنما هو فيما بعد الغاية لا في الغاية نفسها، نعم في الغاية خلاف أيضاً، ولكنه خلاف آخر:

وحاصل هذا الخلاف: هل الغاية داخلية في حكم المعنى أو خارجة عنه؟ وهو خلاف لا دخل له في هذا المقام؛ فإن الكلام هنا في دلالة المخالفة وعدمها، والخلاف هناك في الدخول والخروج، وأين أحدهما من الآخر؟!

فإنه على التقدير الثاني لا يستلزم المخالفة فإن الخروج أعم من أن يدل على المخالفة، أو يكون مسكوتاً عنه بخلاف الأول، وهو ظاهر، على أننا إن قلنا: بخروج الغاية عن المعنى يأتي خلاف المفهوم فيها أيضاً، وبالجمله فهما خلافان متغايران:

ومفهوم إنَّمَا^(١) مثل: «إنما الرُّبَا في النَّسِيئَةِ» ومفهوم الاستثناء^(٢) مثل: «لا إله إلا الله» ومفهوم العدد الخاص^(٣)، مثل: «فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً» [النور: ٤]، ومفهوم حَصَرَ

«أحدهما»: أن تقييد الحكم بالغاية، هل يدل على نفي الحكم عما بعدها أو لا؟
والثاني: أن هذه الغاية، هل هي داخلة في حكم النفي أو لا؟ ولا ربط لأحدهما بالآخر، والمبحوث عنه هنا هو الأول دون الثاني، والثاني يجتمع مع القول بالمفهوم وعدمه كما أن النزاع الأول يجتمع مع القول بالدخول والخروج، ولا تنافي بينهما.

ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (٤/٤٦)، و«الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٣/٦٦)، و«نهاية السؤل» للأسنوي (٢/٢٠٥)، و«حاشية البناي» (١/٢٥١)، و«الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٢/٣٠)، و«حاشية العطار على جمع الجوامع» (١/٣٣٠)، و«تيسير التحرير» لأمير بادشاه (١/١٠٠)، و«حاشية التفتازاني» والشريف على «مختصر المتهى» (٢/١٨١)، و«الوجيز» للكراماسي (٢٤)، وينظر: «المسودة» (٣٥١)، و«الآيات البينات» (٢/٣٠).

(١)

اختلف العلماء في إفادة «إنَّمَا» للحصر على مذهبين:

«المذهب الأول»: إنها تفيد الحصر بمعنى قَصَرَ الأول على الثاني من مدخوليهما؛ بحيث لا يتجاوزهما إلى غيره بمعنى أن تقييد الحكم بها يدل على إثباته للمذكور في الكلام آخراً ونفيه عن غيره مثل «إنَّمَا الشُّفْعَةُ فِيمَا لَمْ يُقْسَمْ» فإنه يدل على إثبات الشفعة في غير المقسوم، ونفيها عما قسم، وهذا مذهب أكثر العلماء.

«المذهب الثاني»: إنها لا تفيد الحصر، بمعنى: أن تقييد الحكم بها لا يدل إلا على تأكيد إثبات الشفعة فيما لم يقسم، ولا دلالة له على نفيها عن غيره، بل هو مسكوت عنه غير متعرض له لا بنفي، ولا بإثبات، وإليه ذهب أصحاب أبي حنيفة، وجماعة ممن أنكروا دليل الخطاب، واختاره سيف الدين الآمدي، وأبو حيان، ونسبه إلى الثَّوَوِيِّينَ، غير أن الكمال بن الهمام تعقب نسبة هذا المذهب إلى الحنفية: بأن الحنفية كثر منهم نسبتهم الحصر إلى «إنَّمَا» كما في «كشف الأسرار»، و«الكافي»، و«جامع الأسرار» وغيرها.

هذا هو حاصل الخلاف في مفهوم الحصر بـ «إنَّمَا».

ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (٤/٥٠)، و«الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٣/٦٧)، و«الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٢/٤٣)، و«حاشية التفتازاني»، والشريف على «مختصر المتهى» (٢/١٨٢ - ١٨٣)، و«نشر البود» للشنقيطي (١/٩٦).

(٢)

«المقصود بمفهوم الاستثناء»: هو ما يفهم من تقييد الحكم بأداة الاستثناء، والاستثناء: هو إخراج ما لولاه لوجب دخوله، والمراد بالاستثناء هنا الاستثناء من الكلام التام الموجب، وذلك مثل: «قامَ القومُ إلَّا زَيْدًا» فَإِنَّهُ يُفْهَمُ منه انتفاء الحكم الثابت للمستثنى منه، وهو القوم عن المستثنى، وهو زيد، وإنما قيدنا الاستثناء بكونه من الإثبات لإخراج الاستثناء من النفي، فإنه نوع من أنواع الحصر.

ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (٤/٤٩)، و«الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٣/٦٧)، و«الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٢/٢٧)، و«حاشية العطار على جمع الجوامع» (١/٣٢٩).

(٣)

إذا علق حكم بعدد معين، مثل: «فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً» [النور: ٤] فهل يدل ذلك على نفي الحكم عما عدا ذلك العدد أو لا؟ اختلف العلماء في ذلك على طريقتين:

«الطريق الأول»: أنه يدل، وإليه ذهب مالك ونقله عن الشافعي أبو حامد، وأبو الطيب الطبري، =

المبتدئ^(١) مثل: العالم زَيْد، وشرط مفهوم المخالفة عند قائله ألا يظهر أن المسكوت عنه أولى ولا مساوياً؛ كمفهوم الموافقة، ولا خرج مخرج الأعم الأغلب، مثل: ﴿وَرَبَّائِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] فأما مفهوم الصفة، فقال به الشافعي، ونفاه الغزالي وغيره. انتهى.

وفسر الجمهور الأوابين بالرجاعين إلى الخير، وهي لفظة لزم عُزْفُهَا أَهْلُ الصلاح.

* ت * : قال عَبْدُ الْحَقِّ الْأَشْبِيلِيُّ: وَاعْلَمْ أَنَّ الْمِيتَ كَالْحَيِّ فِيمَا يُغْطَاهُ وَيُهْدَى إِلَيْهِ، بِلِ الْمِيتِ أَكْثَرُ وَأَكْثَرُ؛ لِأَنَّ الْحَيَّ قَدْ يَسْتَقِلُّ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ، وَيَسْتَحْقِرُّ مَا يُتَخَفُّ بِهِ، وَالْمِيتَ لَا يَسْتَحْقِرُّ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ مَقْدَارَ جَنَاحٍ بِعَوْضَةٍ، أَوْ وَزْنَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ قِيَمَتَهُ، وَقَدْ كَانَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَضِيْعُهُ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٢) فهذا دعاء

والماوردي وغيرهم، ونقله أبو الخطاب الحنبلي في «تمهيد» عن أحمد بن حنبل، وإليه ذهب داود الظاهري، وكذا الطحاوي، وصاحب «الهداية» والكرخي، ورضي الدين صاحب «المحيط» من الحنفية. «الطريق الثاني»: أَنَّهُ لَا يَدُلُّ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ، وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ، وَابْنُ دَاوُدَ، وَالْمَعْتَزِلَةُ، وَالْأَشْعَرِيَّةُ، وَالْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ، وَاخْتَارَهُ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ، وَالْإِمَامُ الْبِيضَاوِيُّ فِي «الْمَنَهَاجِ»، وَجَزَى عَلَيْهِ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ فِي «الْمَخْصُولِ» وَالْأَمْدِيُّ فِي «الْإِحْكَامِ». (١) اختلف العلماء في دلالة تعريف المبتدأ باللام أو الإضافة على الحصر بمعنى نفي الحكم عن غير المذكور وعدمه على مذهبين:

«المذهب الأول»: إنه يدل على الحصر، وهذا مذهب حجة الإسلام الغزالي، وإمام الحرمين، والإمام الرازي، والجمهور من الفقهاء والمتكلمين.

«المذهب الثاني»: إنه لا يدل على الحصر، وإليه ذهب كثير من الحنفية، والقاضي أبو بكر الباقلاني وجماعة من الفقهاء والمتكلمين وهو ما اختاره الأمدي.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٥٥/٣) كتاب «الوصية» باب: ما يلحق الإنسان من الثواب، حديث (١٦٣١/١٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم: (٣٨)، وأبو داود (١٣١/٢) كتاب «الوصايا» باب: ما جاء في فضل الصدقة عن الميت، حديث (٢٨٨٠)، والترمذي (٦٦٠/٣) كتاب «الأحكام» باب: في الوقف، حديث (١٣٧٦)، والنسائي (٢٥١/٦) كتاب «الوصايا» باب: فضل الصدقة على الميت، وأحمد (٣٧٢/٢)، وابن خزيمة (١٢٢/٤) رقم: (٢٤٩٤)، وأبو يعلى (٣٤٣/١١) رقم: (٦٤٥٧)، وابن الجارود في «المتقى» رقم: (٣٧٠)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (١٩٠/١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٩٠/١)، والبيهقي (٢٧٨/٦) كتاب «الوصايا» باب: الدعاء للميت، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٥/١)، والبخاري في «شرح السنة» (٢٣٧/١) - بتحقيقنا. كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الولد يصل إلى والده، وينتفع به، وكذلك أمره عليه السلام بالسَّلام على أهل القبور والدعاء لهم^(١) ما ذاك إلا لكون ذلك الدعاء لهم والسلام عليهم، يصل إليهم ويأتيهم، والله

(١) أخرجه مالك (٢٨ - ٢٩) كتاب «الطهارة» باب: جامع الوضوء، حديث (٢٨)، ومسلم (٢١٨/١) كتاب «الطهارة» باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل، حديث (٢٤٩/٣٩)، وأبو داود (٢٣٨/٢) كتاب «الجنائز» باب: ما يقول إذا زار القبور أو مر بها، حديث (٣٢٣٧)، والنسائي (٩٥ - ٩٣/١) كتاب «الطهارة» باب: حلية الوضوء، وابن ماجه (١٤٣٩/٢) كتاب «الزهد» باب: ذكر الحوض، حديث (٤٣٠٦)، وأحمد (٣٠٠/٢)، وأبو عوانة (١٣٨/١)، وأبو يعلى (٣٨٧/١١ - ٣٨٨) رقم: (٦٥٠٢)، وابن حبان (١٠٣٢، ٣١٦٨)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (١٨٩)، والبخاري في «شرح السنة» (٢٥٣/١ - بتحقيقنا). كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا نأمن بالله لآحقون...».

وفي الباب عن عائشة وبريدة.

حديث عائشة: أخرجه مسلم (٦٦٩/٢) كتاب «الجنائز» باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، حديث (٩٧٤/١٠٢)، والنسائي (٩٣/٤ - ٩٤)، كتاب «الجنائز» باب: الأمر بالاستغفار للمؤمنين، والبيهقي (٧٨/٤ - ٧٩) كتاب «الجنائز» باب: ما يقول إذا دخل مقبرة (٢٤٩/٥) كتاب «الحج» باب: في زيارة القبور التي في بقيع الغرقد، والبخاري في «شرح السنة» (٣٠٦/٣ - بتحقيقنا)، وأبو يعلى (١٩٩/٨) رقم: (٤٧٥٨) كلهم من طريق شريك بن أبي نمر، عن عطاء بن يسار، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كانت ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا وإياكم متواعدون غداً وموجلون وإنا إن شاء الله بكم لآحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».

وأخرجه مسلم (٦٦٩/٢) كتاب «الجنائز» باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، حديث (٩٧٤/١٠٣) وعبد الرزاق (٦٧١٢) من طريق محمد بن قيس بن مخزومة، عن عائشة. وأخرجه ابن ماجه (٤٩٣/١) كتاب «الجنائز» باب: ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر، حديث (١٥٤٦)، وأبو يعلى (٦٩/٨) رقم (٤٥٩٣) كلاهما من طريق شريك بن عبد الله، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر، عن عائشة به. بلفظ: فقدت رسول الله ﷺ فأتبعته فأتى البقيع فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم لنا فرط وإنا بكم لآحقون، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم». وأخرجه أبو يعلى (٨٥ - ٨٦) رقم: (٤٦١٩) من طريق يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، عن عائشة.

حديث بريدة: أخرجه مسلم (٦٧١/٢) كتاب «الجنائز» باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، حديث (٩٧٥/١٠٤)، والنسائي (٩٤/٤) كتاب «الجنائز» باب: الأمر بالاستغفار للمؤمنين، وابن ماجه (٤٩٤/١) كتاب «الجنائز»، باب: ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر، حديث (١٥٤٧) وابن أبي شيبة (١٣٨/٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم: (٥٨٢)، وأحمد (٣٥٩، ٣٥٣/٥)، والبخاري في «شرح السنة» (٣٠٤/٣ - بتحقيقنا)، عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لآحقون أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع نسأل الله العافية».

أعلم، وروي عنه عليه السلام؛ أنه قال: «لكون الميت في قبره كالغريق ينتظر دغوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديقه، فإذا لحقته، كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها» والأخبار في هذا الباب كثيرة انتهى من «العاقبة».

* ت * : وروى مالك في «الموطأ» عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، أنه قال: كان يقال: إن الرجل ليزفج بدعاء ولده من بعده وأشار بيده نحو السماء^(١). قال أبو عمرو: وقد رويته بإسناد جيد، ثم أسند عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليزفج العبد الدرجة، فيقول: أي رب، أتى لي هذه الدرجة؟ فيقال: باستغفار ولدك لك» انتهى من «التمهيد»^(٢)، وروينا في «سنن أبي داود»؛ «أن رجلاً من بني سلمة قال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء، أبرهما/ به بعد موتهما؟ قال: نعم الصلاة عليهما، ٢٩٠ ب والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلته الرّحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقيهما»^(٣) انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ...﴾ الآية: قال الجمهور: الآية وصية للناس كلهم بصلة قرابتهم، خوطب بذلك النبي ﷺ والمراد الأمة، «والحق»، في هذه الآية، ما يتعين له؛ من صلة الرحم، وسد الخلة، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه؛ قال بنحو هذا الحسن وابن عباس وعكرمة^(٤) وغيرهم، «والتبذير» إنفاق المال في فساد أو في سرف في مباح.

وقوله تعالى: ﴿وإِذَا تَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾، أي: عمن تقدم ذكره من المساكين وابن السبيل، «فقل لهم قولاً ميسوراً»، أي: فيه ترجية بفضل الله، وتأنيس بالميعاد الحسن، ودعاء في توسعة الله وعطائه، وروي أنه ﷺ كان يقول بعد نزول هذه الآية، «إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يُعْطَى: يَرْزُقْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ فَضْلِهِ»^(٥) وال «رحمة» على هذا التأويل: الرزق

-
- (١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢١٧/١) كتاب «القرآن» باب: العمل في الدعاء، حديث (٣٨).
 (٢) أخرجه أحمد (٥٠٩/٢) من حديث أبي هريرة، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢١٣)، وقال: رواه أحمد، والطبراني في «الأوسط»، ورجلها رجل الصحيح غير عاصم بن بهدلة، وقد وثق.
 (٣) أخرجه أبو داود (٧٥٨/٢) كتاب «الأدب» باب: في برّ الوالدين، حديث (٥١٤٢)، وابن ماجه (٢/١٢٠٨ - ١٢٠٩) كتاب «الأدب» باب: «صل من كان أبوك يصل»، حديث (٣٦٦٤)، والحاكم (٤/١٥٤ - ١٥٥)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
 (٤) أخرجه الطبري (٦٧/٨) برقم: (٢٢٢٤٠)، وذكره ابن عطية (٣/٤٥٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٣١٩)، وعزه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن الحسن رضي الله عنه.
 (٥) ينظر: «القرطبي» (١٠/٢٤٩).

المنتظر، وهذا قول ابن عباس^(١) وغيره، والميسور: من اليسر.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكَ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ استعارة لليد المقبوضة عن الانفاق جملة، واستعير لليد التي تستنفذ جميع ما عندها غاية البسطة ضد الغل، وكل هذا في إنفاق الخير، وأما إنفاق الفساد، فقليله وكثيره حرام، أو الملامة هنا لاحقة ممن يطلب من المستحقين، فلا يجد ما يعطى، «والمحسور» الذي قد استنفذت قوته، تقول: خسرت البعير؛ إذا أتعبت حتى لم تثق له قوة؛ ومنه البصر الحسير.

قال ابن العربي^(٢) وهذه الآية خطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته، وكثيراً ما جاء هذا المعنى في القرآن، فإن النبي ﷺ لما كان سيدهم واسطتهم إلى ربهم، عبر به عنهم، على عادة العرب في ذلك. انتهى من «الأحكام»، «والحسير»: هو الكال.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ معنى «يَقْدِرُ»: يضيق.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَأَن بَعَادَهُ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾، أي: يعلم مصلحة قوم في الفقر، ومصلحة آخرين في الغنى.

وقال بعض المفسرين: الآية إشارة إلى حال العرب التي كانت يصلحها الفقر، وكانت إذا شبع، طعت.

* ت * وهذا التأويل يعضده قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية [الشورى: ٢٧] ولا خصوصية لذكر العرب إلا من حيث ضرب المثل.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ مِّنْ نَّرْزُقِهِمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فَرْجَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِيسِهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّمَا كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْمِيزَانِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ...﴾ الآية: نهى عن الوأد الذي

(١) أخرجه الطبري (٧٠/٨) برقم: (٢٢٢٥٩)، وذكره ابن عطية (٤٥٠/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٢١/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٢٠٤/٣).

كانت العرب تفعله، «والإملاق». الفقر وعَدَم المال، وروى أبو داود عن ابن عباس، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ ابْنَةٌ فَلَمْ يَبْذُهَا، وَلَمْ يُهْنِهَا، وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا - قال: يَغْنِي الذَّكَورَ - أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ»^(١) انتهى. والحق الذي تُقْتَلُ به النفس: قد فسره النبي ﷺ في قوله: «لَا يَحِلُّ دَمُ الْمُسْلِمِ إِلَّا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: كُفْرَ بَعْدِ إِيْمَانٍ، أَوْ زَنَاءَ بَعْدِ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتْلُ نَفْسٍ»^(٢) أي: وما في هذا المعنى مِنْ حَرَابَةٍ أَوْ زَنْدَقَةٍ ونحو ذلك.

﴿ومن قتل مظلوماً﴾ أي: بغير الوجوه المذكورة، ﴿فقد جعلنا لوليِّه سلطاناً﴾، ولا مدخل للنساء في ولاية الدِّم؛ عند جماعة من العلماء، ولهذا ذلك عند آخرين، «والسلطان»: الحجة والملك الذي يُجْعَلُ إليه من التخيير في قبول الدية أو العفو؛ قاله ابن عباس^(٣). قال البخاري: قال ابن عباس: كلُّ سلطانٍ في القرآن فهو حُجَّةٌ^(٤). انتهى، وقال قتادة: «السلطان»: القود^(٥).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الشافعي (٩٦/٢) كتاب «الديات»، الحديث (٣١٨)، والطياي ص: (١٣)، الحديث (٧٢)، وأحمد (٦١/١)، والدارمي (٢١٨/٢) كتاب «السير» باب: لا يحل دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله، والترمذي (١٩/٤) كتاب «الديات» باب: ما جاء، لا يحل دم امرئ مسلم، الحديث (١٤٠٢)، والنسائي (١٠٣/٧) كتاب «تحريم الدم» باب: الحكم في المرتد، وابن ماجه (٨٤٧/٢) كتاب «الحدود» باب: لا يحل دم امرئ مسلم إلا في ثلاث، الحديث (٢٥٣٣)، والحاكم (٣٥٠/٤) كتاب «الحدود»، وابن الجارود ص: (٢١٣) رقم (٨٣٦) من حديث عثمان. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وأخرجه الطياي ص: (٢١٦)، الحديث (١٥٤٣)، وأحمد (٢١٤/٦)، وأبو داود (٥٢٢/٤) كتاب «الحدود» باب: الحكم فيمن ارتد، الحديث (٤٣٥٣)، والنسائي (١٠١/٧ - ١٠٢) باب: الصلب، والحاكم (٣٦٧/٤) من حديث عائشة، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وأخرجه البخاري (٢٠١/١٢) كتاب «الديات» باب: قوله تعالى: ﴿أَنْ النَّفْسَ بِالْأَنْفِ﴾، حديث (٦٨٧٨).

ومسلم (٧٣٠٢/٣) كتاب «القسامة» باب: ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦/٢٥)، والترمذي (١٤٠٢)، وأبو داود (٤٣٥٢)، والنسائي (٩٢/٧)، وابن ماجه (٢٥٣٤)، والدارمي (٢١٨/٢)، والدارقطني (٣/٨٢)، والبيهقي (١٩/٨)، وأحمد (٣٨٢/١١)، (٤٢٨، ٤٤٤، ٤٦٥)، عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٧٥/٨) برقم: (٢٢٢٨٧)، وذكره ابن عطية (٤٥٣/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٢٦/٤)، وعزه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٧٥/٨) برقم: (٢٢٢٨٩)، وذكره ابن عطية (٤٥٣/٣).

(٥) أخرجه الطبري (٧٥/٨) برقم: (٢٢٢٨٧)، وذكره ابن عطية (٤٥٣/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٢٦/٣)، وعزه لابن أبي حاتم.

وقوله سبحانه: ﴿فلا يسرف في القتل﴾ المعنى: فلا يَتَعَدَّ الولي أمر الله بأن يقتل غير قاتلٍ وليه، أو يقتل اثنين بواحد إلى غير ذلك من وجوه التعدي، وقرأ^(١) حمزة والكسائي، وابن عامر: «فَلَا تُسْرِف» - بالتاء من فوق -، قال الطبري^(٢): على الخطاب للنبي ﷺ والأئمة بعده.

قال * ع * : ويصح^(٣) أن يراد به الولي، أي: فلا تسرف أيها الولي، والضمير في «إنه» عائذ على «الولي»، وقيل: على المقتول، وفي قراءة أبي بن كعب: «فَلَا تُسْرِفُوا في القتال إن ولي المقتول كان منضوياً»، وباقي الآية تقدم بيانه، قال الحسن: «القسطاس» هو^(٥) القبان^(٦)، وهو القرسطون، وقيل: «القسطاس»: هو الميزان، صغيراً كان أو كبيراً.

قال * ع * : وسمعت أبي رحمه الله تعالى يقول: رأيت الواعظ أبا الفضل الجوهري رحمه الله في جامع عمرو بن العاص يعظ الناس في الوزن، فقال في جملة كلامه: إن في هيئة اليد بالميزان عظة، وذلك أن الأصابع يجيء منها صورة المكتوبة ألف ولا مان وهاء، فكان الميزان يقول: الله، الله.

قال * ع * : وهذا وعظ جميل، «والتأويل»، في هذه الآية المأل؛ قاله^(٩) قتادة،

(١) وحجتهم: قراءة عبد الله: «فلا تسرفوا في القتل». وحجة الباين: أن هذا الكلام أتى عقيب خبر عن غائب، وهو قوله: «من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً».

ينظر: «السبعة» (٣٨٠)، و«الحجة» (٩٨/٥ - ٩٩)، و«إعراب القراءات» (٣٧٢/١)، و«معاني القراءات» (٩٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٤٣٠/٤)، و«العنوان» (١١٩)، و«حجة القراءات» (٤٠٢)، و«شرح شعبة» (٤٦٣)، و«إتحاف» (١٩٧/٢).

(٢) ينظر: «الطبري» (٧٦/٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٣/٣).

(٤) ينظر: «الشواذ» ص: (٨٠)، و«الكشاف» (٦٦٥/٢)، و«المحرر الوجيز» (٤٥٣/٣)، و«البحر المحيط» (٣١/٦).

(٥) أخرجه الطبري (٧٩/٨) برقم: (٢٢٣٠٤)، وذكره البغوي (١١٤/٣)، وذكره ابن عطية (٤٥٥/٣)، والسيوطي في «الدرر المشورة» (٣٢٩/٤)، وعزاه لابن المنذر، عن الضحاك.

(٦) هو الميزان ذو الذراع الطويلة المقسمة أقساماً، ينقل عليها جسم ثقل يسمى الرمانة لتعين وزن ما يوزن. ينظر: «المعجم الوسيط» (٧٢٠).

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٥/٣).

(٨) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٥/٣).

(٩) أخرجه الطبري (٧٩/٨) برقم: (٢٢٣٠٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٥٥/٣)، وابن كثير في «تفسيره» =

ويحتمل أن يكون التأويل مصدر تأول، أي: يتأول عليكم الخير في جميع أموركم، إذا أحسستم الكيل والوزن.

وقال * ص * : ﴿تأويلاً﴾ أي: عاقبة انتهى.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦)
وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَجًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨)

وقوله سبحانه: ﴿ولا تقف﴾ معناه لا تقل ولا تتبع، واللفظة تستعمل في القذف؛ ومنه قول النبي ﷺ: «نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ لَا نَقْفُوا أَمْنًا، وَلَا نَنْتَفِي مِنْ أَيْمَانًا»، وأصل^(١) هذه اللفظة من اتباع الأثر، تقول: قَفَوْتُ الْأَثَرَ، وحكى الطبري^(٢) عن فرقة؛ أنها قالت: قَفَا وَقَافٌ، مثل عَثَا وَعَاثٌ، فمعنى الآية: ولا تتبع لسائلك من القول ما لا عِلْمَ لك به، وبالجمله: فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والمُرَدِيَّة.

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ عبّر عن هذه الحواس بـ ﴿أولئك﴾. لأن لها إدراكاً وجعلها في هذه الآية مسؤولة، فهي حالة مَنْ يعقل.

* ت * : قال * ص * : وما توهمه ابن عطية ﴿أولئك﴾ تختص بمن يعقل ليس كذلك؛ إذ لا خلاف بين النحاة في جواز إطلاق «أولاء» و «أولئك» على مَنْ لا يعقل.

* ت * : وقد نقل * ع * (٣) الجَوَازَ عن الزَّجَّاجِ وفي الْفَيْهَةِ ابنِ مالك: [الرجز]

وبأولَى أَشْرَ لَجَمْعٍ مُطْلَقًا (٤)

= (٣/٤٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٣٢٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/٨٧١) كتاب «الحدود» باب: من نفى رجلاً من قبيلة، حديث (٢٦١٢) من طريق عقيل بن طلحة، عن مسلم بن هيصم، عن الأشعث بن قيس قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة ولا يروني إلا أفضلهم فقلت: يا رسول الله أستم منا؟ فقال: فذكره، وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات؛ عقيل بن طلحة وثقه ابن معين والنسائي، وذكره ابن حبان في الثقات، وباقي رجال الإسناد على شرط مسلم.

(٢) ينظر: «الطبري» (٨/٨٠) بنحوه.

(٣) ينظر: «المحرم الوجيز» (٣/٤٥٦).

(٤) وبعده:

فقال ولده بدر الدين: أي سواء كان مذكراً أو مؤنثاً، وأكثر ما يستعمل فيمن يعقل،
٢٩١ ب وقد يجيء/ لغيره؛ كقوله: [الكامل]

ذُمَّ الْمَنَازِلُ بَعْدَ مَنَزِلَةِ اللَّوَى وَالْعَيْشُ بَعْدَ أَوْلِيكَ الْإِيَّامِ^(١)
وقد حكى^(٢) ع * * البيت، وقال: الرواية فيه «الأقوام»، والله أعلم انتهى.

والضمير في «عنه» يعود على ما ليس للإنسان به علم، ويكون المعنى: إن الله تعالى يسأل سَمْعَ الإنسان وبصره وفؤاده عما قال مما لا علم له به، فيقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي، ويحتمل أن يعود على «كل» التي هي السمع والبصر والفؤاد، والمعنى: إن الله تعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده.

قال صاحب «الكَلِمِ الْفَارِقَةِ»: لَا تَدْعُ جَذُولَ سِمْعِكَ يَجْرِي فِيهِ أَجَاجُ الْبَاطِلِ؛ فِيلْهَبُ بَاطِنُكَ بِنَارِ الْحِرْصِ عَلَى الْعَاجِلِ، السَّمْعُ قُمْعٌ تَغُورُ فِيهِ الْمَعَانِي الْمَسْمُوعَةُ إِلَى قَرَارِ وَعَاءِ الْقَلْبِ، فَإِنْ كَانَتْ شَرِيفَةً لَطِيفَةً، شَرَفَتْهُ وَلَطَفَتْهُ وَهَذَّبَتْهُ وَزَكَّتْهُ، وَإِنْ كَانَتْ رَذِيلَةً دَنِيَّةً، رَذَّلَتْهُ وَخَبَّثَتْهُ، وَكَذَلِكَ الْبَصَرُ مُنْقَذٌ مِنْ مَنَافِذِ الْقَلْبِ، فَالْحَوَاسُّ الْخَمْسُ كَالْجَدَاوِلِ وَالرَّوَاضِعِ

بِالْكَافِ حَزْناً دُونَ لَامٍ أَوْ مَعَةً وَاللَّامُ إِنْ قَدَّمْتَ «هـ» مُنْعِنَةً =
أي: يشار إلى الجمع - مذكراً كان أو مؤنثاً - بـ «أولى» ممدوداً أو مقصوراً، والمد أولى، لأنه لغة الحجاز، وبه جاء التنزيل، قال تعالى: «هأنتم أولاء تجبنهم» والقصر لغة تميم.
وأشار بقوله: «ولدى البعد انطقا...» إلخ: إلى أن المشار إليه له ربتان: قُرْبَى، وَبُعْدَى:
أما المرتبة القُرْبَى: فتكون بدون كاف الخطاب ولا م البعد، سواء مع «ها» التنبيه أو بدونها، تقول: (ذا - هذا)، و (ذي - هذي)، و (ذان - هذان)، و (تان - هاتان)، و (أولى - هولى)، و (أولاء - هؤلاء).
والمرتبة البُعْدَى: تكون بكاف الخطاب دون لام البعد أو معها، فإن جاءت معها اللام امتنعت «ها» التنبيه، وكنا إن تقدمت «ها» امتنعت اللام، وهذا ما أشار إليه الناظم بقوله: «واللام إن قدمت «ها» ممتنعة»، فتقول: (ذاك - هذاك - ذلك)، و (تيك - هاتيك - تلك)، وعلى ذلك قس، وعلى هذا قول طرفة [من الطويل]:

رَأَيْتُ بَنِي عَبْرَاءَ لَا يُشْكِرُونَنِي وَلَا أَهْلَ هَذَاكَ الطَّرَافِ الْمُمَدِّدِ

(١) البيت لجبرير في «ديوانه» ص: (٩٩٠)، وفيه «الأقوام» مكان «الأيام»، و«تخليص الشواهد» ص: (١٢٣)، و«خزانة الأدب» (٥/٤٣٠)، و«شرح التصريح» (١/١٢٨)، و«شرح شواهد الشافية» ص: (١٦٧)، و«شرح المفصل» (٩/١٢٩)، و«لسان العرب» (١٥/٤٣٧) (أولي)، و«المقاصد النحوية» (١/٤٠٨)، وبلا نسبة في «أوضح المسالك» (١/١٣٤)، و«شرح الأشموني» (١/٦٣)، و«شرح ابن عقيل» ص: (٧٢)، و«المقتضب» (١/٨٥).

واستشهد فيه بقوله: «أولئك الأيام» حيث أشار بـ «أولاء» إلى «الأيام» ممّا يدلّ على جواز الإشارة بـ «أولاء» إلى جمع غير العاقل. ويروى «الأقوام» مكان «الأيام»، ولا شاهد فيه حيثئذ.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٤٥٦).

تَرْضَعُ من أَثْدَاءِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَلَابَسُهَا، وتأخذ ما فيها من معانيها وأوصافها، وتؤدّيها إلى القلب وتنهيه. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قرأ الجمهور^(١) ﴿مَرَحًا﴾ بفتح الحاء مصدر: مَرَحَ يَمْرَحُ؛ إِذَا تَسَيَّبَ مَسْرُورًا بِدُنْيَاهُ، مَقْبَلًا عَلَى رَاحَتِهِ، فَتَهَيَّ الْإِنْسَانُ أَنْ يَكُونَ مَشِيهِ فِي الْأَرْضِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَقَرَأَتْ فِرْقَةٌ^(٢): ﴿مَرَحًا﴾ بكسر الراء، ثم قيل له: إِنَّكَ أَيُّهَا الْمَرِيحُ الْمُخْتَالُ الْفَخُورُ، لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ، وَلَنْ تَطَاوِلَ الْجِبَالَ بِفَخْرِكَ وَكِبْرِكَ، «وخرق الأرض» قَطَعَهَا وَمَسَحَهَا وَاسْتَيْفَاؤَهَا بِالْمَشْيِ.

وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ﴾ قرأ نافع وابن كثير^(٣) وأبو عمرو: «سَيِّئَةً» بالإشارة بذلك على هذه القراءة إلى ما تقدّم ذكره مما نهى عنه كقوله: ﴿أَفْ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقذف الناس، والمَرَح، وغير ذلك، وقرأ عاصم وابن عامر وحزمه والكسائي «سَيِّئُهُ» على إضافة «سَيِّئُهُ» إلى الضمير، فتكون الإشارة؛ على هذه القراءة إلى جميع ما ذَكَرَ في هذه الآيات؛ من بُرٍّ ومعصية، ثم اختص ذكر السَّيِّئِ منه، بأنه مكروه عند الله تعالى.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ (٣٩) أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا إِنَّكُم لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ...﴾ الآية: الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى هذه الآداب التي تَضُمَّتْهَا هذه الآيات المتقدمة، و﴿الحكمة﴾: قوانين المعاني المُحَكَّمَة، والأفعال الفاضلة.

* ت *: فينبغي للعاقل أن يتأدّب بآداب الشريعة، وأن يحسن العِشْرَة مع عبَادِ اللَّهِ، قال الإمام فَخْرُ الدِّينِ ابْنُ الْخَطِيبِ في «شرح أسماء الله الحسنى» كان بعضُ المشايخ يقول: مَجَامِعُ الْخَيْرَاتِ محصورة في أمرين صِدْقِ مَعَ الْحَقِّ، وَخُلُقِ مَعَ الْخَلْقِ انتهى، وذكر هشامُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرْطُبِيُّ في تاريخه المسمّى بـ «بهجة النفوس»، قال: دَخَلَ عَبْدُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٦/٣)، و«الدر المصون» (٣٩١/٤).

(٢) وقرأ بها يحيى بن يعمر. ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (٨٠)، و«المحرر الوجيز» (٤٥٧/٣)، و«البحر المحيط» (٣٤/٦)، و«الدر المصون» (٣٩١/٤).

(٣) وحجتهم فيما قال أبو عمرو: «ولا يكون فيما نهى الله عنه شيء حسن، فيكون سيئه مكروهاً». وينظر: «السبعة» (٣٨٠)، و«الهیجة» (١٠٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٣٧٣/١)، و«معاني القراءات» (٩٥/٢)، و«المعاني» (١٢٠)، و«شرح الطيبة» (٤٣١/٤)، و«حجة القراءات» (٤٠٣)، و«شرح شملة» (٤٦٣)، و«إتحاف» (١٩٧/٢).

١٢٩٢ الملك بْن مَرْوَانَ عَلَى معاوية، وعنده عَمْرُو بن العاصِ، فلم يَلْبَثْ أَنْ نَهَضَ، فقال معاوية/ لعَمْرُو: ما أَكْمَلَ مَرْوَةَ هذا الفتى! فقال له عمرو: إنه أخذ بأَخْلَاقٍ أَرْبَعَةٍ، وترك أخلاقاً ثَلَاثَةً، أخذ بأَحْسَنِ البشر إذا لقي، وبأَحْسَنِ الاستماع إذا حَدَّثَ، وبأَحْسَنِ الحديث إذا حَدَّثَ، وبأَحْسَنِ الرَّدِّ إذا خولِفَ، وترك مُزَاحَ من لا يُوثِقُ بعقله، وتركَ مَخَالِطَةَ لُثَامِ النَّاسِ، وتركَ مِنَ الحديثِ ما يُعْتَذَرُ منه. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر...﴾ الآية: خطابٌ للنبي ﷺ، والمراد غيره، «والمدحور» المهان المُبْعَدُ.

وقوله سبحانه: ﴿أفأصفاكم...﴾ الآية خطابٌ للعرب، وتشنيعٌ عليهم فسادَ قولهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَبِغُوا إِلَٰهِي الْغَرَسِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ نُسِخَ لَهُ السَّمُوتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسِخَّرُ بِهِمْ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ نَسِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا عَفُورًا﴾ (٤٤)

وقوله سبحانه: ﴿ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليزكروا﴾، أي صرّفنا فيه الحِكمَ والمواعظ.

وقوله سبحانه: ﴿إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قال سعيد بن جبّير وغيره: معنى الكلام: لَا تَبْتَغُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا فِي إِفْسَادِ مُلْكِهِ وَمُضَاهَاةِ فِي قُدْرَتِهِ^(١)، وعلى هذا: فالآية بيان للتمانع، وجارية مع قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قال * ع^(٢): * ونقتضب شيئاً من الدليل على أنه لا يجوز أن يكون مع الله تبارك وتعالى إلهٌ غيره؛ على ما قال أبو المعالي وغيره: أنا لو فَرَضْنَاهُ، لَفَرَضْنَا أَنْ يَرِيدَ أَحَدُهُمَا تَسْكِينَ جِسْمٍ وَالْآخَرَ تَحْرِيكَهُ، وَمُسْتَحِيلٌ أَنْ تَنْفِذَ الْإِرَادَتَانِ وَمُسْتَحِيلٌ أَلَّا تَنْفِذَا جَمِيعًا، فَيَكُونُ الْجِسْمُ لَا مَتَحَرِّكًا، وَلَا سَاكِنًا، فَإِنْ صَحَّتْ إِرَادَةُ أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ، فَالَّذِي لَمْ تَتَمَّ إِرَادَتُهُ لَيْسَ بِإِلَهِ، فَإِنْ قِيلَ: نَفَرُضُهُمَا لَا يَخْتَلِفَانِ، قُلْنَا: اخْتِلَافُهُمَا جَائِزٌ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ عَقْلًا، وَالْجَائِزُ فِي حُكْمِ الْوَاقِعِ، وَدَلِيلٌ آخَرُ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْإِثْنَانِ، لَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ يَكُونُوا ثَلَاثَةً، وَكَذَلِكَ وَيَتَسَلَّلُ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، وَدَلِيلٌ آخَرُ: أَنَّ الْجُزْءَ الَّذِي لَا يَتَجَزَأُ مِنَ الْمَخْتَرَعَاتِ لَا تَعَلُّقَ بِهِ إِلَّا قُدْرَةً وَاحِدَةً لَا يَصْحُحُ فِيهَا أَشْتِرَاكٌ، وَالْآخَرُ كَذَلِكَ ذَبَابًا، فَكُلُّ جُزْءٍ إِنَّمَا يَخْتَرَعُهُ

(١) ذكره ابن عطية (٤٥٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٣١/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٩).

واحد، وهذه نبذة شرحها بحسبِ التقصي يطول.

وقوله سبحانه: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده...﴾ الآية: اختلف في هذا «التسبيح»، هل هو حقيقة أو مجاز، * ت * : والصواب أنه حقيقة، ولولا خشية الإطالة، لأننا من الدلائل على ذلك بما يُتلج له الصدر.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ٤٦ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ٤٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني كفار مكة و﴿حجاباً مستوراً﴾ يحتمل أن يريد به حماية نبيه منهم وقت قراءته وصلاته بالمسجد الحرام؛ كما هو معلوم مشهور ويحتمل أنه أراد أنه جعل بين فهم الكفرة وبين فهم ما يقرؤه ﷺ حجاباً، فالآية على هذا التأويل: في معنى التي بعدها.

وقال الواحدي: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ...﴾ الآية: نزلت في قوم كانوا يؤذون النبي ﷺ، إذا قرأ القرآن فحجبه الله عن أعينهم عند قراءة القرآن، حتى يكونوا يَمُرُّونَ به ولا يَرَوْنَهُ.

وقوله: ﴿مستوراً﴾ معناه: ساتراً انتهى.

«والأكِنَّة» جمع كِنَّان، وهو ما غطى الشيء، «والوَقْرُ»: الثقل في الأذن، المانع/ من ٢٩٢ ب السمع، وهذه كلها استعارات للإضلال الذي حَقَّهم الله به.

وقوله سبحانه: ﴿نحن أعلم بما يستمعون به...﴾ الآية: هذا كما تقول: فلان يستمع بإعراض وتغافل واستخفاف، «وما» بمعنى «الذي»، قيل: المراد بقوله: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجَوى﴾ اجتماعهم في دار الندوة، ثم انتشرت عنهم.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ٤٨﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا لَمَجْعُونُ خَلْقًا جَدِيدًا ٤٩ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْزِلُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُوكَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ٥١﴾

وقوله سبحانه: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال...﴾ الآية: حكى الطبري^(١) أنها

نزلت في الوليد بن المُغيرة وأصحابه.

وقوله سبحانه: ﴿فَلا يَستطيعون سبيلاً﴾، أي: إلى إفساد أمرِك وإطفاء نورِك، وقولهم: ﴿أَذا كُنا عظاماً ورفاتاً﴾ الآية في إنكارهم البعث، وهذا منهم تعجب وإنكار وأستبعاد و«الرفات» من الأشياء: ما مرَّ عليه الزمان حتى بلغ غاية البلى، وقربه من حالة التراب.

وقال ابن عباس: ﴿رُفَاتاً﴾ غباراً^(١) وقال مجاهد: تُراباً^(٢)، وقوله سبحانه: ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً...﴾ الآية: المعنى: قل لهم، يا محمد، كونوا إن استطعتم هذه الأشياء الصعبة الممتنعة التآني لا بُدَّ من بعثكم، ثم احتج عليهم سبحانه في الإعادة بالفطرة الأولى من حيث خلقهم وأخترأهم من تراب.

وقوله سبحانه: ﴿فَسينغصون﴾ معناه يرفعون ويخفصون، يريد على جهة التكذيب والاستهزاء. قال الزجاج: وهو^(٣) تحريك مَنْ يبطل الشيء وَيَسْتَبْطِئُهُ ومنه قول الشاعر:

[الرجز]

أَنقَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئاً أَطْمَعَا^(٤)
ويقال: أَنْغَضَتِ السَّنُ؛ إِذَا تَحَرَّكَتْ، قال الطبري^(٥) وابنُ سَلامٍ: ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، فالمعنى: هو قريب، وفي ضمن اللفظ توعد.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّيْنَتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾: بدل من قوله: ﴿قريباً﴾ ويظهر أن يكون المعنى «هو يَوْمٌ» جواباً لقولهم: «متى هو»، ويريد يدعوكم من قبوركم بالنفخ في الصور لقيام الساعة.

وقوله: ﴿فتستجيون﴾، أي: بالقيام، والعودة والنهوض نحو الدعوة.

(١) أخرجه الطبري (٨٩/٨) برقم: (٢٢٣٤٧)، وذكره ابن عطية (٤٦٢/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٤٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٣٩/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٨٨/٨) برقم: (٢٢٣٤٥)، وذكره البغوي (١١٨/٣)، وذكره ابن عطية (٤٦٢/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٤٤/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٣٩/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٢٤٥/٣).

(٤) البيت من شواهد: «المحرر الوجيز» (٤٥٢/٣).

(٥) ينظر: «الطبري» (٩٢/٨).

وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ قال ابن جُبَيْر: إن جميع العالمين يقومون، وهم يَحْمَدُونَ اللَّهَ ويمَجِّدونه، لما يظهر لهم مِنْ قُدْرَتِهِ^(١) * ص * : أبو البقاء ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي: حامدين، وقيل: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ من قول الرسول، أي: وذلك بحمد الله على صدقِ خَبَرِي، ووقع في لفظ * ع * حين قرر هذا المعنى: «عَسَى أن الساعة قريبة» وهو تركيب لا يجوز؛ لا تقول: عَسَى أن زيدا قائم انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ يحتمل معنيين.

أحدهما: أنهم لما رجعوا إلى حالة الحياة، وتصرف الأجساد، وقع لهم ظن أنهم لم ينفصلوا عن حال الدنيا إلا قليلاً لمغيبِ عِلْم مقدار الزمان عنهم؛ إذ مَنْ في الآخرة لا يقدر زمن الدنيا؛ إذ هم لا محالة أشد مفارقة لها من النائمين، وعلى هذا التأويل عوّل الطبري^(٢).

والآخر: أن يكون الظن بمعنى اليقين، فكأنه قال: يوم يدعوكم فتستجيبون بِحَمْدِهِ، وتيقنون أنكم إنما لبثتم قليلاً من حيث هو منقضى منحصراً.

وحكى الطبري عن قتادة أنهم لما رأوا هول يوم القيامة، احتقروا/ الدنيا، فظنوا أنهم ١٢٩٣ لبثوا فيها قليلاً^(٣).

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ۝٥٣ زُكْرٌ أَعْلَمُ يَكُونُ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۝٥٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ اختلف الناس في ﴿التي هي أحسن﴾: فقالت فرقة: هي لا إله إلا الله؛ وعلى هذا، ف«العباد»: جميعُ الخلق، وقال الجمهور ﴿التي هي أحسن﴾: هي المحاوراة الحسنة، بحسب معنى معنى، قال الحسن يقول: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، يَرْحَمُكَ اللَّهُ^(٤) وقوله: ﴿لعبادي﴾ خاص بالمؤمنين، قالت فرقة: أمر

(١) ذكره ابن عطية (٤٦٣/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٣٩/٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «الطبري» (١٠٣/٨).

(٣) أخرجه الطبري (٩٣/٨) برقم: (٢٢٣٦٩)، وذكره البغوي (١١٩/٣)، وابن عطية (٤٦٣/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٩٣/٨) برقم: (٢٢٣٧٠)، وذكره البغوي (١١٩/٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٤) (٤٦٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٠/٤)، وعزاه لابن جرير.

الله المؤمنين فيما بينهم بخسن الأدب، وخفض الجناح، وإلانة القول، وأطراح نزعات الشيطان، ومعنى التزُّع: حركات الشيطان بسُرعة؛ ليوْجب فساداً، وعداوة الشيطان البيئة: هي من قصة آدم عليه السلام، فما بعد، وقالت فرقة: إنما أمر الله في هذه الآية المؤمنين بإلانة القول للمشرّكين بمكة أيام المُهادنة، ثم نُسخَت بآية السيف.

وقوله سبحانه: ﴿ربكم أعلم بكم﴾: يقوِّي هذا التأويل؛ إذ هو مخاطبة لكفار مكة؛ بدليل قوله: ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلًا﴾ فكان الله عز وجل أمر المؤمنين ألا يخاشنوا الكفار في الدين، ثم قال للكفار إنه أعلم بهم ورجاهم وخوفهم، ومعنى ﴿يزحّمكم﴾ بالتوبة عليكم من الكفر؛ قاله ابن جريج وغيره^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وأتينا داود زبورًا﴾ قرأ الجمهور^(٢): «زبوراً» بفتح الزاي، وهو قُؤل بمعنى مفعول، وهو قليل؛ لم يَجِء إلا في قُدُوع وَرُكُوب وَخُلُوب، وقرأ حمزة^(٣): بضم الزاي قال قتادة: زبور داود موعظ ودعاء، وليس فيه حلال ولا حرام^(٤).

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧ وَإِنْ مِنْ قَرْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ هذه الآية ليست في عبدة الأصنام، وإنما هي في عبدة مَنْ يعقل، كعبسى وأمه وعزير وغيرهم. قاله ابن عباس^(٥)، فلا يملكون كشف الضر ولا تحويله، ثم أخبر تعالى،

(١) أخرجه الطبري (٩٣/٣) برقم: (٢٢٣٧١)، وذكره البغوي (١١٩/٣)، وابن عطية (٤٦٤/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٥/٣).

(٣) وقرأ بها يحيى والأعمش. ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٥/٣)، و«السبعة» (٣٨٢)، و«الحجة» (٥/١٠٨)، و«إعراب القراءات» (٣٧٦/١)، و«العنوان» (١٢٠)، و«إنحاف» (٢٠٠/٢).

(٤) ذكره ابن عطية (٤٦٥/٣) والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٩٦/٨) برقم (٢٢٣٨٥)، وذكره البغوي (١٢٠/٣)، وابن عطية (٤٦٥/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٣/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

أَنْ هَؤُلَاءِ الْمَعْبُودِينَ يَطْلُبُونَ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ وَالتَّزَلُّفَ إِلَيْهِ، وَأَنَّ هَذِهِ حَقِيقَةُ حَالِهِمْ.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ...﴾ الآية: قال عز الدين بن عبد السلام، في اختصاره لـ «رعاية المحاسبي»: الخوف والرجاء: وسيلتان إلى فعل الواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، ولكن لا بد من الإكباب على استحضار ذلك وأستدامته في أكثر الأوقات؛ حتى يصير الثواب والعقاب نُصْبَ عينيه، فيَحْتِثَاهُ على فعل الطاعات، وترك المخالفات، ولَنْ يحصلَ له ذلك إلا بتفريغ القلب من كل شيء سوى ما يفكر فيه، أو يعينه على الفكر، وقد مثل القلب المريض بالشهوات بالشوب المتسخ الذي لا تزول أدرانته إلا بتكرير غسله وحثه وقرضه، انتهى. وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه: ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها...﴾ الآية: أخبر سبحانه في هذه الآية أنه ليس مدينة من المدن إلا هي هالكة قبل يوم القيامة بالموت والفناء، هذا مع السلامة وأخذها جزءاً جزءاً، أو هي معذبة مأخوذة مرة واحدة.

/ وقوله: ﴿في الكتاب﴾: يريد في سابق القضاء، وما خطه القلم في اللوح ٢٩٣ ب المحفوظ، «والمسطور»: المكتوب أسطراً.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآلَيْنَا نُمُودَ الْآفَاقَةِ مُبِيرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَعْوِيفًا ٥٩﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات...﴾ الآية: هذه العبارة في «منعنا» هي على ظاهر ما تفهم العرب، فسمى سبحانه سبق قضائه بتكذيب من كذب وتعذيبه - منعاً؛ وسبب هذه الآية أن قريشاً اقترحوا على النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، ونحو هذا من الاقتراحات، فأوحى الله إلى نبيه عليه السلام: إن شئت أفعَلْ لهم ذلك، ثم إن لم يؤمنوا، عاجلتهم بالعقوبة، وإن شئت، استأنيت بهم؛ عسى أن أجتبي منهم مؤمنين، فقال عليه السلام: بَلِ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ يَا رَبِّ (١)، فأخبر سبحانه في هذه الآية؛ أنه لم يمنعه جلّ وعلاً من إرسال الآيات المقترحة إلا الاستثناء؛ إذ قد سلفت عادته سبحانه بمعالجة الأمم الذين

(١) أخرجه أحمد (٢٥٨/١)، والنسائي في «الكبرى» (٣٨٠/٦) كتاب «التفسير» باب: قوله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات﴾، حديث (١١٢٩٠)، والطبري في «تفسيره» (٧٤/١٥)، والحاكم (٣٦٢/٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢٧١/٢) من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٤/٤)، وزاد نسبه إلى البزار وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه.

جاءتهم الآيات المقترحة، فلم يؤمنوا كشمود وغيرهم. قال الزجاج^(١): أخبر تعالى أن موعد كفار هذه الأمة الساعة؛ بقوله سبحانه: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] فهذه الآية تنظر إلى ذلك، و﴿مبصرة﴾ أي: ذات إبصار وهي عبارة عن بيان أمر الناقة، ووضوح إعجازها، وقوله: ﴿فظلموا بها﴾، أي: يعقرها، وبالكفر في أمرها، ثم أخبر تعالى أنه إنما يرسل بالآيات غير المُفترحة؛ تخويفاً للعباد، وهي آيات معها إمهال، فمن ذلك الكُشوف والرغد والزلزلة وقوس قزح، وغير ذلك، وآيات الله المعبر بها ثلاثة أقسام: فقسم عام في كل شيء، إذ حيث ما وضعت نظرك، وجدت آية، وهنا فكرة للعلماء، وقسم معتاد غالباً؛ كالكُشوف ونحوه، وهنا فكرة الجهلة، وقسم خارق للعادة، وقد انقضى بانقضاء النبوة، وإنما يعتبر به، توهماً لما سلف منه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا أَرْثِيَا إِلَهَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفُوهُمْ فَمَا يُرِيدُهُمْ إِلَّا لُغْيُنًا كَبِيرًا﴾ (٦٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (٦١) ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٢) ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ كُلِّ مَوْفُورٍ﴾ (٦٣) ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَلْجِبُ عَلَيْهِمْ بِحَبْلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٦٤) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (٦٥)

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ هذه الآية إخبار للنبي ﷺ بأنه محفوظ من الكفرة آمين، أي: قلنبلغ رسالة ربك، ولا تهيب أحداً من المخلوقين؛ قاله الطبري^(٢)؛ ونحوه للحسن^(٣) والسدي.

وقوله سبحانه: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك...﴾ الآية: الجمهور أن هذه الرؤيا رؤيا عين وبقظة، وذلك أن النبي ﷺ لما كان صبيحة الإسراء، وأخبر بما رأى في تلك الليلة من العجائب، قال الكفار: إن هذا لعجب، وأستبعدوا ذلك؛ فأفتتن بهذا قوم من ضعة المسلمين؛ فارتدوا؛ وشق ذلك على النبي ﷺ؛ فتزلت هذه الآية؛ فعلى هذا يحسن

(١) ينظر: «تفسير الزجاج» (٣/٢٤٧).

(٢) ينظر: «الطبري» (٨/١٠٠).

(٣) أخرجه الطبري (٨/١٠٠) برقم: (٢٢٤٠٨)، وذكره ابن عطية (٣/٤٦٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٣٤٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

١٢٩٤ أن يكون معنى قوله: ﴿أحاط بالناس﴾ في إضلالهم وهدايتهم، أي: فلا تهتم، يا محمد، بكفر من كفر، وقال ابن عباس: الرؤيا في هذه الآية هي رؤيا النبي ﷺ أنه يدخل مكة، فعجل في سنة الحديبية، فصد فافتتن المسلمون لذلك، يعني بعضهم، وليس بفتنة كُفر^(١).

وقوله: ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ معطوفة على قوله: ﴿الرؤيا﴾، أي جعلنا الرؤيا والشجرة فتنة ﴿والشجرة الملعونة﴾؛ في قول الجمهور: هي شجرة الزقوم، وذلك أن أمرها لما نزل في سورة «الصافات» قال أبو جهل وغيره: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تثبت الشجر، والنار تاكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، ثم أحضر تمرًا وزبدًا، وقال لأصحابه، تزقّموا، فافتتن أيضاً بهذه المقالة بغض الضعفاء، قال الطبري عن^(٢) ابن عباس: أن الشجرة الملعونة، يريد الملعون أكلها؛ لأنها لم يجز لها ذكر^(٣).

قال * ع *^(٤) ويصح أن يريد الملعونة هنا، فأكد الأمر بقوله: ﴿في القرآن﴾، وقالت فرقة: ﴿الملعونة﴾، أي: المبعدة المكروهة، وهذا قريب في المعنى من الذي قبله، ولا شك أن ما ينبت في أصل الجحيم هو في نهاية البعد من رحمة الله سبحانه. وقوله سبحانه: ﴿ونخوفهم﴾ يريد كفار مكة.

وقوله: ﴿أرايتك هذا الذي كرمت علي﴾ الكاف في «أرايتك» هي كاف خطاب ومبالغة في التنبيه، لا موضع لها من الإعراب، فهي زائدة، ومعنى «أرايت»: أتأملت ونحوه، كأن المخاطب بها ينبه المخاطب ليستجمع لما ينصه بغد.

وقوله: ﴿لأحتنكن﴾ معناه لأميلن ولأجرن، وهو مأخوذ من تخنيك الدابة، وهو أن يشد على حنكها بحبل أو غيره، فتقاد، والسنة تخنيك المال، أي: تجتره، وقال الطبري^(٥) «لأحتنكن» معناه لأستأصلن، وعن ابن عباس: لأستولين^(٦)، وقال ابن زيد^(٧): لأضلن.

(١) أخرجه الطبري (١٠٣/٨) برقم: (٢٢٤٣٣)، وذكره ابن عطية (٤٦٨/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٦/٤)، وعزاه لابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث».

(٢) ينظر: «الطبري» (١٠٣/٨).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٦٨/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٨/٣).

(٥) ينظر: «الطبري» (١٠٧/٨).

(٦) أخرجه الطبري (١٠٧/٨) برقم: (٢٢٤٦١)، وذكره ابن عطية (٤٧٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٤٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٧/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٧) أخرجه الطبري (١٠٧/٨) برقم: (٢٢٤٦٢)، وذكره ابن عطية (٤٧٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ =

قال * ع *^(١) وهذا بدل اللفظ، لا تفسير.

وقوله: ﴿اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، وما بعده من الأوامر: هي صيغة «افْعَلْ» بمعنى التهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] «الموفور»، المُكْمَل، ﴿وَأَسْتَفْزِزْ﴾ معناه: أَسْتَخِفُّ وَأَخْذَعُ، وقوله: ﴿بِصَوْتِكَ﴾: قيل: هو الغِنَاء والمزامير والمَلَاهِي، لأنها أصواتٌ كُلُّهَا مختصة بالمعاصي، فهي مضافةٌ إلى الشيطان، قاله مجاهد^(٢)، وقيل: بدعائك إياهم إلى طاعتك. قال ابن عباس: صوته دعاء كُلِّ مَنْ دعا إلى معصية^(٣) الله، والصوابُ أن يكون الصوتُ يعمُّ جميع ذلك.

وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ﴾، أي: هَوِّلْ، و«الجَلْبَة» الصوتُ الكثير المختلطُ الهائل.

وقوله: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾ قيل: هذا مجازٌ وأستعارة بمعنى اسع سعيك، وابلغ جهدك، وقيل: حقيقة وإن له خيلاً وَرَجُلًا من الجنِّ، قاله^(٤) قتادة، وقيل: المراد فرسان الناس، ورجالتهم المتصرفون في الباطل، فإنهم كلهم أعوان لإبليس على غيرهم^(٥)؛ قاله مجاهد.

٢٩٤ - ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ عامٌّ لكل معصية يصنعها الناس بالمال، ولكل ما يصنع في أمر الذرية من المعاصي، كالإيلاد بالزنا وكتسميتهم عَبْدَ شَمْسٍ، وأبا الكُوَيْفَرِ، وَعَبْدَ الْحَارِثِ، وكلُّ اسمٍ مكروه؛ ومن ذلك: وأد البنات؛ ومن ذلك: صبغهم في أديان الكفر، وغير هذا، وما أدخله الثَّقَاش من وطء الجنِّ، وأنه يُخْبِلُ المرأةَ من الإنس، فضعيفٌ كُلُّهُ.

* ت * : أما ما ذكره من الحبل، فلا شك في ضَعْفِهِ، وفسادِ قولِ ناقله، ولم أر في ذلك حديثاً لا صحيحاً ولا سقيماً، ولو أمكن أن يكون الحَبْلُ من الجنِّ، كما زعم ناقله،

= (٤٩)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٤٧/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم. (١) ينظر: «المحرر» (٤٧٠/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٠٨/٨) برقم: (٢٢٤٦٦)، وذكره البغوي (١٢٣/٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٩/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٤٨/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي الدنيا في «ذم الملاحي» وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١٠٨/٨) برقم (٢٢٤٦٨)، وذكره البغوي (١٢٣/٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٩/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٤٨/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (١٠٨/٨) برقم: (٢٢٤٧١)، وذكره البغوي (١٢٣/٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٠/٣)، وذكره ابن كثير (٤٩/٣).

(٥) أخرجه الطبري (١٠٩/٨) برقم: (٢٢٤٧٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٧٠/٣).

لكان ذلك شُبْهَةً يَدْرَأُ بِهَا الْحَدَّ عَمَّنْ ظَهَرَ بِهَا حَبْلٌ مِنَ النِّسَاءِ اللّوَاتِي لَا أَزْوَاجَ لَهُنَّ؛ لَأَحْتِمَالُ أَنْ يَكُونَ حَبْلُهَا مِنَ الْجَنِّ؛ كَمَا زَعَمَ هَذَا الْقَائِلُ، وَهُوَ بَاطِلٌ، وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْوُطْءِ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ؛ وَظَوَاهِرُ الْأَحَادِيثِ تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَقَدْ خَرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرُ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا»^(١) فظاهر قوله عليه السلام: «اللَّهُمَّ، جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا» - يقتضي أن لهذا اللعين مشاركةً ما في هذا الشأن، وقد سمعتُ من شيخنا أبي الحسن علي بن عثمان الزَّوَاوِيِّ الْمَاجِلَاتِيِّ سَيِّدِ عُلَمَاءِ بَجَايَةِ فِي وَقْتِهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي بَعْضُ النَّاسِ مِمَّنْ يُوَثِّقُ بِهِ يَخْبِرُ عَنْ زَوْجَتِهِ؛ أَنَّهَا تَجِدُ هَذَا الْأَمْرَ، قَالَ الْمَخْبِرُ: وَأَضَعَيْتُ إِلَى مَا أَخْبَرْتُ بِهِ الزَّوْجَةَ، فَسَمِعْتُ حِسَّ ذَلِكَ الشَّيْءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَجِيماً ۝٦٦﴾
 وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا فَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝٦٧﴾
 أَقَامْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَابِ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨﴾
 أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيًّا ۝٦٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر﴾: إزجاء الفلك: سَوَّقه بالرياح اللينة والمجاذيف، و﴿لتبتغوا من فضله﴾ لفظ يعُمُّ التَّجَرُّ وغيره، وهذه الآية المباركة

(١) أخرجه البخاري (٢٩١/١) كتاب «الوضوء» باب: التسمية على كل حال وعند الوقاع، حديث (١٤١)، وفي (٣٨٨/٦) كتاب «بدء الخلق» باب: صفة إبليس، وجنوده، حديث (٣٢٨٣)، وفي (١٣٦/٩) كتاب «النكاح» باب: ما يقول الرجل إذا أتى أهله، حديث (٥١٦٥)، وفي (١٩٥/١٠) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا أتى أهله، حديث (٦٣٨٨)، وفي (٣٩٠/١٣ - ٣٩١)، كتاب «الترجيد» باب: السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، حديث (٧٣٩٦)، ومسلم (١٠٥٨/٢) كتاب «النكاح» باب: ما يستحب أن يقوله عند الجماع، حديث (١٤٣٤/١٦)، وأبو داود (٦٥٥/٢) كتاب «النكاح» باب: في جامع النكاح، حديث (٢١٦١)، والتِّرْمِذِيُّ (٣٩٢/٣) كتاب «النكاح» باب: ما يقول إذا دخل على أهله، حديث (١٠٩٢)، والنَّسَائِيُّ فِي «الكبرى» (٧٥/٦) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول إذا وقع أهله، وابن ماجه (٦١٨/١) كتاب «النكاح» باب: ما يقول الرجل إذا دخلت عليه أهله، حديث (١٩١٩)، وأحمد (٢١٧/١)، ٢٢٠، ٢٤٣، ٢٨٣، ٢٨٦، وابن أبي شيبة (٣٩٤/١٠)، وعبد الرزاق (١٩٤/٦) رقم: (١٠٤٦٦)، وابن حبان (٩٨٤ - الإحسان)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٣/٣ - بتحقيقنا). كلهم من طريق كريب، عن ابن عباس مرفوعاً.
 وقال التِّرْمِذِيُّ: هذا حديث حسن صحيح.

توقيفٌ على آلاء الله وَفَضْلِهِ ورحمته بعباده، و﴿الضُرُّ﴾، هنا لفظ يعُمُّ الغرق وغيره، وأحوال حالات البحر وأضطرابه وتموجه، و﴿ضَلَّ﴾ معناه تلف وفقد.

وقوله: ﴿أعرضتم﴾، أي: فلم تفكروا في جميل صنع الله بكم.

وقوله: ﴿كفوراً﴾ أي: بالنعم و﴿الإنسان﴾؛ هنا: الجنس، و﴿الحاصب﴾: العارض الرامي بالبرد والحجارة؛ ومنه الحاصب الذي أصاب قوم لوط، و﴿الحَضْبُ﴾ الرمي بالحِصْبَاءِ، و﴿القاصف﴾: الذي يَكْسِرُ كُلَّ مَا يَلْقَى وَيَقْصِفُهُ، و﴿تارة﴾ معناه: مرة أخرى، و﴿التبّع﴾ الذي يطلب ثأراً أو ديناً؛ ومن هذه اللفظة قوله ﷺ: «إِذَا أَتَبَعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيٍّ فَلْيَتَّبِعْ» فالمعنى: لا تجدون مَنْ يَتَّبِعْ فعلنا بكم، ويطلب نُصْرَتَكُمْ وهذه الآيات أنوارها واضحة للمهتدين.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَفَعْنَاهُمْ مِنْ أَطْلَافِنَا وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْيَامِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِسَيِّئِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُطْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧١ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ إِلَيْكَ لَيَفْتِنَ عَلَيْكَ غَيْرُهُ وَإِذَا تَلَّعْتُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾

وقوله جلَّتْ عظمته ﴿ولقد كرّمنا بني آدم...﴾ الآية: عدّد الله سبحانه على بني آدم ما خصّهم به من المزايا من بين سائر الحيوان، ومن أفضل ما أكرّم به الأدميَّ / العقل الذي به يعرف الله تعالى، ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه.

وقوله سبحانه: ﴿على كثير ممن خلقنا﴾ المراد بـ«الكثير المفضل» الحيوان والجن، وأما الملائكة، فهم الخارجون عن الكثير المفضل، وليس في الآية ما يقتضي أن الملائكة أفضل من الإنس؛ كما زعمت فرقة؛ بل الأمر محتمل أن يكونوا أفضل من الإنس، ويحتمل التساوي.

وقوله سبحانه: ﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم﴾ يحتمل أن يريد باسم إمامهم، فيقول: يا أمة محمد، ويا أتباع فزعون، ونحو هذا، ويحتمل أن يريد: مع إمامهم أن تجيء كل أمة معها إمامها من هادٍ ومضلّ، واختلف في «الإمام»، فقال ابن عباس والحسن: كتابهم الذي فيه أعمالهم^(١)، وقال قتادة ومجاهد: نبيهم^(٢)، وقال ابن زيد: كتابهم الذي

(١) أخرجه الطبري (١١٦/٨) برقم: (٢٢٥٢١)، ويرقم: (٢٢٥٢٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٣/٣)،

وابن كثير في «تفسيره» (٥٢/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥١/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (١١٥/٨) برقم: (٢٢٥١٥)، ويرقم: (٢٢٥١٩)، وذكره البغوي (١٢٥/٣)، =

نَزَلَ عَلَيْهِمْ^(١)، وقالت فرقة: مَتَّبِعُهُمْ مِنْ هَادٍ أَوْ مُضِلٍّ، ولفظة «الإمام» تعمُّ هذا كله.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَوَّاهٍ بِمِيقَاتِهِ﴾: حقيقة في أن في القيامة صحائف تطاير، وتوضع في الأيمان لأهل الأيمان، وفي الشمائل لأهل الكفر والخذلان، وتوضع في أيمان المذنبين الذين يَنفُذُ عليهم الوعيد، فيستفيدون منها أنهم غَيْرُ مَخْلُدين في النار.

وقوله سبحانه: ﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾: عبارة عن السرور بها، أي: يردُّونها ويتأملونها.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: ولا أقل، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: الإشارة بـ ﴿هَذِهِ﴾ إلى الدنيا، أي: مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدَّارِ أَعْمَى عن النظر في آيات الله وعبره، والإيمان بأنبياؤه^(٢)، فهو في الآخرة أعمى؛ على معنى أنه حيران لا يتوجَّه لصواب ولا يلوخ له نُجْحٌ. قال مجاهد: فهو في الآخرة أعمى عن حُجَّتِهِ^(٣)، ويحتمل أن يكون صفة تفضيل، أي: أشدُّ عمى وحيرة؛ لأنه قد باشر الحَيَّةَ ورأى مخايل العذاب؛ ويقوِّي هذا التأويل قوله، عطفاً عليه: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الذي هو «أَفْعَلُ مِنْ كَذَا» والعمى في هذه الآية هو عمى القلب، وقول سيبويه: لا يقال أعمى مِنْ كَذَا، إنما هو في عمى العين الذي لا تفاضل فيه، وأما في عمى القلب، فيقال ذلك؛ لأنه يقع فيه التفاضل * ت * : وكذا قال * ص * وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتَنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ...﴾ الآية: الضمير في قوله: ﴿كَادُوا﴾ هو لقريش، وقيل: لثقيف، فأما لقريش، فقال ابن جبير ومجاهد: نزلت الآية، لأنهم قالوا للنبي ﷺ لَا نَدْعُكَ تَسْتَلِمُ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ حَتَّى تَمَسَّ أَيْضاً أَوْثَانَنَا عَلَى مَعْنَى التَّشْرِعِ^(٤)، وقال ابن إسحاق وغيره: إنهم اجتمعوا إليه ليلة، فعظموه، وقالوا له: أَنْتَ سَيِّدُنَا، ولكنْ أَقْبِلْ عَلَى بَعْضِ أَمْرِنَا، وَثَقِّلْ عَلَى بَعْضِ أَمْرِكَ، فنزلت الآية في ذلك^(٥).

= وابن عطية (٤٧٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(١) أخرجه الطبري (١١٦/٨) برقم: ٢٢٥٢٦، وذكره ابن عطية (٤٧٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٢).

(٢) أخرجه الطبري (١١٧/٨) برقم: (٢٢٥٣٠)، وذكره ابن عطية (٤٧٤/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٢/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري (١١٨/٨) برقم: (٢٢٥٣٥)، وذكره ابن عطية (٤٧٤/٣).

(٤) أخرجه الطبري (١١٨/٨) برقم: (٢٢٥٣٦)، وذكره البغوي (١٢٦/٣)، وابن عطية (٤٧٥/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٢/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره ابن عطية (٤٧٥/٣).

قال * ع *^(١): فهي في معنى قوله: ﴿وَذُؤَا لُؤُ تَذْهُنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، وأما لثقيف، فقال ابن عباس وغيره: لأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يؤخرهم بعد إسلامهم سنة يعبدون فيها اللات، وقالوا: إنما نريد أن نأخذ ما يُهدى لها ولكن إن خفت أن تنكر / ذلك عليك العرب، فقل: أَوْحَى اللَّهُ ذَلِكَ إِلَيَّ، فنزلت الآية في ذلك^(٢). * ت ٢٩٥ *: واللّه أعلم بصحة هذه التأويلات، وقد تقدّم ما يجب اعتقاده في حقّ النبي ﷺ، فالتزمه تفلّخ.

وقوله: ﴿وَإِذَا لَاتَخْذُوكَ خَلِيلًا﴾: توقيف على ما نجاه الله منه من مخالّة الكفار، والولاية لهم.

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٦) إِذَا لَادَفْتْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا (٧٥) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ...﴾ الآية تعدّد نعمه على النبي ﷺ، وروي أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية، قال: «اللَّهُمَّ، لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ» وقرأ الجمهور^(٤) (تركن) بفتح الكاف، والنبي ﷺ لم يركن، لكنّه كاد بحسب همّه بموافقتهم؛ طمعاً منه في استئلافهم، وذهب ابن الأنباري إلى أن معنى الآية: لقد كادوا أن يخبروا عنك أنك ركنت ونحو هذا؛ ذهب في ذلك إلى نفى الهمّ عن النبي ﷺ، فحمل اللفظ ما لا يحتمل؛ وقوله: ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ يبطل ذلك.

* ت *: وجزى الله ابن الأنباري خيراً، وإن تنزیه سائر الأنبياء لواجب، فكيف سيّد ولد آدم صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

قال أبو الفضل عياض في «الشفا»: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾: قال بعض المتكلمين: عاتب الله تعالى نبينا عليه السلام قبل وقوع ما يوجب العتاب؛ ليكون بذلك أشدّ انتهاءً ومحافظةً لشرائط المحبة، وهذه غاية العناية، ثم انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عاتبه عليه، وخيف أن يركن إليه، وفي أثناء عتبه

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٧٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١١٩/٨) برقم: (٢٢٥٤٠)، وذكره البغوي (١٢٦/٣) بنحوه، وابن عطية (٤٧٥/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٥٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) قرأ ابن مصرف، وقناة، وعبد الله بن أبي إسحاق «تركن» بضم الكاف.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٧٥/٣)، و«البحر المحيط» (٦٢/٦)، و«الدر المصون» (٤١٠/٤).

بِرَأَءَتُهُ، وفي طَيِّ تخويفه تأمِينُهُ.

قال عياض رحمه الله: ويجبُ على المؤمن المجاهدِ نفسه الرائيضِ بزمَامِ الشريعةِ خُلُقُهُ؛ أن يتأدَّبَ بآداب القرآن في قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته فهو عنصر المعارف الحقيقية، وروضة الآداب الدينية والدنيوية انتهى.

قال * ع * (١): وهذا الهمُّ من النبي ﷺ إنما كان خَطَرُهُ مما لا يمكنُ دفعه، ولذلك قيل: ﴿كَدَتْ﴾ وهي تعطي أنه لم يقف ركوبٌ، ثم قيل: ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾؛ إذ كانت المقاربة التي تضمنتها ﴿كَدَتْ﴾ قليلةً خطرةً لم تتأكد في النفس.

وقوله: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ...﴾ الآية: يبطل أيضاً ما ذهب إليه ابنُ الأنباري.

* ت * : وما ذكره * ع * رحمه الله تعالى من البطلان لا يصحُّ، وما قدَّمناه عن عياض حسنٌ؛ فتأمله.

وقوله: ﴿ضعف الحياة﴾: قال ابن عباس وغيره: يريد ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات (٢).

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلاً (٧٦) سَنَةً مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا...﴾ الآية: قال الحَضْرَمِيُّ: الضمير في «كادوا» ليهود المدينة وناحيتها، ذهبوا إلى المَكْرِ بالنبي ﷺ، فقالوا له: إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء، فإن كنت نبياً، فأخرج إلى الشام، فإنها أرض الأنبياء، فنزلت الآية، وأخبر سبحانه أن رسول الله ﷺ لو خَرَجَ، / لم يلبثوا بعده إلا (٣) قليلاً، وقالت فرقة: الضمير لقريش، قال ابن عباس: وقد وقع استفزازهم وإخراجهم له، فلم يلبثوا خلفه إلا قليلاً يومَ بَدْر (٤).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٧٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٢٠/٨) برقم: (٢٢٥٤٢)، وذكره ابن عطية (٤٧٥/٣)، والسيوطي في «الدر الثمور» (٣٥٣/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (١٢١/٨) برقم: (٢٢٥٤٩)، وذكره البغوي (١٢٧/٣)، وابن كثير (٥٣/٣) عن عبد الرحمن بن غنم، والسيوطي في «الدر الثمور» (٣٥٣/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٤) أخرجه الطبري (١٢١/٨) برقم: (٢٢٥٥٤)، وذكره ابن عطية (٤٧٦/٣)، والسيوطي في «الدر الثمور» (٣٥٤/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقال مجاهد: ذهبت قريش إلى هذا، ولكنه لم يقف منها؛ لأنه لما أراد الله سبحانه استبقاء قريش، والأصلها، أذن لرسوله في الهجرة، فخرج من الأرض بإذن الله، لا بفهر قريش، واستبقيت قريش؛ ليُسَلِّمَ منها ومن أعقابها مَنْ أَسْلَمَ^(١).

* ت * قال * ص * قوله ﴿لا يلبثون﴾ جواب قسم محذوف، أي: والله، إن استغزرت، فخرجت، لا يلبثون خلفك إلا قليلاً. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا...﴾ الآية: معنى الآية الإخبار أن سنة الله تعالى في الأمم الخالية وعادته أنها إذا أخرجت نبيها من بين أظهرها، نالها العذاب، وأستأصلها، فلم تلبث خلفه إلا قليلاً.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨)

وقوله سبحانه: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس...﴾ الآية: إجماع المفسرين على أن الإشارة هنا إلى الصلوات المفروضة، والجمهور أن دلوك الشمس زوالها، والإشارة إلى الظهر والعصر، و﴿غسق الليل﴾: أشير به إلى المغرب والعشاء، و﴿قرآن الفجر﴾: يريد به صلاة الصبح، فالآية تعم جميع الصلوات، «والدلوك» في اللغة: هو الميل، فأول الدلوك هو الزوال، وآخره هو الغروب، قال أبو حيان^(٢): واللام في ﴿لُدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾: للظرفية بمعنى بَعْدَ انتهى، و﴿وَعَسَقَ اللَّيْلِ﴾: اجتماعه وتكاثر ظلمته، وعبر عن صلاة الصبح خاصة بالقرآن، لأن القرآن هو عظمها؛ إذ قراءتها طويلة مجهور بها.

وقوله سبحانه: ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ معناه: يشهده حَفَظَةُ النَّهَارِ وَحَفَظَةُ اللَّيْلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؛ حَسْبَمَا ورد في الحديث الصحيح: «يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ؛ فَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ...» الحديث^(٣) بطوله، وفي «مسند البزار» عن النبي ﷺ، أنه قال: «إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَوَاتِ صَلَاةُ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِي جَمَاعَةٍ، وَمَا أَحْسَبُ شَاهِدَهَا مِنْكُمْ إِلَّا مَغْفُورٌ لَهُ»^(٤) انتهى من «الكوكب الدرّي».

(١) أخرجه الطبري (١٢١/٨) برقم: (٢٢٥٥٢)، وذكره البغوي (١٢٧/٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٦/٣).
(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٦٨/٦).
(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٦٨/٧) برقم: (١٩٣٠٧)، وعزاه للطبراني، عن ابن عمر.
(٥) أخرجه البزار (٢٩٨/١ - كشف)، برقم: (٦٢١)، من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة به، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧١/٢)، وقال: رواه البزار والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» كلهم من رواية عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، وهما ضعيفان. اهـ.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۝٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾

﴿ومن الليل فتهجد به﴾ «مِنَ» للتبعض، التقدير: ووقتاً من الليل، أي: قم وقتاً، والضمير في «به» عائد على هذا المقدّر، ويحتمل أن يعود على القرآن، و«تهجد» معناه: أطرح الهجود عنك، «والهجود»: النوم، المعنى: ووقتاً من الليل أسهر به في صلاة وقراءة، وقال علقمة وغيره: التهجد بعد نومة^(١)، وقال الحجاج بن عمرو: إنما التهجد بعد رقدة^(٢)، وقال الحسن: التهجد ما كان بعد العشاء الآخرة^(٣).

وقوله: ﴿نافلة لك﴾ قال ابن عباس: معناه: زيادة لك في الفرض، قال: وكان قيام الليل فرضاً على النبي ﷺ^(٤)، وقال مجاهد: إنما هي نافلة للنبي ﷺ؛ لأنه مغفور له، والناس يحطون بمثل ذلك خطاياهم، يعني: ويجبرون بها فرائضهم؛ حسباً/ ورد في ٢٩٦ ب الحديث^(٥)، قال صاحب «المدخل»، وهو أبو عبد الله بن الحجاج؛ وقد قالوا: إن من كان يتفلّت منه القرآن، فليقم به في الليل، فإن ذلك يثبت له ببركة امتثال السنّة سيّما الثلث الأخير من الليل؛ لما ورد في ذلك من البركات والخيرات، وفي قيام الليل من الفوائد جملة، فلا ينبغي لطالب العلم أن يفوته منها شيء.

فمنها: أنه يحطّ الذنوب؛ كما يحطّ الريح العاصف الورق اليابس من الشجرة.

- وله شاهد من حديث ابن عمر.
- أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٠٧/٧)، بلفظ: «أفضل الصوات عند الله صلاة الصبح يوم الجمعة في جماعة».
- (١) أخرجه الطبري (١٢٩/٨) برقم: (٢٢٦١١)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٥٥/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، ومحمد بن نصر في كتاب «الصلاة».
- (٢) أخرجه الطبري (١٢٩/٨) برقم: (٢٢٦١٦)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٣).
- (٣) أخرجه الطبري (١٢٩/٨) برقم: (٢٢٦١٥)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٤).
- (٤) أخرجه الطبري (١٣٠/٨) برقم: (٢٢٦١٧)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٥٥/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.
- (٥) أخرجه الطبري (١٣٠/٨) برقم: (٢٢٦١٨)، وذكره البغوي (١٢٩/٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٥)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٥٦/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، ومحمد بن نصر، والبيهقي في «الدلائل».

الثاني: أنه ينور القلب.

الثالث: أنه يحسن الوجه.

الرابع: أنه يذهب الكسل، وينشط البدن.

الخامس: أن موضعه تراه الملائكة من السماء؛ كما يترأى الكوكب الدرّي لنا في السماء، وقد روى الترمذي عن أبي أمامة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ مِنْ دَابِّ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمُنْهَاءٌ عَنِ الْآثَامِ، وَتَكْفِيرٌ لِلْسَّيِّئَاتِ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ»^(١) وروى أبو داود في «سننه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يَكُتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ، كُتِبَ مِنَ الْمُقْنَطِرِينَ» انتهى^(٢) من «المدخل».

وقوله سبحانه: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾: عِدَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ، وهو أمر الشفاعة الذي يتدافعهُ الأنبياء حتى ينتهي إليه ﷺ، والحديث بطوله في البخاري ومسلم.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): واختلف في وَجْهِ كَوْنِ قِيَامِ اللَّيْلِ سَبَباً لِلْمَقَامِ الْمَحْمُودِ؛ عَلَى قَوْلَيْنِ لِلْعُلَمَاءِ:

أحدهما: أن الباري تعالى يجعل ما يشاء مِنْ فَضْلِهِ سَبَباً لِفَضْلِهِ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ لَنَا

(١) أخرجه الترمذي (٥٥٢/٥ - ٥٥٣) كتاب «الدعوات» باب: في دعاء النبي ﷺ، حديث (٣٥٤٩)، من طريق بكر بن خنيس، عن محمد القرشي، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن بلال به، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث بلال إلا من هذا الوجه من قبل إسناده، قال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد القرشي هو: محمد بن سعيد الشامي وهو ابن أبي قيس، وهو محمد بن حسان، وقد ترك حديثه، وقد روى هذا الحديث معاوية بن صالح، عن ربيعة بن يزيد، عن ابن إدريس الخولاني، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة للإثم»، وقال الترمذي: وهذا أصح من حديث إدريس عن بلال هـ. قلت: ومن الوجه الذي ذكره الترمذي، أخرجه الحاكم (٣٠٨/١)، والبيهقي (٥٠٢/٢)، والبخاري، ووافقه الذهبي.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٢٢٣/٣).

بَوَّجِهِ الْحِكْمَةَ.

الثاني: أَنَّ قيام الليل فيه الْخَلْوَةُ بالباري تعالى، والمناجاة معه دون الناس، فيعطى الْخَلْوَةُ به ومناجاته في القيامة، فيكون مقاماً محموداً، ويتفاضل فيه الْخَلْقُ؛ بحسب درجاتهم، وأجلهم فيه درجة نبيِّنا مُحَمَّد ﷺ، فيعطى من المحامد ما لم يعط أحد، وَيُسْفَعُ فَيُسْفَعُ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ...﴾ الآية: ظاهر الآية: والأخسَنُ أن يكون دعا عليه السلام في أن يحسُنَ الله حالته في كُلِّ ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتظر من تصرُّف المقادير في المَوْت والحياة، فهي على أتمِّ عمومٍ، معناه: ربُّ، أصْلِحْ لي وِزْدِي في كُلِّ الأمور، وَصَدْرِي.

وذهب المفسِّرون إلى تخصيص اللفظ، فقال ابن عباس وغيره: أَدْخِلْنِي المدينة، وأخرجني من مكَّة^(١)، وقال ابن عباس أيضاً: الإدخال بالمَوْت في القبر، والإخراج: البعث^(٢)، وقيل غير هذا، وما قَدِّمْتُ من العموم الثَّامُّ الذي يتناول هذا كُلَّهُ أصوبُ، «والصدق»؛ هنا صفة تقتضي رفع المَذَامِ وأستيعاب المَذَمِّ، «واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً» قال مجاهد: يعني حجةً تنصرنى بها على الكفار^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ...﴾ الآية: قال قتادة: ﴿الْحَقُّ﴾ القرآن، و﴿الباطل﴾ الشيطان^(٤).

١٢٩٧

وقالت فرقة: ﴿الحق﴾: الإيمان، و﴿الباطل﴾: الكفران، وقيل غير هذا، والصواب تعميمُ اللفظ بالغاية المُمكنة؛ فيكون التفسير: جَاءَ الشرع بجميع ما أَنْطَوَى فيه، وَزَهَقَ الْكُفْرُ بجميع ما أَنْطَوَى فيه، وهذه الآية نَزَلَتْ بمَكَّة، وكان يستشهد بها النبي ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّة وَفَتَّ طَعْنَهُ الْأَصْنَامَ وَسَقَطَ لَهَا لَطْفُهُ إِياها بِالْمُخَصَّرَةِ.

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٤/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة بني إسرائيل، حديث (٣١٣٩)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الطبري (١٣٦/٨) برقم: (٢٢٦٤٩)، وذكره ابن عطية (٤٧٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٠/٤)، وعزه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١٣٧/٨) برقم: (٢٢٦٥٧)، وذكره البغوي (١٣٢/٣)، وذكره ابن عطية (٤٨٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٩/٣).

(٤) أخرجه الطبري (١٣٨/٨) برقم: (٢٢٦٦١)، وذكره ابن عطية (٤٨٠/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٠/٤)، وعزه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٧) وَإِذَا أَنفَعْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٨﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء...﴾ الآية: أي شفاء بحسب إزالته للرئب، وكشفه غطاء القلب، وشفاء أيضاً من الأمراض بالرقى والتعويد ونحوه.

وقوله سبحانه: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾: يحتمل أن يكون الإنسان عامًّا للجنس، فالكافر يبالغ في الإعراض، والعاصي يأخذ بحظ منه (نأى) أي: بُعد، ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾، أي: على ما يليق به، قال ابن عباس: ﴿على شاكلته﴾ معناه: على ناحيته^(١)، وقال قتادة: معناه: على ناحيته وعلى ما ينوي^(٢). وقوله سبحانه: ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ تؤيد بين.

﴿وَيَسْتَلُونكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَئِيدًا ﴿٨٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿ويستلونك عن الروح﴾ روى ابن مسعود أن اليهود قال بعضهم لبغض: سلوا محمداً عن الروح فإن أجاب فيه، عرفتم أنه ليس بنبي.

قال * ع^(٣): * وذلك أنه كان عندهم في التوراة؛ أن الروح ممَّا انفرد الله بعلمه، ولا يطلع عليه أحد من عباده، فسألوه، فنزلت الآية.

وقيل: إن الآية مكّية، والسائلون هم قريش، بإشارة اليهود، واختلف الناس في الروح المسؤول عنه، أي روح هو؟ فقال الجمهور: وقع السؤال عن الأرواح التي في الأشخاص الحيوانية ما هي، فالروح: اسم جنس على هذا، وهذا هو الصواب، وهو المشكل الذي لا تفسير له.

(١) أخرجه الطبري (١٤١/٨) برقم (٢٢٦٧٠) وذكره البغوي (١٣٣/٣) وابن عطية (٤٨١/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٦٠/٣) والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (١٤١/٨) برقم: (٢٢٦٧٣)، وذكره البغوي (١٣٣/٣) بنحوه، وابن عطية (٤٨١/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٦٠/٣) بنحوه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨١/٣).

وقوله سبحانه: ﴿من أمر ربي﴾ يحتمل أن يريد أن الروح من جملة أمور الله التي استأثر سبحانه بعلمها، وهي إضافة خلق إلى خالقي، قال ابن رashed في «مرقبته»: أخبرني شيخه شهاب الدين القرافي عن ابن دقيق العيد؛ أنه رأى كتاباً لبعض الحكماء في حقيقة النفس، وفيه ثلاثمائة قول، قال رحمه الله: وكثرة الخلاف تؤذن بكثرة الجهالات، ثم علماء الإسلام اختلفوا في جواز الخوض فيها على قولين، ولكل حُجَج يطول بنا سردها، ثم القائلون بالجواز اختلفوا، هل هي عرض أو جوهر، أو ليست بجوهر ولا عرض، ولا توصف بأنها داخل الجسم ولا خارجة، وإليه ميل الإمام أبي حامد وغيره، والذي عليه المحققون من المتأخرين أنها جسم نوارني شفاف سار في الجسم سريان النار في الفحم؛ والدليل على أنها في الجسم قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] فلو لم تكن في الجسم، لما قال ذلك، وقد أخبرني الفقيه الخطيب أبو/ محمد البرجيني رحمه الله ب^{٢٩٧} عن الشيخ الصالح أبي الطاهر الرُّكْرَاقِي رحمه الله قال: حَضَرْتُ عند وَلِيِّ من الأولياء حين النَّزْع، فشاهدتُ نَفْسَهُ قد خَرَجَتْ من مواضع من جسده، ثم تشكَّلت على رأسه بشكِّله وصُورته، ثم صعدت إلى السماء، وصعدت نفسي معها، فلما انتهينا إلى السماء الدنيا، شاهدتُ باباً ورجُلَ مَلَكٍ ممدودةً عليه، فأزال ذلك المَلَكُ رجله، وقال لنفس ذلك الولي: اضْعِدِّي، فَصَعِدْتُ، فأرادت نفسي أن تَصْعَدَ معها، فقال لها: ازْجِعي، فقد بقي لك وقت، قال: فرجعت فشاهدت الناس دائرين على جسمي، وقائل يقول: مات، وآخر يقول: لم يَمُتْ، فدخلت من أنفي، أو قال: من عيني، وقَمْتُ. انتهى.

* ت * : وهذه الحكاية صحيحة، ورجال إسناده ثقات معروفون بالفضل، فابن رashed هو شارح ابن الحاجب القرعي، والبرجيني معروف عند أهل إفريقية وأبو الطاهر من أكابر الأولياء معظم عند أهل تونس، مزاره وقبره بالزلاج معروف زرتة رحمه الله، وقرأ الجمهور^(١): «وما أوتيتم»، واختلف فيمن خطب بذلك، فقالت فرقة: السائلون فقط، وقالت فرقة: العالم كله، وقد نص على ذلك ﷺ؛ على ما حكاها الطبري^(٢).

وقوله: ﴿ولئن شئنا لنذهبن...﴾ الآية: المعنى وما أوتيتم أنت يا محمد، وجميع الخلائق من العلم إلا قليلاً، فالله يعلم من علمه بما شاء، ويدع ما شاء، ولو شاء لذهب بالوحي الذي آتاك، وقوله ﴿إلا رحمة﴾ استثناء منقطع، أي: لكن رحمة من ربك تمسك

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٨٢).

(٢) ينظر: «الطبري» (٨/ ١٤٤).

عليك قال الداوددي: وما روي عن ابن مسعود من أنه سَيَنْزَعُ الْقُرْآنَ مِنَ الصُّدُورِ، وَتَرْفَعُ الْمَصَاحِفُ^(١) لَا يَصِحُّ وَإِنَّمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلْتَن شَتْنَا﴾ فلم يشأ سُبْحَانَهُ، وفي الحديث عنه ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ»^(٢) قال البخاري: وهم أهل العلم، ولا يكون العلم مع فقد القرآن. انتهى كلام الداوددي، وهو حسن جداً، وقد جاء في الصحيح ما هو أبين من هذا، وهو قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ...»^(٣)، الحديث.

﴿قُلْ لِّمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٨٨) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ (٨٩)

وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ لِّمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ...﴾ الآية: سبب هذه الآية أن جماعة من قريش قالوا للنبي ﷺ: لَوْ جِئْتَنَا بِآيَةٍ غَرِيبَةٍ غَيْرِ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّا نَقْدِرُ نَحْنُ عَلَى الْمَجِيءِ بِمِثْلِهِ، فنزلت هذه الآية المصروفة بالتعجيز لجميع الخلائق.

قال * ص *: واللام في ﴿لِّمَنِ اجْتَمَعَتِ﴾ اللام الموطئة للقسم، وهي الداخلة على الشرط، كقوله: ﴿لِّمَنِ أَخْرَجُوا﴾ [الحشر: ١٢] ﴿وَلِّمَنِ قُوتِلُوا﴾ [الحشر: ١٢] والجواب بعد للقسم لتقدمه، إذا لم يسبق ذو خبره لا للشرط، هذا مذهب البصريين خلافاً للفراء في إجازته الأمرين، إلا أن الأكثر أن يجيء جواب قسم، «والظهير» المعين.

/ قال * ع *: ﴿٤﴾: وفهمت العرب الفصحاء بخلوص فهمها في مَنَزِ الْكَلَامِ وَذَرَبَتَهَا بِهِ

٢٩٨

(١) أخرجه الطبري (١٤٤/٨) برقم: (٢٢٦٩٠)، وذكره ابن عطية (٤٨٢/٣)، وذكره ابن كثير (٦٢/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٣/٣)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه.

(٢)

تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٤/١) كتاب «العلم» باب: كيف يقبض العلم، حديث (١٠٠)، وفي (٢٩٥/١٣) كتاب «الاعتصام» باب: ما يذكر من ذم الرأي، حديث (٧٣٠٧)، ومسلم (٢٠٥٨/٤) كتاب «العلم» باب: رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن، حديث (٢٦٧٣/١٣)، والترمذي (٣١/٥)، كتاب «العلم» باب: ما جاء في ذهاب العلم، حديث (٢٦٥٢)، وابن ماجه (٢٠/١) «المقدمة» باب: اجتناب الرأي والقياس، حديث (٥٢)، والدارمي (٧٧/١)، وأحمد (١٦٢/٢)، (١٩٠)، والبيهقي في «شرح السنة» (٢٤٧/١) - بتحقيقنا، من حديث عبد الله بن عمرو، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨٣/٣).

ما لا نفهمه نَحْنُ ولا كُلُّ من خالطته حضارة، ففهموا العَجَزَ عنه ضرورة ومشاهدة، وعلمه الناس بعدهم استدلالاً ونظراً، ولكلِّ حصل عِلْمٌ قطعي، لكن ليس في مرتبة واحدة.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ بَحْنَةٌ مِنْ فَجْرِ الْجَنَّةِ ۖ تَمُوتُ فَتَنْجِرُ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَيَمِلَا ۖ ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّقُ فِيهِ سُبْحَانَ رَبِّكَ مِنْ هَذَا كُتُبِ الْإِسْلَامِ بِشَرِّ رَسُولًا ۖ ﴿٩٣﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَشْكُرُ مَطْمَئِينَ لَآتَيْنَاكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ ﴿٩٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً...﴾ الآية: روي في قول هذه المقالة للنبي ﷺ حديث طويل، مقتضاه: أَنَّ عُثْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَيْ رَيْبَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، وَالْضُّصْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ مَشِيخَةِ قُرَيْشٍ وَسَادَاتِهَا، اجتمعوا عليه، فعرضوا عليه أَنْ يملكوه إِنْ أَرَادَ الْمُلْكُ، أَوْ يجمعوا له كثيراً من المال؛ إِنْ أَرَادَ الْغِنَى وَنَحْوَ هَذَا مِنَ الْأَقْوَالِ، فدعاهم ﷺ عند ذلك إِلَى اللَّهِ، وقال: إِنَّمَا جِئْتُكُمْ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ فِيهِ صَلَاحٌ دُنْيَاكُمْ وَدِينُكُمْ، فَإِنْ أَطَعْتُمْ، فَحَسَنٌ، وَإِلَّا صَبَرْتُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ^(١) فقالوا له حيثنذ: فَإِنْ كَانَ مَا تَزْعُمُ حَقًّا، فَفَجِّرْ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا... الحديث بطوله، «والينبوع»: الماء النابع، «وخلالها» ظرف، ومعناه أثناءها وفي داخلها.

وقوله: ﴿كما زعمت﴾ إشارة إلى ما تلا عليهم قبل ذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخِيفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ...﴾ الآية [سبا: ٩] «والكسف» الشيء المقطوع، وقال الزجاج^(٢) المعنى: أَوْ تَسْقِطُ السَّمَاءَ عَلَيْنَا طَبَقًا، وقوله: ﴿قبيلاً﴾ قيل: معناه مقابلةً وعياناً، وقيل: معناه ضامناً وزعيماً بتصديقك؛ ومنه القباله^(٣) وهي الضمان، وقيل: معناه نوعاً وجنساً لا نظير له عندنا، ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾، قال المفسرون: الزُّخْرُفُ الذَّهَبُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، ﴿أو ترقى في السماء﴾، أي: في الهواء

(١) أخرجه الطبري، وابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٤/ ٣٦٥ - ٣٦٦)، عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «تفسير الزجاج» (٣/ ٢٥٩).

(٣) الْقَبَالَةُ: الكفالة، وهي في الأصل: مصدر قَبَلَ: إِذَا كَفَلَ، وَقَبْلُ «بالضم» - إِذَا صَارَ قَبِيلًا، أَي: كَفِيلًا، وَتَقَبَّلَ بِهِ: إِذَا تَكَفَّلَ.

ينظر: «اللسان العرب» (٣٥٢).

علواً، ويحتمل أن يريد السماء المعروفة، وهو أظهر.

* ت * : وذكر * ع ^(١) هنا كلمات الواجب طرحها، ولهذا أعرضت عنها، و﴿ترقى﴾ معناه تصعد، ويروى أن قائل هذه المقالة هو عبد الله بن أبي أمية، ويروى أن جماعتهم طلبت هذه النحو منه، فأمره عز وجل أن يقول: ﴿سبحان ربي﴾، أي: تنزيهاً له من الإتيان إليكم مع الملائكة قبلاً، ومن اقتراحي أنا عليه هذه الأشياء، وهل أنا إلا بشر، إنما عليّ البلاغ المبين فقط.

وقوله: ﴿مطمئنين﴾، أي: وادعين فيها مقيمين.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ (٩٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَحْدِلَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَيُكَفِّرُ مَّا وَنَّهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَوَلَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٩٨)

وقوله سبحانه: ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ روي أن من تقدم الآن ذكرهم من قريش، قالوا للنبي ﷺ في آخر قولهم: فلتجئ معك بطائفة من الملائكة تشهد لك بصيدك في نبوتك، وروي أنهم قالوا: فمن يشهد لك؟ ففي ذلك نزلت الآية، أي: الله يشهد بيني وبينكم، ثم أخبر سبحانه؛ أنه يحشرهم على الوجوه حقيقة، وفي هذا المعنى حديث، «قيل: يا رسول الله، كيف يمشي الكافر على وجهه؟ قال: أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجلين قادراً على أن يمشيه في الآخرة على وجهه؟» (٢) قال قتادة: بلى، وعزة ربنا (٣).

* ت * : وهذا الحديث قد خرجه الترمذي من طريق أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: رُكْبَانًا، وَمُشَاءً، وَعَلَى

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٠/ ٨) كتاب «التفسير» باب: ﴿الذين يحشرون على وجوههم﴾، حديث (٤٧٦٠)، ومسلم (٢١٦١/ ٤) كتاب «صفات المنافقين» باب: يحشر الكافر على وجهه، حديث (٢٨٠٦)، والطبري (١٢/ ١٩)، وأبو يعلى (٣٨٥/ ٥ - ٣٨٦) برقم (٣٠٤٦)، وأحمد (٣/ ٢٢٩)، وابن حبان (٧٣٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٤٣/ ٢) من حديث أنس، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٦٨)، وزاد نسبه إلى أبي نعيم في «المعرفة»، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٨٧).

وَجُوهِهِمْ...^(١) الحديث، وقوله: ﴿كَلِمَا خَبَثٌ﴾ أي: كلما فرغَتْ من إحراقهم، فسكن اللهيبُ القائمُ عليهم قَدْرَ ما يعادون، ثم يثورُ، فتلك زيادة السعير، قاله ابن عَبَّاسٍ^(٢).

قال *ع*^(٣): فالزيادة في حيزهم، وأما جهنم، فعلى حالها من الشدة، لا فتور، وَخَبَثَ النَّارُ، معناه: سَكَنَ اللهيبُ، والجَمْرُ على حاله، وَخَمَدَتْ معناه، سَكَنَ الجَمْرُ وَضَعُفَ، وَهَمَدَتْ معناه: طَفِئَتْ جملةً.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا...﴾ الآية: الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الوعيد المتقدم بجهنم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآية: الرؤيةُ في هذه الآية هي رؤية القلب، وهذه الآية احتجاجٌ عليهم فيما استبعدوه من البعث، «والأجل»؛ ههنا: يحتمل أن يريد به القيامة، ويحتمل أن يريد أجل الموت.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي...﴾ الآية: الـ ﴿رحمة﴾، في هذه الآية: المال والنعم التي تُصَرَّفُ في الأرزاق.

وقوله: ﴿خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ المعنى: خشية عاقبة الإنفاق، وهو الفقر، وقال بعض اللغويين، أَتَفَقَّ الرجلُ معناه: افتقر؛ كما تقول أَتَرَبَّ وَأَفْتَرَّ.

وقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي: ممسكاً، يريد أن في طبعه ومنتهى نظره أن الأشياء تتناهى وتنفى، فهو لو ملك خزائن رحمة الله، لأمسك خشية الفقر، وكذلك يظن أن قدرة الله تقف دون البعث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تتناهى.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَسَّاهُ يَسْبَحُ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ (١١١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٥/٥)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الإسراء، حديث (٣١٤٢)، من حديث أبي هريرة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وأخرجه أحمد (٣٥٤/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٥٣/٨) برقم: (٢٢٧٢٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٨٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٩/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب «الأضداد».

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨٧/٣).

لَأَظُنُّكَ يَفِرُّعَوْتُ مَثْبُورًا ﴿١١٧﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١١٨﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١١٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات...﴾ الآية: اتفق المتأولون والرواة؛ أن الآيات الخمس التي في «سورة الأعراف» هي من هذه التسع، وهي: الطوفان والجَزَادُ والقُمَّلُ والضَّفَادعُ والدُّمُ، واختلفوا في الأربع. * ت * وفي هذا الاتفاق نظر، وَرَوَى في هذا صفوانُ بْنُ عَسَّالٍ؛ أن يهوديًا من يهود المدينة، قال لآخر: سِرَ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ نَسْأَلُهُ عَنْ آيَاتِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْآخَرُ: لَا تَقُلْ لَهُ إِنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنَّهُ لَوْ سَمِعَهَا، صَارَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ، قَالَ: فَسَارَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَاهُ، فَقَالَ: «هِيَ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَمْشُوا فِي بَرِيءٍ إِلَى السُّلْطَانِ لِيَقْتُلَهُ، وَلَا تَسْخَرُوا، وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلَا تَقْذِفُوا الْمُحْصَنَاتِ، وَلَا تَقْرَأُوا يَوْمَ الزَّخْفِ، وَعَلَيْكُمْ - خَاصَّةً مَغْشَرِ الْيَهُودِ الْأَتْعَدُوا فِي السَّبْتِ»^(١). انتهى، وقد ذكر * ع * هذا الحديث^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿فَأَسْأَلُ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾، أي: إِذْ جَاءَهُمْ مُوسَى واختلف في قوله: ﴿مَسْحُورًا﴾ فقالت فرقة: هو مفعولٌ على بابه، وقال الطبري^(٣): هو بمعنى ساحر، كما قال / ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] وقرأ الجمهور: «لَقَدْ عَلِمْتُ»، وقرأ الكسائي: «لَقَدْ عَلِمْتُ» بقاء المتكلم مضمومة، وهي قراءة علي بن أبي طالب وغيره، وقال: ما علم عدو الله قط، وإنما علم موسى والإشارة بـ ﴿هؤلاء﴾ إلى التسع.

وقوله: ﴿بِصَائِرَ﴾: جمعٌ بصيرة، وهي الطريقة، أي طرائق يُهْتَدَى بِهَا، و«المثبور» الْمُهْلَكُ؛ قاله مجاهد^(٤)، ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، أي: يستخفهم ويقتلهم،

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٥/٥ - ٣٠٦) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة بني إسرائيل، حديث (٣١٤٤)، وأحمد (٢٣٩/٤ - ٢٤٠)، والنسائي (١١١/٧ - ١١٢)، كتاب «تحريم الدم» باب السحر، حديث (٤٠٧٨)، والحاكم (٩/١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٧/٥ - ٩٨)، والطبري (١٧٢/١٥)، والطبراني في «الكبير» (٨٣/٨ - ٨٤) برقم: (٧٣٩٦)، وأخرجه ابن ماجه مختصراً برقم: (٣٧٠٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٠/٤)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن قانع، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي كلاهما في «الدلائل».

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨٨/٣).

(٣) ينظر: «الطبري» (١٥٨/٨).

(٤) أخرجه الطبري (١٥٩/٨) برقم: (٢٢٧٥٩)، وذكره البغوي (١٤٠/٣)، وابن عطية (٤٨٩/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٦٧/٣).

والأرض هنا أَرْضُ مِصْرَ، ومتى ذكرت الأرض عموماً، فإنما يراد بها ما يناسب القصة المتكلم فيها، واقتضبت هذه الآية قصص بني إسرائيل مع فرعون، وإنما ذكرت عِظَمَ الأمر وخطيره، وذلك طرفاه؛ أراد فرعون غلبتهم وقتلهم، وهذا كان بدء الأمر؛ فأغرقه الله وجنوده، وهذا كان نهاية الأمر، ثم ذكر سبحانه أمر بني إسرائيل بعد إغراق فرعون بسكنى أرض الشام و﴿وَعَدُ الْآخِرَةِ﴾ هو يوم القيامة، «واللفيف»: الجَمْعُ المختلط الذي قد لُفَّ بعضه إلى بعض.

﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿وبالحق أنزلناه﴾ يعني القرآن نَزَلَ بالمصالح والسداد للناس، و﴿بالحق نزل﴾ يريد: بالحق في أوامره ونواهيه وأخباره، وقرأ جمهور^(١) الناس: «فَرَقْنَاهُ» بتخفيف الراء، ومعناه: بيّناه وأوضحناه وجعلناه فرقاناً، وقرأ جماعة خارج السبع^(٢): «فَرَقْنَاهُ» بتشديد الراء، أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء، لا جملة واحدة، ويتناسق هذا المعنى مع قوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾، وتأولت فرقة قوله: ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ أي: على ترسل في التلاوة، وترتل، هذا قول مجاهد وابن عباس وابن جريج وابن زيد^(٣)، والتأويل الآخر، أي على مُكْثٍ وتطاوُل في المدة شيئاً بعد شيء.

وقوله سبحانه: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ فيه تحقيق للكفار، وضرب من التوعّد، ﴿والذين أوتوا العلم من قبله﴾: قالت فرقة: هم مؤمنو أهل الكتاب، و﴿الأذقان﴾: أسافل الوجوه حيث يجتمع اللِّحْيَان.

-
- (١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٤٩٠)، و«البحر المحيط» (٦/٨٤)، و«الدر المصون» (٤/٤٢٦).
 (٢) وهي قراءة أبيّ، وابن عباس، ومجاهد، وابن مسعود، وعلي، وأبي رجاء، وقتادة، والشعبي، وحמיד، وعمر بن فائد، وزيد بن علي، وعمرو بن ذر، وعكرمة، والحسين.
 ينظر: «مختصر الشواذ» (٨١)، و«المحتسب» (٢/٢٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/٤٩٠)، و«البحر المحيط» (٦/٨٤)، و«الدر المصون» (٤/٤٢٧).
 (٣) أخرجه الطبري (٨/١٦٢) بـرقم: (٢٢٧٨٣)، وذكره ابن عطية (٣/٤٩١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٣٧٢)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

قال الواحدي: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ أي: بإنزال القرآن، وبعث محمد ﴿لمفعولاً﴾. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَيُخَوِّنُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ هذه مبالغة في صفتهم، ومدح لهم وحض لكل من توسم بالعلم، وحصل منه شيئاً أن يجري إلى هذه الرتبة النفيسة وحكى الطبري عن التميمي: أن من أوتي من العلم ما لم يبيكه لخلق ألا يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله سبحانه نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية كلها.

* ت * : وإنه والله كذلك، وإنما يخشى الله من عباده العلماء، اللهم انقنا بما علمتنا، ولا تجعلنا علينا حجةً بفضلك، ونقل الغزالي عن ابن عباس؛ أنه قال: إذا قرأت سجدة «سبحان»، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم، فليبك قلبه. قال الغزالي: فإن لم يحضره حزن وبكاء؛ كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء، فإن ذلك من أعظم المصائب. قال الغزالي: وأعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة/ اليقين الحاصل بعظمة الله تعالى، ومن رزق ذلك، فإنه يكون خاشعاً في الصلاة وغيرها؛ فإن موجب الخشوع استشعار عظمة الله، ومعرفة اطلاعه على العبد، ومعرفة تقصير العبد، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع، وليست مختصة بالصلاة، ثم قال: وقد دلت الأخبار على أن الأصل في الصلاة الخشوع، وحضور القلب، وأن مجرد الحركات مع العفلة قليل الجدوى في المعاد، قال: وأعلم أن المعاني التي بها تتم حياة الصلاة تجمعها ست جمل، وهي: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء، فحضور القلب: أن يفرغه من غير ما هو ملابس له، والتفهم: أمر زائد على الحضور، وأما التعظيم، فهو أمر وراء الحضور والفهم، وأما الهيبة، فأمر زائد علي التعظيم، وهي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم، وأما التعظيم، فهو حالة للقلب تتولد من معرفتين: إحداهما: معرفة جلال الله سبحانه وعظمته، والثانية: معرفة حقارة النفس، وأعلم أن حضور القلب سببه الهمة، فإن قلبك تابع لهمتك، فلا يحضر إلا فيما أهتمك، ومهما أهتمك أمر، حضر القلب، شاء أم أبى، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة، لم يكن متعطلاً؛ بل يكون حاضراً فيما الهمة مصروفة إليه. انتهى من «الإحياء».

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافَتْ يَهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٦﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا ۝١٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ...﴾ الآية: سبب نزول هذه الآية: أن بعض المشركين سمع النبي ﷺ يدعو: يا الله يا رَحْمَان، فقالوا: كان محمداً يأمرنا بدعاء إله واحد، وهو يدعو إلهين، قاله ابن عباس^(١)، فنزلت الآية مبينة، أنها أسماء لمسمى واحد، وتقدير الآية: أي الأسماء تدعو به، فأنت مصيب، فله الأسماء الحسنى، وفي «صحيح البخاري» بسنده عن ابن عباس في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ قَالَ: نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ، كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ، رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَإِذَا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ، سَبُّوا الْقُرْآنَ، وَمِنْ أَنْزَلَهُ، وَمِنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾، أي: بقراءتك، فسمع المشركون فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ عن أصحابك؛ فلا تسمعهم، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٢)، وأسند البخاري عن عائشة: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ قَالَتْ: أَنْزَلَ ذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ انْتَهَى^(٣).

قال العزالي في «الإحياء»: وقد جاءت أحاديث تقتضي استحباب السر بالقرآن، وأحاديث تقتضي استحباب الجهر به، والجمع بينهما أن يقال: إن التالي إذا خاف على نفسه الرياء والتصنع أو تشويش مُصل، / فالسر أفضل، وإن أمن ذلك، فالجهر أفضل؛ لأن العمل فيه أكثر؛ ولأن فائدته أيضاً تتعدى إلى غيره؛ والخير المتعدي أفضل من اللازم؛ ولأنه يوقظ قلب القاريء، ويجمع همته إلى الفكر فيه، ويصرف إليه سمعه، ويطرده عنه النوم برفع صوته، ولأنه يزيد في نشاطه في القراءة، ويقلل من كسله؛ ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم، فيكون سبباً في إعانته على الخير، ويسمعه بطال غافل، فينشط بسببه، ويشتاق لخدمة خالقه، فمهما خضرت نية من هذه النيات، فالجهر أفضل، وإن اجتمعت هذه النيات، تضاعف الأجر، وبكثرة النيات يزكو عمل الأبرار وتتضاعف أجورهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ هذه الآية رادة على كفر العرب في

(١) أخرجه الطبري (١٦٥/٨) برقم: (٢٢٨٠١)، وذكره البغوي (١٤٢/٣)، وابن عطية (٤٩٢/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٦٨/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٧/.)، كتاب «التفسير» باب: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾، حديث (٤٧٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٧/٨) كتاب «التفسير» باب: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾، حديث (٤٧٢٣).

قولهم: لولا أولياء الله، لَدَلَّ - تعالى الله عن قولهم - وقيد سبحانه نُفْيَ الولاية له بطريق الدَّلِّ، وعلى جهة الانتصار؛ إذ ولايته سبحانه مَوْجُودَةٌ بفضلِهِ ورحمته لمن وإلى من صالح عباده.

قال مجاهد: المعنى لم يخالف أحداً ولا ابتغى نصرَ أحد سبحانه، لا إله إلا هو^(١) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) أخرجه الطبري (١٧٢/٨) برقم: (٢٢٨٥٠)، وذكره ابن عطية (٤٩٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٦٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٦/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة مكية في قول جميع المفسرين، وروي عن قتادة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿جُرْزَأَ﴾ والاول أصح، وهي من أفضل سور القرآن^(١)، وروي أن النبي ﷺ قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِسُورَةٍ عَظَمَهَا مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَمَنْ جَاءَ بِهَا مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: أَيُّ سُورَةٍ هِيَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: سُورَةُ الْكَهْفِ، مَنْ قَرَأَ بِهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى، وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»^(٢) وفي رواية أنس: «مَنْ قَرَأَ بِهَا، أُغْطِيَ نُورًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَوُفِّيَ بِهَا فِتْنَةُ الْقَبْرِ».

* ت *: وعن البراء بن عازب، قال: كان رجلٌ يقرأ سورة الكهف، وإلى جانبه فرسٌ مربوطٌ بِشَظْطَيْنِ فغشيته سَحَابَةٌ، فجعلت تدنو وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «تِلْكَ السَّكِينَةُ نَزَلَتْ بِالْقُرْآنِ»^(٣) رواه البخاري، واللفظ له، ومسلم والترمذي والنسائي، والرجل المُبْهَمُ في الحديث هو أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وفي الحديث الصحيح من طريق الثَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، عن النبي ﷺ: «فَمَنْ أَدْرَكَ الدَّجَالَ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ...» وذكر الحديث. رواه مسلم^(٤) وغيره، زاد أبو داود: «فَإِنَّهَا جَوَازُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ». وعن أبي الدرداء؛ أن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ»^(٥) رواه مسلم وأبو داود والترمذي/ والنسائي، واللفظ ٣٠٠ ب

(١) ذكره ابن عطية (٣/٤٩٤).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٤/٣٧٩)، وعزاه إلى ابن مردويه، عن عائشة.

(٣) تقدم تخريجه في أوائل التفسير.

(٤) تقدم تخريجه في أوائل التفسير.

(٥) أخرجه مسلم (١/٥٥٥) كتاب «صلاة المسافرين» باب: فضل سورة الكهف، وآية الكرسي، حديث (٢٥٧/٨٠٩)، وأبو داود (٢/٥٢٠) كتاب «الملاحم» باب: في ذكر خروج الدجال، حديث (٤٣٢٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٩٥١)، وأحمد (٥/١٩٦)، (٦/٤٤٩)، والحاكم (٢/٣٦٨)، وابن حبان (٧٨٥ - ٧٨٦)، والبيهقي (٣/٢٤٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٣/٢٥ - بتحقيقنا) من حديث أبي الدرداء.

لمسلم، وفي رواية لمسلم وأبي داود: «مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ»، وعن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا أُنْزِلَتْ، كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ مَقَامِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَمَنْ قَرَأَ بِعَشْرِ آيَاتٍ مِنْ آخِرِهَا، فَخَرَجَ الدُّجَالُ، لَمْ يُسَلِّطْ عَلَيْهِ^(١) رواه الترمذي والحاكم في «المستدرک» والنسائي، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وله في رواية: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ»^(٢)، وقال: صحيح الإسناد، وأخرجه الدارمي في مسنده موقوفاً ورواته^(٣) متفق على الاحتجاج بهم إلا أبا هاشم يحيى بن دينار الرُمائي وقد وثقه أحمد ويحيى وأبو رُزعة وأبو حاتم. انتهى من «السلح».

﴿لَقَدْ نَزَّلَ اللَّهُ الذِّكْرَ عَلَى عَبْدِهِ الْكَتَبَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١﴾ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ مَنَكِيحِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ كان حفص عن عاصم^(٤) يَسْكُتُ عند قوله: ﴿عَوَجًا﴾ سكتة خفيفة، وعند ﴿مَرْقَدَانًا﴾ في يس [يس: ٥٢] وسبب هذه البداية في هذه السورة أن النبي ﷺ لما سأله قريش عن المسائل الثلاث: الروح، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، حسب ما أمرتهم به يهود - قال لهم ﷺ: «غَدَا أُخْبِرُكُمْ بِجَوَابِ مَا سَأَلْتُمْ» ولم يقل: إن شاء الله، فعاتبه الله عز وجل، وأمسك عنه الوحي خمسة عشر يوماً، وأرجف به كفار قريش، وشق ذلك على النبي ﷺ وبلغ منه، فلما انقضى الأمد الذي أراد الله عتاب نبيه، جاءه الوحي بجواب ما سأله، وغير ذلك، فافتتح الوحي بـ ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾، وهو القرآن.

وقوله: ﴿ولم يجعل له عوجًا﴾، أي: لم ينزله عن طريق الاستقامة، «والعوج» فُقْدُ الاستقامة، ومعنى «قِيمًا»، أي: مستقيماً؛ قاله ابن^(٥) عباس وغيره، وقيل: معناه أنه قِيمَ

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٩٥٢، ٩٥٤)، والحاكم (٣٦٨/٢)، والبيهقي (٣/٢٤٩)، عن أبي سعيد مرفوعاً، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وأخرجه الدارمي (٤٥٤/٢) عن أبي سعيد موقوفاً.

(٢) أخرجه الحاكم (٣٦٨/٢).

(٣) ينظر: «سنن الدارمي» (٤٥٤/٢).

(٤) ينظر: «العنوان» (١٢٢)، و«شرح الطيبة» (٣/٥)، و«شرح شملة» (٤٦٨)، و«إتحاف» (٢٠٨/٢).

(٥) ذكره الطبري (١٧٣/٨ - ١٧٤)، وابن عطية (٤٩٥/٣)، والبغوي (١٤٤/٣)، بلفظ عدلاً، والسيوطي =

على سائر الكتب بتصديقها، ولم يرتضه * ع^(١)، قال: ويصح أن يكون معنى «قيّم» قيامه بأمر الله على العالم وهذا معنى يؤيده ما بعده من النذارة والبشارة اللتين عمتا العالم، «والبأس الشديد» عذاب الآخرة، ويحتمل أن يندرج معه في النذارة عذاب الدنيا ببدن وغيرها، «ومن لدنه»، أي: من عنده، والمعنى: لينذر العالم والأجر الحسن» نعيم الجنة، ويتقدّمه خير الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، أي: ما يقولون، فهي النافية.

﴿فَلَمَّا كَبُحَ نَفْسَكَ عَلَى مَاتَرِهِمْ إِنَّ لَهُمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا (٨) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ هذه آية تسليّة للنبي ﷺ، والباخع نفسه هو مهلكها.

قال * ص: «لعل» للترجي في المحبوب، وللإشفاق في المحذور، وهي هنا للإشفاق. انتهى.

وقوله: ﴿على آثارهم﴾: استعارة فصيحّة من حيث لهم إخبار وتباعد عن الإيمان؛ فكانهم من فرط إخبارهم قد بعدوا، فهو في آثارهم يحزن عليهم.

وقوله: ﴿بهذا/ الحديث﴾، أي: بالقرآن، «والأسف» المبالغة في حزن أو غضب، ١٣٠١ وهو في هذا الموضع الحزن؛ لأنه على من لا يملك، ولا هو تحت يد الآسيف، ولو كان الأسف من مقتدر على من هو في قبضته ومملكه، لكان غضباً، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥] أي: أغضبونا. قال قتادة: ﴿أسفًا﴾: حُزنًا^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا...﴾ الآية: بسط في التسليّة، أي: لا تهتمّ بالدنيا وأهلها، فإن أمرها وأمرهم أقل؛ لفناء ذلك وذهابه، فإنما جعلنا ما على الأرض زينةً وامتحاناً واختباراً، وفي معنى هذه الآية قوله ﷺ: «الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَصِرَةٌ،

= (٤/٣٨١ - ٣٨٢) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق علي.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٤٩٥).

(٢) أخرجه الطبري (٨/١٧٧ - ١٧٨) برفق: (٢٢٨٧٣)، وذكره ابن عطية (٣/٤٩٦)، وابن كثير (٣/٧٢)، والسيوطي (٤/٣٨٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ^(١)

﴿لنبلوهم﴾ أي: لنختبرهم، وفي هذا وعيدٌ ما.

قال سفيان الثوري: أحسنهم عملاً: أزهدهم فيها^(٢)، وقال أبو عاصم العسقلاني: ﴿أحسن عملاً﴾. الترك لها^(٣).

قال ع * ع^(٤): وكان أبي رحمه الله يقول: أحسن العمل: أخذ بحق، وإنفاق في حق، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، والإكثار من المندوب إليه.

وقوله سبحانه: ﴿وإنا فيها لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ أي: يرجع ذلك كله تراباً، «والجرز»: الأرض التي لا شيء فيها من عمارة وزينة، فهي البلقع، وهذه حالة الأرض العامرة لا بُدَّ لها من هذا في الدنيا جزءاً جزءاً من الأرض، ثم يعُمُّها ذلك بأجمعها عند القيامة، و«الصعيد» وجه الأرض، وقيل: «الصعيد»: التراب خاصة.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ ﴿١٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، أي: ليسوا بعجب من آيات الله، أي: فلا يَعْظُمُ ذلك عليك بحسب ما عَظَّمَهُ السائلون، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم، وهو قول ابن عباس^(٥) وغيره، واختلف الناس في «الرقيم» ما هو؟ اختلافاً كثيراً، ف قيل: «الرقيم» كتاب في لوح نحاس، وقيل: في لوح رصاص، وقيل: في لوح حجارة كتبوا فيه قصة أهل الكهف، وقيل غير هذا، وروي عن ابن عباس؛

(١) أخرجه مسلم (٢٠٩٨/٤) كتاب «الرقائق» باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، حديث (٢٧٤٢/٩٩)، والترمذي (٤٨٣/٤) كتاب «الفتن» باب: ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة، حديث (٢١٩١)، وابن ماجه (١٣٢٥/٢) كتاب «الفتن» باب: فتنة النساء، حديث (٤٠٠٠)، وأحمد (١٩/٣)، (٢٢، ٤٦)، وأبو يعلى (٣٥٢/٢ - ٣٥٣) برقم: (١١٠١)، وابن حبان (٣٢٢١) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٩٧/٣)، والسيوطي (٣٨٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١٧٨/٨) برقم: (٢٢٨٧٨)، وذكره ابن عطية (٤٩٧/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩٧/٣).

(٥) أخرجه الطبري (١٨٠/٨) برقم: (٢٢٨٩٠) بنحوه، وذكره ابن كثير (٧٣/٣)، والسيوطي (٣٨٤/٤) بنحوه، وعزاه لابن أبي حاتم.

أنه قال: ما أَذْرِي مَا الرِّقِيمُ^(١)؟

قال * ع *^(٢): ويظهر من هذه الروايات؛ أنهم كانوا قوماً مؤرخين، وذلك مِنْ نُبْلِ المملكة، وهو أمر مفيدٌ.

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾: ﴿الفتية﴾، فيما روي؛ قوم من أبناء أشراف مدينة دِقْيُوسَ الْمَلِكِ الْكَافِرِ، ويقال فيه «دقيانوس»، وروي أنهم كانوا مُطَوَّقِينَ مَسُورِينَ بالذهب، وهم من الروم، واتبعوا دِينَ عِيسَى، وقيل: كانوا قبل عِيسَى، واختلف الرواة في قصصهم، ونذكر من الخلاف عُيُونَهُ، وما لا تستغني الآية عنه: فروي عن مجاهد عن ابن عباس، أن هؤلاء الفتية كانوا في دينِ مَلِكٍ يعبد الأصنام^(٣)، فوقع للفتية عِلْمٌ من بعض الحواريين، حَسْبَمَا ذكره الثَّقَافُش، أو من مؤمني الأمم قبلهم، فأمنوا بالله، ورأوا ببصائرهم قَبِيحَ فِعْلِ النَّاسِ، فرفع أمرهم إلى الْمَلِكِ، فاستحضرَهُمْ، وأمرهم بالرجوع إلى دينه، فقالوا/ له فيما رُوِيَ: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الكهف: ١٤] الآية، ٣٠١ ب فقال لهم الملك: إِنَّكُمْ شُبَّانٌ أَغْمَارٌ، لَا عَقْلَ لَكُمْ، وَأَنَا لَا أَغْجَلُ عَلَيْكُمْ، وَضَرَبَ لَهُمْ أَجْلاً ثُمَّ سَافَرَ خِلَالَ الْأَجَلِ، فتشاور الفتية في الهروبِ بأديانهم، فقال لهم أحدهم: إِنِّي أَغْرِفُ كَهْفًا فِي جَبَلٍ كَذَا، فلنذهب إليه.

وروت فرقة أنَّ أمر أصحاب الكهف إنما كان أنهم من أبناء الأشراف، فحضر عيد لأهل المدينة، فرأى الفتية ما يتحلله الناسُ في ذلك العيد من الكُفْرِ وعبادة الأصنام، فوقع الإيمانُ في قلوبهم، وأجمعوا على مفارقة دينِ الْكَفَرَةِ، وروي أنهم خَرَجُوا، وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِالصُّوْلَجَانِ وَالْكُرَةِ، وهم يدرجونها إلى نحو طريقهم؛ لثلاً يشعر الناسُ بهم؛ حتى وصلوا إلى الكهف، وأما الكلبُ فروي أنه كان كَلْبَ صَيْدٍ لبعضهم، وروي أنهم وجدوا في طريقهم رَاعِيًا لَهُ كَلْبٌ، فَاتَّبَعَهُمُ الرَّاعِي عَلَى رَأْيِهِمْ، وَذَهَبَ الْكَلْبُ مَعَهُمْ، فَدَخَلُوا الْغَارَ، فروت فرقة أن الله سبحانه ضَرَبَ عَلَى آذَانِهِمْ عند ذلك، لما أراد مِنْ سَثَرِهِمْ وَخَفِيِّ عَلَى أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ مَكَائِهِمْ، وَعَجَبَ النَّاسُ مِنْ غَرَابَةِ فَقْدِهِمْ، فَأَرْخَوْا ذَلِكَ وَرَقَمُوهُ فِي لَوْحَيْنِ مِنْ رِصَاصٍ أَوْ نَحَاسٍ، وجعلوه على باب المدينة، وقيل على الرواية: إن الملك بَنَى بَابَ

(١) أخرجه الطبري (١٨٢/٨) برقم: (٢٢٩٠٥)، وذكره ابن عطية (٤٩٨/٣)، وابن كثير (٧٣/٣)، والسيوطي (٣٨٤/٤)، وعزاه لابن جرير من طريق ابن جريج.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩٧/٣ - ٤٩٨).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٩٨/٣).

الغار، وإنهم دفنوا ذلك في بئاء المليك على الغار، وروت فرقة، أن المليك لما علم بدَّهاب الفتية، أَمَرَ بِقَصِّ آثارهم إلى باب الغار، وأمر بالدخول عليهم، فهَابَ الرجالُ ذلك، فقال له بعضُ وزرائه: «أَلَسْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِن أَخْرَجْتَهُمْ قَتَلْتَهُمْ؟ قال: نعم، قال: فَأَيُّ قِتْلَةٍ أبلغ من الجُوع والعَطَش، أبن عليهم باب الغار، ودغهم يموتوا فيه، ففعل، وقد ضَرَبَ اللَّهُ على آذانهم كما تقدَّم، ثم أخبر الله سبحانه عن الفتية أنهم لما أَوْوَأ إلى الكَهْف، أي: دخلوه وجعلوه مأوى لهم وموضعَ اعتصام دَعَا اللهُ تعالى بأن يؤتيهم من عنده رحمةً، وهي الرزقُ فيما ذكره المفسرون، وأن يهَيِّئَ لهم من أمرهم رَشَدًا؛ خلاصاً جميلاً، وهذا الدعاء منهم كان في أمر ديناهم، وألفاظهم تقتضي ذلك، وقد كانوا على ثقةٍ من رَشِدِ الآخرة ورحمتها، وينبغي لكلِّ مؤمن أن يجعلَ دعاءه في أمر ديناه بهذه الآية الكريمة فقط؛ فإنها كافية، ويحتمل ذكر الرحمة أن يراد بها أمر الآخرة.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (١١) ثُمَّ بَشَّرْنَاهُمْ بِإِعْمَارِ أَيْ الْحَرَبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَوَدَّعْنَاهُم هُدًى ﴿١٣﴾ وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ...﴾ الآية: عبارة عن إلقاء الله تعالى التَّوَمَّ عليهم.

وقوله: ﴿عَدَدًا﴾ نعت لـ «السنين» والقصد به العبارة عن التكرير.

وقوله: ﴿لَنَعْلَمَ﴾: عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود، أي: لنعلم ذلك موجوداً وإلا فقد كان سبحانه علم أيَّ الحزبين أَحْصَى الأَمَدَ، و«الْحَزْبَانِ»: الفريقان، والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية، إذ ظنوا لبثهم قليلاً، والحزب الثاني هم أهل المدينة الذين بعث الفتية على / عَهْدِهِمْ حين كان عندهم التاريخُ بأمر الفتية، وهذا قول الجمهور من المفسرين، وأما قوله: ﴿أَحْصَى﴾ فالظاهر الجيد فيه أنه فعل ماضٍ، و﴿أَمَدًا﴾ منصوبٌ به على المفعول، و«الأمد»: الغاية، ويأتي عبارة عن المدة، وقال الرَّجَّاجُ: ﴿أَحْصَى﴾ هو «أَفْعَلَ»، ويعترض بأن «أَفْعَلَ» لا يكون من فعل رباعيٍّ إلا في (١) الشاذِّ،

(١) يجوز فيه وجهان:

«أَحْدَهُمَا»: أنه أفعل تفضيل، وهو خبر لـ «أَيُّهُمْ»، و«أَيُّهُمْ» استفهامية، وهذه الجملة معلقة للعلم قبلها. و«لِمَا لَبِثُوا» حال من «أَمَدًا»، لأنه لو تأخر عنه، لكان نعتاً له، ويجوز أن تكون اللام على بابها من العلة، أي: لأجل، قاله أبو البقاء، ويجوز أن تكون زائدة، و«ما» مفعوله إما بـ «أَحْصَى» على رأي مَنْ يعمل أفعل التفضيل في المفعول به، وإما بإضمار فَعَلَ، و«أَمَدًا» مفعول «لَبِثُوا» أو منصوب بفعل مقدَّر يدلُّ عليه أفعل عند الجمهور، أو منصوب بنفس أفعل عند مَنْ يرى ذلك.

و«أَحْصَى»: فعلٌ رباعيٌّ؛ ويحتجُّ لقول الزَّجَّاجِ بأن «أَفْعَلَ» من الرباعيِّ قد كثر كقولك: مَا

«والوجه الثاني»: أن يكون «أَحْصَى» فعلاً ماضياً. و«أَمَدًا» مفعوله، و«لَمَّا لَبِثُوا» متعلق به، أو حال من «أَمَدًا» واللام فيه مزيدة، وعلى هذا فـ «أَمَدًا» منصوب بـ «لَبِثُوا»، و«مَا» مصدرية، أو بمعنى الذي، واختار الأول أعني كون «أَحْصَى» للتفضيل الزجاج، والتبريزي، واختار الثاني أبو علي، والزمخشري، وابن عطية، قال الزمخشري: فَإِنْ قُلْتُ فَمَا تقول فيمن جعله أفعَلَ تفضيل؟ قُلْتُ: ليس بالوجه السديد، وذلك أَنَّ بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس، نحو: «أَعْدَى مِنَ الْجَرْبِ». و«أَفْلَسَ مِنْ ابْنِ الْمُدَلَّتِي» شاذ، والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع، فكيف به؟ ولأن «أَمَدًا» إما أن ينتصب بأفعل وأفعل لا يعمل، وإما أن ينتصب بـ «لَبِثُوا» فلا يسد عليه المعنى، فَإِنْ زَعَمْتَ أَنِّي أنصبه بفعل مضمر، كما أضمر في قوله:

وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَانِسَا

فقد أبعدت عن المتناول، حيث أردت أن يكون فعلاً، ثم رجعت مضطراً إليه، وناقشه الشيخ، فقال: أما دعواه أنه شاذ، فمذهب سيبويه خلافه، وذلك أن أَفْعَلَ فيه ثلاثة مذاهب: الجائر مطلقاً، ويُعْرَى لسيبويه. والمنع مطلقاً، وهو مذهب الفارسي. والتفصيل بين أن تكون همزته للتعدية فيمتنع، وبين أن لا تكون، فيجوز، وهذا ليست الهمزة فيه للتعدية، وأما قوله: أَفْعَلَ لا يعمل فليس بصحيح، لأنه لا يعمل في التمييز، و«أَمَدًا» تمييز لا مفعولاً به كما تقول: زيداً أَقْطَعُ النَّاسَ سَيْفًا، وزيداً أَقْطَعُ لِلْهَامِ سَيْفًا. «قُلْتُ: الذي أحوج الزمخشري إلى عدم جعله تمييزاً مع ظهوره في بادئ الرأي عدم صحة معناه، وذلك أَنَّ التمييز شرطه في هذا الباب أن يصبح نسبة ذلك الوصف الذي قبله إليه، ويتصف به، ألا تَرَى إلى مثاله في قوله: «زيداً أَقْطَعُ النَّاسَ سَيْفًا» كيف يَصِحُّ أن يسند إليه، فيقال: «زيداً أَقْطَعُ سَيْفَهُ، وَسَيْفُهُ قَاطِعٌ» إلى غير ذلك، وهنا ليس الإحصاء من صفة «الأمد» ولا يصح نسبته إليه، وإنما هو من صفات الحزين، وهو دقيق، وكان الشيخ نقل عن أبي البقاء نصبه على التمييز، وأبو البقاء لم يذكر نصبه على التمييز حال جعله «أَحْصَى» أفعَلَ تفضيل، وإنما ذكر ذلك حين ذكر أنه فعل ماضٍ قال أبو البقاء: في «أَحْصَى» وجهان:

«أحدهما»: هو فاعل ماضٍ، و«أَمَدًا» مفعول «لَبِثُوا». وهو خطأ، وإنما الوجه أن يكون تمييزاً، والتقدير: لما لبثوه.

«الوجه الثاني»: هو اسم، و«أَمَدًا» منصوب بفعل دلَّ عليه الاسم، فهذا تصريح بأن «أَمَدًا» حال جعله «أَحْصَى» اسماً ليس تمييزاً، بل مفعولاً به بفعل مقدَّر، وأنه جعله تمييزاً عن «لَبِثُوا». ثم قال الشيخ: «وأما قوله: وأما أن ينصب بـ «لَبِثُوا» فلا يسد عليه المعنى، أي: لا يكون معناه سديداً، وقد ذهب الطبري إلى أنه منصوب بـ «لَبِثُوا». قال ابن عطية: وهو غَيْرُ مُتَّجِهٍ انتهى، وقد يتجه، وذلك أَنَّ الأمد هو الغاية، ويكون عبارة عن المدة، من حيث إنَّ المدة غاية في أمد المدة على الحقيقة، و«مَا» بمعنى الذي و«أَمَدًا» منصوب على إسقاط الحرف، وتقديره: لما لبثوا من أمد، أي: من مدة، ويصير «من أمد» تفسيراً لما أبهم من لفظ «ما»، كقوله: «مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ» - «مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ»، ولَمَّا سقط الحرف، وصل إليه الفعل. قُلْتُ: يكفي أن مثل ابن عطية جعله غير متجه، وعلى تقدير ذلك، فلا نسلم أَنَّ الطبري عنى نصبه بـ «لَبِثُوا»، مفعولاً به، بل يجوز أن يكون عنى نصبه تمييزاً، كما قاله أبو البقاء، ثم قال: وأما قوله: فَإِنْ زَعَمْتَ إلى آخره، فنقول: لا نحتاج إلى ذلك، لأن لقاتل ذلك أن يذهب مذهب الكوفيين، في أنه ينصب القوانس بنفس «أَضْرَبَ»، ولذلك جعل بعض النحاة أَنَّ «أَغْلَمَ» =

أَعْطَاهُ لِلْمَالِ، وكقوله عليه الصلاة والسلام في صفة جهنم: «أَسْوَدُ مِنَ الْقَارِ» وفي صفة حوضه «أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ»^(١).

* ت *: وقد تقدم أن «أَسْوَدَ» من «سود»، وما في ذلك من النقد، وقال مجاهد: ﴿أَمْدًا﴾ معناه عدداً^(٢)، وهذا تفسير بالمعنى.

وقوله سبحانه: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، أي: يسرناهم للعمل الصالح، والانقطاع إلى الله عز وجل، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا، وهذه زيادات على الإيمان.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَفَقْدَ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۖ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ وَإِذْ أَعْرَضْتَهُمْ وَمَا يَنْبُذُونَ إِلَّا اللَّهُ فَاتُّوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرٍكُمْ مَرْفَقًا ۝١٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿وربطنا على قلوبهم﴾: عبارة عن شدة عزم، وقوة صبر، ولما كان الفزع وخور النفس يشبه بالتناسب الانحلال، حسن في شدة النفس، وقوة التصميم أن يشبه الرنط، ومنه يقال: فلان رابط الجاش؛ إذا كان لا تفرق نفسه عند الفزع والحروب وغيرها، ومنه الرنط على قلب أم موسى.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَامُوا﴾ يحتمل أن يكون وصف قيامهم بين يدي الملك الكافر، فإنه مقام يحتاج إلى الرنط على القلب، ويحتمل أن يعبر بالقيام على انبعاثهم بالعزم على

ناصب لـ «من» في قوله: «أَعْلَمُ مَنْ يَفْضِلُ»، وذلك لأن أفعال مضمرة لمعنى المصدر، إذ التقدير: يريد ضربنا القوانس على ضرب غيرنا. قلنا: هذا مزجوج، وأفعال التفضيل ضعيف، وإذا جعلنا «أَخْصَى» اسماً فجوز الشيخ في «أي» أن تكون الموصولة، و«أَخْصَى» خبر لمبتدأ محذوف، هو عائدها، وأن الضمة للبناء على مذهب سيبويه، لوجود شرط البناء، وهو إضافتها لفظاً، وحذف صدر صلتها. وهذا إنما يكون على جعل العلم، بمعنى العزقان، لأنه ليس في الكلام إلا مفعول واحد، وتقدير آخر لا حاجة إليه، إلا أن إسناده «عَلِمَ» بمعنى عَرَفَ إلى الله تعالى إشكالاً، تقدم تحريره في الأنفال وغيرها. وإذا جعلناه فعلاً امتنع أن تكون موصولة، إذ لا حاجة لبنائها حيثنذ وهو حسن.

ينظر: «الدر المصون» (٤/٤٣٧ - ٤٣٨).

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤/١١) كتاب «الرقاق» باب: الحوض، حديث (٦٥٨١)، والترمذي (٤١٩/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الكوثر، حديث (٣٣٦٠)، من حديث أنس بن مالك.

(٢) أخرجه الطبري (١٨٨/٨) برقم: (٢٢٩١٧)، وذكره ابن عطية (٥٠٠/٣)، والبغوي (١٥٣/٣)، والسيوطي (٣٨٩/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

الهُرُوب إلى الله ومنازمة الناس؛ كما تقول: قَامَ فُلَانٌ إِلَى أَمْرِ كَذَا؛ إذا اعتزم عليه بغاية الجِدِّ، وبهذه الألفاظ التي هي: ﴿قَامُوا فَقَالُوا﴾، تعلّقت الصوفيّة في القيام والقول، «والشَّطَط»: الجَوْر وتعدي الحدّ والحقّ بِحَسَبِ أَمْرِ أَمْرٍ، و«السلطان»: الحجة، وقال قتادة: المعنى بعذر^(١) بين، ثم عظموا جرم الداعين مع الله غيره، وظلمهم بقولهم: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾، وقولهم: ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ...﴾ الآية: المعنى قال بعضهم لبعض، وبهذا يترجّح أن قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ إنما المراد به إذ عزموا ونفّذوا لأمرهم، وفي مصحف ابن مسعود: «وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ»، ومضمّن هذه الآية الكريمة أن بعضهم قال لبعض: إذ قد فارقتنا الكفّار، وانفردنا بالله تعالى، فلنجعل الكهف مأوى، وتكتل على الله تعالى، فإنه سييسّط علينا رحمته، وينشرها علينا ويهيئ لنا من أمرنا مرفقاً، وهذا كله دعاء بحسب الدنيا، وهم على ثقة من الله في أمر آخرتهم، وقرأ نافع وغيره: «مَرْفِقاً» بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ حمزة وغيره بكسر الميم وفتح الفاء، ويقالان معاً في الأمر، وفي الجارحة، حكاية الرّجّاج^(٢).

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرٌ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّصُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن يَجِدَ لَهُ وَلِئَامٌ مِّنْهُمْ إِذْ قَالُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَوَقَّعْنَاهُم بِهِمْ ذُرَايَهُمْ بِأَلْوَسِيْدٍ لَّوِ أَطْلَعْتُمْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُمْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ (١٨)

وقوله سبحانه: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين﴾

و«تزاور»، أي: تميل، و«تقرصهم» معناه/ تتركهم، والمعنى: أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبتة، وهو قول ابن عباس^(٣)، وحكى الرّجّاج^(٤) وغيره، قال: كان باب الكهف ينظر إلى بنات نعش، وذهب الرّجّاج^(٥) إلى أن فعل الشمس كان آية من الله تعالى دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك، والـ «فجوة»: المتسع، قال قتادة: في فضاء منه؛ ومنه الحديث: «فَإِذَا وَجَدَ فَجْوَةً نَّصَّ»^(٦).

(١) أخرجه الطبري (١٩٠/٨) برقم: (٢٢٩٢٣)، وذكره ابن عطية (٥٠١/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٢/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٩٢/٨) برقم: (٢٢٩٢٦ - ٢٢٩٢٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥٠٣/٣)، وابن كثير (٧٥/٣) بنحوه، والسيوطي (٣٩١/٤) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه ابن عطية (٥٠٣/٣)، والرّجّاج (٢٧٣/٣)، والبغوي (١٥٤/٣).

(٥) أخرجه ابن عطية (٥٠٣/٣)، والرّجّاج (٢٧٤/٣).

(٦) أخرجه الطبري (١٩٣/٨) برقم: (٢٢٩٣٩)، وذكره ابن عطية (٥٠٣/٣).

وقوله سبحانه: ﴿ذلك من آيات الله﴾ الإشارة إلى الأمر بجملته.

وقوله سبحانه: ﴿ونقلبهم ذات اليمين...﴾ الآية: ذكر بعض المفسرين أن تقلبيهم إنما كان حفظاً من الأرض، وروي عن ابن عباس، أنه قال لو مَسَّتْهُمُ الشَّمْسُ، لأحرقتهم، ولولا التقلب، لأكلتهم^(١) الأرض، وظاهر كلام المفسرين أن التقلب كان بأمر الله وفعل ملائكته، ويحتمل أن يكون ذلك بإقدار الله إياهم على ذلك، وهم في غمرة النوم.

وقوله: ﴿وكلبهم﴾: أكثر المفسرين على أنه كَلَبَ حقيقةً.

قال ع^(٢): * : وحدثنني أبي رحمه الله قال: سمعت أبا الفضل بن الجوهري في جامع مضر يقول على منبر وعظله سنة تسع وستين وأربعمائة: مَنْ أَحَبَّ أَهْلَ الْخَيْرِ، نَالَ مِنْ بَرَكَتِهِمْ، كَلَبَ أَحَبَّ أَهْلَ الْفَضْلِ، وَصَحِبَهُمْ، فَذَكَرَهُ اللَّهُ فِي مُحْكَمِ تَزْيِيلِهِ.

و«الوصيد» العتبة التي لباب الكهف أو موضعها إن لم تكن، وقال ابن عباس: «الوصيد»^(٣) الباب والأول أصح، والباب الموصد هو المعلق، ثم ذكر سبحانه ما حفهم به من الرغب، واكتنفهم من الهيبة، حفظاً منه سبحانه لهم، فقال: ﴿لو اطلغنا عليهم...﴾ الآية.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالَ أَوَّيْحَكَ لَبِثْنَا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَالُوا رَبَّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعَذِّبُوكُمْ فِي مَلَبَتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنِّي وََعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وكذلك بعثناهم لیتساءلوا بينهم﴾ الإشارة بـ«ذلك» إلى الأمر الذي ذكره الله في جهنهم، والعبرة التي فعلها فيهم، و«البعث»: التحريك عن سكون، واللام في قوله: ﴿ليتساءلوا﴾ لام الصيرورة، وقول القائل: ﴿كم لبثتم﴾ يقتضي أنه هَجَسَ في خاطره

(١) أخرجه الطبري (١٩٤/٨) برقم: (٢٢٩٤٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥٠٤/٣)، وابن كثير (٧٦/٣) بنحوه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٤/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٩٥/٨) برقم: (٢٢٩٥٥)، وذكره ابن عطية (٥٠٤/٣)، والبهوي (١٥٤/٣)، وابن كثير (٧٦/٣)، والسيوطي (٣٩٢/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

طُولُ نومهم، واستشعر أن أمرهم خَرَجَ عن العادة بعضَ الخروج، وظاهر أمرهم أنهم انتبهوا في حالٍ من الوقت، والهواء الزماني لا يباين الحالة التي ناموا عليها، وقولهم: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم﴾ يروى أنهم انتبهوا، وهُم جِيَاعٌ، وأن المبعوث هو تَمْلِيخًا، وروي أن باب الكهف انهدم بناء الكفار منه؛ لطول السنين، ويروى أن راعياً هدمه؛ ليدخل فيه غنمه، فأخذ تمليخاً ثياباً رثّة منكّرة ولبسها، وخَرَجَ من الكهف، فأنكر ذلك البناء المهذوم؛ إذ لم يعرفه بالأمنس، ثم مشى، فجعل يُنكر الطريق والمعالم، ويتحير وهو في ذلك لا يشعر شعوراً تاماً، بل يكذب ظنه فيما تغير عنده حتى يَلْعَ باب المدينة، فرأى على بابها أمانة الإسلام، فزادت حيرته، وقال: كيف هذا ببلد دقيوس، وبالأمنس كنا معه تَحْتَ ما كنا، فنهض إلى باب آخر، فرأى نحواً من ذلك؛ حتى مشى الأبواب كلها، فزادت حيرته، ولم يميّز بشراً، وسمع الناس يُقسِمون باسم عيسى، فاستراب بنفسه، وظن أنه جنّ، أو انفسد عقله، فبقي حيران يدعو الله تعالى، ثم نهض إلى باب الطعام الذي أراد اشتراؤه، فقال: يا عبد الله، يغني من طعامك بهذه الورق، فدفع إليه دراهم، كأخفاف ١٣٠٣ الربع فيما ذكر، فعجب لها البائع ودفعها إلى آخر يعجب، وتعاطاها الناس، وقالوا له: هذه دراهم عهد فلان المليك، من أين أنت؟ وكيف وجدت هذا الكثر، فجعل يبهت ويعجب، وقد كان بالبلد مشهوراً هو وبنيته، فقال: ما أعرف غير أنني وأصحابي خَرَجْنَا بالأمنس من هذه المدينة، فقال الناس: هذا مجنون، أذهبوا به إلى المليك، ففرغ عند ذلك، فذهب به حتى جيء به إلى المليك، فلما لم ير دقيوس الكافر، تأنس، وكان ذلك المليك مؤمناً فاضلاً يسمّى تبدوسيس، فقال له المليك: أين وجدت هذا الكثر؟ فقال له: إنما خرجت أنا وأصحابي أمنس من هذه المدينة، فأوينا إلى الكهف الذي في جبل أنجلوس، فلما سمع المليك ذلك، قال في بعض ما روي: لعل الله قد بعث لكم أيها الناس آيةً فلنيسر إلى الكهف، حتى نرى أصحابه، فساروا، وروي أنه أو بعض جلسائه قال: هؤلاء هم الفتية الذين ورّخ أمرهم على عهد دقيوس المليك، وكتب على لوح الثحاس بباب المدينة، فسار الملك إليهم، وسار الناس معه فلما انتهوا إلى الكهف، قال تمليخاً: أدخل عليهم لثلاثا يربعوا، فدخل عليهم، فأعلمهم بالأمر، وأن الأمة أمة إسلام، فروي أنهم سُروا وخَرَجُوا إلى الملك، وعظّموه، وعظّمهم، ثم رجّعوا إلى الكهف، وأكثر الروايات على أنهم ماثوا حين حدثهم تمليخاً، فانتظرهم الناس، فلما أبطأ خروجهم، دخل الناس إليهم، فرعب كل من دخل، ثم أقدموا فوجدوهم موتى، فتنازعوا بحسب ما يأتي، وفي هذه القصص من الاختلاف ما تضيق به الصحف فاختصرته، وذكرت المهم الذي به تتفسر ألفاظ الآية، واعتمدت الأصح والله المعين برحمته، وفي هذا البعث بالورق جواز الوكالة، وصحتها.

﴿وَأَزْكَى﴾ معناه: أكثر فيما ذكر عكرمة^(١)، وقال ابن جُبَيْر: المراد أَحَلَّ^(٢)، وقولهم: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال الزجاج: بالحجارة، وهو الأصح وقال حَجَّاج: «يرجموكم» معناه: بالقول وقوله سبحانه: ﴿وكذلك أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾: الإشارة في قوله: ﴿وكذلك﴾ إلى بعثهم ليتساءلوا، أي: كما بعثناهم، أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ، والضمير في قوله: ﴿ليعلموا﴾ يحتمل أن يعود على الأمة المسلمة الذين بُعِثَ أهل الكهف على عهدهم، وإلى هذا ذهب الطبري^(٣)؛ وذلك أنهم فيما روي دخلتهم حينئذ فتنة في أمر الحشر وَبَعِثَ الأجساد من القبور، فشكَّ في ذلك بعض الناس، واستبعدوه، وقالوا: إنما تُحْشَرُ الأرواح، فشكَّ ذلك على مَلِكِهِمْ، وبقي خَيْرَان لا يَذْهَبَان كيف يبين أمرهم لهم، حتى لبس المُسَوِّج، وقعد على الرَّمَاد وتضرَّع إلى الله في حُجَّةٍ وبيان، فأعثرهم الله على أهل الكهف، فلما بعثهم الله، وتبين الناس أمرهم؛ سُرَّ المَلِكُ، وَرَجَعَ مَنْ كَانَ شَكَّ فِي بَعثِ الأجساد إلى اليقين به، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾؛ على هذا التأويل، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿يعلموا﴾ على أصحاب الكهف، وقوله: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ﴾؛ على هذا التأويل: ابتداء خبر عن القوم الذين بُعِثُوا على عهدهم، والتنازع على هذا التأويل إنما هو في أمر البناء أو المسجد، لا في أمر القيامة، وقد قيل: إن التنازع إنما هو في أن أطلعوا عليهم، فقال بعضهم: هم أموات، وبعضهم: هم أحياء، وروي أن بعض القوم ذهبوا إلى طمس الكهف عليهم، وتركهم فيه مغيبين، فقالت الطائفة الغالبة على الأمر: ﴿لننخذن عليهم مسجداً﴾، فاتخذوه، قال قتادة: ﴿الذين غلبوا﴾ هم الولاية^(٤).

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلِمَةً وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلِمَةً رَحْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلِمَةً قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٢٢)

وقوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلِمَةً...﴾ الآية: الضمير في ﴿سَيَقُولُونَ﴾ يراد به أهل التوراة من معاصري نبيِّنا محمد ﷺ، وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف.

(١) أخرجه الطبري (٢٠٣/٨) برقم: (٢٢٩٦١)، وذكره ابن عطية (٥٠٦/٣)، والبغوي (١٥٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٠٣/٨) برقم: (٢٢٩٦٣)، وذكره ابن عطية (٥٠٦/٣).

(٣) ينظر: «الطبري» (٢٠٤/٨).

(٤) ذكره ابن عطية (٥٠٧/٣)، والسيوطي (٣٩٢/٤) بنحوه، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿رَجَمًا بِالْغَيْبِ﴾: معناه ظنًا وهو مستعار من الرجم، كأن الإنسان يرمي الموضع المشكّل المجهول عنده بظنه المرة بعد المرة يرجّمه به، عسى أن يصيبه، والواو في قوله: ﴿وِثَامُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾: طريق النحاة فيها أنها واو عطف دخلت في آخر الكلام؛ إخباراً عن عددهم، لتفصيل أمرهم، وتدلّ على أن هذا نهاية ما قيل، ولو سقطت، لصح الكلام، وتقول فرقة منهم ابنُ خالَوَيْهِ: هي^(١) واو الثمانيّة، وذكر ذلك الثعلبي عن أبي بكر بن عيّاش وأن قريشاً كانت تقول في عددها: ستة، سبعة وثمانية تسعة، فتدخل الواو في الثمانية^(٢).

قال ع* ع^(٣): وهي في القرآن في قوله: ﴿وَالثَّاهُونَ عَنِ الْمُتَكِرِّ﴾ [التوبة: ١١٢] وفي قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وأما قوله: ﴿وَأُبْكَارًا﴾ [التحریم: ٥] وقوله: ﴿وِثَامِيَّةٌ أَيَّامٌ﴾ [الحاقة: ٧] فليست بواو الثمانية بل هي لازمة إذ لا يستغني الكلام عنها، وقد أمر الله سبحانه نبيه في هذه الآية، أن يرد علمَ عدّتهم إليه، ثم قال: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يعني: من أهل الكتاب، وكان ابن عباس؛ يقول: أنا من ذلك القليل^(٤)، وكانوا سبعة، وثمانهم كلبهم.

(١) في هذه الواو أوجه:

«أحدها»: أنها عاطفة، عطفت هذه الجملة على جملة قوله: هم سبعة، فيكونون قد أخبروا بخبرين: «أحدهما»: أنهم سبعة رجال على اليّث.

«والثاني»: أن ثامنهم كلبهم، وهذا يؤذن بأن جملة قوله: ﴿وِثَامِيَّةٌ كَلْبُهُمْ﴾ من المتنازعين فيهم.

«والثالثي»: أن الواو للاستئناف، وأنه من كلام الله تعالى أخبر عنهم بذلك، قال هذا القائل. وجيء بالواو لتعطي انقطاع هذا مما قبله.

«الثالث»: أنها الواو الداخلة على الصفة تأكيداً، ودلالة على لصوق الصفة بالموصوف، وإليه ذهب الزمخشري، ونظره بقوله: ﴿مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّغْلُومٌ﴾.

ورّد الشيخ عليه «بأن أخذاً مِنَ الثَّحَاةِ لَمْ يَقُلْهُ».

«الرابع»: أن هذه الواو تسمى واو الثمانية، وأن لغة قريش إذا عدوا يقولون: خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، تسعة، فيدخلون الواو على عقد الثمانية خاصة. ذكر ذلك ابن خالويه، وأبو بكر راوي عاصم. قلّت: وقد قال ذلك بعضهم، في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ في الزمر، فقال: دخلت في أبواب الجنة، لأنها ثمانية، ولذلك لم يَجَأ بها في أبواب جهنم، لأنها سبعة.

ينظر: «الدر المصون» (٤/ ٤٤٥ - ٤٤٦).

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٨).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٦) برقم: (٢٢٩٧٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٨)، والبغوي (٣/ ١٥٦ - ١٥٧)، وابن كثير (٣/ ٧٨)، والسيوطي (٤/ ٣٩٣)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وابن سعد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

قال * ع ^(١): ويدل على هذا من الآية أنه سبحانه لما حكى قول من قال: ثلاثة، وخمسة، قرّن بالقول؛ أنه رَجَم بالغيب، ثم حكى هذه المقالة، ولم يقدّح فيها بشيء، وأيضاً فيقوى ذلك على القول بواو الثمانية؛ لأنها إنما تكون حيث عدد الثمانية صحيح.

وقوله سبحانه: ﴿فلا تمار فيهم إلا مرآة لظواهر﴾ معناه على بعض الأقوال: أي: بظاهر ما أوحينا إليك، وهو رد علم عدتهم إلى الله تعالى، وقيل: معنى الظاهر؛ أن يقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا يحتج هو على أمر مقرر في ذلك، وقال التبريزي: ﴿ظاهرة﴾ معناه: ذاهباً وأنشد: [الطويل]

وَتَلَكَ شَكَاةَ ظَاهِرٍ عَنْكَ عَارُهَا

ولم يبح له في هذه الآية أن يماري، ولكن قوله: ﴿إلا مرآة﴾ مجاز من حيث يماريه أهل الكتاب، سميت مراجعته لهم مرآة، ثم قيد بأنه ظاهر، ففارق المرآة الحقيقي المذموم، و«المرآة»: مشتق من المِرْية، وهو الشك، فكأنه المُشَاكَّة. * ت * وفي سماع ابن القاسم، قال: كان سليمان بن يسار، إذا ارتفع الصوت في مجلسه، أو كان مرآة، أخذ نعليه، ثم قام. قال ابن رشد: هذا من ورعه وفضله، و«المرآة» في العلم منهى عنه، فقد جاء أنه لا تؤمن فتنته، ولا تفهم حكمته انتهى من «البيان».

والضمير في قوله: ﴿ولا تستفت فيهم﴾ عائد على أهل الكهف، وفي قوله: ﴿منهم﴾ عائد على أهل الكتاب.

وقوله: ﴿فلا تمار فيهم﴾، أي: في عدتهم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ (٢٤) وَلَيْتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْتُوا ۖ لَمْ يَغَيِّبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۖ (٢٦)﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً * إلا أن يشاء الله﴾ قد تقدّم

(١) ينظر: «المحور الوجيز» (٥٠٨/٣).

(٢) عجز بيت لأبي ذؤيب وصدره:

وعبّرها الواشون أني أحبها

وهو في ديوانه (٢١/١)، و«اللسان» (ظهر).

أن هذه الآية عتاب من الله تعالى لنيئه حيث لم يستثن، والتقدير: إلا أن تقول إلا أن يشاء الله أو إلا أن تقول: إن شاء الله، والمعنى: إلا أن تذكر مشيئة الله.

وقوله سبحانه: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ قال ابن عباس^(١) والحسن^(٢) معناه: الإشارة به إلى الاستثناء، أي: ولتستثن بعد مدة إذا نسيت، أولاً لتخرج من جملة من لم يعلق فعله بمشيئة الله، وقال عكرمة: وأذكر ربك إذا غصبت^(٣)، وعبارة الواحدي: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾، أي: إذا نسيت الاستثناء بمشيئة الله، فاذكره وقله إذا تذكرت. ١ هـ.

وقوله سبحانه: ﴿وقل عسى أن يهدين ربي...﴾ الآية: الجمهور أن هذا دعاء مأمور به، والمعنى: عسى أن يرشدني ربي فيما أستقبل من أمري، والآية خطاب للنبي ﷺ، وهي بعد تعم جميع أمته.

وقال الواحدي: ﴿وقل عسى أن يهدين﴾، أي: يعطيني ربي الآيات من الدلالات على النبوة ما يكون أقرب في الرشد، وأدل من قصة أصحاب الكهف، ثم فعل الله له ذلك حيث آتاه علم غيوب المرسلين وخبرهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين...﴾ الآية: قال قتادة وغيره: الآية حكاية عن بني إسرائيل^(٤)، أنهم قالوا ذلك؛ واحتجوا بقراءة^(٥) ابن مسعود وفي مصحفه: «وقالوا لبثوا في كهفهم»، ثم أمر الله نبيه بأن يرّد العلم إليه؛ ردًا على مقالهم وتفنيداً لهم، وقال المحققون: بل قوله تعالى: ﴿ولبثوا في كهفهم...﴾ الآية خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم، وقوله تعالى: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾، أي: فليزل اختلافكم أيها المخرّصون، وظاهر قوله سبحانه: ﴿وازدادوا تسعاً﴾ أنها أعوام.

(١) أخرجه الطبري (٢٠٨/٨)، برقم: (٢٢٩٩٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥٠٩/٣)، والبغوي (٣/١٥٧)، وابن كثير (٧٩/٣)، والسيوطي (٣٩٤/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري (٢٠٨/٨) برقم: (٢٢٩٩٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥٠٩/٣)، والبغوي (٣/١٥٧).

(٣) أخرجه الطبري (٢٠٩/٨) برقم: (٢٢٩٩٣) بلفظ: «عصيت»، وذكره البغوي (٣/١٥٧)، وابن كثير (٧٩/٣)، والسيوطي (٣٩٥/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٤) أخرجه الطبري (٢١٠/٨) برقم: (٢٢٩٩٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥١٠/٣)، والبغوي (٣/١٥٧) - (١٥٨)، وابن كثير (٧٩/٣)، والسيوطي (٣٩٦/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥١٠/٣).

وقوله سبحانه: ﴿أُبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ﴾، أي: ما أَسْمَعُهُ سبحانه، وما أَبْصَرُهُ، قال قتادة: لا أحد أَبْصَرُ مِنَ اللَّهِ، ولا أَسْمَعُ^(١).

قال ع*^(٢) وهذه عبارة عن الإدراك، ويحتمل أن يكون المعنى: أَبْصِرْ بِهِ أي: بوحيه وإرشاده، هَذَاكَ، وَحُجَجَكَ، وَالْحَقُّ مِنَ الْأُمُورِ، وَأَسْمِعْ بِهِ الْعَالَمَ، فتكون ٣٠٤ ب اللفظتان/ أمرين لا على وجه التعجب.

وقوله سبحانه: ﴿ما لهم من دونه من ولي﴾: الضمير في ﴿لهم﴾ يحتمل أن يرجع إلى أهل الكهف، ويحتمل أن يرجع إلى معاصري النبي ﷺ من الكفار، ويكون في الآية تهديد لهم.

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مِثْلًا شَيْئًا﴾^(٣)
وَأَسِيرَ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا^(٤)

وقوله سبحانه: ﴿اتل ما أوحى إليك﴾، أي: اتبع، وقيل: اسرُد بتلاوتك ما أوحى إليك من كتاب ربك، لا تُفَضِّصْ في قوله، ولا مُبَدِّلْ لكلماته، وليس لك سواء جَانِبٌ تَمِيلُ إليه، وتستند، و«المُتَّحِد» الجانب الذي يَمَالُ إليه؛ ومنه اللُّحْد.

* ت * قال النووي: يستحب لتالي القرآن إذا كان منفرداً أن يكون خَتْمُهُ في الصلاة، ويستحب أن يكون ختمه أول الليل أو أول النهار، ورؤينا في مسند الإمام المجمع على حفظه وجلالته وإتقانه وبراعته أبي محمد الدارمي رحمه الله تعالى، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: إذا وافق خَتْمُ الْقُرْآنِ أَوَّلَ اللَّيْلِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُضْبِحَ، وَإِنْ وافق خَتْمُهُ أَوَّلَ النَّهَارِ صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُنْصَبَ^(٥). قال الدارمي: هذا حديث حسن وعن طلحة بن مطرف، قال: مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ آيَةً سَاعَةً كَانَتْ مِنَ النَّهَارِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُنْصَبَ، وآيَةً سَاعَةً كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُضْبِحَ، وعن مجاهد نحوه انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٢١٢/٨) برقم: (٢٣٠٠٦)، وذكره ابن عطية (٥١٠/٣)، وابن كثير (٨٠/٣)، والسيوطي (٣٩٦/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «المعجم الوجيز» (٥١٠/٣).

(٣) أخرجه الدارمي (٤٧٠/٢) كتاب «فضائل القرآن» باب: «في ختم القرآن».

وقوله سبحانه: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم...﴾ الآية: تقدّم تفسيرها.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تعد عينك عنهم﴾، أي: لا تتجاوز عنهم إلى أبناء الدنيا، وقرأ^(١) الجمهور: «مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ» بنصب الباء على معنى جَعَلْنَاهُ غَافِلًا، «والفرط»: يحتمل أن يكون بمعنى التفريط، ويحتمل أن يكون بمعنى الإفراط والإسراف، وقد فسره المتأولون بالعبارتين.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩)

وقوله سبحانه: ﴿وقل الحق من ربكم﴾ المعنى: وقل لهم يا محمد هذا القرآن هو الحق، * ت * : وقد ذم الله تعالى الغافلين عن ذكره والمُعْرِضِينَ عن آياته في غير ما آية من كتابه، فيجب الحذر مما وقع فيه أولئك، ولقد أحسن العارف في قوله: غَفَلَةُ سَاعَةٍ عَنْ رَبِّكَ مُكْدَرَةٌ لمرآة قلبك، فكيف بغفلتك جميع عُمرك. وقد روي أبو هريرة عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تَرَةٌ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ عَفَّرَ لَهُمْ»^(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وابن

(١) هذه قراءة الجمهور، وقد قرأ عمرو بن فائد، وموسى الأسواري: «مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ». قال أبو الفتح: يقال أغفلت الرجل: وجدته غافلاً... فإن قيل: فكيف يجوز أن يجد الله غافلاً؟ قيل: لما فعل أفعال من لا يرتقب ولا يخاف، صار كأن الله سبحانه غافل عنه. «المحتسب» (٢/٢٨)، قلت: يعني أنه ظننا غافلين عنه. والقراءة ذكرها ابن عطية في «المحرر» (٣/٥١٣)، ثم قال: وذكر أبو عمرو الداني أنها قراءة عمرو بن عبيد.

وينظر: «البحر المحيط» (٦/١١٤)، و«الدر المصون» (٤/٤٥٠). (٢) أخرجه الترمذي (٥/٤٦١) كتاب «الدعاء» باب: في القوم يجلسون ولا يذكرون الله، حديث (٣٣٨٠)، والحاكم (١/٤٩٦)، وأحمد (٢/٤٤٦، ٤٨١، ٤٨٤، ٤٩٥)، وإسماعيل القاضي في «في فضل الصلاة على النبي» (٥٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٤٣)، من طريق سفيان الثوري، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة مرفوعاً، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه، عن أبي هريرة أ.هـ.

وأخرجه أبو داود (٢/٦٨٠) كتاب «الأدب» باب: كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله، حديث (٤٨٥٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٠٤)، وابن حبان (٨٥٣) من طريق سعيد المقبري، عن أبي هريرة، وأخرجه أحمد (٢/٤٣٢) من طريق إسحاق مولى عبد الله بن الحارث، عن أبي هريرة، وذكر هذا الطريق الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٨٣) وقال: وأبو إسحاق مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل لم يوثقه أحد، ولم يجرحه، وبقي رجال أحد إسنادي أحمد ثقات.

جَبَّانَ فِي «صَحِيحِهِمَا» وَهَذَا لَفْظُ التَّرْمِذِيِّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، «وَالْتَرَّةُ» - بِكَسْرِ التَّاءِ الْمُثَنَّاةِ مِنْ فَوْقَ وَتَخْفِيفِ الرَّاءِ - النِّقْصُ، وَقِيلَ: التَّبْعَةُ، وَلَفْظُ ابْنِ جَبَّانَ: «إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ» انْتَهَى مِنَ «السَّلَاحِ».

وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ...﴾ الآية: تَوَعَّدُ وَتَهْدِيدٌ، أَيْ: فَلْيَخْتَرْ كُلُّ امْرِئٍ لِنَفْسِهِ مَا يَجِدُهُ غَدًا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ الدَّائِدِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ يَقُولُ: مَنْ شَاءَ اللَّهُ لَهُ الْإِيمَانُ، آمَنَ، وَمَنْ شَاءَ لَهُ الْكُفْرُ، كَفَرَ، هُوَ كَقَوْلِهِ: ١٣٥ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ/ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التَّكْوِينُ: ٢٩] ^(١) وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فَصَلَتْ: ٤٠] بِمَعْنَى الْوَعِيدِ، وَالْقَوْلَانِ مَعًا صَحِيحَانِ. انْتَهَى وَ﴿أَعْتَدْنَا﴾ مَأْخُودٌ مِنَ الْعَتَادِ، وَهُوَ الشَّيْءُ الْمَعْدُ الْحَاضِرُ، «وَالسَّرَادِقُ» هُوَ الْجِدَارُ الْمَحِيطُ كَالْحُجْرَةِ الَّتِي تَدَوَّرُ وَتَحِيطُ بِالْفُسْطَاطِ، قَدْ تَكُونُ مِنْ نَوْعِ الْفُسْطَاطِ أَدِيمًا أَوْ ثَوْبًا أَوْ نَحْوَهُ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ ^(٢): «السَّرَادِقُ»: كُلُّ مَا أَحَاطَ بِشَيْءٍ، وَاخْتَلَفَ فِي سَرَادِقِ النَّارِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَرَادِقُهَا حَائِطٌ مِنْ نَارٍ ^(٣)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: سَرَادِقُهَا دُخَانٌ يَحِيطُ بِالْكَفَّارِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [الْمُرْسَلَات: ٣٠] وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا، وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ طَرِيقِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ؛ أَنَّهُ قَالَ سَرَادِقُ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ كَيْفَ عَرَضَ كُلُّ جِدَارٍ مَسِيرَةً أَرْبَعِينَ سَنَةً ^(٤) وَ«الْمَهْلُ» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: هُوَ دَرْدِيُّ الزَّيْتِ، إِذَا انْتَهَى حَرُّهُ ^(٥)، وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ وَغَيْرُهُ: هُوَ كُلُّ مَا أَذِيبَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: «الْمَهْلُ» هُوَ الصَّدِيدُ وَالْدَّمُ إِذَا اخْتَلَطَا، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْكَفَنِ: إِنَّمَا هُوَ لِلْمَهْلَةِ ^(٦)، يَرِيدُ لِمَا يَسِيلُ مِنَ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ، وَيَقْوَى هَذَا بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ١٦] وَ«الْمُرْتَقِقُ»: الشَّيْءُ الَّذِي يَطْلُبُ رَفْقَهُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ

- (١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٢١٧/٨) بِرَقْمٍ: (٢٣٠٣٠)، وَذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (١٥٩/٣)، وَالسَّيُوطِيُّ (٣٩٩/٤) بِلَفْظٍ: «هَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ»، وَعِزَّاهُ لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.
- (٢) يَنْظُرُ: «تَفْسِيرُ الزَّجَّاجِ» (٢٨٢/٣).
- (٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٢١٧/٨) بِرَقْمٍ: (٢٣٠٣٤)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥١٣/٣)، وَالْبَغْوِيُّ (١٦٠/٣)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٨١/٣)، وَالسَّيُوطِيُّ (٣٩٩/٤)، وَعِزَّاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ.
- (٤) تَقْدِمُ تَخْرِيجَهُ فِي سُورَةِ هُودٍ.
- (٥) تَقْدِمُ تَخْرِيجَهُ.
- (٦) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥١٤/٣).

جَعَلَتْ عَذْرَىٰ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ * وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا زَاجِلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ تقدم تفسير نظيره، واللّه الموفق بفضلِهِ، و﴿أساور﴾ جمع «أسوار»، وهي ما كان من الحلي في الذراع، وقيل: «أساور» جمع أسورة، وأسورة جمع أسوار، و«السندس»: رقيق الديباج و«الإستبرق» ما غلظ منه، قيل: إستبرق من البريق، و«الأرائك» جمع أريكة، وهي السرير في الحجال، والضمير في قوله: ﴿وحسنت﴾ للجئات، وحكى النقاش عن أبي عمران الجوني، أنه قال: «الإستبرق»: الحرير المنسوج بالذهب.

وقوله سبحانه: ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب...﴾ الآية الضمير في ﴿لهم﴾ عائذ على الطائفة المتجبرة التي أرادت من النبي ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين، فالمثل مضروب للطائفتين، إذ الرجل الكافر صاحب الجنتين هو بإزاء متجبري قريش، أو بني تميم؛ على الخلاف في ذلك، والرجل المؤمن المقيّر بالربوبية هو بإزاء فقراء المؤمنين، و«حففنا» بمعنى جعلنا ذلك لهما من كل جهة، وظاهر هذا المثل أنه بأمر وقع في الوجود، وعلى ذلك فسرّه أكثر المتأولين، فروي في ذلك أنهما كانا أخوين من بني إسرائيل، ورثا أربعة آلاف دينار، فصنع أحدهما بماله ما ذكر، واشترى عبيداً، وتزوج، وأثرى، وأنفق الآخر ماله في طاعة الله عز وجل حتى افتقر، والتقى، فافتخر الغني، ووبّخ المؤمن، فجزت بينهما هذه المحاورّة، وروي أنهما كانا شريكين حدّادين كسبا مالا كثيراً، وصنعا نحو ما روي في أمر الأخوين، فكان من أمرهما ما قصّ الله في كتابه.

ب ٣٠٥

قال السهيلي: وذكر أن هذين الرجلين هما المذكوران في «الصفات» في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَتُنْكَلِ لِمَنْ الْمُصَدِّقِينَ﴾ إلى قوله ﴿فَاطْلَعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وإلى قوله: ﴿لِمَثَلٍ هَذَا فَلَئِمَعْلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات: ٥٥ - ٥٥، ٦١] انتهى.

﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْهِرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا﴾ ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَمْ نَمُرْ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا﴾ الأكل: ثمرها الذي يؤكل ﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي لم تنقص عن العرف الآثم الذي يشبه فيها، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

وَيَظْلِمُنِي مَالِي كَذَا وَلَوْ يَدِي لَوَى يَدَهُ اللَّهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ^(١)
 وقرأ^(٢) الجمهور: «ثُمَّرٌ» و «بِثْمَرِهِ» [الكهف: ٤٢] - بضم الثاء والميم - جمع
 «ثِمَارٍ»، وقرأ أبو عمرو - بسكون الميم^(٣) - فيهما، واختلف المتأولون في «الثُّمَر» - بضم
 الثاء والميم - فقال ابن عباس وغيره: «الثُّمَر»: جميع المال من الذهب والفضة والحيوان
 وغير ذلك^(٤)، وقال ابن زيد: هي الأصول^(٥)، و«المحاورة»: مراجعة القول، وهو من
 «حَارَ يَحُورُ».

وقوله: «أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا»: هذه المقالة بإزاء مقالة متجبري قرينش، أو
 بني تميم، على ما تقدم في «سورة الأنعام». * ت * وقوله: «وأعز نفرا» يَصْغَفُ قول
 من قال: «إنهما أخوان» فتأمل، والله أعلم بما صحَّ من ذلك.

«وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
 قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهَا وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي
 خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٣٧﴾»

وقوله سبحانه: «وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ...» الآية: أفرد الجنة من حيث
 الوجود كذلك إذ لا يدخلها معاً في وقت واحد، وظلمه لنفسه هو كفره وعقائده الفاسدة
 في الشك في البعث، وفي شكه في حدوث العالم، إن كانت إشارته بـ «هذه» إلى الهيئة
 من السموات والأرض وأنواع المخلوقات، وإن كانت إشارته إلى جنته فقط، فإنما الكلام
 تسأخف واغترار مفرط، وقلة تحصيل، كأنه من شدة العجب بها والسرور، أفرط في
 وصفها بهذا القول، ثم قاس أيضاً الآخرة على الدنيا وظن أنه لم يُمَلْ له في دنياه إلا لكرامة
 يستوجبها في نفسه، فقال: فإن كان ثم رجوع، فستكون حالي كذاوكذا.

(١) البيت لأبي زيد الطائي، «اللسان» (ظلم).

(٢) ويعني بهم: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وابن عباس، ومجاهد، وجماعة قراء
 المدينة ومكة، وخالف عاصم، فقرأ بفتح الميم والياء «ثَمَره»، و«بِثْمَرِهِ».

ينظر: «المحور الوجيز» (٥١٦/٣)، و«السبعة» (٣٩٠)، و«الحجة» (١٤٢/٥)، و«شرح الطيبة» (٥/

٨)، و«العنوان» (١٢٣)، و«حجة القراءات» (٤١٦)، و«إتحاف» (٢١٤/٢).

(٣) وهي قراءة الأعمش وأبي رجاء.

ينظر: مصادر القراءة السابقة.

(٤) أخرجه الطبري (٢٢٣/٨) برقم: (٢٣٠٥٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥١٦/٣)، وابن كثير (٨٣/٣)

بنحوه، والسيوطي (٤٠٣/٤)، وعزاه لابن عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٢٢٣/٨) برقم: (٢٣٠٦٣)، وذكره ابن عطية (٥١٦/٣).

وقوله: ﴿قال له صاحبه﴾ يعني المؤمن.

وقوله: ﴿خلقتك من تراب﴾ إشارة إلى آدم عليه السلام.

﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٣٨) ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَوْنَا أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٣٩) ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصِيعَ صَعِيدًا زَلْفًا﴾ (٤٠) ﴿أَوْ يُصِيعَ مَآؤَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَمْ تَطْلُبَا﴾ (٤١)

وقوله: ﴿لكننا هو الله ربِّي﴾ معناه: لكن أنا أقول هو الله ربِّي، وروى هارون عن أبي عمرو^(١) «لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي»، وباقي الآية بين.

وقوله: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك...﴾ الآية: وصية من المؤمن للكافر، ﴿ولولا﴾: تحضيض بمعنى «هلا»، و﴿ما﴾: تحتل أن تكون بمعنى «الذي» بتقدير: الذي شاء الله كائن، وفي ﴿شاء﴾ ضمير عائد على «ما»، ويحتمل أن تكون شرطية بتقدير: ما شاء الله كَانَ، أو خبر مبتدئ محذوف، تقديره: هو ما شاء الله، أو الأمر ما شاء الله.

وقوله: ﴿لا قوة إلا بالله﴾: تسليم، وضد لقول الكافر: ﴿ما أظن أن تبید هذه أبدًا﴾ [الكهف: ٣٥]، وفي الحديث: «إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كُنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، إِذَا قَالَهَا الْعَبْدُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَسْلَمَ/ عَبْدِي وَأَسْتَسْلَمَ»، قال النووي: ورؤينا في «سنن أبي داود والترمذي ١٣٠٦ والنسائي» وغيرهما، عن أنس قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ قَالَ يَغْنِي - إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ - بِاسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: هُدَيْتَ، وَكُفِّيتَ، وَوُقِّيتَ، وَتَنَحَّى عَنْكَ الشَّيْطَانُ»^(٢). قال الترمذي: حديث حسن، زاد أبو داود في روايته: «فَيَأْتُولُ: - يَغْنِي الشَّيْطَانُ لِشَّيْطَانٍ آخَرَ - كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِّي وَوُقِيَ» انتهى. وروى الترمذي عن أبي هريرة، قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهَا كُنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ»^(٣) انتهى.

قال المحاسب في «رعايته»: وإذا عزم العبد في القيام بجميع حقوق الله سبحانه،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥١٧/٣ - ٥١٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٧٤٦/٢ - ٧٤٧) كتاب «الأدب» باب: ما يقول إذا خرج من بيته، حديث (٥٠٩٥)، والترمذي (٤٩٠/٥) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا خرج من بيته، حديث (٣٤٢٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»، حديث (٨٩)، وابن السني (١٧٨)، وابن حبان (٢٣٧٥ - موارد) من حديث أنس. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وصححه ابن حبان.

(٣) تقدم تخريجه.

فليرعَبْ إليه في المَعُونَةِ مِنْ عِنْدِهِ على أداء حقوقه، ورعايتها، وناجاه بقلْب راعِبٍ راهِبٍ؛
إني أنسى إن لم تذكرني، وأعجزُ إن لم تُقَوِّنِي، وأجزعُ إن لم تصبرني، وعزم وتوكل،
وأستغاث وأستعان، وتبرأ من الحَوْل والقُوَّة إلا برَبِّهِ، وقطع رجاءه مِنْ نفسه، ووَجَّه رجاءه
كله إلى خالقه، فإنه سيجدُ الله عزَّ وجلَّ قريباً مجيباً متفضلاً متحنناً. انتهى.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١) قال مالك: ينبغي لكل من دَخَلَ منزله أن يقول كما
قال الله تعالى: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ انتهى.

وقوله: ﴿فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك﴾ هذا الترجي بعسى يحتمل أن
يريد به في الدنيا، ويحتمل أن يريد به في الآخرة، وتمني ذلك في الآخرة أشرف وأذهب
مع الخير والصلاح، وأن يكون ذلك يراد به الدنيا. أذهب في نكايه هذا المخاطب،
و«الحُسنان» العذاب؛ كالبرد والصر ونحوه، و«الصَّعيد» وجه الأرض، «والزَّلَق» الذي لا
تثبت فيه قَدَم، يعني: تذهب منافعها حتى منفعة المشي فهي وحل لا تثبت فيه قَدَم.

﴿وَأُحِيطَ بِشْمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَتَقَوَّى فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرَكَ
بِرَبِّي أَحَدًا ۖ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فَنَتَّ يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ۝٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ
خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿وأحيط بشمره...﴾ الآية: هذا خبر من الله عزَّ وجلَّ عن إحاطة
العذاب بحال هذا المُمَثِّل به، و﴿يقلِّب كفيه﴾: يريد يضغ بطن إحداهما على ظهر
الأخرى، وذلك فعل المتلهف المتأسف.

وقوله: ﴿خاوية على عروشها﴾ يريد أن السقوف وَقَعَتْ، وهي العروش، ثم تهدمت
الحيطان عليها؛ فهي خاوية والحيطان على العروش.

* ت * : فسر * ع *^(٢) رحمه الله لفظ «خَاوِيَةٌ» في «سورة الحج والنمل»
بـ«خالية»، والأحسن أن تفسر هنا وفي الحج بـ«ساقطة»، وأما التي في «النمل»، فيسج أن
تفسر بـ«خالية» وبـ«ساقطة» قال الزبيدي في «مختصر العين» خَوَتْ الدَّارُ: باد أهلها،
وخَوَتْ: تهدمت انتهى، وقال الجوهري في كتابه المسمى بـ«تاج اللغة وصحاح العربية»:
خَوَتْ النجومُ خَيًا: أمحلت، وذلك إذا سقطت ولم تُمَطَّرْ في نَوْنِهَا، وأخَوَتْ مثله، وخَوَتْ

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٢٤٠).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥١٩).

الدار خُوءاً ممدوداً: / أَقْوَتْ وكذلك إذا سَقَطَتْ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢] أي: خالية، ويقال: ساقطة؛ كما قال: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [الحج: ٤٥] أي ساقطة على سقوفها. انتهى وهو تفسير بارع، وبه أقول، وقد تقدّم إيضاح هذا المعنى في «سورة البقرة».

وقوله: ﴿يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ قال بعض المفسرين: هي حكاية عن مقالة هذا الكافر في الآخرة، ويحتمل أن يكون قالها في الدنيا على جهة التوبة بعد حلول المصيبة، ويكون فيها زَجْرٌ لَكُفْرَةٍ قريش وغيرهم، «والفتنة»: الجماعة التي يُلْجَأُ إلى نصرها.

وقوله سبحانه: ﴿هنالك﴾ يحتمل أن تكون ظرفاً لقوله: ﴿منتصراً﴾ ويحتمل أن يكون «الولاية» مبتدأ، و«هنالك»: خبره، وقرأ حمزة^(١) والكسائي: «الولاية» - بكسر الواو -، وهي بمعنى الرياسة ونحوه، وقرأ الباقون: «الولاية» - بفتح الواو - وهي بمعنى الموالاة والصلة ونحوه، وقرأ أبو عمرو^(٢) والكسائي: «الْحَقُّ» بالرفع؛ على النعت لـ «الولاية» وقرأ الباقون بالخفض على النعت لـ «الله» عز وجل، وقرأ الجمهور: «عُقْباً» - بضم العين والقاف - وقرأ حمزة وعاصم - بسكون^(٣) القاف - والعُقْب والعُقْب: بمعنى العاقبة.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ﴿٤٥﴾ أَلَمْ آتِ الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نَسِفُ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يريد حياة الإنسان، كما أنزلناه من السماء ﴿فاختلط﴾

(١) ينظر: «السبعة» (٣٩٢)، و«الحجة» (١٤٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٣٩٦/١)، و«معاني القراءات» (١١١/٢)، و«حجة القراءات» (٤١٨)، و«العنوان» (١٢٣)، و«إتحاف» (٢١٦/٢).

(٢) ينظر: «السبعة» (٣٩٢)، و«الحجة» (١٤٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٢٩٦/١)، و«معاني القراءات» (١١١/٢)، و«العنوان» (١٢٣)، و«شرح الطيبة» (١٠/٥)، و«شرح شملة» (٤٧٣)، و«حجة القراءات» (٤١٩) و«إتحاف» (٢١٦/٢).

(٣) ينظر: «السبعة» (٣٩٢)، و«الحجة» (١٥٠/٥)، و«إعراب القراءات» (٣٩٧/١)، و«معاني القراءات» (١١٢/٢)، و«شرح شملة» (٤٧٣)، و«العنوان» (١٢٣)، و«إتحاف» (٢١٦/٢)، و«حجة القراءات» (٤١٩).

به، أي: فاختلط النبات بعضه ببعض بسبب النماء، ﴿فأصبح هشيمًا﴾ أصبح عبارة عن صيرورته إلى ذلك، و «الهشيم» المتفتت من يابس العشب، و﴿تذروه﴾ بمعنى تفرقه، فمعنى هذا المثل تشبيه حال المرء في حياته وماله وعزته وبطوره، بالنبات الذي له خضرة ونضرة عن الماء النازل، ثم يعود بعد ذلك هشيمًا، ويصير إلى عدم، فمن كان له عمل صالح يبقى في الآخرة، فهو الفائز.

وقوله سبحانه: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ لفظه الخبر، لكن معه قرينة الصفة للمال والبنين؛ لأنه في المثل قبل حقر أمر الدنيا وبئنه؛ فكانه يقول: المال والبنون زينة هذه الحياة الدنيا المحقرة، فلا تتبعوها نفوسكم، والجمهور أن ﴿الباقيات الصالحات﴾ هي الكلمات المذكورة فضلها في الأحاديث: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»، وقد جاء ذلك مصرحاً به من لفظ النبي ﷺ في قوله: «وَهُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ».

وقوله سبحانه: ﴿خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ أي: صاحبها ينتظر الثواب، وينبسط أمله، فهو خير من حال ذي المال والبنين، دون عمل صالح، وعن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اسْتَكْبَرُوا مِنَ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ» قيل: وَمَا هُنَّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّنْسِيحُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(١) رواه النسائي وابن حبان في «صحيحه» انتهى من «السلام».

وفي «صحيح مسلم» عن سمره بن جندب، عن النبي ﷺ قال: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ»^(٢) وفي «صحيح مسلم»، عن أبي مالك الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «الطَّهْوَرُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...»^(٣) الحديث انتهى.

قال ابن العربي في «أحكامه»: وروى مالك عن سعيد بن المسيب، أن الباقيات الصالحات قول العبد: اللَّهُ أَكْبَرُ، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، ولا حول

(١) أخرجه أبو يعلى (٥٢٤/٢) برقم: (١٣٨٤)، وابن حبان (٢٣٣٢ - موارد)، والحاكم (٥١٢/١)، والطبري (٢٥٥/١٥)، وأحمد (٧٥/٣).

وقال الحاكم: هذا أصح إسناده للمصريين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٨٥/٣) كتاب «الآداب» باب: كراهية التسمية بالأسماء القيحة، ونحوه حديث (١٢/٢١٣٧)، وهذا الحديث لم يخرجاه أحد من أصحاب الكتب الستة سوى مسلم.

(٣) تقدم تخريجه.

وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ^(١) وروي عن ابن عباس وغيره؛ أن الباقيات الصالحات الصلوات الخمس^(٢). انتهى.

* ت *: وما تقدّم أولى، ومن كلام الشيخ الوليّ العارف أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه قال: عليك بالمطهرات الخمس في الأقوال؛ والمطهرات الخمس في الأفعال، والتبرّي من الحول والقوة في جميع الأحوال، وغُض بعقلك إلى المعاني القائمة بالقلب، وأخرُج عنها وعنهُ إلى الرّب واحفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجذّه أمامك وأعبد الله بها، وكُن من الشاكرين، فالمطهرات الخمس في الأقوال: سُبْحَانَ اللَّهِ، والحمدُ لِلَّهِ، ولا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، واللَّهُ أَكْبَرُ، ولا حول ولا قوة إِلَّا بِاللَّهِ، والمطهرات الخمس في الأفعال: الصلوات الخمس، والتبرّي من الحول والقوة: هو قولك: لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وترى الأرض بارزة﴾: يحتمل أن الأرض؛ لِذَهَابِ الجبال، والضرابِ والشجر - بَرَزَتْ، وانكشفت ويحتمل أن يريد بُرُوزَ أهلها من بطنها للحشر، و«المغادرة»: الترك، وعرضوا على ربك صفًا، أي: صفوفًا وفي الحديث الصحيح: «يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ صُفُوفًا يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ...» الحديث^(٣) بطوله، وفي حديث آخر: «أَهْلُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ صَفًّا، أَنْتُمْ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًّا»^(٤).

وقوله سبحانه: ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾: يفسره قول النبي ﷺ: إنكم تُخْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حَفَاةَ غَرَاةٍ غَزَلًا ﴿كما بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ﴾^(٥) نعيده ﴿[الأنبياء: ١٠٤]﴾.

﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٦) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ وَأَنْتُمْ عَنْهُمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥١﴾

وقوله سبحانه: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه...﴾ الآية:

(١) أخرجه الطبري (٢٣١/٨) برقم: (٢٣٠٩٤)، وذكره ابن كثير (٨٥/٣)، والسيوطي (٤٠٩/٤) بنحوه، وعزاه لابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد».

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٩/٨ - ٢٣٠) برقم: (٢٣٠٨٢) ويرقم: (٢٣٠٨٥)، ذكره ابن عطية (٥٢٠/٣)، وابن كثير (٨٥/٣)، والسيوطي (٤١٠/٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

﴿الكتاب﴾ اسم جنس يراد به كُتُب النَّاس التي أحصتها الحَقْفَةُ لواحدٍ واحدٍ، ويحتمل أن يكون الموضوع كتاباً واحداً حاضراً، وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ قالت فرقة: إبليس لم يكن من الملائكة، بل هو من الجن، وهم الشياطين المخلوقون من مارج من نار، وجميع الملائكة إنما خلقوا من نور، واختلقت هذه الفرقة، فقال بعضهم: إبليس من الجن، وهو أولهم وبدأتهم، كآدم من الإنس، وقالت فرقة: بل كان إبليس وقبيلة جنًا، لكن جميع الشياطين اليوم من ذريته، فهو كنوح في الإنس، واحتجوا بهذه الآية.

وقوله: ﴿ففسق﴾ معناه فخرج عن أمر ربه وطاعته.

وقوله عز وجل: ﴿أفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ يريد: أفَتَتَّخِذُونُ إبليس.

وقوله: ﴿وذريته﴾: ظاهر اللفظ يقتضي المؤسسين من الشياطين، الذين يأمرؤن بالمنكر، ويحملون على الأباطيل.

وقوله تعالى: ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾ أي: بدل ولاية الله عز وجل بولاية إبليس وذريته، وذلك هو التعوض من الحق بالباطل.

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: الضمير في ب ٣٠٧ ﴿أشهدتهم﴾ عائد على الكفار، وعلى الناس بالجملة/ فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطوائع والمتحكمين من الأطباء، وسواهم من كل من يتخرص في هذه الأشياء، وقيل: عائد على ذرية إبليس، فالآية على هذا تتضمن تحقيقهم، والقول الأول أعظم فائدة، وأقول: إن الغرض أولاً بالآية هم إبليس وذريته، وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعرب المصدقين لهم، والمعظمين للجن، حين يقولون: أعوذ بعزیز هذا الوادي، إذ الجميع من هذه الفرقة متعلقون بإبليس وذريته، وهم أضل الجميع، فهم المراد الأول ب ﴿المضلين﴾، وتندرج هذه الطوائف في معناهم، وقرأ الجمهور^(١): «وَمَا كُنْتُ»، وقرأ أبو جعفر^(٢) والجحدري والحسن، بخلاف «وَمَا كُنْتُ»، «وَالْعَصْد»: استعارة للمعين والموازر، «ويوم يقول نادوا شركائي» أي: على جهة

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢٣/٣)، و«البحر المحيط» (١٣٠/٦)، و«الدر المصون» (٤/٤٦٤).

(٢) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

الاستغاثة بهم، واختلف في قوله: ﴿مُوبِقًا﴾، فقال ابن عباس: معناه مهلكاً^(١)، وقال عبد الله بن عمر وأنس بن مالك ومجاهد: ﴿مُوبِقًا﴾ هو وإد في جهنم يجري بدمٍ وصديد^(٢). قال أنس: يحجز بين أهل النار وبين المؤمنين^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾، أي: مباشروها، وأطلق الناس أن الظن هنا بمعنى اليقين.

قال * ع *^(٤): والعبارة بالظن لا تجيء أبداً في موضع يقين تام قد قاله الحسن^(٥) بل أعظم درجاته أن يجيء، في موضع متحقق، لكنه لم يقع ذلك المظنون، والأفمذ يقع ويُحس لا يكاد توجد في كلام العرب العبارة عنه بالظن، وتأمل هذه الآية، وتأمل كلام العرب، وروى أبو سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْكَافِرَ لَيَرَى جَهَنَّمَ، وَيَظُنُّ أَنَّهَا مُوَاقِعَتُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً»^(٦)، و«المُضْرِف»: المَغْدِل والمَرَاغ، وهو مأخوذ من الانصراف من شيء إلى شيء.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَهُمْ يُسْتَفْعَرُونَ رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاسْتَضَوْا بِلَايَةٍ وَمَا أَنْذَرُوا هُزُومًا ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ۝ وَنَاكَ الْفَرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۝﴾

(١) أخرجه الطبري (٢٣٩/٨) برقم: (٢٣١٤٢)، وذكره ابن عطية (٥٢٤/٣)، وابن كثير (٩٠/٣)، والسيوطي (٤١٤/٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٠/٨) برقم: (٢٣١٤٩)، وذكره الطبري (٢٤١/٨)، وذكره ابن عطية (٥٢٣/٣)، وذكره البغوي (١٦٨/٣)، وذكره ابن كثير (٩٠/٣) نحوه، والسيوطي في «الدر» (٤١٤/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٥٢٣/٣).

(٤) ينظر: «المحرر» (٥٢٤/٣).

(٥) ذكره ابن عطية (٥٢٤/٣).

(٦) أخرجه أحمد (٧٥/٣)، وابن حبان (٢٥٨١ - موارد)، والطبري (٢٦٥/١٥)، والحاكم (٥٩٧/٤)، من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ ﴿الإنسان﴾ هنا يراد به الجنس، وقد استعمل ﷺ الآية على العموم في مروره بِعَلِيِّ لَيْلًا، وأمره له بالصلاة بالليل، فقال علي: إنما أنفُسُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ بِيَدِ اللَّهِ، أو كما قال، فخرج ﷺ، وهو يضربُ فخذَه بيده، ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى...﴾ الآية: ﴿النَّاسِ﴾، هنا يراد بهم كفار عصر النبي ﷺ، و﴿سنة الأولين﴾، هي عذاب الأمم المذكورة في القرآن، ﴿أو ياتيه العذاب قبلاً﴾، أي: مقابلة عياناً، والمعنى: عذاباً غير المعهود، فتظهر فائدة التقسيم، وقد وقع ذلك بهم يوم بدر، وكأنَّ حالهم تقتضي التأسف عليهم، وعلى ضلالهم ومصيرهم بآرائهم إلى الخُسران - عافانا الله من ذلك -.

و﴿يُذْخِضُوا﴾ معناه: يُزْهِقُوا، «والدَّخْضُ»: الطين.

وقوله: ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا﴾: لفظ عام يراد به الخاص ممن حتم الله عليه أنه لا يؤمن، ولا يهتدي أبداً، كأبي جهل وغيره.

/ وقوله: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ قالت فرقة: هو أجل الموت، وقالت فرقة: هو عذاب الآخرة، وقال الطبري^(٢) هو يوم بُدْرٍ والحُشْر.

وقوله سبحانه: ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾، أي: لا يجدون عنه منجى، يقال: وَأَلَّ الرَّجُلُ يَيْلُ؛ إذ نجا، ثم عقب سبحانه توعدهم بذكر الأمثلة من القرى التي نزل بها ما تُوعَد هؤلاء بمثله، و﴿الْقَرْىَ﴾: المدن، والإشارة إلى عاد وثمود وغيرهم، وباقي الآية بين.

قال * ص: * وقوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ في ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾: إشعارٌ بعلّة الإهلاك؛ وبهذا استدلل ابن عُصْفُور على حرفية «لَمَّا»؛ لأن الظرف لا دلالة فيه على العِلَّة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرِحُ حَقَّ أَتْلَعُ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضَى حُقُبًا﴾ ﴿٦١﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرِحُ...﴾ الآية: ﴿موسى﴾ هو ابنُ عمران، وفتاه هو يُوشعُ بْنُ نُونٍ، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ، أن موسى عليه السلام جلس يوماً في مجلسٍ لبني إسرائيل، وخطب، فأبلغ، فقيل له: هل تعلم أحداً أعلم

(١) أخرجه البخاري (٢٦٠/٨) كتاب «التفسير» باب: «وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً»، حديث (٤٧٢٤).

(٢) ينظر: «الطبري» (٢٤٣/٨).

مِنْكَ؟ قَالَ: لَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، ذُلَّنِي عَلَى السَّبِيلِ إِلَى لِقَائِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَسِيرَ بِطُولِ سِنْفِ الْبَحْرِ، حَتَّى يَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، فَإِذَا فَقَدَ الْحُوتَ، فَإِنَّهُ هُنَالِكَ، وَأَمَرَ أَنْ يَتَزَوَّدَ حُوتًا، وَيَتَزَقَّبَ زَوَالَهُ عَنْهُ، فَقَعَلَ مُوسَى ذَلِكَ، وَقَالَ لِفَتَاهُ عَلَى جِهَةِ إِمْضَاءِ الْعَزِيمَةِ: لَا أَبْرَحُ أَسِيرٌ، أَي: لَا أَزَالُ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، وَهُوَ سَائِرٌ، قَالَ السُّهَيْلِيُّ: كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَمَ بِعِلْمِ الظَّاهِرِ، وَكَانَ الْخَضِرُ أَعْلَمَ بِعِلْمِ الْبَاطِنِ، وَأَسْرَارِ الْمَلَكُوتِ، فَكَانَا بَخْرَيْنِ أَجْتَمَعَا بِمَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، وَالْخَضِرُ شَرِبَ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ، فَهُوَ حَيٌّ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الدُّجَالُ، وَأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَقْتُلُهُ الدُّجَالُ، وَقَالَ الْبَخَارِيُّ وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، مِنْهُمْ شَيْخُنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَاتَ الْخَضِرُ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْمِائَةِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لِيَلْتَكُمُ هَذِهِ، فَإِنْ إِلَى رَأْسِ مِائَةِ عَامٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْهَا أَحَدٌ»^(١) يعني من كان حيًّا حين قال هَذِهِ الْمَقَالَةَ، وَأَمَّا اجْتِمَاعُ الْخَضِرِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَعَزُّيْتِهِ لِأَهْلِ بَيْتِهِ، فَمَرْوِيٌّ مِنْ طَرِيقِ صَحَّاحٍ، وَصَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ؛ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى قَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَاهْتَزَّتْ تَحْتَهُ خَضِرَاءُ»^(٢).

قال الخطابي: الفروة^(٣) وجه الأرض، ثم أنشد على ذلك شاهداً انتهى.

(١) أخرجه البخاري (٥٤/٢) كتاب «مواقيت الصلاة» باب: ذكر العشاء والعتمة، حديث (٥٦٤)، من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٩/٦) كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: حديث الخضر مع موسى، حديث (٣٤٠٢)، والترمذي (٣١٣/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الكهف، حديث (٣١٥١)، وأحمد (٣١٨/٢)، وابن حبان (١٠٨/١٤ - ١٠٩) برقم: (٦٢٢٢)، والبيهقي في «معالم التنزيل» (١٧٢/٣)، كلهم من طريق همام بن منبه، عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٢٤/٤)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم.

تنبيه: وهم الحافظ نور الدين الهيثمي فأورد هذا الحديث في كتابه «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» رقم: (٢٠٩٢)، وشرط كتابه كما هو معروف أنه أورد ما هو زائد على «الصحيحين» من «صحيح ابن حبان». وللحديث شاهد من حديث ابن عباس، ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٢٤/٤)، وعزاه إلى ابن عساکر.

(٣) الفرو الحشيش الأبيض وما أشبهه، وقال الحربي: الفروة من الأرض قطعة يابسة من حشيش. وعن ابن الأعرابي: الفروة أرض بيضاء ليس فيها نبات، وبهذا جزم الخطابي ومن تبعه، وحكي عن مجاهد أنه قيل له الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله. والخضر قد اختلف في اسمه قبل ذلك وفي اسم أبيه وفي نسبه وفي نبوته وفي تعميره، فقال وهب بن منبه: هو بليا بفتح الموحدة وسكون اللام وبعدها تحناتية، ووجد بخط الدمياطي في أول الاسم بنقطتين، وقيل: كالأول بزيادة ألف بعد الباء، وقيل: =

واختلف الناس في «مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ»، فقال مجاهد وقتادة هو مَجْمَعُ بَحْرِ فَارِسَ وَبَحْرِ الرُّومِ^(١)، وقالت فرقة «مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ»: هو عند طَنْجَة، وقيل غير هذا، واختلف في «الحُقْب»، فقال ابن عباس وغيره: الحُقْب: أزمانٌ غير محدودة^(٢)، وقال عبد الله بن عمرو ثمانون^(٣) سنة، وقال مجاهد: سبعون^(٤)، وقيل: سنة.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسَاءً خُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءِإِنَّا عَدَوْنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۖ﴾ (١٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَتَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَسْلَمِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَ ۖ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ﴾ (١٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۖ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ۖ﴾ (١٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءِأَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۖ﴾ (١٥) قَالَ لَمْ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلَنَا ۖ﴾ (١٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ﴾ (١٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۖ﴾ (١٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ﴾ (١٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْزِمْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ﴾ (٢٠) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۖ﴾ (٢١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ﴾ (٢٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۖ﴾ (٢٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۖ﴾ (٢٤)

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ الضمير في «بينهما»: للبحرين، قاله

اسمه الياس، وقيل: اليسع، وقيل: عامر، وقيل: خضرون - والأول أثبت - ابن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالغ بن أرفشخذ بن سام بن نوح، فعلى هذا فمولده قبل إبراهيم الخليل لأنه يكون ابن عم جد إبراهيم، وقد حكى الثعلبي قولين في أنه كان قبل الخليل أو بعده، وقال وهب وكنيته أبو العباس، وروى الدارقطني في «الأفراد» من طريق مقاتل عن الضحاك، عن ابن عباس قال: هو ابن آدم لصلبه، وهو ضعيف منقطع، وذكر أبو حاتم السجستاني في «المعمرين» أنه ابن قابيل بن آدم رواه عن أبي عبيدة وغيره، وقيل: اسمه ارميا بن طيفاء حكاها ابن إسحاق، عن وهب، وارميا بكسر أوله وقيل: بضمه وأشبعها بعضهم وواوًا، واختلف في اسم أبيه فقيل: ملكان، وقيل: كليان، وقيل: عاميل وقيل: قابيل والأول أشهر، وعن إسماعيل بن أبي أويس: هو العمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن الأزد. ينظر: «فتح الباري» (٩٣/٧ - ٩٤).

(١) أخرجه الطبري (٢٤٦/٨) برقم: (٢٣١٧٠)، (٢٤٥/٨)، برقم: (٢٣١٦٩)، وذكره ابن عطية (٣/٥٢٧)، وابن كثير (٣/٩٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٦/٨) برقم: (٢٣١٧٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/٥٢٨)، وابن كثير (٣/٩٢).

(٣) أخرجه الطبري (٢٤٦/٨) برقم: (٢٣١٧٣)، وذكره ابن عطية (٣/٥٢٨)، والبغوي (٣/١٧١)، وابن كثير (٣/٩٢).

(٤) أخرجه الطبري (٢٤٦/٨) برقم: (٢٣١٧٤)، وذكره ابن عطية (٣/٥٢٨)، وابن كثير (٣/٩٢) بنحوه.

مجاهد^(١)، وفي الحديث الصحيح: «ثُمَّ انْطَلَقَ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ/ فَتَاهُ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ، حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا، فَتَامَا، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمَكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، أَي: مَسْلَكًا فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحُوتِ جَزِيَّةَ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ، نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ، فَانْطَلَقَا بِقِيَّةِ يَوْمِهِمَا، وَلَيَلَتَهُمَا حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْعَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ويعني به «النصب» تعب الطريق، قال: ولم يجذ موسى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾، يريد: ذكر ما جرى فيه، ﴿وَمَا أَنَسَانِيهِ﴾، أي أن أذكره ﴿إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾، و«اتخذ سبيله في البحر عجباً» قال: فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً، فقال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَازْتَدَا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، قال: فرجعا يَقْصُصَانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهِيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًى بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنْتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامَ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعني: لا تطيق أن تصبر على ما تراه من عملي لأن الظواهر التي هي عِلْمُكَ لا تعطيه، وكيف تُصْبِرُ على ما تراه خطأ، ولم تُخَبِّرْ بوجه الحكمة فيه؟ يا موسى، إني على علم من علم الله، علمنيه لا تَعْلَمُهُ، يريد: علم الباطن، وأنت على علم من علم الله علمكه الله، لا أعلمه، يريد: علم الظاهر، فقال له موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، فقال له الخضر: ﴿فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، أي: حتى أشرح لك ما ينبغي شَرْحُهُ، فانطلقا يمشيان على ساحل الْبَحْرِ، فمرت بهن سفينة، فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الْخَضِرَ، فحملوهم بغير نَوْلٍ، يقول: بغير أجر، فلما ركبوا في السفينة، لم يُفَجِّأْ مُوسَى إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاكِ السَّفِينَةِ بِالْقُدُومِ، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نَوْلٍ، عَمِدْتُ إِلَى سَفِينَتِهِمْ، فَخَرَقْتُهَا لِتَغْرُقَ أَهْلَهَا، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، أي شنيعاً من الأمور، وقال مجاهد: الإِمرُ الْمُنْكَرُ^(٢)، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ * قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ قال أَبِي بَنْ كَعْبٍ، قال النَّبِيُّ ﷺ: ﴿فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، قَالَ: وَجَاءَ عُضْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَزَبِ السَّفِينَةِ، فَتَقَرَّرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُضْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ﴾،

(١) أخرجه الطبري (٢٤٧/٨) برقم: (٢٣١٧٩)، وذكره ابن عطية (٥٢٨/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٧/٨) برقم: (٢٣٢١٨)، وذكره ابن عطية (٥٣١/٣)، وابن كثير (٩٧/٣).

١٣٠٩ وفي رواية: «وَاللَّهِ، مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ فِي جَنْبِ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَمَا أَخَذَ / هَذَا الطَّائِرُ بِمَنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ»، وفي رواية: «مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِقْدَارُ مَا عَمَسَ هَذَا الْعُضْفُورُ مَنْقَارَهُ»^(١).

قال^(٢) * ع * : وهذا التشبيه فيه تجوُّز؛ إذ لا يوجد في المخسوسات أقوى في القلّة من نقطة بالإضافة إلى البحر، فكأنها لا شيء، ولم يتعرض الخضر لتحرير موازنة بين الميثال وبين عِلْمِ اللَّهِ تعالى، إذ علمه سبحانه غير متناه، ونقطة البحر متناهية، ثم خرج من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه فقتله، فقال له موسى: أقتلت نفساً زاكية.

قال^(٣) * ع * : قيل: كان هذا الغلام لم يبلغ الحلم، فلهذا قال موسى: نفساً زاكية، وقالت فرقة: بل كان بالغاً.

وقوله: ﴿بغیر نفس﴾ يقتضي أنه لو كان عن قتل نفس، لم يكن به بأس، وهذا يدل على كبر الغلام، وإلا فلو كان لم يحتلم، لم يجب قتله بنفس ولا بغیر نفس. * ت * : وهذا إذا كان شرعهم كشرعنا، وقد يكون شرعهم أن النفس بالنفس عموماً في البالغ وغيره، وفي العمد والخطأ؛ فلا يلزم من الآية ما ذكر.

وقوله: ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ معناه: شيئاً ينكر.

قال * ع *^(٤): ونصف القرآن بعد الحروف. انتهى إلى النون من قوله: ﴿نكراً﴾.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَهَلُ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَمَكَّنْتَهُ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أُعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْكُلْتُ فكَانَ آبَاؤُهُ مُؤْمِنِينَ فَنُحِشُوا أَنْ يُرِيقُوهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرْدْنَا أَنْ يَبَدِّلَهُمَا رَحْمَةً خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا (٨١)

(١) أخرجه الحاكم (٣٦٩/٢) من حديث أبي بن كعب، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣١/٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٢/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٢/٣).

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ قال: وهذه أشد من الأولى - ﴿قال إن سألتك عن شئٍ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنّي عذراً﴾ * فأنطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض، قال: مائل، فقال الخضر بيده هكذا، فأقامه، فقال موسى: قوم أتيناهم، فلم يُطعمونا، ولم يضيفونا ﴿لو شئت لتخذت عليه أجراً﴾ قال سعيد بن جبّير: أجراً نأكله^(١) - ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾ إلى قوله: ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾، فقال رسول الله ﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقْصَ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا^(٢) قال سعيد: فكان ابن عباس يقرأ: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضْباً»، وكان يقرأ: «وَأَمَّا الْغُلَامُ [فَكَانَ كَافِرًا] وَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ»، وفي رواية للبخاري: يزعمون عن غير سعيد بن جبّير؛ أَنَّ اسم المَلِكِ: هُذُلُ بْنُ بُدَيْدٍ، والغلام المقتول اسمه يزعمون حَيْسُورُ، ويقال: حَيْسُورُ مَلِكٌ ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْباً﴾، فأردت إذا هِيَ مَرَّتْ بِهِ أَنْ يَدْعَهَا لِعَيْنِهَا^(٣)، فإذا جَاوَزُوا أَصْلَحُوهَا، فانتفعوا بها، ومنهم من يقول: سَدَّوْهَا بِقَارُورَةٍ، ومنهم من يقول بالقَارِ، كان أبواه مُؤْمِنَيْنِ، وكان كافرًا، ﴿فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكُفراً﴾ أن يحملهما حُبُّهُ على أن يتابعاه على دينه، ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة﴾ لقوله: «أَقْتَلْتُ نَفْساً زَاكِيَةً»، ﴿وَأَقْرَبَ رَحِمًا﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتله خضر، وزعم غير سعيد أنهما أبداً جارية، وأما داود بن أبي عاصم، فقال عن غير واحد: إنها جارية. انتهى لفظ البخاري.

* ت * : وقد تحرّينا/ في هذا المختصر بحمد الله التحقيق فيما علّقناه جُهد ٣٠٩ ب الاستطاعة، والله المستعان، وهو المسؤول أن ينفع به بجوده وكرمه.

قال * ع *^(٤): ويشبه أن تكون هذه القصة أيضاً أصلاً للأَجَالِ في الأحكام التي هي

(١) ذكره ابن عطية (٣/٥٣٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٤٢٠)، وعزاه لعبد بن حميد، ومسلم، وابن مردويه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٨/٢٦٢، ٢٧٧) كتاب «التفسير»، حديث (٤٧٢٥ - ٤٧٢٦ - ٤٧٢٧) من طريق سعيد بن جبّير، عن ابن عباس.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٥٣٢).

ثَلَاثَةً، وَأَيَّامِ التَّلُومِ ثَلَاثَةً، فَتَأَمَّلْهُ.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَبَاوَا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وفي الحديث: «أَنْتُهُمَا كَانَا يَمْشِيَانِ عَلَى مَجَالِسٍ أُولَئِكَ الْقَوْمُ يَسْتَطْعِمَانِهِمْ».

قال * ع ^(١): وهذه عبرة مصرحة بهوان الدنيا على الله عز وجل. * ص * :
وقوله: ﴿فِرَاقَ بَنِي﴾ الجمهور ^(٢) بإضافة «فِرَاقَ»، أبو البقاء، تفريق واصلنا، وقرأ ابن أبي
عَبْلَةَ «فِرَاقَ» بالتونين ^(٣)، أبو البقاء و«بَيْنَ»: منصوبٌ على الظرف انتهى.

قال ^(٤) * ع * : ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء
مراعى بها الزمان، وذلك أن الحادث المقدم الوجود هو الأمام، والذي يأتي بعد هو
الوراء، وتأمل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت تجدها تطرد، ومن قرأ ^(٥):
«أَمَامَهُمْ»، أراد في المكان.

قال ^(٦) * ع * : وفي الحديث، «أَنَّ هَذَا الْعَلَامَ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا»، والضمير في
«خَشِينَا» للخضير، قال الداودى: قوله: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا﴾، أي: علمنا انتهى.
«وَالزَّكَاةُ» شرف الخلق والوقار والسكينة المنظوية على خير وثية، «وَالرُّحْمُ» الرحمة، وروي
عن ابن جُرَيْج، أنهما بدلا غلاماً مسلماً ^(٧)، وروي عنه أنهما بدلا جارية، وحكى النقَّاش
أنها وَلَدَتْ هي وَذُرِّيَّتُهَا سبعين نبياً، وذكره المهدوي عن ابن عباس ^(٨)، وهذا بعيد، ولا
تُعرف كثرة الأنبياء إلا في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم، واختلف الناس في هذا
الكنز المذكور هنا، فقال ابن عباس: كان علماً في صُحُفِ مَدْفُونَةٍ ^(٩)، وقال عمر مولى
عَفْرَةَ: كان لَوْحاً من ذَهَبٍ قد كُتِبَ فيه: «عَجَباً لِلْمُوقِنِ بِالرَّزْقِ كَيْفَ يَنْعَبُ، وَعَجَباً لِلْمُوقِنِ
بِالْحِسَابِ كَيْفَ يَغْفُلُ، وَعَجَباً لِلْمُوقِنِ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَقْرَحُ»، وروي نحو هذا مما هو في

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٣/٣).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (١٤٤/٦)، و«الدر المصون» (٤٧٦/٤).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٧٤٠/٢)، و«البحر المحيط» (١٤٤/٦)، و«الدر المصون» (٤٧٦/٤).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٥/٣).

(٥) وقرأ بها ابن عباس، وابن جبير، كما في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٤/١١).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٦/٣).

(٧) أخرجه الطبري (٢٦٧/٨) برقم: (٢٣٢٥٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥٣٦/٣)، والبغوي (١٧٧/٣)،

وابن كثير (٩٨/٣).

(٨) ذكره ابن عطية (٥٣٦/٣).

(٩) أخرجه الطبري (٢٦٨/٨) برقم: (٢٣٢٥٦)، وذكره ابن عطية (٥٣٧/٣)، وابن كثير (٩٨/٣).

معناه، وقال الداوددي: ﴿كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾، عن النبي ﷺ قال: «ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ» انتهى، فإن صَحَّ هذا الحديث، فلا نظر لأحدٍ معه، فالله أعلم أي ذلك كَانَ.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ ظاهر اللفظ، والسابق منه إلى الذهن أنه والدهما دنيَّة^(١)، وقيل: هو الأب السابغ، وقيل: العاشر، فَحَفِظًا فِيهِ، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْفَظُ الرَّجُلَ الصَّالِحَ فِي ذُرِّيَّتِهِ»، وقول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، يقتضي أنه نبِيٌّ، وقد اختلف فيه، فقيل: هو نبِيٌّ، وقيل: عَبْدٌ صَالِحٌ، وليس نبِيٌّ؛ وكذلك اختلف في موته وحياته، والله أعلم بجميع ذلك، ومما يقتضي بموت الخضر قوله ﷺ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ إِلَى رَأْسِ مَائَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى مِثْنٌ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ»^(٢).

قال القرطبي في «تذكرته»: وذكر عن عمرو بن دينار: الخضر وإلياس عليهما السلام حَيَّانٍ، فإذا رفع القرآن ماتا/ قال القرطبي: وهذا هو الصحيح انتهى، وحكايات مَنْ رَأَى ١٣١٠ الخضر من الأولياء لا تحصى كثرة فلا نطيل بسردها، وانظر «لطائف المثنى» لابن عطاء الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ﴾: أي مآل، وحكى السهيلي أنه لما حان للخضر وموسى أن يفترقا، قال له الخضر: لو صَبَرْتَ، لَأَتَيْتَ عَلَى أَلْفِ عَجَبٍ، كُلُّهَا أَعْجَبُ مِمَّا رَأَيْتَ، فبكى موسى، وقال للخضر: أَوْصِنِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فقال: يا موسى، اجْعَلْ هَمَّكَ فِي مَعَادِكَ، وَلَا تَخْضُ فيما لَا يَغْنِيكَ، وَلَا تَأْمَنْ مِنَ الْخَوْفِ فِي أَمْنِكَ، وَلَا تَتَيْسَّ مِنَ الْأَمْنِ فِي خَوْفِكَ، وتَدَبَّرِ الْأُمُورَ فِي عِلَانِيَتِكَ، وَلَا تَدَّرِ الْإِحْسَانَ فِي قُدْرَتِكَ، فقال له موسى: زِدْنِي بِرَحْمَتِكَ اللَّهُ، فقال له الخضر: يا موسى، إِيَّاكَ وَاللَّجَاجَةَ، وَلَا تَمْشِ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، وَلَا تَضْحَكْ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ، وَلَا تَعِيرِ أَحَدًا، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ يَا بَنَ عِمْرَانَ. انتهى.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْيَتَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوهُنَّ عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَائِثَةً ﴿٨١﴾ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعْلُبَ ﴿٨٦﴾ وَإِنَّمَا أَنْ تَسْجُدَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٧﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّكْرًا ﴿٨٨﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا

(١) يقال: هو ابن عمي دنيَّة، إذا كان ابن عمه لُحًا.

ينظر: «السان العرب» (١٤٣٦).

(٢) تقدم تخريجه.

سِرًّا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيًّا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمُ مِن دُونِهَا سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيًّا ﴿٩٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ...﴾ الآية: «ذو القرنين»، هو المَلِكُ الإسْكَندَرُ اليونانيُّ، واختلف في وَجْه تسميته بـ «ذِي الْقَرْنَيْنِ» وأحسن ما قيل فيه: أنه كان ذا ظَفِيرَيْنِ، من شَغَرهما قرناه، والتمكين له في الأرض: أنه مَلَكُ الدنيا، ودانَتْ له الملوك كلها، وروي أن جميع من مَلَكَ الدنيا كلُّها أربعة، مُؤْمِنَانِ وكافرانِ؛ فالْمُؤْمِنَانِ: سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عليهما السلام، والإسْكَندَرُ، والكافِرَانِ: نُمْرُود، وَيُحْتَنَصِرُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾ معناه: علماً في كل أمر، وأقيسة يتوصل بها إلى معرفة الأشياء، وقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عمومٌ معناه الخصوص في كل ما يمكنه أن يعلمه ويحتاج إليه، وقوله: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾، أي: طريقاً مسلوكةً، وقرأ نافع وابن كثير^(١): وحفص عن عاصم: «فِي عَيْنِ حِمَّةٍ»، أي: ذات حَمَاة، وقرأ الباقون: «فِي عَيْنِ حَامِيَةٍ»، أي: حارّة، وذهب^(٢) الطبريُّ إلى الجمع بين الأمرين، فقال: يحتمل أن تكون العين حارّة ذات حَمَاة؛ واستدل بعض الناس على أن ذَا الْقَرْنَيْنِ نَبِيٌّ بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾، ومن قال: إنه ليس بنبيٍّ، قال كانت هذه المقالة مِنَ اللَّهِ لَهُ بِالْهَامِ.

قال * ع *^(٣): والقول بأنه نبيٌّ ضعيفٌ، و﴿إِذَا أَنْ تَعَذَّبَ﴾ معناه: بالْقَتْلِ على الكُفْرِ، و﴿وَأَمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حَسَنًا﴾، أي: إن آمنوا، وذهب الطبري^(٤) إلى أن اتخاذه الحُسْنَ هو الأَسْرُ مع كُفْرهم، ويحتمل أن يكون الاتخاذ ضَرْبَ الجزية، ولكن تقسيم ذِي الْقَرْنَيْنِ بعد هذا الأمر إلى كفر وإيمان يردُّ هذا القولُ بغَضِ الرَّدِّ، و﴿ظَلَمَ﴾؛ في هذه الآية: بمعنى كَفَّر، وقوله: ﴿عَذَابًا نُّكَرًا﴾، أي: تنكره الأوهام، لِعَظَمِهِ، وتستهوله، و﴿الْحَسَنَى﴾ يراد بها الْجَنَّةُ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيًّا﴾ المعنى: ثم سلك ذَا الْقَرْنَيْنِ الطَّرِيقَ المؤدِّيةَ إلى مَقْصِدِهِ، وكان ذَا الْقَرْنَيْنِ، على ما وقع في كُتُبِ التَّارِيخِ يَدُوسُ الأَرْضَ بالجيوشِ الثَّقَالِ،

(١) ينظر: «السبعة» (٣٩٨)، و«الحجّة» (١٦٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٤١٢/١)، و«معاني القراءات» (١٢١/٢)، و«حجّة القراءات» (٤٢٨)، و«العنوان» (١٢٤)، و«شرح الطيبة» (١٨/٥)، و«شرح شعلة» (٤٧٨)، و«إتحاف» (٢٢٣/٢).

(٢) ينظر: «الطبري» (٢٧٤/٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٩/٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٧٥/٨).

والسيرة الحميدة، والحزم المستقيظ، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة، ولا مر بمدينة إلا دلت ودخلت في طاعته، وكل من/ عارضه أو توقف عن أمره، ٣١٠ جعله عظة وآية لغيره، وله في هذا المعنى أخبار كثيرة وغرائب، محل ذكرها كتب التاريخ.

وقوله: ﴿وجدها تطلع على قوم﴾ المراد به «القوم» الزنج، قاله قتادة^(١)، وهم الهنود وما وراءهم، وقال الناس في قوله سبحانه: ﴿لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ معناه: أنهم ليس لهم بنيان، إذ لا تحتمل أرضهم البناء وإنما يدخلون من حر الشمس في أسراب، وقيل: يدخلون في ماء البحر؛ قاله الحسن^(٢) وغيره، وأكثر المفسرون في هذا المعنى، والظاهر من اللفظ أنها عبارة بليغة عن قُرب الشمس منهم، ولو كان لهم أسرابٌ تغني لكان سترًا كثيفاً.

وقوله: ﴿كذلك﴾ معناه: فَعَلَّ معهم كَفِغْلَهُ مع الأولين أهل المغرب، فأوجز بقوله: ﴿كذلك﴾.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۖ قَالُوا يَنْذَا الْقَرَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ لَنَا بَيْتًا وَيَذَرُهُمْ سَدًّا ۖ قَالُوا مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۚ﴾

وقوله: ﴿حتى إذا بلغ بين السدين...﴾ الآية: «السدان»، فيما ذكر أهل التفسير: جبلان سدًا مسالك تلك الناحية، وبين طرفي الجبلين فتح هو موضع الرُدم، وهذان الجبلان في طرف الأرض مما يلي المشرق، ويظهر من ألفاظ التواريخ؛ أنهما إلى ناحية الشمال.

وقوله تعالى: ﴿ووجد عندها قوماً﴾: قال السهيلي: هم أهل جابلص، ويقال لها بالسُريانية «جرجيسا» يسكنها قومٌ من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح.

وقوله تعالى: ﴿وجدها تطلع على قوم﴾ هم: أهل جابلق، وهم من نسل مؤمني قوم عاد الذين آمنوا بهود، ويقال لها بالسُريانية: «مَرْقِيسِيَا» ولكل واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب، بين كل بابين فرسخ، ومر بهم نبينا محمد ﷺ ليلة الإسراء، فدعاهم، فأجابوه، وآمنوا به، ودعا من ورائهم من الأمم، فلم يجيبوه في حديث طويل رواه الطبري عن مقاتل بن حيان، عن عكرمة عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، والله أعلم. انتهى،

(١) أخرجه الطبري (٢٧٧/٨) برقم: (٢٣٣١٧)، وابن عطية (٥٤٠/٣)، وابن كثير (١٠٣/٣)، والسيوطي (٤٤٨/٤)، وعزه لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٢٧٦/٨) برقم: (٢٣٣١٤) بنحوه، والبغوي (١٧٩/٣).

والله أعلم بصحته.

و«يأجوج ومأجوج»: قبيلان من بني آدم، لكنهم ينقسمون أنواعاً كثيرة، اختلف الناس في عددها، واختلف في إفسادهم الذي وصفوهم به، فقيل: أكل بني آدم، وقالت فرقة: إفسادهم: هو الظلم والعشْم وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، وهذا أظهر الأقوال، وقولهم: «فهل نجعل لك خزجاً»: استفهام على جهة حُسن الأدب، «والخزج»: المُجَبَّى، وهو الخزاج، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ^(١) «خزاجاً»، وروي في أمر يأجوج ومأجوج أن أرزاقهم هي من الثَّنين يُمَطَّرُونَ به، ونحو هذا مما لم يصح، وروي أيضاً أن الذَّكر منهم لا يَمُوت حتى يولد له ألف والأُنثى كذلك، وروي أنهم يتساقدون في الطُّرُق كالبهائم، وأخبارهم تضيق بها الصُّحف، فاختصرت ذلك؛ لعدم صحته.

* ت *: والذي يصح من ذلك كثرة عددهم على الجملة، على ما هو معلوم من حديث: «أُخْرِجَ بَعَثَ النَّارِ» وغيره من الأحاديث.

وقوله: «ما مكَّنِي/ فيه ربي خير» المعنى: قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله لي من القدرة والمُلْك خَيْرٌ من خَرَّاجِكُمْ، ولكن أعينوني بقوة الأبدان، وهذا من تأييد الله تعالى له، فإنه تهْدَى في هذه المحاوراة إلى الأنفع الأتزه، فإن القوم لو جمعوا له الخزاج الذي هو المال، لم يُعِنَّهُ منهم أحد، ولو كُلُّوه إلى البنيان، ومعوئتهم بالقوة أجمل به.

١٣١١

«أَتُونِي زَبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَيْتَ بَيْنَ الصَّادِقِينَ قَالِ أَنْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلْنَا نَارًا قَالِ مَاتُونِي أُنْفِخْ عَلَيْهِ فَنُفِّرْ» (١٦) «فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقْبَا» (١٧) «قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا» (١٨) «وَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ لَجَعَلْنَاهُمْ جَمْعًا» (١٩)

وقوله: «أتوني زبر الحديد...» الآية: قرأ حمزة ^(٢) وغيره: «أئتوني» بمعنى «جيثوني»، وقرأ نافع وغيره: «أتوني» بمعنى «أعطيني»، وهذا كله إنما هو استدعاء

(١) الثابت أن الأخوين حسب من السبعة قرأ هذا الحرف هكذا، وإنما تابع المصنف ابن عطية في ذكره عاصماً.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٤٢/٣)، و«السبعة» (٤٠٠)، و«الحجة» (١٧٤/٥)، و«إعراب القراءات» (٤١٩/١)، و«معاني القراءات» (١٢٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٢٢/٥)، و«العنوان» (١٢٤)، و«حجة القراءات» (٤٣٣)، و«شرح شعلة» (٤٨٠)، و«إنحاف» (٢٢٥ - ٢٢٦).

(٢) والمقصود أن حمزة قرأ: «أتوني» الثانية من الآية هكذا، وإلا فإن الأولى قرأها أبو بكر، عن عاصم «أتوني»، دون حمزة، فلم يقرأها هكذا.

المناولة، وإعمال القوة «والزُّبر» جمع زُبرة، وهي القطعة العظيمة منه، والمعنى: فرَصَفَه وبنَّاه ﴿حتى إذا ساوى بين الصَّدَاقَيْنِ﴾، وهما الجبلان، وقوله: ﴿قال انفخوا...﴾ إلى آخر الآية، معناه: أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزُّبر والحجارة، ثم يوقد عليها حتى تحمى ثم يؤتى بالثَّحَّاس المَذَّاب أو بالرصاص أو بالحديد؛ بحسب الخلاف في «القَطَر»، فيفرغه على تلك الطاقة المنضَّدة، فإذا التأم واشتدَّ، استأنف رَصَفَ طاقة أخرى إلى أن استوى العمل، وقال أكثر المفسرين: «القَطَر»: الثَّحَّاس المَذَّاب، ويؤيد هذا ما روي أن النبي ﷺ جاءه رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي رَأَيْتُ سَدًّا يُأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: رَأَيْتُهُ كَالْبُرْدِ الْمُخْبَرِ؛ طَرِيقَةً صَفْرَاءَ، وَطَرِيقَةً حَمْرَاءَ، وَطَرِيقَةً سَوْدَاءَ، فَقَالَ النبي ﷺ «قَدْ رَأَيْتُهُ»^(١) و﴿يظهره﴾ ومعناه: يعلونه بصُعُود فيه؛ ومنه قوله في «الموطأ»، «والشَّمْسُ في حُجْرَتِهَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ»، ﴿وما استطاعوا له نَقْبًا﴾ لبُعد عَرْضه وقوَّته، ولا سَبِيلَ سَوَى هَذَيْنِ: إما ارتقاء، وإما نَقْب، وروي أن في طُولِهِ ما بَيْنَ طَرَفَيِ الْجَبَلَيْنِ مِائَةَ فَرَسَخٍ، وفي عَرْضِهِ خَمْسِينَ فَرَسَخًا، وروي غير هذا مما لم نَقِفْ على صَحَّتِهِ، فاختصرناه، إذ لا غاية للتخْصُص؛ وقوله في الآية ﴿انفخوا﴾ يريد بالأنْكِار.

وقوله: ﴿هذا رحمة من ربي...﴾ الآية: القائل ذو القرنين، وأشار به ﴿هذا﴾ إلى الرُّذْم والقوَّة عليه، والانتفاع به، والوعدُ يحتملُ أن يريد به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد به وَفَتْ خُرُوجَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وقرأ^(٢) نافع وغيره: «دَكَّا» مصدر «دَكَ يَدُكُ»، إذا هدم ورض، وَنَاقَةً دَكَّاءَ لَا سَنَامَ لَهَا، والضمير في «تركنا» لله عزَّ وجلَّ.

وقوله: ﴿يومئذ﴾ يحتمل أن يريد به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد به يَوْمَ كَمَالِ السُّدِّ، والضميرُ في قوله: ﴿بعضهم﴾ على هذا لِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، واستعارة المَوْج لهم عبارة عن الحَيَرة، وتردُّدُ بعضهم في بَغْضٍ، كالمُؤَلَّهَيْنِ مِنْ هَمٍّ وَخَوْفٍ وَنَحْوِهِ، فَشَبَّهَهُم بِمَوْجِ الْبَحْرِ الذي يضطرب بعضه في بعض.

وقوله: ﴿ونفخ في الصور...﴾ إلى آخر الآية: يعني به يوم القيامة بلا احتمالٍ

= ينظر: «إتحاف» (٢٢٧/٢)، و«المحرر الوجيز» (٥٤٣/٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (١٧٧/٥ - ١٧٨)،

و«معاني القراءات» (١٢٦/٢)، و«شرح شُعَلَة» (٤٨٢).

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٦٢/١١).

(٢) وقرأ بها أبو عمرو، وابن عامر.

ينظر: «السبعة» (٤٠٢)، و«الحجة» (١٨٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٤٢٢/١)، و«حجة القراءات»

(٤٣٥)، و«العنوان» (١٢٥)، و«إتحاف» (٢٢٨/٢).

لغيره، ﴿وَالصُّور﴾ في قول الجمهور وظاهر الأحاديث الصَّحاح: هو القَرْن الذي يَنْفُخُ فيه إسرائيلُ للقيامة^(١).

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي هُزُوًا (١٠٦)

٣١١ ب وقوله سبحانه: ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾ معناه / أبرزناها لهم؛ لتجمعهم وتحطمهم، ثم أكد بالمصدر عبارة عن شدة الحال.

وقوله: ﴿أعينهم﴾ كناية عن البصائر، والمعنى: الذين كانت فكركهم بينها، وبين ذكري والنظر في شرعي - حجاب، وعليها غطاء ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ يريد لإعراضهم ونفارهم عن دعوة الحق، وقرأ الجمهور^(٢)، «أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا» - بكسر السين - بمعنى «أظنوا» وقرأ علي بن أبي طالب^(٣) وغيره وابن كثير، بخلاف عنه: «أَفَحَسِبُ» بسكون السين وضَمُّ الباء، بمعنى «أكافيهم ومتتهى غرضهم»، وفي مصحف ابن مسعود^(٤): «أَفَظُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» وهذه حجة لقراءة الجمهور.

وقوله: ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ قال جمهور المفسرين: يريد كل مَنْ عُدَّ من دون الله؛ كالملائكة وعزير وعيسى، والمعنى: أن الأمر ليس كما ظنوا، بل ليس لهم من ولاية هؤلاء المذكورين شيء، ولا يجدون عندهم منتفعاً و﴿أعتدنا﴾ معناه: يَسْرُنَا، و«النُّزُل» موضع النزول، و«النُّزُل» أيضاً: ما يُقدَّم للضيف أو القادم من الطعام عند نزوله، ويحتمل أن يريد بالآية هذا المعنى: أن المعدَّ لهؤلاء بدلَ النُّزُلِ جهنم، والآية تحتلُّ الوجهين، ثم قال

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٥٤٥)، و«الدر المصون» (٤/٤٨٤).

(٣) وقرأ بها ابن عباس، وابن يعمر، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، ونعيم بن مسيرة، والضحاك، ويعقوب، وابن أبي ليلى.

ينظر: «المحتسب» (٢/٣٤)، و«الكشاف» (٢/٧٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/٥٤٥)، و«البحر المحيط» (٦/١٥٧)، وزاد نسبتها إلى ابن محيصن، وأبي حيو، والشافعي، ومسعود بن صالح، وينظر: «الدر المصون» (٤/٤٨٤)، و«الشواذ» ص: (٨٥).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٢/٧٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/٥٤٥)، و«البحر المحيط» (٦/١٥٧).

تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّتُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الآية: المعنى قل لهؤلاء الكفرة؛ على جهة التوبيخ: هل نخبركم بالذين خَسِرَ عَمَلُهُمْ، وَضَلَّ سَعِيَهُمْ في الحياة الدنيا، وهم مع ذلك يظنون أنهم يحسنون فيما يصنعوه، فإذا طلبوا ذلك، فقل لهم: ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾، وعن سعد بن أبي وقاص في معنى قوله تعالى: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ قال: هُمُ عِبَادُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَأَهْلُ الصَّوَامِعِ وَالْدِّيَارَاتِ وَعَنْ عَلِيٍّ: هُمُ الْخَوَارِجُ؛ وَيُضَعَّفُ هَذَا كُلُّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾، وليس هذه الطوائف ممن يكفر بالله ولقائه، وإنما هذه صفة مشركي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَعَلِيٍّ وَسَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ذَكَرَا قَوْمًا أَخَذُوا بِحُظْمِهِمْ مِنْ صَدْرِ الْآيَةِ^(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ يريد أنهم لا حسنة لهم تُوزَنُ؛ لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ قَدْ حِطَّتْ، أَيْ: بَطَلَتْ، وَيَحْتَمِلُ الْمَجَازُ وَالِاسْتِعَارَةَ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَلَا قَدَرٌ لَهُمْ عِنْدَنَا يَوْمَئِذٍ، وَهَذَا مَعْنَى الْآيَةِ عِنْدِي، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِالْأَكُولِ الشَّرُوبِ الطَّوِيلِ فَلَا يَزُنُ جَنَاحُ بَعُوضَةٍ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾»^(٢) وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى تَرْكِ إِقَامَةِ الْوِزْنِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۖ﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾: اختلف المفسرون في «الْفِرْدَوْسِ» فقال قتادة: إنه أعلى الجنة وَرَبْوَتُهَا^(٣)، وقال أبو هريرة: إنه جَبَلٌ تَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ^(٤)، وقال أبو أمامة: إنه سُرَّةُ الْجَنَّةِ وَوَسْطُهَا^(٥)، وروى أبو سعيد الْخُدْرِيُّ، أَنَّهُ تَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ^(٦)، وروي عن النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ»^(٧).

(١) ذكره ابن عطية (٥٤٥/٣).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المشور» (٤٥٧/٤)، وعزاه إلى ابن عدي، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) أخرجه الطبري (٢٩٦/٣) برقم: (٢٣٤٠٠)، وذكره البغوي (١٨٦/٣)، وذكره ابن عطية (٥٤٦/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٢٩٧/٣) برقم: (٢٣٤٠٩)، وذكره ابن عطية (٥٤٦/٣).

(٥) ذكره ابن عطية (٥٤٦/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المشور» (٤٥٧/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه.

(٦) أخرجه الطبري (٢٩٧/٣) برقم: (٢٣٤٠٩)، وذكره ابن عطية (٥٤٦/٣).

(٧) ينظر: الحديث الآتي:

١٣١٢

* ت * : ففي «البخاري» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ / قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(١) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ «الحَوْل» بمعنى المتحوّل.

قال مجاهد: متحوّلًا^(٢)؛

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثَا مِثْلَهُ

مَدَدًا﴾

وأما قوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي...﴾ الآية: فروي أن سبب الآية أن اليهود قالت للنبي ﷺ: كَيْفَ تَزْعُمُ أَنَّكَ نَبِيُّ الْأُمَمِ كُلِّهَا وَأَنَّكَ أُعْطِيتَ مَا يَخْتَاجُهُ النَّاسُ مِنَ الْعِلْمِ، وَأَنْتَ مُقَصِّرٌ، قَدْ سُئِلْتَ عَنِ الرُّوحِ، فَلَمْ تُجِبْ فِيهِ؟، ونحو هذا من القول؛ فأنزل الله الآية مغلّمةً باتساع معلومات الله عز وجل، وأنها غير متناهية، وأن الوقوف دونها ليس ببذع، فالمعنى: لو كان البحر مداداً تكتب به معلوماته تعالى، لَنَفِدَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَوْفِيَهَا، «وكلمات ربّي» هي المعاني القائمة بالنفس، وهي المعلومات، ومعلومات الله عز وجل لا تتناهى والبحر متناهٍ ضرورة، وذكر الغزالي في آخر «المنهاج» أن المفسرين يقولون في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾، أن هذه هي الكلمات التي يقول الله عز وجل لأهل الجنة في الجنة باللطف والإكرام، مما لا تكييفه الأوهام، ولا يحيط به علم مخلوق، وحق أن يكون ذلك كذلك، وهو عطاء العزيز العليم؛ على مقتضى الفضل العظيم، والجود الكريم، ألا لِمِثْلِ هَذَا فليعمل الْعَامِلُونَ. انتهى.

وقوله: ﴿مَدَدًا﴾، أي زيادة. * ت * : وكذا فسره الهروي ولفظه: وقوله تعالى:

﴿وَلَوْ جِثَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾، أي زيادة انتهى.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

صَالِحًا وَلَا يَتَّبِعْكُمْ بَعَادَةَ رَبِّهِمْ أَحَدًا﴾

(١) أخرجه البخاري (١٤/٦) كتاب «الجهاد» باب: درجات المجاهدين في سبيل الله، حديث (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبري (٢٩٨/٣) برقم: (٢٣٤١٨)، وذكره ابن عطية (٥٤٦/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٨/٣)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: أنا بشر ينتهي علمي إلى حيث يوحى إليّ، ومما يوحى إليّ ﴿أَتُمَّا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وبإقاي الآية بين في الشرك بالله تعالى، وقال ابن جبير في تفسيرها لا يراني في عمله، وقد ورد حديث أنها نزلت في الرياء.

* ت * وروى ابن المبارك في «رقائقه»، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنه كَانَ يَصِفُ أَمْرَ الرِّيَاءِ، فيقول: مَا كَانَ مِنْ نَفْسِكَ فَرَضِيَّتُهُ نَفْسُكَ لَهَا، فَإِنَّهُ مِنْ نَفْسِكَ فَعَانِبَهَا، وَمَا كَانَ مِنْ نَفْسِكَ، فَكَرِهَتْهُ نَفْسُكَ لَهَا، فَإِنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَكَانَ أَبُو حَازِمٍ يَقُولُ ذَلِكَ^(١)، وَأَسْنَدُ ابْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: كُلُّ مَا كَرِهَهُ الْعَبْدُ فَلَيْسَ مِنْهُ^(٢)، وَخَرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بْنِ أَبِي قُضَّالَةَ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ لَلَّهِ أَحَدًا، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ»^(٣)، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقد خَرَجَ مُسْلِمٌ مَعْنَاهُ.

* ت * ومما جربته، وصحَّ من خواص هذه السورة، أن من أراد أن يستيقظ أي وقت شاء من الليل، فليقرأ عند نومه قوله سبحانه: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ...﴾ إلى آخر السورة، فإنه يستيقظ بإذن الله في الوقت الذي ٣١٢ ب نَوَاهُ، وَلَتَكُنْ قِرَاءَتُهُ عِنْدَ آخِرِ مَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ النُّعَاسُ؛ بِحَيْثُ لَا يَتَجَدَّدُ لَهُ عَقَبُ الْقِرَاءَةِ خَوَاطِرٌ، هَذَا مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ، وَهُوَ مِنْ عَجَائِبِ الْقُرْآنِ الْمَقْطُوعِ بِهَا، وَاللَّهُ الْمُوفِّقُ بِفَضْلِهِ.

تنبيه: رَوَيْنَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُؤَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»^(٤)، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ هَذِهِ السَّاعَةَ، فَاقْرَأْ عِنْدَ نَوْمِكَ مِنْ قَوْلِهِ

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٢٨٧) برقم: (٨٣١).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٢٨٧) برقم: (٨٣٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٤/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الكهف، حديث (٣١٥٤)، وابن ماجه (١٤٠٦/٢) كتاب «الزهد» باب: الرياء والسمعة، حديث (٤٢٠٣)، وأحمد (٤٦٦/٣)، وابن حبان (٢٤٩٩ - موارد)، والدولابي في «الكنى» (٣٥/١)، والطبراني في «الكبير» (٣٠٧/٢٢) برقم: (٧٧٨). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وصححه ابن حبان.

(٤) أخرجه مسلم (٨٤/٣ - الأبي) كتاب «صلاة المسافرين» باب: في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، حديث (١٦٦ - ١٧٦/٧٥٧) من حديث جابر، وأخرجه أحمد (٣/٣١٣).

تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ إلى آخر السورة، فإنك تستيقظ في تلك الساعة - إن شاء الله تعالى - بفضلته، ويتكرر تيقظك، ومهما استيقظت، فاذع لي ولك، وهذا مما ألهمني الله سبحانه، فاستفذه، وما كتبت إلا بَعْدَ استخارة، وإياك أن تدعوا هنا على مُسلم، ولو كان ظالماً، فإن خالفتني، فالله حسيبك وبين يديه أكون خصيمك، وأنا أرغب إليك أن تشركني في دعائك، إذ أفتك هذه الفائدة العظيمة وكنت شيخك فيها، وللقرآن العظيم أسراراً يُطلع الله عليها من يشاء من أوليائه، جعلنا الله منهم بفضلته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

تم بحمد الله وحسن توفيقه

الجزء الثالث من تفسير الثعالبي

ويليه الجزء الرابع وأوله :

سورة مريم

والله الحمد والمنة

محتوى الجزء الثالث من تفسير الثعالبي

٥	الأعراف
١١٢	الأنفال
١٦١	التوبة
٢٣٣	يونس
٢٧١	هود
٣١٠	يوسف
٣٥٨	الرعد
٣٧٤	إبراهيم
٣٩٣	الحجر
٤١٠	النحل
٤٤٩	الإسراء
٥٠٥	الكهف

طَبَعَ عَلَى مَطَابَعِ
وَلَا زِلْ عِيَّانَ الشَّرَاحِ الْعَرَبِيِّ